الجُمهُورِيَة الجَزائِرِيَة الدِيمقراطِيَة الشَعبِيَة

رِئاسَة الجُمهُورِيَة

المَجلِس الأعلَى لِلُغَة العَرَبِيَة

قَوارِبُ تَرجمِيّة مِن المجلّة الأفريقِيّة

مقالات مترجمة من الفرنسيّة إلى اللّغة العربيّة

الجزء الأوّل



إعداد: لجنة التّرجمة

بإشراف: الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد

رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

منشورات المجلس 2026

قَوارِبُ تَرجمِيّة مِن المجلّة الأفريقِيّة

1











شارع فرانكلين روزفلت الجزائر ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

+213 23 48 72 79/+213 697 85 47 75

+213 23 48 72 62

www.hcla.dz

المجلس الأعلى للّغة العربية

mobilis موبيليس

معاً، نصنع المستقبل

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
رئاسة الجمهورية
المجلس الأعلى للغة العربية
لجنة الترجمة

قَوارِبُ تَرجِميّة مِن المجلّة الأفريقيّة

مقالات مترجمة من الفرنسيّة إلى اللّغة العربيّة

الجزء الأوّل

إعداد: لجنة التّرجمة
بإشراف: الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد
رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

منشورات المجلس 2026

كتاب: قوارب ترجمية من المجلّة الأفريقيّة
إعداد: لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة
قياس الصّفحة: 29.7/21
عدد الصّفحات: 264
الإيداع القانوني: الثّلاثي الثّاني 2026
ردمك: 978-9931-298-45-8

المجلس الأعلى للّغة العربيّة

العنوان: 52، شارع فرنكلين روزفلت
ص.ب 575، ديدوش مراد، الجزائر.
الهاتف: 023.48.72.78
النّاسوخ: 023.48.72.62
الموقع الإلكترونيّ: https://www.hcla.dz

للاطّلاع على كامل مجلّدات المجلّة الأفريقيّة؛ امسح الرّمز أعلاه

الفهرس

الموضوع	الصّفحة
كلمة السّيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة	5
كلمة السّيد رئيس لجنة التّرجمة	7
أوراق الجنرال (Valazé/ڤالازيه) المتعلّقة بغزو الجزائر. لـ: ج. جاكيتون ترجمة ودراسة: د. هارون عيساوي عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	11
بارتاس، الاسم الأقدم للجزائر. لـ: هـ. توسيّيه - أ. باربريگر ترجمة ودراسة: د. كبير بن عيسى مقرّر لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	33
متّيجة من العصور القديمة حتى سنة 1830. لـ: ج. فرانك ترجمة ودراسة: د. هارون عيساوي عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	55
الحاج موسى (صاحب الحمار) والأمير عبد القادر، في عام 1835. لـ: أ. باربريگر ترجمة ودراسة: أ.د. حبيب مونسي عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	65
البطّاريّة الأندلسيّة بمدينة الجزائر لـ: ألبير دوڤو ترجمة ودراسة: د. هارون عيساوي عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	79
بدايات الإدارة المدنيّة في الجزائر. لـ: ج. إيسكير ترجمة ودراسة: أ. محمّد أمين بوراس عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	85
العربيّة المعاصرة لغةً للحضارة. لـ: جان لوسيرف ترجمة ودراسة: د. كبير بن عيسى مقرّر لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	119
اللّهجة العربيّة في منطقة إيدوغ. لـ: پ. مانجيون ترجمة ودراسة: أ. د. نوار عبيدي رئيس لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	147

ملاحظات حول أصل واستعمال كلمة (TELLĪS/تلّيس). لـ: محمّد بن شنب ترجمة ودراسة: أ.د. ميلود خلف الله عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	159
نظامٌ صوتيٌّ وإملائيٌّ لنقلِ الحروفِ العربيّة. لـ: ل. ج. بريسنير ترجمة ودراسة: أ.د. سعاد بسناسي عضوة لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	171
الخريطة اللّغوية للّهجات العربيّة الجزائريّة. لـ: ج. كانتينو ترجمة ودراسة: أ. د. نوار عبيدي رئيس لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	185
أسطورة بنت الخصّ. لـ: رونيه باسيه ترجمة ودراسة: أ.د. حبيب مونسي عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	191
حكاية شعريّة لرحلة إلى الجزائر. لـ: بروسبير فيرو ترجمة ودراسة: أ. نور الدّين شرف الدّين عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	215
الشّعر الشّعبي السّياسي في عهد الأمير عبد القادر. لـ: أ. كور. ترجمة وتعريب: أ.د. حبيب مونسي عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	223
توديع شهر رمضان. لـ: سعد الدّين بن شنب ترجمة ودراسة: أ. تسعديت حواسين عضوة لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة	255

كلمة السّيّد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

تصدير:

إنَّ استنطاق الذّاكرة الوطنيّة واسترداد السّجل التّاريخيّ للأمّة ليس ترفاً معرفيّاً عابراً، ولا ضرباً من ضروب الفضول الأكاديميّ، بل هو استراتيجيّة سياديّة ملحّة، واشتباك حضاريّ واعٍ مع وثائق التّاريخ بكلّ تجاذباته ومنعطفاته. وفي قلب هذا المسعى النّبيل، يمثّل مشروع (قوارب ترجميّة من المجلّة الأفريقيّة) الذي يضطلع به المجلس الأعلى للّغة العربيّة لبنة راسخة في صرح الوعي الجماعيّ، وجسراً منيعاً يربط الأجيال النّاشئة بجذورها العميقة، متيقّنين بأنّ الامّة التي تعي تاريخها وتدرك تفاصيل معارك الذّاكرة، هي وحدها القادرة على صناعة مستقبلها والذّود عن سيادتها وهويّتها الرّاسخة.

لقد ظلّ ت دروب الذّاكرة المعرفيّة معبّدة بالكثير من التّحدّيات والعقبات، ولا سيّما تلك الأرصدة الوثائقيّة الضّخمة، والكتابات النّقديّة والتّاريخيّة المبثوثة في ثنايا الدّوريات الأجنبيّة بغثّها وسمينها، وفي طليعتها (Revue Africaine/المجلّة الأفريقيّة) التي رافقت الحقبة الاستعماريّة قرابة قرن ونيّف، ناشرة آلاف المقالات والأبحاث التي نادرا ما يماط عنها اللّثام. وهذه المبادرة المباركة التي تطلقها لجنة التّرجمة بالمجلس، ونحن نحتفي باليوم العالمي للتّرجمة تحت شعار: حين تترجم الآلة... من يحمي المعنى؟، لتعكس وعياً استثنائيّاً بدقّة الرّسالة اللّغوية والفكريّة في عصر تحاول فيه التّقنيّات المجرّدة طمس الأبعاد الإنسانيّة. فالتّرجمة الحقّة ليست نقلاً جامداً للألفاظ، بل هي حراسة واعية للمعنى، واستنطاق أمين للمقاصد في سياقاتها المختلفة والمعقّدة بما فيها تلك المتصلّة بالحقبة الكولونياليّة، حتى نضع القارئ الجزائري والعربي وجهاً لوجه أمام مرآة الفكر الاستعماري لكشف خلفيّاته، وأمام صلابة الهويّة الجزائريّة وهي تقاوم بكلّ شراسة أساليب الطّمس والتّشويه.

إنّ هذا الإصدار الأوّل الذي يتشرّف بالصّدور متزامناً مع النّفحات الخالدّة للذّكرى الثّانية والسّبعين (72) لاندلاع ثورة أوّل نوفمبر المجيدة، تلك الثّورة العملاق التي غيّرت وجه التّاريخ وأسقطت أساطير الهيمنة، لَيفسح المجال الواسع أمام الباحثين والقرّاء وطلبة العلم لولوج عوالم مذهلة من التّوثيق العلميّ الدّقيق طال حجبها. وهو سِفر يطوف بنا بدءاً بتفاصيل الإنزال الفرنسي المشؤوم في (سيدي فرج) سنة 1830 من خلال مذكّرات أحد أبرز المشرفين عليه وشهادة أحد الأسرى الفرنسيّين فيه مروراً بسير المقاومة الحقّة والجهاد الصّوفي المتأصّل في الوجدان كحركة الشّريف الحاج موسى بن الحسن الدّرقاوي الملقّب بـ (صاحب الحمار) ونضالاته ضدّ التّوغّل الفرنسي واشتباكاته مع الأمير عبد القادر، وصولاً إلى النّقاشات الفكريّة حول أقدم تسمية للعاصمة الجزائريّة بين (TAUXIER/توسيّيه) و(BERBRUGGER/باربريگر)، وإضاءات تاريخيّة وعمرانيّة كالحديث عن البطّاريّة الأندلسيّة بهذه المدينة.

ولا يتوقّف هذا الأفق عند حدود السّياسة والتّاريخ العسكريّ، بل يمتدّ ليشمل العمق اللّسانيّ والثّقافي والأنثروبولوجيّ؛ فنقرأ دراسات رصينة حول اللّهجات الجزائريّة لـ(CANTINEAU/كانتينو) و(MANGION/مانجيون) في رسم الخرائط اللّغوية وتمهيد الطّريق نحو إنجاز الأطلس اللّغوي الجزائريّ المنشود، ودراسة فيلولوجيّة مقارنة للفظ (تلّيس) بقلم محمّد بن شنب، إضافة إلى النّظام الصّوتيّ

والإملائيّ المقترح من المستعرب الفرنسي (Louis Jacques Bresnier/لويس جاك بريسنييه) لنقل الحرف العربيّ، إلى جانب الدّراسة الاستشرافيّة عن مستقبل اللّغة العربيّة في المشرق لـ(LECERF/لوسيرف). كما يلامس هذا السّفر أرواح الجزائريّين وتاريخهم الزّاخر بالمآثر وتقاليدهم الرّوحيّة عبر النّصوص الأدبيّة الماتعة، من خلال أسطورة بنت الخصّ لـ(BASSET/باسيه)، وتوثيق سعد الدّين بن شنب لطقوس توديع شهر رمضان المعظّم، واستمرار الابتهالات الصوفيّة عبر المآذن رغم وطأة الاستعمار، والتّحفة الشعريّة التي سرد فيها (بروسبير فيرو) تفاصيل رحلته إلى أرض الجزائر.

يدخل هذا العمل التّرجمي في مهامّ المجلس الأعلى للّغة العربيّة، ونرى لجنة التّرجمة تترجم بعض المقالات من قلب الحدث، وقد وقع الاختيار على عدد من النّصوص، وسوف تواصل ترجمة مقالات أخرى لنقرّب المقالات إلى اللّغة المشتركة، لغتنا الجامعة التي نعمل على أن تنال موقعها العلمي لدى كلّ النّاشئة. وهذا عهد المجلس في العمل على ازدهار اللّغة العربيّة والتّرجمة منها وإليها.

وإذ نضع هذا السّفر النّفيس بين أيدي النّخبة والباحثين، فإنّنا نجدّد العهد على مواصلة المسير بثبات في خدمة لغة الضّاد، وتبيئة العلوم والمعارف، والكشف عن كلّ كنز معرفيّ يخدم تراب هذا الوطن المفدَّى، ويثري مكتبته الوطنيّة والقوميّة. والشّكر موصول وعميق لكافّة أعضاء لجنة التّرجمة وكلّ من سهر على إخراج هذا العمل إلى النّور بجهد مضنٍ وإخلاص مشكور، متمنّين للقارئ الكريم رحلة ماتعة ومتبصّرة في رحاب الذّاكرة والتّاريخ والهويّة.

تحيا الجزائر... والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار.

أ.د. صالح بلعيد

رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

كلمة السّيّد رئيس لجنة التّرجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير:

يمثّل هذا المشروع العلمي التّوثيقي (قوارب ترجميّة من المجلّة الأفريقيّة) الذي يشرف عليها المجلس الأعلى للّغة العربيّة ؛ خطوة جريئة في مسار استرداد الذّاكرة التّاريخيّة الوطنيّة، وإتاحة الرّصيد المكتوب عن الجزائر - إبّان الحقبة الاستعماريّة - للباحثين والأجيال القادمة. فلقد ظلّ ت كتابات ودراسات نقديّة وتاريخيّة عديدة - نشرت في دوريات أجنبيّة - حبيسة الأدراج تحت رحمة الغبار، ومن بين تلك المجلّات: **المجلّة الأفريقيّة (Revue Africaine)** الصادرة في الجزائر منذ بدايات الاحتلال الغاشم، والتي أشرفت عليها (الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة/1856-1962) حيث نشرت زهاء 1968 مقالا في شكل أبحاث ودراسات علميّة ومناظرات وأوراق إعلاميّة في (106) مجلّدا، وبالرّغم من وجود بعض المحاولات اليتيمة لإخراج تلك الأعمال للنّور بترجمتها أو نشرها بنصّها الأصلي؛ إلّا أنّ كثيرا منها أو أغلبها لم يُرفع عنها الحجب ليستفيد منها القارئ الجزائري على الخصوص والعربي على العموم، حتى يكتشف جانبا من الفكر الكولونيالي.

من بين أهمّ تلك المحاولات ذلك الكتاب القيّم الذي أنجزه الأستاذ الدّكتور محمد يحياتن بعنوان: دراسات حول اللّغة العربيّة في الجزائر خلال الفترة الاستعماريّة، والذي اعتنى بنشره المجلس الأعلى للّغة العربيّة سنة 2004، وقد تناول الكتاب بالتّرجمة دراستين كبيرتين نشرتا في المجلّة الأفريقيّة، الأولى بعنوان: (ملاحظات حول تدريس اللّغة العربيّة في الجزائر وقسنطينة ووهران (1832-1879)) لصاحبها (أوگست كور)، نشرت في المجلّة الأفريقيّة عدد 65، 1924، والثّانية بعنوان: (الدّراسات العربيّة في الجزائر (1830-1930)) لصاحبها (هنري ماسييه) والدّراستان في غاية الأهمّية من حيث المادّة العلميّة والمنهج والبحث.

من أجل ذلك بادرت لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة بمواصلة هذا الجهد الشّريف بترجمة مجموعة من المقالات وإن كانت قليلة - لتقديمها نماذج للقارئ الجزائري والعربي، والحثّ على الاستفادة من أبحاثها ودراساتها التي أنجزها مستشرقون ومؤرّخون ورجال دين ذوي توجّهات فكريّة وإيديولوجيّة متنوّعة. فضلا على الأهمّية للعلميّة لتلك الدّراسات...

وتأتي مبادرة لجنة التّرجمة تكملة لنشاطات المجلس الأعلى للّغة العربيّة الذي أولى - ويولي - للمجلّة الأفريقيّة اهتماما وعناية خاصّة، تمثّلت -مؤخّرا- في صناعة كشّاف تفصيلي لمقالات المجلّة، حيث تمّ رصد كلّ مضامينها وتوزيعها على سبع مجالات وهي: التّاريخ، والتّراجم والسّير، والوثائق والمخطوطات، والآثار والإثنوغرافيا، واللّسانيّات، والآداب والفنون. وتحت كلّ مجال مجالات فرعيّة أخرى من شأنها أن تساعد الباحث على الوصول السّريع إلى مبتغاه ليجد بيُسر تامّ كلّ المقالات التي يحتاجها مع اسم المؤلّف، ورقم المجلّد، والعدد، والصّفحات، وسنة النّشر.

ويصدر هذا العدد بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الموسوم: **حين تترجم الآلة... من يحمي المعنى؟** والذي ينظّمه المجلس الأعلى للّغة العربيّة احتفاء باليوم العالمي للتّرجمة (30 سبتمبر)، كما يصادف صدور هذا العدد الأوّل من إصدارات لجنة التّرجمة؛ الاستعدادات الكبرى للاحتفال بالذّكرى الثّانية والسّبعين لاندلاع الثّورة التّحررية الجزائريّة المباركة، حيث سيفتح هذا الإصدار الأوّل بمقالين تاريخيّين مهمّين تناولا جانبا من أحداث الإنزال الفرنسي في (سيدي فرج) سنة 1830م، المقال الأوّل بعنوان: (أوراق الجنرال (ڤالازيه) المتعلّقة بغزو الجزائر. لـ: فريديريك لاكروا)، **وهي مذكّرات** لأحد كبار ضبّاط الهندسة في جيش الحملة الفرنسيّة على الجزائر سجّل فيها أهمّ الأحداث التي وقعت من تاريخ الإبحار من ميناء (تولون)/Toulon) في 18 ماي 1830 إلى غاية الإنزال في (سيدي فرج). وتصف المذكّرات بدقّة حركة الأسطول منذ 19 ماي، وما صاحبها من اجتماعات وأوامر وترتيبات عسكريّة. ومن أبرز جوانب هذه المذكّرات أنّها تسجّل انتقادات صريحة لقيادة الأميرال، كما تتضمّن جانبا من استعدادات الجزائريّين للدّفاع عن البلاد.

ومن المقالات التّاريخيّة المهمّة مقال بعنوان: (بارتاس الاسم الأقدم للجزائر) الذي يسجّل سِجالا علميًّا بين الباحثين (توسيّيه) و(باربريگر) بشأن أقدم اسم لمدينة الجزائر قبل العصر الرّوماني. في المجال نفسه يتناول (باربريگر) في مقال (الحاج موسى، أو صاحب الحمار والأمير عبد القادر، في عام 1835) سيرة الشّريف الحاج موسى بن الحسن الدّرقاوي المعروف بـ(صاحب الحمار) الذي قَدِمَ من مصر وعاش زاهداً قبل أن يقود حركة جهاديّة صوفيّة في التّيطري والصّحراء الجزائريّة. ويتحدّث المقال أيضا عن النّزاع السياسي والعسكري الذي نشب بينه وبين الأمير عبد القادر سنة 1835، كما يصف المقال تفاصيل معركة جبل (وامري/عمورة) وحسمها لصالح الأمير، ثم تتبّع مسار الحاج موسى وانتقاله إلى الأغواط ومسعد، وصولاً إلى استشهاده في حصار الزّعاطشة الشّهير عام 1849م إلى جانب الشّيخ بوزيّان.

وفي مجال اللّغة والأدب سنقرأ مقالات في اللّسانيّات التّطبيقية منها مقال بعنوان (نظامٌ صوتيٌّ وإملائيٌّ لنقلِ الحروفِ العربيّة) لـ: لويس جاك بريسنير، تناول فيه صاحبه مسألة نظام النّقل الحرفي للّغة العربيّة بالحروف اللّاتينية للفرنسيّين، وينتقد المقال الأنظمة الأوروبيّة المعقدة (كأنظمة فولني وفايرز) لإفراطها في العلامات الخاصّة واستهدافها إبدال الأبجدية العربيّة. ويقترح النّظام بديلًا عمليًا يعتمد المماثلة الصّوتية مع الفرنسيّة والنّطق الجزائري المحلي، وقد اعتمدته (المجلّة الأفريقيّة) والجمعيّة التّاريخيّة منهجًا موحدًا لمنشوراتها لتسهيل القراءة وتوحيد الرّسم الإداري .

ومن الأبحاث الخاصّة باللّغة العربيّة في الجزائر ولهجاتها؛ سنقرأ ثلاثة أبحاث مهمّة؛ الأوّل بعنوان: (الدّارجة العربيّة في منطقة إيدوغ (عنّابة)) لـ: (م. مانجيون)، والثّاني بعنوان: (الخريطة اللّغوية للّهجات العربيّة الجزائريّة) لـ : (ج. كانتينو)، وكلا البحثين يؤكّدان إمكانيّة صناعة أطلس لغوي للّهجات الجزائر وهو من أهمّ المشاريع الحالية للمجلس الأعلى للّغة العربيّة. وأمّا البحث الثّالث: (أصل واستعمال كلمة تلّيس) لـ: محمد بن شنب، فيتناول دراسة فيلولوجيّة مقارنة للفظ (تَلِّيس)، متتبّعا مساره التّاريخي وتطوّره

الدّلالي من الجاهليّة والعصر العبّاسي إلى اللّهجات المغاربيّة المعاصرة (في الجزائر وتونس) ويؤكّد هذا البحث عناية المجلّة الأفريقيّة بالدّراسات اللّسانية فيما تعلّق بالمعجم أو الدّلالة وتطوّرها.

ومن النّصوص الأدبيّة الماتعة سنقرأ مقالا بعنوان: (حكاية شعريّة عن رحلة في الجزائر) وهو عبارة عن عرض لكتاب (سائح في الجزائر) ألّفه (بروسبير فيرو/1845م)، وهو عبارة عن سرد شعري طويل يتجاوز 6000 بيت لرحلة قام بها الشّاعر من مرسيليا إلى مدن جزائريّة كالجزائر وقسنطينة وعنّابة ويكتسب هذا النّص قيمة أدبيّة وسياحيّة وتاريخيّة كبيرة، حيث يمتزج مع أدب الرّحلة ليصف الجزائر في أبهى صورها في القرن التّاسع عشر.

هناك مقالات أخرى وجميلة في هذا العدد لا يمكن عرضها كلّها (البطّاريّة الأندلسيّة بمدينة الجزائر). لـ : ألبير دوفو، (العربيّة المعاصرة لغةً للحضارة). لـ: جان لوسيرف، (أسطورة بنت الخصّ). لـ: رونيه باسيه، لكن أودّ أن أختم بعرض هذا المقال الجميل الذي جاء بعنوان: (توديع شهر رمضان). لـ: سعد الدّين بن شنب؛ تناول فيه صاحبه طقوس توديع شهر رمضان في الجزائر العاصمة، موثّقاً تمسك الجزائريّين بهويّتهم الدّينية بالرّغم من مضايقات الاستعمار الفرنسي. ويُشيد المقال بتلك القصائد الصوفيّة الجميلة في توديع شهر رمضان المعظّم خاصّة عندما تُبَثُّ من أعالي المآذن، وتكمن أهمّية الوثيقة في جمعها بين البعد الدّيني والأدبي، والتّوثيق التّاريخي لشعيرة مهمّة في حياة المجتمع الجزائري.

تحيّة تقدير وإجلال للپروفيسور صالح بلعيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة على دعمه لهذا المشروع حتى وصل إلى هذه النّهاية المشرقة، وتحيّة تقدير وعرفان لكافّة أعضاء لجنة التّرجمة - كلّ باسمه ووسمه - على إيمانهم بهذه الفكرة، واجتهادهم في ترجمة هذه المقالات، ودراستها وتحليلها، فلكم منّا كلّ التّحايا الصّادقة. وقراءة ماتعة للجميع في انتظار عدد قادم من (قوارب ترجميّة من المجلّة الأفريقيّة)..

الأستاذ الدّكتور نوار عبيدي

رئيس لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

25 أوت 2026

أوراق الجنرال (Valazé/ڤالازيه) المتعلّقة بغزو الجزائر[1]

PAPIERS DU GÉNÉRAL VALAZÉ RELATIFS A LA CONQUÈTE D'ALGER

(G. Jaqueton/ج. جاكيتون)

ترجمة ودراسة: د. هارون عيساوي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

يتمّثل النّص الذي بين أيدينا في مذكّرات يوميّة دوّنها الجنرال (ڤالازيه)[2] ، أحد كبار ضبّاط الهندسة في جيش الحملة الفرنسيّة على الجزائر خلال الفترة الممتدّة من الاستعداد للإبحار من (Toulon/تولون) في 18 ماي 1830 إلى العودة في جويلية من العام نفسه.

والوثيقة ترصد لنا مراحل الحملة منذ التحرّك البحري، مرورًا بالصّعوبات التي اعترضت الأسطول ثمّ الاقتراب من السّواحل الجزائريّة، وأخيرًا إنزال القوّات في (سيدي فرج). تبدأ المذكّرات بوصف الاستعدادات في ميناء (تولون)، ولاسيما تجهيز سفن الإنزال المسمّاة (bœufs-bateaux)، ثمّ ترصد حركة الأسطول منذ 19 ماي، وما صاحبها من اجتماعات وأوامر وترتيبات عسكريّة.

ويولي (ڤالازيه) أهمّية كبيرة لأحوال الطّقس والرّياح والبحر، لأنّ نجاح عمليّة الإبحار والإنزال كان مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا. وتكشف المذكّرات عن الصّعوبات التي واجهها الأسطول منذ البداية؛ فقد أدّت الرّياح المعاكسة والعواصف إلى تأخير الحركة وتشتّت بعض السّفن، واضطرّ الأسطول إلى تغيير اتّجاهه واللّجوء إلى خليج (بالما) لإعادة التّجمع. كما يتكرّر في المذكّرات الحديث عن فقدان الاتّصال بين أجزاء الأسطول وعدم وضوح مكان بعض السّفن، الأمر الذي أثار استياء (ڤالازيه) وعدد من الضبّاط.

ومن أبرز جوانب هذه المذكّرات أنّها تسجّل انتقادات صريحة لقيادة الأميرال. فـ (ڤالازيه) يرى أنّ التردّد في اتّخاذ القرار، والمبالغة في بعض الصّعوبات، وعدم استثمار الظّروف الجوّية المناسبة، كلّها عوامل أخّرت عمليّة الإنزال. ويصف الوضع داخل الأسطول بأنّه يتّسم بالغموض والضّعف، وينتقد أيضًا إبعاد بعض الضبّاط الأكفاء عن دائرة القرار.

وتتضمّن المذكّرات كذلك معلومات مهمّة عن استعدادات الجزائريّين للدّفاع عن البلاد. فهي تشير استنادًا إلى التّقارير التي وصلت إلى القيادة الفرنسيّة، إلى وصول قوّات من وهران وقسنطينة، وإلى وجود معسكرات ومواقع دفاعيّة ومدفعيّة حول الجزائر و(سيدي فرج). كما تذكر تقارير عن تحصينات المدينة وبطّاريّاتها وعن القوّات التي استدعاها الدّاي.

1- هذه المذكرات مأخوذة من المجلّد الرّابع من مجموعة نصوص تتعلّق بمدينة الجزائر جمعها المؤرّخ (فريديريك لاكروا). وضمّن هذا المقال مذكرات للجنرال (ڤالازيه) مدوّنة بخطّ يده، يتحدّث فيها عن مسار الحملة العسكريّة، من بداية الإبحار إلى غاية الاقتراب من السّواحل الجزائريّة، بين 18 ماي و21 جويلية 1830.

2- نشرت المذكّرات في المجلّة الأفريقيّة، مجلّد 36، العدد 205، الفصل الثّاني، سنة 1892، ص129.

وفي 13 جوان تصل الحملة إلى سواحل الجزائر، ويصف (ڤالازيه) مشاهدته لمدينة الجزائر ومحيطها، ثمّ وصول الأسطول إلى خليج (سيدي فرج). ويقدّم وصفًا للطّبيعة والتّضاريس والتّحصينات والبطّاريّات العسكريّة، كما يسجّل مشاهدته للفرسان والمخيّمات والأعمال الدّفاعيّة الجارية على الأرض.

أمّا في 14 جوان 1830، فتبدأ عمليّة الإنزال في (سيدي فرج). ويصف (ڤالازيه) عمليّة النّزول إلى البرّ، ثمّ الاشتباك مع البطّاريّات الجزائريّة التي فتحت نيرانها على القوّات الفرنسيّة. ويشير إلى مقاومة البطّاريّات ثمّ إخلائها بعد حركة التفاف قامت بها القوّات الفرنسيّة. كما يسجّل الخسائر التي أوقعها القصف في القوّات الفرنسيّة، وصعوبة إيصال المدفعيّة إلى مواقع القوّات المتقدّمة.

وتنتهي المذكّرات بعودة (ڤالازيه) إلى (تولون)، حيث يستعيد بعض تفاصيل الحملة وينقل أحاديث تكشف استمرار الخلافات حول الحملة حتى داخل الأوساط الفرنسيّة. كما تكشف الأوراق الملحقة بالمذكّرات عن قوائم ضبّاط الهندسة، ومصاريف وحداتها، وتوزيع العتاد على سفن الأسطول.

أهمّية الوثيقة في التّاريخ الجزائري:

تكتسي هذه الوثيقة أهمّية خاصّة في دراسة الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830، لأنّها لا تنقل أحداث الحملة من خلال رواية لاحقة، وإنّما تقدّم شهادة معاصرة كتبها أحد المشاركين فيها أثناء وقوع الأحداث نفسها. فالوثيقة عبارة عن مذكّرات يوميّة دوّنها الجنرال (ڤالازيه) بخطّ يده، وهي تغطّي مرحلة حسّاسة من الحملة، تبدأ من الإعداد للإبحار وتنتهي بعمليّة الإنزال في (سيدي فرج) ثمّ العودة إلى فرنسا.

وتتضاعف قيمتها لأنّها صادرة عن ضابط رفيع من سلاح الهندسة كان مشاركًا بصورة مباشرة في العمليّات والتّحضيرات المتعلّقة بالإنزال. لذلك فإنّ اهتمامه لا ينصبّ على الأحداث السّياسية والعسكريّة العامّة فحسب، بل يشمل أيضًا تفاصيل دقيقة تتعلّق بالسّفن، والعتاد، والتّحصينات، والبطّاريّات والتّضاريس، وطرق الإنزال، وتوزيع وحدات الهندسة. وتؤكّد الأوراق الملحقة بالمذكّرة هذا الجانب التّقني إذ تضمّ قوائم الضبّاط والمصاريف وتوزيع المعدّات الهندسيّة على سفن الأسطول.

ومن أهمّ ما تمنحه الوثيقة للمؤرّخ أنّها تتيح النّظر إلى الحملة الفرنسيّة من داخل جهازها العسكري نفسه. فهي لا تكتفي بتسجيل تحرّك الأسطول، وإنّما تكشف عن مشكلات التّنسيق والاتّصال، وتأخّر القرارات، وتضارب وجهات النّظر بين كبار القادة، ونقص وسائل الإنزال، والقلق من الأمراض والإرهاق الذي أصاب الجنود بعد طول بقائهم في السّفن. ومن ثمّ فهي تساعد على فهم الظّروف الفعليّة التي أحاطت بالعمليّة العسكريّة، بعيدًا عن الصّورة المبسّطة التي قد تقدّمها الرّوايات الرّسمية اللّاحقة.

كما أن للوثيقة قيمة خاصّة في دراسة الجانب الاستخباراتي والاستطلاعي للحملة؛ إذ تكشف عن اعتماد القيادة الفرنسيّة على تقارير القادمين من الجزائر وتونس، وعلى معلومات القناصل والعملاء وعلى الخرائط والرّسوم السّابقة، فضلاً عن المعلومات المتعلّقة بالقوّات الجزائريّة والتّحصينات والبطّاريّات. ويظهر ذلك بوضوح في استناد (ڤالازيه) إلى تقارير عدد من الأشخاص وإلى رسم (بوتان) لشبه جزيرة (سيدي فرج).

وأهمّ ما يميّز الوثيقة:

1 - أنّها شهادة شخصيّة مباشرة. فهي ليست تقريرًا إداريًا جافًا، بل يوميّات شخصيّة؛ ولذلك نجد فيها مشاعر صاحبها وانطباعاته وأحكامه على الأشخاص والأحداث، بل وحتى حديثه عن مرضه ودوار البحر وإرهاقه. وهذا يمنحها قيمة كبيرة لدراسة الجانب الإنساني والنّفسي للحملة.

2 - كشفت الوثيقة عن صراحة صاحبها في نقد القيادة الفرنسيّة. كما فعل مع الأميرال الذي اتّهمه بالتردّد وخلق الصّعوبات.

3 - غناها بالمعلومات العسكريّة والتّقنية. فالوثيقة تسجّل تشكيلات الأسطول، وسفن النّقل وقوارب الإنزال، والمدفعيّة، والتّحصينات، وأعمال الهندسة، كما تصف عمليّة الإنزال نفسها وصفًا ميدانيًا دقيقًا نسبيًا. وهذه المادّة ذات أهمّية كبيرة لدراسة الجانب العسكري للحملة.

4 - وصفها مدينة الجزائر قبل الإنزال؛ إذ تقدّم صورة واضحة عن المدينة والسّاحل و(سيدي فرج) والمرتفعات والبطّاريّات والمعسكرات والفرسان، إضافة إلى معلومات عن القوّات التي استدعاها الدّاي. لذا يمكن الإفادة منها في دراسة المشهد العسكري والجغرافي للجزائر عشيّة الغزو.

5 - النّصّ يجمع بين المعلومات العمليّاتية الدّقيقة وبين الملاحظات الشّخصيّة والانطباعات والمواقف من القادة والضبّاط، ممّا يجعل قراءته ممكنة من زوايا متعدّدة: عسكريّة سياسيّة، اجتماعيّة، نفسيّة وحتى جغرافيّة.

وأخيرًا، ينبغي التّعامل مع الوثيقة نقديًا. فهي -على الرّغم من أهمّيّتها-، تبقى شهادة فرنسيّة صادرة عن أحد المشاركين في حملة الغزو؛ ولذلك فإنّ وصفها للقوّات الجزائريّة ولقدراتها العسكريّة ولأوضاع الجزائر يمثّل وجهة نظر صاحبها ومصادره، وليس بالضّرورة صورة مكتملة ومحايدة للواقع الجزائري.

التّرجمة:

ملاحظات يوميّة*

دُوِّنت هذه الملاحظات، بخطّ يد الجنرال نفسه، على مفكّرة يوميّة، يبلغ قياسها 128 x 78 ملم بِيعَت في باريس لـ (Josef Javet/جوزيف جافيه)، تاجر الورق، الكائن بشارع السّوربون، رقم 4. لم تُستعمل هذه المفكّرة إلّا خلال رحلتي الذّهاب والإياب، أي ما بين 18 ماي و14 جوان، ثمّ من 18 إلى 21 جويلية. وعلى الرّغم من فقدان بعض الصّفحات في مواضع متفرّقة، فإنّنا لم نسجّل سوى نقصٍ واحد في تسلسل

* - الوثائق الآتية مأخوذة من المجلّد الرّابع من مجموعة نصوص تتعلّق بمدينة الجزائر، جمعها (Frédéric Lacroix/فريديريك لاكروا)، اقتنتها مكتبة - متحف الجزائر عقب وفاته. ويضمّ هذا المجلّد (رقم 1512 في ألفهرس) أوراقًا كانت بحَوزة الجنرال ڤالازيه، الذي كان، كما هو معلوم، يشغل ضمن جيش الحملة، وظيفة قائد سلاح الهندسة، وكان يحمل رتبة لواء. ج. جاكيتون

الملاحظات، وقد أشرنا إلى ذلك أدناه، لكن هذا النّقص ليس مؤكّدا تمامًا. وقد تكون هناك بعض الأخطاء في قراءتنا للنّص أثناء نقله، ويعود ذلك إلى خطّ (ڤالازيه) الذي يتّسم بالعجلة وغير المتقَن بما فيه الكفاية. وقد تمّ استكمال علامات التّرقيم التي كانت شبه معدومة، كما تمّ حلّ معظم الاختصارات.

18 ماي: في السّاعة الخامسة و45 دقيقة، صعدتُ مع القائد العامّ ورئيس الأركان[1] على متن قارب الأميرال، للذّهاب لتناول العشاء والاستقرار على متن سفينة (la Provence/لا بروفانس). كان الطّقس رائعًا. وقد تمّ الانتهاء من تجهيز القوارب المعروفة باسم (les bateaux-boeufs) التي يُعتزم استخدامها في عمليّة الإنزال.

19 ماي: كانت الرّياح ضعيفة، لكنّها مواتية للخروج من المرسى إلى عرض البحر، حيث أبحرت جميع القوارب المعروفة باسم (les bateaux-boeufs)، مصحوبة بعدّة قطع بحريّة حربيّة للحماية. وقد أقلّت هذه القطع العسكريّة القائد (فايان/Vaillant) [(2)]، والكتيبتين الأولى والثّانية من المهندسين العسكريّين التّابعتين للفوج الأوّل، إلى جانب نصف سريّة من وحدة (فانْدلين/Vandelin)[3] التّابعة للفوج الثّاني.

20 ماي: عقد الأميرال اجتماعه الموسّع مع جميع قادة سفن الملك، قصد شرح الجداول التي أعدّها، والتي تتضمّن الأوامر التي قد يضطرّ إلى توجيهها إليهم، إلى جانب توضيح تدابيره الرّئيسية. وقد استمرّ الاجتماع من السّاعة الرّابعة صباحاً حتى الحادية عشرة قبل الظّهر. أمّا رياح اليوم السّابق، فقد سكنت، وبحلول المساء عمّ سكون شبه تامّ، يكاد يبلغ حدّ السّكون المطلق.

21 ماي: الجو هادئ، والرّياح تميل إلى الاتّجاه الشّرقي، أي إنّ اتّجاهها سيصبح معاكسا تمامًا للخروج إلى البحر.

22 ماي: رياح شرقيّة.

23 ماي: رياح شرقيّة. الأفق يغشاه الغيم ممّا ينبئ بتغيّر مرتقب في اتّجاه الرّياح.

24 ماي: البحر في الخارج هائج جدًّا، وعلى الرّغم من هطول مطر خفيف على اليابسة، فإنّ الرّياح تبقى شرقيّة. في المساء، هبّت عاصفة من جهة الشّمال الغربي، ممّا يُنبئ بقدوم رياح مُواتية.

25 ماي: هطلت أمطار غزيرة نسبيًّا قرابة السّاعة الخامسة والسّادسة والسّابعة صباحًا. وعلى الفور، تغيّرت الرّياح وانتقلت من الشّرق إلى الشّمال الغربي. عندئذ، أصدر الأميرال أمرًا إلى القافلة البحريّة بالاستعداد للمغادرة، فانطلقت أولى سفن النّقل عند منتصف النّهار. وقد أدّى اصطدام السّفينة رقم 83 بسفينة (ألجسيراس) إلى فقدانها لصاري المقدّمة الصّغير، وهو ما أربك حركة الإبحار المقرّرة صباحًا. ومع ذلك، رفعت سفن البحريّة الملكيّة أشرعتها، وفي السّاعة الخامسة والنّصف مساءً، غادرت (البروفانس) المرسى في مشهد مَهيب.

1- وهو اللّواء ديسبريس (Desprez)، انظر: المجلّة الأفريقيّة، السّنة 36، رقم 205، السّداسي 2، سنة 1892، ص129.

2- ملحق بهيئة الأركان لسلاح الهندسة.

3- نقيب في السّرية الرّابعة من الكتيبة الأولى التّابعة للفوج الثّاني.

26 ماي: لم تبرح السّفينة الأميراليّة وسفينة التّريدون، وعلى متنهما الأميرال (Rozamel/ روزاميل)[1] مكانهما من أجل ترتيب الأسطول وجمعه. وعند انبلاج الفجر، أُشير إلى ظهور فرقاطة تركيّة كانت قد اقتِيدت من طرف الفرقاطة (Duchesse de Berry/لا دوشيس دو بيري) التّابعة للفرقة البحريّة المرابطة قبالة سواحل مدينة الجزائر.

الطّقس في غاية الصّفاء، والبحر هادئ، والنّسيم عليل. الأسطول بأسره مصطفٌّ في تشكيلات خطيّة منتظمة، القافلة إلى الشّرق، حيث يتمّ رؤية السّفنُ النّاقلة التي كانت قد تأخّرت، على مسافة قصيرة إلى الأمام. تمّ إرسال السّفينة (سفِينكس)، وهي باخرة بخاريّة، في تمام السّاعة الحادية عشرة والنّصف، للبحث عن قائد الفرقاطة (لا دوشيس دو بيري)[2] الذي وصل حاملًا رسائل خاصّة. كان القائد باشا على متن الفرقاطة التّركية. وتمّ استدعاء السّفينة (le Pirate/لوبيراط) - وهي كورفيت خفيفة لا تحمل ركابًا - لتؤدّي دور سفينة الاستطلاع (mouche)؛ حيّت (لا دوشيس دو بيري)، فيما غيّرت (لا بروفانس) مسارها لتتقدّم باتّجاه القبطان باشا.

وعند وصولنا قرب الفرقاطة التّركية التي كانت قد أوقفت محرّكاتها وألقت مراسيها، قمنا بالمثل وأرسلنا زورقًا صغيرًا على متنه قبطان (لا دوشيس دو بيري) ومعه الضّابط الثّاني من (لا بروفانس). وقد أبلغا أنّ القبطان باشا سيصعد على متن (لا بروفانس)، وهو ما تمّ بالفعل. كان القائد باشا رجلًا في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، له لحية أنيقة مشوبة ببعض الشّيب، وملامح وجه لطيفة، وعينان زرقأوان فاتحتان تنمّان عن لطف وذكاء، طويل القامة، مرتديًا جبّة من قماش أرجواني غني، مزيّنة بتطريزات فاخرة وعالية تمتدّ إلى أسفل الثّوب.

تحدّث برهة مع الأميرال والقائد العامّ، ثمّ قدّم له الأميرال رئيسَ أركان الجيش، وجنرالَي المدفعيّة[3] والهندسة، ورئيس التّموين والإدارة[4]، وقائد السّفينة[5]. وقد هنّأنا عبر مترجمه، إذ لم يكن أحد منّا يعرف اللّغة الإيطاليّة التي يبدو أنّه يتكلّمها بطلاقة. وسأل عن موعد وصوله إلى (تولون)، فأجابه الأميرال بأنّنا لا نبتعد عنها سوى بنحو عشرين فرسخًا، وبأنّ الفرقاطة (لادوشيس دي بيري)، التي كانت في انتظار وصوله ستكون تمامًا رهن إشارته، وأضاف أنّه أُوكل إلى قائد هذه السّفينة أن يُبلِّغ عبر التّلغراف ما يودّ سعادة القائد باشا أن يُبلِغه إلى حكومتنا. ثم طلب المغادرة، غير أنّ الأميرال ترجّاه أن يتفضّل بقبول القهوة فقُدّمت له مع بعض المربّى. ثمّ طلب الاستعانة بربّانٍ ليقوم بجولة يُطلَع فيها على ما في (تولون) من مناظر تلفت الأنظار. وقد أُعيد التّأكيد له بأن الفرقاطة الفرنسيّة رهن إشارته، فبادر قائد السّفينة بنفسه إلى عرض خدماته.

1- نائب الأميرال، القائد الثّاني.

2- قبطان السّفينة "كيردران".

3- اللّواء لاهيت (Lahitte).

4- البارون دينييه (Denniée).

5- قائد السّفينة "فيلارِه دو جُوَيُوز"

أخبرنا القائد باشا بأنّه قد غادر لتوّه معسكر (شوملا/Schumla)، وقد اتّجه منه صوب مدينة الجزائر. فاعتذر منه الأميرال على كونه قد شتّت عليه طريقه، فأجابه القائد باشا بأن الله سيتولّى الأمر ولا شكّ أنّ كلّ شيء سيؤول إلى ما فيه الخير. وحينها عقّب الأدميرال قائلاً: إن كانت رطانة المترجم[1]، الذي يبدو أنّه يهودي، تتّسق مع لغتنا بعض الشّيء فإنّنا سنتفاهم مع داي الجزائر على نحو أفضل بعد أن نخوض معًا شيئاً من القتال. فاكتفى القائد باشا بابتسامة خفيفة.

وبعد ذلك، قمنا بإعادة صاحب السّعادة إلى الفتحة الجانبيّة في بدن السّفينة التي دخل منها، أي من جهة الميمنة، وهي الجهة المقابلة لاتّجاه الرّيح. وخلال كلّ هذا الوقت، واصل الأسطول والقافلة البحريّة سيرهما دون توقّف. أمّا نحن، فقد شدّدنا سرعة الإبحار بالأشرعة من أجل اللّحاق بهما. السّاعة الآن الثّالثة إلّا الرّبع. القائد باشا يُدعى (طاير باشا/Thaîrpacha)، وهو نفس القائد الذي شارك في معركة نافارين؛ فقد كان حينها القائد الثّاني في قيادة الأسطول العثماني.

27 ماي: كان الجوّ مضطرّبًا إلى حدّ ما طوال اللّيل؛ كنت قد خلَدت إلى النّوم مبكّرا دون عشاء. كانت السّفينة تصدر صريرًا حال دون نومي في البداية. وعند بزوغ الفجر، كان الطّقس رائعًا. وقد أطّل طائر صغير مسكين، يبدو أنّه رافقنا من (تولون)، فحطّ على نافذتي؛ كان يأكل الذّباب، ولكن ماذا عساه يشرب؟ يحلّق هنا وهناك، ولا يجرؤ على مغادرة السّفينة. كان أسطولنا يسير بانضباط تامّ في أربعة صفوف منظّمة: الجناح الغربي[2]، قوّة الاحتياط، وحدة الإنزال، الخطّ القتالي، ثمّ قافلة الإمداد. الطّقس بديع، غير أنّ الرّياح كانت دون المطلوب. أمّا قارب (التّريدان)، فسيره بطيء للغاية.

28 ماي: هبّت عاصفة عنيفة خلال اللّيل، وعند الفجر كان رتل القافلة قد تفرّق. أَمَرَ الأميرال بأن تتوجّه القافلة بأسرها إلى خليج (بالما) لتتجمّع هناك من جديد. واصلنا طريقنا ببطء. مررنا بمحاذاة (مينوركا) على مسافة تقارب فرسخين. وجدنا هناك سكونًا، وقد تحسّن الطّقس قليلًا. وكما في اليوم الذي قبله، لم أستطع أن آكل سوى قليل من الخبز مع بعض القهوة، من غير أنّ أعاني من قيء، لحسن الحظ. تبدو جزيرة (مينوركا) مزدهرة بالزّراعة وعامرّة بالسّكّان.

29 ماي: كان الطّقس حسنًا طيلة اللّيل. مررنا على بُعد عشرة فراسخ من جزيرة (مايوركا)، وقد رأيناها بوضوح. كان الأسطول هذا الصّباح قد اجتمع بالكامل. وقد وصل مركب شراعي قادم من مدينة الجزائر، وأبلغ عن فقدان مركبين شراعيّين جرفتهما الرّياح وسوء الطّقس نحو الشّاطئ، وقد قُتل جزء من الأطقم، بينما أنقذ الدّاي البقيّة، بمن فيهم القائدان الاثنان[3]. وقد أرسل الأميرال أوامر إلى السّفن الموجودة في (بالما) باللّحاق به، كما أمر المحطّة البحريّة بالانضمام إليه، موضّحا أنّه سيكون بعد غدٍ قبالة رأس (كاسيناس).

1- "رطانة المترجم (le baragouin de l'interprète) ": استخدم الأميرال هذا التّعبير بنبرة تهكّمية ليصف بها لغة المترجم اليهودي، مشيرًا إلى رداءة ترجمته وتشوّش عباراته.

2- هكذا في الأصل. الكلمة محاطة بدائرة في المخطوطة.

3- Sur cet incident, cf. le Moniteur, année 1830, pp. 642 et 643.

20 ماي: تابعنا سيرنا محاولين اللّحاق بالقوارب المسمّاة (bateaux-bœufs)، وتبيّن لاحقًا أنّها كانت قد غادرت، فأُعطي لها الأمر بالتوجّه نحو (رأس كاسين) حيث نقطة الالتقاء. وفي انتظار ورود أخبار منها قمنا بتغيير الاتّجاه وأبحرنا شمالًا. كان الطّقس والرّياح ملائمين. مع حلول المساء، استُؤنفت المسيرة نحو الجنوب، وأُعلن إنّنا سنصل غدًا قبالة الجزائر. وصدر الأمر بإنزال الصّواري إلى قاع العنبر (المخزن السّفلي) تفاديًا لتعرّضها لنيران المدفعيّات[1].

31 ماي: لاحت لنا اليابسة، وتعرّفنا على (رأس كاسين) عند السّاعة الخامسة، كنّا على بعد تسعة فراسخ منه (نحو 36 كم). لكن، وبما إنّنا لم نتلقّ أي خبر عن القوارب المسمّاة (bateaux-bœufs)، أمر الأميرال بتغيير الاتّجاه نحو الشّمال، مبحرين بسرعة ثلاث عُقد في السّاعة. منذ يومين لم أعد أقوى على تناول الطّعام، بل جميعنا يعاني من دُوار البحر مع استمرار الإبحار شمالًا.

أوّل جوان: لا يزال الأميرال يؤكّد أنّ الطّقس سيّء، وبعد أن أبحرنا باتّجاه الشّمال، قرّر أخيرًا أن يجمع كامل أسطوله في خليج (بالما). عندها باشرنا بكتابة رسائلنا، والتي ستُرسل في صباح الغد. وقد أُبلغنا بأنّ الرّسائل التي لا تحمل طابعًا رسميًّا باسم الوزير ستُترك في مكتب البريد بمدينة (تولون). وحين اقتربنا من سواحل (مايوركا)، هدأت حركة البحر، فزال ما كنت أشعر به من ألم. وما إن دخلنا الخليج حتى لاحَت لنا مدينة (بالما)، التي نُقدّر المسافة التي تفصلنا عنها بين ثمانية وعشرة فراسخ تقريبًا. بدأنا في إجراء المناورات الاعتياديّة، فيما توجّهت سفن الاحتياط إلى الرّسوّ قُبالة المدينة. غير أنّه لم يُؤذن لنا بأيّ تواصل مع المدينة، إذ فُرض علينا الحجر الصّحي.

2 جوان: بعد أن اقتربنا مسافة أربعة فراسخ من (بالما)، التي كنّا نراها جيّدًا بواسطة مناظيرنا أوقفنا السّفن. وقد وردتنا أنباء عن قافلة السّيد (هوغون)[2]، التي كانت قد تضرّرت بعض الشّيء، لكنّها في طور الالتحاق بنا من جديد. وصلت السّفينة (سفينكس) حاملةً أخبارًا عن الأسطول الصّغير. ولم يُسمح لها بالتّواصل، بل قيل لها إنّ تقديم تقرير مكتوب في الغد سيكون كافيًا. وقد أُرسلت لاحقًا سفينة (بريك) لجلب تلك الرّسائل.

3 جوان: وصلت رسائل سفينة (سفينكس) في الصّباح الباكر. وقد أفادت بأنّها رأت الأسطول على بُعد ثلاثة فراسخ من (رأس كاسين)، وأنّ البحر كان هائجًا للغاية على السّاحل الأفريقي. دخلت القافلة (قافلة السّفن) إلى الخليج لترسو بالقرب من (بالما). ووصلت فرقاطة، ويُقال أنّها أكّدت الأخبار التي جاءت بها سفينة (سفينكس). الجوّ بدأ ينقشع بما يبعث على الأمل.

4 جوان: شاهد الأميرال أسطوله يدخل إلى الخليج، وكذلك سفن النّقل التي كانت قد أَبحرت من (تولون) وتوجّهت إلى السّاحل الأفريقي. وأكّد، في معرض حديثه، أنّ إنقاذ وسائل الإنزال البحري كان - في نظره - أكثر أهمّية وموضع ارتياح له من تنفيذ عمليّة الإنزال نفسها. غير أنّ هذا التّقدير لا يوافق ما كنّا

1- الأمر يتعلّق بلا شك بالعمليّة التي تتمثّل في إنزال الأجزاء العليا من أدوات التّسليح الشّراعي، وهو ما يُعرف في المصطلحات البحريّة بـ caler les mâts/كسر الصّواري).

2- كان قائد السّفينة البارون هوغون يتولّى قيادة قافلة سفن النّقل التي كانت محمّلة بعتاد الجيش.

نصبو إليه. يوجد على متن سفن النّقل ثمانون مريضًا، وقد تمّ إرسالهم إلى محطة ماهونن. ويُقدَّر أنّ العدد الإجمالي للمرضى قد بلغ نحو مائتي حالة. لا نرى أثرًا للقوارب المسمّاة (bateaux-bœufs) !!!

وصلتني أخبار من باريس مؤرّخة في الرّابع والعشرين، وسُلّمت إليّ رسالة من زوجتي وأخرى من والدي العزيز.[1] وقد انطلقت هذه المراسلات من (تولون) بتاريخ التّاسع عشر على متن سفينة بخاريّة وجاءت تتقصّى أثرنا في السّاحل الأفريقي. الجوّ رائع، حارّ، والرّياح مواتية. لكن أين الأسطول؟ لا يُبدي أحد رغبةً في الخروج للقائه. قائد الرّاية يؤكّد إنّنا سنكون على اليابسة خلال ستّة أيّام. نسأل الله أن يستجيب.

5 جوان: لا أثر للأسطول. لم يعدّ سوى نحو اثني عشر قاربًا من نوع (bateaux-bœufs). ويُعربُ فريقنا عن مشاعر الأسف. جميع أفراد البحريّة يبدون رباطة جأش تامّة. من المؤكّد أنّهم لا يفهمون هذه الحملة. لِمَ لا نتوجّه لملاقاة هذا الأسطول؟ تناولنا شرائح لحم شهيّة، مع الفواكه والسّمك. كنّا نرغب في التوجّه إلى (بالما) طلبًا لبعض التّرفيه، غير أنّ الأميرال رأى في ذلك مظهرًا من مظاهر التّخلّي عن المهمّة، إلّا أنّه، إن تعذّر الأمر، فستكون الرّيح سبب ذلك. وإذا كانت قوارب (bateaux-bœufs) وسفن النّقل، التي أبحرت من (تولون) في السّادس والعشرين، تمكّنت من الصّمود في عرض البحر، فلماذا لم نفعل نحن الشّيء نفسه؟

6 جوان: وصلت سفينة قادمة من تونس، مرَّت قبالة سواحل مدينة الجزائر، وكانت تقلّ السّيّد (دو جيراردان/de Gérardin)[2]، الذي تمّ إيفاده من باريس في الثّاني أو الثّالث من ماي. غادر تونس في الثّاني من جوان، وقد صاحبته الأجواء الصّافية طيلة الرّحلة. هذه السّفينة، المسمّاة (لا بايونيز)، لم تنزل أشرعتها، بما في ذلك آخر شراع صغير يسمى (شراع الكاكَتوار)، إذ كان الطّقس يومي الثّاني والثّالث رائعًا على سواحل أفريقيا: بحر هادئ، ورياح جنوبيّة غربيّة عليلة. وصلت إلى مشارف مدينة الجزائر في الثّالث من الشّهر تقريبًا، ومَن على صاريتها شاهد 92 سفينة من الأسطول، لم يكن يبدو على أيٍّ منها أثر للتّعب أو الشّدة، وقد رآها تعود كلّ بحسب نمط إبحارها.

وصلت القوّات التي استدعاها الدّاي إلى الجزائر: ثلاثون ألف رجل من وهران، وثلاثة عشر ألفًا من قسنطينة، وجلّهم من سلاح الفرسان. وقد جرى الشّروع في تنظيم صفقات مع التّونسيين وبعض العرب لتزويد الجيش بالمؤن، ولا تشمل هذه المؤن سوى اللّحوم، إذ أنّ القمح هناك نادر للغاية وغالي الثّمن ويتمّ اقتناؤه من فرنسا. أمّا الفارق بين ما ورد في تقرير قائد (لا بايونيز) وما نُقل إلينا، فهو يُفسّر العزلة التي يفرضها علينا الأميرال. لقد كانت هناك عدّة سفن قبالة الجزائر في الأوّل والثّاني والثّالث من شهر جوان بحيث كان بإمكاننا، رغم التّحفظات، أن نحصل على معلومات. وقد جرى استجواب قائد سفينة (لا

1- مؤكّد عليه في المخطوط؛ ولا يُعرف على وجه التّحديد مَن هي الشّخصية التي يُشير إليها فالازيه (Valazé) بهذا الشّكل.

2- عميل فرنسي أُرسل إلى تونس لجمع المعلومات وإقامة علاقات مع باي قسنطينة.

بايونيز) من طرف أحد الضبّاط البحريّين رفيع الرّتبة[1]، وذلك قبل أن يُتاح له الاتّصال بأركان قيادة الأميرال.

توجّه (جيراردان) إلى قائد المحطّة البحريّة[2] للاستعلام عن مكان وجود الأسطول والقائد العامّ فأجابه الضّابط بأنّه كان قد لمح الأسطول يوم الحادي والثّلاثين، ثمّ ما لبث أن اختفى وهو يبحر نحو الشّمال، وأنّه يجهل تمامًا موقعه الحالي. وكان ذلك في اليوم الثّالث أو الرّابع من الشّهر. وأضاف أنّه وجد هناك قرابة مئة من سفننا النّاقلة على اختلاف أنواعها، كانت قد وصلت إلى سواحل الجزائر بقصد الانضمام إلى الأسطول، لكنّها، لعدم علمها بمكانه، بقيت تجوب عرض البحر تحت حماية سفن المحطّة البحريّة. وأشار إلى أنّ السّفينة (لابايونيز) كانت قد غادرت تلك المجموعة وأبحرت شمالًا، وأنّها التقت خلال نهار الرّابع بسفينة شراعيّة من نوع (بريك) تابعة للأسطول، أخبرتها بأنّها متّجهة لتبليغ القوارب المسمّاة (bateaux-boeufs) أمرًا بالتوجّه إلى (بالما)، معتقدًا أنّ الأسطول قد يكون هناك، لكنّه أكّد أنّه غير مكلّف بأيّ مهمّة أخرى سوى إيصال ذلك الأمر. وختم قائلاً: إنّهم صادفوا عددًا كبيرًا من سفن الأسطول كانت تتّجه نحو الخليج، ويرجّح أن تبلغ وجهتها في اللّيلة نفسها أو صباح اليوم التّالي.

سلّم (جيراردان) عددًا من الرّسائل، من بينها رسالة كتبها أحد قادة الفرقاطات الذين وقعوا في قبضة الدّاي نتيجة خطأ ارتكبوه قرب بجاية أثناء العاصفة العاتية التي جرت يومي 21 و22 مايو. ويورد هذا الضّابط الرّفيع في رسالته معلومات عن حالة البطّاريّات (المدافع السّاحلية) في الرّصيف، مشيرًا إلى ضعفها من جهة اليابسة، كما وصف حالة التّحصينات المحيطة بالمدينة.

وأوضّح أنّ أمام (سيّدي الفرّوش)[3] يوجد معسكر يضمّ 12,000 مقاتلاً، ومعسكر آخر قوامه 4,000 مقاتلاً قرب قصر الإمبراطور، وآخر أقلّ عددًا قرب مصبّ وادي الحرّاش. أخيرًا، أكّد السّيّد (جيراردين) بكلّ جزمٍ أنّ الطّقس كان جميلاً، وأنّه لم يسمع في طريقه، في أيّ موضعٍ كان، بشيء يدلّ على اضطراب الجوّ أو سوئه. وهذا ما تشهد عليه إقامة سفننا النّاقلة في قلب المحطّة البحريّة.

استدعاني الأميرال ليسألني إن كانت جميع رماحي موجودة على متن الأسطول الصّغير، وكذلك أدواتي وأمتعتي على اليابسة. فأجبته بأنّ جميع رماحي موجودة بالفعل على القوارب الكتلانيّة[4] وغيرها غير أنّني أبقيت على الفرقاطات الأربع المخصّصة للاحتياط عددًا من الأدوات وحواجز دفاعيّة مسنّنة وأضفت أنّ وصول نصف القوارب المسطّحة برفقة الجنود سيكون كافيًا، فإن لم يصل منها شيء، فذلك مؤسف وسأسعى عندئذٍ إلى تدارك النّقص بما تيسّر.

أعتقد أنّه كان يتمنّى لو أنّني تحدّثت إليه بأسلوب آخر؛ إذ عبّر عن أسفه لكوني لم أضع حرابًا على الفرقاطات - حيث كان من الممكن سحبها منها عند الحاجة -، فلمّا أجبته بأنّ الأدوات وحواجز الحماية

1- مؤكّد عليه في المخطوط.

2- قائد السّفينة ماسيو دو كليرفال (Massieu de Clerval).

3- سيدي الفرّوش (Sidi-el Ferruch): يقصد به المكان المعروف حاليًا بسيدي فرج.

4- معلومٌ أن أسطول الإنزال كان يضمّ عددًا من السّفن الصّغيرة المستأجرة في ميناء برشلونة.

الموجودة على متن تلك السّفن تكفي عند الضّرورة، عاد إلى التّشديد على صعوبة استخراجها. وأظنّ أنّه يبحث عن مبرّرات للبقاء في موضعه دون تحرّك، ولا أرى سببًا لذلك إلّا إذا كانت لديه رغبة أكيدة في إعادة تنظيم أسطوله تمامًا كما في (تولون)، لكي يستخدم جداول الإنزال التي أعدّها - وهي الجداول التي لا يمكن تنفيذها بطبيعة الحال - إذ يتطلّب ذلك وصول السّرب البحري على صورته الكاملة كما هو مُشكَّل وهو أمر لا تسمح به بالتّأكيد الصّعوبات الجوّية العديدة التي يُضخَّم أمرها بشكلٍ مبالغ فيه. أو لعلّه يريد فقط أن يعدّ جداول جديدة، وهو، على ما يبدو، مولَع بها إلى حدّ الهوس؟ أنّ الأمر يبعث على الحيرة.

كلّ شيء يبدو مُسيّرًا بغير يقينٍ ويشي بضعفٍ شديد[1]، إذ يسعى الجميع إلى تمويهه بستارٍ من الغموض. أمّا رئيس الأركان[2]، الذي يبدو لنا أكثر كفاءة، فلا يُؤخذ برأيه في شيء. لم يعدّ الأميرال يحدّثه منذ أن وقع في الورطة، مع أنّه في أمسّ الحاجة إليه. ويبدو أنّ السّيّد (رانك/Ranke) هو رجل ثقة الأميرال فهو مساعده الميداني، ولا يُعقل أنّ الأميرال لا يسيّر أموره من خلاله.

أكرّر القول: نحن في وضع تعاقد خاصّ. سفينة (بروفانس) تبقى بعيدة عن اليابسة وعن باقي السّفن، وكلمّا طلبت سفينةٌ ما التّواصل، كانت أولى كلمات الرّد: إلى الغد، لدينا الوقت لنُملِي ما نشاء. هذه التّخمينات تبدو لي قائمة على أسس متينة.

7 جوان: تحدّث القائد العامّ إلى الأميرال بشأن ضرورة المغادرة، فأعطى هذا الأخير كلمته مؤكّدا أنّه يكتوي، مثلنا، بنار هذا الانتظار. ومع ذلك، لم يُوفد مبعوثًا للاستعلام عن عدد سفن أسطول مرسيليا الرّاسية قبالة (بالما) إلّا عند السّاعة الحادية عشرة صباحًا، مع أنّ هذا الأسطول - بحسب تصريحه - شرط لا غنى عنه لتنفيذ عمليّة الإنزال. وإن كان حقًّا عازمًا على الرّحيل[3]، فمن الجليّ أنّه لم يكن يرغب في تلقّي أي خبر، إذ بدل أن يقترب ليلًا من المدينة حيث كان يمكنه الحصول على المعلومات، إذا به، عند مطلع النّهار، لا يزال يبعد عنها أكثر من اثنتي عشرة فرسخًا. لقد كتبت مذكّرة أُبيّن فيها، استنادًا إلى ما نعرفه، أنّ تجمّع الأسطول في خليج (بالما) يخالف مصالح الملك ونواياه.

الرّياح لا تزال جنوبيّة غربيّة، ولو إنّنا بدأنا عمليّة الإنزال، كما اقترحت، في الثّالث من الشّهر على أبعد تقدير، لكانت العمليّة قد استمرّت دون انقطاع. يا لها من تأمّلات حزينة تثيرها تصرّفات الأميرال! أليس من الواضح أن فرص عودة طقس مماثل بدأت تتناقص، وأنّ الرّياح السّائدة، رغم كونها مناسبة للإنزال، فهي ضدّ اتّجاه حركتنا؟ والطّقس يجلب معه حرارة من شأنها أن تقوّض أعمالنا، فما أشدّ خشيتنا من أن تُصاب قوّاتنا، التي تمّ إعدادها لعبورٍ من 8، 9 أو 10 أيّام، والتي مضى على وجودها على متن السّفن 28 يومًا، بأمراض، وأنّ لا نصل إلّا بجيشٍ مريضٍ منهك؟

1- مؤكّد عليه في المخطوط.

2- نائب الأميرال "ماليه"، الذي سيشير إليه فالازي فيما يأتي.

3- مؤكّد عليه في المخطوط.

إنّ تردّد الأميرال واضح، فهو لا يستشير سوى الضبّاط من الرّتب الدّنيا، ويبدو منشغلًا بالتّفاصيل الشّكلّية دون غيرها وهذا كلّ شيء[1]. إنّنا نكتم تذمّرنا ونتصنّع حسن المعاملة تفاديًا للاصطدام مع هؤلاء البحّارة المزعجين. فما الذي كانوا سيفعلونه لو كان لدينا أعداء نقاتلهم أو عواصف نواجهها؟ إنّي لأفهم الآن كيف أن بحريّتنا لم تحز إلّا على القليل من المجد.

أصدر القائد العامّ أمرًا يوميًّا أبلغ فيه الجنود بأنّهم سيجدون على السّواحل الأفريقيّة ما بين ثمانين إلى مئة ألف عدوّ، لكنّهم ليسوا سوى ميليشيّات يفتقرون إلى النّظام، ومعظمهمّ من الفرسان. كما أشار إلى وجود ألفي جملٍ مكسوّة بحُصُرٍ واقية، وقد سبق أن أُعلن عنها عندما كنّا في (تولون)، وقد تأكّد وجودها من خلال تقرير السّيد (de Lesseps/دوليسبس)[2]، والسّيد (Gérardin/(جيراردان)، بالإضافة إلى تقرير مطوّل أعدّه أحد الرّعايا البريطانيّين المقيمين في الجزائر، أرفقه بخريطة صغيرة ومناظر مأخوذة من نقاط مختلفة من اليابسة. وذكر أنّ الدّاي قد أمر بنقل المدفعيّة الثّقيلة التي كانت متمركزة في (قلعة الإمبراطور).

8 جوان: الطّقس جميل في الصّباح، ثمّ هطلت أمطار غزيرة جدًّا من السّاعة الواحدة إلى السّادسة. عند السّاعة الثّامنة، وصل السّيد (Schneider/شنايدر)، وكيل السّيد (Sellière/سولييز)[3] قادمًا من (بالما)، وقد غادرها في صباح السّابع باكرًا. لم يتمّكن لا قائد القافلة ولا قائد الاحتياط[4] من إخباره بمكان وجود الأميرال. وكان السّيد (Hugon/هوغون) قد أرسل مركبًا شراعيًا يحمل برقيّات، وكان هذا المركب أيضًا يبحث عن الأميرال. ولم يتمّكنوا من العثور عليه إلّا بالصّدفة، إذ وصلوا إلى وسط الأسطول، ولم يستطع الأميرال (Rosamel/روزاميل) أن يُخبرهم بمكانه. كان يُظنّ أنّه في (بالما)، لكن اللّقاء بالأميرال تمّ عن طريق المصادفة، إذ كان على متن سفينة (لا بروفانس).

كان السّيد (شنايدر) قد رأى نحو مئة سفينة من الأسطول في ميناء (بالما)، وقد تولّى نقل عدد كبير من الرّسائل. أرسلتُ مذكّرة كنتُ قد حرّرتها البارحة إلى الجنرال (Rogniat/رُونيَا)[5] والجنرال (Haxo/هاكسو)[6]. أعلم أنّ القائد العامّ، ورئيس أركان الجيش، والجنرال المختصّ بالمدفعيّة قد كتبوا في الاتّجاه ذاته الذي عبّرت عنه، فيما يخصّ عودتنا من سواحل أفريقيا إلى هنا. وقد كتب الجنرال (Lahitte/لاهيت) بدوره إلى أميره.[7] أخبرنا السّيد (شنايدر) أن جميع من رست سفنهم بالقرب من (بالما) سيستمتعون، ويقضون أوقاتًا مرِحة على البرّ. وقد استقبل القائد العامّ كافّة الضّباط، وأقام لهم حفلاً

1- هكذا في الأصل، تبدو القراءة مؤكّدة.

2- ممثّل فرنسا في تونس بصفته قنصلا عامًا.

3- من المعروف أن دار سيلييز كانت مكلّفة بتموين الجيش الاستعماري بالمؤن.

4- قائد السّفينة ليموان.

5- مفتّش عام للهندسة.

6- المفتّش العام للتحصينات.

7- الدّوفين، وهو الشّخص الذي كان الجنرال لاهيت مرتبطًا به.

راقصًا[1] بمناسبة عيد (St-Ferdinand/القدّيس فردينان)[2]. كما نظّمت سفينتان على متنهما أمسيات رقص حضرتها سيّدات المدينة.

استدعاني الأميرال إلى مقرّه ليُبلغني بأنّه لا يملك سوى ثلاثة من أصل ثمانية عشر قاربًا من قوارب الأسطول، وهي التي نُقلت عليها حُزَمي من الرّماح وأدواتي الهندسيّة. ورغم أنّ الكمّية لا تكفي إلّا لتشييد صفّ واحد من الحواجز الشّوكية (hérissons) بطول لا يتجاوز ثلاثمئة متر، فقد أبديت قبولي بالأمر مؤمّلًا أن تلتحق بقيّة القوارب لاحقًا. وقد أقرّ الأميرال بأنّ ما لا يقلّ عن مئة من هذه القوارب قد وصلت بالفعل، وأصدر أوامره بتزويدها بالمؤن والقيام بإصلاحها تباعًا فور وصولها، لتكون جاهزة للإبحار بحلول التّاسع من الشّهر. فليستجب الله دعاءه. سعى (Ranke/رانك) إلى إقناعي بأنّ السّفن التي نُقلت إليها رماحي وسائر العتاد، يتعذّر إبلاغها بالالتحاق بنا، طالما أنّها سترسو على الأرجح في ميناء (إيبيزا). غير أنّي بيّنت له في محادثة مطوّلة، أنّ ما يدّعيه لا يصحّ قبوله. ومن هناك، عدنا إلى الحديث عن جمال الحركة في خليج (بالما)، وهو رأي لم أوافق عليه. وختم بالقول إنّ وجودنا في الأسطول لا يتعدّى الأكل والنّوم، وهو ما أعلمه جيّدًا، لكنّي أضفت بأنّنا موجودون فيه أيضًا لننتقل إلى البرّ حينما وحيثما اقتضى حسن تنفيذ أوامر الملك. عندها ردّ بأنّنا غير مؤهَّلين للحكم على ما إذا كان ينبغي إنزالنا في وقت دون آخر، وأنّه - في نهاية المطاف - سيتمّ إنزالنا إلى البرّ رغمًا عنّا إذا شاؤوا ذلك. فأجبته بأنّ هذا القول لا يخلو من التّهكّم وبأنّه حين يُثبت الإنسان أكثر ممّا ينبغي، لا يُثبت في الحقيقة شيئاً. ثمّ أضفت أنّي لم أعد قادرًا على مواصلة هذا النّقاش. كان الأميرال ينظر إلى...[3] إرسال أحد إلى جزيرة (Ivice/إيبيزا) للتحقّق ما إذا كان ثمّة شيء من أسطولنا راسيًا هناك وكأنّها خطوة لا تستحقّ الاهتمام. ويبدو من حاله أنّه يعتزم الإبحار غدًا سنرى ما سيكون. لقد بدا عليه الإنكسار، وكان المهمّة قد جاوزت طاقته. آه، لو كانت القيادة بيد الأميرال (Mallet/ مالّيه)! لأنّ فيه من سرعة البديهة وقوّة العزم ما نفتقده اليوم، غير أنّ الأميرال يصرّ على إبعاده وعدم التّحدّث إليه.

9 جوان: ما يزال الطّقس جميلًا. يواصل الأميرال تجميع بعض سفن أسطوله، وقد أمر بإمدادها بالمؤن بواسطة سفينة بخاريّة، كما أخذ من مؤن سفينة (لابروفانس) لتزويد السّفن الصّغيرة في الأسطول بالمؤونة حتى اليوم الخامس عشر من الشّهر. وعند الظّهيرة، قام القائد العامّ، بدون رضا الأميرال، بزيارة قادة فرقه العسكريّة؛ لكنّه لم يفلح في الاقتراب سوى من سفينتَيْ (فيل دو مارساي) و(بريسلاو)، اللّتين كانتا تقلاّن الفوج الخامس من الفرقتين الأولى والثّانية.[4]

1- يوم 30 ماي.

2- القدّيس فرديناند: هو الملك فرديناند الثّالث ملك قشتالة (1199–1252)، أعلن قدّيسا عام 1671، ويُعد من أبرز ملوك إسپانيا المسيحيين في فترة الاسترداد (Reconquista)، اتّصف بالتّقوى والعدل، وقام بتوحيد قشتالة وليون، واسترجع مدنًا كبرى كإشبيلية وقرطبة من الحكم الإسلامي، انظر:

Abbé Darras, Histoire générale de l'Église, t. XI, 1865 ; Catholic Encyclopedia (1913), art. «St. Ferdinand III» ; Vatican.va.

3- كلمة غير مقروءة.

4- ثمّة إحالة هنا إلى تاريخ 2 أفريل، غير أنّ الورقة الخاصّة بهذا اليوم مفقودة.

10 جوان: غادر الأسطول عند منتصف النّهار، متقدّما في نظام مُحْكَم؛ حيث سارت القافلة والأسطول في صفّ واحد خلف السّفينة الأميراليّة، على مسافة تقارب ثلاثة أرباع الميل، بينما اتّخذ السّربان موضعهما على الميمنة. وعند اقترابنا من جزيرة (كابريرا)، أبلغ أحد السّفن الشّراعيّة الصّغيرة بأنّه يحمل مراسلات خاصّة، فكان ردّ الأميرال، كالمعتاد: "إلى صباح الغد!"

11 جوان: وُزِّعت علينا الرّسائل الواردة مع البرقيّات التي وصلت في اليوم السّابق. وقد أُخبِرتُ بوصول النّقيب (Savart/سافار)، الذي قَدِم لتنفيذ تجربة على التّه الطّائرة[1]. كما بلغني أنّ المبلغ الذي كنت قد استلمته لقاء بغاليّ الحاملة، وقدره ستّة آلاف ومائتين وستين فرنكًا، قد تمّ اقتطاعه منّي، وسنرى ما يؤول إليه الأمر. أمّا الأميرال، فيؤكّد على أنّ كشّافيه سيرون سواحل الجزائر عند حلول مساء هذا اليوم. هبّت عاصفة مفاجئة، ثمّ أعقبتها أخرى بعد ساعتين، ممّا قد يحدث اضطرابًا في صفوف القافلة البحريّة والأسطول المرافق لها.

12 جوان: نحن في غاية الأسف والانقباض، فالرّيح شديدة، باردة، ولا تزال تُثير فينا الخوف من تكرار ما جرى في الحادي والثّلاثين من ماي. لقد خارت عزيمتي، ولا طاقة لي اليوم على مزيد من الكتابة.

13 جوان: عند السّاعة التّاسعة صباحًا، مررنا أمام مدينة الجزائر، والرّيح القويّة لا تزال تؤرّقنا وتبعث في النّفوس القلق. غير أنّ المدينة وبحرها قد كانا يبدوان لنا في غاية الحسن، والمنظر العامّ يشي بأرض تغمرها الخضرة، وتكسوها الأشجار من كلّ الجوانب. بلغنا وجهتنا وألقينا المرساة في الخليج الغربي لـ (سيدي فرج). كان برج (تور شيكا) والبطّاريّة الغربيّة المزوّدة بعشرين مدفعًا منزوعتي السّلاح، ولم يُرَ أثر لكائن بشري في المكان. نحن راسون على مسافة بعيدة، قاع البحر ممتاز، والميناء محميّ تمامًا في ظلّ هبوب الرّياح الشّرقيّة. لقد رأينا خيامًا منصوبة في الجبال، ومدافع على اليابسة قيد الإنشاء على الطّريق الممتدّة من شبه جزيرة (تور-شيكا) إلى (سيّدي-خالف).

توجّهت باخرة بخاريّة لقصف تلك الأشغال، فأطلقت قذيفتين من المدفع، سقطت إحداهما على مسافة قريبة أمام سفينتنا. وقد اطّلقت علينا سبع أو ثماني قنابل، انفجرت أغلبها في الجوّ أو عند خروجها من فوهات الهاون؛ ولم تُصبنا منها سوى شظيّة واحدة أصابت بحّارًا من طاقم السّفينة (برسلاو)، فأدّت إلى بتر في ساقه. رأينا عددًا غير قليل من (المور) يمتطون خيولهم، يروحون ويجيئون على امتداد السّاحل. وقد تبيّن لنا وجود ثلاث بطّاريّات مدفعيّة قيد الإنشاء، إلى جانب كلّ منها خيمة و.....[2] وعلى المرتفعات يلوح معسكر لا يبدو أنّ تعداده كبير. أمّا مبنى (تور شيكا)، فهو أيّة في الجمال؛ برج مربّع تحيط به خنادق صغيرة، يعلو ربوةً تبدو مزروعة ومعتنى بها.

1- مؤكّد عليه في المخطوط.

2- كلمة غير مقروءة.

وقد تبيّن لي من أعلى صارية السّفينة أنّ الرّسم الذي وضعه السّيّد (Boutin/بوتان)[1] لشبه الجزيرة بالغ الدّقة، فقد صوّر تضاريس المنطقة المحيطة تصويرًا أمينًا. كما لمحنا مصبّ الجدول الصّغير الذي أشار إليه في رسمه، على مسافة نصف فرسخ تقريبًا من البرزخ. وقد قصد بعض الفرسان ذلك الموضع ليسقوا خيولهم، ممّا يُبشّر بوجود مورد مائي في ذلك الموقع على الأقلّ.

كان القائد العامّ ينوي أن يحتلّ شبه الجزيرة التي هجرها العدوّ كليًّا، لأنّه أصبح عاجزًا عن التّمركز فيها. غير أنّ تنفيذ هذا القرار أُرجئ إلى الغد، نظرًا إلى أنّ القوّة المؤلّفة من ستّة آلاف جندي، التي كان من المزمع إرسالها هذا المساء، لم تكن لتبلغ الموقع قبل السّاعة الثّامنة، فضلاً عن افتقارها إلى العتاد الكافي. تمهيدًا لبسط السّيطرة على شبه الجزيرة بواسطة المدفعيّة غدًا، أُرسلت سفينتان شراعيّتان صغيرتان لترسوا في الجهة الشّرقيّة، على أن تتقدّم غدًا سفينة بخاريّة لترسو من جهة الغرب وهي في وضعيّة مواجهة. أنّ المدافع التي أقامها العدوّ خلف السّواتر التّرابية هي ذاتها التي كان قد تخلّى عنها في بطّاريّته السّابقة، بل حتى نيران المعسكرات تبدو نادرة جدًا على المرتفعات. من المزمع أنّ يبدأ الإنزال في تمام السّاعة الثّالثة من صباح الغد، إذ ينوي الأميرال إنشاء أرصفة خاصّة لتيسير عمليات الإنزال.

14 جوان: تمّ إنزالنا في الجهة الغربيّة من شبه جزيرة (سيدي فرج)، وكان البحر في هدوئه أشبه ما يكون بمرآة ساكنة. بدأت عمليّة الإنزال عند السّاعة الرّابعة تمامًا. ولو أنّ العدوّ كان متمركزًا على السّاحل، لواجهنا صعوبة بالغة. لقد أضاعوا وقتًا طويلًا من فرط الحرص على إجراء إنزالٍ مثالي. فالأميرال، كما وصفه الجنرال (Loverdo/ لوفيـردو)[2]، لا يواجه الصّعوبات فحسب، بل هو ذاته مكمنها وجوهرها[3]. وكان يضع ثقته المطلقة في مساعده الأوّل السّيّد (رانك)، الذي لا يمتّ إلى الحياة العسكريّة بأدنى صلة. إنّه[4]. .. عقبة، متضخّم الأنا، يتوهّم أنّ منطقه وحده كفيلٌ بفرض الهيبة. لقد ضيعنا وقتًا لا يُقدّر لإنزال الدّفعة الثّانية، ومن المؤكّد أنّ قسمًا كبيرًا[5] من زوارق الإنزال بقي دون استخدام. وقد لاحظ بعض ضبّاط البحريّة ذلك بأنفسهم، رغم ما يكنّونه من احترام متبادل، أو بالأحرى، من مهابةٍ يُكنّونها لرؤسائهم.

1- قام النّقيب بوتان من سلاح الهندسة، سنة 1808 باستكشافٍ لمحيط مدينة الجزائر. وقد نُشر عدد من رسوماته وخرائطه ضمن مؤلّف يحمل عنوان: لمحة عن مدينة الجزائر... المُعدّ لاستخدام جيش الحملة الاستكشافية...تم تحريره بمصلحة محفوظات الحرب.

(Paris. de l'armée expéditionnaire Picquet, 1830, 8° .)

Le texte de son rapport a été imprimé en partie par Nettement, Conquête d'Alger, pp. 574-599 (Paris, Lccoffre, 1867, 12°). Une copie plus complète est à la Bibliothèque-Musée dans le recueil Alger, t. II.

2- الفريق أوّل، قائد الفرقة الثّانية.

3- هكذا في الأصل. من الواضح أنّ هناك كلمة واحدة على الأقل مفقودة. ويمكن أن يُقرأ النّصّ على النّحو التّالي: الأميرال، كما يقول الجنرال لوفيردو، هو أصل كل صعوبة، بل يفوق الصّعوبة ذاتها.

4- تلها كلمة غير مقروءة تحتها خط، ويبدأ مقطعها اللّفظي الأول بـ"imp.. .

5- فلازي هو من كتب النّصف الأول في بداية الأمر.

10- Revue africaine, 36° année (2° Trimestre 1892).

وأخيرًا، ما إن أتمّت الفرقة السّادسة إنزال لواءَيها إلى البر، حتى شرعت في التقدّم. عندئذٍ، باشرت البطّاريّات - التي كان العدوّ قد أعدّها سلفًا - بإطلاق نيرانها على قوّاتنا. في الوقت نفسه، فتحت ثلاثة قوارب شراعيّة راسية في شرق شبه الجزيرة، ومعها ثلاث سفن بخاريّة في الجهة الغربيّة، نيرانها ضدّ المواقع المعادية. وقد تعاملت البطّاريّات بقدر من التّحفّظ، فلم تطلق على السّفن سوى القنابل، بينما صوّب المدفع قذائفه نحو كتلة من الجنود كانت رؤوسهم مغطاة بالأغطية البيضاء البارزة بوضوح فوق اخضرار الأرض. وقد كلّفنا هذا القصف خسائر جسيمة، قُدّرت بنحو ثلاثين رجلًا تمزّقت أجسادهم بفعل القذائف الثّقيلة من عيار 16. وقام الجناح الأيمن للفرقة الأولى بحركة التفاف من الجهة اليمنى، ونجحت في تطويق البطّاريّات، ما أدّى إلى إخلائها فورًا من قِبل العدو. كانت البطّاريّات مزوّدة بأحد عشر مدفعًا نُقلت من المواقع السّاحلية السّابقة، بالإضافة إلى هاونَين كانا قد استُخدما في وقت سابق لاستهداف السّفينة الشّراعيّة المكلّفة بمسح الخليجين. أثناء هذا التحرّك، كاد القائد العامّ أن يُقتل بقذيفة من عيار16 استقرّت تحت قدميه وغمرته بالتّراب، ثمّ لم تلبث قذيفة أخرى أن لامسته بعد لحظات.

كان قد تمّ إنزال بطّاريّتين يجرّهما المدفعيّون بواسطة الحبال، ومن الواضح أنّ المدفعيّة لم تستطع مواكبة حركة الفرق؛ فقد تقدّمت الفرقة الأولى حتى مسافة فرسخ من نقطة الإنزال، وتبعتها الفرقة الثّانية بحيث تؤمّن جناحها الأيمن. وكانت الفرقة الثّانية قد نزلت تقريبًا بالكامل في السّاعة التّاسعة صباحًا، في حين نزل جزء من الفرقة الثّالثة عند الظّهر، ولم يتمّ إنزال لوائها الثّالث إلّا قرابة السّاعة السّادسة مساءً. نزلت إلى البرّ سريّتان من سرايا الهندسة، إحداهما من وحدات الحفّارين، وكلتاهما تابعتان للفوج الأوّل، إضافة إلى سريّة (Chefneux/شيفنو)[1] التّابعة للفوج ذاته، وذلك في الوقت نفسه الذي نزلت فيه الفرقة الأولى. وقد بقيت سريّة الحفّارين في مواقعها.

18 جويلية: يوم الأحد، صعدتُ على متن السّفينة (Duquesne/دوكان) عائدًا إلى (تولون). لقد مضى تمامًا شهران منذ غادرتُ ميناء (تولون) متّجها إلى الجزائر، غير أنّ صعوبات الرّحلة والأعمال المضنية التي قمنا بها تجعلني أشعر وكان ستّة أشهر قد انقضت. صعدتُ إلى الميناء على متن الباخرة التي كانت تُقلّ المرضى، وقد أصابها عطلٌ قبل أن تصل سفينة (دوكان). وما إن وطئت قدماي ظهر سفينة (دوكان) حتى كانت سفينة (سفينكس) قد وصلت، فبعثنا من يستقصي الأخبار. أمّا أنا، فلم أتلقَّ سوى رسائل لا فائدة منها، في حين أنّ السّفينة كانت تحمل عصا المارشالية إلى الجنرال (Bourmont/بورمون) وتمّ منح لقب البيريّة[2] للأميرال دون سواه. وقد أبدى البحّارة تذمّرهم، زاعمين أنّهم لا يُعامَلون بمثل ما يُعامل به أفراد الجيش البرّي. وقد أقيم العدل: فإنّ إقامتنا في خليج (بالما) دليلٌ كافٍ على أنّ الأميرال لم يكن جديرًا بعصا المارشال.

1- نقيب أوّل في السّرية الثّالثة من الحفّارين التّابعين لسلاح الهندسة التّابعة للفوج الأول.

2- "البيريّة/la pairie": لقب نَبَالَة سامٍ في النّظام الملكي الفرنسي، يُمنح لمن يُعيَّن عضوًا في مجلس الأقران (Chambre des Pairs)، أعلى هيئة استشارية تشريعية بعد العرش، ويعدّ من أرفع ألقاب الشّرف في فرنسا القديمة.

راجع: .Lucien Bély, Dictionnaire de l'Ancien Régime, PUF, 1996

19 جويلية: ظلّ المرضى والجرحى يتوافدون طوال اللّيل تقريبًا، وقد فارق أحدهم الحياة. أمّا لدينا فليس ثمّة سوى داء الزُّحار (إسهال دموي) دون غيره من الأمراض. الرّياح ساكنة، والسّفينة البخاريّة تسعى جاهدة في تخليصنا من السّفن التي تطوّقنا، لكن وصول زورق يحمل إلينا مراسلات يُرغمنا على التّوقف عن التقدّم. بعد أربع ساعات من التّمايل، لا نجد من الهواء إلّا ما يُتيح لنا بالكاد اجتياز (Le Cap Caxines/رأس كاسين)[1] عند نحو السّاعة الثّالثة. وعند الرّابعة هبّت نسمة عليلة دفعتنا بقوّة طيلة اللّيل في اتّجاه جزر الباليار.

20 جويلية: نسيم لطيف ساقنا، عند السّاعة الثّانية، إلى مدخل خليج (بالما). غير أنّه، ما إن اتّجه القائد بالسّفينة صوب غرب الجزيرة حتى انقطع الهواء، وساد هدوء تامّ لم ينقشع بعد ذلك. منذ رحيلي تلازمني حالة من الضّعف والخمول الدّائمين، وأنّ لم يمنعني ذلك من تناول الطّعام، بل أنّني، عقب كلّ وجبة، أشعر بتحسّن يفوق عمّا كنت عليه من قبل. أمّا نوم اللّيل فمضطرّب للغاية. استمتعت كثيرًا بسردي أمام القائد ومن كانوا على مائدته قصّة النّقاشات التي اضطررت لخوضها في باريس، في مجلس الوزراء، بشأن حملة الجزائر، ومدى معارضة البحّارة، حتى من أولئك الذين شاركوا فيها، بل وحتى الأميرال نفسه. قالوا لي إن هذا يفسّر لهم كثيرًا من الأمور التي لم يكونوا يفهمونها؛ غير أنّهم لم يوضّحوا لي ما هي. السّكون يلفّ الأرجاء، وما نزال مرابطين قبالة جزيرة (مايوركا).

21 جويلية: استيقظنا ونحن في نفس الموضع الذي كنّا فيه بالأمس، لا جديد سوى سكون البحر. عند السّاعة التّاسعة صباحًا، هبّت نسمة خفيفة، فاجتزنا الرّأس الغربي للجزيرة، وسرنا باتّجاه الشّمال الغربي، ثمّ عاد السّكون إلى المكان عند منتصف النّهار.[2]

1- رأس كاسين: رأس بحري صخري يقع في الغرب من مدينة الجزائر العاصمة. يُعرف بالفرنسيّة باسم Cap Caxine.

انظر: Service hydrographique de la marine, Instructions nautiques: côtes d'Algérie, Paris, Imprimerie nationale, 1895, p. 145.

2- قبل هذه المذكرات، تَضَمَّنت المذكرة ملاحظة تكاد تكون محرَّرة بالكامل بخطّ يد الجنرال، تتعلّق بتوزيع وحدات سلاح الهندسة على متن سفن الأسطول. وفي نهاية المذكرة، وعلى أوراق أضيفت لاحقًا، وبخطّ يبدو، على الأرجح، أنّه لأحد كتبة فالازي، حيث وُجدت جداول تضمّ أسماء ضبّاط الهندسة المكلّفين بالمشاركة في الحملة، وقوائم مفصلة للمصاريف التي أنفقتها وحدات الهندسة بحسب المستودعات، إلى جانب توزيع العتاد الخاصّ بهذا السّلاح على سفن الأسطول.

الملحق1: أوراق الجنرال (ڤالازيه) المتعلّقة بغزو الجزائر.

NÉCROLOGIE

Le 24 janvier 1892, une foule composée de toutes les notabilités de notre ville accompagnait à leur dernière demeure les restes d'un homme de devoir et de probité. André BALLESTEROS, ancien interprète de l'armée d'Afrique. Né à Cadix le 17 juin 1822, il appartenait à une ancienne famille militaire d'Espagne ; mais, venu de bonne heure en Algérie, il considéra bientôt la France comme sa véritable patrie, résolut de la servir, et embrassa la carrière militaire. Il s'y distingua. D'abord simple brigadier aux gendarmes maures, il prend part la même année à la prise de Boghar (18 avril 1841), opère en 1842 sous le général De Bar contre les Beni-Seliman, combat avec Changarnier à l'Oued-Fodda et à l'Ouenseris ; chez les Sebeh, il est blessé et nommé sous-officier sur le champ de bataille par Yusuf lui-même. L'année suivante il assiste à la prise de la Smala par le duc d'Aumale ; puis, envoyé à Tagguine avec quelques cavaliers, il y fait preuve d'une rare énergie et rétablit l'ordre entre les tribus révoltées. Dans les intervalles d'une carrière si bien remplie, il trouva le temps de se livrer à des travaux d'un ordre tout différent. Notre Société le compta parmi ses membres. Il était interprète titulaire de 1re classe depuis 1874, chevalier de la Légion d'honneur depuis 1867. Dans un discours prononcé sur sa tombe, un de ses anciens collègues, M. Gourgeot, a exprimé les regrets du corps d'élite auquel cet homme d'honneur et de bien a appartenu. Nous y ajouterons ici ceux non moins douloureux de la *Société Historique algérienne.*

M. Gaëtano DURANDO était une des figures les plus originales d'Alger. Né en Italie, il était venu en Afrique comme adepte du fourriérisme (1850). Lorsque la colonie de l'Union-du-Sig, à laquelle il était attaché, fut dissoute, il trouva au Jardin d'Essai d'Alger l'emploi de ses facultés botaniques. Plus tard, il devint bibliothécaire et secrétaire de l'École de Médecine, et enfin fut chargé des cours de botanique des Écoles communales. C'est en cette qualité qu'il dirigeait tous les dimanches des herborisations publiques qui ont puissamment contribué à répandre en Algérie le goût des études botaniques. Par son zèle et son dévouement pour la science et aussi par le concours obligeant que tous les botanistes trouvaient auprès de lui, M. Durando était un des explorateurs qui ont le mieux mérité de la flore algérienne. Depuis de longues années, il faisait partie de notre Société aux séances de laquelle il se montrait assidu.

Pour tous les articles non signés :

Le Président,

L. RINN.

ALGER. — TYPOGRAPHIE ADOLPHE JOURDAN.

PAPIERS DU GÉNÉRAL VALAZÉ

RELATIFS A LA CONQUÊTE D'ALGER

Les documents qui suivent sont tirés du tome IV d'un recueil de pièces sur Alger formé par Frédéric Lacroix et acquis à son décès par la Bibliothèque-Musée. Tout ce volume (n° 1,512 du catalogue) est formé de papiers ayant appartenu au général Valazé qui, on le sait, remplissait dans l'armée d'expédition les fonctions de commandant du génie, avec le grade de maréchal de camp.

G. JACQUETON.

I

Notes journalières

Ces notes, de la main même du général, sont jetées au jour sur un *agenda perpétuel*, de 128 millimètres sur 78, vendu *à Paris, chez Joseph Javel, marchand de papiers, rue de Sorbonne, n° 4.* L'agenda n'a été utilisé que pendant les deux traversées d'aller et de retour, soit du 18 mai au 14 juin et du 18 au 21 juillet. Bien qu'il manque des feuillets en divers endroits, nous n'avons constaté qu'une seule lacune, signalée ci-dessous, dans la suite des notes. Encore n'est-elle pas absolument certaine. Dans notre transcription, il y a peut-être quelques erreurs de lecture. La faute en est à l'écriture de Valazé, très hâtée et toujours insuffisamment formée. La ponctuation, plus que sommaire, a été complétée et les abréviations résolues.

18 mai. — A 5 h. 3/4, monté avec le Général en chef et le Chef d'état-major (1) sur le canot de l'Amiral

(1) Le lieutenant-général Desprez.

pour aller dîner et nous installer à bord de la *Provence*. Il faisait un tems superbe.

On a fini de ponter les bateaux-bœufs avec lesquels on doit opérer le débarquement.

19 mai. — Le vent est faible, mais favorable pour sortir de la rade en mer touts les bateaux-bœufs avec plusieurs bâtiments de guerre d'escorte. Ces bâtiments enmènent le commandant Vaillant (1), le 1er et le 2e de sapeurs du 1er régiment et 1/2 compagnie de Vandelin (2) du 2e régiment.

20 mai. — L'Amiral a sa grande conférence avec touts ses commandants des vaisseaux du Roi pour leur expliquer ses tableaux qui contiennent les ordres qu'il peut avoir besoin de leur donner et ses dispositions principales. Elle dure de 4 h. du matin à 11 heures.

Le vent de la veille tombe et le soir presque calme plat.

21 mai. — Calme ; le vent se dispose à passer à l'est, c'est-à-dire à devenir tout à fait contraire pour la sortie.

22 mai. — Vent d'est.

23 mai. — Vent d'est. L'horizon devient nuageux et promet un changement de vent.

24 mai. — La mer au dehors est très mauvaise, et, malgré une petite pluie à terre, le vent reste à l'est.

Le soir, orage dans le nord-ouest, ce qui promet un bon vent.

25 mai. — Pluie assez abondante vers 5, 6 et 7 h. du matin. Aussitôt le vent tourne et passe de l'est au nord-ouest. A l'instant, l'Amiral ordonne au convoi de se tenir prêt à partir ; les premiers bâtiments de transport se mettent en marche à midi. Le n° 83 tombe sur *l'Algésiras* qui perd son petit beaupré. Cela dérange le

(1) Attaché à l'état-major du génie.

(2) Capitaine en premier à la 4me compagnie du 1er bataillon du 2me régiment.

mouvement du matin. Malgré cela, les bâtiments de la marine royale mettent à la voile, et à 5 h. 1/2 la *Provence* sort majestueusement de la rade.

26 mai. — Le vaisseau amiral et le *Trident* avec l'amiral Rozamel (1) n'ont point fait de chemin pour ranger et réunir la flotte. Au point du jour, on signale une frégate turque amené par la frégate la *Duchesse de Berry* de la station d'Alger.

Le tems est superbe ; belle mer, brise fraîche. Toute la flotte est en ordre par lignes, le convoi à l'est ; un peu en avant les transports en retard sont apperçus.

Le *Sphinx*, bâtiment à vapeur, va chercher le capitaine de la *Duchesse de Berry* (2) à 11 h. 1/2. Il arrive avec des dépêches privées. Le Capitan pacha est à bord de la frégate turque. On appelle le *Pirate*, corvette sans passagers, pour servir de mouche. La *Duchesse de Berry* salue et la *Provence* vire de bord pour aller au devant du Capitan pacha. Arrivés près de la frégate turque qui avait mis en panne, nous en avons fait autant et envoyé un canot avec le capitaine de la *Duchesse de Berry* et le second de la *Provence*. Ils ont fait savoir que le Capitan pacha allait venir à bord de la *Provence*. En effet, il y est venu. C'est un homme de quarante-cinq ans environ, une belle barbe un peu grise, une phisionomie très agréable, des ieux bleu clair très gracieux, d'une taille très élevée, une robe d'étoffe amarante avec des broderies très riches et très hautes au bas de la robe.

Il a causé un instant avec l'Amiral et le Général en chef, après quoi l'Amiral lui a présenté le chef d'état-major général de l'armée, les généraux de l'artillerie (3) et du génie, l'intendant major (4) et le capitaine du

(1) Contre-amiral commandant en second.

(2) Le capitaine de vaisseau Kerdrain.

(3) Le maréchal de camp Lahitte.

(4) Le baron Denniée.

bord (1). Il nous a fait complimenter par son interprète, aucun de nous ne sachant l'italien qu'il paraît parler avec facilité. Il a demandé quand il arriverait à Toulon. L'Amiral lui a dit que nous n'en étions guère qu'à 20 lieues et que son arrivée étant attestée par la *Duchesse de Berry* qui serait absolument à ses ordres, il chargeait le capitaine de ce bâtiment de faire passer par le télégraphe ce que S. E. le Capitan pacha voudrait faire dire à notre gouvernement.

Il a demandé à s'en aller. L'Amiral l'a prié d'accepter le café; on l'a servi et quelques confitures.

Il a demandé un pilote et qu'on lui fasse voir à Toulon tout ce qui pouvait frapper les ieux. On lui a répété que la frégate française était à ses ordres et le capitaine de ce bâtiment est venu offrir ses services.

Le Capitan pacha nous dit qu'il venait de quitter le camp de Schumla, qu'il en était parti pour se rendre à Alger. L'Amiral lui a demandé pardon de l'avoir dérangé de sa route. Il a répondu que Dieu ferait sans doute que tout s'accommoderait. L'Amiral a fait dire, si le baragoin de l'interprète, qui paraît être un juif, s'arrange bien de notre langue, que nous nous entendrions mieux avec le dey d'Alger après que nous nous serions un peu battus ensemble. Le Capitan pacha a fait un léger sourire.

Après cela, nous avons reconduit S. E. au sabord par lequel il était entré, c'est-à-dire sous le vent.

Pendant tout ce tems, la flotte et le convoi ont toujours marché. Nous allons force de voiles pour les rejoindre. Il est trois heures moins 1/4.

Le Capitan pacha s'appelle Thair pacha. C'est celui qui s'est battu au combat de Navarin. Il était alors en 2e à la tête de la flotte turque.

27 mai. — Il a fait un assez gros tems toute la nuit. Je m'étais couché de bonne heure sans dîner. Le bâti-

(1) Le capitaine de vaisseau Villaret de Joyeuse.

ment faisait des craquements qui m'ont d'abord empêché de dormir. Au point du jour, le tems était superbe.

Un pauvre diable de petit oiseau, qui est sans doute venu de Toulon avec nous, est venu se percher sur ma fenêtre. Il mange des mouches, mais que boira-t-il? Il vollige partout et n'ose quitter le bâtiment.

Notre flotte marche parfaitement en ordre sur quatre lignes : ouest (1), *réserve*, *débarquement*, *bataille* et *convoi*. Nous avons un tems superbe, pas tout à fait assez de vent. Le *Trident* marche très mal.

28 mai. — Un violent coup de vent s'est élevé pendant la nuit. Au jour, le convoi était dispersé. L'Amiral a ordonné qu'il se rendît tout entier dans la baie de Palma pour s'y rallier. Nous avons continué lentement notre route. Nous avons longé Minorque à 2 lieues environ. Nous y avons trouvé le calme et le tems s'est un peu remis. Comme avant hier, je n'ai pu manger qu'un peu de pain avec du café sans d'ailleurs aucun vomissement.

Minorque paraît bien cultivée et bien habitée.

29 mai. — Le tems a été bien toute la nuit. Nous avons passé à 10 lieues de Majorque; nous l'avons vue distinctement.

La flotte était ce matin complettement ralliée. Il est arrivé un bric venant d'Alger; il a annoncé la perte de deux brics poussés à terre par le vent et le mauvais tems; une partie des équipages a été tuée, l'autre sauvée par le Dey, y compris les 2 commandants (2). L'Amiral a envoyé ordre aux bâtiments de Palma de le rejoindre et à la station de se rallier à lui, qu'il serait après demain devant le cap Cacines.

30 mai. — Nous avons cheminé cherchant à rallier les bateaux-bœufs. On a su qu'ils étaient partis; on leur a

(1) *Sic.* Ce mot est entouré d'un cercle dans le ms.

(2) Sur cet incident, cf. le *Moniteur*, année 1830, pp. 642 et 643.

donné l'ordre de se porter vers le cap Cacines où est le rendez vous. En attendant de leurs nouvelles, on a viré de bord et marché au nord. Le tems et le vent étaient bons. Vers le soir, on a repris la route au sud et annoncé qu'on arriverait demain devant Alger. Ordre de descendre la mature à fond de cale afin d'éviter pour elle le feu des batteries (1).

31 mai. — On a vu terre; on a reconnu le cap Cacines à 5 h.; on en était à 9 lieues, mais comme on n'a point de nouvelles des bateaux-bœufs, l'Amiral a fait prendre route au nord en filant 3 nœuds par heure.

Depuis deux jours, je ne puis plus manger. Tout le monde de nous souffre de la mer en marchant au nord.

1er juin. — L'Amiral assure toujours que le tems est mauvais, et, après avoir marché au nord, il s'est décidé à aller rallier toute sa flotte dans la baie de Palma. Alors nous avons écrit nos lettres qui partiront demain matin; on nous a intimé que les lettres qui ne seraient pas sous le couvert du ministre resteraient à la poste de Toulon.

En approchant de Majorque, la mer est devenue douce et je n'ai plus souffert. Une fois dans la baie, nous avons apperçu la ville de Palma dont nous sommes à 8 ou 10 lieues. On s'est mis à courir des bordées et la réserve est allée mouiller sous Palma. Nous n'avons aucune communication avec la ville parce que nous sommes en quarantaine.

2 juin. — Après nous être approché jusqu'à 4 lieues de Palma, que nous voyons bien avec nos lunettes, nous avons mis en panne.

On a eu des nouvelles du convoi de M. Hugon (2), qui avait un peu souffert. Il se ralie et revient nous joindre.

(1) Il s'agit sans doute de l'opération qui consiste à amener les parties hautes du gréement, ce qui, en technique maritime, se dit *caler les mâts*.

(2) Le capitaine de vaisseau baron Hugon commandait le convoi de transports sur lesquels était embarqué le matériel de l'armée.

Le *Sphinx* est arrivé apportant des nouvelles de la flotille. On ne l'a pas laissé communiquer. On lui a dit qu'il suffisait de donner des nouvelles écrites demain. Un bric a été envoyé ensuite chercher ces dépêches.

3 juin. — Les dépêches du *Sphinx* sont arrivées dès le matin. Il a dit avoir vu la flotille à 3 lieues du cap Cacines et que la mer était extrêmement houleuse sur la côte d'Afrique.

Le convoi est entré dans la baie pour aller mouiller près de Palma.

Une frégate est arrivée et a répété, à ce qu'on a dit, les nouvelles du *Sphinx*.

Le tems se fait à ce qu'on espère.

4 juin. — L'Amiral a vu sa flotille entrer dans la baie ainsi que les transports partis de Toulon et qui s'étaient portés sur la côte d'Afrique. Il assure qu'il est plus content d'avoir, dit-il, sauvé tous nos moyens de débarquement que de nous avoir débarqué. Ce n'est pas notre compte.

Nous avons 80 malades sur les transports; on les envoie à Mahon; on croit que nous devons avoir en tout 200 malades.

Nous ne voyons point arriver les bateaux-bœufs!!!

On m'a apporté des nouvelles du 24 de Paris, et remis une lettre de *ma femme et de mon vieux* (1). Tout cela est parti de Toulon le 19 par un bâtiment à vapeur et a été nous chercher sur la côte d'Afrique.

Le tems est superbe et chaud; bon vent. Mais la flotille; on ne veut pas aller au devant d'elle. Le capitaine de pavillon assure que nous serons à terre dans 6 jours. Dieu l'entende.

5 juin. — Point de flotille. Il n'est rentré qu'une douzaine de bateaux-bœufs. Mêmes regrets de notre parti.

(1) Souligné dans le manuscrit; nous ignorons quel personnage Valazé désigne ainsi.

Toute la marine est impassible. Ils ne comprennent certainement pas l'expédition. Pourquoi ne pas aller au devant de cette flotille ?

En revanche, nous avons mangé de bon bifteck, etc., fruits et poisson. Nous voulions aller à Palma pour nous distraire. L'Amiral a dit que nous aurions l'air d'abandonner la partie; mais, si elle manque, le vent en sera la cause. Puisque les bateaux-bœufs et les transports partis de Toulon le 26 ont tenu la mer, pourquoi n'aurions-nous pas fait de même ?

6 juin. — Il arrive un bâtiment venant de Tunis, passant devant Alger; il amène M. de Gérardin (1) envoyé de Paris le 2 ou 3 may. Il est parti de Tunis le 2 juin. Il a eu constamment beau tems. Ce bâtiment, la *Bayonnaise*, n'a pas cessé d'avoir toutes ses voiles jusqu'au cacatoire, car, les 2 et 3, le tems était magnifique sur la côte d'Afrique, la mer douce, vent frais de *sud-ouest*. Il est arrivé devant Alger vers le 3; il a vu de sa hune 92 bateaux de la flotille ne souffrant nullement; ils les a vu revenir chacun suivant son allure.

Les troupes appellées par le Dey sont arrivées à Alger, 30,000 h. d'Oran et 13,000 de Constantine, presque touts de cavalerie.

On a mis en train des marchés avec les Tunisiens et des Arabes pour faire à l'armée des fournitures de vivres; ce ne peut être que de viande; le blé y est fort cher et fort rare; on en achète en France.

La différence avec le rapport du commandant de la *Bayonnaise* explique le séquestre dans lequel l'Amiral nous tient. Il y a tant de bâtiments qui ont été devant Alger les 1er, 2, 3 de juin que malgré les leçons nous aurions eu des renseignements. Le capitaine de la *Bayonnaise* a été interrogé par un marin *de grade*

(1) Agent français, expédié à Tunis pour y recueillir des renseignements et nouer des pratiques avec le bey de Constantine.

élevé (1) avant qu'il ait pu communiquer avec l'état-major de l'Amiral.

Mr Gérardin s'est addressé au commandant de la station (2) pour savoir où il trouverait la flotte et le Général en chef. Cet officier lui a répondu qu'il avait apperçu la flotte le 31, puis qu'elle a disparu en faisant voile vers le nord et qu'il ne sait absolument pas où elle est. C'était cela le 3 ou le 4. Il ajoute qu'il a trouvé là une centaine de nos transports de toutes les espèces, lesquels arrivés devant Alger pour rejoindre la flotte, ne sachant pas où la trouver, étaient resté à croiser sous l'appui des bâtiments de la station. Que la *Bayonnaise* avait quitté tout cela et avait marché au nord, et que, dans la journée du 4, elle avait rencontré un bric de la flotte qui lui avait dit qu'il allait porter aux bateaux-bœufs l'ordre de se rendre à Palma, qu'il y croyait la flotte, mais qu'il avertissait bien qu'il n'était pas chargé d'autre chose que de l'ordre qu'il portait, et qu'enfin ils avaient rencontré une grande quantité de bateaux de la flotille arrivant vers la baie et qu'ils y seraient cette nuit ou demain matin.

Mr Gérardin a remis une quantité de lettres, entr'autres une de l'un des capitaines de frégate tombés au pouvoir du Dey par l'erreur qu'ils ont commise près de Bougie lors du gros tems des 21 et 22 may. Cet officier supérieur donne des renseignements sur l'état des batteries de la rade, leur faiblaisse du côté de terre, l'état de l'enceinte de la ville, et il dit que devant Sidi-el-Ferruch il y a un camp de 12,000 h., un autre de 4,000 près du Château de l'Empereur et un moins nombreux près de l'embouchure de l'Arratch.

Enfin Mr Gérardin a bien assuré qu'il avait eu toujours beau tems et que sur sa route il n'avait entendu dire

(1) Souligné dans le ms.

(2) Le capitaine de vaisseau Massieu de Clerval.

nulle part qu'il avait fait mauvais. C'est ce que prouve le séjour de nos transports au milieu de la station.

L'Amiral m'a fait venir pour me demander si toutes mes lances étaient sur la flotille ainsi que mes outils et sacs à terre. Je lui ai dit que toutes mes lances étaient en effet sur les catalans (1), etc., mais que j'avais sur les 4 corvettes de réserve des outils et des chevaux de frise, que si la moitié des bateaux plats arrivaient avec les troupes cela serait bien suffisant, et que s'il n'y en arrivait pas du tout, cela serait malheureux, mais que je tâcherais de m'en passer. Je crois qu'il aurait désiré que je lui parlasse autrement, car, après m'avoir dit qu'il était bien fâcheux que je n'aie pas mis des piques sur les corvettes, d'où l'on aurait eu lieu de pouvoir les tirer, lorsque j'aie donc dit qu'il suffirait à la rigueur des outils et chevaux de frise de ces bâtiments, il s'est remis sur la grande difficulté de les en tirer. Je crois qu'il cherche des raisons pour demeurer en plan, et la raison ne s'en présente pas à mon esprit à moins qu'il n'ait la volonté absolue de réorganiser sa flotte précisément comme à Toulon pour se servir de ses tableaux de débarquement, tableaux qui ne peuvent evidement pas être exécutés, car pour cela il faudrait que l'escadre arrivât telle absolument qu'elle est composée et les nombreuses difficultés de tems dont on nous fait des monstres ne peuvent certainement pas permettre l'exécution des tableaux. Ou bien est-ce pour faire de nouveaux tableaux dont il paraît avoir la manie ? On s'y perd. Tout me paraît dominé par une incertitude qui sent terriblement la *faiblaisse* (2); on veut tout déguiser par le mistère. Le Major général (3), dont la capacité nous paraît supérieure, n'est nullement consulté. L'Ami-

(1) On sait que la flotille de débarquement comptait un certain nombre de petits bâtiments nolisés à Barcelone.

(2) Souligné dans le manuscrit.

(3) Le contre-amiral Mallet, dont Valazé reparle plus bas.

ral ne lui parle plus depuis qu'il est dans l'embarras. Il en aurait cependant grand besoin. Mr Ranke paraît être l'homme de confiance de l'Amiral; c'est son aide de camp, et l'on ne peut pas supposer que l'Amiral ne fait pas son afaire.

Je le répète, nous sommes en charte privée. La *Provence* reste éloigné de terre et des autres bâtiments et, dès qu'un bâtiment demande à communiquer, le premier mot de réponse est : *à demain, on a le tems de faire dire ce qu'on veut.* Ces conjectures me paraissent fondées.

7 juin. — Le Général en chef parle à l'Amiral de la nécessité de partir. Ce dernier donne sa parole qu'il est aussi puni que nous. Et cependant ce n'est qu'à 11 h. du matin qu'il envoit savoir ce qu'il y a de bateaux de la flotille de Marseille sous Palma, flotille sans laquelle il ne peut pas, dit-il, exécuter de débarquement; et s'il veut *partir* (1), il est certain qu'il ne voulait pas avoir de nouvelles, puisqu'au lieu de se rapprocher pendant la nuit de la ville où il pouvait en avoir, il en était au jour à plus de 12 lieues de distance.

J'ai rédigé une note où je prouve par ce que nous savons que la réunion de la flotte dans la baie de Palma est opposée aux intérêts et aux intentions du Roi.

Nous avons toujours vent sud-ouest; ainsi, si nous avions eu commancé le débarquement comme je le dis le 3 au plus tard, il aurait continué sans interruption. Quelles tristes réflexions a fait faire la conduite de l'Amiral! Car n'y a-t-il pas de plus en plus de chances contre le retour d'un tems aussi propice, et le vent qui règne et qui est aussi favorable au débarquement est contraire à notre marche. Le tems nous amène la chaleur qui doit maintenant nous amollir dans nos travaux, et quelle crainte ne devons nous pas avoir que nos troupes, entraînées pour une traversée de 8, 9 ou 10 jours,

(1) Souligné dans le ms.

et qui sont embarquées depuis 28 jours, ne contractent des maladies et que nous n'arrivions avec une armée affaiblie et malade? L'indécision de l'Amiral me paraît évidente. Il ne consulte que les officiers des grades inférieurs, s'en faisant d'ailleurs à l'air minutieux, et voilà tout (1). Nous gémissons et faisons bon visage pour ne pas nous brouiller avec ces incommodes marins. Que feraient-ils donc si nous avions des ennemis à combattre et des tempêtes? Je comprends comment notre marine s'est acquis aussi peu de gloire.

Le Général en chef a fait un ordre du jour pour annoncer aux soldats qu'ils trouveront 80 ou 100,000 ennemis sur la côte d'Afrique, mais que ce ne sont que des milices sans ordre presque tous cavaliers. Il parle aussi de 2,000 chameaux cuirassés avec des paillasses qui ont été annoncés déjà quand nous étions à Toulon et dont l'existance a été confirmé par le rapport de Mr de Lesseps (2), par Mr Gérardin et par un long rapport d'un anglais résident à Alger, lequel a envoyé une petite carte et des vues prises de différents points de terre. Il dit que le Dey a fait enlever du Château de l'Empereur la grosse artillerie qui s'y trouvait.

8 juin. — Beau tems le matin et pluie très violente de 1 h. à 6.

A 8 heures est arrivé Mr Schneider, agent de Mr Seillière (3), venant de Palma. Il en est parti le 7 de grand matin. Le commandant du convoi et celui de la réserve (4) n'ont pu lui dire où était l'Amiral. Mr Hugon avait envoyé un bric avec des dépêches. Ce bric cherchait aussi l'Amiral. Ils ne l'ont pu trouver que par

(1) *Sic.* La lecture semble certaine.

(2) Représentant de la France à Tunis en qualité de Consul général.

(3) On sait que la maison Seillière s'était chargée de la fourniture des vivres à l'armée expéditionnaire.

(4) Le capitaine de vaisseau Lemoine.

hasard. Ils étaient arrivés au milieu de la flotte et l'amiral Rosamel n'a pu leur dire non plus où était l'Amiral. On le croyait à Palma. Le hazard l'a fait tomber presque sur la *Provence*.

Mr Schneider avait vu une centaine de bateaux de la flotille dans le port de Palma. Il s'est chargé de beaucoup de lettres. J'ai envoyé une note rédigée hier au général Rogniat (1) et au général Haxo (2). Je sais que le Général en chef, le Chef d'état-major et le général d'artillerie ont écrit dans le même sens que moi, relativement à notre retour de la côte d'Afrique jusqu'ici. Le général Lahitte en a écrit à son prince (3).

M. Schneider nous a dit que tout ce qui est mouillé près de Palma s'amuse et se réjouit à terre. Le Capitaine général a reçu touts les officiers et leur a donné un bal pour la St-Ferdinand (4). Deux bâtiments ont fait danser à bord les dames de la ville.

L'Amiral m'a fait venir chez lui pour me dire qu'il n'avait que 3 des 18 bateaux de la flotille sur lesquels sont chargés mes faisseaux de piques et mes outils. Quoi qu'il n'y en ait que pour 300 mètres à un rang de hérissons, j'ai dit que je m'en contenterais, que d'ailleurs la majeure partie des autres rejoindrait. L'Amiral est convenu qu'il y avait de réuni au moins 100 des bateaux de la flotille. Il avait donné les ordres de les approvisioner de vivres et les réparer à mesure qu'ils arriveraient afin de pouvoir se mettre en mer dès le 9. Que Dieu l'entende.

Mr Ranke a voulu me prouver que les bateaux sur lesquels sont mes piques, etc., étant sans doute dans le port d'Ivice on ne pourrait pas les aller avertir de nous

(1) Inspecteur général du génie.

(2) Inspecteur général des fortifications.

(3) Le Dauphin, à la personne duquel était attaché le général Lahitte.

(4) Le 30 mai.

rejoindre. Je lui ai prouvé dans une longue conversation que ce qu'il me disait n'était pas admissible; de là retour sur la beauté du mouvement sur la baie de Palma que je n'ai point approuvé. Il a fini par me dire que nous n'étions sur la flotte que pour manger et dormir, ce que je sais bien, mais je lui ai ajouté que nous y étions pour être débarqués quand et comme il convenait pour la meilleure exécution des ordres du Roi. Il m'a dit que nous n'étions point compétents pour savoir si nous voulons être débarqués plus tôt à tel moment qu'à tel autre et qu'enfin on nous débarquerait malgré nous si on voulait. Je lui ai répondu que c'était une plaisanterie et qu'en prouvant trop il ne prouvait rien, que je ne pouvais plus continuer la discussion.

L'Amiral regarde comme tout ..... (1) d'envoyer à Ivice savoir s'il ne s'y trouve rien de notre flotille. Il a l'air d'avoir envie de partir demain. Nous verrons bien. Il avait l'air abattu; la tâche me paraît trop forte pour lui. Que ne sommes-nous conduits par l'amiral Mallet! Il a l'air d'avoir autant de facilité de conception que de résolution, mais l'Amiral continue à le tenir éloigné; il ne lui parle toujours point.

9 juin. — Le tems est toujours bon. L'Amiral rallie encore quelques bâtiments de sa flotille; il fait approvisionner par un bateau à vapeur et en prenant dans l'approvisionnement de la *Provence* les petits bâtiments de la flotille pour jusqu'au 15. A midi, au grand déplaisir de l'Amiral, le Général en chef va visiter ses généraux de division; il ne peut s'approcher que des vaisseaux la *Ville-de-Marseille* et le *Breslaw* qui porte le 5ème de la 1re et de la 2de division (2).

10 juin. — Départ de la flotte à midi. Elle s'avance dans le meilleur ordre, le convoi et la flotille en ligne

(1) Suit un mot illisible.

(2) Il y a là un renvoi au 2 avril, mais le feuillet correspondant à cette date est absent.

derrière le vaisseau amiral à 3/4 de lieues et les 2 escadres sur la droite.

Arrivés à la hauteur de Cabrera un bric annonce qu'il apporte des dépêches privées. L'Amiral répond comme de coutume à demain matin!!!!

11 juin. — On nous distribue les lettres apportées avec les dépêches la veille. On m'annonce l'arrivée du cap. Savart pour faire exécuter son *engin volant* (1); on me fait annoncer que l'on m'a retranché les 6,260 f. que j'ai touchés pour mes mulets de bât. Nous verrons.

L'Amiral assure que ses éclaireurs verront la terre d'Alger ce soir.

Il s'élève un grain, puis un autre en 2 h.; cela peut jetter du désordre dans le convoi et la flotille.

12 juin. — Nous sommes désolés; le vent est très frais et nous fait craindre toujours de voir renouveller le 31 may. Je n'ai pas le courage d'en écrire davantage.

13 juin. — A 9 h. nous avons défilé devant Alger avec un vent très frais qui nous donnait de l'inquiétude. Alger et la baie sont d'un aspect très agréable. Le pais paraît très boisé.

Nous sommes arrivés et nous avons mouillé dans la baie ouest de Sidi-el-Ferruch. La Tour-chica et la batterie de 20 pièces à l'ouest étaient désarmées; il n'y avait pas une âme. Nous sommes à l'ancre à grande portée, le fond est excellent, la rade est parfaitement bonne dans ce tems de vents d'est.

Nous avons vu des tentes dans la montagne et des batteries en terre en train d'être exécutées sur le chemin qui va de la presquile de Tour-chica à Sidi-Kalef. Un bateau à vapeur est allé canonner ces travaux. On a tiré deux coups de canon. Le boulet est venu tomber un peu en avant de notre vaisseau. On nous a tiré 7 ou 8 bombes. Elles ont éclaté pour la plupart en l'air ou en sortant

(1) Souligné dans le manuscrit.

des mortiers; elles ne nous ont blessé qu'un matelot du *Breslaw* qui a eu le mollet emporté par un éclat.

Nous avons vu un assez grand nombre de Maures courant çà et là à cheval sur le rivage. Nous avons reconnu trois batteries commencées avec une tente à côté un (1)..... sur les hauteurs un camp qui ne paraissait pas nombreux. Le bâtiment de Tour-chica est très joli; c'est une tour carrée avec de petites douves; le petit monticule que cet édifice couronne paraît cultivé. Le dessin que Mr Boutin (2) a donné de la presquile est exact, je l'ai reconnu du hunier du grand mât, il a bien représenté le terrain des environs. Nous avons vu l'embouchure du petit ruisseau qu'il a représenté à une petite demie lieue de l'istme. Des cavaliers sont venus y faire boire leurs chevaux. Cela nous promet de l'eau dans cet endroit au moins.

Le Général en chef voulait faire occuper la presquile que l'ennemi a tout à fait abandonnée parce qu'en effet il ne peut pas y tenir. On a remis cette occupation à demain parce que les 6,000 [hommes] qu'on voulait y envoyer ce soir n'y seraient arrivés qu'à 8 heures et très mal outillés.

Pour se rendre maitre de la presquile avec [de l'] artillerie demain, on a envoyé mouiller dans l'est deux brics et demain un bâtiment à vapeur ira s'embosser dans l'ouest.

Les canons que l'ennemi met en batterie derrière des épaulements de terre sont ceux de la batterie qu'il a

(1) Suit un mot illisible.

(2) Le capitaine du génie Boutin avait fait en 1808 une exploration des environs d'Alger. De ses dessins et de ses cartes, plusieurs avaient été publiés dans l'*Aperçu sur l'Etat d'Alger.... à l'usage de l'armée expéditionnaire....., rédigé au dépôt de la guerre*. (Paris, Picquet, 1830, 8°). Le texte de son rapport a été imprimé en partie par Nettement, *Conquête d'Alger*, pp. 571-599 (Paris, Lecoffre, 1867, 12°). Une copie plus complète est à la Bibliothèque-Musée dans le recueil *Alger*, t. II.

abandonné. Les feux de bivouac sont très rares sur les hauteurs.

Le débarquement commencera demain matin à 3 heures. L'Amiral compte établir des débarcadères.

14 juin. — Débarqués à l'ouest de la presquile de Sidy-el-Ferruch. La mer était comme un lac. Le débarquement a commencé à 4 h. précises. Si l'ennemi eût tenu sur le rivage, nous aurions eu du mal. A force de vouloir trop bien faire le débarquement, on a perdu beaucoup de temps. L'Amiral est, comme dit le général Loverdo (1), est bien plus que la difficulté (2). Il a une confiance absolue dans son 1er aide de camp, Mr Ranke, qui n'est pas le moins du monde militaire. Il est (3) ..... difficulté, bouffi d'amour-propre et croit en imposer par ses raisons. Nous avons perdu un tems infini pour le 2d débarquement; il est certainement resté une grande partie (4) des embarcations sans emploi. Quelques officiers de marine l'observaient eux mêmes malgré leur respect entre eux ou plutôt la crainte qu'ils ont de leurs chefs.

Enfin, aussitôt que la 1re division a eu 2 brigades à terre, elle s'est avancé. Alors les batteries préparées par l'ennemi ont joué sur nos troupes. Trois brics mouillés dans l'est de la presquile et les 3 bâtiments à vapeur dans l'ouest ont commencé le feu. Les batteries ont eu le bon esprit de ne leur envoyer que des bombes et le canon a tiré sur une masse de troupes qui se détachaient par leurs coifes blanches sur la verdure des terrains. Ce feu nous a coûté une trentaine d'hommes déchirés par les gros boulets de 16. La droite de la pre-

(1) Lieutenant-général commandant la 2e division.

(2) *Sic.* Il y a évidemment un mot au moins qui manque. On pourrait lire : *l'Amiral, comme dit le général Loverdo, en est cause bien plus que la difficulté.*

(3) Suit un mot illisible souligné, dont la première syllabe semble *imp*....

(4) Valazé avait d'abord écrit *la moitié*.

mière division a fait alors un mouvement par la droite et a tourné les batteries qui ont été aussitôt abandonnées; elles étaient armées des 11 canons qui étaient auparavant dans les batteries sur le rivage et de deux mortiers qui avaient tiré autrefois sur le bric chargé de sonder les deux baies.

En suivant ce mouvement, le Général en chef a manqué être tué par un boulet de 16 qui s'est logé sous ses pieds et l'a couvert de terre. Quelques instants après, un autre boulet l'a froissé.

On avait débarqué deux batteries que les canoniers trainaient à la prolonge. Il est aisé de sentir que le canon n'a pas pu suivre le mouvement des divisions. La 1re s'est avancé jusqu'à une lieue du débarquement; la 2e division l'a suivie de manière à soutenir sa droite. La 2e division était presqu'entièrement débarquée à 9 heures et une partie de la 3e à midi; sa 3e brigade ne l'a été que vers 6 heures.

Deux compagnies du génie, dont une de mineurs, cele du 1er régiment, et la compagnie Chefneux (1) du même régiment sont débarqué en même temps que la 1re division; la compagnie de mineurs a gardé.

18 juillet. — Dimanche, je m'embarque à bord du *Duquesne* pour retourner à Toulon. Il y a deux mois juste que je me suis embarqué à Toulon pour Alger. Les contrariétés de la traversée et les travaux me font croire qu'il y a 6 mois.

Je suis monté au port sur le vapeur qui trainait des malades; il a fait des avaries avant d'arriver au *Duquesne*.

Le *Sphinx* est arrivé au moment où je montais sur le *Duquesne;* nous avons envoyé savoir des nouvelles. A moi on n'a remis que des lettres insignifiantes, mais le bâtiment apportait le bâton de maréchal au général

(1) Capitaine en premier à la 3e compagnie de sapeurs du 1er régiment.

Bourmont et la pairie seulement à l'Amiral. Les marins se plaignent de ce qu'ils ne sont pas, disent-ils, aussi bien traités que la terre. On a fait justice : notre séjour dans la baie de Palma prouve suffisamment qu'on ne devait point donner à l'Amiral un bâton de maréchal.

19 juillet. — Il est arrivé des malades et des blessés presque toute la nuit; un était mort. Il n'y a point d'autre maladie que la dissenterie. Point de vent; le vapeur nous dégage des vaisseaux qui nous entourent; nous gagnons un peu de brise, mais un canot qui nous apporte des dépêches nous fait mettre en panne et après 4 heures de balotement nous pouvons à peine trouver assez d'air pour doubler vers 3 heures le cap Caxines.

Une brise émolliente souffle vers 4 heures et nous mène vivement toute la nuit vers les Iles Baléares.

20 juillet. — Un vent charmant nous amène vers 2 heures à l'entrée de la baie de Palma. Au moment où le commandant prend la direction à l'ouest de l'île, le vent nous quitte et nous sommes en calme plat qui ne cesse plus.

Depuis mon départ, j'éprouve une faiblaisse et une somnolence continuelle. Cela ne m'empêche pas de manger et après chaque repas je me trouve mieux qu'avant. Le sommeil de nuit va mal.

Je me suis fort amusé à raconter au commandant et à ceux qui étaient à sa table l'histoire des discussions que j'ai eues à soutenir à Paris au conseil des ministres pour l'expédition d'Alger et quelle était l'opposition des marins, même de ceux qui y ont concouru et de l'Amiral lui-même. Ils me dirent que cela leur explique beaucoup de choses qu'ils ne comprenaient pas; ils ne me dirent pas ce que c'est.

Toujours calme; nous demeurons sous l'île de Majorque.

21 juillet. — Nous nous éveillons là où nous étions la veille; toujours calme; à 9 h. une légère brise; nous

doublons la pointe ouest de l'île et nous marchons nord-ouest. Le calme revient à midi (1).

(1) Avant ces notes journalières, l'agenda contient une note presque toute entière de la main du général sur la distribution des troupes du génie à bord des bâtiments de la flotte. A la fin de l'agenda, sur des feuillets ajoutés et d'une main qui est sans doute celle d'un secrétaire de Valazé, sont des états contenant les noms des officiers du génie attachés à l'expédition, la nomenclature par dépôts des dépenses faites par le génie, enfin la répartition du matériel afférent à cette arme sur les bâtiments de la flotte.

Rectifications à la Liste générale des Membres de la Société

(CI-DESSUS, P. 5)

Membres titulaires

A ajouter : MM. Adda (Fredj), instituteur public à Constantine ;
Ficheur, professeur de géologie à l'École supérieure des Sciences, Alger ;
Gauckler, inspecteur chef du service des Antiquités, Tunis ;
Pelletan, administrateur adjoint de la commune mixte de Teniet-el-Haad.
Serre, contrôleur civil à Sfax.

A rayer : MM. Bloch et Prévost.

A corriger : MM. Durand (Victor), chef d'escadron en retraite ;
Remy, contrôleur civil suppléant, Tunis.

Sociétés correspondantes

A ajouter : Bibliothèque française de Tunis ;
Bulletin trimestriel de géographie et d'archéologie, Oran.

A rayer : Revue de l'Afrique française.

L'EXPÉDITION D'A. MARTINEZ DE ANGULO

CONTRE TLEMCEN

(JUIN-JUILLET 1536)

L'épisode dont il est question dans cette note semble avoir été jusqu'ici assez mal compris. Voici, en effet, la version courante : le comte d'Alcaudete, gouverneur d'Oran, ayant fourni à un des deux compétiteurs au trône de Tlemcen un corps auxiliaire d'Espagnols, ceux-ci, battus à deux reprises, à Tifida et au Chabet-el-Lham, auraient été presque entièrement anéantis ; en particulier, leur dernière défaite aurait été si meurtrière que le lieu de l'engagement en aurait pris le nom sinistre qu'il porte encore de *Défilé de la chair*. Ayant eu occasion de parcourir quelques documents relatifs à cette affaire, nous avons été surpris de voir qu'ils ne parlaient aucunement de cette rencontre sanglante du Chabet-el-Lham ; en même temps, nous avons constaté que l'échec des Espagnols, grave assurément, fut loin cependant d'être le désastre complet qu'y ont vu certains historiens ; ses conséquences surtout, qui furent à peu près nulles, nous ont paru avoir été exagérées d'une singulière façon. On en jugera par le récit qui va suivre, qui n'est autre chose qu'un décalque scrupuleux des textes consultés.

Ces textes sont de deux sortes. Les uns appartiennent à des chroniques composées assez postérieurement à l'événement ; tels les récits de Marmol (1) et de

(1) *Descripcion general de Affrica...*, por el veedor Luys del Marmol Caravajal, Granada, Rabut, 1573, 4°, 3 vol., au tome II, fol. 184 v°

بارتاس، الاسم الأقدم للجزائر

BARTAS LE PLUS ANCIEN NOM D'ALGER

[TAUXIER (H)/ هنري توسيّيه] و[BERBRUGGER (A)/ أدريان باربريگر]

ترجمة ودراسة: د. كبير بن عيسى
مقرّر لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

هذا المقال بجزئَيه[1]، سِجال علمي يتعلّق بالاسم الأقدم لمدينة الجزائر، دار بين ضابطين فرنسيّين هما: هنري توسيّيه (1828-1896)، وأدريان باربريگر (1801-1869)، وهما أيضا باحثان مرموقَان ممّن كتب في المجلّة الأفريقيّة.

وقد أثار هذه المعركة البحثيّة (توسيّيه) بمقاله الذي صدّره بقوله: "من الحقائق اللّافتة للنّظر والتي لم تُلاحظ حتى الآن، وهي: أنّ الجزائر، قبل أن تُعرف لدى الرّومان باسم (Icosium/إيكوزيوم)، كانت تُعرف لدى الإغريق باسم (Bartas/بارتاس). لقد كانت هذه العبارة مستفزّة لـ (باربريگر) بشكل خاصّ؛ فهو الذي كان قبل ثلاثة عقود من كتابة هذا المقال، وتحديدا عام 1839م، قد اكتشف نقشا حجريّا يؤكّد التّسمية اللّاتينية لمدينة الجزائر "إيكوزيوم"، يومَها كان توسيّيه لا يزال تلميذا في المدرسة، لذلك لم يكن إعلان توسييه اكتشاف تسمية إغريقيّة لمدينة الجزائر هي أقدم من تلك التي أشار إليها النّقش المذكور سهل الهضم على مؤسّس المجلّة الأفريقيّة، ورئيس تحريرها الأوّل.

استند (توسيّيه) في استنتاجه إلى عبارة أوردها في رحلته البحريّة الملاح اليوناني (سكيلاكس) (Skylax) الذي عاش في القرن 6 ق.م، ونصّها: "... وخليج. في هذا الخليج، جزيرة (بارتاس) وميناء". رجّح (توسيّيه) أن تكون هذه العبارة إشارة إلى مدينة الجزائر، لأنّها في تقديره الوحيدة التي يصدُق عليها هذا الوصف في الشّريط السّاحلي الممتدّ من (Thabraca/طَبَرقَة) التونسيّة حتى سيقا (Siga) بولاية عين تموشنت الجزائريّة. وقد ذكر (توسيّيه) عدّة حجج تدعم رأيه، ولم يشوّش عليه إلّا أنّ نصّ (سكيلاكس) يذكر (بارتاس) غرب شرشال، وهي في الواقع شرقيّها. وقد حاول الإجابة عن هذا الإشكال بأن وصف (سكيلاكس) مزيج من وثيقتين مختلفتين جدًّا في العمر والأصل؛ إحداهما إغريقيّة، والأخرى فينيقيّة، وأنّ (سكيلاكس) كثيرا ما كان يضع مواقع في غير موضعها.

شكّلت هذه الإجابة الحلقة الأضعف في استنتاج (توسيّيه)، وقد اتّكأ عليها (باربريگر) في ردّه الأوّل الذي كان أطول من مقال (توسيّيه) نفسه، إذ عدّها دعوى اعتباطيّة لا دليل يُسنِدُها، وقد أسهب في ذكر

1- (باربريگر (أ.)/ (BERBRUGGER (A) و(توسيّيه (هـ.)/ (TAUXIER (H)، (Bartas/بارتاس): الاسم الأقدم لمدينة الجزائر، المجلّة الأفريقيّة، الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة، الجزائر، 1869، م13، ص52. (المترجم).

ما يفنّدها، ويفُتّ في عضدّها. أسال هذا الرّد قلم (توسييه)، فأطال المقال، وأورد حججا أخرى تدعم رأيه وأعاد التّأكيد على صدق استنتاجه، وتمسّكه به. وقد اعترف (باربريگر) في جوابه الثّاني بالِحجاج الماهر وسعة الاطّلاع التي دافع بهما (توسيّيه) عن رأيه، وأكّد هو من جهته تمسّكه بموقفه، وأورد ما يدعم رأيه إلّا أنّ جوابه كان مقتضبا، وفي ذلك دليل على تضعضع موقفه.

والحقيقة أن طرح (توسيّيه) قويّ، ولا يشوبه إلّا شائبة التّرتيب، وإن كان قد أورد ما يدلّ على أن رحلة (سكيلاكس) فيها خلل بالتّرتيب، وقد أبدى (توسيّيه) جرأة علميّة واضحة بعَدِّه (بارتاس) الاسم الأقدم لمدينة الجزائر، تلك الجرأة التي لم يمتلكها من سبقه؛ فالعقيد (Lapie/لاپي) في خريطته لأفريقيا الرّومانيّة، وضع جزيرة بارتاس على ساحل الظّهرة، بين تنس ومصبّ نهر الشّلف، بينما لم يقترح (Mannert/مانيرت) أي مرادف لها، وفضّل (De Champlouis l'omet/دي شامبلوي لومي) إسقاطها من خريطته للاحتلال الرّوماني، بسبب الغموض الذي يكتنف نصّ (سكيلاكس).

إنّ هذا المقال المثير والثّوري والثّريّ، يشتمل على العديد من المعلومات القيّمة، إضافة إلى النّقطة المحوريّة في هذا النّقاش "أقدم تسمية لمدينة الجزائر"، وقد ألحقنا به تعليقات توضيحيّة إضافة إلى تلك التي كتبها الباحثان، ولا شكّ أنّ هذا المقال يدعو القارئ النّهِم، إن كان من المتخصّصين، إلى إعادة فتح باب النّقاش في موقع (بارتاس) الذي لا يزال يقينا على الشّريط السّاحلي الجزائري.

التّرجمة [1]:

من الحقائق اللّافتة للنّظر، والتي لم تُلاحظ حتى الآن، أنّ الجزائر، قبل أن تُعرف لدى الرّومان باسم (Icosium/إيكوزيوم) [2]، كانت تُعرف لدى الإغريق باسم (Bartas/بارتاس). إليكم كيف اكتشفتُ هذه الحقيقة:

لقد وضعتُ للتوّ اللّمسات الأخيرة على شرحٍ مُفصّلٍ لـ (Skylax/ سكيلاكس)[3] حول غرب ليبيا. هذه المنجَز (factum) الثّمِل باليونانية واللّاتينية، والمناقشات النّحوية، والأطروحات التّاريخيّة والجغرافيّة

1- (باربريگر (أ.)/ (BERBRUGGER (A) و(توسيّيه (هـ)/ (TAUXIER (H)، "بارتاس/Bartas": الاسم الأقدم لمدينة الجزائر، المجلّة الأفريقيّة، الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة، الجزائر، 1868، م12، ص426. (المترجم).

2- المشهور أنّ التّسمية اليونانية القديمة لمدينة الجزائر العاصمة، هي: إيكوسيون (Ikósion/Ἰκόσιον)، كما نصّت عليه عدد من المصادر الجغرافية القديمة، وورد ضمن سلسلة من المواقع السّاحلية التي توثّق جغرافيا الضّفّة الجنوبيّة للبحر الأبيض المتوسّط، ممّا يدلّ على أهمّيّتها بوصفها ميناء بحريّا في العصور القديمة، ويعتقد بعض المؤرّخين أن هذا الاسم قد يكون مرتبطًا بإيكوسي (eíkosi/εἴκοσι) الذي يشير إلى الرّقم عشرون بالإغريقيّة، وهو عدد الرّفاق الذين خلّفهم هرقل وراءه على هذا السّاحل حين أسّس مستوطنة لهم، وحتى لا يستأثّر أحدهم بتسميتها دون الآخرين، أطلقوا عليها اسم رقم عددهم الذي هو عشرون، هكذا تذكّر الأسطورة الإغريقيّة. لكنّ التّحقيق العلمي أثبت أنّ التّسمية الإغريقيّة إيكوسيون (Ikósion) تحوّرت إلى إيكوزيم (Icosim)، ثمّ إيكوزيوم (Icosium) عند الرّومان الذين سيطروا عليها بعد 146 ق-م. وهذه التّسميات كلّها مأخوذة عن الفينيقيّين، الذي أسّسوها بوصفها محطّة تجاريّة في حدود عام 1200 ق-م، وقد سمّوها: يِكسم (wyksm)، الذي يعني "جزيرة النّورَس"، ربّما لكثرة النّورَس بهذه البلدة مقارنة بغيرها، وهذا الأمر لا يزال واقعا إلى اليوم. (المترجم).

3- السّيد توسييه (Tauxier) يكتب اسم هذا الجغرافي وفق النّطق اليوناني "Scylax" بينما يُكتب عادةً "سكيلاكس". **ملاحظة التّحرير**.

المُوسّعة والشّاملة، الطّويلة جدًا والجافة جدًا، وبسبب موضوعها أيضا، مُملّةٌ جدًا لمن لا يُشارك في هذا النّوع من الدّراسات المُتخصّصة. لذلك، فهي غير مُناسبةٍ لتكون منشورة في مجلّة.

أثناء قيامي بهذا العمل، انسقت إلى ملاحظة، وسط الأوصاف المُبهمة جدا والجافة جدا والمُربكة لـ (سكيلاكس)، هذه الإشارة: "خليج، وفي هذا الخليج جزيرةٌ بميناء[1]. والواقع إنّنا إذا نظرنا إلى خريطة أفريقيا، نرى أنّه من طَبَرقَة[2] حتى (سيقا) [3]، لا يوجد على طول السّاحل سوى موقع واحد يستوفي هذه الشّروط "خليج، وفي هذا الخليج جزيرة فيها ميناء"، وهذا الموقع هو الجزائر؛ الجزيرة، كما نعلم، لم تتّحِد مع القارّة إلّا في منتصف القرن XVIم على يد القُرصان الشّهير خير الدّين بربروس [4]

إلا أنّ ثمّة صعوبة تواجه هذا التّحديد، تبدو للوهلة الأولى محيّرة للغاية. ففي نصّ (سكيلاكس) تذكر (بارتاس) فقط غرب (لوليو)، رأس، مدينة وميناء"، التي لطالما اعتُبرت (لول) في العصور النّوميدية (قيسارية) الرّومان، وشرشال في أيّامنا هذه. لكن، الجزائر العاصمة ليست غرب شرشال! بل شرقها. هذه الصّعوبة كانت لتبدو فعلاً مستعصية لو أن مؤلّف (الپريبل/Périple)[5] اكتفى بنسخ مسار بحري واحد دون تعديل، لكن الأمر ليس كذلك.

الحقيقة أن وصفه هو مزيج من وثيقتين مختلفتين جدًا في العمر والأصل؛ إحداهما خريطة (أناكسيماندر/Anaximandre)[6]، أوّل خريطة رسمها الإغريق، والأخرى قائمة فينيقيّة للمرافئ الرّئيسية على السّاحل. اعتمادًا على هاتين الوثيقتين ورغبةً في دمجهما، كان (سكيلاكس) - كما فهمنا - يعمل بشكلٍ

1- من المحتمل أنّ اسم (بارتاس) نُسي هنا سهوًا، رغم ضرورته لإضفاء الدّقّة على العبارة، كما أنّه موجود في النّصّ اليوناني. **ملاحظة التّحرير**.

2- طبرقة مدينة تونسيّة معروفة. (المترجم).

3- هي مدينة أثرية تقع في بلديّة ولهاصة على بعد 12كم جنوب غرب بني صاف في ولاية عين تموشنت، اتّخذها الملك صيفاكس عاصمة لمملكة ماسيسيليا. (المترجم).

4- لم يكن خير الدّين قاطع طريق بحري (قرصان)، كما يصوره الكتاب الغربيون، بل كان مجاهدا خرج يطلب إحدى الحسنيين، النّصر على الأعداء أو الاستشهاد في سبيل الله، عند أوّل نزوله في جزيرة جربة بتونس، خاطب أخاه عَرّوج قائلا: "مادام الموت هو نهاية كل حي، فليكن في سبيل الله". (المترجم).

5- وهو وثيقة مخطوطة تسرد الموانئ والمعالم السّاحلية مرتبةً ومتباعدةً نسبيًّا، التي يتوقع قائد السّفينة أن يجدها.

ولفظة (Périple) أصلها اللّفظة اللّاتينية (Periplus/ˈpɛrɪplʌs) المحوّرة عن الكلمة اليونانية (περίπλους/periplous)، المشتقة من (περίπλοος/periploos) التي تعني "الإبحار حول العالم". كان المقطعان (peri-) و(-plous)، مُنتجَين بشكل مستقل، وقد فهم المتحدّث اليوناني القديم الكلمة بمعناها الحرفي؛ إلّا أنّها تطورت إلى معانٍ متخصصة، أصبح أحدها مصطلحًا شائعًا في الملاحة القديمة لدى الفينيقيين واليونانيين والرّومان، يدلّ على رحلة بحريّة، سجّل فيها الملاحون اليونانيون ملاحظاتٍ متنوعة ذات صلة بالجغرافيا وغيرها. (المترجم).

6- أناكسيماندر (Ἀναξίμανδρος) (610 ق.م-546 ق.م): من أوائل الفلاسفة الإغريق، وأوّل من دوّن فلسفته، عاش في ميليتوس، إحدى مدن أيونيا. انتمى إلى المدرسة الميليسية، وتلقّى تعاليم أستاذه طاليس، وخلفه وأصبح الأستاذ الثّاني لهذه المدرسة، وكان فيثاغورس من تلامذته، كان نصّيراً مبكراً للعلم وحاول ملاحظة وشرح جوانب الكون المختلفة، وقرّر أن الطّبيعة تحكمها القوانين، تماما مثل المجتمعات البشرية، وأن أي شيء يهدّد توازنها لا يدوم طويلاً. أتاحت له معرفته بالهندسة أن يقدم لأول مرّة المزولة إلى العالم الإغريقي نقلا عن البابليين، وصنع خريطة بدائية للعالم الذي كان معروفاً بالنّسبة للإغريق حينها. (المترجم).

أعمى تقريبًا؛ لذا ليس من المستغرب أن يكون قد وضع (بارتاس) قبل (لوليو) إذا كان كلّ من هذين الاسمين ينتمي إلى مسار مختلف. وبذلك تزول الصّعوبة التي أشرنا إليها بهذه الملاحظة البسيطة.

تتيح لنا الملاحظة نفسها أيضًا تحديد موقع المدينة المذكورة بعد (بارتاس) في البربيل/الرّحلة، أريد الحديث عن (Chalca/شالكا) مدينة على نهر يحمل الاسم نفسه (شالكا)؛ تعني: النّحاس باليونانية[1]، لذا يسهل التّعرف على هذه المدينة في تنس الحالية، الواقعة على نهر (Allôla/ألولا) [2]، والتي اشتهرت منذ القدم بمناجم النّحاس[3]. وأتذكّر بشكل غامض بخصوص هذا الموضوع أنّ هذا الأمر ألهم (بن يوسف المليانى)[4] قولَ بعض العبارات السّاخرة القبيحة للغاية.[5]

شرقَ الجزائر العاصمة، يمكن بسهولة تحديد المواقع المذكورة في البربيل: "مدينة وميناء، بجانبها شاطئ رملي، ثمّ جزيرة، ثمّ مدينة بميناء، ثمّ خليج فيه "بارتاس: جزيرة بميناء" - هذه كلّها سهلة التّحديد وهي: دَلَّس وميناؤها، الشّاطئ الرّملي الذي يصب فيه وادي يسر (لا يوجد غيره على كلّ السّاحل)، جزيرة (Sandja/سانجا) [6] لواقعة شمال شرق رأس ماتيفو [7]- ماتيفو وميناؤها -، ثمّ خليج الجزائر الذي يضمّ جزيرة (Pégnon/البينيون) [8] وميناؤها. كلّ هذا يتتابع بشكل طبيعي.

1- في اليونانية القديمة، يُطلق على النّحاس: هالكوس (chalkós/χαλκός)، وقد يشير أيضًا إلى البرونز، إذ كان يُستخدم النّحاس غالبا في السّبائك مع معادن أخرى لتشكيل البرونز. (المترجم).

2- هو نهر الشّلف.

3- تشير بعض المصادر إلى أن مدينة تنس (كارتينا القديمة) كانت قريبة من مناجم نحاس في العصور القديمة، ولكن لا يوجد تأكيد على وجود مناجم نحاس نشطة حاليًا في المنطقة.

4- أحمد بن محمّد بن أحمد بن عبد الله بن يوسف الرّاشدي (840هـ-931هـ/1437م-1524م): من أشهر مشايخ الصّوفية في الجزائر والمغرب العربي في بداية القرن العاشر الهجري، اشتهر بمعارضته للدّولة الزّيانية، وتحالّفه مع الإخوة بربروس والبحارة الأتراك بعد ظهورهم بمدينة الجزائر. ولد بقرية رأس الماء قرب قلعة بني راشد، وتوفي بقرية الخربة (العامرّة حاليا) بنواحي مدينة عين الدّفلى. أسهم في بداياته بنشر الطّريقة الشّاذلية والزّروقيّة، ثمّ بدأ بنشر طريقته الخاصّة به المعروفة بالرّاشدية، وقد انتسبت إليه عدّة طرق صوفية أبرزها الطّريقة اليوسفية.

5- تنسب لأحمد بن يوسف مجموعة من الأدعية والأقوال المأثورة المسجوعة في المدن والقرى والقبائل تعدّت 118 قولا معظمها ساخرة، كان قائلوها ينسبونها إلى أحمد بن يوسف لإكسابها نوعا من الأهمّية والمصداقيّة. ولم يتميّز الرّاشدي عن بقيّة مشايخ التّصوف في أوّلى دراسات المستشرقين إلّا بهذه الأقوال والأدعية المنسوبة إليه، وقد جمعها وشرحها المستشرق الفرنسي (René Basset/رينيه باسيه) في مقال نشرته Journal asiatique/المجلّة الآسيوية) في 25 أوت 1890م، وطبع مستقلًّا سنة 1891م، بعنوان: "الأقوال السّاخرة المنسوبة لسيدي أحمد بن يوسف"؛ وهي أقوال تتأرجّح بين المدح والذم لقبائل متعددة وكثير من المدن وسكّانَها، ولعلّ من أسباب نشرها تفكيك بنية المجتمع وتماسكه، وإذكاء عوامل الفرقة فيه لتكريس الاستدمار. (المترجم).

6- هي إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط، على بعد 400 متر من شمال المرسى، وهي قطعة صغيرة من مئات الأمتار من القطر وارتفاعه 10 أمتار. (المترجم).

7- برج البحري حاليا. (المترجم).

8- قلعة (Pégnon/الينيون):حصن الصّخرة، تقع على إحدى جزائر الأربع لمدينة الجزائر، في عرض البحر الأبيض المتوسط على مسافة ثلاثمائة متر من مرسى مدينة الجزائر، شيده المهندس المعماري هارتان دوروتيريا الإسباني على أنقاض برج مراقبة للأندلسيين الفارين من محاكم التّفتيش بعد السّيطرة على مدينة الجزائر يوم 10 ماي 1510م، بقيادة القائد الإسباني الكونت بيدرو نافارو (Pedro Navarro). كان فيه مئات الجنود، واستخدم وكرا للتجسس والتّخريب، وانطلاق الغارات لنهب السّكّان، وزود بالمدافع التي قصفت المدينة وقتلت العديد من

لن أحاول هنا إثبات وجود الوثيقتين اللّتين استخدمهمّا (سكيلاكس)، فهذا سيدخلنا في أطروحة طويلة ومملة؛ كما أنّني لن أحاول إثبات أن إحدى الوثيقتين وهي التي استُمد منها اسم (بارتاس) كانت خريطة أناكسيماندر اليونانية. سأشير فقط إلى أنّ هذا يعطي (بارتاس) رسوخا في القِدَم، وإن كان أقلّ من ذاك الذي نقل عن هرقل ورفاقه العشرين، لكنّه أكثر موثوقيّة بكثير. أناكسيماندر في الواقع، عاش في القرن VI ق.م، أي في فترة (الحروب اليونانية الفارسية/Médiques) [1] و(guerre du Pèloponèse/الحرب البيلوبونيسية) تقريبًا [2].

كان اختيار (بارتاس) موقعا لمركز تجاري متوافقًا تمامًا مع العادات الفينيقيّة. فعادةً ما كان تجار هذا العرق يضعون مخازنهم كلمّا أمكنهم ذلك، على صخور السّاحل، مهما كانت غير ملائمة أو جافة بعيدة عن الماء. وكان ذلك لأنّ الموقع المنعزل لهذه الصّخور يحميهم من محاولات السّكّان الأصليين مدفوعين بقرب ثروات الفينيقيين وجشعهم الفظيع، كان السّكّان الأصليون يتجولون باستمرار حول المراكز التجاريّة، يتجسّسون على كلّ حركة من مدافعيها القلائل دون أن يكشفوا عن أنفسهم، من أجل اغتنام اللّحظة المناسبة، وفرض الحصار، وذبح التّجار، ونهب المخازن. في مواجهة هذا الخطر المُحدق باستمرار، كان على التّجار الفينيقيين أن يُفكّروا في سلامتهم وسلامة بضائعهم قبل كلّ شيء؛ كما أن جزيرة الجزائر العاصمة، التي كانت واسعة بما يكفي لإيواء حامية إسبانية في حصن لمدّة 40 عامًا، كانت ستجذب انتباههم حتمًا.

علاوة على ذلك، وجدوا هناك، إلى جانب ظروف الأمن التي سعوا إليها قبل كلّ شيء، ميزة سهولة الوصول إلى أحد أكثر الموانئ السّاحلية أمانًا، وهو أمر نادرًا ما كانوا يجدونه. "لقد أعلمنا أحد مُعلّقي (Ephore/إيفوروس) كيف كانوا يتواصلون مع السّكّان الأصليين: "عندما وصل هؤلاء الفينيقيون، كما يقول، إلى جزيرة (Kerné/كيرني)، أنزلوا سفينتهم على شاطئها، ونصّبوا خيامهمّ هناك، وأفرغوا حمولتهم ثمّ حملوها في قوارب صغيرة لنقلها إلى ساحل القارة." ومع ذلك، لم يكونوا دائمًا ينقلونها إلى الشّاطئ؛ غالبًا ما كانوا يكتفون بالرّسو قرب الشّاطئ، مؤخّرات سفنهم على الرّمال؛ وكان السّكّان الأصليون الرّاغبون في التّجارة يصطفون لاختيار مشترياتّهم.

تفضّلوا، سيّدي، بقبول تأكيد مشاعري المخلصة.

هـ. توسيّيه

ملازم في الفوج 74، حامية في ليون. ليون، 5 أكتوبر 1868.

أهلها. سيطر عليه خير الدّين بربا روس في 27 ماي 1529م بعد حصار شديد وضرب بالمدفعيّة، وأسس من حجارته مرسى مدينة الجزائر. (المترجم). ينظر:

Adrian Berbbruger, Le Pégnon D'Alger, ou les origines Du gouvernement Turc en Algérie, Challamel Libraire, Alger, 1860.

1- هي سلسلة حروب بين الإمبراطورية الأخمينية الفارسية والدويلات اليونانية (499 ق.م-449 ق.م)؛ بدأت عندما احتلّ قورش الكبير منطقة إيونية اليونانية عام 547 ق.م، وقد عانى الفرس في السّيطرة على سكّان إيونية ذوي النّزعة الاستقلالية، وقد عينوا عددا من الحكام الطّغاة لإدارة مدن المنطقة، ممّا شكل مشاكل كثيرة لليونانيين والفرس على حدّ سواء. (المترجم).

2- هي حرب يونانية قديمة، نشبت بين الحلف الدّيلي (431ق.م-404ق.م)، بقيادة أثينا ضدّ الاتحاد البيلوبونيزي بقيادة أسبرطة. (المترجم).

ملاحظات قسم التّحرير: أنّ المرادف الذي اقترحه السّيد الملازم (توسيّيه) ذو أهمّية خاصّة لنا نحن الجزائريّين [1]، الذين نبحث دائمًا عن ألقاب قديمة للمدينة البربريّة التي جعلها الغزو وطننا الثّاني والذي نعد أنفسنا محظوظين جدًا عندما يُتيح لنا البحث الدّؤوب، أو الصّدفة، أن نجد اسمًا من حين لآخر. عندما يقوم استقصاء متأنٍ، أو صدفة، يجعلنا إله الباحثين، نكتشف شخصًا ما، من وقت لآخر.

يعرف أهل الجزائر أنفسهم أنّ مدينتهم كانت جزائر بني مزغنة/جزر بني مزغنّة[2]، نسبةً إلى أسلافهم، وهم قبيلة بربريّة صغيرة أقامت أكواخها في موقع جامع المالكية الكبير، في عهد السّلالات المحلّية التي خلفت الحكم الرّوماني في أفريقيا. أخبرنا البكري أيضًا أنّه في حقبة سابقة على الأرجح، كانت جزيرة (la marine/البحريّة) نفسها تحمل اسم (Stofla/سُطُفْلَة)[3]، وهو اسم غير معروف حتى للمسلمين المحلّيين. كنّا نعلم أنّه في عصور أقدم، كانت هناك مستعمرة (Icosium/إيكوزيوم) الرّومانية، التي تظهر آثارها بين الحين والآخر في الحفريّات التي أُجريت لأغراض البناء، وخاصّة في المدينة السّفلى، والتي يمكن رؤية اسمها (Ordo Icositanorum) على نقش قديم محفور في أعلى عمود، عند زاوية شارع القفطان[4]

أخيرًا؛ كُشف لنا اسمٌ أقدم تاريخيًا، وهو (بارتاس)، بفضل البحث العلمي الدّؤوب للسّيد الملازم (توسيّيه). هل ينبغي منحه حق المواطنة؟ للإجابة على هذا السّؤال بدقّة، لابدّ بضرورة ملحّة من إخضاع هذا الاكتشاف لاختبار دراسة مناقضة. وهذا ما سنفعله، من خلال عرض شكّ وكنا وأفكارنا حول هذا الموضوع في هذه المذكّرة. ولكن قبل الدّخول في نقاش رسمي، من المّهم إعادة إنتاج المقطع الأساسي من

1- أدريان باربريگر ولد في باريس في 11 ماي 1801، ودخل الجزائر غازيا، وهكذا "جعلها الغزو وطنه الثّاني"!!، فقُبِر فيها؛ فاعجب لهؤلاء الغزاة ما أقلّ حياءهم، وأجلّ غباءهم، إذ صدّقوا أنّهم أصبحوا جزائريّين بالغزو، وأنّ أهل الجزائر صاروا أنديجان (Indigènes)، ولم يدروا أنّ الزّمان سيستدير، ويعود الحقّ إلى أصحابه، ويخرج الغزاة صاغرين. (المترجم).

2- حافظت مدينة الجزائر على تسمية (Icosium/إيكوزيوم) في عهد الوندال والبيزنطيين، وكانت ميناء مهمّا على شاطئ المتوسّط، ثمّ أفل نجمها عقب الفتح الإسلامي سنة 650م، خلال القرن VIIIم الميلادي، التي استقرّت بها قبيلة بني مزغنّة/ مزغنّاي، وهم فرع من فروع صنهاجة، وفي عام 950م، أعاد السّلطان الصّنهاجي بولوغين بن زيري إعمار المدينة وتوسيعها، وأخذت اسم الجزاير (مجموعة جزر) إشارة إلى جزائرها الأربع، ولفظ "الجَزايَرْ"، هكذا كان ينطقُها أهلُها الذين إلى اليوم كأهل الأندلس لا يهمزون، ولا يزال اسمها كذلك إلى الآن. يقول البكري: "...ومنها إلى مدينة جزائر بني مزغنّى، وهي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأوّل وآزاج محكمة تدلّ أنّها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملوّنة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم العمل وأبدع صناعة لم يغيّرها تقادم الزّمان ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع. وكانت بمدينة بني مزغنّى كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشّرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشّريعة للعيدين تفصَّصٌ كثير النّقوش والصّور. ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أصحاب السّفن من أفريقيّة والأندلس وغيرهما". أبو عبيد عبد اللّه بن عبد العزيز البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992م. ج2ص732.

3- يقول البكري متحدّثا عن الموانئ المتوسطية: "...ويليه مرسى الجزائر، وتعرف بجزائر بني مزغنّى وقد تقدّم ذكر مدينتها، وهو مرسى مأمون شتوي بين جزيرة سُطفَلَة من الشّرق إلى الغرب، وبين البرّ وبالمرسى عين عذبة. ويقابل من برّ الأندلس مرسى بنشكلة بينهما ستّ مجار". المسالك والممالك، أبو عبيد عبد اللّه بن عبد العزيز البكري، دار الغرب الإسلامي، 1992م. ج2ص756.

4- النّقش اللّاتيني المشار إليه، اكتشفه الكاتب نفسه (أدريان باربريگر) عام 1839؛ ونصّه بالعربيّة: "إلى لوسيوس سيتيوس بلوكاميانوس، ابن ماركوس من قبيلة كويرينا، مجلس مدينة إيكوسيوم [Ordo Icositanorum]: سدّد ماركوس سيتيوس سيسيليانوس، ابن سبوريوس، من قبيلة كويرينا، بصفته أفضل الأبناء، بعد التّكريم، النّفقات"، وُجد هذا النّقش على الأرجح على قاعدة تمثال أحد أعضاء منظمة ديكوريون إيكوسيوم (ضابط سلاح الفرسان)، ويبدو أن الأب، فخورٌ بتكريم المدينة لابنه، قرّر تغطّية تكاليف بناء هذا النّصّب التّذكاري. (المترجم).

(سكيلاكس) بإسهابٍ أكبر قليلًا من مراسلنا الموقّر الذي - كما رأينا- يكتفي باقتباس هذه الجملة القصيرة جدًا: "خليج، وفي هذا الخليج جزيرةٌ بميناء".

بما أنّ المؤلّفين نادرًا ما يجيدون استنساخ أنفسهم، فقد نسي السّيد (توسيّيه)، في النّسخة المحرّرة من عمله التي هي تحت أنظارنا، تحديدًا الكلمة الأساسيّة التي هي هنا (بارتاس)؛ إذ إنّها تظهر بالفعل في النّص الأصلي: ".. .Kai Kolpos. En de tô kolpo, Bartas nèsos kai limèn" [1]؛ أي: "... وخليج. في هذا الخليج، جزيرة بارتاس وميناء". الفحص البسيط لجزء الجملة الذي قرأناه للتّو، يظهر أنّه لا يوفّر عناصر تقدير كافية للباحث الذي يرغب في فهم الأسس الأساسيّة لدراسة من هذا النّوع بشكل كامل. لذلك سنقدّم، بالتّفصيل، المقطع من (سكيلاكس) الذي ينطبق على الجزء من ساحلنا بين روسيكاد (فيليبفيل) وسيغا (مصبّ نهر تافنا). سيظل الاقتباس قصيرًا جدًا، لأنّ مؤلّفنا شحيح جدا في تقديم التّفاصيل. ولكن دعونا نعطيه الكلمة؛ بعد أن ذكر، من بين مواقع أخرى معروفة، قرطاج، و(أوتيك/Utique) [2]، و[Hippo (Diarrhytos?)/هيبو (دياريوس؟)] [3]. وأصل تعداده البحري على النّحو التّالي:[4]

" (Thapsa/تابسا)، ومدينة وميناء؛

مدينة (Kaukakis/كوكاكيس) وميناء؛

مدينة (Sida/سيدا)؛

رأس (Iouliou/لوليو)، مدينة وميناء؛

مدينة (Hebdomos/هيبدوموس) وميناء؛

جزيرة (Akion/أكيون)، حيث توجد مدينة وميناء؛

جزيرة (Psamathos/بساماتوس)، مدينة وميناء؛

وخليج؛

في هذا الخليج، جزيرة (بارتاس) وميناء؛

(Khalka/خالكا)، مدينة على النّهر؛

مدينة (Arylôn/أريلون)؛

(Mès/ميس)، مدينة وميناء؛

1- لا تزال الحروف اليونانية مفقودة من المطابع الجزائريّة. [تعليق: توسييه/TAUXIER]

2- أوتيك أو 'عتيقة المعاصرة'، أقدم المستوطنات الفنيقيّة في سهول وسط شمال تونس، وما زالتّ تعرف بهذا الاسم إلى الآن. السّائد ضمّ الهمزة ولكن صمويل بوخارت يكتبها باسمها القديم 'Atica' 'עתיקא'، أي عتيقة، وقد دعاها ابن خلدون باسم (وطاقة).

3- Hippo Diarrhytus: مدينة بنزرت التونسيّة؛ أسسها الفينيقيون لتكون مركزًا تجاريًا تحت اسم (A'Kra) حوالي عام 1100 ق.م، ثمّ خضعت لسيطرة قرطاج، وتاليا الرّومان وأعطوها عددا من الأسماء (Hippo Diarrhytus Hippo, Hippo Accra,) أو (Diaritus)، أو (Zaritus). ذكرها بليني الأكبر باسم (Hippo Dirutus)، الذي قدمه على أنّه تحريف للصفة اليونانية "diarrhutos"، والتي تعني "المخترَقة بالمياه الجارية". انظر: قاموس الجغرافيا اليونانية والرّومانية، وليام سميث، لندن، ليتل براون وشركاه، 1854م، ص1070.

4- تجدر الإشارة إلى أن سكيلاكس بدأ جولته في البحر الأبيض المتوسط من مضيق جبل طارق، من هناك، سار على طول سواحل أوروبا، عائدًا إلى نقطة البداية، على طول سواحل آسيا وأفريقيا. [تعليق: توسييه/TAUXIER]

(Siguè/سيقي)، مدينة على نهر وتواجه جزيرة (أكرا/Acra).

من بين المواقع الثّلاثة عشر المذكورة أعلاه، ثلاثة منها فقط معروفة بأسماء جغرافيّة أفريقيّة وبالتّالي يُمكن تحديد موقعها بدقّة. هذه المعالم الثّلاثة، التي بدونها سيكون أي نقاش حول الموضوع قيد البحث عقيمًا تمامًا، هي:

Thapsa/ثابسا: يضع (Vibius Sequester/فيبيوس سيكوستر) في أطروحته (Fluviis/فلوفيس)[1] نهر (Thapsus/ثابسوس) قريبا من (Rusicade/روسيكادا) (Philippeville/فيليبفيل)، والذي يبدو أنّه نهر الصّفصاف. هذا يسمح لنا بافتراض أن (سكيلاكس) كان بإمكانه تسمية روسيكاد باسم النّهر المجاور. علاوة على ذلك، وبدون هذا الافتراض الضّروري، فإنّ عبارة: "Thapsa, kai polis kai limèn"، ستكون بنفس الجودة والأفضل ترجمةً إلى "تابسا، ثمّ مدينة وميناء." ومن هنا نستنتج وجود ثلاثة أشياء مميزة وهي: نهر تابسا، مدينة، ميناء؛ وهو بالضّبط ما وُجد في نهر صفصاف (Thapsus)، ومدينة روسيكاد ومستوطنة (Stora/ستورا) القديمة، ميناؤه الطّبيعي.

Iouliou/لوليو: هنا نتعرف بسهولة على أحد أشكال (lol)، أقدم اسم للمكان الذي يُسمى اليوم شرشال. لا شكّ أن (Iouliou/لوليو) هذا هو الذي أدّى إلى نشأة تحريف يوناني آخر (Ioulia/لوليا) التي أصبحت (Julia/جوليا) من خلال التّحويل إلى اللّاتينية، ومن ثمّ (Julia Cassarea/جوليا قيسارية)، وهي تسمية خطأ استخدمها بعض الكُتّاب المعاصرين الذين اتّبعنا نحن أنفسنا مثالهم السّيء لبعض الوقت [2].

Siguè/سيقي: هذا الموقع، (Siga/سيغا) في مسار الرّحلة، إلخ، المحدّد بدقّة من خلال الجزيرة المقابلة وقربه من نهر (سالسّوم/Flumen Salsum)، أو (Rio Salado/وادي الملاح)، الذي يتدفق قليلاً إلى الشّرق، يحدّ هذا تمامًا مجال بحثنا في الغرب. الحدّ الشّرقي، (Thapsa/ثابسا)، على الرّغم من أن هذه الفرضيّة أقلّ تأكيدًا، إلّا أنّها لا تزال قائمة بما يكفي. ووفقًا لهذه المعطيات، التي تجدر الإشارة إلى أنّها العناصر الوحيدة التي نملكها للنّقاش حول هذه المسألة، فإن المشكلة تنشأ بطبيعة الحال على النّحو التّالي: "كانت جزيرة بارتاس تقع في خليج غرب (lol)، وكان لها ميناء."

هذه العبارة البسيطة، التي تنبثق من أعماق الموضوع، يبدو أنّها تدحض تخمين السّيد (توسيّيه) إذ لكي يكون صحيحًا، يتعين أن جزيرة بارتاس كانت شرق (lol). يرد مراسلنا على هذه النّتيجة الحتميّة

1- فيبيوس سيكوستر مؤلّف لاتيني من القرن الرّابع أو الخامس الميلادي. يُنسب إليه تأليف كُتيّب يضمّ قوائم بأسماء جغرافية بعنوان:

De fluminibus, fontibus, lacubus, nemoribus, Paludibus, Montibus, gentibus, quorum apud poëtas

(من الأنهار والينابيع والبحيرات والغابات والأمم التي تحدّث عنها الشّعراء)

يشتمل هذا الكتيب على سبع قوائم أبجدية للأسماء الجغرافية التي ذكرها الشّعراء، وخاصّةً فيرجيل (Virgil) وأوفيد (Ovid) ولوقان (Lucan). لا تظهر العديد من هذه الأسماء في نسخنا دواوين هؤلاء الشّعراء، ربما لإهمال أو جهل المترجمين. القوائم المعنيّة، هي: فلومينا (أنهار/مجاري مائية)، فونتيس (ينابيع)، لاكوس (بحيرات)، نيمورا (غابات)، بادوس (مستنقعات)، مونتيس (جبال)، جينتس (شعوب).

2- هذه معلومات قيّمة تتّصل بتسمية شرشال.

بالقول أنّه بما أنّ (سكيلاكس) استخدم وثيقتين مختلفتين في طبيعتهما لتأليف روايته عن الإبحار حول البحر الأبيض المتوسّط، فقد يكون قد ارتكب نقلًا للمواقع.

بالنّسبة للأخطاء، فكلّ شيء وارد بلا شكّ ، لكن الإمكانيّة ليست احتمالًا، فضلا عن أن تكون يقينا علاوة على ذلك، لا ينبغي أن تتعارض استنتاجات أيّة أطروحة مع العناصر التي تشكّل أساسها الوحيد، ما لم تقدّم أدلّة مقبولة تدعم التّصحيحات التي يُعتقد أنّه يجب إجراؤها عليها. مع ذلك، في هذه الحالة، لا نجد مثل هذه الأدلّة في أي مكان، ممّا يتركنا أمام افتراض محض وبسيط. ولكن مراسلنا الموقّر سيكرّر: "إذا نظرنا إلى خريطة أفريقيا، نرى أنّه من (طبرقة) حتى (سيقا)، لا يوجد على طول السّاحل سوى موقع واحد يستوفي هذه الشّروط "خليج، وفي هذا الخليج جزيرة فيها ميناء"، وهذا الموقع هو الجزائر العاصمة الجزيرة، كما نعلم، لم تتّحد مع القارة إلّا في منتصف القرن XVIم على يد القرصان الشّهير خير الدّين بربروس [1].

قبل دحض هذه الحجّة، التي سنرى لاحقًا أنّها تستند إلى حقيقة غير دقيقة، لابدّ من تقديم شرح جوهري. عند إجراء مقارنة جغرافيّة مع مواد قديمة، وحتى مع بعض المواد الحديثة نسبيًا، من المّهم أن نضع في اعتبارنا أنّ العلم لم يتحدّث دائمًا وفي كلّ مكان باللّغة الدّقيقة المطلوبة منه اليوم. وبالتّالي وبالعودة إلى موضوعنا، يُقرّ أكثر الهيلينيين كفاءةً بأنّه: عند الإغريق، تُستخدم كلمة (Nësos/نيسوس) أي جزيرة، غالبًا بمعنى شبه الجزيرة، وذلك بسبب خلطٍ موجود أيضًا بين المؤلّفين العرب، بسبب الارتباك الذي نجده عندهم، إذ يعدّون هيئة شبه الجزيرة التي تشكّل الجزء الشّمالي من أفريقيا هي جزيرة المغرب. ويجب أن يكون هذا بمثابة تحذير ضدّ العدد الكبير من الجزر التي يشير إليها (سيلاكس) على ساحلنا وبعضها قد يكون أشباه جزر أو رؤوسا، إن لم تكن جزرًا صغيرة بسيطة.

وينطبق الشّيء نفسه على المدن (limèn) أو الموانئ؛ فقد أطلق القدماء هذا الاسم على الخلجان أو المرافئ الصّغيرة التي كان بحّارتنا يفرّون منها في الأحوال الجوّية السّيئة، بدلًا من البحث عن ملاذ هناك. لكن حال سحب سفنهم إلى رمال الشّواطئ، كما فعل (Ulysses/أوّليس) الفَطِن و(Enée/إينياس) المتديّن وكما مارس القراصنة الجزائريّون هنا بعدهم بزمن طويل، قبالة (Salpêtrière/السّالبيتريير) [2] في (Matifou/ماتيفو)، إلخ...، فذلك لأنّه لا يملك متطلّبات بحريّة كبيرة. بالنّسبة لهؤلاء الملّاحين، كان عدد الموانئ أكبر بكثير من عدد موانئنا. لذا، يجب مراعاة هذا الاختلاف في وجهات النّظر بعناية. ومع ذلك، لا ينبغي أن نذهب إلى أبعد ممّا ذهب إليه مراسلنا الموقّر، الذي وصف مرسى الجزائر القديم بأنّه "من أكثر

1- استيلاء خير الدّين على شبه جزيرة الجزائر في 21 مايو 1529، وتبعه مباشرةً بناء الرّصيف المعروف باسم 'رصيف الأميرالية'؛ وقد بُني هذا الرّصيف بنفس مواد القلعة الإسبانية، التي هُدمت آنذاك، باستثناء قاعدة الحصن، التي لا تزال موجودة وتستخدم قاعدة لبرج المنارة. [تعليق: توسييه/TAUXIER]

2- سالبيترير (Salpêtrière): مصنع/مستودع نترات الصّوديوم مُخصص لتصنيع البارود، خارج منطقة مناجم نترات الصّوديوم الوطنيّة، يَسمح بتصنيع نترات الصّوديوم... باتفاق متبادل مع المالكين.

الموانئ أمانًا على السّاحل"، في حين أنّ هذا الميناء لم يكن موجودًا حقًا إلّا منذ خير الدّين، الذي أنشأه بشكل مصطنع، كما أشار السّيد (توسيّيه) نفسه قبل ذلك بقليل.[1]

ولكن دون أن نخوض بعيدا في هذا التطوّر للأطروحة، يكفي ما سبق لتثقيف القارئ، نصل إلى حقيقة تبدو لنا قاطعة ضدّ ما يقوله السّيد (توسيّيه)، بأنّ الجزائر هي الموقع البحري الوحيد، بين (طبرقة) [حدود تونس] وسيغا [مصب التّافنة]، الذي يوفّر الشّرط اللّازم لخليج فيه جزيرة وميناء. ويكفي أن ننظر إلى خريطة سواحل الجزائر التي رسمها الرّائد (Bérard/بيرارد) لندرك عدم دقّة هذا الادعاء. فجزيرة (Mansourïa/المنصوريّة)، على سبيل المثال، في عمق خليج بجاية، قرب بلدية (Choba/شوبا) (زيّامة)، مع بقايا مستوطنة قديمة مزودة بمرسى جيّد، إلّا تُلبي متطلّبات المشكلة بشكل كافٍ؟

لنستمع إلى سلطة متخصّصة للغاية في هذا الشّأن، وهو المؤلّف الذي ذكرناه آنفًا، والذي ندين له بالوصف البحري لسواحل الجزائر؛ هذا ما يقوله في الصّفحة 109 من كتابه: "واصلنا السّير على طول السّاحل [باتّجاه الشّرق]، فوصلنا إلى جزيرة منصوريّة، الواقعة على مقرّبة شديدة من اليابسة، ممّا يوفّر مأوى جيدًا للسّفن التجاريّة العادية. رأينا هناك سفينة شراعيّة تونسيّة تحمل شحنة قمح؛ هذا الميناء صغير جدًا، لكن المياه فيه كافية للسّفن الكبيرة؛ رسونا هناك قبالة الجزيرة. هذه الجزيرة ليست مرتفعة جدًا؛ لا يمكن التّعرف عليها إلّا من خلال تلّة مخروطيّة صغيرة مستديرة تشغل الجزء الشّرقي منها، بينما هي منخفضة جدًا وصخريّة في الطّرف المقابل، حيث تتّصل بالبرّ الرّئيسي من خلال سلسلة من الصّخور عند مستوى الماء أو خارجه".

إذا كنّا قد تحدّثنا عن (المنصوريّة)، وأنّ لم تكن غرب (lol Césarée/لول قيسارية)، وهو أمر ضروري للبقاء ضمن ظروف المشكلة، فذلك لأنّنا لم نر أي مشكلة في وضع أنفسنا للحظة على الأرض التي اختارها السّيد (توسيّيه)، عندما يفترض انتقالًا للمواقع ارتكبه مؤلّفه. لكن بالعودة إلى المنطق، نجده غرب لول-شرشال، أي: في ظلّ ظروف البرنامج ذاتها، جزيرة (Colombi/كولومبي)، الواقعة بين تنس ومصب نهر الشّلف، والتي يصفها القائد بيرارد على النّحو التّالي (ص 161): "جزيرة (كولومبي)، أو (Palombas/بالومباس)، صخرة صغيرة، ارتفاعها 26 مترًا، تبعد أقلّ من نصف ميل عن السّاحل. سُمّيت بهذا الاسم لكثرة الحَمام الذي يأتي للعيش هناك؛ وقد رأينا الكثير منها هناك بالفعل؛ إذ يمكن للسّفن ذات الحمولة الكبيرة نسبيًّا المرور بين هذه الجزيرة واليابسة، نظرًا لعمقها الذي يتراوح بين أربعة وخمسة قامات".

بعد جزيرة (كولومبي)، ينحني السّاحل نحو الجنوب الغربي، مُشَكِّلًا مدخلًا ضحلًا، ولكنّه طويل جدًا ويحدُّه شاطئ جميل. تنتشر على هذا الشّاطئ بعض الصّخور السّوداء التي تُشكّل العديد منها الموانئ

1- الصّواب ما ذكره توسييه، وقد أشار إلى ذلك البكري في حديثه عن مدينة جزائر بقوله: "...ويليه مرسى الجزائر وتعرف بجزائر بني مزغنّى وقد تقدّم ذكر مدينتها، وهو مرسى مأمون شتوي بين جزيرة سطفلة من الشّرق إلى الغرب (وبين البرّ) وبالمرسى عين عذبة. ويقابل من برّ الأندلس مرسى بنشكلة بينهما ستّ مجار". المسالك والممالك، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، دار الغرب الإسلامي، 1992م. 2/ 756.

الصّغيرة، حيث تأتي الصّنادل[1] للاحتماء. وقد كان ثمّة فيما مضى تجارةٌ رائجةٌ في هذا الجزء من فترة الوصاية؛ ولا يزال النّاس يأتون إلى هنا لشراء القمح والشّمع. نعتقد، بناءً على ما سبق، أنّ السّيد العقيد (Lapie/لابي) استلهم هذه الاعتبارات عندما وضع، في خريطته لأفريقيا الرّومانية، جزيرة بارتاس على ساحل (Dahara/دهارا)، إلى الغرب قليلا من [(Bal) Arsenaria/أرسيناريا (بال)]، بين تنس ومصبّ نهر الشّلف، أي ثلث المسافة الإجماليّة عند الحديث عن تلك المدينة المشار إليها.

(Mannert/مانيرت)، إذا اعتمدنا على مُترجَمه، لا يقترح أي مرادف لبارتاس؛ ومؤخّرا، كذلك فعل السّيد (de Champlouis l'omet/دي شامبلوي لومي)، إذ أغفله من خريطته للاحتلال الرّوماني، وهو إغفال مفهوم في ظلّ وجود نصّ غير دقيق مثل نصّ (سكيلاكس).

سنُسايِر هذا الحذر إلى حدّ ما، مع البقاء ضمن حدود النّقاش السّلبي: سنقتصر على إثبات أنّ الحل الذي اقترحه السّيد (توسيّيه)، إن كان صحيحًا في جوهره، لا يبدو مقبولًا بالصّيغة التي طُرح بها ولن نحاول اقتراح حلٍّ آخر للأسباب المذكورة آنفًا.

لنتذكّر قبل ختام هذه الملاحظة المطوّلة أنّ الاسم القديم الوحيد المعروف لجزيرة الجزائر العاصمة حتى الآن هو (Stofla/ستوفلا)، الذي سبق ذكره، والذي ندين بمعرفته للبكري، وهو اسم نسيه السّكّان الأصليّون تمامًا، ولم يحفظ إلّا في أغانيهم المبتذلة، وهو جزائر بني مزغنة.

وأخيرًا، دعونا لا ننسى الإشارة إلى أنّ شبه جزيرة الجزائر لم يحتلّها الإسپان إلّا في عام 1510 إلى عام 1529، أي لمدّة تسعة عشر عامًا، وليس أربعين عامًا كما ذكر سابقًا في الصّفحة 428.

أ. ب (A. B)

بارتاس، الاسم الأقدم للجزائر
(تتمّة، ينظر: العدد رقم 72، ص426)

إلى رئيس الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة.

شكرًا لك، سيّدي، على التّعليقات التي تفضّلت بها تذييلا على ملاحظتي حول (بارتاس)؛ فقد جعلتني أدرك أنّني لم أُركز بشكل كافٍ على بعض عناصر النّقاش في رسالتي الأولى، والتي اطّلب أن تتفضّلوا بتوضيحها بشكل أفضل هنا. لكنّني مُلزم قبل كلّ شيء بتحديد نصّ رحلة (سكيلاكس) بوضوح ولهذا سأستمد المصطلحات، ليس من تصحيحات وترجمة السّيد (Charles Mûller/تشارلز مولر) التي تُحل الصّعوبات بحجّة توضيحها، بل من المخطوط الأصلي (Codex Pithou, coté 443) المحفوظ في المكتبة الإمبراطوريّة بباريس.

1- جمع "صندل"؛ وهو: قارب مسطّح القاع، تم تصميمه أساسًا لنقل البضائع الثّقيلة عبر الأنهار والقنوات، يسمى من يقودها عبّار، بعض الصّنادل لا تكون ذاتية الحركة ويلزم قطرها أو دفعها بواسطة زورق سحب.

وقد ورد نصّ هذه المخطوطة الأصليّة على النّحو التّالي:

(... louliou akra polis kai limèn ebdomos polis kai limèn Akion nèsos polis kai limèn epesti psamathos nèsos polis kai limèn kai kolpos • en de tô kolpô Bartas nèsos kai limèn Khalka polis en tô potamô...),

والتي تُترجم في رأيي إلى:

((louliou/لوليو)، رأس، مدينة وميناء سابع [1]؛ مدينة وميناء؛ Akion، جزيرة[2]، مدينة وميناء؛ يليها شاطئ رملي؛ جزيرة؛ مدينة وميناء؛ ثمّ خليج، وفي هذا الخليج بارتاس جزيرة وميناء، (Khalka/خالكا) مدينة على نهر (بهذا الاسم)...(.

نرى أن ترجمتي تختلف عن ترجمة (Mûller/مولر)، في أنّ الأخيرة تجعل الكلمتين (ebdomos) و(psamathos) اسمين علمين للمدن [3]، بدلاً من ترجمتهما بمرادفاتهما الطّبيعية، الصّفة 'سابع' والاسم الشّائع 'الشّاطئ الرّملي'. هذه ليست الحالة الوحيدة التي سمح فيها السّيد (مولر) لنفسه بهذه الرّخص.

للوهلة الأولى، يُدرك المرء أنّ نصّا بهذا القدر من الغموض، وازدراء القواعد النّحوية الضروريّة، لا يُمكّن بحال من تقديم أدلّة قاطعة على التّطابق؛ ولكن لعدم وجود ما هو أفضل، من الطّبيعي أن يُحاول المرء، بناءً على هذه الأسس غير المؤكّدة، حساب احتمال دقيق بما يكفي لإرضاء العقل، مع الحذر من التّعسف. العديد من تعريفات الجغرافيا المقارنة التي أقرّها المحدَثون لا تستند إلى أي أدلّة سوى حسابات مماثلة. علاوة على ذلك، مهمّتي هنا سهلة نوعًا ما، فالفرضيّات التي يُمكن معارضتها بفرضيّتي محدودة للغاية وسهلة الدّحض.

دون أن تَدعم هذا الافتراض، تُدرك، سيّدي، أنّ التّعريف المعقول الوحيد الذي يُمكن اقتراحه لبارتاس، إذا التزمنا بنصّ الرّحلة (périple) الدّقيق، هو جزيرة (كولومبي)، الواقعة بين تنس وشلف. فلنرَ إذن، إن كانت جزيرة (كولومبي) والمناطق المحيطة بها تُطابق أوصاف (سكيلاكس)، وإن كانت هذه الجزيرة تقع بالفعل في خليج، وإن كانت تُوفّر بالفعل مرسى، وإن كان شرق هذا المرسى؛ نصادف من الغرب إلى الشّرق، أوّلاً مدينةً بها ميناء، ثمّ جزيرة، وأخيراً شاطئًا رمليًا. لكن في وصف الرّائد (بيراد/Bérard) الذي

1- لماذا هذا العدد التّرتيبي؟ كان من الممكن تصورها في مكانّها في التّرقيم بـ1، 2، إلخ؛ ولكن هنا، عند الوصول بمفرده، دون أن نتمكن من فهم السّبب! أنّها حقا ترجمة تعسفية، كان يمكن للسيد ميلير (Müller) أن يقول ذلك بحقّ للسيد توسييه (Tauxier). **ملاحظة التّحرير**.

2- أُدرِك أنّه يمكن ترجمة نيسوس (nèsos) إلى شبه جزيرة؛ لكن هذا لا يحدّث كثيرًا في الجغرافيا؛ وعلى أي حال، لا يمكن اتّهام سكايلاكس بارتكاب هذا الخلط، لأنّه في مكان أعلى قليلاً، يستخدم للإشارة إلى شبه الجزيرة الكلمة الدّقيقة: خيرسونبسوس (khersonbsos) أو خيرسوننسوس (khersonnsos) **ملاحظة التّحرير**.

3- بمقارنة هذا المقطع في كتاب السّيد ميلير (Mûller) وفي مقتطفات شو (Shaw) (ص10)، وهما عملان كُتبا بفارق قرن من الزّمان، نجدهما متطابقين شكلاً ومعنى. وإذا كان السّيد ميلير (Mûller) قد ابتكر، فليس في هذا المكان. في الواقع، فإنّ المجدّد الحقيقي هو مراسلنا الموقر، الذي ينقل أجزاءً من النّصّ، ويُجازف بترجمة خاصّة به، وهو أمرٌ مشكوكٌ فيه للغاية. **ملاحظة التّحرير**.

تعتمد عليه، لا حديث عن الرّسو في كولومبي[1]، وأمّا الشّاطئ والموانئ الصّغيرة التي يشير إليها فإنّه يضعها إلى الغرب - وليس إلى الشّرق - من الجزيرة.

الأمر الأكثر وضوحًا، هو أنّ المدخل الصّغير الذي يقع فيه الشّاطئ، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال تشبيهه بخليج، وفي الواقع، لم يفكّر أي مؤلّف، ولا أي خريطة بورتولانية (portulan) [2] قديمة أو حديثة على حدّ علمي، في إطلاق هذا الاسم عليه.

أخيرًا، لا أرى أين يُمكن العثور على الشّاطئ الرّملي الذي ذكره سكايلاكس في منحدرات (Dahra/الظّهرة). لذلك، ولجميع هذه الأسباب، لا يُمكن تشبيه (بارتاس) بـ (كولومبي). إذا كانت (كولومبي) هي المنطقة الوحيدة التي يُمكن اعتبارها غرب (louiiou/ليليو) (شرشال) ممثّلةً لـ (بارتاس)، وإذا لم تكن (كولومبي) هي (بارتاس)، فماذا يُمكننا أن نستنتج؟

الجواب سهل: أمّا أن (سكيلاكس) أخطأ في مصطلحات وصفه، أو أنّه وضع بارتاس في غير مكانها. لا مجال للوسطية بين هذين الافتراضين. لكن تُظهر لنا دراسة (سكيلاكس) أن أخطاء هذا المؤلّف نادرًا ما تتعلّق بالأوصاف نفسها، بل تتعلّق بشكل رئيسي بالموقع الذي يحدّده لمختلف المواقع المذكورة في رحلته. ورغبة في اختصار المناقشة، أغفلت إثبات هذه النّقطة الأخيرة في إشعاري الأوّلي؛ وسأختار مصطلحًا متوسّطا هذه المرّة لتجنّب أطروحة طويلة ومملة حول هذا الموضوع؛ وسأكتفي بإظهار هنا من خلال مثالين أن (سكيلاكس) يمكن اتّهامه دون ظلّ م بأنّه في بعض الأحيان يخلط بين المواقع المهمّة أو ينقلها عن مواقعها الأصليّة.

آمل أن تكون هذه الأمثلة كافية لتكوين قناعتك:

1/ في وصفه للساحل شرق قرطاج، يضع (سكيلاكس) مدينة سرت الصّغيرة بين (Thapsus/ثابسوس) و(Neapolis/نيابوليس)، بينما تُمثَّل سرت هذه في الواقع بخليج قابس.

2/ بعد ذكر (Utique/يوتيكا)، يضيف (سكيلاكس) أنّه في الطّريق من تلك المدينة إلى (Hippou-Acra/هيبو-أكرا)، نواجه (Hippou-polis/هيبو-بوليس) والبحيرة التي تغمرها[3]. لكن، يبدو أنّ (Hippou-Acra/هيبوبو-أكرا) هذه، التي يبدو أن مؤلّفها يحاول صنع رأس، ومدينة، وهي نفسها مدينة (Hippou-

---

1- نقرأ في (دليل الملاح المتوسّطي)، ص211: "جزيرة بالوماس (Palomas) (أو جزيرة الحمائم؛ وهي كولومبي (Palomas))... تُشكّل ملجأً للسفن الصّغيرة... يأتون إليها لشحن القمح". أليس هذا مرسىً، خاصّة بالنّسبة للقدماء. **ملاحظة التّحرير**.

2- خرائط بورتولان؛ هي خرائط بحريّة، رُسِمت لحوض البحر الأبيض المتوسط لأول مرّة في القرن الثّالث عشر، وتمّ توسيعها لاحقًا لتشمل مناطق أخرى، ولوحظ في دقتها العالية في رسم الخرائط. تأتي كلمة "بورتولان" من الكلمة الإيطالية (portulano)، والتي تعني: "المتعلّقة بالموانئ أو الموانئ"، والتي تحدد على الأقل "مجموعة من اتجاهات الإبحار" منذ القرن السّابع عشر.

3- هنا، لا يزال يتعين علينا الاعتماد على التّصحيحات التي فرضها السّيد ميلير (Mûller)، حيث يقرأ النّصّ بكلماته الخاصّة:

"Apo Itukès eis Ippou akran Ippou polis kai limnè ep'autè"

يشير التّحرير هنا إلى أن السّيد ميلير أعطى في الهامش (ص 80) الدّرس الذي قرأناه للتو، ليتمّكن القارئ من مقارنته بالذي اعتمده، وهي ممارسة ضميرية كان ينبغي أن تحميه من توبيخ مراسلنا. [تعليق: توسييه/TAUXIER]

polis/هيبوبوليس)، التي يتّضح من قراءة (ديودورس/Diodore)[1]، والتي أشار إليها (Polybe/بوليبيوس) التي يسمّيها مدينة المنافقين[2]، وأكّدها (Appien/أبيان) الذي سمّاها (Hippagreta/هيباجريتا). كلمة (Acra/أكرا)، أو كما يقول (Appien/أبيان) بشكل أوضّح، كلمة (Agra/أغرا) ليس هي هنا الكلمة الإغريقيّة (Akra/أكرا)، خليج؛ بل على الأرجح (hagra/هاجرا) التي تعني في الفينيقيّة: قلعة[3]. ترجم أحد المستشرقين، الذي لم أجد اسمه، كلمة (Hippou-Acra): (يبّوا حفرة) إلى قلعة الخليج.

دون البحث هنا عن أسباب الارتباك والنّقل الذي ارتكبه (سكيلاكس) أعلاه، يكفينا لأطروحتنا أن نُظهِر أن مؤلّفنا عرضة لأخطاء من هذا النّوع، وهذا سيسمح لنا بالاشتباه، دون أن يكون ثمّة أي شيء تعسفي هنا، أنّه إذا كان مخطئًا في هاتين الحالتين، فقد يكون مخطئًا في حالات أخرى أقلّ سهولة على المعاصرين لاكتشافها. لذلك لدينا الحقّ في أخذ هذا المصدر المحتمل للخطأ في الاعتبار في المناقشة الحالية.

بالتّأكيد، هذا الإمكان ليس في حدّ ذاته احتمالًا، ولكن يمكن أن يصبح كذلك إذا لم يجد النّص المقارن بخريطة معاصرة حلاً مرضيًا للموقع المشار إليه، ويمكن أن يصبح يقينًا عندما لا توجد الظّروف المشار إليها بالفعل إلّا في موقع مختلف.

لنأخذ مثلا سرت الصّغيرة: باتباع نصّ (سكيلاكس) على خريطة، سيتفاجأ المعلّق بأن المؤلّف ذكر خليج (Thapsus/ثابسوس) تحت اسم (Syrte/سرت)، دون الحديث عن خليج قابس؛ سيعتقد إذن أن (سكيلاكس) قد يكون نقل الموقع من (Syrie/سوريا)، ثمّ سيحكم على هذه الفرضيّة بأنّها محتملة، معتبرًا أن منخفض (Thapsus/ثابسوس) هذا لا يُظهر المياه الضّحلة والتيارات التي جعلت سرت مشهورة جدا وسينتهي به الأمر إلى الاعتقاد بها يقينًا عند العثور على هذه المياه الضّحلة والتيارات في خليج قابس.

وينطبق الأمر نفسه على بارتاس: سنجد أوّلا أنّه من المحتمل أن (سكيلاكس) قد نقل وصف بارتاس، لأنّه ارتكب أخطاءً مماثلة في أماكن أخرى. ثمّ سنعتقد أنّه محتمل عند عدم العثور على أي موقع غرب (لوليو) يتوافق مع بارتاس، وسننتهي بالحكم عليه يقينًا عند اكتشاف أن وصف بارتاس ينطبق تمامًا على جزيرة الجزائر.

هنا، سيّدي، تتدخل مجدّدا للاعتراض على أن بارتاس قد تكون بالفعل الجزائر، لكن هذا غير مؤكّد، نظرًا لأنّ جزيرة أخرى، هي المنصوريّة، تُلبي شروط المشكلة تمامًا مثل جزيرة الجزائر. ستكون مُحقًا سيّدي، لو التّزمنا بهذا الجزء من الجملة (بارتاس)؛ لكن الجزء من الجملة (بارتاس) ليس معزولا في النّصّ، بل مصحوبا بأوصاف إضافية تُشير فقط إلى جزيرة الجزائر، دون أن تُشير إلى المنصوريّة.

إليك، في الواقع، ما تذكّره الرّحلة هنا: "يأتي بعد ذلك شاطئ رملي، جزيرة؛ مدينة وميناء؛ ثمّ خليج وفي هذا الخليج بارتاس جزيرة وميناء؛ تشالكا، مدينة على نهر (بهذا الاسم)..."؛ الآن، في فرضيّتي، الشّاطئ

1- Diodore, xx. 55 et xx. 57.

2- Polybe, i. 82.

3- Âppien: Guerres puniques, G. 110.

الرّملي موجود في يسّر، والجزيرة في (Sandja/سانجا)، المدينة والميناء في ماتيفو، برتاس جزيرة وميناء في الجزيرة وفي ميناء الجزائر.

على العكس من ذلك، في فرضيّة (المنصوريّة)، يمكننا بسهولة العثور على الشّاطئ الرّملي حول وادي جنجن، والجزيرة في صخرة (Zert-el-Heila/زرت الحيلة)، ولكن أين نضع المدينة والميناء اللّذين ذكرهما (سكيلاكس) بين الجزيرة و(بارتاس)؟ لذا، علينا أن نفترض أنّهما اختفيا منذ ذلك الحين دون أثر وهل علينا أن نفترض الأمر نفسه بالنّسبة للمتاجر الفينيقيّة المتجمّعة في المنصوريّة؟ سيكون هذا افتراضًا اعتباطيًا، بل ومستبعدًا للغاية: لطالما اشتهر الفينيقيون بفطنتهم التجاريّة، وعادةً ما كانت مراكزهم التجاريّة تُختار بمهارة عالية لدرجة أنّها نجت من دمار قرطاج. أليس من الطّبيعي أن نتفق معا حول الموانئ المتنازع عليها، مينائي (إيكوزيوم) و(روسگونيوم/Rusgunium)[1]، اللّذين بلغا فيما بعد من الأهمّية ما جعل الرّومان يرفعونهما إلى مصاف المستعمرات[2]؟

هذا ليس كلّ شيء: (شالكا)، مدينة على النّهر، ستُصبح في "فرضيّة منصوريّة"؛ أمّا (شوبا) أو (Saldæ/سالدّوي)؛ لكن شالكا، التي كانت أقلّ من مدينة، وفقًا لـ (Polybe/بوليبيوس)، مجموعة من المصانع التي يعالج فيها (Chalkourgeia/النّحاس)، يصعب تحديدها بأحد هذين المكانين، إذ ليس في محيطها، إن لم تخنِّ الذّاكرة، أي منجم نحاس هام. على العكس من ذلك، في فرضيّتي، تتحدّد (شالكا) جدا في (تنس)، مدينة لا تزال مشهورة حتى اليوم بخامات النّحاس في منطقة (الظّهرة).

باختصار؛ بما أنّ (بارتاس) لا يمكن العثور عليها في الغرب، ولأنّ (سكيلاكس) الذي كان عرضة لارتكاب عمليات النّقل، فإنّنا نميل بطبيعة الحال، إلى افتراض وجود نقل جديد للنّصّ، بدلاً من تغييره. وفي ضوء ذلك، يمكن حل المسألة من خلال طرحين كلاهما معقول، أحدهما يتعلّق بـ (المنصوريّة) والآخر

1- الاسم الحقيقي لهذه المستعمرّة الرّومانية هو روسغونيا (Rusgunia). **ملاحظة التّحرير**.

2- على الرّغم من أن ميناء الجزائر أصبح أكثر أمنًا ممّا كان عليه في عهد (Barberousse/بربروس)، إلّا أنّه كان ذا أهمّية كبيرة من قبل، لأن استيلاء الإسپان على بينيون (Pégnon) كان بسبب قرصنة القراصنة الجزائريين. [تعليق: توسييه/TAUXIER]

(المترجم): ما ذكره توسييه تزييف للحقائق، فهذا الحصن شيده الإسپان على أنقاض برج مراقبة للأندلسيين الفارين من محاكم التّفتيش، زوّده الإسپان بالمدافع التي كانت مصدر تهديد للمدينة وللسكّان، كما استخدم وكرا للجوسسة والتّخريب وانطلاق الغارات لنهب السّكّان، سيطر عليه خير الدّين بربا‌روس في 27 ماي 1529م بعد حصار شديد وضرب بالمدفعيّة، وأسس من حجارته مرسى مدينة الجزائر. يقول خير الدّين بربروس في مذكراته: "عندما كانت القلعة في يد الإسپان، كانوا يقومون بقصف المآذن عندما يسمعون الأذان. لقد كانوا يفعلون ذلك فقط من باب التّسلية، لكننا عندما استقرَّينا في الجزائر، توقَّفوا عن فِعلهم الشّنيع خوفًا مِنَّا، فحزنوا لفوات هذه التّسلية التي يقومون بها. ولمّا قمنا بالاستيلاء على القلعة، جيء إليَّ بقائد المدفعيّة الذي كان قد دمَّر العديد من المآذن، وقتل كثيرا من المؤذنين عندما كانوا يرفعون أصواتهم بالأذان، فقلت له: "أيها الكافر... أنت رام ماهر.. لقد كنت تدمّر المنارة بقذيفة واحدة.. انظر الآن كيف يكون الرّمي الحقيقي!"، ثمّ أمرت بوضع الكافر في فُوَّهة مدفع، وأمرت بقذفه في البحر. وضربت عنق مساعده مع عشرة من جنود المدفعيّة، أمّا الباقون فقد أمرت بإلقائهم في الزّنازين. لم تكن لنا حاجة إلى هذه القلعة، فقمت بتلغيم الصّخرة وتفجيرها، وبعد ذلك جمعت ثلاثين ألف أسير كافر كانوا يقبعون في السّجون، فاستخدمتهم في جمع صخور القلعة لبناء كاسر أمواج يربط القلعة والميناء، وبهذا الشّكل تمكنا من بناء ميناء محمي وجميل لمدينة الجزائر". خير الدّين بربروس، المذكرات، ترجمة: محمّد دراج، شركة الأصالة، ط: 1، 2010م. ص136.

بالجزائر العاصمة؛ وبما أنّ الأوّل لا يُلبّي بعض الصّعوبات بشكل كافٍ، بينما الثّاني يتكيّف تمامًا مع شروط المشكلة، أستنتج أنّ الأخير هو الصّحيح، وأنّ جزيرة الجزائر، بالتّالي، هي التي تُمثل (بارتاس) اليوم.

من المؤكّد أنّه لا يوجد دليل كامل هنا، ومعضلاتي، كما يجب أن أعترف، لا تتمتّع بكلّ الدّقّة الرّياضية التي قد يرغبها المرء؛ ولكن كما هي الحال، فإنّها تترك، في رأيي، فرصة ضئيلة للغاية للخطأ، بحيث لا يمكن اعتبار استنتاجي تعسّفيًا وبالتّالي يمكن منحه فائدة الاحتماليّة العالية.

تفضّلوا، سيّدي، بقبول تأكيد مشاعري المخلصة.

هـ. توسيّيه

ملازم في الفوج 74 بحامية في ليون.

ملاحظات قسم التّحرير[1]: على الرّغم من الحِجاج الماهر، وسعة الاطّلاع التي يدافع بهما الملازم (توسيّيه) عن رأيه، فإنّنا نعترف بأنّ رأينا لا يزال كما هو، وأنّنا لا نرى سببًا للتّخلّي عن الموقف المتشكّك الذي اضطررنا إلى تبنّيه في المناقشة. لذلك، فإنّ الملاحظات التي ستقرأونها الآن لا تتناول، بشكل عامّ جوهر المسألة، بل تتعلّق فقط ببعض الأسئلة العرضيّة.

أولاً، في بداية هذه المقالة الثّانية، يقول خصمي المحترم ما يلي:

"لكنّني مُلزم، قبل كلّ شيء، بتحديد نصّ رحلة (سكيلاكس) بوضوح، ولذلك سأستقي المصطلحات، ليس من تصحيحات وترجمات السّيد (تشارلز مولر)، التي تحُل الصّعوبات بحجّة توضيحها"، بل من المخطوطة الأصليّة، الواردة في ('le Codex Pithou, coté 443/غودكس بيثو، رقم المرجع 443)، في المكتبة الإمبراطوريّة بباريس.

يُظهر السّيد (توسيّيه) هنا قسوةً، بل وظلمًا، تجاه السّيد (تشارلز مولر)، الذي كان في نهاية المطاف على دراية تامّة بالمخطوطة الأصليّة التي يعتمدها، إضافة إلى مخطوطتين أُخريَيْن لم يطّلع عليهما السّيد (توسيّيه). نعلم الآن أنّ مخطوطة واحدة تكاد تكون عديمة الفائدة للدّراسة، وأنّنا إذا أردنا الحصول على نصّ صحيح، فعلينا مقارنة أكبر عدد ممكن من هذه الوثائق، لتصحيح أخطاء النّسّاخ. وأولئك الذين يعملون بانتظام على المخطوطات يدركون ذلك جيّدًا. اسألوا العلّامة السّيد (de Slane/دي سلان)، على سبيل المثال، إن كان لديه أكثر من ستّ مخطوطات ليقدّم لنا لنا نصّا مُنقّحًا لتاريخ ابن خلدون الثّمين عن البربر؟ لذا، ليس من الأفضل بأيّ حال من الأحوال العمل على مخطوطة واحدة، كما فعل السّيد (توسيّيه).

وبناءً على هذه الاعتبارات، التي تتوافق مع المبادئ "المقبولة عمومًا" في العلوم، فإنّنا سنستمرّ في إعطاء الأوّلويّة للنّصّ الذي حرّره السّيد (تشارلز مولر)، لأنّ هذا الباحث، كما نكرّر، اطّلع على ثلاث مخطوطات، وهي التّالية:

1- يقصد به هيئة تحرير المجلّة الأفريقيّة.

* (رحلة سكيلاكس) الموجودة في المخطوطة الباريسيّة، رقم 433، الملحق، ص.62-107 [وهو النّص الأصلي الذي تحدّث عنه السّيد (توسيّيه)]؛

*ومخطوطة (216 r.) (. 236 r. n° 142, fol-Palatin-Vatican)؛

*وأخيرًا المجموع الذي يُسميه Hervortianus sive Monacensis، إلخ

(انظر: Ses Geographi græci minores، م1؛ ص15).

ونظراً للحرّية المفرطة إلى حدّ ما التي يمنحها مراسلنا لنفسه في حججه وفي ترجماته؛ على سبيل المثال، في مواجهة هذا التّرتيب السّابع الذي يظهر هناك بطريقة غير مبررة، فإنّنا لا نفهم حقاً الانتقادات التي يوجّهها السّيد (توسيّيه) إلى السّيد (مولر) فيما يتعلّق بتفسيراته وتصحيحاته للنّصّ. لكن السّيد (مولر)، كما رأينا، عندما يتبنّى درس إحدى مخطوطاته، مع استبعاد المخطوطات الأخرى، يحرص على توضيحها بالتّفصيل، ممّا يجعله لا يُلام أمام العلم والنّقد. ثمّ إلّا يتّضح في النّهاية أنّ السّيد (مولر)، الذي اتّهمه خصمه الكريم بتغيير نصّ (سكيلاكس) تعسّفيًا، فيما يتعلّق بمقطع (بارتاس)، النّقطة الجوهرية في النّقاش، يقدّمه بالضّبط كما حرّره الدّكتور (شو)، قبل أكثر من قرن؟

إن جدية اتّهامات السّيد شارل (توسيّيه) للسّيد شارل (مولر) جعلت هذه التّفسيرات، التي نعتقد أنّها قاطعة بما فيه الكفاية، أساسيّة. يوافق مراسلنا الكريم على أن كلمة (نيسوس/nèsos) قد تعني أحيانًا شبه جزيرة، لكنّه يضع عليها قيودًا معينة، نعارضها بكتاب (هنري إسلين/Henry Eslienne): (خزينة اللّغة اليونانية/Trésor de la langue grecque) بالسّلطة الرّسمية، الذي يمنحها هذا المعنى بانتظام. ويذكر، من بين أمور أخرى، المثال البارز والمعروف لاسم (البيلوبونيز/Péloponnèse)، شبه جزيرة (بيلوبس/Pelops).

وهذا يُتيح لنا فرصةَ الإشارةِ إلى أنّ السّيدَ (توسيّيه)، بشكلٍ عام، لا يُراعي بشكلٍ كافٍ الغموضَ السّائدَ بالضّرورة في المصطلحاتِ الجغرافيّة البحريّة للقدماء، ولا الحالةَ البدائيةَ لأسطولهم، الذي كانت احتياجاتُه محدودةً للغاية، ممّا يَترتّب عليه تأكيدُه أو نفيُه لمرسىً مُعينٍ بطريقةٍ اعتباطيّةٍ نوعًا ما.

لا يمكننا أن نقبل، على سبيل المثال، تأكيده أنّ ميناء الجزائر كان ذا أهمّية كبيرة قبل بناء خير الدّين والرّصيف وما إلى ذلك؛ لأنّه لم يكن موجودًا حتى قبل هذه الإنشاءات، وكان القراصنة القدامى دائمًا تقريبًا يسحبون قواربهم (chebecs) إلى شاطئ باب الواد أو يلجأون إلى (ماتيفو/Matifou) وما إلى ذلك، اعتمادًا على الرّياح.

باختصار، نُقرّ بأنّ مناقشة مسائل الجغرافيا المقارنة لن تكون ذات أهمّية لنا، إذا أصبح نظام الإمكانيّات احتمالات، وأصبحت هذه الاحتمالات شبه يقينيّة، وسادت إلى الأبد.

أ. باربريگر

الملحق 2: (بارتاس) الاسم الأقدم لمدينة الجزائر.

BARTAS,

LE PLUS ANCIEN NOM D'ALGER.

Un fait curieux et resté jusqu'ici inaperçu, c'est qu'Alger, avant d'avoir été connu des Romains sous le nom d'Icosium, l'était déjà des Grecs sous le nom de Bartas.

Voici comment j'ai découvert ce fait :

Je viens de mettre la dernière main à un gros commentaire de Skylax (1) relatif à la Libye occidentale. Ce factum tout bourré de grec et de latin, de discussions grammaticales et de dissertations historiques et géographiques fort amples et fort complètes, est fort long, fort aride, et à cause même de son sujet, fort ennuyeux pour tous ceux qui ne se livrent pas à ce genre d'études spéciales. Il n'est donc pas de nature à être publié dans une revue.

En faisant ce travail, j'ai été amené à remarquer au milieu des descriptions si vagues, si sèches et si confuses de Skylax, cette mention « Un golfe et dans ce golfe une île avec un port (2). »

Or, si l'on jette les yeux sur une carte d'Afrique, on y voit que depuis Tabraca jusqu'à Siga, il n'y a sur toute la côte qu'une seule localité qui remplisse ces conditions « un golfe et dans ce golfe, une île avec un port, » : or, cette localité c'est Alger ; l'île, comme on le sait, n'a été réunie au continent qu'au milieu du seizième siècle par le célèbre corsaire Khaïreddin Barberousse.

Il se présente pourtant à cette détermination une difficulté qui paraît, au premier abord, des plus embarrassantes. Dans Skylax, *Bartas* n'est nommée qu'à l'ouest de « *Ioulíou, cap, ville et port* » qu'on a reconnu de tout temps pour être la *Iol* des temps numides, la *Cæsarea* des Romains, et la *Cherchel* de nos jours. Or Alger n'est pas à l'ouest de Cherchel mais à l'est.

Cette difficulté serait en effet insurmontable, si l'auteur du Périple n'avait fait que copier un *seul et unique* routier auquel

(1) M. Tauxier orthographie d'après la prononciation grecque, le nom de ce géographe qui s'écrit ordinairement Scylax. — *N. de la R.*

(2). C'est sans doute par oubli que le nom de *Bartas* manque ici, bien qu'il soit nécessaire pour donner de la précision à la phrase et qu'il se trouve dans le texte grec. — *N. de la R.*

il n'aurait rien changé ; mais il n'en est pas ainsi, et la vérité c'est que sa description est la combinaison de deux documents fort différents d'âge et d'origine, dont l'un est la carte d'Anaximandre, la première que les Grecs aient dressée, et l'autre une liste phénicienne des principaux comptoirs de la côte.

Réduit à ces deux documents et voulant les combiner, Skylax, on le comprend, a dû presque toujours opérer en aveugle ; aussi n'y a-t-il rien d'étonnant qu'il ait pu placer *Bartas* avant *Ioulíou*, si ces deux noms appartenaient chacun à un itinéraire différent. La difficulté que nous avons signalée tombe donc devant cette simple observation.

La même observation nous permet aussi de retrouver l'emplacement de la ville qui vient dans le périple après Bartas : je veux parler de « *Chalca, ville sur le fleuve du même nom.* » Chalca en grec veut dire cuivre, il est donc facile de reconnaître cette ville dans la Ténès de nos jours, qui est située sur le fleuve Alléla et qui a été de tous temps fameuse par ses mines de cuivre. Je me rappelle même vaguement à ce sujet que cela a donné à Ben Youcef, le milianien, l'occasion de je ne sais quel dicton fort malveillant.

A l'est d'Alger, les localités mentionnées par le Périple se retrouvent aussi très-facilement : une ville et un port ; à côté de là un rivage sablonneux, puis une île, puis une ville avec un port, puis un golfe et dans ce golfe, Bartas, île avec un port, » sont faciles à déterminer, ce sont : Dellys et son port. — le rivage sablonneux où débouche l'Isser (il n'y a que celui-là sur toute la côte), — l'île Sandja qui est au nord-est et près du cap Matifou, — Matifou et son port, — puis le golfe d'Alger et dans ce golfe l'île du Pégnon et son port. — Tout cela se suit naturellement.

Je n'essaierai pas de prouver ici l'existence des deux documents employés par Skylax, ce serait entrer dans une longue et ennuyeuse dissertation ; je ne prouverai pas non plus que celui de ces deux documents auquel a été emprunté le nom de Bartas était la carte grecque d'Anaximandre ; je ferai seulement remarquer que cela donne à Bartas une fort haute antiquité, moins considérable, il est vrai, que celle qui provenait d'Hercule et de ses vingt compagnons, mais bien plus certaine. Anaximandre,

en effet vivait dans le sixième siècle avant notre ère, c'est-à-dire vers le temps des guerres Médiques et de la guerre du Péloponèse.

Le choix de Bartas comme emplacement d'un comptoir était tout-à-fait dans les coutumes phéniciennes. — D'habitude, les marchands de cette race logeaient quand ils le pouvaient leurs magasins sur les rochers de la côte, si incommodes et si privés d'eau qu'ils pussent être. C'est que la position insulaire de ces rochers les défendait contre les tentatives des indigènes. — Sollicités par le voisinage des richesses phéniciennes et excités par la grossière cupidité du sauvage, les naturels étaient sans cesse à rôder aux environs des comptoirs, épiant sans se montrer tous les mouvements de ses rares défenseurs, pour saisir le moment favorable, forcer l'enceinte, massacrer les marchands et piller les magasins. « Devant ce danger toujours menaçant, les négociants phéniciens devaient avant tout songer à leur sécurité et à celle de leurs marchandises ; aussi l'île d'Alger, assez considérable pour avoir logé pendant 40 ans, une garnison espagnole dans un fort, devait-elle attirer forcément leur attention. » Ils y trouvaient d'ailleurs, ce qu'ils rencontraient fort rarement, outre les conditions de sécurité qu'ils recherchaient avant tout, l'avantage d'un abordage facile dans un des ports les plus sûrs de la côte. « Un commentateur d'Ephore nous a appris de quelle façon ils communiquaient avec les indigènes : « Quand ces Phéni- « ciens, dit-il, arrivaient à l'île de Kerné, ils faisaient aborder « leur vaisseau sur son rivage, s'y dressaient des tentes, y dé- « barquaient leurs cargaisons et les chargeaient ensuite sur de « petits bateaux pour les transporter sur la côte du continent. » Encore ne les descendaient-ils pas toujours à terre : souvent ils se contentaient de se tenir près du rivage, la poupe engagée sur le sable ; et les indigènes qui voulaient commercer se mettaient sur un rang pour choisir leurs emplettes.

Veuillez agréer, Monsieur, l'assurance de mes sentiments dévoués,

H. TAUXIER.

Sous-lieutenant au 74e, en garnison à Lyon.

Lyon le 5 octobre 1868.

Note de la Rédaction. — La synonymie proposée par M. le lieutenant Tauxier a un intérêt très-particulier pour nous autres algériens qui sommes toujours à l'affût des anciens titres de la cité barbaresque dont la conquête a fait notre seconde patrie et qui nous estimons si heureux quand une patiente investigation, ou le hasard, ce Dieu des chercheurs, nous en fait découvrir quelqu'un, de temps en temps.

Les Indigènes d'Alger, eux-mêmes, savent que leur ville a été « El-Djezaer el Beni Mezaranna, les îles des Beni Mezaranna », du nom de leurs ancêtres, petite peuplade berbère qui avait ses gourbis sur l'emplacement de la grande mosquée des Malékites, sous les dynasties indigènes qui succédèrent à la domination romaine en Afrique.

Bekri nous avait appris aussi qu'à une époque sans doute plus ancienne, l'île de la marine proprement dite a porté le nom de « Stofla » aujourd'hui inconnu, même aux musulmans de l'endroit.

Nous savions que, dans des temps plus reculés encore, il y avait eu ici la colonie romaine d'Icosium, dont les vestiges se montrent de temps à autre dans les fouilles que l'on fait pour construire, surtout dans la basse ville, et dont on peut voir le nom *(Ordo Icositanorum)* sur une inscription antique encastrée en haut d'un pilier, au coin de la rue du Caftan.

Enfin, voici qu'un nom plus ancien encore — historiquement parlant — se révèle à nous, celui de BARTAS, grâce aux laborieuses et savantes recherches de M. le lieutenant Tauxier.

Doit-on lui accorder le droit de cité ? Pour pouvoir répondre pertinemment, il faut, de toute nécessité, faire passer cette découverte par l'épreuve d'une étude contradictoire. C'est ce que nous allons faire, en exposant dans cette note nos doutes et nos idées sur la matière.

Mais avant d'entamer une discussion en règle, il importe de reproduire le passage essentiel de Scylax avec un peu plus d'étendue que ne l'a fait notre honorable correspondant qui, on l'a vu, se borne à en citer cette très-courte phrase :

« Un golfe et dans ce golfe une île avec un port ».

Comme les auteurs se copient rarement bien eux-mêmes, M. Tauxier, sur la mise au net de son travail que nous avons sous les yeux, a oublié précisément le mot essentiel qui était ici *Bartas* ; car il y a bien dans le texte original.

« ... *Kai Kolpos. En de tó kolpo, Bartas nèsos kai limèn* (1) ».

C'est-à-dire : « ... et un golfe. Dans ce golfe, l'île de Bartas et un port. »

A la simple inspection du lambeau de phrase qu'on vient de lire, on comprend qu'il ne livre pas assez d'éléments d'appréciation au travailleur désireux de se rendre bien compte des bases essentielles d'une étude de ce genre.

Aussi, nous allons donner, in extenso, le passage de Scylax qui s'applique à la partie de notre littoral comprise entre Rusicade (Philippeville) et Siga (embouchure de la Tafna). La citation sera bien courte encore, car notre auteur est fort avare de détails.

Mais laissons-lui la parole ; après avoir nommé, entre autres localités connues, Carthage, Utique et Hippo (Diarrhytos ?), il continue ainsi son énumération maritime (2) :

« *Thapsa*, et ville et port ;
La ville de Kaukakis et un port ;
La ville de Sida ;
Le promontoire de *Iouliou*, ville et port ;
La ville d'Hebdomos et un port ;
L'île d'Akion où il y a une ville et un port ;
L'île de Psamathos, ville et port ;
Et un golfe ;
Dans ce golfe, est l'île de BARTAS avec un port ;
Khalka, ville sur le fleuve ;
La ville d'Arylôn ;
Mès, ville et port ;

(1) Les caractères grecs continuent à manquer dans les imprimeries algériennes.

(2). Il est bon d'avertir que Scylax commence son tour de la Méditerranée par le détroit de Gibraltar, d'où il suit les côtes d'Europe, pour revenir au point de départ, en longeant le littoral de l'Asie et de l'Afrique.

Siguè, ville sur un fleuve et ayant en face d'elle l'île d'Acra. »

Des treize localités nommées ci-dessus, trois seulement portent des noms connus dans la géographie africaine et peuvent, par conséquent, se placer avec certitude. Ces trois jalons, sans lesquels toute discussion sur le sujet qui nous occupe serait radicalement stérile, sont :

1° *Thapsa*. Vibius Sequester, dans son traité de *Fluviis*, place un fleuve *Thapsus* auprès de Rusicade (Philippeville), lequel paraît être le Safsaf. Cela autoriserait à supposer que Scylax a pu désigner Rusicade par le nom du fleuve voisin. Au reste, sans qu'il soit besoin de cette supposition, la phrase « Thapsa, kai polis kai limèn » sera aussi bien et même mieux rendue par « Thapsa, puis une ville et un port ». D'où on peut déduire qu'il y a trois choses distinctes, à savoir : le fleuve Thapsa, une ville, un port ; ce qui se retrouvait exactement dans la rivière Safsaf (Thapsus), la cité de Rusicade et l'établissement antique de Stora, son port naturel.

2° *Iouliou*. On reconnaît ici sans peine une variante de Iol, le plus ancien nom du lieu qui s'appelle aujourd'hui Cherchel. C'est sans doute ce Iouliou qui a donné naissance à une autre altération grecque, *Ioulia*, laquelle en se latinisant est devenue *Julia*, d'où *Julia* Cæsarea, désignation erronée, employée par quelques écrivains modernes dont nous-mêmes avons suivi le mauvais exemple pendant quelque temps.

3° *Siguè*. Cette position, le *Siga* de l'Itinéraire, etc., si bien déterminée par l'île qui est en face et par sa proximité du « Flumen Salsum », le Oued-el-Malah ou Rio Salado, qui coule un peu à l'est, limite parfaitement à l'occident, le champ de nos recherches. La limite orientale, Thapsa, quoique moins sûrement établie, l'est pourtant encore d'une façon suffisante.

D'après ces données, qui sont, il faut le remarquer, les seuls éléments de discussion que nous possédions sur la matière, le problème se pose naturellement ainsi :

« L'île de Bartas était située dans un golfe à l'*ouest* de Iol, et elle avait un port. »

Cette simple énonciation, qui ressort des entrailles même du

sujet, semble condamner la conjecture de M. Tauxier ; puisque pour que celle-ci pût être vraie, il faudrait que l'île de Bartas fût à l'*Est* de Iol. Notre correspondant oppose à cette conséquence inévitable que Scylax ayant employé deux documents de nature différente pour composer son récit de circumnavigation méditerranéenne, *il a pu* commettre une transposition de localités.

En fait d'erreurs, tout est possible sans doute, mais une possibilité n'est pas une probabilité, encore moins une certitude ; d'ailleurs, les conclusions d'une thèse quelconque ne doivent pas être en désaccord avec les éléments qui en font l'unique base, à moins qu'on n'apporte des preuves acceptables en faveur des rectifications qu'on croit devoir leur faire subir.

Or, dans l'espèce, les preuves de ce genre n'apparaissent nullement, ce qui laisse en face d'une supposition pure et simple.

Mais, répétera notre honorable correspondant :

« Si l'on jette les yeux sur une carte d'Afrique, on y voit que « depuis Thabraca, jusqu'à Siga, il n'y a, sur toute la côte, « qu'une seule localité qui remplisse ces conditions d'*un golfe* « *et, dans ce golfe, d'une île (Bartas) avec un port*. Or, cette « localité, c'est Alger ; l'île, comme on le sait, n'a été réunie au « continent qu'au milieu du seizième siècle, par le célèbre cor- « saire Khaireddin Barberousse (1). »

Ayant de combattre cette argumentation qui, on le verra tout-à-l'heure, repose sur un fait inexact, il faut donner une explication essentielle.

Quand on fait de la géographie comparée avec des matériaux antiques, et même avec certains matériaux de date plus ou moins moderne, il faut bien avoir présent à l'esprit que la science n'a pas parlé partout et toujours le langage rigoureusement exact qu'on exige d'elle aujourd'hui. Ainsi, pour rentrer dans notre sujet, les hellénistes les plus compétents reconnaissent que,

(1) La prise du pégnon d'Alger, par Kheir ed-Din, eut lieu le 21 mai 1529 et fut immédiatement suivie de la construction de la jetée, dite de l'Amirauté ; celle-ci a été édifiée avec les matériaux mêmes du château espagnol qui fut alors démoli, sauf la base du donjon, laquelle subsiste encore et sert de piédestal à la tour du phare.

chez les Grecs, le mot *Nèsos, île,* est souvent employé dans le sens de *presqu'île*, par une confusion qui se retrouve dans les auteurs Arabes, pour lesquels l'espèce de *presqu'île* que forme la saillie septentrionale de l'Afrique est l'*île* du Magreb.

Ceci doit mettre en garde contre la grande quantité d'îles que Scylax signale sur notre littoral, et dont quelques-unes peuvent bien être des presqu'îles ou caps, sinon de simples îlots.

Il en est de même des *limèn* ou ports. Les anciens ont donné ce nom à des criques insignifiantes ou à des rades foraines, que nos marins fuiraient en cas de mauvais temps, bien loin d'y chercher un refuge.

Mais quand on tirait ses navires sur le sable des plages, comme faisaient l'astucieux Ulysses, le pieux Enée et comme l'ont pratiqué ici bien longtemps après eux les corsaires algériens, devant la Salpêtrière, à Matifou, etc., c'est qu'on n'a pas de grandes exigences maritimes. Pour de pareils navigateurs, le nombre des ports était beaucoup plus considérable que pour les nôtres. Il faut donc tenir soigneusement compte de cette différence de point de vue.

Il ne faut cependant pas aller ici aussi loin que notre honorable correspondant, qui appelle le mouillage antique d'Alger « un des ports les plus sûrs de la côte », lorsque ce port n'existe véritablement que depuis Kheir ed-Din qui l'a créé artificiellement, ainsi que M. Tauxier l'a constaté lui-même un peu auparavant.

Mais, sans pousser plus loin ce développement d'une thèse dont ce qui précède suffit à l'édification du lecteur, nous arrivons à un fait, qui nous semble concluant contre ce que dit M. Tauxier, qu'Alger est la seule localité maritime, entre Thabraca [frontière de Tunis] et Siga [embouchure de la Tafna], — qui offre la condition exigée d'un golfe, dans lequel serait une île avec un port. »

Il suffit de parcourir la carte des côtes de l'Algérie, par le commandant Bérard, pour reconnaître l'inexactitude de cette assertion.

Et l'île de *Mansouria*, par exemple, au fond du golfe de Bougie, auprès du Municipe de *Choba* (Ziama), avec les restes d'un

établissement antique pourvu d'un assez bon mouillage, est-ce qu'elle ne répond pas suffisamment aux exigences du problème?

Ecoutez là-dessus une autorité fort compétente, l'auteur déjà cité, celui à qui l'on doit la description nautique des côtes de l'Algérie; voici ce qu'il dit à la page 109 de son volume :

« En continuant à suivre la côte [dans la direction de l'Est], on arrive à l'île de *Mansouria*, située très-près de terre, de manière à offrir un bon abri pour les navires ordinaires du commerce. Nous y avons vu un brick tunisien qui prenait un chargement de blé; ce port est d'une fort petite étendue, mais il y a fond pour de grands bâtiments; on s'y amarre contre l'île. Celle-ci est peu élevée; elle est reconnaissable à un petit mamelon conique arrondi qui occupe sa partie Est, tandis qu'elle est très-basse et rocailleuse, à l'extrémité opposée, où elle communique à la terre ferme par une chaîne de roches à fleur d'eau, ou hors de l'eau. »

Si nous avons parlé de Mansouria, bien qu'il ne soit pas à l'ouest de Iol Césarée, comme il le faudrait pour rester dans les conditions du problème, c'est parce que nous n'avons pas vu d'inconvénient à nous placer un moment sur le terrain choisi par M. Tauxier, lorsqu'il suppose une transposition de localités commise par son auteur. Mais, rentrant dans le sentier de la logique, nous trouvons à l'*ouest* de Iol-Cherchel, — c'est-à-dire, dans les conditions mêmes du programme, — l'île Colombi, située entre Ténès et l'embouchure du Chélif et que le commandant Bérard, décrit ainsi (p. 161):

« L'île Colombi, ou Palombas, est un rocher d'une petite étendue, de 26 mètres de hauteur, éloigné de la côte de moins d'un demi-mille. On lui a donné ce nom à cause de la grande quantité de pigeons qui viennent l'habiter; nous y en avons vu beaucoup en effet; les bâtiments d'un tonnage assez fort peuvent passer entre cette île et la terre, puisqu'il y a un fond de quatre à cinq brasses. Après l'île Colombi, la côte se courbe vers le Sud-Ouest, formant une *rentrée* peu profonde, mais d'une grande longueur et bordée d'une *belle plage*. Sur celle-ci sont distribuées quelques roches noires qui forment autant de *petits ports*, où les sandales viennent se mettre à l'abri. Il y avait autrefois un

grand commerce sur cette partie de la Régence; on y vient prendre encore du blé et de la cire. »

Nous pensons, d'après ce qui précède, que M. le colonel Lapie a été inspiré par ces considérations quand il a placé, dans sa carte de l'Afrique romaine, l'île de *Bartas* sur le littoral du Dahra, un peu à l'ouest d'Arsenaria (Bal), entre Ténès et l'embouchure du Chélif, à un tiers de la distance totale en partant de cette dernière ville.

Mannert, si l'on s'en rapporte à son traducteur, ne propose aucune synonymie pour *Bartas*; et, plus récemment, M. de Champlouis l'omet sur sa carte de l'occupation romaine, omission qui se conçoit en présence d'un texte aussi peu explicite que celui de Scylax.

Nous imiterons jusqu'à un certain point cette circonspection, en restant dans les limites de la discussion négative: nous bornant donc à démontrer que la solution proposée par M. Tauxier, si elle est vraie au fond, ne paraît pas acceptable dans les termes où elle se pose, nous n'essaierons pas d'en proposer une à notre tour par les motifs exprimés plus haut.

Rappelons avant de terminer cette trop longue note que, jusqu'ici le seul nom ancien connu de l'*île* d'Alger, c'est celui de *Stoſla*, déjà cité et dont nous devons la connaissance à Bekri, nom que les indigènes ont tout-à-fait oublié, pour ne conserver, et cela seulement dans leurs chants vulgaires, celui de Djezaer *beni Mezaranna*.

Enfin, n'oublions pas de faire observer que le pégnon d'Alger n'a été occupé par les Espagnols que de 1510 à 1529, c'est-à-dire pendant *dix-neuf ans*, et non *quarante* comme il est dit ci-dessus, à la page 428.

A. B.

BARTAS,

LE PLUS ANCIEN NOM D'ALGER.

(Suite, voir le n° 72, p. 426)

A M. le Président de la Société historique algérienne.

Je vous remercie, Monsieur, des remarques dont vous avez bien voulu accompagner ma notice sur *Bartas;* elles m'ont fait reconnaître que je n'avais pas suffisamment appuyé dans ma première lettre sur certains éléments du débat que je vous demande la permission de préciser plus nettement ici.

Mais je suis obligé avant tout de bien fixer le texte du périple de Skylax et pour cela j'en puiserai les termes non pas dans les corrections et dans la traduction de M. Charles Müller, lesquelles tranchent les difficultés sous prétexte de les élucider, mais dans le manuscrit princeps, lequel figure dans le *Codex Pithou*, coté 443 à la Bibliothèque impériale de Paris.

Ce manuscrit princeps s'exprime de la façon suivante : « ... *Iouliou akra polis kai limèn ebdomos polis kai limèn Akion nèsos polis kai limèn epesti psamathos nèsos polis kai limèn kai kolpos · en de tò kolpò Bartas nèsos kai limèn Khalka polis en tò potamò...* », ce qui se traduit à mon avis par : « Iouliou, cap, ville et un 7e port(1); — une ville et un port; — Akion, île (2), ville et port; vient ensuite un rivage sablonneux; — une île; — une ville et un port; puis un golfe et dans ce golfe Bartas île et port, Khalka, ville sur le fleuve (de ce nom)... »

On voit que ma traduction diffère de la traduction Müller, en ce que celle ci fait arbitrairement des mots *ebdomos* et *psamathos* deux noms propres de villes (1), au lieu que je les rends par leurs corrélatifs naturels, l'adjectif *septième* et le nom commun *rivage sablonneux*. Ce n'est pas le seul cas où M. Müller se soit permis de ces licences.

A première vue, on reconnaît qu'un texte si peu précis et si dédaigneux des règles grammaticales les plus nécessaires, ne permet guère de donner des preuves bien positives d'identification; mais faute de mieux, il est naturel de tenter sur ces bases incertaines un calcul de probabilité assez exact pour satisfaire l'esprit, tout en se gardant de l'arbitraire. Bien des identification de géographie comparée admises par les modernes n'ont pas d'autres preuves que des calculs semblables. Ici du reste ma tâche est en quelque sorte facile, les hypothèses qu'on peut opposer à la mienne étant en nombre très-restreint et faciles à réfuter.

Sans vous prononcer pour cette supposition, vous reconnaissez, monsieur, que la seule identification raisonnable qu'on puisse proposer pour Bartas, si l'on s'en tient au texte précis du périple, est l'île Colombi située entre Ténès et le Chélif. Voyons donc si l'île Colombi et les lieux environnants répondent bien aux descriptions de Skylax, si cette île est bien *dans un golfe*, si elle offre bien *un mouillage*, et si à l'est de ce mouillage, on rencontre bien d'ouest en est d'abord *une ville avec un port*, puis *une île*, enfin un *rivage sablonneux*.

Or, dans la description même de M. le commandant Bérard sur laquelle vous vous appuyez, il n'est pas question de mouillage à *Colombi* (2) et quant à la plage et aux petits ports qu'il signale, il les place à l'ouest et non à l'est de l'île. — Ce qui est plus net, c'est qu'on ne peut assimiler d'aucune façon à un

(1) Pourquoi ce nombre ordinal? On le concevrait à sa place dans une énumération par 1er, 2e, etc.; mais là, arrivant seul, sans que l'on puisse comprendre pourquoi! c'est vraiment de la traduction arbitraire, pourrait dire avec raison M. Müller à M. Tauxier. — *N. de la R.*

(2) Je reconnais que *nèsos* peut se traduire par presqu'île; mais cela n'arrive pas souvent en *géographie*: et en tout cas Skylax ne peut guère être accusé d'avoir commis cette confusion, attendu qu'un peu plus haut, il emploie pour désigner une presqu'île le mot précis : *khersonèsos ou khersonnèsos*.

(1) En comparant ce passage dans M. Müller et dans les Extraits de Shaw (p. 10), deux ouvrages faits à un siècle de distance, on les trouve identiques en la forme et le sens. Si M. Müller a innové, ce n'est donc pas à cet endroit. De fait, le véritable novateur, c'est notre honorable correspondant, qui transpose des parties du texte, hasarde une traduction qui lui est propre et qui est fort contestable. — *N. de la R.*

(2) On lit dans le Manuel du pilote de la Méditerranée, p. 211 : « L'île « Palomas (ou des *Colombes*; c'est *Colombi*)... *forme un abri* pour les « petits bâtiments... *Ils y viennent charger du blé.* » N'est-ce pas là un mouillage, surtout pour les Anciens. — *N. de la R.*

golfe la *légère rentrée* où se trouve la plage, et par le fait nul auteur, nul portulan ancien ou moderne, n'a pensé à ma connaissance à lui appliquer ce nom. — Enfin je ne vois pas où l'on pourrait retrouver dans les falaises du Dahra *le rivage sablonneux* mentionné par Skylax. Bartas donc, pour toutes ces raisons, ne peut être assimilé à *Colombi*.

Si Colombi est la seule localité qu'on puisse raisonnablement proposer à l'ouest de Iouliou (Cherchel) comme représentant Bartas et si Colombi n'est pas Bartas, que devons-nous en conclure?

La réponse est facile : ou bien Skylax s'est trompé dans les termes de sa description, ou bien il a placé Bartas à une place qui n'était pas la sienne. Il n'y a pas de milieu possible entre ces deux propositions. Or l'étude de Skylax nous montre que les erreurs de cet auteur portent rarement sur les descriptions elles-mêmes, au lieu qu'elles portent principalement sur l'emplacement qu'il donne aux différentes localités mentionnées dans son périple.

Dans le désir d'écourter la discussion, j'ai omis d'établir ce dernier point dans ma notice primitive; je prendrai cette fois un terme moyen pour éviter une longue et ennuyeuse dissertation à ce sujet; et me contenterai de montrer ici par deux exemples que Skylax peut être accusé sans injustice d'avoir parfois *confondu ou transposé* des localités importantes. Ces exemples, je l'espère, suffiront à former votre conviction :

1° Dans sa description de la côte à l'est de Carthage, Skylax place la petite Syrte entre Thapsus et Neapolis, tandis que cette Syrte est représentée en réalité par le golfe de Cabès.

2° Après avoir mentionné Utique, Skylax ajoute qu'en allant de cette ville à Hippou-Acra, on rencontre Hippou-polis et le lac qui la baigne (1). Or cette Hippou-Acra dont l'auteur semble

(1) Il faut encore se méfier ici des corrections imposées par M. Müller, le texte porte en propres termes : *Apo Itukès eis Ippou akran Ippou polis kai limnè ep'autè*. — La *Rédaction* fait observer ici que M. Müller donne en note (p. 90) la leçon qu'on vient de lire, pour que le lecteur puisse comparer avec celle qu'il adopte, pratique consciencieuse qui aurait dû le mettre à l'abri des reproches de notre correspondant.

(2) Diodore, XX. 55 et XX. 57.

(3) Polybe, I. 82.

(4) Appien : Guerres puniques. c. 110.

faire un cap, est une ville et la même ville qu'Hippou-pôlis, ce qui est visible par la lecture de Diodore, constaté par Polybe qui la nomme la ville des Hippocrites, et confirmé par Appien qui l'appelle Hippagreta. Ce mot Acra ou, comme le dit beaucoup mieux Appien, ce mot *Agra* n'est pas ici le mot grec *Akra*, cap; mais fort probablement le mot *hagra* qui signifiait en phénicien citadelle. Un Orientaliste, dont je ne puis retrouver le nom, traduisait en effet Hippou-Acra (يتوا حقرة) par la *citadelle du golfe*.

Sans rechercher ici quelles furent les causes des confusion et transposition commises plus haut par Skylax, il nous suffit pour notre thèse de montrer que notre auteur est *sujet* à des erreurs de cette nature, et cela nous permettra de soupçonner, sans qu'il y ait là rien d'arbitraire, que s'il s'est trompé dans ces deux cas, il a très-bien pu se tromper encore dans d'autres cas moins faciles à découvrir pour les modernes. Nous avons donc le droit de tenir compte dans le débat actuel de cette *source possible* d'erreurs.

Certes, cette *possibilité* n'est pas par elle-même la *probabilité*, mais elle peut le devenir si le texte comparé à une carte moderne ne trouve pas à l'endroit indiqué de solution satisfaisante; et elle peut devenir une *certitude* quand les circonstances indiquées ne se retrouvent en réalité que dans une localité différente. Prenons comme exemple la *Petite Syrte :* En suivant le texte de Skylax sur une carte, un commentateur s'étonnera que l'auteur ait fait mention de l'enfoncement de Thapsus sous le nom de Syrte, sans parler du golfe de Cabès; il croira donc *possible* que Skylax ait transposé l'emplacement de la Syrte — il jugera ensuite que cette hypothèse est *probable*, en réfléchissant que cet enfoncement de Thapsus ne montre pas les bas-fonds et les courants qui ont rendu les Syrtes si célèbres, et il finira par la croire *certaine* en retrouvant ces bas-fonds et ces courants dans le golfe de Cabès.

Il en sera de même pour *Bartas :* nous trouverons d'abord *possible* que Skylax ait transposé la description de Bartas, puisqu'il a commis ailleurs des fautes analogues, nous le croirons ensuite *probable* en ne retrouvant à l'*Ouest* de Iouliou aucune localité répondant à Bartas, et nous finirons par le juger *certain*

en découvrant que la description de Bartas s'applique très-bien à l'îlot d'Alger.

C'est ici, Monsieur, que vous intervenez de nouveau pour m'objecter qu'en effet *Bartas* peut bien être Alger, mais que ce n'est pas sûr, attendu qu'un autre îlot, la Mansouria, remplit tout aussi bien les conditions du problème que l'îlot d'Alger.

Vous auriez raison, Monsieur, si l'on s'en tenait au membre de phrase qui concerne Bartas; mais ce membre de phrase n'est pas isolé dans le texte, et il y est accompagné de descriptions accessoires qui se rapportent au seul îlot d'Alger, sans pouvoir se rapporter à la Mansouria. Voici en effet ce que dit ici le périple :

« Vient ensuite un rivage sablonneux, — une île; — une ville et un port; — puis un golfe et dans ce golfe Bartas île et port; — Chalca ville sur le fleuve (de ce nom)... »

Or, dans mon hypothèse, le rivage sablonneux se retrouve dans la grève de l'Isser, l'île dans Sandja, la ville et le port dans Matifou, Bartas île et port dans l'île et dans le port d'Alger. — Dans l'hypothèse *Mansouria* au contraire, on peut bien à la rigueur retrouver le rivage sablonneux autour de l'oued Djindjen, et l'*île* dans le rocher de Zert-el-Heila, mais où placera-t-on alors *la ville et le port* mentionnés par Skylax entre l'île et Bartas? Il faudra donc les supposer disparus depuis sans laisser de trace; il faudra donc en supposer autant des magasins phéniciens groupés dans la Mansouria? Ce serait là une supposition arbitraire et de plus fort peu vraisemblable : les Phéniciens ont été de tout temps célèbres par la sagacité de leur génie commercial, et d'ordinaire leurs comptoirs étaient choisis si habilement qu'ils survécurent à la ruine de Carthage. N'est-il pas plus naturel de reconnaître avec moi dans les ports en litige, les ports d'Icosium et de Rusgunium (1) devenus plus tard si importants que les Romains les élevèrent au rang de colonies (2)?

(1) Le vrai nom de cette colonie romaine est *Rusgunia*. — *N. de la R.*

(2) Bien que le port d'Alger ait été rendu plus sûr qu'il n'était par Barberousse, il avait déjà beaucoup d'importance auparavant, puisque la prise du Pégnon par les Espagnols, eût pour cause les pirateries des corsaires algériens.

Ce n'est pas tout : *Chalca ville sur le fleuve* deviendrait dans l'hypothèse Mansouria, soit Choba, soit Saldæ; mais Chalca qui était moins une ville, au dire de Polybe, qu'un groupe d'usines où l'on travaillait le cuivre *(Chalkourgeia)* ne peut guère s'identifier à l'une de ces deux places, puisqu'il n'y a dans leurs environs, si je me rappelle bien, aucune mine de cuivre importante. — Dans mon hypothèse, au contraire, *Chalca* s'identifie très-bien à Ténès, ville fameuse encore de nos jours par les minerais de cuivre du Dahra.

En résumé, Bartas ne pouvant se retrouver à l'ouest, et Skylax étant sujet à commettre des transpositions, on est amené tout naturellement, plutôt que d'altérer le texte, à supposer ici une transposition nouvelle. Présentée sous cette face, la question peut se résoudre par deux solutions toutes deux raisonnables, se rattachant l'une à Mansouria et l'autre à Alger; mais la première satisfaisant mal à certaines difficultés, quand la deuxième s'adapte parfaitement aux conditions du problème, j'en conclus que c'est la dernière qui est la bonne, et que c'est l'îlot d'Alger, par conséquent, qui représente aujourd'hui *Bartas*. Certes, il n'y a pas là évidence complète, et mes dilemnes, je dois l'avouer, n'ont pas toute la précision mathématique qu'on pourrait désirer; mais tels qu'ils sont, ils laissent, à mon avis, assez peu de chances à l'erreur, pour que ma conclusion ne puisse être regardée comme arbitraire et pour qu'on lui accorde le bénéfice d'une *grande probabilité*.

Veuillez agréer, Monsieur, l'assurance de mes sentiments dévoués.

H. Tauxier.
Sous-lieutenant au 74e de ligne, en garnison à Lyon.

Remarques de la Rédaction. Malgré l'argumentation habile et le déploiement d'érudition avec lesquels M. le lieutenant Tauxier défend son opinion, nous avouerons que la nôtre reste la même et que nous ne voyons aucun motif de quitter l'attitude dubitative que nous avons dû prendre dans le débat. Aussi, les remarques que l'on va lire, ne vont-elles point, en général, au fond des choses, mais ne portent que sur quelques questions incidentes.

D'abord, au début de ce deuxième article, notre honorable contradicteur dit ceci :

« Mais je suis obligé, avant tout, de bien fixer le texte du pé-
« riple de Skylax, et pour cela j'en puiserai les termes, non pas
« dans les corrections et dans les traductions de M. Charles
« Müller, lesquelles tranchent les difficultés sous prétexte de les
« élucider, mais dans le manuscrit princeps, lequel figure dans
« le *Codex Pithou*, coté 443, à la Bibliothèque impériale de Paris. »

M. Tauxier est ici sévère et même injuste envers M. Charles Müller qui, en définitive, a connu aussi bien que lui le manuscrit princeps sur lequel il s'appuie, plus *deux autres* que M. Tauxier n'a pas vus. Or, on sait qu'un manuscrit unique est presque nul pour l'étude, et que si l'on veut obtenir un texte correct, il faut comparer entre eux le plus grand nombre possible de ces documents, afin de corriger les copistes les uns par les autres. Ceux qui travaillent habituellement sur les manuscrits savent très-bien ceci. Demandez au savant M. de Slane, par exemple, s'il a eu trop de *six manuscrits* pour nous donner un texte épuré de la précieuse histoire des Berbers d'Ebn Khaldoun? Ce n'est donc nullement un avantage d'avoir opéré sur un manuscrit unique, comme a fait M. Tauxier.

Appuyé sur ces considérations, qui sont conformes aux principes généralement acceptés dans la science, nous continuerons de donner la préférence au texte édité par M. Charles Müller, car ce savant, nous le répétons, a consulté *trois manuscrits*, qui sont les suivants :

« Le périple de Scylax qui se trouve dans le manuscrit parisien, n° 433, supplément, p. 62-107 [c'est le manuscrit princeps dont parle M. Tauxier]; celui du Palatin-Vatican, n° 142, fol. 216 *r.* — 236 *r.*; et enfin celui du Codex qu'il appelle *Hervortianus sive Monacensis*, etc. (V. Ses *Geographi græci minores*, t. Ier, p. 15). »

En presence de la latitude un peu trop grande que notre correspondant se donne dans son argumentation et dans ses traductions; par exemple devant cet ordinal *septième* qui y figure d'une façon si peu motivée, nous ne comprenons vraiment pas les reproches que M. Tauxier adresse à M. Müller sur ses interprétations et ses corrections du texte. Mais M. Müller, on l'a vu, quand il adopte la leçon d'un de ses manuscrits, à l'exclusion des autres, a soin de faire connaître celles-ci en note, ce qui le rend irréprochable devant la science et la critique. Et puis ne se trouve-t-il pas, en définitive, que sur le passage de Bartas, le point essentiel de la discussion, M. Müller, accusé par son honorable antagoniste de changer arbitrairement le texte de Scylax, le donne exactement comme le Dr Shaw l'a édité, il y a plus d'un siècle?

La gravité des accusations de M. Charles Tauxier à l'endroit de M. Charles Müller rendait indispensables ces explications que nous croyons suffisamment catégoriques.

Notre honorable correspondant veut bien nous accorder que *nèsos* puisse signifier quelquefois *presqu'île*, mais il y met certaines restrictions auxquelles nous opposons l'autorité formelle du *Trésor de la langue grecque* d'Henry Estienne qui lui accorde régulièrement ce sens. Il donne, entre autres, l'exemple remarquable et fort connu du nom du Péloponnèse, cette *presqu'île* de *Pelops*.

Ceci nous fournit l'occasion, de faire remarquer qu'en général M. Tauxier ne tient pas assez compte du vague qui règne nécessairement dans le vocabulaire géographique maritime des anciens, ni de l'état rudimentaire de leur marine dont les besoins étaient d'une nature si restreinte, d'où il résulte qu'il affirme ou nie tel mouillage d'une façon assez arbitraire.

Nous ne pouvons pas accepter, par exemple, son assertion que le port d'Alger avait beaucoup d'importance avant les constructions de Kheir ed-din, jetée, etc.; car il n'existait même pas avant ces constructions, et presque toujours les plus anciens corsaires tiraient leurs chebecs sur la plage de Bab-el-Oued ou se réfugiaient à Matifou, etc., selon le vent.

En résumé, nous avouons que la discussion des questions de géographie comparée n'aurait plus d'intérêt pour nous, si le système des possibilités devenant des probabilités et celles-ci des quasi-certitudes, devait jamais prévaloir.

A. Berbrugger.

متّيجة من العصور القديمة حتى سنة 1830

LA MITIDJA DE L'ANTIQUITÉ A 1830

(J. Franc/ج. فرانك)

ترجمة ودراسة: د. هارون عيساوي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

الوثائق القديمة المتعلّقة بتاريخ متّيجة قبل الاحتلال الفرنسي نادرة في الحقيقة، ومجزّأة، وغالبًا ما تكون غير دقيقة، ولا تتيح إعادة بناء ماضي هذه السّهول بجميع تفاصيله. قبلَ العصرِ المسيحي بزمنٍ طويل، استقرّ الفينيقيّون في الجهة الشّماليّة الشّرقيّة من هذهِ المنطقة، قربَ (رأس ماتيفو)، المعروفِ لدى السّكّان الأصليّينَ باسمِ (رأس تامندفُوسْت)؛ حيثُ أسّسوا مرفأً تجاريًّا يُدعى (Rusguniae/روسگونياي)[1] (تامنفوست حاليا). وفي هذا الموضع نفسه أنشأ الإمبراطور (أوغسطس) مستعمرة كانت تواجه مستعمرة (إيكوسيوم) (الجزائر العاصمة حاليًا)[2]. وقد دمّرَها الوندالُ بعد أن بلغت، كما تدلّ على ذلك ضخامة اطّلالها، قدرًا كبيرًا من الازدهار[3].

وقد قال الشّريفُ الإدريسي، الذي كتبَ في منتصف القرن VIهـ/XIIم: "تامندفُوسْت ميناءٌ حسنٌ بقربِ مدينةٍ خربة، وأسوارُها الدّفاعيّة مهدَّمةٌ في معظمها، وعددُ السّكّان قليلٌ؛ ويُقالُ أنّها كانتْ في ما مضى مدينةً عظيمة، ولا تزالُ فيها آثارُ الأبنيةِ القديمةِ قائمةً، من معابدَ وصفوف من الأعمدة."[4] لقد استُخدمت هذه الأنقاض فيما بعد في تشييد الحصن المثمَّن الشّكل بـ(ماتيفو)، كما اتّخذت حجارتها موادّ للبناء من قِبَل سكّان مدينة الجزائر. ويذكر (ليون الأفريقي)، في مطلع القرن XVI م، قائلاً: "من حجارة تلك المدينة أُعيد بناء جدران الجزائر كلّها تقريبًا"[5].

وعلى النّهج نفسه، يؤكّد (مارمول) في أواخر القرن ذاته: "أنّها مدينة قديمة شيّدها الرّومان... وتضمّ ميناءً مقبولاً ترسو فيه سفن الجزائر، إذ إنّ سائر الشّاطئ تتقاذفه الرّياح، وتنتشر فيه خلجان واسعة شديدة الخطورة. ويسمّيها الأفارقة (تيمندفوس)، فيما يضعها (بطليموس) عند خطّ طول 18 درجة و30

1- Berbrugger a retrouvé dans les ruines de Rusguniae une stèle d'une ressemblance parfaite avec les pierres tumulaires pliéniciennes provenant de Portus Magus (Vieil Arzew). Le nom même de Rusganise (rns, rus tête, cap) confirme d'ailleurs cette origine phénialenne. Les instruments préhistoriques en quartz qu'on a retrouvés épars sur le sol nu cap Matifou pronvent l'ancienneté de l'occupation de cette région.

2- Elle est mentionnée par Pline sous le nom de Colonia Augusta Ruscaniae (Hist.Nat., I, V, 2).

3- Le fuit que Rusguniae ait été érigé na IVe siècle en siège épiscopal ne prouve rien en faveur de son importance, car, dans l'église primitive, les évêques ses correspondaient aux cures de notre époque. Cet évêché existait encore au début du VIIe siècle quand la ville fut occupée par une garnison byzantine (Diehl, Afrique byzantine, p. 262).

4- Edrisi, Description de l'Afrique et de l'Espagne, p. 104. Lopez de Gomare (Cronica de los Barbarrojas, p. 107) parle également de maisons, temples et aqueducs antiques qui sont nombreux, grands et beaux ».

5- Léon l'Africain, t. III, p. 68 ; édition schefer et Cordier, 1898.

دقيقة، وخطّ عرض 32 درجة و45 دقيقة، تحت اسم (روستون). وقد بلغت أوج ازدهارها في العصر الرّوماني، ثمّ دمرها القوط، فَنَمَت مدينة الجزائر على أنقاضها"[1]. ويشهد رينودو، في كتابه (تاريخ الجزائر) أنّ هذا الاقتطاع من مواد بنائها كان لا يزال جاريًا في أوائل القرن XIXم م.

ليس من المستغرب أن يُعثر في الجزائر على عدّة نقوش كتابيّة مصدرها مدينة (روسگونياي). من بينها نقش على الرّخام يعود إلى العصر البيزنطي، نصّه: "تخليدًا لذكرى (فلافيوس زيبيريس)، قائد في فيلق (Primani Felices Justinianenses)، وقد وُوري الثّرى بسلام بعد أن شغل منصب القائد في (روسگونياي) مدة اثنتي عشرة سنة."

ونقش آخر نُقش تكريمًا لرجل يُدعى (لوشيوس فاديوس)، وقد عُثر عليه مدمجًا في قوس أحد المخازن بمنطقة الپيشريّة، ونصّه كما يلي: "إلى (لوشيوس فاديوس)، ابن (لوشيوس)، من قبيلة (كيرينة) الملقّب (روغاتوس)، قدّم هذا التّكريم الدّيكوريونات (أعضاء مجلس المدينة)، والأيديلات (المسؤولون عن الشّؤون المدنيّة)، والدوومفيرات (القاضيان المحليّان)، والدوومفيرات الخماسيّون (المنتخبون كلّ خمس سنوات) في (روسگونياي)، إضافة إلى سكّان المدينة، تقديرًا لاستحقاقه ولأنّه زوّدهم بالقمح وساهم في خفض سعره من خلال اكتتاب."[2] ومن اللّافت، كما تُشير هذه النّقوش، أنّ مدينة (روسگونياي) في العصر الرّوماني، كما هو الحال في وقتنا الحاضر، كانت تعاني أحيانًا من ضعف محصول الحبوب بسبب الجفاف. ويشير (Renaudot/رونودو)، في كتابه (تاريخ الجزائر)[3]، إلى نقش ثالث نُقل من (ماتيفو) إلى الجزائر، بالإضافة إلى نقشين آخرين عُثر عليهما في (روسگونياي) نفسها.

كشفت الحفريّات التي أُجريت في (روسگونياي) بين نوفمبر 1899 وفبراير 1900، على يد الملازم (شاردون)، النّقاب عن بقايا كبيرة لحمّامات، وكنيسة مسيحيّة، وقناة مائيّة قادمة من الشّرق، وعدد كبير من المدافن القديمة، ومائة من الشّواهد تقريبًا تصوّر أشخاصا يحملون قرابين، وتمثال صغير لشاب ملفوف برداء، وتمثال صغير من البرونز يمثّل الإله (ميركوري). كما تمّ اكتشاف العديد من الآثار الصّغيرة في محيط (روسگونياي)؛ ويُرجّح أنّها كانت مزارع أو ڤيلات.

ولم يقتصر الاحتلال الرّوماني على إنشاء مستعمرة على ساحل متّيجة؛ بل تدلّ العديد من الآثار على أنّه توغّل إلى داخل هذه السّهول[4]. ففي الجزء الشّرقي، تمّ العثور على تمثال لامرأة من الرّخام في آثار تقع بالقرب من (جسر الحَميز)، وأساسات جسر قديم على هذا الوادي، بالقرب من (جسر حجيرة) وجسر آخر على (البويرية)، أحد روافد (الحميز)، وبعض الآثار في (حوش بن دالي باي)، وبقايا ما يشبه معسكرًا رومانيًا بالقرب من الحصن القديم لـ (وادي بودواو)، وبعض الآثار بالقرب من قرية (سانت بيير-

1- Marmol, L'Afrique, t. II, p. 409.

2- Une inscription, trouvée récemment au Cap Matifou, commémore aussi la générosité d'un citoyen gui, sous Marc Aurèle, a fait baisser le prix du blé.

3- Renaudot, Histoire d'Alger, p. 12, et Revue Africaine, t. I, p. 58 et suiv.

4- V. Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie (texte et cartes). Feuilles 1, 4, 5, 13 et 14.

سانت بول)؛ على بعد مسافة قصيرة من المعسكر القديم للحرّاش، والعديد من شواهد القبور مع نقوش منها واحدة فقط محفوظة بشكل جيّد.

وعلى بعد 1200 متر شمال (فوندوق)، توجد بقايا بناء روماني صغير؛ وعلى بعد 6 كيلومترات شمال هذه القرية، بقايا جدران وشواهد قبور، تحمل إحداها نقشًا والأخرى نقشًا بارزًا (تمّ اكتشافها في عام 1925 من قبل عمدة فوندوق[1])؛ وفي عين خضرة، بالقرب من (ريفي)[2]، نبع ماء تمّ تهيئته من قبل الرّومان الذين بنوا الحمامات. (تمّ اكتشاف في نفس المنطقة، في (حوش سيركادجي)، بالقرب من (روفيگو)[3]، نقش ليبي وآخر على بعد كيلومتر واحد شرق (maison carrée/ميزون-كاري)، على الطّريق المؤدّي إلى رأس ماتيفو).[4] في الجزء الأوسط من المتّيجة، تقتصر آثار الاحتلال الرّوماني على بعض القبور وأجزاء من الفسيفساء التي تمّ اكتشافها في وادي العلايق، بالإضافة إلى شاهد الطّريق (Borne milliaire) تمّ العثور عليه على بعد 3 كيلومترات إلى الغرب من (بوفاريك) بقايا قنوات مبنيّة من الحجارة، اكتشفها المعمّرون في الأيّام الأولى من الاستعمار في منطقة مستنقعيّة، ممّا يدلّ على أنّ الرّومان لم يهملوا الأعمال الهيدروليكيّة في هذه المنطقة.

الآثار الرّومانيّة أكثر وفرة في المتّيجة الغربيّة؛ فقد عُثر على آثار معسكر روماني على بُعد 500 متر جنوب شرق قرية (موزاية)، في مكان يُعرف لدى السّكّان المحلّيّين باسم (الحاجب)، وقد تمّ التّعرف عليه على أنّه معسكر (Tanaramusa Castra/تاناراموسا كاسترا)[5]. كان هذا المعسكر يقع على طريق قيصريّة

1- فوندوق Fondouk: اسم أطلقه المستعمر الفرنسي على ما يسمى اليوم بـ: (Khemis El Khechna/**خميس الخشنة**) التّابعة لولاية بومرداس.

2- (Rivet/ ريفي): اسم أطلقه المستعمر الفرنسي على ما يسمى اليوم بـ: (**مفتاح**/Meftah)، التّابعة لولاية البليدة.

3- المدينة التي كانت تُعرف باسم **(Rovigo)** في فترة الاستعمار الفرنسي، تسمى حالياً باسم (Bougara/**بوقرة**) وتتبع لولاية البليدة.

4- D'après Marmol, il y aurait eu près de l'embouchure de Harrach, & l'emplacement de Maison Carrée, une ville de plus de 3000 habitants, qu'il dénomme Sasa. La ville de Sasa, que Ptolémée appelle Tipaso, est détruite et ses édifices se voient au levant d'Alger, sur les bords de la Méditerranée sarde, à l'ouest de la cité de Métafuz (Matifou). Cette ville a été de plus de 3000 habitants. Son emplacement était joint à la rivière qu'on appelle Huet el Harrax (Harrach), quelques-uns prétendent qu'elle a été édifiée avant Alger par les anciens africains. Elle fut détruite ensuite par le peuple de Mozgane (Beni Mezar'anna ou Mezaghana) qui sont des gens plutôt basanés que blancs, ayant leur principale population en Lybie (contrée des oasis) d'où ils sont devenus puissants dans cette province d'Alger et en furent les maîtres avant que les Romains entrassent en Afrique, Ce sont des Berbères africains parlant une langue qu'ils appellent Mozgana ou Mozabia qui est au contraire et différente de celle que parlent les autres africains. Finalement cette cité est détruite et les écrivains disent qu'elle est plus ancienne qu'Alger et quelques-uns l'appellent le vieil Alger (L'Afrique, t. II, p. 220). Mais, affirme Devoulx, Marmol n'est qu'in effronté plagiaire de Léon l'Africain qui, « prenant Alger pour Caesarea attribue la dénomination de Sasa, qu'il prend on ne sait où, aux ruines de Tipazo, changée par lui en Tipaso il le dit d'une manière formelle, catégorique, le doute n'est donc pas permis ». (Revue Africaine, t. XIX. p. 298).

5- Voir les nombreux articles de Berbrugger dans la Revue Africaine. t. I. p. 52 et 305 ; t. V. p. 494 ; t. VI, p. 71 ; t IX, p. 353 et suiv.- Cat, Essai sur la province romaine de Mauritanie césarienne, p. 187-188.- Gsell situe Tanaramusa castra à Berroughia. V. Revue Africaine, p. 20 et suiv. ; Atlas archéologique de L'Algérie, f. 14.

(شرشال) عبر سهل المتّيجة، بالقرب من مخرج (وادي الشّفة) و(وادي جرّ)، وكان يتحكّم في إحدى بوّابات الجنوب، وهي بوّابة (المديّة) عبر ممرّ (موزاية). وتشير إحدى النّقوش[1] إلى أنّ سور هذا المعسكر أُعيد بناؤه في عهد الإمبراطور (قنسطنس) إلّا أنّ شحّ الموارد الماليّة في بدايات الاحتلال لم يُتح القيام بحفريّات منهجيّة، لذا لم يتمّ إعادة تشكيل هذا المعسكر؛ حيث جاء المعمّرون من المناطق المجاورة بحثًا عن حجارة للبناء، فطمسوا العديد من النّقوش وهدموا عدّة معالم، منها بوّابة المعسكر نفسها. ورغم هذه التّدميرات المؤسفة، أمكن تحقيق عدد من الاكتشافات الهامّة، من بينها شاهدتا قبر لأسقفين وُجدتا في كنيسة صغيرة تبعد حوالي 250 مترًا شرق أنقاض المعسكر.

وتحمل إحداهما نصّا يفيد بأنّ أحد الأساقفة، "الذي عانى من النّفي عدّة مرات، وعُرف بدفاعه المستميت عن العقيدة الكاثوليكيّة، تولّى مهامّه الأسقفيّة مدّة 18 سنة وشهرين و12 يومًا، وقُتل في حرب المور، ودُفن في اليوم السّادس من إيديس[2] مايو من السّنة الإقليميّة 456 /أي سنة 496 ق.م)[3]. إضافة إلى ذلك، تمّ العثور على عدّة نقوش مشوّهة، ونقش بارز منحوت على حجر ضخم يمثّل طائرًا بين فَحْلَيْن وتمثال من الرّخام الأبيض لباخوس[4]، وجرّة ضخمة، وأمفورة بطول 1.25 متر وعرض 0.60 متر، والعديد من الأشياء المتنوّعة مثل خاتم ذهبي، وأداة من العاج، وأصفاد حديديّة لربط العبيد، ومصباح بخور من البرونز، وأواني فخّارية مع أغطيتها، ومصابيح جنائزيّة، ومائتا قطعة نقديّة، معظمها من البرونز، تعود إلى الفترة بين (قسطنطين الأوّل) و(هونوريوس)، وشاهدتَي طريق من عهدي (ديكيوس) و(ديوقليتيان) مصنوعتان من صخرة واحدة يبلغ طولهما حوالي مترين، ممّا يرجّح وجود طريق رومانيّة كانت تربط هذا الموقع بمدينة (روسگونياي)، أمّا عبر (بوفاريك)، أو عبر سفح الأطلس.

شهادات أخرى على الاحتلال الرّوماني في منطقة متّيجة الغربيّة؛ يجب الإشارة إلى أنّه على بعد 2400 متر شرق قرية (مارينغو) [(5)]، على الضّفة اليسرى لـ (وادي موسى)، يوجد عمود، قبر وأساسات منزلين؛ وعلى بعد مسافة قصيرة شمال شرق القرية يوجد نقش جنائزي؛ وفي المكان المعروف باسم (النّافورة الرّومانية) يوجد بناء مربّع من الحجر المصقول بمساحة 8 أمتار؛ وعدّة آثار صغيرة شرق وجنوب شرق مزرعة (برانثوم) وكذلك على بعد 500 متر غرب مزرعة دوراند (من المحتمل أن تكون مزارع قديمة)

1- Corpus, 9282.

2- Ides: le quinzième jour des mois de mars, de mai, de juillet et d'octobre, et le treizième des autres mois, dans le calendrier des anciens Romains. (Dictionnaire Littré (.

3- Mesnage, Le Christianisme en Afrique (Revue Africaine, 1913, p. 361 et suiv), Mgr Toulott, Géographie de l'Afrique chrétienne, Mauritanie, 1899).

4- Bacchus: Etait le dieu du vin et de la fête dans la mythologie romaine. Considéré comme le plus polyvalent et le plus insaisissable des dieux, avec un équivalent grec en Dionysos, Bacchus est souvent associé au dieu romain du vin Liber Pater. Il apporte la joie partout où il passe, mais s'il est contrarié, il peut être un dieu vengeur, poussant les gens à la folie. » (WORLD HISTORY ENCYCLOPEDIA en français).

5- (Marengo/مارينغو): اسم أطلقه الإستعمار الفرنسي سابقا على مدينة بوقرة Bougara حاليا، التّابعة لولاية البليدة.

وبعض بقايا المساكن شمال (حمر العين) و(العفرون)؛ ونقش مسيحي يذكر الشّهداء في (بورقيقة)؛ وفي (برباسة)، توجد بقايا قنوات خزّان كبير، توابيت حجريّة، جرار فخّارية، مصابيح ونقود؛ وفي (الحطاطبة) توجد صوامع مربّعة، مصنوعة بشكل جيّد، في حالة حفظ مثاليّة؛ بعض الآثار غير المهمّة في غابة (خرزاز) القديمة؛ في (بحيرة حَلولة) القديمة، بعض الأنقاض، آبار من الحجر المصقول، أعمدة وقاعدة عمود وتاج عمود كورنثي؛ ممّا يثبت أن هذه البحيرة لم تكن موجودة أو على الأقلّ لم يكن لها امتداد كبير في العصر الرّوماني؛ وتشكّلها أو امتدادها ليس له أصل سوى إهمال السّكّان الأصليّين لها تحت الحكم العربي والتّركي.[1]

ماذا حلّ بسهل متّيجة تحت الحكم العربي؟ في منتصف القرن XIم، ذكر المؤرّخ ابن بكري أنّها: "غنيّة بالمراعي والحقول المزروعة؛ وتفوق جميع المناطق المجاورة من حيث كمّية الكتّان التي تُجنى فيها وتُشاهد فيها ينابيع مياه جارية وطواحين مائيّة".[2] أمّا الإدريسي، الذي عاش في منتصف القرن الذي يلي ابن بكري، فيتحدّث، دون أن يسمّيها، عن سهل يحيط بالجزائر حيث يزرع السّكّان المحلّيّون القمح والشّعير ويهتمّون بشكل خاصّ بتربية الماشية والنّحل[3]. في نهاية القرن XII م، كانت، حسب قول المؤرّخ ابن خلدون، مكسوّة بالزّروع وتزخر بعدد كبير من المدن والقرى.[4]

لكن المدينة دُمِّرت في مطلع القرن التّالي، أثناء الصّراعات التي اندلعت بين الموحّدين والمرابطين على يد ابن رانيا، ثمّ على يد عدوّه منديل المراوي، إلى درجة أنّ "النّيران انطفأت في المواقد، ولم يعدّ صياح الدّيك يُسمع." وفيما بعد، أصبحت ساحةً للمعارك التي دارت بين القبائل المجاورة المتنازعة على ملكيّتها. وقد تمكّن (بنو توجين) من السّيطرة عليها، وبعد فترة طويلة من الصّراع مع قبيلة الثّعالبة التي كانت مستقرّة في منطقة (التّيطري)، دفعوهم إلى التّراجع نحو الشّمال وأجبروهم على التّمركز في سهل متّيجة. وكان (بنو مليكش)، الذين كانوا آنذاك يسيطرون على هذه السّهول ويتصرّفون فيها كأسياد مستقلّين، قد فرضوا على الثّعالبة دفع الضّرائب؛ لكنّهم هُزموا، في أوائل القرن XIVم، على يد جيوش (بني مرين) فاضطروا إلى تحرير من كانوا خاضعين لهم. وفي سنة 1360، انحاز الثّعالبة إلى صفّ (أبي زيّان)، المطالب بالعرش من أسرة (بني عبد الواد)، وساندوه في المحاولات العديدة التي قام بها للإطاحة بسلطان تلمسان (أبي حمّو). وسرعان ما استبدّ الطّموح بشيخهم (سالم)، فأعلن نفسه سيّدًا مستقلًّا، وتمكّن بحيلة بارعة من التّخلّص من خصمه، أمير الجزائر ابن رالبن، واستولى على لقبه. "فسارع إلى إعلان أبي زيّان، المُطالب بالعرش من أسرة بني عبد الود، حاكمًا على المدينة". غير أنّ الأوضاع في المغرب بدأت تزداد سوءًا، ووردت الأنباء عن أنّ السّلطان المريني قد دخل مدينة تلمسان ويستعّد للتقدّم في فتوحاته.

1- On a même recueilli a l'emplacement de ce lac une hache polie au schiste. Cf. Pélagaud, La préhistoire en Algérie, Lyon, 1879.

2- El Bekri. Description de l'Afrique septentrionale, 2° éd. De Slane, 1911.

3- Edrisi, Description de l'Afrique et de l'Espagne, éd. et trad. Dozy et de Goeje, 1866.

4- Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, trad, de Slane, t. III. 313.

عندها اتّخذ سالم احتياطاته: تنكّر لأبي زيّان، وأعلن ولاءه للمرينيّين. وشاءت الأقدار أن يرجع أبوحمّو إلى عرش آبائه ويخرج أبو زيان من مخابئه. فعاد زعيم المسيل[1] إلى تمرّده وأعلن ولاءه مجدّدا لأبي زيان. لكن هذه الحركة باءت بالفشل مرّة أخرى، إذ قرّر أبو زيان الانسحاب، ورأى سالم أنّ الحكمة تقتضي طلب الصّفح، فظفر به وسلّم مدينة الجزائر لابن أبي حمّو، واحتفظ بقيادة قبيلته، مُكلّفًا بجباية الضّرائب"[2]. لكن هذه التّقلبات المستمرّة في مواقفه كانت سبب نهايته؛ فبعد أن نكث بوعده مرّات أخرى، أُلقي القبض عليه بأمر من أبي حمّو، ونُقل إلى تلمسان حيث قُتل طعنًا بالحراب خارج المدينة. ولقي عدد من أقاربه نفس المصير، بعد أن صودرت ممتلكاتهم. ومنذ ذلك الحين، خضعت قبيلة الثّعالبة للضرائب، وفقدت استقلالها.

وقد لبثوا نحو قرن من الزّمان قبل أن يستعيدوا سلطانهم، حتى برز منهم رجل تولّى مشيخة متّيجة وإمارة الجزائر في مطلع القرن XVIم، هو سليم بن التّومي (المعروف أيضاً بسالم التّومي)، الذي استدعى لمساعدته ضدّ الإسپانيّين القرصان التّركي (بربروس). فسارع هذا الأخير إلى القدوم بجيشه الصّغير واستولى به على شرشال؛ ثم، شيئًا فشيئًا، استحوذ على السّلطة من يد سليم الضّعيف، فأمر بخنقه وأجبر سكّان الجزائر على الاعتراف به أميراً عليهم. ولمّا احتج الثّعالبة على اغتيال شيخهم، سار إليهم وقام بإبادتهم، فقتل منهم ثلاثة آلاف فارس.

لا يبدو أن منطقة متّيجة قد تأثّرت كثيرًا بالأحداث السّياسية الأخيرة. ذلك أنّ "السّهول التي تحيط بمدينة الجزائر في غاية الحسن، كما يقول ليون الأفريقي في بداية القرن XVIم، ولاسيّما سهلاً يُعرف بمتّيجة، طوله نحو خمسة وأربعين ميلاً، وعرضه ثلاثون، ويُنتج زرعًا في غاية الجودة "[3]، ثمّ أنّها لبثت بعد ذلك ثلاثة قرون في كنف الحكم التّركي.

سعى الحكّام الجدد إلى إعمار متّيجة واستصلاحها، فاستمالوا قبائل الجبال بمنحهم أراضٍ زراعيّة. وقد أحسن سكّان الجبال من القبائل استغلال خصوبة أرضها. ويقول المؤرّخ الإسپاني (هيدو) في أواخر القرن XVIم: "ما إن يتجاوز المرء منطقة السّاحل حتى تنكشف له فجأة سهول متّيجة الفسيحة بالغة الخصوبة، يشقّها إلى شطرين تقريبًا نهر جميل وعظيم يُدعى وادي الحراش، ينبع من وراء السّهل، ويغذّي عددًا كبيرًا من الطّواحين التي تستفيد منها مدينة الجزائر طوال العام. وللأتراك، والأعاجم، وبعض الموريسكيّين من أهل المدينة، مزارع حسنة في متّيجة، يزرعون فيها القمح، والشّعير، والفول، والحمص والعدس، والبطّيخ، والخيار، وسائر الخضروات. كما يربّون فيها كثيرًا من الدّجاج والحمام، ويعتنون بتسمين العجول، وتربية البقر، والخيل، والغنم. ويجمعون منها كمّيّات كبيرة من العسل، ويصنعون الزّبدة، ويحصّلون منها كلّ عام قدرًا وافرًا من الحرير" .[4]

1- La tribu des Taâlba était une fraction de celle des Ma'quil.

2- Marçais, Les Arabes en Berbérie, 1913. p. 605-606).

3- Léon l'Africain, ouv. cité, p. 70.

4- Haedo, Topographie et Histoire générale d'Alger, t. I, p. 44.

كما كانت مزدهرة في بداية القرن XVIIIم، إذ بحسب شهادة الرّحالة (شو)، كانت تكفي تقريبًا لتزويد الجزائر بالمؤن. وكان يُجنى فيها بكثرة جميع أنواع الحبوب، والأرز، والخضروات، والفاكهة، والقنّب والحنّاء."[1] لكن، في ما بعد، أثقلت الضّرائب كاهل سكّانها، وأُخضعوا لأشغال شاقّة، ونُهبت ممتلكاتهم جرّاء الغارات المتكرّرة، ممّا أدّى بهم إلى هجرها، أو زراعة ما يلبّي بالكاد قوت يومهمّ.

وهكذا يمكن تفسير السّمعة السّيئة التي كان يتمّتع بها السّهل لدى العرب أنفسهم، إذ كانوا يقولون إن "الغراب لا يستطيع أن يعيش فيه". وهكذا أيضًا يمكن فهم حالة الإهمال التي وجدها فيها (فانتور دو بارادي) في أواخر القرن XVIIIم، حيث يقول: "إنّ سهل متّيجة سهل رائع طوله 10 أميال وعرضه 2 ميل. لكنّه، للأسف، بعيد كلّ البعد عن أن يكون مزروعًا بالكامل؛ فهو مليء بالبحيرات والأراضي البور. ولأهالي الجزائر والبايلك مزارع موزّعة هنا وهناك، وفي كلّ مزرعة بيت صغير للمالك وأكواخ من القصب للفلّاحين المور، وتُسمّى هذه الأكواخ (قوربي). ولحمايتها من الرّياح، يتمّ إلصاق روث الأبقار على جوانبها".[2]

لا يمكننا تخيُّل في أيّ حالة كان عليها السّهل حين وطِأه جنودنا ومستعمرونا سنة 1830، ولا مقدار الجهد والمشقّة التي كان على المعمّرين والإدارة أن يبذلوها في سبيل تعميرها واستصلاحها.

1- Shaw, voyages, trad. Mac Carthy, p. 290.

2- Venture de Paradis, Alger au XVIII° siècle (Revue Afric., t. 39, p. 270).

الملحق3: متّيجة من العصورالقديمة حتى سنة 1830.

MÉLANGES

LA MITIDJA DE L'ANTIQUITÉ A 1830

Les documents anciens relatifs à l'histoire de la Mitidja avant l'occupation française sont, il faut l'avouer, peu abondants, fragmentaires, souvent imprécis et ne permettent pas de reconstituer dans tous ses détails le passé de cette plaine.

Bien avant l'ère chrétienne, les Phéniciens se sont établis dans sa partie nord-est, près du cap Matifou, le Ras Tamendfoust des Indigènes, où ils ont fondé le comptoir de Rusguniæ (1). C'est à cet emplacement que l'empereur Auguste créa une colonie qui faisait face à celle d'Icosium (2); elle fut détruite par les Vandales après avoir pris un assez grand développement, si l'on en juge par l'importance de ses ruines (3). « Temend-

(1) Berbrugger a retrouvé dans les ruines de Rusguniæ une stèle d'une ressemblance parfaite avec les pierres tumulaires phéniciennes provenant de Portus Magus (Vieil Arzew). Le nom même de Rusguniæ (ras, rus = tête, cap) confirme d'ailleurs cette origine phénicienne. — Les instruments préhistoriques en quartz qu'on a retrouvés épars sur le sol au cap Matifou prouvent l'ancienneté de l'occupation de cette région.
Sur Rusguniæ, voir la brochure de Berbrugger sur la « Nécessité de coloniser le cap Matifou » (1845), ainsi que de nombreux articles du même auteur dans la *Revue Africaine*, en particulier t. I, p. 58 ; t. II, p. 415 ; t. IV, p. 36 ; t. XII, p. 296. — Chardon, *Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques*, p. 124-149. — Gsell, *Atlas archéologique*, f. 5.

(2) Elle est mentionnée par Pline sous le nom de Colonia Augusta Ruscaniae (*Hist. Nat.*, I, V, 2).

(3) Le fait que Rusguniæ ait été érigé au IVe siècle en siège épiscopal ne prouve rien en faveur de son importance, car, dans

de l'époque byzantine « en mémoire de Flavius Ziperis, tribun du corps des Primani Felices Justinianenses » qui a été déposé en paix après avoir exercé le tribunat à Rusguniæ pendant 12 ans ; une autre, gravée en l'honneur d'un certain Lucius Fadius, qui fut retrouvée encastrée dans la voûte d'un magasin de la Pêcherie, ainsi conçue : « A Lucius Fadius, fils de Lucius (de la tribu Quirina (surnommé) Rogatus, les décurions, les édiles, les duumvirs et les duumvirs quinquennaux de Rusguniæ ainsi que les citoyens de Rusguniæ, à cause de ses mérites et parce qu'il a fourni du froment et fait baisser son prix par une souscription » (1). « Il est intéressant de constater, d'après cette inscription, qu'à l'époque romaine comme de nos jours la récolte de céréales était quelquefois déficitaire par suite de la sécheresse. Renaudot dans son Histoire d'Alger (2), signale une troisième inscription apportée de Matifou à Alger ainsi que deux autres trouvées à Rusguniæ même.

Les fouilles faites à Rusguniæ de novembre 1899 à février 1900 par le lieutenant Chardon ont mis à jour des thermes, dont il reste une grande abside, une basilique chrétienne, un aqueduc venant de l'Est, de nombreuses sépultures antiques, une centaine de stèles votives représentant des personnages qui tiennent des offrandes, une statuette de jeune homme drapé, une statuette de bronze représentant Mercure. De nombreuses petites ruines ont été découvertes aux environs de Rusguniæ ; c'étaient probablement des fermes ou des villas.

L'occupation romaine ne s'est pas bornée à l'établissement d'une colonie sur la côte de la Mitidja ; de nombreux vestiges témoignent qu'elle a pénétré dans l'in-

(1) Une inscription, trouvée récemment au Cap Matifou, commémore aussi la générosité d'un citoyen qui, sous Marc Aurèle, a fait baisser le prix du blé.

(2) Renaudot, *Histoire d'Alger*, p. 12, et *Revue Africaine*, t. I, p. 58 et suiv.

foust, dit le chérif Edrisi qui écrivait au milieu du XIIe siècle, est un beau port auprès d'un ville ruinée. Les murs d'enceinte sont presque entièrement renversés, la population peu nombreuse ; on dit que c'était autrefois une très grande ville et on y voit encore les restes d'anciennes constructions, des temples et des colonnades » (1).

Ces ruines furent utilisées dans la suite pour l'édification du fort octogonal de Matifou et comme matériaux de construction par les habitants d'Alger. « De ses pierres, déclare Léon l'Africain au début de XVIe siècle, furent relevées quasi toutes les murailles de la cité d'Alger » (2). A la fin du même siècle, Marmol fait la même constatation : « C'est une ancienne ville bâtie par les Romains... et qui a un port raisonnable où vont mouiller les vaisseaux d'Alger, car tout le reste de la côte est battu des vents et a de grandes baies bien dangereuses. Les Africains appellent cette ville Temendefus et Ptolémée la met à 18°30 minutes de longitude et à 32°45 minutes de latitude sous le nom de Rustone. Elle était en grande splendeur du temps des Romains ; les Goths la détruisirent depuis et la ville d'Alger s'est accrue de ses ruines » (3). Renaudot, dans son « Histoire d'Alger » atteste que cet emprunt de matériaux avait encore lieu au début du XIXe siècle.

Il n'est pas étonnant qu'on ait découvert à Alger plusieurs documents épigraphiques provenant de Rusguniæ. Ce sont, notamment, une inscription sur marbre datant

l'église primitive, les évêques correspondaient aux curés de notre époque. Ce évêché existait encore au début du VIIe siècle quand la ville fut occupée par une garnison byzantine (Diehl, *Afrique byzantine*, p. 262).

(1) Edrisi, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, p. 104. Lopez de Gomara (*Cronica de los Barbarrojas*, p. 107) parle également de « maisons, temples et aqueducs antiques qui sont nombreux, grands et beaux ».

(2) Léon l'Africain, t. III, p. 68 ; édition Schefer et Cordier, 1898.

(3) Marmol, *L'Afrique*, t. II, p. 409.

térieur de cette plaine (1). Dans la partie orientale, on a retrouvé une statue de femme en marbre dans une ruine située près du pont du Hamiz, les culées d'un pont antique sur cet oued, près du gué de Hadjira ; un autre pont sur le Bouïria, affluent du Hamiz ; quelques vestiges à l'haouch ben Daly Bey ; les restes d'une espèce de camp romain près de l'ancienne redoute de l'ouëd Boudouaou ; quelques ruines près du village de St-Pierre-St-Paul ; à peu de distance de l'ancien camp de l'Harrach plusieurs pierres tombales avec inscriptions, dont une seule est assez bien conservée ; à 1.200 mètres au nord du Fondouk les vestiges d'une petite construction romaine ; à 6 kil. au nord de ce village des restes de murs et de stèles funéraires dont l'une porte une inscription et l'autre un bas-relief (découverts en 1925 par le maire du Fondouk) ; à l'Aïn Khadra, près de Rivet, une source aménagée par les Romains qui avaient construit des bains. (On a découvert dans la même région, à l'haouch Cerkadji, près de Rovigo, une inscription libyque et une autre à un kilomètre à l'est de Maison-Carrée, sur la route allant au cap Matifou), (2).

(1) V. Gsell, *Atlas archéologique de l'Algérie* (texte et cartes). Feuilles 1, 4, 5, 13 et 14.

(2) D'après Marmol, il y aurait eu près de l'embouchure de l'Harrach, à l'emplacement de Maison-Carrée, une ville de plus de 3.000 habitants, qu'il dénomme Sasa. « La ville de Sasa, que Ptolémée appelle Tipaso, est détruite et ses édifices se voient au levant d'Alger, sur les bords de la Méditerranee sarde, à l'ouest de la cité de Métafuz (Matifou). Cette ville a été de plus de 3.000 habitants. Son emplacement était joint à la rivière qu'on appelle Huet el Harrax (Harrach) ; quelques-uns prétendent qu'elle a été édifiée avant Alger par les anciens africains. Elle fut détruite ensuite par le peuple de Mozgane (Beni Mezar'anna ou Mezaghana) qui sont des gens plutôt basanés que blancs, ayant leur principale population en Lybie (contrée des oasis) d'où ils sont devenus puissants dans cette province d'Alger et en furent les maîtres avant que les Romains entrassent en Afrique. Ce sont des Berbers africains parlant une langue qu'ils appellent Mozgana ou Mozabia qui est au contraire et différente de celle que parlent les autres africains. Finalement cette cité est dé

Dans la partie centrale de la Mitidja, les traces de l'occupation romaine se bornent à quelques tombes et à des fragments de mosaïques découverts à Oued-el-Alleug, à une borne milliaire trouvée à 3 kilomètres à l'ouest de Boufarik et à des restes de canaux en maçonnerie, découverts par les colons dans les premiers temps de la colonisation en pleine zone marécageuse, qui témoignent que les Romains n'avaient point négligé les travaux hydrauliques dans cette région.

Les vestiges romains sont plus importants dans la Mitidja occidentale. On a retrouvé à 5oo mètres au sud-est du village de Mouzaïaville, à l'endroit appelé El Hadjeb par les Indigènes, les ruines d'un camp romain qui a été identifié avec Tanaramusa castra (1). Situé sur la route de Cæsarea (Cherchell) à la Mitidja, à proximité du débouché des vallées de la Chiffa et de l'oued Djer, il commandait une des portes du sud, celle de Médéa par le col de Mouzaïa. Son enceinte, ainsi que l'atteste une inscription (2), fut rebâtie sous l'empereur Constance. Le manque de crédits n'ayant pas permis d'entreprendre des fouilles méthodiques dans les débuts de la conquête, la forme de ce camp n'a pas été reconstituée ; les colons du voisinage étant venus dans la suite y chercher des pierres de construction ont fait disparaître plusieurs

truite et les écrivains disent qu'elle est plus ancienne qu'Alger et quelques-uns l'appellent le vieil Alger ». (*L'Afrique*, t. II, p. 220).

Mais, affirme Devoulx, Marmol n'est qu'un effronté plagiaire de Léon l'Africain qui, « prenant Alger pour Caesarea attribue la dénomination de Sasa, qu'il prend on ne sait où, aux ruines de Tipaza, changée par lui en Tipaso. Il le dit d'une manière formelle, catégorique, le doute n'est donc pas permis ». (*Revue Africaine*, t. XIX, p. 298).

(1) Voir les nombreux articles de Berbrugger dans la *Revue Africaine*, t. I, p. 52 et 305 ; t. V, p. 494 ; t. VI, p. 71 ; t IX, p. 353 et suiv. — Cat, *Essai sur la province romaine de Maurétanie césarienne*, p. 187-188. — Gsell situe Tanaramusa castra à Berroughia. V. *Revue Africaine*, p. 20 et suiv. ; *Atlas archéologique de l'Algérie*, f. 14.

(2) Corpus, 9282.

inscriptions, démoli plusieurs monuments, comme la porte du camp. Malgré ces regrettables destructions, un certain nombre de découvertes intéressantes ont pu être faites, en particulier deux épitaphes épiscopales trouvées dans une chapelle située à 25o mètres environ à l'est des ruines du camp, dont l'une porte qu'un évêque « éprouvé par plusieurs exils et reconnu pour un digne défenseur de la foi catholique a rempli les fonctions épiscopales pendant 18 ans 2 mois 12 jours, a été tué dans la guerre des Maures et inhumé le 6 des ides de mai de l'année provinciale 456 » (496 av. J.-C.) (1) ; plusieurs autres inscriptions mutilées, un bas-relief sculpté sur une pierre de très grande dimension représentant un oiseau entre deux phallus, une statue en marbre blanc de Bacchus, un dolium de grande capacité, une amphore haute de 1 m. 25 sur 0 m. 60 ; plusieurs objets variés, bague en or à chaton, style en ivoire, ceps en fer pour entrave des esclaves, lampe turibule en bronze, vases en terre avec leurs couvercles, lampes funéraires, 200 médailles, presque toutes en bronze, datant de l'époque comprise entre Constantin I et Honorius et deux bornes milliaires des règnes de Dèce et de Dioclétien, formées d'un monolithe de près de 2 mètres de haut, qui laissent supposer qu'une voie romaine reliait ce point à Rusguniæ soit par Boufarik, soit par le pied de l'Atlas.

Comme autres témoignages de l'occupation romaine dans la Mitidja occidentale, il y a lieu de signaler à 2.4oo mètres à l'est du village de Marengo, sur la rive gauche de l'oued Moussa, un fût de colonne, un tombeau et les fondations de deux maisons ; à peu de distance au nord-est du village une inscription funéraire ; au lieu dit la Fontaine romaine une construction carrée en pierre de taille de 8 mètres de côté ; plusieurs petites ruines à l'est et au sud-est de la ferme Branthomme

(1) V. Mesnage, *Le Christianisme en Afrique* (*Revue Africaine*, 1913, p. 361 et suiv.), Mgr Toulotte, *Géographie de l'Afrique chrétienne, Maurétanie*, 1899).

ainsi qu'à 5oo mètres à l'ouest de la ferme Durand (probablement d'anciennes exploitations agricoles) ; quelques vestiges d'habitations au nord d'Ameur-el-Aïn et d'El-Affroun ; une inscription chrétienne mentionnant des martyrs à Bourkika ; à Berbessa, les restes de conduits, d'une grande citerne, des sarcophages en pierre, des urnes cinéraires en argile, des lampes et des monnaies ; à Attatba, des silos carrés, bien cimentés, d'une conservation parfaite ; quelques vestiges peu importants dans l'ancien bois des Kharezzas ; dans l'ancien lac Halloula, quelques ruines, des puits en pierre de taille, des fûts et une base de colonne, un chapiteau corinthien ; ce qui prouve que ce lac n'existait pas ou du moins n'avait qu'une faible extension à l'époque romaine ; sa formation ou son extension n'a d'autre origine que l'incurie des Indigènes sous les dominations arabe et turque (1).

Que devint la Mitidja sous la domination arabe ? Au milieu du XI[e] siècle, l'historien El Bekri déclare qu'elle « est riche en pâturages et en champs cultivés ; elle surpasse toutes les régions voisines par la quantité de lin qu'on y récolte ; on y remarque des sources d'eau vive et des moulins à eau » (2).

Edrisi, qui vivait au milieu du siècle suivant, parle, sans la nommer, d'une plaine qui entoure Alger où les Indigènes cultivent le blé et l'orge et surtout élèvent des bestiaux et des abeilles (3). A la fin du XII[e] siècle, elle était, au dire de l'historien Ibn Khaldoun, « couverte de cultures et renfermait un grand nombre de villes et de villages » (4).

(1) On a même recueilli à l'emplacement de ce lac une hache polie au schiste. Cf. Pélagaud, *La préhistoire en Algérie*, Lyon, 1879.

(2) El Bekri, *Description de l'Afrique septentrionale*, 2[e] éd. de Slane, 1911.

(3) Edrisi, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, éd. et trad. Dozy et de Goeje, 1866.

(4) Ibn Khaldoun, *Histoire des Berbères*, trad. de Slane, t. III, 315.

Mais elle fut dévastée, au commencement du siècle suivant, au cours des luttes qui éclatèrent entre Almohades et Almoravides, par Ibn Râniyâ, puis par son ennemi Mendil le Marrâwi, à tel point que « les foyers furent éteints et que le coq ne chanta plus ». Dans la suite, elle fut le théâtre des combats que se livrèrent les tribus voisines se disputant sa possession. Les Beni Toujin réussirent à s'en emparer et, après une longue période de luttes avec la tribu des Thaâlba, installée dans le Titteri, ils refoulèrent celle-ci vers le nord et la forcèrent à se cantonner dans la Mitidja. Les Mellikich, qui occupaient alors cette plaine où ils faisaient figure de seigneurs indépendants contraignirent les Thaâlba à leur payer l'impôt ; mais s'étant fait battre, au début du XIV[e] siècle, par les armées Mérinides, ils furent obligés d'affranchir leurs tributaires. En 136o, ces derniers prirent parti pour le prétendant abd el wâdide Abou Zaïyan qu'ils soutinrent dans les nombreuses tentatives qu'il fit pour renverser le sultan de Tlemcen, Abou Hammou. Bientôt leur cheik, Salem, dévoré d'ambition, s'érigea en seigneur indépendant et, par un habile stratagème, parvint à se débarrasser de son rival, l'émir d'Alger, Ibn Râlibn, dont il prit le titre. « Il s'empresse d'y proclamer Abou Zaïyan, le prétendant abd el wâdide. Cependant l'horizon du Maghreb s'obscurcit ; on apprend que le sultan mérinide a fait son entrée dans Tlemcen et se dispose à pousser plus loin sa conquête. Sâlem prend ses précautions ; il répudie son prétendant et reconnaît les B. Merin. Un nouveau retour de fortune rétablit Abou Hammou sur le trône de ses pères et fait sortir Abou Zaïyan de ses retraites. Le chef maquilien (1) reprend son attitude de rebelle et proclame de nouveau le prétendant. Mais ce mouvement avorte à son tour. Abou Zaïyan a pris le parti de se retirer. Sâlem croit prudent de rentrer en

(1) La tribu des Thaâlba était une fraction de celle des Ma'qil.

grâce et obtient son pardon. Il livrera Alger au fils d'Abou Hammou et gardera le commandement de sa tribu avec la charge de faire rentrer les impôts » (1). Mais ces volte-face continuelles lui furent finalement fatales ; après plusieurs nouveaux manquements à sa parole, Sâlem fut fait prisonnier par Abou Hammou, emmené à Tlemcen et tué à coups de lance en dehors de la ville. Plusieurs de ses parents subirent le même sort après avoir eu leurs biens confisqués. Désormais les Thaâlba furent soumis à l'impôt et perdirent leur indépendance.

Ils mirent près d'un siècle pour recouvrer leur puissance. Un des leurs redevint cheik de la Mitidja et émir d'Alger au commencement du XVI[e] siècle ; ce fut Selim ben Et-Teumi (Salim Et-Toumy), qui appela à son secours contre les Espagnols le corsaire turc Barberousse. Celui-ci s'empressa d'accourir avec sa petite armée avec laquelle il s'empara de Cherchel ; puis, peu à peu, il confisqua le pouvoir du faible Selim qu'il fit étrangler et contraignit les habitants d'Alger à le reconnaître comme émir. Comme les Thaâlba protestaient contre l'assassinat de leur cheik, il marcha contre eux et les extermina, leur tuant 3.000 cavaliers.

La Mitidja ne paraît pas avoir beaucoup souffert de ces derniers événements politiques. « Les plaines qui l'environnent (Alger) sont fort belles, déclare Léon l'Africain au début du XVI[e] siècle, mêmement une qu'on appelle Mettegia, laquelle contient de longueur environ quarante et cinq milles et trente en largeur, produisant un grain bon en toute perfection » (2). Elle allait passer pour trois siècles sous la domination turque.

Les nouveaux dominateurs s'appliquèrent à la mettre en valeur en attirant les tribus de la montagne par des concessions de terres. Les montagnards kabyles surent

(1) Marçais, *Les Arabes en Berbérie*, 1913, p. 605-606).
(2) Léon l'Africain, ouv. cité, p. 70.

exploiter sa fertilité. « Au delà du Sahel, constate l'historien Haedo à la fin du XVI[e] siècle, on découvre tout à coup les vastes et très fertiles campagnes de la Mitidja, que partage presque par moitié une belle et grande rivière, l'oued Harrach ; celle-ci a sa source au delà de la plaine ; elle alimente une grande quantité de moulins qu'Alger utilise pendant toute l'année. Des Turcs, des renégats et quelques Maures de la ville ont dans la Mitidja de belles fermes où ils sèment beaucoup de blé, d'orge, de fèves, de pois chiches, de lentilles, de melons, de concombres et de plantes potagères. Ils y élèvent en quantité des poules, des pigeons ; ils y nourrissent des bœufs, des vaches, des chevaux, des moutons ; ils y recueillent beaucoup de miel, y fabriquent du beurre, ils y recueillent chaque année beaucoup de soie » (1).

Elle était prospère aussi au début du XVIII[e] siècle, puisqu'au témoignage du voyageur Shaw elle suffisait presque à l'approvisionnement d'Alger. On y recueillait en abondance toutes espèces de grains, de riz, de légumes, de fruits, de chanvre, de henné (2).

Mais, dans la suite, ses habitants accablés d'impôts, soumis à de dures corvées, ruinés par de fréquentes razzias, ou bien l'abandonnèrent, ou bien n'y cultivèrent plus que ce qui leur était strictement indispensable pour leur subsistance propre. Ainsi s'explique la mauvaise renommée dont jouissait la plaine chez les Arabes eux-mêmes, qui déclaraient qu'une corneille ne pouvait y vivre ; ainsi s'explique l'état d'abandon dans lequel Venture de Paradis la trouva à la fin du XVIII[e] siècle. « La plaine de la Métidgé, dit-il, est une superbe plaine de 10 lieues de long sur 2 lieues de large. Il s'en faut malheureusement beaucoup qu'elle soit toute cultivée ; elle est remplie de lacs et de terres en friche. Les gens d'Al-

(1) Haedo, *Topographie et Histoire générale d'Alger*, t. I, p. 44.
(2) Shaw, *Voyages*, trad. Mac Carthy, p. 290).

ger et le beylik y ont des métairies d'ici et de là où on voit une petite maison pour le maître et des cabanes de joncs pour les cultivateurs maures ; on appelle ces cabanes gourbis. Pour en défendre l'entrée au vent, on applique sur les côtés des bouses de vaches » (1).

On devine dans quel état nos troupes et nos colons trouvèrent la plaine en 1830, quels efforts et quel labeur auront à déployer les colons et l'administration pour la peupler et la mettre en valeur.

J. Franc.

(1) Venture de Paradis, *Alger au XVIII[e] siècle* (*Revue Afric.*, t. 39, p. 270).

UN RIVAL D'ABD EL KADER

Nous devons la communication du document que nous reproduisons à l'obligeance de Madame Sandoz. La traduction est de notre confrère M. Dessus-Lamare.

« Gloire à Allah Seul. Seul son visage est éternel.

« De la part du serviteur de son Maître (qu'Il soit loué !) Sidi Mohammed ben Abd Allah, descendant de Sidi Cheikh, au puissant sultan de France, Louis-Philippe, connu par son sens politique, sa maîtrise, son intelligence et sa sagacité. Qu'Allah le rende fameux sur terre et sur mer, célèbre par ses jugements et victorieux par ses armées !

« Que le salut soit sur Vous. Si vous vous informez de nous, sachez que nous sommes en bien et en paix et adressons louange à Allah pour la prospérité du pays et la tranquillité du territoire.

« Je vous fais savoir que, grâce à la faveur divine, les principaux des Gharbia, des Ghesl et des Beni Amra se sont réunis et m'ont dit : « Lève-toi, que nous te mettions à la place d'El-Hadj Abd-el-Qâder, parce qu'il ne nous convient pas, qu'il agit injustement et tyranniquement à notre égard, lui et ses compagnons, et qu'il ne cherche que la ruine du pays. » J'ai acquiescé à leur demande, moi le serviteur d'Allah ; je leur ai posé mes conditions et leur ai dit : « Nous ferons la paix avec la France. » Et ils l'ont accepté de moi.

« Ensuite je me rendis à Oran chez Mustapha, je m'entretins avec lui et je demandai à être reçu en audience par le maréchal, gouverneur d'Alger. Mustapha lui écrivit à mon

الحاج موسى، أو صاحب الحمار والأمير عبد القادر، في عام 1835.

El-Hadj Moussa, ou l'Homme à l'Âne et L'ÉMIR ABD-EL-KADER, en 1835.

((BERBRUGGER (A)/أ. باربريگر)[1]

ترجمة ودراسة: أ.د. حبيب مونسي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

يستعرض هذا المقال التّاريخي سيرة الحاج موسى بن علي، المعروف بلقب (بو حمار)، وهو متصوّف درقاوي نافس الأمير عبد القادر الجزائري سياسياً ودينياً في ثلاثينيّات القرن XIXمم. يعتمد النّص على شهادة مفصّلة من الحاج قارة، مفتي دلّس السّابق، ليسدّ ثغرة في الأرشيف الأوروبي عبر تقديم وجهة نظر عربيّة محلّية حول الصّراعات الداخليّة في الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي.

يتتبّع السّرد رحلة الحاج موسى من أصوله المصريّة مريداً في الطّرق الصوفيّة وصولاً إلى استقراره في الأغواط، حيث اكتسب هيبة دينيّة مكّنته من قيادة جموع غفيرة تحت مزاعم الكرامات والبركات. وتبرز في النّص معركة (عمورة) عام 1835 حلقة فاصلة، حيث انهزم فيها أمام قوّات الأمير، ممّا أدّى لتراجعه إلى الصّحراء قبل أن يختم حياته مقاتلاً في حصار الزّعاطشة.

يهدف الكاتب أ. باربريگر من نشر هذه الدّراسة إلى تحليل ظاهرة (المحرّضين الدّينيين) وفهم كيفيّة تأثيرهم على السّكّان الأصليّين، معتبراً إيّاها دراسة تاريخيّة ودرساً سياسياً في فهم بنية المجتمع الجزائري آنذاك.

01- أهمّ الأفكار والوقائع التي ارتكز عليها كاتب المقال:

يرتكز المقال الذي أعدّه باربريگر بناءً على رواية الحاج قارة على مجموعة من الأفكار والوقائع التّاريخيّة التي تهدف إلى تسليط الضّوء على شخصيّة (الحاج موسى/صاحب الحمار) كمنافس منسيّ للأمير عبد القادر، ويمكن تلخيص أهمّ هذه المرتكزات فيما يلي:

1-سد الفجوة في التّاريخ الجزائري:

- **ندرة المصادر العربيّة:** ينطلق الكاتب من فكرة أنّ الوثائق الأوروبيّة حول الحرب في الجزائر منذ 1830 كثيرة، لكنّ المواد العربيّة نادرة للغاية، ممّا يجعل الرّواية التّاريخيّة غير مكتملة لفقدان الجانب المتعلّق بما كان يجري تحت (الخيام العربيّة).
- **تدارك النّسيان التّاريخي:** يرى الكاتب أنّ (الحاج موسى) لم يحظَ إلّا بذكر مقتضب في المراجع الفرنسيّة (مثل كتاب الحوليات الجزائريّة)، رغم دوره كـ"شاهد للحرب المقدّسة" ومنافس للأمير، ممّا استوجب تدوين سيرته.

1- المجلّة الأفريقيّة، المجلّد1، 1856، ص41-49.

2- شخصيّة الحاج موسى (خلفيّته وهويّته)

- **الأصول والنّشأة:** الحاج موسى بن علي بن الحسين هو مصري الأصل، نشأ في القاهرة وجُنّد في قوّات محمّد علي باشا قبل أن ينتقل إلى طرابلس ثمّ المغرب فالجزائر.
- **الانتماء الصّوفي:** كان من طائفة الدّرقاويّة، وهي طريقة صوفيّة عُرفت برفض السّلطة الزمنيّة والزّهد، وكان مريدوها يرتدون "البرنوس المرقّع" رمزا لزهدهم.
- **لقب "صاحب الحمار":** التصق به هذا اللّقب لأنّه كان يتنقّل بين الأغواط والمديّة راكباً حماره.

3-البعد الدّيني والسّياسي لحركته:

- **القيادة الرّوحية والكرامات:** ارتكزت سلطته على (البركات الإلهيّة) والكرامات التي كان يرويها أتباعه، مثل إيجاد الماء في أماكن قاحلة وتكثير الطّعام القليل.
- **تجسيد فكرة (المهدي):** في لحظات معيّنة، نظر إليه السّكّان كـ(مول السّاعة/المهدي المنتظر) خاصّة بعد أحداث اعتبرت كرامات، مثل انفجار مدفع خصومه في المديّة.
- **التّحريض على الجهاد:** قام بتحريض قبائل الصّحراء والتّل للقتال ضدّ الفرنسيّين في وقت كان فيه الأمير عبد القادر مشغولاً بتوطيد سلطته في تلمسان مستفيدا من فترة الهدنة.

4-الصّراع مع الأمير عبد القادر:

- **المواجهة العسكريّة:** وقعت واقعة حاسمة في أبريل 1835 عند جبل وامري (عمّورة)، حيث تواجهت جموع الحاج موسى مع جيش الأمير عبد القادر.
- **عنصر التّفوق:** انتصر الأمير عبد القادر بفضل امتلاكه المدفعيّة التي روّعت أتباع الحاج موسى ممّا أدّى إلى هزيمتهم وفرار موسى إلى الصّحراء.

5-دروس سياسيّة واجتماعيّة:

- **دراسة سيكولوجيّة الجماهير:** يرى الكاتب في سيرة الحاج موسى درساً سياسياً يكشف كيف يظهر المتعصّبون الذين يحرّكون البلاد دورياً، ويوضّح السّذاجة المستعصية لضحاياهم.
- **الصّدام بين الطّرق الصوفيّة:** يشير النّص إلى التوتّر بين الطّريقة الدّرقاوية (التي يمثّلها موسى) والطّريقة التّيجانية في عين ماضي، حيث رفض شيخ الأغواط التّخلي عن تيجانيّته لأتباع موسى.

6-ثورة "الزّعاطشة"

- بعد سنوات من العيش في مسعد وبريّان، استجاب الحاج موسى لنداء الثّورة في الزّعاطشة بقيادة بوزيّان عام 1849. ارتقى الحاج موسى في الهجوم النّهائي على الزّعاطشة إلى جانب بوزيّان، منهياً بذلك حياة حافلة بالاضطرابات دامت نحو 53 عاماً.

02-كيف بدأت المنافسة والصّراع بين الحاج موسى والأمير عبد القادر؟:

بدأت المنافسة والصّراع بين الحاج موسى والأمير عبد القادر نتيجة تداخل الطّموحات السّياسية والرّوحية في وقت كانت فيه البلاد تمرّ بمرحلة انتقاليّة بعد الاحتلال الفرنسي عام 1830، ويمكن تفصيل بداية هذا الصّراع وفقاً للمصادر فيما يلي:

• **توسع نفوذ الطّرفين في آن واحد:** بينما كان الأمير عبد القادر مشغولاً بتثبيت سلطته في تلمسان (جهة الغرب)، كان الحاج موسى يحشد قبائل الصّحراء والتّل في منطقة التّيطري والمديّة للجهاد ضدّ الفرنسيّين. وعندما حاول الأمير عام 1833 بسط سلطته نحو الشّرق، وجد في عمالة الجزائر منافساً هو الحاج موسى.

• **اختلاف المنهج والشّرعية:** استند الحاج موسى في حركته إلى الزّهد الصّوفي (الطّريقة الدّرقاوية) والكرامات، ممّا جعله يكتسب شعبيّة كبيرة بين القبائل التي رأت فيه (المهدي المنتظر) أو (مول السّاعة) خاصّة بعد انفجار مدفع خصومه في المديّة الذي اعتبره النّاس كرامة له. في المقابل، كان الأمير عبد القادر يمثّل سلطة منظّمة تسعى لتوحيد البلاد تحت قيادة سياسيّة وعسكريّة مركزيّة.

• **التّحريض المحلي:** بدأت المواجهة الفعليّة عندما حثّ أعيان من المنطقة (مثل الحاج الصّغير والبركاني) الحاج موسى على التحرّك من الصّحراء نحو المديّة والبليدة. هؤلاء الأعيان أنفسهم كانوا متردّدين في البداية تجاه سلطة الأمير، بل إنّ بعضهم استقدم موسى لمواجهة الفرنسيّين والاضطرابات المحلّية.

• **تضارب الأنباء والتحرّكات:** تلقّى الحاج موسى أنباءً تفيد بأنّ الأمير عبد القادر عقد صلحاً مع الفرنسيّين وأنّه يفرض سلطته في كلّ مكان، وقد عيَّن خليفة له في الشّرق. هذا الأمر جعل موسى في حالة تردّد بين قتال الأمير كمنافس ظهر فجأة، أو التّخلي عن المعركة.

• **المواجهة العسكريّة الحاسمة:** اندلع الصّراع المسلح في **أبريل 1835** عندما التقى الطّرفان عند جبل وامري (في عمورة). كان الأمير يمتلك مدفعيّة، وهو ما روّع أتباع الحاج موسى الذين لم يكونوا منظّمين عسكرياً، ممّا أدّى إلى هزيمتهم وقتل المئات منهم، وفرار الحاج موسى إلى الصّحراء. كانت هذه الموقّعة هي النّقطة التي حسمت الصّراع لصالح الأمير عبد القادر، حيث دخل بعدها المديّة وعيَّن فيها حكاماً تابعين له، بينما ظلّ الحاج موسى في ضواحي الأغواط يحظى بتوقير ديني بين سكّان الصّحراء بعيداً عن السّلطة السّياسية للأمير.

03- لماذا فشل الحاج موسى في كسب تأييد الميزابيين؟:

فشل الحاج موسى في كسب تأييد الميزابيّين نتيجة تصرّف غريب ومستهجن قام به عند دخوله مدينتهم، ممّا أثار غضبهم ونفورهم منه، وتتلخّص أسباب هذا الفشل في النّقاط التّالية:

• **السّلوك الصّادم والمهين:** عند دخوله مدينة غرداية، قام الحاج موسى بحمل قطعة من جيفة دابة ميّتة على كتفيه، وسار بها في الشّوارع وهو يصيح بحمد الله.

• **رد فعل السّكّان:** اعتبر الميزابيون هذا العمل إهانة ومساً بكرامتهم وأثار حفيظتهم، ولم يتقّبلوا هذا النّوع من "التّبتل" أو السّلوك الصّوفي المتطرّف الذي انتهجه.

• **الطّرد المهين:** بدلاً من الانضواء تحت لوائه أو الاستماع لدعوته، اكتفى السّكّان بإرسال أطفال المدينة خلفه لطرده رشقاً بالحجارة حتى خرج من منطقتهم.

• **القطيعة الدّائمة:** أدّت هذه المغامرة في غرداية إلى فقدان الحاج موسى لأيّ فرصة في كسب ودّ الميزابيّين مستقبلاً؛ حتى أنّ المصادر تشكّك في صحّة الأخبار التي قالت أنّه سكن لاحقاً في (برّيان/قرب ميزاب)، مؤكّدة أنّ الميزابيّين لم يكن ليقبلوه بينهم أبداً بعد ما حدث في غرداية. باختصار، كان أسلوب الحاج موسى في إظهار الزّهد أو (الجنون الصّوفي) يتناقض تماماً مع طبيعة وسلوك المجتمع الميزابي، ممّا أدّى إلى طرده بدلاً من اتّباعه.

04- ما هي الكرامات التي جعلت النّاس يلقبونه بالمهدي؟:

استند لقب (المهدي) أو (مول السّاعة) الذي أطلقه النّاس على الحاج موسى إلى كرامات ووقائع اعتبرها أتباعه والسّكّان كرامات إلهيّة تؤيّد دعوته، وأهمّها:

• **انفجار مدفع خصومه في المديّة:** تعتبر هذه الواقعة هي السّبب المباشر والأساسي في تحوّله إلى (مهدي) في نظر النّاس؛ فعندما حاول سكّان مدينة المديّة صدّه باستخدام مدفع قديم متهالك، انفجر المدفع من الطّلقة الأولى، فرأى السّكّان في ذلك "معجزة" لصالح موسى، ممّا أدّى لانتشار ذعر عام واعتراف فوري بلقب (مولى السّاعة) له.

• **إيجاد الماء في أماكن قاحلة:** يُروى أنّه في إحدى رحلاته اشتدّ العطش به وبأتباعه، فتوجّه بإلهام نحو مكان لم يرَ فيه أحد ماءً من قبل، ووجدوا هناك بركة ماء رائعة أطفأت غلّتهم.

• **بركة الطّعام وتكثيره:** كان يُشاع بين رفاق طريقه أن (الطّعام/الكسكسي) لا يفوته أبداً في الأماكن القفر بين الأغواط وبوغار، وكانت حصّة الشّخص الواحد تكفي الجماعة كلّها حتى يشبعوا، وهو ما اعتبره الرّواة علامة واضحة على الحماية السّماوية.

• **صدق تنبؤّاته العسكريّة:** تنبّأ لشيخ واحة الأغواط بنتائج معركة ضدّ (بن شهرة)، فأخبره بأنّه سيقتل من محاربي العدوّ أحد عشر رجلاً بالتّحديد وسيهزمهم، وهو ما تحقّق بحذافيره في اليوم التّالي.

بسبب هذه الأحداث، وتحديداً واقعة المدفع، ترسّخت صورة (المهديّ) في أذهان العامّة، ممّا جعلهم ينساقون وراء دعوته بحماس شديد.

05- ما هو دور الطّريقة الدّرقاوية في تحريض القبائل ضدّ الفرنسيّين؟:

لعبت الطّريقة الدّرقاوية، التي كان الحاج موسى أحد أبرز دعاتها، دوراً محورياً في تحريض القبائل الجزائريّة ضدّ الفرنسيّين من خلال مرتكزات دينيّة وإيديولوجيّة محدّدة:

• **رفض السّلطة الزمنيّة:** قامت عقيدة الدّرقاوية على رفض كلّ سلطة زمنيّة لا تسخر قوّتها لنشر الإسلام والدّفاع عنه، وهو ما جعل اسمهم في ذلك الوقت مرادفاً لكلمة (متمرّد). هذا الموقف المبدئي جعلهم في صدام مباشر مع الاحتلال الفرنسي منذ بداياته.

• **التّحريض على (الحرب المقدّسة/الجهاد):** استخدم الحاج موسى انتماءه للطّريقة لحشد (عرب الصّحراء) وسكّان القصور وقبائل التّل الأوسط. وقد نجح في دفع هذه الجموع لأخذ تعهّد جماعي بالاستيلاء على الجزائر وطرد الفرنسيّين، معتمداً على حماس ديني شديد.

• **استخدام الرّمزية الرّوحية (الزّهد والكرامات):** فرضت الطّريقة على مريديها زياً خاصّاً هو (البرنوس المرقّع) كرمز للزّهد في الدّنيا، ممّا أضفى عليهم هيبة روحية بين القبائل. كما أسهمت (الكرامات) المنسوبة للحاج موسى في ترسيخ صورته كقائد رباني، ممّا جعل القبائل تنساق وراءه بيقين تامّ.

• **تجسيد فكرة "المهدي المنتظر":** لعب الفكر الصّوفي الدّرقاوي دوراً في تقديم الحاج موسى للعامّة بصفته **"مول السّاعة"** أو المهدي، وهي صفة استغلّها المحرّضون في ذلك الوقت لجمع المحاربين حولهم تحت غطاء (المسحاء المسلمين المنتظرين).

• **التّعبئة عبر الأوراد والعهود:** اعتمدت الطّريقة على إدخال النّاس في (الورد الدّرقاوي) وتلقينهم أذكاراً وصيغاً سرّية، ممّا خلق رابطة ولاء قويّة تتجاوز الرّوابط القبليّة التّقليدية وتوجّههم نحو هدف واحد وهو القتال.

• **الاستمراريّة في المقاومة:** لم يقتصر دورهم على البدايات، بل استمرّ التّحريض حتى اللّحظات الأخيرة؛ حيث شارك الحاج موسى في **مقاومة الزّعاطشة عام 1849** بناءً على (رؤيا للنّبي) تأمره بحمل السّلاح، ومات هناك دفاعاً عن مبادئ طريقته في الجهاد.

06- ما هي الأسرار أو الأوراد الثّلاثة للطريقة الدّرقاوية؟:

وفقاً لمّا ورد في المصدر، فإنّ الطّريقة الدّرقاوية تعتمد على **ثلاث صيغ سرائريّة** (أوراد) أساسيّة وقد ذكر النّص التّفاصيل المتعلّقة بها عند حديثه عن دعوة الحاج موسى لسكّان الأغواط للانضمام إلى طريقته:

• **طريقة الأداء:** تتمثل هذه الأوراد في تكرار كلّ صيغة من الصّيغ الثّلاث السّرائرية للطريقة مائة مرّة.

• **الارتباط بالعبادات:** كان من شروط هذه الأذكار أن تتّبعها الصّلوات الخمس المفروضة.

• **المحتوى:** لم يذكر النّص صراحة الألفاظ المحدّدة لهذه الصّيغ الثّلاث، بل اكتفى بوصفها بأنّها (سرائريّة/سرّية) خاصّة بالطّريقة الدّرقاوية، وكان تلقينها للنّاس يعني دخولهم في (العهد) أو (الورد) الخاصّ بالمشيخة. يُذكر أنّ (الورد) في المفهوم الصّوفي الوارد في النّص يشير إلى الدّخول الرّسمي في الطّريقة التي أسسها المرابط، وكان الحاج موسى قد تلقّى الإذن بمباشرة مهامّ المشيخة وتلقين هذا العهد بناءً على رسالة من شيخه (محمّد المداني).

07- لماذا هدم الجنرال (دي لادميرال) منزل (الحاج موسى)؟:

هدم الجنرال (de Ladmirault/دي لادميرال) منزل الحاج موسى الذي كان قد بناه لنفسه في قصر مسعد، وذلك خلال إحدى الحملات العسكريّة التي قادها الفرنسيّون في الجنوب الجزائري. وعلى الرّغم من أنّ المصادر لا تذكر سبباً تقنياً مباشراً لعمليّة الهدم (مثل استخدامه كحصن أو مخزن للسلاح)، إلّا أنّ السّياق العام يشير إلى أنّ الحاج موسى كان من أبرز المحرّضين والمتمرّدين ضدّ السّلطة الفرنسيّة لكونه قائداً في الطّريقة الدّرقاوية التي ترفض السّلطة الزمنيّة، وداعياً لـ (الحرب المقدّسة/الجهاد) التي انخرطت فيها قبائل الصّحراء والتّل تحت لوائه. وفضلا عن ذلك، كان الحاج موسى يعيش في مسعد

"عيشة وجاهة"، ممّا جعل من منزله رمزاً لمكانته ونفوذه في المنطقة قبل أن ينتقل لاحقاً للمشاركة في مقاومة الزّعاطشة.

08- كيف كانت طبيعة العلاقة بين الحاج موسى والشّيخ العربي بن عطية؟:

كانت العلاقة بين الحاج موسى والشّيخ العربي بن عطيّة مزيجاً من الأخوة الرّوحية في البداية، ثمّ تحوّلت إلى جفاء وسجال فكري مطوّل بسبب التّنافس على المريدين، ويمكن تفصيلها في النّقاط التّالية:

- **زمالة في الطّريقة الصوفيّة:** كان الرّجلان يعتبران نفسيهما خليفتين ونائبين للشّيخ الأكبر سيدي العربي بن أحمد الدّرقاوي؛ حيث سمع الحاج موسى عن الشّيخ بن عطيّة من أستاذه في طرابلس (سيدي محمّد المداني)، الذي أخبره أنّهما كانا زملاء في الدّراسة عند الشّيخ الدّرقاوي في المغرب.
- **زيارة المودة والتّقدير:** في بداية أمره، قام الحاج موسى بزيارة دينية للشّيخ العربي بن عطيّة في منطقة **الونشريس**، وحمل إليه "قرباناً" يتكون من تمر وبرنوس، وكان ينظر إليه كأخ في الدّين.
- **بداية الخلاف والجفاء:** نشأ التوتّر عندما شعر الحاج موسى بأن مريديه الذين رافقوه في الرّحلة (بو حلي وعبد الرّحمن بن علي) يميلون إلى ترك طريقته (ورده) لتبني طريقة بن عطية، وهو ما حدث بالفعل عند عودتهم إلى الأغواط، ممّا أدّى إلى وقوع جفاء بينهما.
- **حرب الرّسائل (السّجال المكتوب):**
  - وجّه الحاج موسى **رسالة عتاب مريرة من ثمانين صفحة** إلى الشّيخ بن عطية، لامه فيها على قبول هؤلاء المريدين الذين هجروا شيخهم الأوّل بمجرّد تلقّي العهد. فردّ الشّيخ بن عطيّة **برسالة أطول بلغت مائة وعشرين صفحة**، دافع فيها عن موقفه برؤية صوفيّة مفادها أن "المريد يمكنه الارتباط بسبعين شيخاً إذا وجد في ذلك نفعاً معنوياً". ليردّ موسى بمكتوب ثالث (لم يُحدّد حجمه) أملى فيه وجهة نظره حيث لم يكن يحسن الكتابة بنفسه. انتهت هذه العلاقة عند حدود هذا السّجال المكتوب، ولم يذكر الحاج قارة في روايته أن هذا الخلاف أسفر عن عواقب ميدانية أخرى بين الطّرفين.

9- تفاصيل الرّسالة الطّويلة التي كتبها موسى لابن عطية؟:

كتب الحاج موسى رسالة مطوّلة إلى الشّيخ العربي بن عطيّة بعد وقوع جفاء بينهما بسبب انشقاق اثنين من مريدي موسى وانضمامهما إلى طريقة بن عطية. وتتلخّص تفاصيل هذه الرّسالة فيما يلي:

- **حجم الرّسالة:** بلغت هذه الرّسالة ثمانين صفحة، وقد أفرغ فيها موسى حزنه ومراراته.
- **محتوى الرّسالة (موضوع العتاب):** ركّزت الرّسالة على لوم الشّيخ بن عطيّة بمرارة؛ بسبب قبوله لمريدين وصفهم موسى بـ "النّفوس الخفيفة" الذين يبنون صلة مع شيخ معين، ثمّ بمجرّد تلقّي "العهد" منه، يهجرونه ليتبعوا شيخاً آخر. لم يكتب الحاج موسى الرّسالة بيده لأنّه لم يكن يحسن إمساك القلم (أميّ لا يكتب)، بل جعل أحد أنصاره ويُدعى "ابن الحاج" يكتبها له إملاءً. وقد استدعت هذه الرّسالة رداً مطوّلاً من الشّيخ بن عطيّة وصل إلى مائة وعشرين صفحة، شرح فيه وجهة نظره بأن المريد يمكنه الارتباط بأكثر من شيخ إذا وجد في ذلك نفعاً معنوياً.

التّرجمة:

تكثر الوثائق الأوروبيّة حول الحرب التي نخوضها هنا منذ عام 1830، لكن الموادّ العربيّة نادرة للغاية. ولذلك، في حين إنّنا نرى بوضوح شديد كلّ ما حدث في المعسكر الفرنسي، فإنّنا لا نلمح إلّا بشكل غامض للغاية ما كان يجري في تلك الأوقات من الصّراع تحت الخيام العربيّة. ومع ذلك، لا يمكن للرواية أن تكون كاملة وتكتسي ألوانها الحقيقيّة إلّا عندما يُعرف هذا الجانب المزدوج جيداً. وأنّ الفجوة المذكورة تدعو للأسف الشّديد، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بأحداث جرت بين السّكّان الأصليين ولا تتحدّث عنها تقاريرنا، الرّسمية أو غيرها، إلّا باقتضاب شديد.

هكذا، على سبيل المثال، عندما أراد عبد القادر في عام 1833 الاستفادة من السّلم الذي عقده للتوّ مع فرنسا لبسط سلطته نحو الشّرق، وجد في عمالة الجزائر منافساً له، وهو الحاج موسى، الذي لم يكن خطيراً جداً في الواقع، ولكن من المّهم مع ذلك معرفته بسبب الاحتكاك المؤقت الذي كان له مع هذا الرّجل الشّهير، وخاصّة بسبب نهايته المأساوية في الهجوم على الزّعاطشة.

حسناً، إن هذا المنافس للأمير، شهيد الحرب المقدّسة (الجهاد)، لم يحظَ إلّا ببضعة أسطر في كتاب (الحوليات الجزائريّة/Annales algériennes)، ذلك المؤلّف الرّائع للقائد (Pellissier/بيليسييه) (انظر ص450 من المجلّد الأوّل من إعادة الطّبع)، بل إنّ مؤلّفين آخرين أقلّ ضميراً أو أقلّ اطّلاعاً أغفلوه تماماً. وبالتّالي، ثمّة بوضوح نسيان في التّاريخ المعاصر وجب تداركه.

وفي أكتوبر 1855، وحين كنت في دلّس عند الحاج قارة، مفتي المدينة آنذاك، والذي توفّي قبل بضعة أشهر، دار الحديث عن (بو حمار) أو صاحب الحمار (الحاج موسى). وكان الحاج قارة قد عرفه عن قرب وتفصيل، وروى لي مطوّلاً تقلّبات حياته المليئة بالاضطرابات؛ بل وتفضّل بكتابتها. وروايته هذه، التي ترجمها السّيد (Gorguos/غورغوس)، هي ما أضعه اليوم بين يدي القارئ، مضيفاً إليها بعض الملاحظات الضروريّة لفهم النّصّ. وفضلا عن أن سيرة الحاج موسى تسلّط الضّوء على نقطة من تاريخنا المحلي فإنّها تقدّم تفاصيل عن عادات السّكّان الأصليين ذات أهمّية كبيرة. ونرى فيها كيف يظهر ويتطوّر هؤلاء المتعصبون الذين يهزون البلاد دورياً، وهم أناس يجمعون بين صفات (Guzman d'Alfarache/غوزمان دي ألفاراتش) و(Brutus/بروتوس)، وحيث يمتزج الدّجل واليقين لديهم أحياناً بجرعات متساوية تجعل المرء لا يعرف ضبط التّسمية الصّحيحة لهم. وتظهر فيها السّذاجة المستعصية لضحاياهم المغفّلين في تلك البساطة الغريبة التي لا يمكن لأيّ إخفاق أن يثبّط عزيمتها لفترة طويلة، ولا يمكن لأيّ خيبة أمل أن تفتح أعينها أبداً.[1]

1- تأمّل جيدا هذا التّوصيف الدّقيق للوجه الجزائري من طرف كاتب المقال. وكأنّه موكول إليه أن ينقل كل العلامات النّفسية التي يمكنه أن يقرأها في الجزائريين في تقريره للسلطات العليا. فليس الأمر متعلّقا فقط بالجانب التّاريخي، واستغلال المرويّات الشّفهيّة المتعلّقة بالأحداث، بل يتجاوزه إلى رسم صنافة نفسية للناس على اختلاف رتبهم ومقاماتهم ليتمّكن المستعمر معرفةَ من يواجهه في الميدان. (المترجم)

ليست هذه مجرّد دراسة تاريخيّة ممتعة، بل هي درس سياسي لا يخلو من فائدة. فخلال خمسة قرون من الهيمنة، شهد الرّومان ظهور محرّضين من هذا النّوع بشكل دوري؛ ولا يمكننا منطقياً أن نأمل في الخلاص منهم تماماً بعد فترة قصيرة تبلغ ربع قرن. وكل ما يسهم في التّعريف بهم جيّداً، وإظهار دوافعهم، واكتشاف مرتكزاتهم الحقيقيّة بين السّكّان، وكشف أساليبهم في إدارة المشهد، هو أمر مفيد للنّشر.

وبعد هذا التّمهيد، سأترك الحاج قارة يروي سيرة رجل عرفه عن قرب وقاتل تحت لوائه قليلاً، كما سنرى لاحقاً. تنبغي الإشارة إلى أنّ الحاج قارة، وهو صهر مصطفى المعروف بـ (بو ميزراق)، بأيّ التّيطري قبل عام 1830، قد لعب دوراً في معظم أحداث هذه العمّالة قبل الاستيلاء النّهائي للفرنسيّين على المديّة. باختصار، كان شخصيّة سياسيّة في موقع يسمح له بالاطّلاع الجيّد، وفضلا عن ذلك، كان رجلاً متعلّما ومستنيراً بشكل كافٍ بالنّسبة لرجل مسلم.

أ. باربريگر

قال الحاج قارة: إنّ الحاج موسى بن علي بن الحسين، من طائفة الدّرقاوية [1]، كان مصرياً. جاء إلى الجزائر واستقرّ أوّلاً في الأغواط، ومات عند الاستيلاء على الزّعاطشة. وفي سنة 1247هـ (1831-1832م) جاء من الأغواط إلى المديّة ونزل عندي. وكان يسوق معه مريدين ألبسهم البرنوس المرقّع [2]. وهما اثنان من سكّان الأغواط يُدعى أحدهما بو حلي -الذي زعم أنّه ينحدر من العبّاس- وعبد الرّحمن بن علي. وكان موسى يتوجّه معهما في زيارة دينيّة إلى الشّيخ العربي بن عطيّة ابن السّيد بن عبد الله الونشريس؛ وكانوا يحملون قربانهم على حمار، وهو عبارة عن تمر وبرنوس جريدي [3]. ولم يكن موسى يعرف العربي بن عطيّة شخصياً بعد، ولكنّه سمع عنه في طرابلس من شيخه أو أستاذه سيّدي محمّد المداني، الذي قال أنّه كان زميلاً له في الدّراسة عندما كانا يتبعان معاً طريقة الشّيخ الأكبر سيّدي العربي بن أحمد الدّرقاوي، في جبل درقة قرب فاس [4]. وقد أكّد لهما هذا الشّيخ الأكبر (لابن عطيّة وللمداني) أنّهما سيكونان خلفاءه ونوّابه. ودفعت معرفة هذه الحقيقة الحاج موسى إلى الذّهاب لزيارة الشّيخ بن علّال في الونشريس، لأنّه كان يعتبره أحد إخوانه في الدّين.

1- تشكل الدّرقاوية طائفة، أو بالأحرى حزباً دينياً، كان زعيمه يقيم في درقة، وهي بلدة صغيرة قرب فاس في المغرب. وبما أنّهم كانوا يرفضون كل سلطة زمنية لا تسخر قوّتها لنشر الإسلام، فقد كانت لديهم دائماً فرص للاحتجاج ضدّ السّلطة القائمة؛ وقد استخدموا ذلك كثيراً لدرجة أن اسمهمّ أصبح هنا مرادفاً لكلمة "متمرّد". ويتحدّث عنهم العقيد (دي نيفو/de Neveu) بالتّفصيل في كتابه الممتاز (Khouan/الإخوان)، الصّفحة 147، إلخ.

2- كان الثّوب الممزق/المرقع هو الزّي الالزّامي للدّرقاوية ويدل على زهدهم في أمور هذا العالم.

3- يُطلق هذا الاسم على البرانيس البيضاء القادمة من الجريد (الصّحراء التونسيّة) أو المصنوعة بطريقة مماثلة لتلك المنطقة.

4- يتحدّث العقيد دي نيفو، في المؤلّف المذكور سابقاً، عن هذا الشّيخ الأعلى للدّرقاوية، ويشير إليه باعتباره خلف مولاي إدريس في الإدارة العامة لهذه الأخوية الخطيرة.

وعند عودته من هذه الرّحلة، نزل ضيفاً عندي في المديّة ومعه مريداه. ولمّا أقبل اللّيل، أسرّ إلي بأن هذين المريدين يبدوان راغبين في التّخلي عن طريقه (ورده) [1] لتبني طريقة بن عطية. وحاولت طمأنته قائلاً أنّ السّوء لا ينبغي افتراضه أبداً ويجب الانتظار حتى يظهر بوضوح. لكن مخاوفه كانت في محلها، وعند وصولهم إلى الأغواط، أصبح انشقاق رفيقيه جلياً وأدّى إلى جفاء بينهم. وأفرغ الحاج موسى -الذي حمل هذا التّصرف في قلبه-حزنه في رسالة من ثمانين صفحة وجّهها إلى الشّيخ بن عطية، لامه فيها بمرارة على تلك النّفوس الخفيفة التي تبني نظام شيخ ما، ثمّ بمجرّد تلقي العهد، تهجره لتتبع آخر.

وردّ الشّيخ بن عطيّة برسالة من مائة وعشرين صفحة أسهب فيها في شرح هذه الفكرة: "يمكن للمريد أن يرتبط ليس فقط بشيخ واحد، بل بسبعين شيخاً إذا رغب في ذلك ووجد فيه نفعاً معنوياً." وردّ موسى على هذا المكتوب بمكتوب آخر لا أستطيع تحديد حجمه، وجعل أحد أنصّاره ويدعى ابن الحاج يكتبه، لأنّه هو نفسه لم يكن يحسن إمساك القلم. وعندما رأيته لأوّل مرّة، كان لا يحفظ سوى حوالي عشر سور متفرّقة من القرآن، وهو ما لم يمنعه من أن يكون رجلاً متعلّما بما فيه الكفاية في مسائل أخرى غير فقه سيّدي خليل وقواعد النّحو. ولم يبلغني أن سجالهم أسفر عن أي عواقب أخرى.

ومنذ ذلك الوقت، استقرّ موسى في الأغواط، وكان يأتي من وقت لآخر لزيارتنا في المديّة، وهي رحلة كان يقطعها في أربعة أو خمسة أيّام راكباً حماره، ومن هنا جاءه لقب (بو حمار) الذي عُرف به فيما بعد. وكان رفاق طريقه في كثير من الأحيان شهوداً على الكرامات التي كان اللّه يخصّه بها في المأكل والمشرب. ففي أحد الأيّام، عندما كادت شدّة الحرارة تودي بحياته وحياة من يتّبعونه من العطش، توجّه موسى بالإلهام نحو مكان لم يرَ فيه أحد ماءً من قبل؛ ولدهشة الجميع، وُجدت هناك بركة ماء رائعة استطاع الجميع أنّ يبهجوا عيونهم بها ويطفئوا غلّتهم.

وفي الأماكن القاحلة والقفر التي تمتد بين الأغواط و(Bogar/بوغار)، لم يكن (الطّعام/الكسكسي) يفوته أبداً في الوقت المناسب؛ وكعلامة واضحة على الحماية السّماوية، كانت حصة شخص واحد تكفيهم جميعاً ليشبعوا. وهذه حقائق ثابتة لدرجة أنّ الشّك مضطرّ للوقوف منها على مسافة بعيدة جداً. لكن الحاج موسى كان يستحق هذه النّعم، لأنّه كان حقاً رجلاً متفوقاً، متعلّما في بعض المسائل، وكانت كلّ أفعاله محمودة.

وظهرت أولى علامات البركات الإلهية المحيطة بشخصه في الأغواط عام 1247هـ (1831-1832م) عندما حاول بن شهرة، شيخ الأربعاء، الاستيلاء على هذه المدينة. فخرج الحاج موسى لملاقاته على رأس عشرة رجال! وصحيح أنّ القائد العربي استولى على خيولهم، لكنّ موسى، بعد عودته إلى الأغواط، قال لشيخ الواحة: "اذهب لقتال العدوّ غداً، فستقتل من محاربيه أحد عشر رجلاً وتهزمه." وتحقّق الأمر

1- تلقي الورد (الوردة) في الطّرق الصّوفية الإسلاميّة يعني الدّخول في الطّريقة التي أسسها هذا المرابط أو ذاك. وبما أن الوردة تُنطق بالعربيّة "ورد"، فإن العقيد دي نيفو يميل إلى الاعتقاد بأن هذه الكلمة الأخيرة تأتي من اللّاتينية (ORDO). وأعتقد بالأحرى أنّها مستعارة من معجم التّصوف، تلك الطّائفة الصّوفية حيث تُحرف كل التّعبيرات عن معناها الحقيقي.

بحذافيره. أمّا الخيول التي أُخذت من مفرزة موسى الصّغيرة، فقد أُعيدت في اليوم التّالي بتدخّل الشّيخ بن سالم، وأضاف بن شهرة، استرضاءً للرجل الصّالح الذي فقدها، شاة وعقد الصّلح مع الأغواط.

أما عن أصل موسى، فها هو ما رواه لي بنفسه في المديّة: لقد وُلد في مصر من أب يُدعى علي، فقده هو وأمه وهو لا يزال في سنّ الرّضاعة. وتربّى على يد جدّه الحسين الجندي الرّازي، الذي جنّده بعد ذلك في قوّات محمّد علي. وكان موسى ضمن القوّات التي حاصرت باشا الأرناؤوط [1] لمدّة سنتين. وإثر هذه الأحداث، عاد إلى القاهرة ومنها فرّ إلى طرابلس.

وفي تلك الفترة العصيبة من حياته المليئة بالمغامرات، كان يحدث له كثيراً، لعدم وجود ما يأكله، أن يخدع الجوع بدخان التّبغ. وقاده قدره ذات يوم إلى زاوية الشّيخ الطّرابلسي، محمّد المداني، الذي ورد ذكره أعلاه؛ وكان يستعدّ للخروج بعد بضع لحظات قضاها في قاعة استقبال الرّجل الصّالح، عندما زعم مريدو الأخير أن هناك زوجاً من الأحذية ناقصاً عند الباب، وأنّ الغريب لابدّ أنّه سرقه؛ لكن موسى المسكين الذي كان آنذاك في أعمق درجات البؤس، والذي فضلاً عن ذلك لم يكن قد تحرّك من مكانه بعد، أثبت دون عناء، بإظهار قدميه الحافيتين وأسماله العاجزة حتى عن ستر جسده، أنّه لم يكن يملك حذاءً لغيره كما لم يكن يملك حذاء لنفسه. والشّيخ المداني، الذي حضر في هذه الأثناء ونُقل إليه أمر المسألة، قال ضاحكاً بعد أن تأمّل موسى جيداً: "هذا سارق رجال وليس سارق أحذية."

وبقي الحاج موسى شهراً عند هذا الشّيخ، الذي أمره بعد ذلك بالذهاب للطواف في الغرب (المغرب الإسلامي) كداعية. فأطاعه موسى على الفور وتوجّه حاسر الرّأس وحافي القدمين إلى الجزء الجنوبي من المغرب عام 1243هـ (1827-1828م). وبعد عامين، وصل إلى معسكر حيث كان يتواجد حسن بأيّ الغرب. وقُبض عليه كجاسوس للفرنسيّين، فمثل بعد ثلاثة أيّام قضاها في السّجن أمام الباي الذي تفاهم معه باللّغة التّركية. واطّلق سراحه إثر هذه المحادثة، وأمضى عشرين يوماً أخرى في هذه المدينة، مقيماً في مقهى مغربي برفقة جنود أتراك.

وأخيراً، ذهب إلى الأغواط حيث لازم مسجد الأحلاف، إحدى القبيلتين في هذه الواحة؛ وشغل فيه وظيفة المؤذّن، ينادي للصّلوات الخمس بالنّبرات الصّوتية المعهودة في الشّرق. وقد نال هذا الأذان الغريب إعجاب أهل البلد كثيراً، فكانوا يأتون إليه بطعامه في المسجد الذي كان يقيم فيه على إحدى حصر المعبد. وتلقّى آنذاك رسالة من الشّيخ المداني يأمره فيها بمباشرة مهامّ المشيخة (تلقين العهد). وكان ذلك وقت دخول الفرنسيّين إلى الجزائر. والتهب الحاج موسى بحماس شديد للإسلام، فدعا سكّان الأغواط للانضواء تحت راية الدّرقاوية، بتكرار كلّ صيغة من الصّيغ الثّلاث السّرائرية للطريقة مائة مرّة، وإتباعها بالصّلوات الخمس المفروضة.

1- نحذف هنا بضعة أسطر حيث يبدو أن أحداث التّاريخ المعاصر لمصر قد حُرِّفت فيها؛ إذ لم تحتفظ ذاكرة الحاج قارة بدقة بالوقائع الأجنبيّة تماماً عن بلاده. أمّا كلمة "الأرناؤوط" فهي التّعبير الذي يطلقه الأتراك على الألبان.

فقال له الشّيخ أحمد بن سالم آنذاك: "نحن من طريقة التّيجاني، المرابط المبجّل في عين ماضي وقد سمّاني والدي باسمه، والتّيجاني نفسه جعلني عند ولادتي أبتلع تمراً مضغاً من قِبله، كما كان النّبي يفعل بأطفال المدينة. فلا تأمل إذن أن نقطع صلتنا بالتيجاني؛ ومع ذلك، سنعاملك بلطف ولن نمنع حتى من يروق له الخروج من طريقة مرابطنا لاتباع طريقتك." واضطرّ موسى للاكتفاء بهذا الرّد، ولم يكسب لطريقته سوى بو حلي، وابن الحاج، وعبد الرّحمن، ومسكين آخر يُدعى محمّد تزوّج ابنته. وكانوا يصلون جميعاً معاً، ويأكلون جماعة عندما تأتيهم الصّدقة؛ وإذا انقطعت الصّدقة، ينامون في المساء وبطونهم خاوية على حصر المسجد، لأنّها كانت سنة قحط.

وروى لي موسى في هذا الصّدد أنّه عندما كانت الوجبة اليوميّة تفوتهم، كان يأمر مع ذلك بإشعال نار المطبخ كالمعتاد، لكي يظنّ الجيران، عند رؤية الدّخان، إنّنا نتعشى ولا يتألّمون لفكرة حرماننا. وفي تلك السّنة نفسها، ذهب موسى إلى بني ميزاب، وعند دخوله غرداية، كان يحمل على كتفيه قطعة من جيفة دابّة جمل وجدها على الطّريق؛ وكان يسير في الشّوارع صائحاً بحمد الله. واكتفى السّكّان، الذين أثار هذا العمل المهين حفيظتهم، بإطلاق أطفال المدينة وراء عقبه فطردوه رشقاً بالحجارة. وعاد إلى الأغواط، وصنع ما جعل نفوس أهل هذه الواحة تنفر منه أيضاً.

وفي عام 1249هـ (1833-1834)، التقى في البليدة بالحاج الصّغير بن سيدي علي بن المبارك، ومع البركاني وابن سيدي الكبير بن يوسف الذين حثّوه على تحريض عرب الصّحراء لزيادة صفوف أولئك الذين يقاتلون في سبيل الحرب المقدّسة (الجهاد). ولم يكن السّلطان عبد القادر، الذي كان آنذاك مشغولاً للغاية بتثبيت سلطته من جهة تلمسان، قد فكّر بعد في مناطق الشّرق.

واطّلعني موسى على المقترحات التي قُدّمت له؛ وحاولت ثَنيه عن هذا الطّريق الخطير، بجعله يدرك القوّة الفائقة للفرنسيّين. لكن كلّ ذلك كان بلا جدوى: ففي بداية الرّبيع، جاء مع جموع الصّحراء، وسكّان القصور، وقبائل التّل الأوسط التي انضمّت إليها القبائل المحيطة بالمديّة. وأخذ الجميع بصوت واحد التّعهّد بالاستيلاء على الجزائر. وجاء موسى ليعسكر قرب المديّة في مكان يُدعى (bsal؟/بصل). فذهبت لملاقاته مع علماء المدينة لحثّه على عدم المضي قدماً، محتجّاً بأن الحشد الهائل الذي يجرّه وراءه سيأكل الأخضر واليابس في المنطقة كلّها. وأجاب على ذلك باقتراح انضمامنا إليه، وهو ما رفضناه. ولم يكن هناك سبيل للتّفاهم. ولم تكن المديّة آنذاك تملك حتى بوّابة متينة، ولم تكن تحوز سوى مدفع قديم متهالك تماماً. ومع ذلك، عندما عدنا إلى المدينة وأعلنّا للكراغلة والحضر أنّ موسى يريد الدّخول عنوة، جرت عمليّة خروج والتحم القتال في البساتين. ووصل موسى إلى مسافة قريبة جداً من أسوارنا؛ والمدفع القديم الذي أطلق آنذاك، انفجر من الطّلقة الأولى. ورأى السّكّان في هذا الحدث معجزة لصالح موسى، الذي تحوّل فجأة في نظرهم إلى المهدي (**مول السّاعة**) [1].

1- نوع من المسحاء المسلمين المنتظرين دائماً، والذين يسعى كل محرض إلى التّزيي بمظاهرهم كما هي مبينة في المأثورات. (انظر: ريتشارد، انتفاضة الظّهرة).

عمّ الذّعر، وقضيت اللّيلة على الأسوار، لعدم وجود بوّابة قادرة على صدّ العدوّ. وعند مطلع الفجر، أحاط العرب بالمديّة. وفي هذه اللّحظة الحرجة، خرجت من المدينة مع أحد (bloul/البلول) (من أعيان المدينة) ووجدت موسى راكباً حصاناً كميتاً (bai/بياً). وقبضت بسرعة -ولكن بملامح ودّية- على سبحة كان يمسكها بيده، وقلت له: "أنا أمسك بضمان سلام بينك وبين سكّاننا: بالأمس، فقدتَ ثمانية رجال؛ ومن جانبنا، كان لدينا سبع ضحايا. والصّلح خير من كلّ هذا."

باختصار، وافق على تسوية ودخل المصلى الخارجي للبيع والشّراء، هو وكلّ من معه؛ ولم يحدث أي مكروه من أيّ من الجانبين. ثمّ أرسل رجلين إلى مليانة، إلى الحاج الصّغير لإعلان وصوله وتحديد موعد معه في البليدة. وظل هذان المبعوثان عشرة أيّام دون أن يظهرا، ممّا جعل موسى يندفع إلى الأمام. وأمضى في بساتين المديّة اللّيلة التي كان ينبغي أن تسبق رحيله، وزرته هناك مع ستّة عشر من العلماء؛ ووعدناه بالذهاب للّحاق به في البليدة.

ولكن في هذه الأثناء، وصل رسولاه وأخبراه بأنّ عبد القادر قد عقد للتوّ الصّلح مع الفرنسيّين، وأنّه على رأس معسكر ضخم للغاية يتواجد في العمّالة، يفرض في كلّ مكان الاعتراف بسلطته، وأنّ الحاج الصّغير قد عُيّن خليفته في الشّرق. وغيّرت هذه الأنباء خطط موسى الذي توجّه آنذاك نحو جبل وامري. وكان، فضلاً عن ذلك، فريسة لتردّد تام: تارة يريد قتال هذا المنافس الذي ظهر على حين غرّة، وتارة يقرّر التّخلي عن المعركة.

وجاء الأمير من جانبه ليعسكر عند سفح جبل وامري، في عمورة، في مواجهة عدوّه. وعبر الشّلف في صباح اليوم التّالي؛ وبدأ الطّرفان القتال في فترة بعد الظّهر. لكن عبد القادر كان يملك مدفعاً، وروّع دويّ هذه المدفعيّة جموع موسى، التي هزمت بسهولة. وقتل له الأمير 280 رجلاً، وأسر منه قرابة هذا العدد وسبى الكثير من النّساء. أمّا موسى، فقد فرّ إلى الصّحراء، بينما كان الأمير يرسل حريمه إلى مليانة، وكذلك ابنه محمّد [1]. أمّا أنا، فقد جُرِّدت من ثيابي في ساحة المعركة؛ ومع ذلك، بفضل اللّيل، تمكّنت من الإفلات من رجال الأمير والوصول إلى شرشال، ومنها جئت بعد ذلك إلى الجزائر.

وحسبما علمت بعد ذلك، ذهب عبد القادر إلى المديّة حيث مكث عشرين يوماً. وعيّن فيها بايا وخليفة له، وهو البركاني؛ وأمر بالقبض على بو شارب وابن حمول وأرسلهما إلى السّجن في معسكر باعتبارهما محرّضي الاضطرابات التي هزّت المديّة. وفي الواقع، كان هذان الشّخصان قد جلبا من فاس رجلاً يُدعى الحاج معطي ونصّباه حاكماً على المديّة؛ وبقي هناك بهذه الصّفة نحو سنتين؛ ولكن، بعد سأم السّكّان من هذا الحاكم، استنجدوا بأحمد باي قسنطينة، الذي طرده. وكان هذان الفردان هما من استقدما موسى [2].

1- جرت هذه الواقعة في أبريل 1835.

2- بخصوص هؤلاء الحكام، كانت السّلطة الفرنسيّة قد قدمت بعض الملاحظات لأهل المدية. فأجاب هؤلاء برسالة مؤرخة في 14 يناير 1832 مفادها أن النّصّارى لا يمكنهم إدارتهم، ولذلك يسعون للقيام بذلك بأنفسهم؛ وأنّه منذ أن اختاروا الشّيخ سي محمّد رئيساً لهم، فإن مدينتهم تنعم بأكمل طمأنينة.

أمّا هذا الأخير، فقد لزم منذ هزيمته ضواحي الأغواط. وكان يحظى بتوقير كبير بين سكّان الصّحراء بسبب الصّرامة التي كان يمتثل بها للسّنة الدّينية. وكان النّاس يتنافسون في المنطقة على الشّاشيات التي كفّ عن ارتدائها باعتبارها تبركاً، وبيعت الواحدة منها بما يصل إلى مائة دورو (500 فرنك). ونجح أصدقاؤه في إعادة زوجته وابنه الذين كانوا أسرى في مليانة منذ معركة عمّورة. وكان قد تزوّج مرّة أخرى وعاش عيشة وجاهة في قصر مسعد حيث بنى لنفسه داراً هدمها الجنرال (de Ladmirault/دي لادميرال) في إحدى حملات الجنوب. كما سكن برّيان [1] قرب ميزاب وبنى فيها مسجداً.

ولمّا انتفض بوزيان في الزّعاطشة، رأى موسى رؤيا للنّبي يأمره بأخذ السّلاح؛ فذهب إذن للمشاركة في القتال ضدّ الفرنسيّين، في وقت كان فيه الصّراع على أشدّه. وتمكن من دخول المكان والقتال خلال الأيّام العشرين الأخيرة من هذا الحصار الدّامي. وفي لحظة الهجوم النّهائي، شارك مصير بوزيّان ومات إلى جانبه. وكان عمره آنذاك 53 سنة، وكان قد انقضت عشرون عاماً على ظهوره الأوّل في الأغواط.

نسأل الله أن يهدينا إلى السّبل التي يرتضيها.

1- يعطي النّصّ العربي هذه الكلمة، ولكن لابدّ أن يكون هناك خطأ، لأن الحاج موسى لم يكن ليُقبل في مدينة للميزابيين بعد مغامرته في غرداية.

الملحق4: الحاج موسى، أو صاحب الحمار والأمير عبد القادر، في عام 1835.

à force de boire de l'eau-de-vie. ». (*Ibidem*, p. 886.)

Et ce n'était pas un fait isolé, témoin ce passage d'une autre lettre de la même année : « Nos malheureux forçats vendent leurs chemises et habits pour ivrogner. J'en ai fait châtier en ma présence quatre ou cinq ; mais comme les coups de gourdin et de latte ne sont que chatouillements pour eux, je leur ai promis de leur faire couper, le nez aux chrétiens, et les oreilles aux Turcs. (*Ibidem* p. 919.)

Il eût été facile de multiplier les citations sur ce sujet ; mais ce qu'on vient de lire suffit pour convaincre toute personne qui a étudié avec impartialité l'esclavage ici et en France, que le sort des captifs n'était pas beaucoup meilleur d'un côté que de l'autre. Je dirai même, — tout en sachant bien que l'on criera au paradoxe, — qu'il valait mieux être esclave ici que là-bas : tous les captifs musulmans, sauf de bien rares exceptions, ramaient dans nos galères, ce qui était tout aussi pénible d'un bord de la Méditerranée que de l'autre ; mais, ici, un très-grand nombre de chrétiens étaient employés chez des particuliers où ils étaient en général assez bien traités. Ceux qui servaient chez les grands personnages l'étaient mieux encore et l'histoire du pays atteste que beaucoup d'entre eux y acquéraient une grande influence et une position assez belle pour ne plus désirer de retourner dans leur patrie.

Au reste, le lecteur désireux d'approfondir ce sujet qui a donné lieu à tant d'exagération , faute d'avoir tenu compte de la différence des époques, doit étudier avec soin la *Relation de la captivité d'Aranda,* l'ouvrage le plus complet et le plus impartial sur la matière.

BERBRUGGER.

El-Hadj Moussa, ou l'Homme à l'Âne

ET L'ÉMIR ABD-EL-KADER, EN 1835.

Les documents européens abondent sur la guerre que nous soutenons ici depuis 1830, mais les matériaux arabes sont d'une rareté extrême. Aussi, tandis que nous apercevons très-clairement tout ce qui s'est passé dans le camp français, nous n'entrevoyons que d'une manière fort confuse ce qui se faisait dans ces temps de lutte sous les tentes arabes. Le récit ne peut cependant être complet et prendre ses véritables couleurs que lorsque ce double aspect sera bien connu. La lacune signalée est surtout regrettable, quand il s'agit d'événements qui se sont passés entre indigènes et dont nos relations, officielles ou autres, ne parlent

qu'en termes fort laconiques. Ainsi, par exemple, lorsqu'en 1833, Abd-el-Kader voulut profiter de la paix qu'il venait de conclure avec la France pour étendre son autorité vers l'Est, il trouva dans la province d'Alger un concurrent, El-Hadj-Moussa, qui ne fat pas bien redoutable, il est vrai, mais qu'il importe cependant de connaître à cause du contact qu'il a eu momentanément avec cet homme célèbre et surtout à cause de sa fin tragique à l'assaut de Zaatcha.

Eh bien, ce rival de l'Émir, ce martyr de la guerre sainte n'a obtenu que quelques lignes dans les *Annales algériennes*, cet ouvrage si remarquable du commandant Pellissier (v. p. 450 du tome 1er de la réédition), et d'autres auteurs moins consciencieux ou moins bien informés l'ont même entièrement passé sous silence. Il y a donc là évidemment un oubli de l'histoire contemporaine à réparer.

En octobre 1855, me trouvant à Dellis chez El-Hadj-Kara, alors mufti de cette ville, où il est mort depuis quelques mois, la conversation vint à tomber sur *Bou-Hamar* ou l'Homme à l'Âne (El-Hadj-Moussa). Hadj-Kara l'avait connu très-particulièrement et me raconta tout au long les vicissitudes de sa vie très-agitée ; il eut même la complaisance de les mettre par écrit. C'est son récit , traduit par M. Gorguos, que je place aujourd'hui sous les yeux du lecteur, en y ajoutant quelques notes indispensables pour l'intelligence du texte. Outre que la biographie d'El-Hadj-Moussa éclaircit un point de notre histoire locale, elle offre des détails de mœurs indigènes d'un assez grand intérêt. On y voit comment surgissent et se développent ces fanatiques qui agitent périodiquement le pays, gens mi-partis de Guzman d'Alfarache et de Brutus, et chez lesquels l'imposture et la conviction sont quelquefois mêlées en doses si égales qu'on ne sait trop quel nom leur donner. L'incurable crédulité de leurs dupes y apparait dans cette étrange naïveté qu'aucun échec ne peut décourager longtemps, qu'aucune déception ne peut désabuser jamais.

Ce n'est pas là seulement une étude historique intéressante : c'est un enseignement politique qui n'est pas sans utilité. Pendant cinq siècles de domination, les Romains ont vu périodiquement apparaître des agitateurs de cette espèce ; nous ne pouvons pas raisonnablement espérer d'en être tout-à-fait quittes après le court espace d'un quart de siècle. Tout ce qui tend à les faire bien connaître, à manifester leurs mobiles, à découvrir leurs véritables points d'appui sur les populations, à révéler leurs procédés de mise en scène est donc utile à publier.

Après ce préambule, je laisserai El-Hadj-Kara raconter la biographie d'un homme qu'il a connu très-particulièrement et sous les drapeaux duquel il avait même un peu combattu, comme on le verra plus loin.

Il faut faire observer qu'El-Hadj-Kara, parent par alliance de Moustafa, dit Bou-Mezrag, bey de Titeri avant 1830, a joué un rôle dans la plupart des événements de cette province, avant la prise de possession définitive de Médéa par les Français. C'était, en un mot, un personnage politique fort à même d'être bien informé, et de plus un homme instruit et même assez éclairé pour un musulman.

A. BERBRUGGER.

El-Hadj-Moussa-ben-Ali-ben-el-Hossaïn, de la secte des Derkaoua[1] était égyptien, dit Hadj-Kara. Venu en Algérie, il s'établit d'abord à Laghouat. Il est mort à la prise de Zaatcha.

En l'année 1247 de l'hégire (1831-1832 de J.-C.), il vint de Laghouat à Médéa et descendit chez moi. Il amenait avec lui des disciples qu'il avait revêtus du bernous rapiécé[2]. C'étaient deux habitants de Laghouat nommés, l'un Bou-Hala — qui prétendait descendre d'El-Abbas — Notre Abd-er-Rahman-ben-Ali. Moussa se rendait avec eux en visite religieuse auprès du cheikh El-Arbi-ben-Atïa-ben-es-Sid-ben-Abd-Allah, dans le Ouanseris ils apportaient leur offrande sur un âne, des dattes et un bernous djeridi[3]. Moussa ne connaissait pas encore El-Arbi-ben-Atïa. personnellement, mais il avait entendu parler de lui à Tripoli par son cheikh ou professeur, Sidi Mohammed-el-Medani, lequel disait avoir été son condisciple alors qu'ils suivaient tous deux la secte du grand cheikh Sidi-el-Arbi-ben-Ahmed-ed-Derkaoui, dans la montagne de Derka, auprès de Fez[4]. Ce grand cheikh leur avait affirmé (à Ben-

(1) Les *Derkaoua* composent une secte ou, pour mieux dire, un parti religieux, dont le chef se tenait à *Derka*, petite ville auprès de Fez, dans le Maroc. Comme ils rejetaient toute autorité temporelle qui ne faisait pas servir sa puissance à la propagation de l'Islam, ils ont toujours eu des occasions de protester contre le pouvoir établi ; et ils en ont si bien et si souvent usé que leur nom est devenu ici synonyme de rebelle. — M. le colonel de Neveu en parle avec détail dans son excellent ouvrage des *Khouan*, page 147, etc.

(2) Un vêtement déguenillé était l'uniforme obligé des Derkaoua et marquait leur détachement des choses de ce monde.

(3) On donne ce nom aux bernous blancs provenant du Djerid (Sahara tunisien) ou d'une fabrication analogue à celle de cette contrée.

(4) M. le colonel de Neveu, dans l'ouvrage déjà cité, parle de ce cheikh suprême des Derkaoua, qu'il indique comme ayant succédé à Moula-Idris dans la direction générale de cette dangereuse confrérie.

البطّاريّة الأندلسيّة بمدينة الجزائر [1]

LA BATTERIE DES ANDALOUS A ALGER

لـ: (A. Devoulx/ ألبير دوڤو)

ترجمة ودراسة: د. هارون عيساوي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

يتناول هذا المقال دراسة تاريخيّة وأثريّة لأحد أهمّ التّحصينات الدّفاعيّة التّاريخيّة التي ارتبط اسمها بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وهي (Topanet el-Andalous/البطّارية الأندلسيّة). ويُعنى المقال بتتبع تاريخ هذه البطّاريّة، وتحديد موقعها ضمن المنظومة الدّفاعيّة للمدينة، ووصف خصائصها المعماريّة والعسكريّة، وما طرأ عليها من تعديلات تدريجيّة، وصولًا إلى إزالة معظم أجزائها في إطار أشغال تهيئة الواجهة البحريّة لمدينة الجزائر إبّان فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وتنبع أهمّية هذه الدّراسة من كونها كُتبت في فترة كانت البطّاريّة لا تزال قائمة، أو بالأحرى لم تكن قد اندثرت بصورة كاملة، ممّا أتاح لمؤلّفها فرصة تقديم وصف ميداني مباشر لها، بالاستناد إلى ما ذكره عدد من المؤلّفين الأوروبيين الذين سبق لهم وصف مدينة الجزائر، وفي مقدّمتهم (دييغو دي هايدو) و(الأب دان)، و(توماس شو). وقد مكّن هذا الجمع بين المعاينة المباشرة والاستفادة من المراجع السّابقة في هذا الشّأن من تقديم صورة متكاملة نسبيًّا عن هذا المعلم الدّفاعي الفريد وعن تطوّراته عبر مراحل تاريخيّة مختلفة.

كما يحظى هذا المقال بقيمة توثيقيّة خاصّة لمّا يحتوي عليه من معلومات دقيقة عن البطّاريّة، من حيث موقعها، وتسليحها، وعدد فتحات المدافع، ووظيفتها ضمن منظومة الدّفاع عن ميناء الجزائر فضلاً عن الإشارة إلى المدفع ذي السّبع فوهات الذي يعدّ من أشهر الأسلحة التّاريخيّة المرتبطة بتحصينات المدينة، وتحديد موضعه داخل البطّاريّة، وهو وصف يعدّ من الشّهادات التّاريخيّة المهمّة التي حفظت تفاصيل لم يعدّ بالإمكان التّحقّق منها ميدانيًا بعد اختفاء هذا المعلم خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

أما صاحب النّص فهو (ألبير دوفو) (1826-1876) الذي تعلم اللّغة العربيّة بمعهد (باب عزّون) وكان لوالده (ألفونس دوفو/Alphonse Devoulx) أثر كبير في اهتماماته واختصاصه، واستفاد (ألبير) من عمل والده في مجال المعلومات المتعلّقة بتاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانيّة، الشّيء الذي جعله ينشر دراسات متنوّعة وكثيرة عن تاريخ الجزائر وترجمة بعض المخطوطات والوثائق. وكان يساعد (ألبير دوفو) باحثان جزائريّان، هما محمّد بن مصطفى ومحمّد بن عثمان خوجة الذّان ترجما له كلّ الوثائق التّركية كما ساعداه على ترجماته العربيّة.

1- دوفو ألبير، البطّاريّة الأندلسية في مدينة الجزائر، المجلّة الأفريقيّة، الجمعية التّاريخية الجزائريّة، مج 16، 1872، صص340-342.

ولم يفتأ (دوفو) يذكرهما بخير لجزيل العمل الذي أسدياه له لسير أبحاثه التّاريخيّة. عالج (دوفو) تاريخ العلاقات بين الجزائر وفرنسا من واقع الأرشيفات الجزائريّة العثمانيّة ووصفها في معظم كتاباته سواء على شكل كتب مستقلّة أم مقالات في المجلّة الأفريقيّة".[1]

مما لا شكّ فيه أن هذه الدّراسة التي قام بها "ألبير دوفو" عن البطّاريّة الأندلسيّة بمدينة الجزائر ذات قيمة تاريخيّة وأثرية كبيرة ولا خلاف في أهمّيتها بالنّسبة لدراسة تحصينات مدينة الجزائر خلال الحقبة العثمانية، لاسيما وأنّها استندت إلى معاينة ميدانيّة مباشرة لبقايا هذا المعلم الأثري قبل اندثاره. غير أنّ قراءة هذه الدّراسة قراءة متأنيّة كشفت أنّها لا تخلو، من النّاحية المنهجيّة، من بعض الملاحظات التي يمكن إجمالها فيما يأتي:

1- غياب التّوثيق الدّقيق للمصادر وفق المعايير العلميّة الأكاديميّة، إذ اكتفى المؤلّف بالإحالة إلى بعض المراجع، مثل (هايدو)، دون ذكر لأرقام الصّفحات أو المواضع التي نقل عنها، ممّا يصعب على الباحث مهمّة التّحقّق والتّأكّد من النّصوص عند محاولة الاستشهاد بها.

2- عدم تقديم البيانات المتعلّقة بالوثائق الأرشيفية التي اعتمدها بشكل وافٍ.

علاوة على ذلك، ينبغي قراءة هذا النّص ضمن السّياق السّياسي والفكري السّائد وقتذاك، أي سياق الاحتلال الفرنسي للجزائر، بالنّظر إلى عمله كموظّف ضمن الإدارة الاستعماريّة، إذ "يمكن إدراج دراسات دوفو ذات المنحى التّاريخي بأنّها محاولات جادة لإعادة كتابة تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانيّة لكنّ منهجه ينصّب ضمن إطار وجهة نظر وتفسيرات المدرسة الاستعماريّة الفرنسيّة.[2]

ومع ذلك، استطاع (ألبير دوفو) أن يضع بصمة خاصّة به فيما يتعلّق بإعادة فرز وتنظيم الأرشيف العثماني وكلّ الوثائق ذات الصّلة، من خلال "إدخال تغييرات في ترتيب مادتها وإحداث تحويرات في طريقة عرضها. وبذلك أمكن لـ (دوفو) نشر الكثير من الوثائق في شكل كتب مستقلّة أو أبحاث بالمجلّة الأفريقيّة مثل: بيان ثكنات الإنكشاريّين، وسجلّ الغنائم البحريّة، ومذكّرات تاريخيّة حول المساجد والمنشآت الدّينية بالجزائر، ومصنّف بالعلامات المميّزة للأسطول الجزائري، وعرض عام لطبوغرافيّة مدينة الجزائر العثمانيّة، ومختصر لحياة (الرّايس حميدو)، وعرض عام لأرشيف القنصليّة الفرنسيّة بالجزائر في العهد العثماني."[3]

لذا يجب التّعامل مع هذه الوثيقة وفق سياقها التّاريخي. لارتباطها ارتباطًا وثيقًا بالسّياسة الاستعماريّة التي كانت مُنتهجة آنذاك، فقد أضحت اليوم مرجعًا - ليس فقط للأجانب المهتمّين بالدّراسات الأثريّة لمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانيّة - بل تعدت ذلك إلى العديد من الباحثين الجزائريّين.

1- انظر: بن حادة مصطفى/هلايلي حنيفي، توظيف الأرشيفات في التّاريخ للعلاقات الجزائريّة الفرنسيّة، الحوار المتوسّطي، مج 15 (1)، 2025، ص34.

2- انظر: هلايلي حنيفي، ألبير دوفو: مهندس أرشفة الوثائق الجزائريّة والعثمانية في الجزائر، الحوار المتوسّطي، مج 14 (1)، 2023، ص198.

3- المرجع نفسه، ص194.

التّرجمة:

إنّ الأشغال التي أجرتها مصلحةُ الهندسة العسكريّة، من أجل استكمال ذلك الجزء من الواجهة البحريّة الجديدة لمدينة الجزائر، الكائن بالقرب من موضع باب البحر [1] القديم، فوق الميناء العتيق، قد أفضت منذ عهد قريب إلى محو ما بقي من آثار البطّاريّة المعروفة ببطّاريّة الأندلسيّين. فحقيقٌ بنا، إذن أن نخصّ هذا الجزء من الجزائر العثمانيّة بذكرى تحفظ أثره، تلك المدينة التي لن يبق منها، في المستقبل القريب، أيُّ معلم من معالمها على أرض الواقع.

ولم تكن الجزائر، من جهة البحر، محاطةً بسور، وإنّما كانت ثمّة بطّاريّاتٌ قليلة، قائمةً في وسط المنازل، تُسهم في الدّفاع عن المدينة، إذ تضمّ نيرانها إلى نيران تحصينات الميناء والمباني الخارجيّة. أمّا الحصن الذي أتناوله بالحديث، فكان قائماً على اليابسة، وعلى مقرّبة شديدة من باب البحر، الذي كان الممرّ الوحيد الذي يصل المدينة بالميناء، وكان هذا الأخير مؤلّفاً من مباني أُقيمت على جزر صغيرة وموصولاً بالسّاحل بواسطة رصيف ممتدّ في البحر يبلغ طوله نحو مائتي متر. وسأستعرض في المستهلّ مبتدئاً بـ(هايدو)، ما أورده في شأنه الكُتّاب الذين تناولوا وصف الجزائر في عصور مختلفة.

"وفوق بابازيرا [2]، الذي يؤدّي إلى الرّصيف البحري، هذا الحصن البديع، يعدّ من أفضل حصون الجزائر وأكبرها جميعاً. ويبلغ طول سطحه ثلاثين خطوة، وعرضه أربعين خطوة، لكن شكله ليس مربّعاً على الإطلاق، بل عرضه أكبر من طوله. ويتألّف قسمه الرّئيسي من مسطّح ترابي صلب، وله قبو محصّن ولا توجد فيه أيّة فتحات للمدافع، وإنّما يحيط به متراس من جهة الجنوب والشّرق والشّمال الشّرقي حيث يقابل الميناء من الجهة الأماميّة. وعلى الجهة الشّماليّة، وفي سائر هذه الجهات، ينتصب ثلاثةٌ وعشرون مدفعًا من البرونز، جيّدة الصّنع، وهي من أفضل ما في الجزائر، غير أنّ ستّة أو ثمانية منها فقط مركّبة على عربات مدفعيّة.

ومن بينها مدفع ذو سبع فوهات، كان (رابادان ياجا/رمضان باشا) قد جلبه من فاس، حين مكّن مولاي مالوش، سنة 1576، من مُلك هذه المملكة. كما يضمّ هذا الحصن حَرَسَهُ المعتاد من المدفعيّين وغيرهم من الجنود الذين يقيمون فيه ويحرسونه على الدّوام. وقد شيّد هذا الحصن على يد القائد صافا (القائد صافار)، وهو تركي الأصل، حين تولّى حكم الجزائر ومملكتها بصفته خليفة أو نائبًا للملك، خلال غياب حسن باشا، ابن (باربا روجا/بربروس)، وذلك في سنة 1551 وجزء من سنة 1552."

1- هو حصن أو برج أنشأه حسين باشا بعد حملة (اكسموث) سنة 1816م، يتكون من طابقين يحتويان على 36 مدفعًا من العيار الكبير، وقد وجدت كتابة عثمانية على باب هذا البرج؛ ترجمتها بالعربيّة: "أحمد الله الذي سهل بناؤه المحكم أحاط مدخل البحر أحسن من جميع الأبراج الأخرى يمتدّ في مواجهة البحر موحيا الرّعب عند الحراسة الجيّدة وضعت مدافعه الكبيرة بعناية وكل واحد منها يشبه الوحش، الذي أمر ببنائه هو حاكم الجزائر، طالب كل خير من الباري، حسين باشا الذي تلمع عيناه بالدّموع ما دلت طيبته كبيرة أيّها الشّاعر تغنى في أحسن تعبير أفعاله هي الإشهار بتعابيره اقرأ، يا لطيف، يا قدير، تاريخه فتحا قريبا". انظر: رفيق تلي، التّحصينات الدفاعيّة لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني: دراسة الأبراج أنموذجا، مجلّة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران 02، المجلّد 11 ع 01. 16، 2022، ص546. (المترجم).

2- كان الجزائريون يطلقون على هذا المنفذ اسم "باب الدّزيرة" وهو تحريف لاسم "باب الجزيرة"، أي: الباب المؤدّي إلى الجزيرة.

إنّ استعمال (هايدو) لفظة "فوق" قد يوحي بأنّ باب البحر كان في أواخر القرن XVIم مفتوحاً في الجزء السّفلي من هذا الحصن. غير أنّ أقدم مخطّطات مدينة الجزائر لا تؤيّد هذا الافتراض، وهو في حدّ ذاته غير مرجّح. ولذلك ينبغي الاستنتاج أنّ المؤلّف الإسپاني قد وقع في خطأ، أو أنّه أراد فقط أن يقول أنّ الحصن كان ملاصقاً للباب ومطلاً عليه، وهو ما يؤكّده الواقع.

كما اهتمّ بهذه البطّاريّة كلّ من (الأب دان) سنة 1634، والدكتور (شو) سنة 1732، واصفين إيّاه بالعبارات التّالية: " أمّا الحصن الخامس، فهو متراس منيع، وإن كان صغيراً، يقع بمحاذاة باب الرّصيف البحري، باتّجاه الثّكنة الكبرى [1]. وفيه خمس قطع ضخمة من مدفعيّة الميدان، تسترعي النّظر، تتولّى الدّفاع عن الميناء من جهة البحر. غير أنّ أبرز ما يُرى فيه مدفعٌ بديع ذو سبع فوهات، يُستعمل في حراسة مدخل الباب (الأب دان، ص91). " وكانت بطّاريّة باب الرّصيف البحري مجهَّزة بعدة قطع مدفعيّة كبيرة من بينها - إن لم تخنّي الذّاكرة - قطعةٌ ذات سبع أسطوانات، يبلغ قطر كلّ واحدة منها ثلاث بوصات". (شو، ص88). ظلّ المدفع الشّهير ذو السّبع الفوهات قائما حتى سنة 1830، وقد بقيت ذكراه محفوظة لدى الأهالي. وأعتقد أنّه نُقل إلى باريس، غير أنّني لا أستطيع أن أقدّم أيّة معلومات دقيقة في هذا الشّأن.

هذا الحصن، الواقع داخل الميناء، وعلى مسافة 120 متراً من البطّاريّة الصّغيرة التّابعة للجامع الكبير، كان يُعرف لدى الأهالي باسم (طبخانة الأندلس/بطّاريّة الأندلسيّين)، ولعلّ ذلك جاء تخليداً لذكرى العمّال الذين شيّدوه، كما كان يُعرف، على نحو أكثر شيوعاً، باسم (طبخانة الجمرك/بطّاريّة الجمارك)، لأنّه يطلّ على المبنى القائم على الرّصيف، حيث تدفع رسوم دخول البضائع الواردة من البلاد الإسلاميّة.

ولابدّ أنّ هذا الحصن قد طرأت عليه تعديلات كثيرة منذ الوصف الذي قدّمه (هايدو)، إذ كان آنذاك محاطًا بسور دفاعي يخلو من فتحات المدافع. ويُرجّح أن يكون آخر ترميم له جرى بعد الأضرار الجسيمة التي ألحقها هجوم الأميرال إكسماوث [2] بتحصينات البحريّة في27 أغسطس 1816. في آخر عهده، كان هذا المبنى، المشيّد من أحجار جيريّة والمكسوّ بواجهة من حجارة صغيرة منحوتة، يشتمل على سبع عشرة فتحة للمدافع، موزّعة على النّحو الآتي: تسع منها موجّهة باتّجاه الميناء، واثنتان على الجناح المنعطف إلى الجنوب، وأربعة تطلّ على مدخل الميناء، واثنتان تتحكّمان في طريق الوصول إلى باب المدينة.

1- هذا هو المبنى الذي يحمل اليوم اسم ثكنة ليميرسييه. أ، د.

2- (المترجم): اللّورد إكسماوث اسمه (إدوارد بيلاو) ولد في 19 أبريل عام 1757، وتوفي عام 1833م، وهو الذي قاد الأسطول البريطاني للهجوم على الجزائر ودمّر أسطولها عام 1816م، يقول إكسماوث عن الأسطول الجزائري: "لم أعرف عدوًّا في حياتي يقاتل بمثل هذه الضّراوة". انظر: فاتح بلعمري، حملة اللّورد إكسماوث على مدينة الجزائر سنة 1816 في عيون رحالة محلي وقنصل أجنبي، مجلّة المعارف، ديسمبر 2014م، ص35. محمّد أمين بوحلوفة، إيّالة الجزائر العثمانية ومملكة إنجلترّا دراسة في العلاقات السّياسية والاقتصادية والاجتماعية من 1620 إلى 1827، مذكرة لنيل درجة الدّكتوراه في التّاريخ والحضارة الإسلاميّة، قسم التّاريخ، جامعة أحمد بن بلة- وهران، 2018-2019م، ص.210. سلوان رشيد رمضان، إشكالية العلاقات البريطانية الجزائريّة 1580-1816م، مجلّة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، ع. 1، مج.23 كانون الثّاني، 2016م، ص.156. بسام العسلي، المقاومة الجزائريّة للاستعمار الفرنسي، (1830-1838)، دار النّفائس، ط1، 1980م، ج.3، ص53.

وكانت (طبخانة الأندلس) تُطلِقُ، فيما مضى، طلقة مدفع ذات قذيفة باتّجاه عرض البحر، فوق حصون الميناء، إيذانًا ببدء الطّلقات الاحتفاليّة التي كانت تلك الحصون تطلقها بعد شروق الشّمس بنصف ساعة، احتفالا بالعيدين المعروفين بعيد الكبير وعيد الصّغير. غير أنّ هذا التّقليد ألغاه حسين داي، آخر باشوات الجزائر.

وكانت هذه البطّاريّة تحمل، في التّصنيف الذي أعددناه سنة 1830، الرّقم الأوّل. غير أنّ معظمها هُدم سنة 1867، وذلك ليفسح المجال لبناء الجادّة التي أصبحت تشكّل الواجهة البحريّة الجديدة لمدينة الجزائر. وقد ذكرتُ في مستهلّ هذا العرض أنّ ما تبقى من الآثار نفسها قد اندثر هو الآخر.

ألبير دوفو

LA

BATTERIE DES ANDALOUS

A ALGER

Les travaux exécutés par le Génie pour l'achèvement de la partie du nouveau front de mer d'Alger qui se trouve près de l'emplacement de l'ancienne porte de la Marine, au-dessus du vieux port, viennent de faire disparaître les derniers vestiges de la batterie dite des *Andalous*. Il est donc opportun de consacrer un souvenir à ce tronçon de l'Alger turc, ville dont il ne restera bientôt aucunes traces sur le terrain.

Du côté de la mer, Alger n'avait pas d'enceinte. Quelques batteries s'élevant au milieu des maisons, concouraient à la défense de la ville en joignant leur feu à celui des fortifications du port et des ouvrages extérieurs. Le bastion dont je m'occupe était placé sur la terre ferme et tout près de la porte de la Marine, laquelle constituait la seule communication entre la ville et le port, formé par des constructions établies sur des îlots et relié à la côte par une jetée d'une longueur d'environ deux cents mètres. Je vais d'abord rappeler, en commençant par Haëdo, ce qu'en ont dit les écrivains qui ont abordé la description d'Alger à diverses époques.

« Sur la porte Babazera (1) par où l'on sort sur le môle, est

(1) Les Algériens appelaient cette issue *bab-dzira*, altération de *Bab-el-djezira*, la porte de l'île.

pièces dont l'une a, si je ne me trompe, sept cylindres, chacun de trois pouces de diamètre (Shaw, page 88). »

Le fameux canon à sept bouches existait encore en 1830, et les indigènes en ont gardé le souvenir. Je crois qu'il a été transporté à Paris, mais je ne puis donner aucun renseignement précis à ce sujet.

Ce bastion, sis en dedans du port, et à 120 mètres de la petite batterie de la grande mosquée, était connu par les indigènes sous le nom de *toppanet el-Andelous* (la batterie des Andalous), probablement en souvenir des ouvriers qui la construisirent, et plus habituellement sous celui de *toppanet el-Goumereg* (la batterie de la Douane), parce qu'il dominait le local situé sur le quai — où les marchandises provenant de pays musulmans acquittaient les droits d'entrée. Il a dû subir bien des modifications depuis la description faite par Haëdo, à une époque où il avait un parapet sans embrasures. La dernière restauration doit être postérieure aux dommages considérables que causa aux fortifications de la marine l'attaque faite par l'amiral Exmouth, le 27 août 1816. En dernier lieu, cet ouvrage, construit en moellons calcaires, et revêtu d'un parement en petites pierres de taille, offrait dix-sept embrasures, savoir : neuf vers le port, deux en retour vers le sud, quatre vers l'entrée du port et deux commandant l'accès de la porte de la ville.

Autrefois la *toppanet el-Andelous* donnait, en tirant un coup de canon à boulet vers le large, et par dessus les forts du port, le signal des salves que ces ouvrages exécutaient une demi-heure après le lever du soleil, à l'occasion des fêtes dites *Aïd el-Kebir* et *Aïd es-Serir*. Mais cet usage fut aboli par Hussein-Dey, le dernier pacha d'Alger.

Cette batterie, qui avait été classée par nous, en 1830, sous le n° 1, fut démolie en grande partie, en 1867, pour la construction du boulevard qui forme le nouveau front de mer d'Alger. J'ai dit, en commençant cette notice, que ses restes viennent de disparaître à leur tour.

Albert DEVOULX.

un beau bastion, le meilleur et le plus grand de tous ceux qu'il y a à Alger. Sa surface est en long de trente pas et en large de quarante pas, car il n'est pas du tout carré, mais (il est) plus large que long. Il est en terre-plein dans sa partie principale et a une casemate ; il ne possède aucune embrasure, mais a un parapet vers le midi, vers le levant et vers le nord-est par où il correspond, de front, au port. Du côté du nord et de tous ces côtés sont vingt-trois pièces d'artillerie en bronze de bonne qualité et la meilleure d'Alger, desquelles seulement six ou huit sont montées sur des affuts ; et parmi elles, il en est une qui a sept bouches, laquelle Rabadan Vaja (Ramdan-Pacha) apporta de Fez, lorsqu'en l'année 1576, il mit Mouley-Maluch en possession de ce royaume. Ce bastion a également sa garde ordinaire d'artilleurs et autres qui y restent et le gardent constamment. Ce bastion fut fait par le cayde Saffa (caïd Safar), de nation turque, lorsque, en l'année du Seigneur, 1551 et partie de l'année 1552, il gouverna Alger et son royaume avec le titre de Galiffa (Khelifa) ou lieutenant de roi en l'absence d'Asan Baja (Hassan-Pacha), fils de Barbarroja (Barberousse). »

L'expression *sur*, employée par Haëdo, pourrait faire supposer qu'à la fin du XVI^e^ siècle, la porte de la Marine était percée dans la partie inférieure de ce bastion. Mais les plus anciens plans d'Alger ne confirment pas ce fait, d'ailleurs peu vraisemblable. Il faut en conclure que l'auteur espagnol s'est trompé ou qu'il a seulement voulu dire que le bastion était tout contre la porte et la commandait, ce qui est la réalité.

A leur tour, le père Dan, en 1634, et le docteur Shaw en 1732, se sont occupés de cette batterie en ces termes : « La cinquième (forteresse) est un bon boulevard, mais petit, tout auprès de la porte du môle, vers la grande caserne (1). Là sont remarquables cinq grosses pièces de campagne, qui du côté de la mer défendent le port. Mais il s'y voit surtout un fort beau canon à sept bouches qui sert à garder l'entrée de la porte (Père Dan, page 91). »

« La batterie de la porte du môle est montée de plusieurs grosses

(1) C'est celle qui porte aujourd'hui le nom de caserne Lemercier. A. D.

LES

INSCRIPTIONS D'ORAN

ET DE

MERS-EL-KEBIR

NOTICE HISTORIQUE SUR CES DEUX PLACES
DEPUIS LA CONQUÊTE JUSQU'A LEUR ABANDON EN 1792

Par le Général C. X. de SANDOVAL

(Suite. Voir les n^os^ 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93 et 94.)

TROISIÈME PÉRIODE.

XVIII^e^ SIÈCLE.

De Carthagène et des autres ports du littoral, il arriva à Oran et à Mers el-Kebir bon nombre de navires apportant des objets de toute sorte et en particulier des médicaments, des vivres, du bois pour élever des baraques, des munitions et enfin de la troupe composée des régiments de Cordoba et de Mallorca ; au retour ces navires emportèrent les malades, les blessés et les bouches inutiles. A la nouvelle de ce désastre, le cardinal-archevêque de Tolède donna mille doublons pour parer aux premiers besoins et en offrit encore quatre mille à S. M. dans le même but. Il prescrivit au vicaire d'Oran de faire construire immédiatement une église en bois pour célébrer les offices et administrer les sacrements. Le clergé imitant un si noble exemple offrit également mille doublons.

Dans le même temps que le gouvernement du roi prenait les plus utiles mesures pour secourir la place et renforcer sa garnison, il faisait célébrer dans l'église de St-Isidore de Madrid, le

بدايات الإدارة المدنيّة في الجزائر [1]

Les débuts de l'administration civile à Alger. - Le personnel.

(ج. إيسكير/G. ESQUER)

ترجمة ودراسة: أ. محمّد أمين بوراس

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

مقدّمة:

يعرض المقال بدايات الإدارة المدنيّة في الجزائر من خلال تجربة قصيرة امتدّت من 1 ديسمبر 1831 إلى 12 ماي 1832، في ظلّ وزارة (كازيمير بيريي)، حين أُنشئت إدارة مدنيّة مستقلّة في الجزائر العاصمة وأُسندت إلى البارون (بيشون) في الوقت الذي كان فيه دوق (روفيغو) يتولّى القيادة العامّة للقوّات الفرنسيّة. وقد كان إنشاء إدارة مدنيّة موضوعا ذا أهمّية كبرى خلال السّنوات الأولى للاحتلال الفرنسي ومدخلًا ضروريا لفهم طبيعة النّظام الاستعماري الذي أخذ يتشكّل تدريجيًا بعد احتلال مدينة الجزائر سنة 1830.

ينطلق المقال من قرار الحكومة الفرنسيّة لإنشاء إدارة مدنيّة مستقلّة في الجزائر العاصمة في الأوّل من ديسمبر 1831. وكان الهدف المعلن فصل الإدارة المدنيّة عن القيادة العسكريّة، بحيث يتولّى مدير مدني الإشراف على الخدمات المدنيّة والماليّة وإدارة العدالة، في حين بقيت للقائد العام صلاحيّات تتّصل بحماية الممتلكات الفرنسيّة وبالمسائل السّياسية والأمنية العليا.

وكان اختيار (بيشون) مديرًا مدنيًا ودوق (روفيغو) قائدًا عامًا عاملًا آخر في تفاقم الصّراع. فالمقال يقدّم (بيشون) باعتباره رجل إدارة وقانون، شديد التّمسك باختصاص الإدارة المدنيّة، في حين يقدّم (روفيغو) باعتباره رجلًا عسكريًا يميل إلى توسيع سلطة القيادة العسكريّة. ولذلك كان الاختلاف بين الرّجلين أعمق من مجرّد خلاف شخصي، إذ كان يعكس تصوّرين مختلفين لطبيعة الحكم في الجزائر.

ويخصّص المقال مساحة واسعة لسيرة (بيشون)، موضّحا تكوينه وخبرته الدّبلوماسية والإداريّة ومواقفه السّياسية السّابقة، ولا سيما تجربته في (سان دومينغو) والولايات المتّحدة ووستفاليا. ويستفيد المقال من هذه السّيرة لتفسير موقفه من الإدارة الاستعماريّة ومن علاقته بالسّلطة العسكريّة. وفي المقابل، يعرض المقال موقف (روفيغو) الذي كان يرى أنّ السّلطة المدنيّة ضروريّة، لكنّه كان يعتقد في الوقت نفسه أنّها تحتاج إلى حماية الجيش وخضوعها للعمل العسكري. وهذا التصوّر كان يتناقض بصورة واضحة مع تصوّر (بيشون) لاستقلال الإدارة المدنيّة.

يمضي المقال في عرض نماذج عمليّة للصّراع بين الرّجلين؛ ومن أبرزها تدخل (روفيغو) في قضيّة موظّف مدني، وتوليه بعض المناصب التي اعتبرها (بيشون) من اختصاص الإدارة المدنيّة، وتدخّله في مسائل الضّرائب والنّظافة العامّة والملاهي اللّيلية، فضلاً عن اتّصالاته المباشرة برؤساء المصالح

1- إيسكير. ج، بدايات الإدارة المدنيّة في الجزائر، المجلّة الأفريقيّة، الجمعية التّاريخية الجزائريّة، 1912، مج 56، صص301-338.

الحكوميّة. ويكشف المقال كذلك عن ضعف الجهاز الإداري المدني من حيث الخبرة والكفاءة. فقد كان عدد من الموظّفين قد وصلوا إلى الجزائر عن طريق العلاقات السّياسية أو الشّخصيّة، وبعضهم لم يكن متخصّصا في الوظائف التي أُسندت إليه. ويورد المقال أمثلة متعدّدة لموظّفين ومرشّحين لمناصب إداريّة عن طريق المحسوبيّة والصّلات الشّخصيّة في تكوين الإدارة النّاشئة، كما يتناول المقال بدايات الاستيطان الفرنسي، ويبرز الصّعوبات التي واجهتها الإدارة في تنظيم السّكّان الأصليين للجزائر وتوزيع الأراضي وإنشاء الوظائف والمزارع النّموذجيّة. ويظهر من عرضه أنّ الاستيطان كان في بداياته يفتقر إلى تنظيم واضح، وأنّ عددًا من المستوطنين وصلوا دون أن تتوافر لهم الأراضي أو وسائل العيش والعمل.

وأخيرًا، يربط المقال نهاية التّجربة المدنيّة بوفاة (كازيمير بيري)ي)، ثمّ صدور أمر 12 ماي 1832 الذي ألغى تنظيم الأوّل من ديسمبر وأعاد وضع المدير المدني تحت سلطة القائد العامّ، وبذلك استعيدت وحدة القيادة. ويمكن حصر أهمّ أفكار المقال فيما يأتي:

1. الصّراع بين الإدارة المدنيّة والسّلطة العسكريّة.
2. غموض النّصوص القانونيّة.
3. ضعف الجهاز الإداري.
4. المحسوبيّة والعلاقات الشّخصيّة.

قيمة الوثيقة:

تكمن أهمّية المقال في أنّه لا يقدّم نشأة الإدارة المدنيّة بوصفها تطوّرا إداريًا محايدًا، بل يربطها بصراع سياسي ومؤسّسي داخل السّلطة الفرنسيّة نفسها. فالاحتلال الفرنسي كان في بدايته قائمًا بصورة أساسيّة على المؤسّسة العسكريّة، ولذلك كان الانتقال إلى إدارة مدنيّة يقتضي إعادة توزيع حقيقي للصلاحيّات. لكن هذا الانتقال لم يتمّ بصورة مكتملة؛ إذ ظلّ ت المؤسّسة العسكريّة محتفظة بسلطات واسعة، خصوصًا في المجال السّياسي والأمني.

ومن هنا فإنّ المشكلة لم تكن في وجود إدارتين فحسب، وإنّما في غياب ترسيم دقيق للحدود بينهما. وهذا ما يجعل تجربة (1831-1832) ذات قيمة خاصّة في دراسة تطوّر الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة في الجزائر. كما يكشف المقال عن حقيقة أخرى، وهي أنّ الإدارة المدنيّة لم تكن منفصلة عن مشروع الاحتلال، بل كانت أداة من أدوات تثبيته وتنظيمه. ويتّضح ذلك بجلاء في القضايا المتعلّقة بالأراضي والاستيطان والمستوطنين والمزارع النّموذجيّة. ويظهر أيضًا أنّ المقال لا يكتفي بالجانب المؤسّسي، بل يستعمل سير الشخصيّات ومراسلاتها لفهم الأحداث. وهذه ميزة مهمّة؛ لأنّها تسمح بالانتقال من النّصوص القانونيّة المجرّدة إلى كيفيّة ممارسة السّلطة على أرض الواقع.

وأبرز نقاط قوّة المقال اعتماده مادّة وثائقيّة متنوّعة، إذ يستند إلى الأوامر والمراسلات والأرشيفات، ويشير إلى مصادر مثل (Moniteur Universel) و(Archives nationales)، فضلاً عن كتاب (بيشون) ومصادر أخرى. كما أنّه لا يكتفي بعرض وجهة نظر (بيشون)، بل يلفت إلى ضرورة مقارنة أحكامه بمراسلات (روفيغو)؛ لأنّ (بيشون) كان طرفًا مباشرًا في الصّراع، ومن الطّبيعي أن تتأثّر روايته

بموقعه في النّزاع. كما يقدّم المقال نماذج تطبيقيّة للصّراع بدل الاكتفاء بالحديث النّظري عن ازدواجيّة السّلطة.

خاتمة:

تكشف تجربة الإدارة المدنيّة في الجزائر بين ديسمبر 1831 وماي 1832 عن إحدى المحاولات المبكّرة لإعادة تنظيم الحكم الفرنسي في الجزائر بعد الاحتلال. وقد قامت التّجربة على مبدأ فصل الإدارة المدنيّة عن القيادة العسكريّة، لكنّها فشلت في وضع حدود واضحة بين اختصاصات الطّرفين. ويخلص المقال بصورة مباشرة أو ضمنيّة، إلى أنّ الصّراع بين (بيشون) و(روفيغو) لم يكن مجرّد خلاف شخصي، وإنّما كان تعبيرًا عن مشكلة مؤسّسية أعمق: كيف يمكن إقامة إدارة مدنيّة في مستعمرة ما تزال المؤسّسة العسكريّة هي القوّة الأساسيّة التي تحمي الاحتلال وتدير أمنه؟ وتزداد أهمّية التّجربة لأنّها تكشف في الوقت نفسه عن هشاشة الجهاز الإداري، وعن أثر العلاقات الشّخصيّة في التّعيينات، وعن الارتباط المبكّر بين الإدارة والاستيطان والأراضي.

ومن النّاحية المنهجيّة، تظلّ قيمة المقال كبيرة بسبب اعتماده على الوثائق والمراسلات، غير أنّ قراءته تقتضي الانتباه إلى كونه مكتوبًا من داخل المنظور الاستعماري الفرنسي، وإلى أنّ بعض أحكامه مرتبطة بمواقف شخصيّات كانت أطرافًا مباشرة في الأحداث. لذلك فإنّ أهمّ ما يقدّمه المقال للباحث ليس مجرّد سرد وقائع الإدارة المدنيّة، وإنّما إتاحة مادّة غنيّة لفهم آليات تشكّل السّلطة الاستعماريّة وتنافس مؤسّساتها في الجزائر خلال السّنوات الأولى للاحتلال. ويؤكّد المقال نفسه أهمّية الرّجوع إلى مصادر متعدّدة، إذ يشير في خاتمته إلى أنّ الأحكام القاسية التي أطلقها (بيشون) على السّياسة الفرنسيّة يمكن التّحقّق منها بمراسلات دوق (روفيغو)، كما يرى أنّ كتاب (بيشون)، رغم ما قد يكون فيه من مبالغة، يظلّ ذا قيمة في تاريخ السّنوات الأولى للاحتلال.

التّرجمة:

تحت إشراف وزارة (كازيمير بيري)[1]، أُنشئت إدارة مدنيّة مستقلّة في الجزائر العاصمة [2] تحت مسمّى المحافظة المدنيّة؛ واستمرّت من 1 ديسمبر 1831 إلى 12 ماي 1832[3]. في ذلك الوقت، كانت الممتلكات الفرنسيّة في شمال أفريقيا تشمل الجزائر ووهران وضواحيهما؛ ولم يتجاوز عدد السّكّان الأوروبيّين ثلاثة آلاف نسمة؛ وكانت بئر خادم وميزون كاري منطقتين متقدّمتين يصعب تجاوزهما. بدت هذه المستعمرة النّاشئة ذات أهمّية كافية لتبرير إنشاء هيئة إداريّة متكاملة؛ علاوة على ذلك، تمّ فصل هذه الهيئة عن

1- رئيس المجلس من 13 مارس 1831 إلى 16 مايو 1832، وهو تاريخ وفاته.

2- عبارة: "en Alger" تعني: "في بلد الجزائر"، والتي ستُعرف لاحقًا باسم (الجزائر). أمّا عبارة "À Alger"، فتُستخدم عند الإشارة إلى المدينة فقط.

3- الأمر المؤرّخ في 1 ديسمبر 1831 المتعلّق بإنشاء الإدارة المدنيّة وتعيين البارون (بيشون)، الجزائر، 19 يناير 1832 وصول الأخير إلى الجزائر، 12 مايو 1832 صدور أمر يلغي مرسوم 1 ديسمبر 1831.

القوّة العسكريّة. وهكذا، تمّ تدمير وحدة القيادة، التي لا شكّ في ضرورتها في بداية أيّ غزو. وهذا ليس بالأمر المستغرب من رجل مثل (كازيمير بيري)، الذي أعلن نفسه للتوّ مناصرًا لهذه الوحدة وقبوله السّلطة بشرط ممارستها بشكل كامل.

بصراحة، لا ينبغي النّظر إلى إنشاء الإدارة المدنيّة على أنّه تطبيق لمفهوم الحكم؛ بل نبع من دوافع سياسيّة داخليّة. وصل (بيريه) إلى السّلطة في ظروف صعبة: فقد جعلت التوتّرات المتصاعدة وتحالف المعارضة البرلمانيّة وجود (وزارة المقاومة) محفوفًا بالمخاطر. ورأى في قضيّة الجزائر وسيلة قيّمة لصرف انتباه الرّأي العام.[1] لذا، كانت نيّته الأوّلية هي مَركَزة شؤون الجزائر داخل وزارة الداخليّة. وظلّت وحدة القيادة قائمة، ولكن تمّ ضمانها بأيدٍ جديدة.

حتى ذلك الحين، كانت الشّؤون الأفريقيّة تقع ضمن اختصاص وزارة الحرب. وكان من شأنها تجريد وزارة الحرب من قيادتها السّياسية، والاكتفاء بالعمليّات العسكريّة فقط، أن يُنذر بنشوب صراع. وقد تردّد المارشال (سويت)[2] طويلًا في قبول (بيريه) رئيسًا للمجلس، رغم توسّلات الأخير لتأمين دعم "هذا السّيف العظيم[3]". ولذلك، كان من مصلحة (بيريه) إلّا يزيد من توتّر العلاقات المتوتّرة أصلًا. فتخلّى عن فكرته الأوّلية، واستقرّ على إنشاء منصب مدير مدني يُدير جميع الخدمات الإداريّة ويتواصل معه ومع مختلف الوزراء مباشرةً. وبذلك، كسر مبدأ وحدة القيادة، الذي لم يكن بوسعه ممارسته بمفرده وانحرف عن التّشريعات الاستعماريّة القائمة، مُعيدًا إيّانا إلى الوراء أكثر من أربعين عامًا. ففي ظلّ النّظام القديم، كانت القيادة المزدوجة هي القاعدة (ألف)، حيث كان يُعيّن على رأس كلّ مستعمرة حاكم، وقائد عسكري مسؤول عن ضمان الأمن داخليًا وخارجيًا، ومدير مدني تُرفع إليه جميع الخدمات الإداريّة والماليّة.

أحيت القنصليّة هذا التّقليد وأبقت على الحكّام تحت المسمّى الجديد "القادة العامّون"، وعلى المندوبين الذين أصبحوا حكّامًا للمستعمرات. كان هذا الوضع، بين السّلطتين العسكريّة والمدنيّة، مصدرًا للصّراع، والذي، لابدّ من القول، كان السّكّان مدينين له بحمايتهم من الوقوع تحت رحمة إحداهما تمامًا. على النّقيض من ذلك، وضعت فترة إعادة الملكيّة رأسًا واحدًا - الحاكم - على رأس المستعمرات، وتحت سلطته، ضمن المفوّضون ومديرو الإدارة الداخليّة والمدّعون العامّون سير الأمور بسلاسة.

لم يتمّكن (كازيمير بيري) من تعيين مسؤول مدني رئيساً للحكومة في الجزائر، ولم يرغب في إخضاعه للقيادة العسكريّة، فجعله مسؤولاً مستقلاً. على الرّغم من اتّخاذ القرار بشأنها بعد فترة وجيزة من تولّي بيري السّلطة[4]، إلّا أنّ الإدارة المدنيّة لم تُنشأ حتى الأوّل من ديسمبر عام 1831. وعُيّن البارون (بيشون)

1- بيشون، الجزائر تحت الحكم الفرنسي. باريس، 1833، المجلّد 16، صفحة 28.

2- وزير الحرب، من 13 مارس 1831 إلى 18 يوليو 1834.

3- غيزو، مذكرات، الجزء الثّاني، ص179.

4- "إن نية الملك هي فصل السّلطة العسكريّة عن السّلطة المدنيّة ... سيتمّ تكليف مسؤول مدني بالإدارة العامة للبلاد .... وزير الحرب في برثيزين، 5 يونيو 1831 (أرشيف الحرب الجزائري، مراسلات).

وهو مستشار دولة، رئيسًا لها. وقد أنشأ مديريّة للشّؤون المدنيّة داخل وزارة الداخليّة، وأوكلها إلى الدّكتور لانيير.[1] كان مصير هذه المؤسّسة الفشل.

كان تقليص صلاحيّات السّلطة العسكريّة نتيجةً للوضع الجديد موضع استياء شديد من الوزارة المعنيّة. امتنع (سولت) عن حضور المجلس الذي نوقش فيه أمر الأوّل من ديسمبر، ممّا يدلّ على أنّ التّنظيم الذي خطّط له رئيس الوزراء لم يحظَ بموافقته[2]. وكتب الجنرال (بيليت): "كان فصل السّلطات غير ضروري".[3] أمّا أنا، فقد كنت أعتقد دائماً أنّه عديم الجدوى وخطير[4]. أي العداء من حيث المبدأ والواقع. من ناحية أخرى، كان اختيار المتعاونين الاثنين، (بيشون) مديرا مدنيًّا، والجنرال (سافاري)، (دوق روفيگو) قائدا عامًّا، كافياً للتّنبّؤ بصراعات دائمة. وفي هذا الصّدد، ليس من غير المفيد تحديد خلفيّة البارون (بيشون)، حيث أنّ القواميس السّيرية موجزة بشكل فريد في سردها.[5]

وُلد لويس أندري (بيشون) في (نانت) في 30 نوفمبر 1770، لأبوين هما (سيميون بيشون)، صانع الأحذية، و(جين فورتيي)، وقد يدين بحياته للحرمان الذي فرضه والداه على أنفسهما، حيث تمكّن من الدّراسة في مدرسة (أوراتوريان). وفي عام 1790، جاء إلى باريس مدرّسا في مدرسة داخليّة، ممّا سمح له بإكمال دراسته للفلسفة في (لويس لو غران). في العام التّالي، اصطحبه أحد نوّاب جمعيّة سان مارك[6] الذي كان قد قدم إلى نانت، إلى (سان دومينغو) لتعليم أبنائه. وبعد وصوله إلى الجزيرة بفترة وجيزة اندلعت الحرب الأهليّة. واضطرّ الشّاب (بيشون) للقتال ضدّ السّكّان السّود. ولم يغب عن ذاكرته الانطباع السّلبي الذي تركه في بداية مسيرته الاستعماريّة جراء تجاوزات المتمرّدين وقسوة القمع. وبعد أربعين عامًا، سيستخدم ذكرياته عن (سان دومينغو) لتبرير رأيه المعارض للسّياسات المتبعة في الجزائر.

بعد إصابته بالحمّى الصّفراء، تلقى العلاج على يد رجل أسود من مدينة لي كاي، كان ابنه زميله في الدّراسة في نانت. وبعد أن تعافى بصعوبة، غادر البلاد إلى الولايات المتّحدة حيث عمل في إعطاء الدّروس. بناءً على توصية المستعمرة الفرنسيّة، التحق بمكاتب الوزير الفرنسي جيني عام 1793[7]. وبقي هناك في عهد فوشي[8] الذي عاد معه إلى فرنسا عام 1796.

1- طبيب شاب متميز، غيزور، المرجع السّابق، ص318. كان الدّكتور لانيير هو من عالج بيري خلال مرضه الأخير.

2- بيشون، المرجع السّابق، ص17.

3- مدير مستودع الحرب.

4- رسالة إلى روفيگو مؤرخة في 1 فبراير 1832 (محفوظات الحرب، المرجع نفسه).

5- يمكن الاطّلاع على بعض التّفاصيل في كتاب ساروت وسان إدمي: سيرة رجال ذلك العصر، المجلّد الخامس، الجزء الأول، صفحة 62 وما يليها.

6- سانت مارك، ميناء سانت دومينغو حيث انعقدت الجمعية بعد مرسوم الجمعية التّأسيسية الصّادر في 28 مارس 1790 والذي أصدر قانون الانتخابات.

7- جينيست أو جينيت (1765-1834). القائم بالأعمال في سان بطرسبرغ (1788-92)، سفير إلى هولندا (1793)، القائم بالأعمال لدى الولايات المتحدة (1793).

8- فوشي (1761-1834). وزير مفوّض لدى الولايات المتحدة (1793-1796)، محافظ تحت القنصليّة والإمبراطورية.

ثمّ عُيّن نائباً لرئيس وزارة الخارجيّة؛ وبقي هناك في عهد دولاكروا[1] و(تاليران)[2].

كانت العلاقات مع الولايات المتّحدة مصدر قلق للحكومة الإداريّة[3]. وقد أدّى بقاء (بيشون) في أمريكا إلى استشارته؛ إذ حظيت آراؤه بالتّقدير، على الرّغم من أنّ اعتدالها كان يتعارض مع أفكار الوزراء الذين كانوا يفضّلون الانفصال بين الدّولتين. كما كان معتدلاً في السّياسة: فإسهاماته في صحيفة (لو فروندور) تُظهر أنّه ظلّ وفياً لمبادئ الجمعيّة التّأسيسيّة.

تولّى مهمّتين مؤقّتتين، الأولى إلى هولندا سكرتيرا سفارة عام 1797، والثّانية إلى سويسرا قائما بالأعمال، أيضاً في العام نفسه. وفي برن، طُلب منه إعلان دعمه لانقلاب برومار، الذي رأى فيه عودة النّظام؛ ونُشرت الرّسالة التي وجّهها إلى (تاليران) في هذه المناسبة في صحيفة (مونيتور). وبين هاتين المهمّتين، وبعد أن طلبت الحكومة من موظّفي القسم السّياسي في الوزارة التّشاور بشأن ضمّ بيدمونت إلى فرنسا، كان (بيشون) الوحيد الذي خلص إلى النّتيجة السلبيّة. فقد بيّن أن ضمّ بيدمونت استلزم ضمّ لومبارديا، وأنّ الفائدة الوحيدة من هذه الفتوحات تكمن في إمكانيّة استخدامها تعويضا للنّمسا. وفي الوقت نفسه، نشر رسالتين من رجل فرنسي السّيد بيت، الذي قام فيه بدراسة حالة علاقاتنا مع تلك القوّة منذ 1783.[4]

بعد عودته من سويسرا، عُيّن سكرتيراً للّجنة المكلّفة بالتّعامل مع المفاوضين الأمريكيين، وفي 01 أكتوبر 1800، حصل على تكليف القائم بالأعمال والقنصل لدى الولايات المتّحدة. وكان قد تزوّج لتوّه من الآنسة برونيار، ابنة المهندس المعماري[5] وشقيقة عالم المعادن.[6] في واشنطن، كان عليه أوّلاً أن يعيد العلاقات التي انقطعت لأكثر من أربع سنوات بين الجمهوريتين[7]، كانت هذه مهمّة يوميّة أضيفت إليها تعقيدات حدثين غير متوقّعين: إمدادات بعثة (سان دومينغو) وزواج (جيروم بونابرت).[8]

وصل الجيش بقيادة لوكلير إلى (سان دومينغو) بدون مؤن احتياطيّة - بعد أن تمّ إلقاؤها في البحر لتلفها. استلم (بيشون) الحملة ومسؤوليّة تزويدها بالمؤن اللّازمة. لم يكن التّوقيت مناسبًا لطلب أي دعم

1- ديلاكروا، وزير الخارجيّة منذ نوفمبر 1705 حتى يوليو 1797.

2- (تاليران)، خليفة ديلاكروا، من يوليو 1797 إلى يوليو 1709 ومن نوفمبر 1799 إلى أغسطس 1807.

3- انتقدت الحكومة الفرنسيّة الولايات المتحدة لسياستها التّجارية المؤيدة للبريطانيين. وعندما خلف بينكني مونرو في منصب وزير الخارجيّة الأمريكي، مُنع من دخول باريس. ووقعت بعض المناوشات بين البلدين، بالإضافة إلى مصادرة سفن تجارية.

4- رسائل (الأولى والثّانية) من رجل فرنسي إلى السّيد بيل، أو دراسة لنظام اتبعته الحكومة البريطانية تجاه فرنسا خلال السّنوات الأخيرة من الملكيّة ومنذ تأسيس الجمهورية (من طرف ل. أ. ب.). باريس، دوبون، السّنة السّادسة.

5- برونجنيارت (ألكسندر تيودور)، مهندس معماري (1732-1813)، مصمم كنيسة سانت لويس دانتين وقصر البورصة.

6- برونغنيار (ألكسندر)، كبير مهندسي التّعدين (1770-1847). أستاذ التّاريخ الطّبيعي في المدرسة المركزية للأمم الأربع (1796)، ثمّ أستاذ علم المعادن في كلّية العلوم في باريس وفي المتحف. في عام 1800، عُيّن مديرًا لمصنع سيفر للخزف. (4) كانت معاهدة مورتيفونتين (30 سبتمبر 1800) قد وُقّعت للتوز.

7- أُبرمت الاتفاقيّة. وتم التّصديق عليها في 6 ديسمبر 1801 بقيادة الجنرال لوكلير، صهر بونابرت. توفي في سان دومينغو في 2 نوفمبر 1802. وقام خليفته، روشامبو، بإخلاء الجزيرة في 30 نوفمبر 1803.

8- (جيروم) بونابرت، الأخ الأخير لنابليون الأول (1784-1860)، ملك وستفاليا في عام 1807.

من حكومة واشنطن. فقد كانت إسپانيا قد تنازلت للتوّ عن لويزيانا لفرنسا[1]، وشعرت الولايات المتّحدة بالتّهديد من محاولة (بونابرت) إعادة بناء إمبراطوريّة استعماريّة فرنسيّة، وهي محاولة كانت حملة (سان دومينغو) وحملة برنادوت المخطّط لها في لويزيانا من مراحلها. ورغم انعدام الثّقة الذي واجهه، نجح (بيشون) في تزويد الجيش بالمؤن: كتب إليه ديكريس: "لا يسعني إلّا أنّ أثني عليك كثيرًا، على كلّ الخطوات التي اتّخذتها للحصول، في ظلّ الظّروف الصّعبة التي تجد نفسك فيها، على دعم من أفراد وحتى من الحكومة الأمريكيّة".

لكن القائم بالأعمال لم يُخفِ عن رئيسه استياءه من قصر النّظر الذي أُعدّت به الحملة، فسأله: "هل يُعقل، يا معالي الوزير، إرسال جيش بهذا الحجم إلى (سان دومينغو) دون أيّ موارد أخرى سوى سيفه؟" لم يغفر ديكريس[2]، الذي كان يتحمّل هذه المسؤوليّة، لـ (بيشون). وعُرضت هذه الملاحظة المؤسفة على بونابرت، الذي لم ينساها، ولا الانتقادات اللّاذعة التي وجّهها وكيله إلى (روشامب) بسبب فظائعه في (سان دومينغو).

أدّى فشل الحملة إلى إحباط الخطط الاستعماريّة للقنصل الأوّل. وكُلِّف (بيشون) بالتّفاوض على بيع لويزيانا للولايات المتّحدة واستلام الثّمن - ستّين مليون دولار - من الأموال العامّة الأمريكيّة التي أرسلها إلى فرنسا.[3] سرعان ما تبدّد الأثر الإيجابي الذي أحدثه نجاح هذه العمليّة بسبب النّتيجة المؤسفة لمسألة ذات طبيعة خاصّة للغاية.

في 20 يوليو 1803، علم (بيشون) بشكل غير متوقّع بوصول (جيروم) بونابرت. وكان الأخير، الذي عينه القنصل الأوّل ليكون بحّار العائلة، يبحر في جزر الأنتيل مع أسطول بيلاريت-جوايوز[4]، لم تكن لديه رغبة تذكر في مهنة أبعدته عن متع التّجارة لفترة طويلة في رأيه[5]، ولمّا كان يُخاطر بالوقوع في قبضة الإنگليز الذين ما كانوا ليُفرّطوا في رهينة بهذه الأهمّية، قرّر فجأة الذّهاب إلى أمريكا[6]. وكانت أولى زياراته للممثّل الفرنسي ليطلب منه المال.

كانت إقامة (جيروم) في (بالتيمور) مصدر قلق دائم لـ (بيشون). فقد كان عالقًا بين أوامر (بونابرت) بإرسال أخيه إلى فرنسا في أسرع وقت ممكن ورفض (بونابرت) العنيد لذلك. عاش (جيروم) حياةً هانئة ينفق ببذخ ويتردّد على القنصل بكلّ عفويّة ليملأ جيبه. في هذه الأثناء، التقى بالآنسة إليزابيث (باترسون) ابنة تاجر ثري. أثار جمال الشّابة الأخاذ إعجاب الفرنسي لدرجة أن (بيشون) تلقّى ذات يوم، إلى جانب خبر هذا الزّواج غير المتوقّع، دعوة لحضور حفل الزّفاف.

1- 1 أكتوبر 1800.

2- ديكريس، نائب الأدميرال، وزير البحريّة، من عام 1801 إلى عام 1814.

3- 30 أفريل 1803.

4- فيلاريت جوايوز، أميرال (1750-1813).

5- شعر بالرّاحة التّامة في أجواء المساكن لدرجة أنّه لم يشعر بأي رغبة في العودة إلى البحر. ماسون، نابليون وعائلته، 1. 11، ص399.

6- تجدر الإشارة إلى أن فيلاري-جوايوز، وقد أثقلته المسؤولية، توسل إليه أن يرحل. ماسون، المرجع نفسه، ص302

بدا لـ (بيشون) أنّ هذه المؤامرّة الزّوجيّة ستكون لها عواقب وخيمة على وضعه؛ فلم يهدأ له بال حتى أنهى هذه العلاقة. (جيروم)، وصهره المستقبلي أبلغا رسميًا ببطلان زواج لم توافق عليه مدام (بونابرت). ولأنّ ماركيز كاسا يراخو، الوزير الإسباني، قدّم دعمه لهذه القضيّة، هدّد (بيشون) الحكومة الإسبانيّة بالتّخلي عنه وانتزع منه وعدًا بعدم حضور حفل الزّفاف[1]، بدت هذه الاحتجاجات الشّديدة وكأنّها أثمرت نتائج فورية. أقرّ السّيد (باترسون) بأن القانون الفرنسي واضح لا لبس فيه، وأنّ الزّواج لا يمكن أن يكون صحيحًا. من جانبه، توقّف (جيروم) عن الحديث عن هذا المشروع، الذي بدا أنّه قد تخلّى عنه. واقتصر على قرض جديد بقيمة 10,000 دولار بحجّة "وجود بعض الالتزامات التي يجب الوفاء بها". كانت الخزائن فارغة! بذل (بيشون) قصارى جهده للحصول على هذا المبلغ.

مرّة أخرى، ظنّ أنّ الأمر انتهى عند هذا الحدّ، اعتبر نفسه محظوظًا لنجاته من هذا المأزق، من أجل المال. وقد استُقبلت الأخبار التي أرسلها إلى باريس بارتياح. كتب إليه (تاليران): "لقد كان جلالته راضيًا عن تصرّفك الحكيم والمتأنّي".

استمرّ هذا الشّعور الزّائف بالأمان شهرين. "سيكون من الضّروري الخوض في تفاصيل لا صلة لها بالمسألة القانونيّة لتوضيح سبب هذا التحوّل المفاجئ في الأحداث[2]." ومع ذلك، في 5 ديسمبر 1803، تلقى (بيشون) المذكّرة التّالية من سكرتير (جيروم): "يشرّفني أن أعلن لكم من السّيد (جيروم) (بونابرت) أنّ زواجه من الآنسة (باترسون) قد تمّ اللّيلة الماضية. كما يطلب منّي إبلاغكم بأنّه ينتظر بفارغ الصّبر إرسال مبلغ 1000 دولار الذي عليكم إرساله إليه".[3]

نعرف كيف انتهت مغامرة (جيروم) والآنسة (بيتزي)؛ لم يتسامح الإمبراطور مع هذا التّناقض مع سياساته المتعلّقة بالسّلالة والعائلة، ولم يكن (جيروم) ممّن يقاومون طويلًا. بعد أن تزوّج وأصبح أبًا، وجد نفسه فجأةً أعزبًا مرّة أخرى.

أما (بيشون)، فقد عانى من عارٍ كامل. أثار استياؤه المعروف لعجزه عن منع هذا الزّواج المشؤوم ذكريات التّصريحات التي أدلى بها بشأن حملة (سان دومينغو). علاوة على ذلك، كان القائم بالأعمال يتحدّث بحريّة عن السّياسة القنصليّة والإمبراطوريّة، وقد نُشرت محادثاته في باريس[4]، بواسطة هذا

1- مذكرات ومراسلات الملك (جيروم) والملكة كارولين، الكتاب 1، ص163. (2) المرجع نفسه، ص271.

2- المرجع نفسه، ص319 وما يليها.

3- المرجع نفسه، ص319 وما يليها.

4- كان أكثر ما أثر في مصيري هو التّبليغ الذي أدلى به رجلٌ، وللأسف الشّديد، كان مقرّبا من نخبتنا وانتهى به المطاف عضوًا في المعهد. كان هذا الرّجل هو إزمينارد، الذي عرفته كمهاجرٍ مختبئٍ تحت اسمٍ مستعارٍ في باريس، ولاحقًا في مقر إقامة الوزير، حيث كان مطلوبًا لموهبته الشّعرية الفذة. ظننتُ أنني أستطيع، في واشنطن، أن أعبر له عن فزعي الشّديد من المؤامرّة التي دبرها ميهي، ومن اغتيال دوق إنجين، ومحاكمة مورو. (رسالة من بيشون اقتبسها أ. سافين في مقدّمة (ص.65) كتاب "خمسة عشر عامًا من الشّرطة العليا في ظلّ القنصليّة والإمبراطورية"، بقلم ب. م. ديسماريه، دار نشر غراسيليه، باريس، 1900.

(إزمينارد)[1]، الشّاعر المتواضع الذي سعى في عام 1804، في رحلة حول العالم، إلى استلهام قصيدته المستقبليّة عن الملاحة، والذي كان مدينًا لاحقًا للخدمات التي قدمها للشّرطة، لدخول الأكاديميّة الفرنسيّة - بفضل سافاري.

تم استدعاء (بيشون) في 28 يناير عام 1805. ومثل أمام مجلس تحقيق وتم فصله بموجب مرسوم رفض مسؤوليّته عن مبلغ 100 ألف فرنك بسبب تجاوز الإنفاق من الاعتمادات، التي نشأت من النّفقات التي قام بها في المقام الأوّل القناصل تحت إمرته؛ حتى أنّه اتّهم باقتراض الأموال بمعدّل مفرط لتلبية مطالب (جيروم) بونابرت[2]، تمّ إلغاء هذا الحكم خلال فترة الاستعادة، في عهد أوّل وزارة للبارون لويس[3].

وبالعودة إلى الحياة الخاصّة، أدّى (بيشون) اليمين كمحامٍ في عام 1808 وتخصّص في قضايا القانون التّجاري، وخاصّة في حالات الحجز. في عام 1809، استدعاه ملك وستفاليا، الذي لم يكن يحمل ضغينةً تجاهه لمعارضته زواجه من الآنسة (باترسون)، والذي كان يعتبره "رجلاً ذكياً ذا حيلة لا حدود لها[4]"، للعمل لديه. مكث (بيشون) في وستفاليا ثلاث سنوات، أوّلاً مستشارا للدّولة، ثمّ مديرا لصندوق الادخار، وأخيراً مديرا عامّا للخزانة. جلب معه إلى مهامّه عاداته في الانضباط والدقة في الإدارة والصّراحة[5]، وسرعان ما وجد نفسه غريباً في بلاطٍ كان فيه الإسراف هو السّائد، وكان الجميع مدينين للخياط مقابل الملابس الفاخرة التي يرتدونها[6]. وكان اشتراط (جيروم) على الفرنسيّين العاملين لديه الحصول على الجنسية سبباً لاستقالته "قُبل ذلك ممّا أثار استياءً شديداً لدى العامّة". عاد إلى فرنسا عام 1812، "مع شعور بالرّضا لكونه الفرنسي الأكثر احتراماً الذي خدم وستفاليا."[7]

بعد انهيار الإمبراطوريّة، انضمّ (بيشون) إلى النّظام الجديد الذي بدا له الوحيد القادر على إعادة السّلام إلى البلد الذي يحبّه فوق كلّ اعتبار. في مايو 1814، نشر كتابه "حالة فرنسا في طريقها نحو

1- إزمينارد (جوزيف إتيان)، شاعر وكاتب (1767-1811)، نائب عن مقاطعة بوش دو رون في الاتحاد عام 1790، محرر صحيفة "لا كوتيديان"، رئيس مكتب المسرح في وزارة الداخليّة بعد انقلاب 18 برومير، مدير مشارك لمجلّة "ميركور دو فرانس"، رافق لوكلير ثمّ فيلاري-جوايوز إلى سان دومينغو، رقيب على المسارح والمكتبات، رئيس الفرقة الثّالثة من الشّرطة العامة في عهد روفيگو، عضو في الأكاديمية الفرنسيّة، ثمّ حاصل على الدّرجة الثّانية من المعهد عام 1810. أثار مقال نشره في صحيفة "جورنال دو لامبير" ضدّ المبعوث الرّوسي غضب نابليون. أُمر إزمينارد بمغادرة باريس. انتحر في 25 يونيو 1811، مُصابًا بصدمة شديدة من هذه الإهانة.

2- "دافع السّيد بيشون عن نفسه بمهارة نادرة وحضور ذهني ثابت." المستشار باسكييه، مذكرات 1. 1. ص.319.

3- شغل البارون لويس منصب وزير المالية من أبريل 1814 إلى مايو 1815.

4- مذكرات جيروم، الجزء الأول، ص132.

5- ...سأقول للملك الحقيقة دائمًا...، وهي كلمة من بيشون مقتبسة في رسالة من راينهارد، الوزير الفرنسي المفوّض إلى دوق باسانو، 7 مايو 1811. (DU CASSE. Napoleon and King Jérôme. Historical Review xx, p 346).

6- ماسون، نابليون وعائلته، المجلّد السّادس، ص75.

7- راينهارد إلى نابليون، 29 ديسمبر 1812. (دي كاس، المرجع نفسه، المجلّد الحادي والعشرون، ص114). نفس الرّجل، الذي لم يكن يحبه، ولكنّه أنصفه، ويعبر عنه: "...يتمّتع السّيد **بيشون** حاليًا بثقة الملك المطلقة... أنّه صريح للغاية؛ لا يكلّ في عمله؛ شخصيّته نزيهة، ومعرفته واسعة، وآراؤه رحبة؛ لكن عقله غالبًا ما يكون معيبًا وطموحه يوازي غروره... سيخبر الملك بالحقيقة، أو ما يعتقد أنّها كذلك، بدافع الغريزة ودون تفكير. وكثيرًا ما سيعارض رغباته..."، رسالة إلى **باسّانو**، المرجع نفسه. - "...كان معروفًا عمومًا بأنّه أفضل مدير وأكثر خدّام الملك حماسة..."، رسالة إلى الإمبراطور، المرجع نفسه.

الهيمنة " لنابليون بونابرت، احتجاجًا على الرّوح الاستبدادية للمؤسّسات الإمبراطوريّة، وفي رسالته "من فرنسي في مسألة السّلام"، انتقد معاهدة باريس، ممّا أدّى إلى خلاف مع (تاليران). خلال فترة المائة يوم رفض الذّهاب إلى غنت وذهب إلى إنكلترّا، ومنها عاد بعد معركة واترلو.

رئيس قسم الشّكاوى في مجلس الدّولة في 1815، عُيّن مفتّشا مفوّضا في غوادلوب ومارتينيك عام 1817، وبعد عودته اختاره السّيد دي سير[1] أمينًا عامًا لوزارة العدل، مسؤولًا عن شؤون الموظّفين والشّعبة المدنيّة. وبصفته عضوًا في لجنة التّشريع بمجلس الدّولة، فقد نأى بنفسه عن أي إجراءات رجعية متطرفة، وعارض سهولة إصدار المراسيم الدّينية. ونتيجة لذلك، عند وصول فيليال وبيروني[2] كُلِّف بمهمّة خاصّة. عهدَت وزارة البحريّة في عهد كليرمون تونير[3] إليه بإعداد تقارير متنوّعة، من بينها تقريرٌ من شأنه إعداد الأمر الصّادر سنة 1836 المتعلّق بالتّجارة الاستعماريّة، أعقب ذلك إنشاء المجلس الأعلى للتّجارة الاستعماريّة. في عام 1828، ترشّح عن المعارضة اللّيبرالية في باريس[4]، وفي نهاية ذلك العام، عُيّن مفوّضا للتفاوض مع حكومة هايتي. وقد أسفر ذلك عن معاهدة لم يصادق عليها الرّئيس (بويي).

عندما قرّر (كازيمير بيريه) إنشاء إدارة مدنيّة في الجزائر، وقع اختياره على البارون (بيشون)، على الأرجح بناءً على توصية البارون لويس[5] والأميرال دي ريني[6]. لم يقبل المنصب إلّا بعد تردّد طويل والأسباب التي ذكرها تُظهر الحالة الذّهنية التي وصل بها إلى الجزائر.

"بعد عودتي قبل نحو عام من مهمّة دبلوماسية مرهقة إلى (سان دومينغو)، والتي أضرت بشؤوني الشّخصيّة ضرراً بالغاً، لم أكن أرغب في عبور البحار مجدّداً. علاوة على ذلك، فقد عانيت منذ زمن طويل خلال مهمّتين سياسيّتين إلى سويسرا وهولندا، وخلال ثلاث سنوات من الخدمة في وستفاليا، من جميع مساوئ أن تكون قائداً مدنياً أو سياسياً في بلد يخضع لحكم عسكري... لذلك، لم أكن أرغب إطلاقاً في المخاطرة بهذا الوضع مرّة أخرى... وأخيراً، كنت بعيداً كلّ البعد عن شؤون الجزائر".[7] السّبب الوحيد الذي دفعه إلى القبول هو أنّ الرّفض يمكن تفسيره على أنّه استقالة من واجباته كعضو مجلس الدّولة والذي يُزعم أنّه تسبب في فقدانه لمزايا خدمته السّابقة.[8]

1- دي سير، وزير العدل (فبراير 1820- فبراير 1831).

2- وزارة فيليل (ديسمبر 1821- يناير 1898).

3- دي كليرمون تونير، وزير البحريّة (ديسمبر 1821-1823).

4- كان قد ترشّح بالفعل في انتخابات عام 1815. انظر: المذكرة التي قدّمها السّيد بيشون إلى النّاخبين، يعرض فيها نفسه كمرشّح في الانتخابات المقبلة. باريس، 1 أغسطس 1815، بدون تاريخ. خطاب من السّيد بيشون، المستشار الفخري للدّولة، إلى ناخبي كلّية مقاطعة السّين (موقع من ل. أ. بيشون [20 نوفمبر 1827]). باريس، بورثمان، بدون تاريخ. خطاب من السّيد بيشون، المستشار الفخري للدّولة، إلى ناخبي كلّية الدّائرة الثّانية في السّين [25 يناير 1828]. باريس، بورثمان، (بدون تاريخ).

5- وزير المالية، من 13 مارس 1831 إلى 11 أكتوبر 1832.

6- وزير البحريّة، من 13 مارس إلى 4 أبريل 1831.

7- بيشون، المرجع السّابق، ص36.

8- المرجع نفسه، ص37.

شخصيّة قويّة لا تتزعزع، تتّسم بصراحة تدفعه لقول ما يعتقد أنّه الحقيقة على حساب مصالحه الخاصّة؛ عقل واقعي، مقاوم للأحكام المتسرّعة؛ يحترم القانون، عدو للاستبداد النّابليوني والرّجعية البوربونية على حدّ سواء، بعد أن عانى من كليهما: من الأخيرة، التي لم تدّخر جهداً في مضايقته، ومن الأولى، التي طردته بوحشيّة، وصل هذا الموظّف المدني، الملمّ بشؤون الإدارة والاستعمار على حدّ سواء والذي حقّق مسيرته المهنيّة بشرف، إلى الجزائر وهو مشبع بعمق بكرامة الإدارة وتفوقها على المسيرة العسكريّة: "فليكتفِ السّلاح بغايته، وقد تعزّزت هذه الغاية بفضل مزايا عديدة، بغض النّظر عن المجد. ولكن ليُعترف بأنّ طبيعة هذه المهنة، حيث ينشغل الإنسان منذ بدايتها وطوال مسيرتها بتشكيلات القوّة فقط، لا تسمح له بالخضوع لمتطلّبات الإدارة والعدالة الشّاقة والمُجادلة. فلو كان الجندي مُؤهّلاً لذلك لكان عليه أن يترك السّلاح".[1] تنبع أفكاره حول الشّؤون الاستعماريّة من تأكيد هذا التّناقض.

في مذكّرة[2] موجّهة إلى رئيس المجلس[3]، دراسة مؤسّسة الإداريّين المدنيّين في الدّول المتّحدة تحت الحكم الإمبراطوري -بيدمونت، توسكّانا، المقاطعات الإيليرية، هولندا- يثبت أنّ التّبعية التي وجد هؤلاء المسؤولون أنفسهم فيها، مسؤول الخزانة العامّة، مدير الشّرطة أو المفتّش العام للماليّة أو الداخليّة تجاه الحكّام أو القادة العامين، تؤدي إلى هيمنة القوّة العسكريّة، غير القادرة بطبيعتها على الإدارة، وهذا يضرّ بالبلاد ضرراً بالغاً. في هذا الوضع، الذي اعتبره شرّيراً، قارن بين مؤسّسة المحافظين الاستعماريّين، التّابعة للقنصليّة، وهو اسم جديد لمديري المستعمرات القديمة، المسؤولين حصرياً عن الإدارة المدنيّة والأمن العالي في المستعمرة (جمع الاشتراكات، والمحاسبة، والجمارك، ودفع رواتب القوّات وصيانتها) والذين يتمتّعون بالسّلطة الوحيدة لوضع لوائح مؤقتة في المسائل التي تقع ضمن اختصاصهم ولهم الحق في ترشيح المسؤولين.

إنّ استقلال السّلطة المدنيّة عن المؤسّسة العسكريّة، التي تُعدّ ثقلها الموازن، هو، في رأي (بيشون) سبب ازدهار الإمبراطوريّة الاستعماريّة في ظلّ النّظام القديم. "لقد دَينت مستعمراتنا بازدهارها لحماية هذه المؤسّسة، منذ نشأتها وحتى قيام الثّورة، ولم يُقل قط، قبل عام 1789، أنّ الفرنسيّين لم يكونوا يعرفون كيف يستعمرون[4]..." "...لو لم يمت السّيد بينيزي[5]، الحاكم الاستعماري في (سان دومينغو)، موتًا مبكّرا، فأنا على يقين من أنّ الجنرال لوكلير ما كان ليجد نفسه منغمسًا في هذا المسار من التّعسف

1- بيشون، مرجع سابق. المرجع السّابق، ص.36-37.

2- "ملاحظة حول الإداريين المدنيّين، والمشرفين العامين، والمشرفين في البلدان المتحدة تحت الحكومة الإمبراطورية. 11 نوفمبر 1831. "أرشيف الامّة (F 80-4)".

3- هذه الملاحظة غير موقّعة، ولكن هناك تشابه كبير بين الأفكار المعبر عنها فيها والمصطلحات المستخدمة وبعض المقاطع في عمل (بيشون) بحيث لا يوجد شك في أنّه مؤلّف هذه الملاحظة.

4- بيشون، المرجع السّابق، ص38.

5- بينتشيك (بيير)، مالك شركة Petites Affiches، وزير الداخليّة (3 نوفمبر 1795- 16 يوليو 1797)، رافق لوكلير بصفته حاكمًا استعماريًا إلى سانت دومينغو، حيث توفي عام 1802، عن عمر يناهز 27 عامًا.

والعنف. في مصر، كان السّيد (بوسيلغ)[1]، الذي كان المشرف تقريبا، وهو عملياً الشّخص الوحيد الذي اطّلع الحكومة على حقيقة الأوضاع[2]..."علاوة على ذلك، كان هذا الشّكل من الحكم بواسطة المندوبين والحكّام تطبيقًا لمّا كان سائدًا في المقاطعات منذ عهد لويس الثّالث عشر نتيجةً لإنشاء المندوبيّات. ومن المعروف أنّ الازدهار الدّاخلي لفرنسا لم يبدأ إلّا منذ إنشاء هذه المناصب، بعد أن كان يعيقه نفوذ الحكّام".[3]

إنّ هذه المقارنة بين مستعمرة قديمة، أو مقاطعة فرنسيّة في نهاية تطوّرها الإداري، ومؤسّسة بالكاد بدأت غزواتها، ستكون مفاجئة لولا أنّها توضّح فكر المؤلّف. فبما أنّ حكام النّظام القديم قد استولوا على جميع السّلطات الفعليّة على حساب الحكام، فإن تعيين مسؤول مماثل في الجزائر العاصمة كان من المحتّم أن يستتبع نفس الصلاحيّات. وهذا يعيدنا إلى نيّة كازيمير-بيريي الأصليّة: إبعاد القيادة السّياسية للجزائر عن القيادة العسكريّة.

اعتقد (بيشون) أنّ عجز فرنسا عن تحقيق تغيير دائم نابع من التّخلي عن التّشريعات الاستعماريّة القديمة. وكتب في بداية كتابه: "قبل كلّ شيء، دعونا نسعى جاهدين لضمان إلّا يترك لنا غزو الجزائر مثل العديد من مشاريعنا على مدى الأربعين عامًا الماضية، سوى دمار يفيد الآخرين وعلى حسابنا[4]". هذا التّشاؤم لا تمليه اعتبارات تاريخيّة فحسب. فقد تأثّر (بيشون) دائمًا بذكرى النّهاية المأساوية لاحتلالنا في (سان دومينغو)، والتي شهدها في بداية مسيرته المهنيّة. "... أوقات عصيبة... في الولايات المتّحدة، حيث كنت أحوم فوق مسرح الرّعب هذا[5]...ظلّت هذه الذّكرى تطارده في الجزائر: "...عندما رأيت، خلال رحلاتي مواقعنا الأماميّة المحميّة بحصونها الصّغيرة المحصّنة، والواقعة مقابل بلدان جميلة وواسعة لم نكن نستطيع دخولها إلّا في كتائب، تذكّرت (سان دومينغو)..." وأضاف: "...لم يكن بوسعي إلّا أنّ أتأثّر بشدة لوجودي بين الجزائر و(سانت دومينغو) نقطة تشابه أخرى[6]... اعتبر أخيرًا أن مشاريع فرنسا في أفريقيا محكوم عليها بالفشل: "يبدو أنّ المصير المحتوم يلازم جميع المحاولات العسكريّة الفرنسيّة في أفريقيا. ذهب أحد ملوكنا العظام، القدّيس لويس، إلى تونس ليلقى حتفه. وكان من قدر أحفاده، بعد ستّة قرون أن يفقدوا التّاج تقريبًا في اللّحظة التي رُفعت فيها أعلامهمّ على حصون الجزائر، ومن كوارث الحملة المصرية جاءنا معلم قبل اثنين وثلاثين عامًا".[7] وهكذا وصل (بيشون) إلى الجزائر وهو يفتقر إلى الثّقة

1- بوسيلغ (ج. ب.)، إداري (1774-1845)، مفوّض الإيرادات الوطنيّة عام 1794، مدير الجيش في مصر. وبهذه الصّفة، كتب عدّة مرات إلى مجلس الإدارة للشكوى من الإهمال الذي تركه القائد العامّ للجيش، ممّا أثار استياء بونابرت.

2- بيشون، مرجع سابق. المرجع السّابق، ص39-40.

3- تم الاستشهاد بالملاحظة.

4- بيشون، المرجع السّابق، صxi.

5- المرجع نفسه، ص106-107.

6- بيشون، المرجع السّابق، ص106.

7- المرجع نفسه، ص4.

بمستقبل المستعمرة الوليدة. ولم تُسهم الخلافات التي نشأت بينه وبين القائد العامّ منذ البداية، وفي جميع المسائل، في تفاقم هذا القلق.

لم يكن من الممكن اختيار متعاونين أكثر اختلافًا. فخلفيّة الجنرال دي سافاري، (دوق روفيگو) معروفة بما يكفي لتبرير استعراض مسيرته. أمّا الجمع بين الحامي والضّحية، الشّاعر الجاسوس (إزمينار)، في مشروع مشترك، فهو أمرٌ مثيرٌ للسخرية بلا شكّ. أحدهما يمثّل الرّوح اللّيبرالية، عدوّ القيصرية ومضطهدٌ منها؛ والآخر يُجسد الاستبداد النّابليوني في أبشع صوره.

احتفظ وزير الشّرطة السّابق ببعض مهامّه ولم يُبدِ اهتمامًا يُذكر بالإجراءات القانونيّة، ولم يُعر أي اهتمام يُذكر لاختيار الوسائل المُستخدمة. كانت لديه أيضًا أفكاره الخاصّة حول مسائل الإدارة والتيكانت مُغايرة تمامًا لأفكار المُدير المدني. اعتقد أن خسارة مُستعمراتنا كانت "نتيجة لسوء الفهم الذي نشأ بين فروع الإدارة المُختلفة وضبّاط الجيش". بالنّسبة له، "يجب أن تكون الإدارة المدنيّة تحت حماية الجيش"، ولذلك أكّد على تبعيّة الأولى للثّانية. أقرّ، في الحقيقة، "بأنّهما بحاجة ماسّة لبعضهما البعض" لكنّه أضاف على الفور، "أنّهما يجب أن يُدارَا من قِبل جهة واحدة[1]". لم يُحدّد هذه الجهة، ولكن يُمكن فهمها على أنّها الجهة التي تحمل السّيف.

ليس المقصود أن يكون قائد الجيش هو نفسه رئيس الإدارة. كتب بعد أولى مواجهاته مع (بيشون): "أرجوكم إلّا تجمعوا بين السّلطتين المدنيّة والعسكريّة. ستسير الأمور على ما يرام لو كان جميع رؤساء الأجهزة تحت إدارة مفوّض عام يعرض عمل كلّ فرد على الحاكم للموافقة عليه... كما كان متبعًا في إيليريا وفي العديد من المقاطعات الأجنبيّة الأخرى التي احتلتها فرنسا في ظلّ الإمبراطوريّة[2]...". وبعد ذلك بقليل: "إن إنشاء سلطة مدنيّة مشروع مدروس جيدًا يصب في مصلحة تقدّم الحضارة، لكن التّجربة اليوميّة لتطبيق هذا المبدأ تثبت أن هذه السّلطة المدنيّة نفسها يجب أن تخضع للعمل العسكري الذي يحميها... باختصار، ربما نعود لاحقًا، ولكن بالتّأكيد، إلى تنظيم حكومة إيليريا."...[3] وهذا، سواء من وجهة نظري الشّخصيّة أم كمثال تاريخي تمّ الاستشهاد به، هو النّقيض التّام لأفكار البارون (بيشون).

في الجزائر العاصمة نفسها، يتناقض حماسه مع تحفّظ زميله المتشائم. وقبل مغادرته، يفيض بالأمل قائلاً: "أرى موارد هائلة في الجزائر. سأذهب إلى هناك بكلّ سرور؛ فأنا أحبّ البلد، والمناخ والنّاس[4]" "وبمجرّد وصوله قال: "هذا هو اليوم الثّاني عشر الذي أمضيته في الجزائر وأشعر بثقتي تتزايد في النّجاح الذي آمل تحقيقه في هذا البلد؛ وضعنا السّياسي يمنحني أفضل الآمال".[5] بين هذين الرّجلين اللّذين اختلفا اختلافاً تاماً، كانت هناك سمة مشتركة واحدة فقط: عناد متساوٍ، مع مزيد من البرودة لدى

1- رسالة إلى رئيس المجلس، 29 أكتوبر 1831. (محفوظات الحرب).

2- رسالة إلى سولت وبيريي، 5 مارس 1832) محفوظات الحكومة العامة (E 47 وE Er).

3- نفس الشّيء في بيريه، 26 مارس 1832 (المرجع نفسه).

4- نفس الشّيء إلى نفس الشّيء، 29 أكتوبر 1831 (أرشيف الحرب).

5- نفس الشّيء في سولت وفي بيري، 3 يناير 1832 Arch. Gouv. Gen. B (47 وE 1).

(بيشون)، ومزيد من الاندفاع لدى روفيگو. هل تمّ تزويدهم على الأقلّ بتعليمات دقيقة تحدّد بوضوح واجباتهم وحقوقهم؟ كلّا على الإطلاق.

الأمر المؤرّخ في 1 ديسمبر 1831 ينصّ على:

المادّة الأولى: يتمّ تكليف مدير مدني، يخضع للأوامر المباشرة لرئيس المجلس، بتوجيه وإشراف جميع الخدمات المدنيّة في الجزائر العاصمة؛ وكذلك جميع الخدمات الماليّة، سواء من حيث الأموال أم المواد، وكذلك إدارة العدالة.[1]

لكن من جهة أخرى، نصّ الأمر الصّادر في 6 ديسمبر على ما يلي:

المادّة 2: يتولّى القائد العامّ للقوّات المسلحة مسؤوليّة حفظ وتأمين وحماية الممتلكات الفرنسيّة في أفريقيا. وستخضع التّدابير السّياسية والأمنية رفيعة المستوى لسلطته.[2] السّياسة، والشّرطة العليا وعدم دقّة هذه الكلمات سيسمح بجميع أنواع التّجاوزات. وكما يقول (بيشون) بحقّ: "بإعطاء السّلطة حصراً للقائد العام وهو وحده من يتحمّل هذه المسؤوليّات؛ فجميع السّلطات المدنيّة، الصّغيرة منها والكبيرة كانت تحت تصرفه".[3]

أدرك رئيس المجلس أن هذه المصطلحات المبهمة والمتناقضة ستكون حتماً مصدراً للصّراع الدّائم. في ديسمبر 1831 أعلن لروفيگو و(بيشون) إرسال تعليمات "تهدف إلى توضيح المسؤوليّات الخاصّة بكلّ منكما، وتلك التي يجب ممارستها بشكل مشترك نظرًا لطبيعتها المختلطة، وذلك بتفاصيل كان من السّابق لأوانه إدراجها في المرسوم. وبانتظار هذه التّعليمات، يعوّل الملك بما يكفي على خبرتكما المشتركة وعلى حماستكما للصّالح العام ولخدمته، آملًا إلّا تنشأ أي نزاعات قد تُخلّ بالوئام الذي لا يمكن أن يزول بينكما دون الإضرار بمصلحة الأمور".[4] لم تُرسل هذه التّعليمات قط. ومع ذلك، لم يكن بوسع الحكومة أن تتوقّع اتفاقاً تاماً بين المتعاونين. فما عُرف عن ماضيهما وشخصيّتيهما وأفكارهما أظهر عبثية الأمل في أن يقدّم أي منهما أي تنازلات.

في الواقع، تكمن القصة الكاملة لهذه الأشهر الخمسة من الإدارة المدنيّة في الصّراعات التي نشأت منذ البداية بين القائد العامّ والمفوّض. إن وصفها بالتّفصيل سيجعل هذه المقالة طويلة بشكل غير مبرر.[5] ستكفي بعض الحقائق لإظهار أن هذه الصّراعات نشأت من عدم وجود فصل بين السّلطات، والذي تفاقم بسبب التّناقض المطلق الذي كان قائماً بين الرّجلين اللّذين يمثلان السّلطة العسكريّة والمدنيّة.

1- مونيتور يونيفرسال، 1831، ص.2379.

2- هذا الأمر غير موجود في Moniteur Universel. يمكن العثور على النّصّ في MÉNERVILLE، Dictionnaire de la Législation Algérienne، ص.6.

3- بيشون، المرجع السّابق، ص18.

4- الأرشيف الوطني. F 80 4.

5- سيتمّ نشر تاريخ قيادة دوق روفيگو في الجزائر قريباً.

بعد وصوله بفترة وجيزة، استقبل (دوق روفيگو) رجلاً من (Maure/المور)، كان يبكي ويشكو من اختطاف زوجته على يد فرنسي. كان الخاطف قاضياً شاباً، كان سابقاً مراقباً للمسرح، يُدعى كولومبون. أمر الدّوق على الفور بسجنه وإرساله على متن سفينة متّجهة إلى فرنسا. صرّح البارون (بيشون) قائلاً: "هذا اغتصاب للصلاحيّات، إذ أنّ الأمر يتعلّق بموظّف مدني لا يخضع إلّا للمسؤوليّة أمام المفتّش العام". فأجابه القائد العامّ: "على الإطلاق، هذه مسألة تتعلّق بسلطة الشّرطة العليا، وهي من صميم اختصاصي".

بعد شغور منصبي رئيس المزابيين ورئيس الصّيادين، تولّى روفيگو بنفسه هذين المنصبين. - وردت شكّ اوى من المسؤول المدني، الذي اعتبر كلّ ما يتعلّق بالنّقابات ضمن اختصاصه. - وجاء الرّد: موافق. لكن لرئيس المزابيين نفوذ على أتباعه، ويمكن للصيّادين أن يكونوا جواسيس العدوّ. لذا فإنّ هذه التّعيينات مسألة سياسيّة.

ألغت الحكومة الضّريبة المفروضة على مدينة الجزائر لتوفير الفراش اللّازم للجيش. (دوق روفيگو) الغاضب أصلاً من البارون (بيشون) لمعارضته هذا الإجراء، أصدر مرسوماً يقضي بعدم استرداد الأموال إلّا بعد تنظيف المدينة تنظيفاً شاملاً يضمن سلامة الجميع من النّاحية الصّحية. - "لكن هذه مسألة نظافة عامّة، مسألة مدنيّة بامتياز"، هكذا احتجّ المسؤول.

ردّ القائد العامّ قائلاً: "هذا إجراءٌ حتميٌّ من إجراءات الشّرطة رفيعة المستوى، وبالتّالي يقع ضمن اختصاصي". وبالمثل، بادر بإغلاق الملاهي اللّيلية لأنّها كانت مكتظّة بالجنود. وهدّد المومسات بالتّرحيل، بلا شكّ بسبب زبائنهن العسكريّين، وتواصل مباشرةً مع رؤساء الدّوائر الحكوميّة بشأن مسائل تخص تلك الدّوائر، وما إلى ذلك، حتى جُرّد المفوّض من جميع صلاحيّاته. من جهة أخرى، أدان (بيشون)، الرّجل الملتزم بالقانون، علنًا إساءة استخدام المصادرة التي بدأت منذ بداية الغزو؛ واحتجّ على مذبحة العوفية وإعدام زعيمهمّ. عندما أدانت محكمة عسكريّة جنديّين بالإعدام بتهمة الفرار إلى العدوّ، اعترض مسؤول التّموين قائلاً: "إنّ إعلان الفرار إلى العدو، والفرار إلى القبائل المجاورة في المواقع الأماميّة، يُعلننا في حالة حرب مع جميع القبائل"[1]. أنّه يتردّد في الاستيلاء على الأراضي التي أُعلن أنّها مملوكة للدّولة، من أجل تسليمها للاستعمار، قبل أن يتأكّد من أنّه لا يمكن المطالبة بها بشكل شرعي.

أثارت هذه الشّكوك، التي تُنسب بالكامل إلى البارون (بيشون)، حفيظة (دوق روفيگو). فبتركيزه التّام على جودة الهدف المنشود، لم يُعر اهتمامًا يُذكر لطبيعة الوسائل. بل ذهب إلى حدّ وصف المندوب بأنّه عدوّ للاستعمار، وخاضع لهذه "اللّجنة المغربيّة"، التي يُزعم أن أحد قادتها كان القنصل الإنگليزي وبأنّه يُروّج بين العرب لفكرة رحيل الفرنسيّين وإقامة حكومة محلّية في الجزائر.

1- بيشون إلى بيريي. 4 مايو 1832 (الأرشيف الحكومي E 82).

وممّا زاد من تأجيج هذا النّفور، أنّ الصّحف الفرنسيّة نشرت مراسلات من الجزائر تنتقد بشكل منهجي تصرّفات وتصريحات المندوب، وهو أمر ليس مفاجئاً، لأنّ هذه المراسلات جاءت من حاشية (دوق روفيگو).

لم تكن هذه الدّائرة، التي لا تزال مجهولة نسبيًّا وتستحقّ تسليط الضّوء عليها، مدفوعةً فقط بحبٍّ خالص للخدمة العامّة. فقد عرضت الإدارة المدنيّة عددًا من المناصب المريحة، ولم يكن رئيس هذه الإدارة مقتنعًا بضرورة استحداث وظائف معيّنة.

عند وصوله إلى الجزائر، كتب (دوق روفيگو) إلى وزير الحرب: "هناك عدد كافٍ من الموظّفين الإداريّين هنا لمملكة صغيرة لا نحتلّ منها سوى العاصمة، ولا أفهم كيف يمكن لهؤلاء السّادة أن يشغلوا أنفسهم لمدّة ساعة واحدة في اليوم".[1]

هؤلاء المسؤولون[2]، الذين اعتبر عددهم مفرطا في بداية عام 1882، يعود تاريخهم جميعًا تقريبًا إلى القيادة الأولى للجنرال (كلاوزيل). كان هؤلاء ثلاثة محقّقين، هم (فوجيرو)، و(ديسكايون)، و(كاديت دو فو)، أعضاء في اللّجنة التي أُرسلت للتّحقيق في اختفاء كنوز القصبة بعد سقوط الجزائر. ورغم أنّ اللّجنة فشلت في نهاية المطاف في إصدار تقرير يُدينها بالتّقاعس عن تحقيق هدفها الرّئيسي، إلّا أنّها نجحت على الأقلّ في تأمين مناصب لبعض أعضائها. ومن الطّبيعي أن يتولّى مفتّش الماليّة (فوجيرو) منصب المفتّش في الجزائر. وانطلاقًا من ثقته الكبيرة بمستقبل المستعمرة الجديدة، أنفق بسخاء مبالغ متواضعة على شراء عقارات شاسعة.

كان موريس (ديسكايون)، في عام 1823، رئيسًا للشّرطة على حدود جبال (البرانس). وفي أكتوبر 1830، اكتشف موهبة خاصّة في شؤون الجمارك، وأصبح بطبيعة الحال مديرًا لتلك الخدمة. وقد واجه بعض (الظّروف المؤسفة) والدّيون تجاه التّجار في المدينة، وعلاقته النّشطة للغاية مع حاكم (كاتالونيا) أثارت انتباه الجنرال (ريرلزين). وفي أغسطس 1837، تمّ استبداله برجل محترف، وهو مفتّش الجمارك (فيرلينغ)، الذي، بحكم معرفته بعمله، أعاد تشغيل الخدمة بسرعة.

عند عودته إلى فرنسا، كان (ديسكايون) يعاني من غموض مستمرّ بسبب قرابته كابن عم السّيد (دوبرات)، نائب (تارن) و(غارون)، وكونه من المقرّبين لـ(ديكاز)[3]. وقد رشّح لمنصب المفوّض العام للشّرطة المُستحدّث في الجزائر العاصمة عند وصول (دوق روفيگو). إلّا أنّ هناك تردّدا بشأن "استدعائه الفوري إلى الجزائر لشغل منصب رفيع، وهو رجلٌ فُصل لتوّه من منصبه السّابق لأسباب مُشينة". فأرسله البارون (بيشون) إلى وهران نائبا مدنيًّا.

1- رسالة من روفيگو إلى غير، بتاريخ 30 يناير 1838. (أرشيف الحكومة العامة، المجلّد 1).

2- ما يلي مكتوب، ما لم يُذكر خلاف ذلك، من ملفات الموظّفين. (أرشيف التّاريخ الوطني، المجلّد 80127 وما يليه).

3- وزير الشّرطة العامة (36 سبتمبر 1815- 39 ديسمبر 1818)، ووزير الداخليّة حتى 10 نوفمبر 1819؛ رئيس المجلس حتى 10 فبراير 1830؛ سفير إلى لندن حتى ديسمبر 1821.

كان (بنجامين كاديه دي فو)، ابن الكيميائي، مستوطناً قديماً من (سان دومينغو)، حيث أدّت مغامراته المؤسفة إلى إفلاسه. بعد عودته إلى أوروبّا، وجد وظيفة في بروكسل، في إدارة ماليّة، فقدها مع سقوط الإمبراطوريّة. عيّنه كلاوزيل مفوّضاً ملكياً لبلدية الجزائر.

كان هناك مترجمان، بروسبير جيرار و.لوس! لوكسروا؛ الأوّل بنى مسيرته المهنيّة في السّنغال. كان عميلاً حكومياً في باكل عندما تقرّر القيام برحلة إلى الجزائر. أرسلته وزارة بوليني إلى تونس لجمع معلومات عن الوصاية. وبعد سقوط الجزائر مباشرةً، عُيّن مترجمًا للجيش أوّلا، ثمّ أمينًا للأرشيف الحكومي. وقد استمرّ في أداء هذه المهام لمدّة ستّة أسابيع حين اكتشف موهبته في إدارة العقارات عندما تمّ استحداث هذا المنصب. واجه (جيراردان) بعض الصّعوبات في مسيرته المهنيّة الجديدة، فقدم استقالته إلى المفتّش المدني؛ وكان الأخير سيقبلها بسهولة لولا صعوبة إيجاد بديل لرجل، يفتقر إلى مزايا أخرى، ولكنّه يتميّز بإتقان اللّغة العربيّة.

كان لوكسيروا، وهو طالب سابق في مدرسة اللّغات الشّرقيّة، منذ عام 1817، يعمل باستمرار في الشّرق مترجما أو مسؤولا قنصليًّا في القسطنطينية وموانئ بلاد الشّام. وكان مترجمًا للّغة التّركية في القنصليّة الفرنسيّة في بونة عندما تمّ إلحاقه، في 2 أبريل 1830، مترجما للّغة التّركية بالجيش الاستكشافي في أفريقيا، ومن خلاله تمّت المعاملات الرّئيسية بين الجنرال (دي بورمونت) والأتراك. في نوفمبر 1831 أصبح مفوّضاً للشّرطة في الجزائر.

انضمّ إلى هؤلاء المسؤولين الموجودين بالفعل أولئك الذين أحضرهم البارون (بيشون) معه. قال: "رفضتُ جميع الطّلبات التي قُدّمت لي في باريس، ولم آخذ معي سوى الأشخاص الخمسة الملحقين بمكتبي، ودفعتُ رواتبهم من نفقات مكتبي[1]." وأضاف: "أحدهم، وهو أقدمهمّ، السّيد لاموت، شغلتُ هذا المنصب إرضاءً للسّيد دي رينفال[2]، الذي وظّفه لفترة طويلة، وكذلك السّيد دي بورتاي[3]، كناسخ؛ فهو لا يُجيد شيئا آخر. وظّفته لإرضاء السّيد دي رينفال، الذي كان يعمل لديه؛ لا أستفيد منه كثيرًا، ولا أمانع لو اصطحبه السّيد دي رينفال معه في سفارته."

أمّا الذي سيأتي بعده، السّيد كورون، فهو ناسخ استعنتُ به بناءً على توصيةٍ قويّة من السّيد دي غلاسون. أنّه قبطان سفينة تجاريّة سابقٌ لا يزال يحتفظ ببعض عادات الدّولة التي تضرّ بالاجتهاد، ولكنّه أمين، وسأجد قريباً مساعدةً من ابني الشّاب. ثمّ لديّ شابان آخران، أحدهما الشّاب (لابورت)، ابن القنصل في طنجة، وهو مترجمي الوحيد، ولا يسعني إلّا أنّ أثني على أمانته ولطفه ونزاهته. وأخيرًا، لديّ شاب في عمر ابني، وزميله في المدرسة الذي اصطحبته معي إلى (سان دومينغو) قبل عامين، شاب واعد لكنّه لا يستطيع في هذه المرحلة إلّا تسريع الأمور.

1- بيشون، المرجع السّابق، ص42.

2- جيرار دي رينفال (ج. م.)، نائب وزير الخارجيّة، من 17 أكتوبر 1820 إلى 14 ديسمبر 1821؛ سفير لدى إسبانيا (1932-1836).

3- بورتاليس (ج. م.، كونت)، وكيل وزارة العدل، من 21 فبراير 1820 إلى 14 ديسمبر 1821؛ وزير العدل من 4 يناير 1828 إلى 14 مايو 1829.

"بعد هؤلاء الموظّفين الذين تحت رعايتي، لدي السّيد لواسي، الذي أهداني إيّاه أروس، والذي أشعر تجاهه بالرّضا أحياناً، وبالأسف أحياناً أخرى. أنّه مفيد جداً لي في الأرقام والمحاسبة؛ ولكن في هذا الشّاب تطغى العادات وحب التّجارة." لذا، فأنا بحاجة ماسّة إلى سكرتير إداري كفؤ. أرسلوا لي مدقّق حسابات لديه بعض الخبرة، أو سكرتيراً عاماً للمحافظة يفهم تعقيدات هذه الأمور...

"هناك حاجة ملحة لرئيس محكمة العدل ومدّعٍ عام. الشّخص الذي عيّنته يقوم بعمل جيّد[1]، لكن وجود رئيس ضروري للغاية. أرجوكم، أحثّكم على اختيار قاضٍ ذي خبرة ونضج ومعرفة. هذا هو الإجراء المناسب هنا، نظراً لطبيعة المحاكم المختلطة... لا تُرسلوا إلى هنا رجلاً ذا آراء متشدّدة، ولا محتاجاً، ولا مضارباً. فالوظائف هنا ليست إلّا وسيلة لتمويل المضاربة في الأراضي ومختلف الأعمال. احكموا على الملك من طريقة خدمته. أطلب منكم ببساطة تعيين شخص ثانٍ، قادر على القيام بمهامّ الشّخص الأوّل ومستلم للوثائق، وكلاهما من إدارة النّطاقات والتّسجيل. هذا الأمر مفيد، لكن سيتعيّن على هؤلاء الموظّفين إحضار جميع السّجلات معهم.[2] لم يكن من بين المرشّحين المختلفين الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصّبر في الجزائر نفسها، أن يجد المرء هؤلاء الموظّفين المدنيّين المحترفين.

إنّ المناصب الرّفيعة التي شغلها (دوق روفيگو) في ظلّ الإمبراطوريّة، بالإضافة إلى زواجه من الآنسة دي فودوا، أكسبته العديد من الصّداقات التي كانت متحفظّة إلى حدّ ما أثناء فترة حكمه. لم يتوان أولئك الذين سقطوا من عليائهم عن إظهار حضورهم بقوّة عندما أعادتهم الأقدار إلى مواقع السّلطة. فبين العديد من رفاقه في السّلاح، الذين كانوا يجرّون معاطفهم البالية التي ترمز إلى البطولة في ظلّ رتابة العمل بأجر زهيد، أعاد تعيين مستشار الإمبراطور في أفريقيا الأمل في مستقبل أفضل. وسرعان ما أنّهالتّ عليه الطّلبات.

كتب أحد قدامى المحاربين في الإمبراطوريّة، العقيد السّابق (غاسبار): "سيّدي الدّوق، أيّها العقيد السّابق غاسبار تيري، لقد تحقّقت أمنيتي الأشد، أنت الآن مرّة أخرى في منصب يليق بك وبفرنسا". "أعتبر إجراء الحكومة الحالية بمثابة تكريمٍ لذكرى الرّجل العظيم الذي منحكم صداقته وثقته الكاملة. أسأل الله أن يوفّقكم ويسدّد خطاكم، وأنّ يحفظ لكم ولأسرتكم الكريمة الرّخاء واليسر." "الآن قد يُسمح لي بالتّعبير عن أمنية أخرى، وهي أمنية شخصيّة بالنّسبة لي: أنّها أمل الانضمام إليكم سيّدي الجنرال فوراً لأقدم لكم دليلاً على إخلاصي التّام. ستكون هذه المرّة الخامسة التي ينقذ فيها كرمكم الذي لا ينضب رفيق سلاح سابق من المأزق الذي دفعه إليه التّعصب والضّغينة مراراً وتكراراً.

وفي الوقت نفسه، أرسل إلى رئيس المجلس "مذكّرة حول الموقف الخاطئ" الذي وجد نفسه فيه "بعد ثورة يوليو المجيدة". أنّها قصّة مؤسفة ومضحكة في آن واحد؛ أنّها قصّة العديد من جنود الإمبراطوريّة الذين انغمسوا فجأة في الكسل والحرية التّامة. بعد أن تمّ تخفيض راتبه إلى النصف عقب

1- السّيد هانتيفويل، المحامي في محكمة الاستئناف في باريس، تم تعيينه مدعيًا عامًا للملك في الجزائر، في 3 فبراير 1832.

2- رسالة إلى رئيس المجلس، مؤرخة في 31 مارس 1832 (أرشيفات كاونت. جنرال إي 82).

معركة واترلو، وجد العقيد غاسبار تيري نفسه "مجبراً بوحشيّة على قبول معاش التّقاعد الضّئيل" 1830 فرنكًا. ولأنّه لم يستطع فعل شيء، انخرط في "مضاربات شريفة"، وكانت نتيجتها كما هو متوقّع. "قلّة الخبرة من جهة، وأحداث كارثية غير متوقّعة من جهة أخرى" أدّت إلى انهيار أعماله.

في عام 1830، انخرط بكلّ حماس في الحركة، وتلقى "المهمّة الشّريفة المتمثّلة في ضمان أمن قصر رويال". وأرفق ببيأنّه عدّة نسخ مطبوعة من شهادة من لافاييت تفيد بأن "العقيد غاسبار تيري، المكلّف بالدّفاع عن موقع قصر روايال، قد أنجز هذه المهمّة على أكمل وجه". وأضاف، مع الأسف، "نجح بعض أفراد حاشية القصر، رغبةً منهم في إبعاد أحد رفاق الأمير السّابقين عن جيماب، في إقصائي من المنصب الذي كان من المفترض أن يضمن لي فيه الامتنان إلى الأبد، وذلك عن طريق التّشهير الصّريح". واختتم حديثه معرباً عن أمله في أن "رئيس المجلس المحترم للغاية" سيخرجه من الموقف الخاطئ" الذي ألقت به فيه "الإغفالات واللّامبالاة والنّسيان".

وقدّم عروضه للخدمة. ما الأمر الذي قد يكون أكثر إلحاحًا من استعمار أفريقيا؟ بالضّبط، كان كلّ شيء مُنظّمًا هنا - على الورق بالطّبع - في فيلق يعرف بالفيلق الأفريقي يتألّف من جنود مقاتلين وعمّال. كلّ شيء كان مخطّطا له، حتى القادة، بل وخاصّة القادة. فقد اختار هذا المرشّح لقيادة وهمّية ملازمه المدعوّ كريتلي[1]، مؤلّف مشروع استعمار عسكري.

ألا يروق لك الفيلق الأفريقي؟ إليك مقال آخر أكثر فائدة. ما رأيك في مشروع "ضخم" لشركة زراعيّة وتجاريّة وصناعية؟ على غرار شخصيّات بلزاك التي، بعد أن خسرت كلّ قرش، تتداول ملايين وهمّية، كان العقيد السّابق، الذي يكافح لتأمين معيشته، يُؤسّس شركات ماليّة، حيث كان المسهمون، وربما حتى المزارعين، غائبين تمامًا، لكنّهم كانوا يملكون اقتباسًا مناسبًا، مأخوذًا على ما يبدو من شيشرون:

"Omnium rerum ex quibus aliquid conquiritur, nihil est agriculluroe melius, nihil uberius, nihil dulcius, nihil homine dignius ".

لم تلقَ هذه المقترحات القيّمة أي ردّ، واستمرّ رجلنا، الذي لا يُنكر إصراره، في إرسال رسالة تلو الأخرى إلى "رئيس المجلس الموقّر والمحترم" أو إلى حاشيته. وقدّم نفسه - على أنّه الحجّة القاطعة - للسّيد (دومسنيل)، المحتجز في باريس لفترة وجيزة، والذي يُلقّب في المجتمع بالنّبيّ لتحقّق تنبّؤاته". ما الذي ينتظرونه لإرساله إلى الجزائر، حيث وجوده ضروري، بينما إقامته في باريس لا طائل منها؟ هل يتردّدون أمام هذه الخطط الطّموحة؟ على أيّ حال، فهو على أتمّ الاستعداد لتفقد مزارع الخيول التّابعة للوصاية والتي - تفصيل بسيط - هي غير موجودة، أو حتى لتنظيم الحرس الوطني في الجزائر.

لكنّه يتلقّى "أدلّة ملموسة" على لطف الوزير والامتنان له "لإحباط المخطّطات الخبيثة" و"حماية الأشرار الذين يجرؤون على التّآمر ضدّ حمايته، الذي ستضمن مشاعره النّبيلة وشخصيّته العظيمة ازدهار فرنسا الجميلة". وأخيرًا، بعد أن حضر عدّة مرات "لتلقّي الأوامر من الوزير"، الذي رفض بإصرار

1- تم توريط الملازم كريتلي في مؤامرة باريس (19 أغسطس 1820).

إعطاءها له، تلقّاها في 18 فبراير 1832 مُنح تصريحًا بالمرور عبر الجزائر العاصمة و500 فرنكًا. ولم يحصل على أي شيء آخر سوى حصص الطّعام التي منحها له (دوق روفيگو). ورداً على جميع طلبات إعادة تعيين العقيد السّابق غاسبار تيري، اكتفى الوزير بالإشارة إلى اللّوائح.

أشار متقدّم آخر، السّيد (هاملين)، شقيق كونتيسة بوندي، إلى هذه الصّلة العائليّة ودعم السّيد مول. تعود علاقاته بـ(روفيگو) إلى الحملة المصريّة؛ وربما شغل منصباً ما في الإدارة الجديدة للبلاد[1]. يبدو أن ماضي هذا الرّجل كان مضطربًا للغاية، فما إن أحضره إلى الجزائر حتى كتب الدّوق إلى الوزير معترضًا مسبقًا على الافتراءات التي صورت (هاملين) على أنّه مضارب يسعى وراء صفقات تجاريّة[2]. سواء كان ذلك صوابًا أم خطأً، ففي كلّ مرّة يُطرح اسم (هاملين) لأيّ منصب عام، يثور الرّأي العام ضدّه. وها هو السّيد بيدو الآخر، أوصى به النّائب فاتو، أمين مكتبة الملك وصهر سولت، الكونت جول دي موروناي، والذي كان محل تبديد ثروة قدرها 100 ألف جنيه إسترليني في المعاشات التّقاعدية[3] -السّيد أمانتون الذي أقام في روسيا حيث واجه انتكاسات- لاحظ أن معظم هؤلاء المرشّحين للمناصب العامّة لم يكونوا قادرين على إدارة شؤونهم الخاصّة؛ -السّيد بودوان، الطّابع السّابق للدّستور؛ -السّيد كيب، المحامي في محكمة باريس والذي تمّ تكريمه في يوليو؛ السّيد فيسون الذي، لحسن حظه، لم يكن لديه، على ما يبدو، تاريخ حتى الآن؛ - السّيد كومبس، الذي أوصى به الدّكتور لانيير والذي ادّعى أنّه يقوم باستكشافات زراعيّة.

ومن حين لآخر، كانت الرّسائل، لحسن الحظّ غير متكرّرة، تجلب بعض المرشّحين الجدد لشغل وظائف تمّ استحداثها حديثاً. كتب البارون (بيشون): "وصل السّيد أوب من مو أمس برفقة السّيد بونيلي[4]، الذي أكّد لي أنّ الأخير وعده بإدارة مزرعة حكوميّة. كما أكّد لي أنّك ستراسلني لعرض هذا المنصب عليه. لا تفعل شيئا من هذا القبيل، إن كان ذلك ضروريًا بالفعل. ليس لدينا مثل هذا المنصب هنا. يبدو أنّ المزرعة النّموذجيّة الآن ليست سوى موقع عسكري، و(دوق روفيگو)، بسبب إفلاسه، يفكّر في إخلائها".[5]

كان بومونت-بريفازاك، محافظ الشّرطة السّابق في برشلونة خلال الاحتلال الإمبراطوري، أكثر سعادة بكثير[(6)]، قريب القائد العامّ، الذي وجد نفسه، بعد نزوله من السّفينة مباشرة، مفوّضاً للشّرطة ومنصب القاضي الملكي في بون. على الرّغم من أنّ الاستيلاء على هذه البلدة الأخيرة سمح لبيدولت بالبقاء في منصب نائب مدير مدني، ولم يكن أيّ منهما هو ولا بريفازاك يفهمان أي شيء عن المسائل القانونيّة

1- وفقًا لروفيگو، يُفترض أن هاملين هذا "فكّ فوّضى مالية صعيد مصر". ومع ذلك، سيبحث المرء عبثًا عن اسمه في كتاب بيروس، "مالية مصر خلال الاحتلال الفرنسي" المجلّة البريطانية، 1882، المجلّد الخامس، ص43 وما يليها.

2- روفيگو إلى سولت، 20 يناير 1832. (أرشيف الحرب).

3- "لقد عاش في جوّ مناقض تمامًا لمّا يليق بمسؤولٍ مستنير". بوير إلى الوزير، 25 سبتمبر 1832. (2) مؤلّف كتاب عادات الجزائر؛ النّساء اليهوديات والمغربيات. 1833، المجلّد 8. باريس.

4- مؤلّف كتاب عادات الجزائر؛ النّساء اليهوديات والمغربيات. 1833، حجم ثماني. باريس.

5- بيشون إلى بيريي، 1 فبراير 1832. الأرشيف الحكومي E .Gén 82..

6- كثيراً ما يُستشهد به في كتاب كونار، نابليون وكتالونيا. باريس، 1910، في الصّفحة 8.

لذلك كان لابدّ من تزويدهما بمستشار قضائي في شخص المحامي السّابق غيران تودوز، الذي تمّ تعيينه كاتبًا للمحكمة.

في وهران، ولشغور منصب القاضي الملكي، سارع (بيشون) إلى شغل المنصب في كيب تاون المذكورة آنفًا، ومنحه موت كادي ديفو، المفوّض الملكي لبلدية الجزائر، أملًا في تعيين (هاملين). لكن دون جدوى فقد كانت الاحتجاجات شديدة لدرجة أن روفيگو نفسه تردّد في توقيع التّعيين. في هذه الأثناء، وصل المحامي كوتين من باريس ومعه تفويضه.

"لا يزال لديّ السّيد (هاملين)، والسّيد أمانتون، والسّيد فيسون، والسّيد بودوان، والسّيد كومبس تحت تصرفي. أتمنى، مقابل أي شيء في العالم، إلّا أملك سلطة تعيين أي شخص في منصب؛ أنّه لأمر يائس"، هكذا صرخ (بيشون) التّعيس.[1] كانت المناصب الإداريّة نادرة للغاية؛ وظلّ الاستعمار مجالاً واسعاً مفتوحاً لجميع الأنشطة.

26 يناير 1832، اقترح القائد العامّ على المندوب إنشاء "وكالة استعماريّة تستلم من المنطقة الأراضي المخصصة للاستعمار، وتقسمها إلى قطع، وتدوّن حالة المستوطنين الذين وصلوا والذين سيصلون، وتوزع القطع عليهم، وتضمن قيامهمّ بزراعتها". وأضاف: "سأقترح عليك السّيد (هاملين)، الذي يتمّتع بالصّفات الخيرية اللّازمة لإدارة هذه العمليّة بشكل صحيح، فضلاً عن المعرفة التي تتطلّبها..."[2].

تمّ صدّ هذا الهجوم الأوّل بخسارة: "لم أستطع"، أجاب البارون (بيشون)، "أن أسمح لنفسي بمثل هذا الابتكار. في حدّ ذاته، أعتبره وسيطاً عديم الفائدة بين المستوطنين وإدارة ملاك الأراضي. ولن ينتج عنه سوى نتيجتين مؤكّدتين: التّكلفة والتّعقيدات."[3]

بدأ الاستعمار الجزائري في بداية 1832 بطريقة مبهمة إلى حدّ ما. في الجزائر، كان هناك على ما يبدو 685 مستوطنًا في فبراير، ولم يُدخر جهد لزيادة عددهم. لم يمر يوم دون تجنيد حرفي ما، طوعًا أو قسرًا وقد حُفظت رسائل احتجاج، ليتحوّل بذلك إلى مستوطن[4]. وهكذا شكّلت سريّة من المستوطنين قسرًا وخضعت لنظام عسكري تحت قيادة الكولونيل ديسباربيس. لم يكن يعرف ماذا يفعل بهؤلاء الرّجال. الذين لم توفّر لهم أرض ولا أدوات، لم يكن بوسعنا إلّا مراجعتها. كان بؤس هؤلاء الفقراء عظيماً، وقد أعلن المسؤول المدني بحقّ أنّه لا يمكن التّصرف في أي أرض دون التّأكّد أوّلاً من عدم وجود مالك شرعي يطالب بها، ومن ناحية أخرى، شكّلت العمّالة الأجنبيّة، برخصها، منافسة قويّة للعمّال الزّراعيين في أوروبّا.[5]

1- بيشون إلى بيربي، 26 أبريل 1832. الأرشيف الحكومي العام. E 82.

2- روفيغو بيشون. 26 يناير 1832. المرجع نفسه، E 47، نُشر في PICHON، المرجع نفسه، ص363.

3- بيشون في روفيغو، 31 يناير 1832. (المرجع نفسه) نُشر في المرجع نفسه، ص.364.

4- بيشون إلى بيربيه، 1 فبراير 1832. الأرشيف الحكومي العام. B 82

5- نفس الشّيء إلى نفس الشّيء، 18 فبراير 1832 (المرجع نفسه).

لم تستطع هذه الأسباب أن توقّف مستعمرينا. فقد سئموا من الاكتفاء بحصص الخبز واللّحم والعلف، التي لا تُغني عن المال. علاوة على ذلك، لم يكترثوا كثيرًا بأن استعمار البلاد لن يكون مطروحًا لفترة طويلة؛ أليس من الضّروري إنشاء إدارات للمستوطنين، وإدارات للاستعمار، وإدارات للزّراعة وإدارات للمزارع النّموذجيّة؟.[1] أثمرت مثابرتهم في النّهاية. وعلّق (بيشون) قائلاً: "أرى بوضوح أنّه سيكون من المستحيل عليّ إلّا أعين السّيد (هاملين) مديراً للاستعمار"[2]، ومع ذلك، حصل أمانتون على المنصب، بسبب عدم تفضيل الآخر.

قال (دوق روفيگو) في هذا الشّأن: "أعتقد أنّ السّيد (هاملين) ضحيّة مؤامرة دنيئة كان ينبغي على الأقلّ أن تحترم السّلام الذي جاء إلى هنا باحثًا عنه... أعتبره شخصيًا كفؤًا جدًا للاستخدام هنا، لكنّني أجده عالقًا في مرمى نيران العديد من المؤامرات لدرجة أنّني بدأت أشعر بالقلق..." وجاء في مذكّرة موجّهة إلى الوزارة: "نشعر بأننا مضطرّون إلى إضافة أنّ السّيد (هاملين) لا يحظى بسمعة طيّبة، وأنّ الرّأي العام، سواء كان ذلك صوابًا أم خطأً، غير مواتٍ له، وأنّ تعيينه في منصب يتطلّب منه أن يحظى بثقة السّلطات سيسهم في تشويه سمعتها."

لذلك تمّ تعيين أمانتون، واضطرّ (هاملين) إلى الاكتفاء بمبلغ 500 فرنك لتعويضه عن "عمله التّحضيري للاستعمار"؛ وهذا يشير إلى مذكّرات مختلفة كتبها، ولكنّها تستند على معلومات قدّمها، على ما يبدو، أمانتون المذكور.

ومن المفارقات أن أمنية البارون (بيشون)، التي نصّت على أن "تتيح الحكومة للعامّة الوصول إلى المعرفة التي تمتلكها، وأنّ تتوقّف عن السّماح بالهجرات غير المدروسة[3]"، قد تحقّقت على يد مدير الاستعمار الجديد. فبعد أن غمرت البلاد أعدادًا غفيرة من النّاس من مختلف الجنسيّات، والذين جذبتهم عروض مغرية إلى أفريقيا حيث لم يجدوا فرص عمل، اضطرّ أمانتون إلى نشر إعلان في الصّحف ينصّ على أنّه لن يُقبل في الجزائر إلّا "المستوطنون من الذين يستطيعون إثبات امتلاكهم لوسائل العيش لمدّة عام واحد، إذ لم تكن لدى الإدارة أيّة وسائل مساعدة سواء المال أم الطّعام[4]. في ظلّ هذه الظّروف، كان بإمكاننا الاستغناء عن مدير الاستعمار لفترة أطول.

إنّ تصرّفات الأعداد المتزايدة باستمرار من المرشّحين، فضلاً عن الحملات الصّحفية التي أظهروا من خلالها استياءهم من المسؤول المدني، دفعت الأخير، الذي أصبح وضعه لا يُطاق بسبب صراعاته مع القائد العامّ، إلى طلب إقالته. كتب في 24 من مايو 1832: "تلقيت هذا الصّباح رسالة من فرنسا وصحف تعلن عن عودتي الوشيكة إلى فرنسا؛ هذا هو أسعد شيء يمكن أن يحدّث لي."[5]

1- كانت هذه الوظائف تمثل رواتب تتراوح بين 6000 و7000 فرنكًا، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، ولكنّه يبدو أقل من ذلك اليوم.

2- نفس الشّيء إلى نفس الشّيء، (المرجع نفسه).

3- نفس الشّيء إلى نفس الشّيء، 18 فبراير 1832. الأرشيف الحكومي العام E 82.

4- جريدة الجزائر، 1 سبتمبر 1832، العدد 31.

5- بيشون إلى بيريي، 24 مايو 1832. الأرشيف الحكومي العام E. 82.

بحلول ذلك التّاريخ، كان كازيمير-بيريي قد توفي منذ ثمانية أيّام. وبغض النّظر عن أي ظروف أخرى، كان من المحتم أن يمثّل موته نهاية المؤسّسة التي أنشأها بنفسه. لم ينتظر سولت حتى وفاة رئيس الوزراء قبل أن يسلم زمام الأمور في الجزائر إلى المجهود الحربي. صدر مرسوم في 12 مايو 1832 يلغي ذلك المؤرّخ في 1 ديسمبر السّابق، وُضع مدير الشّؤون المدنيّة تحت أوامر القائد العامّ، وبذلك استُعيدت وحدة القيادة. إلّا أنّ هذا لم يمنع المدير الجديد، السّيد جنتي دي روسي[1]، من الانغماس في كلّ أشكال اغتصاب السّلطة الممكنة، دون أن يجد الدّوق روفيقو، المقتنع بسيادته على السّلطة المدنيّة، أي مبرر للنّقاش. وعلى حدّ تعبير شاهد مشكوك في موثوقيته، ترك البارون (بيشون) في الجزائر ذكرى "رجل يعلن عداءه للظّلم"[2].

وبعد عودته إلى فرنسا، استأنف منصبه في مجلس الدّولة كمستشار استثنائي حتى عام 1848 تاريخ توقّف هذه الخدمة، وتوفي في باريس في 10 سبتمبر 1854.[3] يعدّ كتابه "الجزائر تحت الحكم الفرنسي"، الذي نُشر عام 1833، بمثابة تبرير لإدارته في أفريقيا. ورغم أن أحكام المؤلّف القاسية على السّياسات المُتّبعة في الجزائر، سيّما فيما يتعلّق بالإدارة العسكريّة، قد تبدو مُبالغًا فيها، إلّا أنّ هذا العمل، بطبيعته، يُتيح التّحقّق من مراسلات (دوق روفيگو). علاوة على ذلك، ومن خلال الحقائق التي يذكرها والوثائق التي يُعيد نشرها، يقدّم إسهامًا مهمّا في تاريخ السّنوات الأولى للفتح.

تفاوتت مصائر الموظّفين المدنيّين الآخرين. استمرّ (هاملين)، حتى رحيل روفيگو، في البحث عن منصب حيث كان يُرفض طلبه دائمًا[4]. في وهران، دبّ الخلاف حتمًا بين ديسكالوم والجنرال بويي. حيث عُيّن نائبًا لبون، ومن هناك استُدعي في بداية عام 1833 بسبب إهماله المشبوه لمصالح الدّولة[5]. أمّا بيدو، الذي تبادل المنصب معه، فلم يترك في وهران سوى النّدم؛ ففي مارس 1833، جاء إلى فرنسا حيث سعى للحصول على منصب نائب حاكم. أمّا بومونت-بريفازاك، القاضي الملكي في بون، فقد وُصف بأنّه "يتمتّع بنشاط مؤسف"، واتهم بأنّه خصص بعض الأموال العامّة لغرض محدّد للغاية، تمّ عزله في نهاية عام 1833[6]. - تولّى فيسون أمانة النّيابة المدنيّة في وهران؛ وورد اسمه في عام 1843 كرئيس لبلدية بونة. لم يكن مفوّض الشّرطة جوست لوكسيروا على وفاق مع (دوق روفيگو)، الذي هدّده أكثر من مرّة بفصله من الدّرك.

1- جنتي دو بوسي، نائب القائد العسكري، رئيس قسم الطّلبات إلى مجلس الدّولة، والمدير المدني في الجزائر، من 12 مايو 1832 إلى 12 أغسطس 1834. مؤلّف كتاب "حول ترسيخ الفرنسيين في وصاية الجزائر ووسائل ضمان ازدهارها". باريس، 1835، مجلّدان.

2- بيليسي دي رينو. (الحوليات الأفريقيّة، الطّبعة الثّانية، ط1، ص23).

3- ابنه الثّاني، البارون (جيروم) بيشون، مدقق حسابات في مجلس الدّولة، ورئيس جمعية محبي الكتب، ولد في باريس عام 1822، وتوفي عام 1896، وترك وراءه سمعة محب للفن.

4- هاملين هو مؤلّف كتاب "ملاحظة عن الجزائر بقلم شاهد علماني". باريس، 1833، ص8.

5- "لقد أخذ السّيد ديسكالون على عاتقه منح تخفيض في حقوق صيد المرجان لأربعة صيادين من توسكّانا، والحصول مسبقًا على موافقة المسؤول المدني على هذا الإجراء، خلافًا لأحكام اللّوائح المتعلّقة بهذا الشّأن... تقرير إلى الوزير، 13 يناير 1833.

6- هو مؤلّف كتاب De l'Algérie et de sa colonisation باريس، 1834.

بعد رحيل هذا القائد الفظيع، تمكن من إشباع نزعته الجنسية في سلام، وانتهى به المطاف رئيسًا لقسم في وزارة الحرب. أمّا أمانتون، الموهوب في عمله لكن ذوقه متواضع[1]، فقد استبدل منصبه مديرا للاستيطان عام 1836 بمنصب مفتّش الامتيازات الرّيفية والتّشجير. وفي عام 1842، عُيّن مفتّشا للمياه والغابات في جبال الألب السّفلى، وأنهى مسيرته المهنيّة في فرنسا. مع ذلك، لم ينقطع عن الجزائر؛ إذ يظهر اسمه في طلبات الامتيازات في ولاية قسنطينة، التي قدمها ملاك الأراضي والتّجار والرّأسماليون من باريس ومرسيليا وليون ممّن يملكون موارد كبيرة[2]. وأصبح الطّابع بودوأنّ المحرر الوحيد لصحيفة "مونيتور ألجيريان." عندما أُلغي المنصب، أبدى كراهيّة شديدة لصاحب هذا الإجراء، جينتي دي بوسي. ووجد حليفًا نشطًا في القاضي في وهران، كابيه، الذي اقتيد قسرًا إلى فرنسا ذات صباح بأمر من المفتّش[3]. وأخيرًا، مدير الجمارك (جيراردان) الذي كانت فترة خدمته محاطة بالغموض دائماً، استقال بشكل نهائي في 5 فبراير 1833، وتقاعد عام 1860 من منصبه مديرا مكتب بريد في الإسكندرية.

كان هؤلاء أوائل ممثّلي الإدارة المدنيّة، وأوائل روّاد الاستيطان الرّسمي في الجزائر.

جي. إيسوتجيب.

1- كنت أنوي منحه (أمانتون) لقب مفتّش الإدارة البلدية... ولكن كان عليه أن يلتزم بالعمل أربعة أو خمسة أيّام في الأسبوع لبضع ساعات في مكاتب المفتّش. عندما عرضت عليه الاقتراح، كان يعارضني دائمًا بعناد... (رسالة من المفتّش المدني ليباسكير إلى وزير الحرب، 20 فبراير 1836).

2- الأرشيف الوطني، F. 80. 1182.

3- إليكم الأسلوب الذي كتب به كابي، الذي تولى في عام 1834 لقب نائب عن مستعمرّة الجزائر، إلى زعيمه السّابق: "الاستياء المشروع من سلوككم تجاهي، فقد اقتصرتُ، مع سجلّ انحرافاتكم وفسادكم بين يدي، على السّعي لعزلكم كتعويض فوريّ لمصالح وشرف المستعمرّة، اللّذين دُستُم عليهما طوال فترة إدارتكم. وبعد أن أتممتُ مهمّتي العامة، أصبح من واجبي الآن أن اطّلب منكم تعويضاً خاصّاً عن الأضرار والانتهاكات التي ألحقتموها بي. ولهذا الغرض، أنتظر وصولكم إلى باريس.» (أرشيف التّاريخ الطّبيعي، المجلّد 80، ص237). كابيه هو مؤلّف كتاب "رسائل إلى محرري الصّحف". جميع المواطنين. باريس، 1833. مشروع تحسين... الإدارات المدنيّة والقضائية والعسكريّة في الممتلكات. نساء فرنسيات من شمال أفريقيا. باريس، 1834، حجم ثماني. بعضهن كلمات موجّهة إلى اللّجنة الكبرى في الجزائر... المرجع نفسه. ملاحظة مرفقة إلى الفريق كونت ديرلون، الحاكم العام، أو موضوع الملكيّة، تم التّوفيق بينه وبين السّكن العسكري... المرجع نفسه.

A dire vrai, il ne faut pas chercher dans la création de l'intendance civile l'application d'un concept de gouvernement ; elle est due à des raisons de politique intérieure. Périer arrivait au pouvoir dans des circonstances difficiles : la surexcitation des esprits et la coalition des oppositions parlementaires rendaient l'existence du ministère « de la résistance » singulièrement précaire. Il vit dans la question d'Alger un précieux moyen de diversion sur les esprits (1) aussi son intention première fut-elle de centraliser les affaires d'Alger au ministère de l'Intérieur. L'unité de direction subsistait, seulement elle était assurée par de nouvelles mains.

Jusqu'alors les affaires d'Afrique avaient relevé du ministère de la Guerre. Dessaisir celui-ci de la direction politique en lui laissant seulement celle des opérations militaires, c'était s'exposer à un conflit. Le maréchal Soult (2) avait longtemps hésité à accepter Périer comme président du Conseil, quelques instances qu'eût faites celui-ci pour s'assurer le concours « de cette grande épée (3) ». Périer avait donc tout intérêt à ne pas rendre plus difficiles des relations déjà peu confiantes: Renonçant à sa première idée, il s'arrêta à la création d'un intendant civil qui dirigerait tous les services administratifs et qui correspondrait directement avec lui et les divers ministres. Il brisait ainsi l'unité de commandement qu'il ne pouvait être seul à exercer, et il rompait avec la législation coloniale en vigueur pour revenir plus de quarante ans en arrière.

Sous l'ancien régime, la dualité de commandement était la règle. A la tête de chaque colonie étaient placés un gouverneur, chef militaire chargé d'assurer la sécurité à l'intérieur et au dehors, et un intendant de qui relevaient tous les services administratifs et financiers. Le

(1) Pichon, *Alger sous la domination française*. Paris. 1833, in-16, p. 28.

(2) Ministre de la Guerre, du 13 mars 1831 au 18 juillet 1834.

(3) Guizot, *Mémoires*, II, p. 179.

Consulat avait repris cette tradition et maintenu les gouverneurs sous la dénomination nouvelle de capitaines généraux et les intendants devenus les préfets coloniaux. Cette situation était, entre le pouvoir militaire et le pouvoir civil, une source de conflits auxquels, il faut bien le dire, les populations devaient de ne pas être complètement livrées à l'arbitraire de l'un ou de l'autre. La Restauration, au contraire, mit à la tête des colonies un chef unique — gouverneur — sous l'autorité duquel des commissaires ordonnateurs, des directeurs généraux de l'administration intérieure, des procureurs généraux assurraient l'expédition des affaires.

Casimir Périer ne pouvant faire d'un administrateur civil le chef du gouvernement à Alger, ne voulant pas le subordonner au commandement militaire, en fit un fonctionnaire indépendant.

Quoique décidée peu après l'arrivée de Périer au pouvoir (1), l'intendance civile ne fut créée que le 1er décembre 1831. Le baron Pichon, conseiller d'Etat, en fut le titulaire. Il y eut au ministère de l'Intérieur une direction des affaires civiles confiée au docteur Lanyer (2).

Cette institution devait aboutir à un échec.

La diminution de pouvoir qui résulta pour l'autorité militaire du nouvel état de choses fut très mal vue du ministère intéressé. Soult se garda de paraître au conseil où fut discutée l'ordonnance du 1er décembre, montrant ainsi « que l'organisation projetée par le premier ministre n'avait pas son assentiment (3) ». « La séparation des pouvoirs était superflue, écrira le général Pelet (4). Je

(1) « L'intention du roi est que l'autorité militaire soit séparée de l'autorité civile... Un intendant civil sera investi de l'administration générale du pays... » Ministre guerre à Berthezène, 5 juin 1831 (*Arch. Guerre* fds Algérie, correspondance).

(2) « jeune médecin distingué » Guizot, *loc. cit.*, p. 318. C'est le docteur Lanyer qui soigna Périer durant sa dernière maladie.

(3) Pichon, *loc. cit.*, p. 17.

(4) Directeur du dépôt de la Guerre.

l'ai pour ma part toujours crue inutile et dangereuse (1) ». Donc, hostilité de principe et de fait.

D'autre part le choix des deux collaborateurs, Pichon comme intendant civil, le général Savary, duc de Rovigo, comme commandant en chef, suffisait à faire présager de perpétuels conflits.

A ce propos il n'est pas inutile de préciser les antécédents du baron Pichon, les dictionnaires biographiques étant singulièrement brefs sur son compte (2).

Louis André Pichon naquit à Nantes le 30 novembre 1771, de Siméon Pichon, cordonnier et de Jeanne Fortier. Il dut aux privations que s'imposèrent ses parents de pouvoir faire ses études au collège des Oratoriens et, en 1790, il vint à Paris comme répétiteur dans une pension, ce qui lui permit de terminer sa philosophie à Louis-le-Grand.

L'année suivante, un des députés de l'assemblée de Saint-Marc (3), venu à Nantes, l'emmena à Saint-Domingue comme précepteur de ses enfants. Peu après son arrivée dans l'île, la guerre civile éclata. Le jeune Pichon dut faire le coup de feu contre les noirs. L'impression défavorable qu'il reçut au début de sa carrière coloniale des excès des révoltés et des rigueurs de la répression ne s'effaça pas de son esprit. Quarante ans après, il appuiera de ses souvenirs de Saint-Domingue son opinion hostile à la politique suivie à Alger.

Atteint de la fièvre jaune, il fut soigné par un homme de couleur des Cayes dont le fils avait été son condisciple à Nantes. A peine guéri, il quitta le pays et se rendit aux Etats-Unis où il gagna sa vie en donnant des leçons.

(1) Lettre à Rovigo du 1er février 1832 (*Arch. Guerre*, ibid.).

(2) On trouvera quelques détails dans Sarrut et Saint-Edme : *Biographie des hommes du jour*, t. V, 1re partie, p. 62 et suiv.

(3) Saint-Marc, port de St-Domingue où se tint l'assemblée convoquée à la suite du décret de la Constituante du 28 mars 1790 promulguant la loi électorale.

Sur la recommandation de la colonie française, il entra en 1793 dans les bureaux du ministre de France Genêt (1). Il y resta sous Fauchet (2) avec qui il revint en France en 1796. Il fut alors attaché comme sous-chef au ministère des relations extérieures; il y resta sous Delacroix (3) et Talleyrand (4).

Les rapports avec les Etats-Unis préoccupaient le gouvernement directorial (5). Le séjour que Pichon avait fait en Amérique lui valut d'être consulté; ses avis furent appréciés, quoique leur modération heurtât les idées ministérielles qui inclinaient à la rupture entre les deux Etats. Modéré, il l'était aussi en politique : sa collaboration au *Frondeur* montre qu'il était resté fidèle aux idées de la Constituante.

Deux missions temporaires le conduisirent l'une en Hollande comme secrétaire d'ambassade en 1797, l'autre en Suisse, en qualité de chargé d'affaires, en 1797. C'est à Berne qu'il fut appelé à se prononcer en faveur du coup d'Etat de Brumaire dans lequel il voyait le rétablissement de l'ordre ; la lettre qu'il adressa à cette occasion à Talleyrand fut insérée au *Moniteur*. Entre ces deux missions, le gouvernement ayant demandé aux employés de la division politique du ministère une consultation sur la réunion du Piémont à la France, Pichon fut le seul qui

(1) Genest ou Genêt (1765-1834), chargé d'affaires à St-Pétersbourg (1788-92), ambassadeur en Hollande (1792), chargé d'affaires aux Etats-Unis (1793).

(2) Fauchet (1761-1834), ministre plénipotentiaire aux Etats-Unis (1793-1796), préfet sous le Consulat et l'Empire.

(3) Delacroix, ministre des relations extérieures de novembre 1795 à juillet 1797.

(4) Talleyrand, successeur de Delacroix, de juillet 1797 à juillet 1799 et de novembre 1799 à août 1807.

(5) Le Gouvernement français reprochait aux Etats-Unis sa politique commerciale anglophile. Lorsque Pinkney succéda à Monroé comme ministre des Etats-Unis, l'entrée de Paris lui fut refusée. Il y eut quelques faits de guerre entre les deux pays et des saisies de bâtiments de commerce.

conclut par la négative. Il montrait que la réunion du Piémont entraînait celle de la Lombardie et que la seule utilité de ces conquêtes était de les pouvoir employer en compensations avec l'Autriche. A la même époque il publia deux *Lettres d'un Français à M. Pitt* dans lesquelles il examinait l'état de nos relations avec cette puissance depuis 1783 (1).

A son retour de Suisse, il fut nommé secrétaire de la commission chargée de traiter avec les négociateurs américains, et, le 25 octobre 1800, il reçut la commission de chargé d'affaires et de consul aux Etats-Unis. Il venait d'épouser Mlle Brongniart, fille de l'architecte (2) et sœur du minéralogiste (3).

A Washington, il eut tout d'abord à rétablir les relations rompues depuis plus de quatre ans entre les deux républiques (4). Ce fut là une besogne de tous les jours à laquelle s'ajoutèrent les complications de deux événements imprévus : le ravitaillement de l'expédition de Saint-Domingue (5) et le mariage de Jérôme Bonaparte (6).

L'armée commandée par Leclerc était arrivée à Saint-

(1) *Lettres (1re et 2e) d'un Français à M. Pitt, ou examen d'un système suivi par le Gouvernement britannique envers la France durant les dernières années de la monarchie et depuis l'établissement de la République* (par L. A. P.). — Paris, Dupont, an VI, in-8°.

(2) Brongniart (Alexandre-Théodore), architecte (1732-1813), auteur de l'église Saint-Louis d'Antin et du palais de la Bourse.

(3) Brongniart (Alexandre), ingénieur en chef des mines (1770-1847), professeur d'histoire naturelle à l'Ecole centrale des Quatre Nations (1796), puis de minéralogie à la Faculté des Sciences de Paris et au Muséum. En 1800, il fut nommé directeur de la manufacture de porcelaines de Sèvres.

(4) Le traité de Mortefontaine (30 septembre 1800) venait d'être conclu. Il fut ratifié le 6 décembre 1801.

(5) Commandée par le général Leclerc, beau-frère de Bonaparte. Il mourut à Saint-Domingue le 2 novembre 1802. Son successeur, Rochambeau, évacua l'île le 30 novembre 1803.

(6) Jérôme Bonaparte, dernier frère de Napoléon Ier (1784-1860), roi de Westphalie en 1807.

Domingue sans vivres de réserve — ceux-ci ayant été jetés en mer comme avariés. Pichon reçut à la fois la nouvelle de l'expédition et la charge de lui faire passer les approvisionnements qui lui manquaient. Le moment était mal choisi de solliciter la moindre complaisance du gouvernement de Washington. L'Espagne venait, en effet, de rétrocéder la Louisiane à la France (1) et les Etats-Unis se sentaient menacés par la tentative que faisait Bonaparte de reconstituer un empire colonial français, tentative dont l'expédition de Saint-Domingue et celle projetée de Bernadotte en Louisiane étaient les étapes. Malgré la méfiance dont il se trouvait être l'objet, Pichon réussit à ravitailler l'armée : « Je ne puis donner trop d'éloges, lui écrivait Decrès (2), à toutes les démarches que vous avez faites pour obtenir, dans la circonstance difficile où vous vous trouviez, un crédit près des particuliers et même du gouvernement américain. »

Mais le chargé d'affaires ne cacha pas à son chef son sentiment sur l'imprévoyance avec laquelle avait été préparée l'expédition : « Est-il possible, citoyen ministre, d'envoyer une armée de cette importance à Saint-Domingue sans autre ressource que son épée ? » Decrès, à qui incombait cette responsabilité ne pardonna pas à Pichon. La phrase malencontreuse fut montrée à Bonaparte qui ne l'oublia pas, non plus que les critiques indignées qu'inspiraient à son agent les cruautés de Rochambeau à Saint-Domingue.

L'échec de l'expédition fit avorter les projets coloniaux du premier consul. Pichon fut chargé de négocier la vente de la Louisiane aux Etats-Unis et d'en recevoir le prix — soixante millions — en fonds publics américains qui furent envoyés en France par ses soins (3).

(1) 1er octobre 1800.

(2) Decrès, vice-amiral, ministre de la marine, de 1801 à 1814.

(3) 30 avril 1803.

Le favorable effet produit par la réussite de cette opération fut bientôt effacé par l'issue malheureuse d'une affaire d'une nature toute particulière.

Le 20 juillet 1803, Pichon apprenait à l'improviste l'arrivée de Jérôme Bonaparte. Celui-ci, destiné par le premier consul à être le marin de la famille, croisait dans les Antilles avec l'escadre de Villaret-Joyeuse (1). Ayant peu de goût pour une carrière qui le tenait éloigné trop longtemps à son gré des plaisirs de la terre (2), risquant d'ailleurs d'être capturé par les Anglais qui n'auraient eu garde de laisser échapper un otage de cette importance, il se décida brusquement à se rendre en Amérique (3). Sa première visite au représentant de la France fut pour lui demander de l'argent.

Le séjour de Jérôme à Baltimore fut un continuel sujet d'alarmes pour Pichon. Il était pris entre les ordres de Bonaparte qui lui enjoignait de faire embarquer au plus tôt son frère pour la France et l'obstination de l'autre à n'en rien faire. Jérôme menait joyeuse vie, dépensant sans compter et s'adressant le plus naturellement du monde au consul pour remplir sa bourse. Entre temps il fit la connaissance de miss Elisabeth Paterson, fille d'un riche négociant. La parfaite beauté de la jeune fille produisit sur le Français une telle impression qu'un beau jour Pichon reçut en même temps que la nouvelle de ce mariage imprévu l'invitation d'avoir par convenance à y assister.

Cette intrigue matrimoniale parut à Pichon grosse de conséquences fâcheuses pour sa situation propre ; il n'eut de cesse qu'il ne l'eût rompue. Jérôme et son futur beau-

(1) Villaret-Joyeuse, amiral (1750-1812).

(2) « Il se trouvait si bien de l'air des habitations qu'il n'éprouvait nul désir de reprendre la mer. » — Masson, *Napoléon et sa famille*, t. II, p. 299.

(3) Il convient d'ajouter qu' « affolé par sa responsabilité, Villaret-Joyeuse le supplia de partir. » Masson, *ibid*, p. 302.

père furent dûment avertis par lui de la nullité d'un mariage auquel Mme Bonaparte n'avait pas donné son consentement. Le marquis de Casa Yrajo, ministre d'Espagne, ayant prêté la main à cette affaire, Pichon le menaça de le faire désavouer par le gouvernement espagnol et lui arracha la promesse qu'il n'assisterait pas à la cérémonie nuptiale (1). Ces énergiques protestations parurent avoir un effet immédiat. M. Patterson reconnut que le code français était formel et que le mariage ne pouvait être valable. De son côté, Jérôme cessa de parler de ce projet qu'il parut avoir abandonné. Il se borna à un nouvel emprunt de 10.000 dollars sous prétexte « de quelques engagements à remplir. » La caisse était vide et Pichon s'épuisa en efforts pour se procurer cette somme.

Encore, croyant que tout cela était fini là, s'estimait-il heureux d'en être quitte pour de l'argent. La nouvelle qu'il en manda à Paris fut accueillie avec soulagement. « Sa Majesté a été satisfaite de votre conduite sage et réfléchie (2) », lui écrivit Talleyrand.

Cette fausse sécurité dura deux mois. « Il faudrait entrer dans des détails qui n'intéressent pas la question légale pour montrer ce qui fit prendre un brusque cours aux événements (3). » Toujours est-il que le 25 décembre 1803, Pichon reçut du secrétaire de Jérôme le billet suivant : « J'ai l'honneur de vous annoncer de la part de M. Jérôme Bonaparte que son mariage avec Mlle Patterson a été célébré hier soir. Il me charge aussi de vous mander qu'il attend avec impatience l'envoi de 4.000 dollars que vous devez lui faire (4) ».

On sait comment se termina l'aventure de Jérôme

(1) *Mémoires et correspondance du roi Jérôme et de la reine Caroline*, t. I, p. 163.

(2) *Ibid*, p. 271.

(3 et 4) *Ibid*, p. 219 et sq.

et de miss Betzy. L'empereur ne toléra pas cette contradiction infligée à sa politique dynastique et familiale et Jérôme n'était pas d'un caractère à résister longtemps. Marié et père de famile, il se trouva redevenu du jour au lendemain célibataire.

Quant à Pichon, il connut la disgrâce la plus complète. Le mauvais gré qu'on lui sût de n'avoir pu empêcher ce fâcheux mariage remit en mémoire les propos tenus sur l'expédition de Saint-Domingue. De plus, le chargé d'affaires s'exprimait sans contrainte sur la politique consulaire et impériale. Ses conversations furent rapportées à Paris (1) par cet Esménard (2), poète médiocre qui, en 1804, cherchait dans un voyage autour du monde l'inspiration de son futur poème de *la navigation* et qui, plus tard, dut aux services rendus par lui à la police, d'entrer — par la grâce de Savary — à l'Académie française.

Pichon fut rappelé le 28 janvier 1805. Il comparut devant un conseil d'enquête et fut destitué par un décret qui rejetait à sa charge 100.000 francs de dépassements

(1) « Ce qui a le plus influé sur mon sort a été la délation d'un personnage qui, à la honte de la France, a été dans l'intimité de nos grands et a fini par siéger à l'Institut. C'est Esménard que j'avais connu émigré, caché sous un faux-nom à Paris, et ensuite chez le ministre, du temps où il était recherché pour son incontestable talent en poésie. Je crus pouvoir, à Washington, lui témoigner ma profonde horreur pour la conspiration ourdie par Mehée et pour l'assassinat du duc d'Enghien et le procès de Moreau. » — Lettre de Pichon citée par A. Savine dans la préface (p. LXV), de *Quinze ans de haute police sous le Consulat et l'Empire*, par P. M. Desmarest, édit. Grasilier, Paris, 1900, in-18.

(2) Esménard (Joseph-Etienne), poète et publiciste (1767-1811), — Député par le département des Bouches-du-Rhône à la Fédération de 1790, rédacteur à la *Quotidienne*, chef du bureau des théâtres au ministère de l'intérieur après le 18 brumaire, co-directeur du *Mercure de France*, accompagne à St-Domingue Leclerc puis Villaret-Joyeuse, censeur des théâtres et de la librairie, chef de la 3e division de la police générale sous Rovigo, membre de l'Académie française, alors 2e classe de l'Institut, en 1810. Un article qu'il publia dans le *Journal de l'Empire* contre l'envoyé de Russie provoqua la colère de Napoléon. Esménard reçut l'ordre de quitter Paris. Affolé par cette disgrâce, il se suicida le 25 juin 1811.

de crédits, provenant de dépenses faites surtout par les consuls placés sous ses ordres ; on alla jusqu'à lui faire un grief d'avoir emprunté à un taux excessif l'argent destiné à satisfaire aux demandes de Jérôme Bonaparte (1). Cet arrêt fut cassé à la Restauration, sous le premier ministère du baron Louis (2).

Rendu à la vie privée, Pichon prêta le serment d'avocat en 1808 et se fit une spécialité des questions de droit commercial et particulièrement des affaires de prises.

En 1809, le roi de Westphalie qui ne lui conservait pas rancune de s'être opposé à son mariage avec miss Patterson et qui le considérait « comme un homme d'esprit, d'infiniment de ressources (3) », l'appela à son service. Pichon demeura trois ans en Westphalie, d'abord comme conseiller d'Etat, puis comme directeur de la caisse d'amortissement, enfin comme intendant général du Trésor. Il apporta dans ses fonctions ses habitudes de régularité, d'administration ponctuelle et de franchise (4), et ne tarda pas à se trouver dépaysé dans une cour où le gaspillage était la règle et où chacun devait au tailleur les beaux habits qu'il avait sur le corps (5). L'obligation de se naturaliser faite par Jérôme aux Français à son service lui fut un motif de donner sa démission « qui fut acceptée au grand dépit du public ». Il revint en France en 1812, « avec la satisfaction d'être le plus estimé Français qui ait été au service de la Westphalie (6) ».

L'Empire écroulé, Pichon se rallia au nouveau régime

(1) « M. Pichon se défendit avec une rare habileté et une présence d'esprit imperturbable. » Chancelier Pasquier, *Mémoires* t. I, p. 319.

(2) Le baron Louis fut ministre des finances d'avril 1814 à mai 1815.

(3) *Mémoires* de Jérôme, I, p. 132.

(4) « ...Je dirai toujours la vérité au roi... », mot de Pichon cité dans une lettre de Reinhard, ministre plénipotentiaire de France au duc de Bassano, 7 mai 1811. (Du Casse. *Napoléon et le roi Jérôme*. — Revue historique XX, p. 346).

(5) Masson, *Napoléon et sa famille*, t. VI, p. 75.

(6) Reinhard à Napoléon, 29 déc. 1812. (Du Casse, *ibid*, XXI, p. 114). Le même, qui ne l'aimait pas, mais qui lui rendait justice, s'exprime

qui lui apparaissait comme seul capable de ramener la paix dans un pays qui la désirait par dessus toutes choses. En mai 1814, il publia son ouvrage sur l'*Etat de la France vers la domination de Napoléon Bonaparte*, protestation contre l'esprit despotique des institutions impériales, et sa *Lettre d'un Français sur la paix*, critique du traité de Paris, ce qui le brouilla avec Talleyrand. Durant les Cent-Jours, il refusa d'aller à Gand et passa en Angleterre d'où il revint après Waterloo.

Maître des requêtes au conseil d'Etat en 1815, commissaire inspecteur à la Guadeloupe et à la Martinique en 1817, il fut à son retour choisi par M. de Serre (1) comme secrétaire général du ministère de la Justice, avec comme attributions, le personnel et la division civile. Attaché au Comité de Législation du conseil d'Etat, il se montra éloigné de toute mesure extrême de réaction et hostile à la facilité avec laquelle on autorisait, par ordonnance, la création des congrégations. Aussi, à l'arrivée aux affaires de Villèle et de Peyronnet (2), fut-il mis en service extraordinaire.

Le ministère de la marine de Clermont-Tonnerre (3) le chargea de divers rapports, celui entre autres qui prépara l'ordonnance de 1836 sur le commerce des colonies suivie elle-même de la création du conseil supérieur du commerce des colonies.

ainsi sur son compte : « ...M. Pichon jouit en ce moment de la confiance exclusive du roi... Il est plein de franchise ; il est infatigable au travail ; son caractère est honnête, ses connaissances sont vastes, ses vues étendues ; mais son esprit est souvent faux et son ambition égale à sa présomption... Il dira au Roi la vérité, ou ce qu'il croira tel, par instinct et sans réfléchir. Il s'opposera souvent à ses volontés... », lettre à Bassano, *ibid*. — « ...Il était généralement connu pour le meilleur intendant et le plus zélé serviteur du roi... », lettre à l'Empereur, *ibid*.

(1) De Serre, ministre de la Justice (février 1820-février 1821).

(2) Ministère de Villèle (décembre 1821-janvier 1828).

(3) De Clermont-Tonnerre, ministre de la Marine (décembre 1821-1823).

En 1828, il fut candidat de l'opposition libérale à Paris (1), et à la fin de cette année, il fut nommé commissaire pour traiter avec le gouvernement de Haïti. Il en résulta un traité qui ne fut pas ratifié par le président Boyer.

Lorsque Casimir-Périer eut décidé de créer en Alger une intendance civile, son choix s'arrêta sur le baron Pichon probablement sur la recommandation du baron Louis (2) et de l'amiral de Rigny (3). Il n'accepta qu'après de longues hésitations, et les raisons qu'il en donne montrent dans quel état d'esprit il arrivait à Alger.

« Revenu depuis environ un an d'une mission diplomatique fatigante à Saint-Domingue, qui avait été fort nuisible à mes affaires particulières, je désirais ne point repasser les mers. J'avais d'ailleurs fait depuis longtemps, dans deux missions politiques en Suisse et en Hollande, et pendant un service de trois ans en Westphalie, l'épreuve de tout ce que la position d'un chef civil ou politique a de fâcheux dans un pays placé sous l'autorité militaire... J'étais donc fort éloigné de vouloir courir de nouveau les chances de cette juxtaposition... Enfin, j'avais de l'éloignement pour les affaires d'Alger (4) ».

Le seul motif qui le porta à accepter fut qu'un refus pouvait être interprété comme une démission de ses fonc-

(1) Il avait été déjà candidat aux élections de 1815. — Cf. *Note que soumet M. Pichon à MM. les Electeurs en s'offrant comme candidat à la prochaine élection*. — Paris, 1er août 1815, s. l. n. d. in-4°. — *Adresse de M. Pichon, conseiller d'Etat honoraire à MM. les Electeurs du collège départemental de la Seine* (Signé : L. A. Pichon [30 novembre 1827]). Paris, Porthmann, s. d. in-4°. — *Adresse de M. Pichon, conseiller d'Etat honoraire à MM. les Electeurs du 2e collège d'arrondissement de la Seine* [25 janvier 1828]. Paris, Porthmann, (s. d.) in-4°.

(2) Ministre des Finances, du 13 mars 1831 au 11 octobre 1832.

(3) Ministre de la Marine, du 13 mars au 4 avril 1831.

(4) Pichon, *op. cit.*, p. 36.

tions de conseiller d'Etat, qui lui aurait fait perdre le bénéfice de ses services antérieurs (1).

Caractère entier et sans souplesse, d'une franchise qui le poussait à dire ce qu'il estimait être la vérité au détriment de ses intérêts ; esprit réaliste, rebelle aux jugements anticipés ; respectueux de la légalité, ennemi des coups de force aussi bien du despotisme napoléonien que de la réaction bourbonnienne, ayant eu d'ailleurs à pâtir des deux : de celle-ci qui ne lui avait pas épargné les vexations, de celui-là qui l'avait brutalement destitué, ce fonctionnaire, également versé dans les questions administratives et coloniales et dont la carrière était honorablement remplie, arrivait à Alger profondément imbu de la dignité de l'administration et de sa supériorité sur la carrière militaire :

« Que les armes se contentent de leur destination si fort relevée par tant d'avantages, indépendamment de la gloire. Mais qu'on reconnaisse qu'il n'est pas dans la nature de cette profession, où, dès le début et dans tout son cours, l'homme n'est occupé que des combinaisons de la force, de se plier aux laborieuses, aux chicanières exigences de l'administration et de la justice. Si un militaire y était propre, il faudrait lui faire quitter les armes (2) ».

De l'affirmation de cette incompatibilité découlent ses idées en matière coloniale.

Dans une note (3) adressée au président du conseil (4), examinant l'institution des administrateurs civils dans

(1) *Ibid*, p. 37.

(2) Pichon, *op. cit*, p. 36-37.

(3) « *Note sur les administrateurs civils, intendants généraux ou intendants dans les pays réunis sous le gouvernement impérial.* » 11 novembre 1831 (*Arch. Nation.* F 80-4).

(4) Cette note n'est pas signée, mais il existe entre les idées qui y sont exprimées, les termes employés et certains passages de l'ouvrage de Pichon une telle similitude qu'il n'est pas douteux qu'il soit l'auteur de cette note.

les pays réunis sous le gouvernement impérial — Piémont, Toscane, Provinces Illyriennes, Hollande — il établit que la dépendance dans laquelle se trouvaient ces administrateurs — intendant du trésor public, directeur de la police ou intendant général des finances ou de l'intérieur — vis-à-vis des gouverneurs ou commandants généraux, aboutit à l'omnipotence du pouvoir militaire, incapable par nature d'administrer, et cela au grand dommage du pays.

A cette situation selon lui vicieuse, il oppose l'institution, sous le Consulat, des préfets coloniaux — dénomination nouvelle des intendants des anciennes colonies — chargés exclusivement de l'administration civile et de la haute police de la colonie (levée des contributions, comptabilité, douanes, solde et entretien des troupes) ayant seuls le pouvoir de faire des règlements provisoires dans les matières de leurs attributions et ayant droit de présentation pour la nomination des fonctionnaires.

Cette indépendance du pouvoir civil vis-à-vis du militaire dont il est le contrepoids, est pour Pichon la raison de la prospérité de l'empire colonial sous l'ancien régime.

« Nos colonies ont dû leur prospérité à la protection de cette institution, depuis leur naissance jusqu'à la Révolution et l'on n'a pas dit, avant 1789, que les Français ne sussent pas coloniser (1)... » «... Si une mort prématurée n'eût pas enlevé M. Bénézech (2), préfet colonial à Saint-Domingue, je me persuade que le général Leclerc ne se fût pas trouvé engagé dans cette route d'arbitraire et de violence... En Egypte, M. Poussielgue (3), qui était à

(1) Pichon, *op. cit.*, p. 38.

(2) Bénézech (Pierre), propriétaire des *Petites Affiches*, Ministre de l'Intérieur (3 novembre 1795-16 juillet 1797), accompagna comme préfet colonial Leclerc à Saint-Domingue, où il mourut en 1802, à l'âge de 27 ans.

(3) Poussielgue (J. B.), administrateur (1774-1845), commissaire des revenus nationaux en 1794, administrateur de l'armée d'Egypte. En cette qualité, il écrivit à plusieurs reprises au Directoire pour se

peu près intendant, montra seul au gouvernement la véritable situation des choses (1)... » D'ailleurs, « cette forme de gouvernement par intendants et gouverneurs était l'application aux colonies de ce qui existait depuis le règne de Louis XIII dans les provinces par suite de l'établissement des intendances. On sait que c'est depuis la création de ces magistratures que date réellement la prospérité intérieure de la France, jusque là entravée par la prépotence des gouverneurs (2) ».

Cette comparaison entre une vieille colonie ou une province française au dernier terme de l'organisation administrative et un établissement dont la conquête était à peine entreprise, serait faite pour surprendre si elle ne précisait la pensée de l'auteur. Les intendants de l'ancien régime ayant confisqué tous les pouvoirs effectifs au détriment des gouverneurs, la nomination à Alger d'un fonctionnaire semblable devait comporter les mêmes prérogatives. Et ceci nous ramène à l'intention première de Casimir-Périer de dessaisir le commandement militaire de la direction politique des affaires d'Alger.

De l'abandon de l'ancienne législation coloniale résulte pour Pichon l'incapacité de la France à faire œuvre durable. « *Tâchons surtout*, écrivait-il au début de son livre, *de ne pas faire en sorte qu'il ne reste de la conquête d'Alger, comme de tant de nos entreprises depuis quarante ans, rien qu'une démolition qui tourne au profit des autres et à notre détriment* (3) ». Ce pessimisme n'est pas dicté par les seules considérations historiques. Pichon fut toujours influencé par le souvenir de la triste fin de notre occupation à Saint-Domingue dont, au début de sa carrière, il avait été le témoin. «... Affreuse époque... Aux

plaindre de l'abandon dans lequel le général en chef laissait l'armée. Cela lui valut la disgrâce de Bonaparte.

(1) Pichon, *op. cit.*, p. 39-40.

(2) *Note citée.*

(3) Pichon, *op. cit.*, p. xj.

Etats-Unis où je planais sur ce théâtre d'horreurs (1)... » Ce souvenir l'obséda à Alger : «... Lorsque, dans mes courses, j'ai vu nos avant-postes protégés par leurs petits *Blockhaus* retranchés et placés en face de beaux et vastes pays où nous ne pouvions aller qu'en bataillons, je me suis rappelé Saint-Domingue... » et plus loin «... Je n'ai pu qu'être péniblement affecté de retrouver entre Alger et Saint-Domingue un autre point de ressemblance (2)... »

Il estimait, enfin, que les entreprises de la France en Afrique étaient vouées à un échec : « Il semble qu'une fatalité soit attachée pour la France à toutes ses tentatives militaires sur l'Afrique. Un de nos grands rois, Saint-Louis est allé chercher la mort à Tunis. Il était dans la destinée de ses descendants, six siècles après, de perdre la couronne presque au moment où leurs drapeaux s'arborèrent sur les forts d'Alger et c'est des désastres de l'expédition d'Egypte que nous est venu un maître il y a trente-deux ans (3) ».

Pichon arrivait donc à Alger sans confiance dans l'avenir de la colonie naissante. Les conflits qu'il eut dès le début et sur toutes choses avec le général en chef ne contribuèrent pas peu à aggraver cette prévention.

On n'eût pu choisir deux collaborateurs plus dissemblables. Les antécédents du général de Savary, duc de Rovigo sont assez connus pour qu'il soit utile de retracer sa carrière. Le rapprochement, en vue d'une œuvre commune, du protecteur et de la victime de l'espion-poète Esménard ne laisse pas d'être ironique. L'un représentait l'esprit libéral ennemi du césarisme et persécuté par lui ; l'autre incarnait le despotisme napoléonien dans ses procédés les plus discutables.

L'ancien ministre de la police avait gardé de ses fonc-

(1) *Ibid.*, p. 106-107.

(2) Pichon, *op. cit.*, p. 106.

(3) *Ibid.*, p. iv.

tions peu de souci des formes légales et un médiocre scrupule dans le choix des moyens à employer. Lui aussi avait ses idées en matière d'administration ; elles étaient tout le contraire de celles de l'intendant civil. Il estimait que la perte de nos colonies était la « suite des mésintelligences qui s'élevèrent entre les diverses branches d'administration et les officiers de l'armée. » Pour lui, « l'administration civile doit être sous la protection de l'armée », et ainsi il marque la subordination de la première vis-à-vis de la seconde. Il concède à la vérité « qu'elles ont essentiellement besoin l'une de l'autre » mais, aussitôt, il ajoute « qu'elles doivent être dirigées par la même main (1) ». Il ne précise pas quelle est cette main, mais on ne saurait en entendre d'autre que celle qui tient le sabre.

Non que le chef de l'armée doive être aussi celui de l'administration. « Je vous prie de ne pas réunir les pouvoirs civils au pouvoir militaire, écrira-t-il après ses premiers démêlés avec Pichon. Les choses iraient parfaitement si tous les chefs des services étaient dirigés par un commissaire général qui présenterait au gouverneur le travail de chacun pour le revêtir de son approbation... comme cela était institué en Illyrie et dans beaucoup d'autres provinces étrangères occupées par la France sous l'Empire (2)... » Et peu après : « L'établissement d'un pouvoir civil est un projet bien conçu dans l'intérêt du progrès de la civilisation mais l'expérience que l'on fait journellement de l'application de ce principe prouve que ce pouvoir civil lui-même doit être subordonné à l'action militaire qui le protège... En un mot on reviendra peut-être un peu plus tard mais à coup sûr, à l'organisation du gouvernement d'Illyrie (3)... »

(1) Lettre au président du Conseil, 29 octobre 1831. (*Arch. Guerre*).
(2) Lettre à Soult et à Périer, 5 mars 1832. (*Arch. Gouv. Gén.* E 47 — et E E 1).
(3) Le même à Périer, 26 mars 1832 (*ibid*).

C'est, aussi bien comme opinion personnelle que comme exemple historique invoqué, l'opposé absolu des idées du baron Pichon.

Sur Alger même, son enthousiasme contraste avec la réserve pessimiste de son collègue. Avant de partir il déborde d'espérance : « Je vois des ressources immenses à Alger. J'y vais avec plaisir, j'en aime le pays, le climat et les habitants (1) ». Et à peine débarqué : « Voilà le douzième jour que je suis à Alger et je sens augmenter ma confiance dans la réussite que j'espère obtenir dans ce pays-ci ; notre situation politique m'offre les plus vives espérances (2) ».

Entre ces deux hommes qui différaient si complètement, un seul trait commun : une égale obstination, avec plus de froideur chez Pichon, avec plus d'emportement chez Rovigo.

Etaient-ils du moins munis d'instructions précises, fixant clairement leurs attributions et leurs droits respectifs ? Il n'en était rien.

L'ordonnance du 1er décembre 1831 disait :

« ART. 1er. — La direction et la surveillance de tous les services civils en Alger ; celles de tous les services financiers tant en deniers qu'en matières, ainsi que celle de l'administration de la justice, sont confiées à un intendant civil, placé sous les ordres immédiats du président du conseil (3). »

Mais, d'autre part, l'ordonnance du 6 décembre spécifiait :

« Art. 2. — Le général commandant en chef... pourvoiera à la conservation, à la défense et à la sûreté des

(1) Le même au même, 29 octobre 1831 (*Arch. Guerre*).
(2) Le même à Soult et à Périer, 3 janvier 1832 (*Arch. Gouv. Gén.* E 47 — et E E 1).
(3) *Moniteur Universel*, 1831, p. 2379.

possessions françaises en Afrique. Les mesures de politique et de haute police ressortiront de son autorité (1) ».

Politique, haute police, l'imprécision de ces mots permettra toutes les usurpations. Comme le dit justement Pichon : « En donnant au commandant en chef *exclusivement et à lui seul* ces attributions, on mettait à sa discrétion tous les pouvoirs civils, petits et grands (2) ».

Le président du conseil se rendait compte que ces termes vagues et contradictoires devaient être la source de perpétuels conflits. En décembre 1831, il annonça à Rovigo et à Pichon l'envoi d'une instruction « qui aura pour objet d'indiquer, avec des détails qu'il aurait été prématurés d'insérer dans l'ordonnance, les attributions qui seront propres à chacun de vous, et celles qui, attendu leur nature mixte, devront être exercées en commun. En attendant cette instruction, le Roi compte assez sur votre expérience commune et sur votre zèle pour le bien public et pour son service pour espérer qu'il ne surviendra pas de conflits propres à altérer l'harmonie qui ne pourrait, sans préjudice au bien des affaires, cesser de régner entre vous (3) ».

Cette instruction ne fut jamais envoyée. Le gouvernement ne pouvait cependant escompter sérieusement l'accord parfait entre les deux collaborateurs. Ce que l'on savait de leur passé, de leur caractère et de leurs idées, montrait qu'il était vain d'espérer qu'aucun y mît du sien.

Et de fait, toute l'histoire de ces cinq mois d'administration civile tient dans les conflits qui s'élevèrent dès le début entre le général en chef et l'intendant. Les exposer en détail serait donner à cet article une étendue inu-

(1) Cette ordonnance ne figure pas au *Moniteur Universel*. On en trouve le texte dans MÉNERVILLE, *Dictionnaire de la Législation Algérienne*, p. 6.
(2) PICHON, *op. cit.*, p. 18.
(3) *Arch. Nat.* F 80 4.

tile (1) ; aussi bien quelques faits suffiront pour montrer que ces conflits ont eu leur origine dans la non séparation des pouvoirs aggravée par l'antinomie absolue qui existait entre les deux hommes représentant le pouvoir militaire et le pouvoir civil.

Peu de temps après son arrivée, le duc de Rovigo reçut la visite d'un Maure qui, tout en pleurs, se plaignit que sa femme eût été enlevée par un Français. Le ravisseur était un jeune magistrat, ci-devant contrôleur de théâtre, nommé Collombon. Le duc le fit, incontinent, emprisonner et embarquer pour la France. « Usurpation de pouvoirs, déclare le baron Pichon, puisqu'il s'agit d'un fonctionnaire civil dépendant de l'intendant seul ». — « Nullement, réplique le général en chef ; c'est là une mesure de haute police, chose qui rentre essentiellement dans mes attributions ».

Les postes de chef des Mozabites et de chef des pêcheurs venant à être vacants, Rovigo pourvoit lui-même à ces nominations. — Réclamations de l'intendant civil, estimant de son ressort tout ce qui touche aux corporations. — D'accord, lui est-il répondu. Mais le chef des Mozabites a de l'influence sur ses coreligionnaires, et les pêcheurs peuvent servir d'espions à l'ennemi. Ces nominations sont donc une affaire politique.

La contribution frappée sur la ville d'Alger pour fournir à l'armée le couchage nécessaire est annulée par le gouvernement. Le duc de Rovigo, déjà furieux contre le baron Pichon qui s'est montré hostile à cette mesure, décrète que l'argent sera remboursé seulement lorsque la ville aura été nettoyée de manière à ne rien laisser à désirer pour la salubrité publique. — « Mais c'est une question de voirie — matière éminemment civile », proteste l'intendant ». — « Dans les circonstances actuelles, c'est

(1) Une histoire du commandement du duc de Rovigo à Alger paraîtra prochainement.

le corollaire d'une mesure de haute police, et par suite rentre dans mon domaine », riposte le général en chef.

Et, de même, ce dernier fait de sa propre autorité clore les cabarets — parce qu'ils sont fréquentés par les soldats. — Il menace de déportation les filles publiques, sans doute à cause de leur clientèle militaire. Il correspond directement avec les chefs de services civils pour des questions concernant ces services, etc., si bien que l'intendant se trouve dépossédé de toutes ses attributions.

D'autre part, Pichon, homme épris de légalité, blâmait ouvertement l'abus que, dès le début de la conquête, on avait fait de la confiscation ; il s'élevait contre le massacre des El-Ouffias et l'exécution de leur chef. Un conseil de guerre condamne-t-il à mort deux soldats pour désertion à l'ennemi, l'intendant soulève cette objection que « déclarer désertion à l'ennemi la désertion aux tribus voisines des avant-postes nous déclare en état de guerre avec toutes les tribus » (1). — Il hésite à prendre, pour les livrer à la colonisation, les terres déclarées domaniales, avant d'être bien sûr qu'elles ne pouvaient être légitimement revendiquées.

Ces scrupules, tout à l'honneur du baron Pichon, ne manquaient pas d'exaspérer le duc de Rovigo. Ayant seulement en vue l'excellence du but à atteindre, ce dernier se préoccupait peu de la nature des moyens. Il en arriva à dénoncer l'intendant comme un ennemi de la colonisation inféodé à ce « comité maure » dont l'un des meneurs aurait été le consul d'Angleterre, et comme entretenant chez les Arabes l'idée du départ des Français et de l'établissement à Alger d'un gouvernement indigène.

Avivant encore cette antipathie, les journaux de France publiaient des correspondances d'Alger qui dénigraient systématiquement les faits et dires de l'intendant, ce qui ne saurait étonner, puisque ces correspondances émanaient de l'entourage du duc de Rovigo.

(1) Pichon à Périer, 4 mai 1832 (*Arch. Gouvt gén.* E 82).

Cet entourage qui est assez peu connu et qui mérite d'être mis en lumière, n'était pas uniquement poussé par l'amour désintéressé de la chose publique. L'administration civile se trouvait représenter un certain nombre de postes confortables, et voilà que le chef de cette administration n'était rien moins que convaincu de la nécessité de certaines créations d'emplois. *Inde irae.*

Dès son arrivée à Alger, le duc de Rovigo écrivait au ministre de la guerre : « Il y a ici un personnel administratif suffisant pour un petit royaume dont nous occupons seulement la capitale, et je ne comprends pas comment ces messieurs peuvent s'occuper une heure par jour (1) ».

Ces fonctionnaires (2) dont le nombre était ainsi jugé excessif au début de l'année 1832 dataient presque tous du premier commandement du général Clauzel.

Ils étaient trois enquêteurs, Fougeroux, d'Escalonne et Cadet de Vaux, membres de cette commission qui vint informer après la prise d'Alger sur la disparition des trésors de la Casbah. Si, sur l'objet principal de sa mission, elle aboutit à un procès-verbal de carence, elle eut du moins ce résultat de faire caser quelques-uns de ses membres. L'inspecteur des finances Fougeroux se fit fort logiquement pourvoir de l'inspection d'Alger. Très confiant dans l'avenir de la nouvelle colonie, il n'hésita pas à sacrifier des sommes modiques à l'achat de vastes domaines.

Maurice d'Escalonne avait été, en 1823, commissaire général de police sur la frontière des Pyrénées. En octobre 1830, il se découvrit une compétence particulière en matière de douanes et devint tout naturellement directeur de ce service. Quelques « motifs fâcheux », des dettes

(1) Rovigo à Guerre, 30 janvier 1833. (*Arch. Gouvt. Gén.* E E 1).
(2) Ce qui suit est écrit — à moins d'indications contraires — d'après les dossiers du personnel. (*Arch. Nat.* F 80 — 127 et sq.)

chez tous les négociants de la ville et une correspondance trop active avec le gouverneur de la Catalogne, attirèrent sur lui l'attention du général Berthezène. En août 1831, il fut remplacé par un homme de la carrière, l'inspecteur des douanes Verlingue, lequel connaissant son métier ne tarda pas à mettre son service à flot.

De retour en France, d'Escalonne dut à sa qualité de cousin de M. Duprat, député du Tarn-et-Garonne et de protégé de Decazes (1) de ne pas être trop longtemps oublié. Il fut question de lui, à l'arrivée du duc de Rovigo pour le poste à créer de commissaire général de police à Alger. On recula devant le « rappel immédiat à Alger pour l'y revêtir d'un grand emploi, d'un homme qui venait d'être renvoyé pour des motifs peu honorables de celui qu'il occupait ». Le baron Pichon l'envoya à Oran comme sous-intendant civil.

Benjamin Cadet de Vaux, fils du chimiste, était un vieux colonial de Saint-Domingue, où des entreprises malheureuses l'avaient ruiné. Revenu en Europe, il avait trouvé à Bruxelles, dans une administration financière, une situation que lui fit perdre la chute de l'Empire. Clauzel l'avait nommé commissaire du roi près la municipalité d'Alger.

Ils étaient deux interprètes, Prosper Gérardin et Just Lauxerrois.

Le premier avait fait sa carrrière au Sénégal. Il était agent du gouvernement à Bakel lorsque fut décidée l'expédition d'Alger. Le ministère Polignac l'envoya à Tunis pour recueillir des renseignements sur la Régence. Sitôt après la prise d'Alger, il fut nommé premier interprète de l'armée, puis archiviste du gouvernement. Il remplissait ces fonctions depuis six semaines lorsqu'il se

(1) Ministre de la police générale (26 septembre 1815-29 décembre 1818), de l'intérieur jusqu'au 19 novembre 1819 ; président du Conseil jusqu'au 20 février 1820 ; ambassadeur à Londres jusqu'en décembre 1821.

découvrit une âme de directeur des domaines, quand ce dernier poste eut été créé. Gérardin éprouva quelques ennuis dans cette carrière toute nouvelle et offrit sa démission à l'intendant civil ; celui-ci l'aurait bien acceptée sans la difficulté de remplacer un homme qui, à défaut d'autres mérites avait celui de parler l'arabe.

Lauxerrois, ancien élève de l'Ecole des langues orientales, avait été depuis 1817 constamment employé en Orient, comme interprète ou gérant de consulat à Constantinople, dans les Echelles du Levant. Il était drogman du consulat de France à Bône lorsque, le 2 avril 1830, il fut attaché comme interprète de turc à l'armée expéditionnaire d'Afrique, et ce fut par son intermédiaire qu'eurent lieu les principales transactions entre le général de Bourmont et les Turcs. En novembre 1831, il devint commissaire de police à Alger.

A ces fonctionnaires déjà en place s'ajoutèrent ceux que le baron Pichon emmena avec lui. « Résistant, dit-il, à toutes les demandes qui me furent faites à Paris, je n'emmenai que les personnes attachées à mon cabinet, et payées sur mes frais de bureau, au nombre de cinq (1). » « Un, le plus ancien, M. Lamotte, est une charge que je me suis imposée pour obliger M. de Rayneval (2) qui l'a longtemps employé, ainsi que M. de Portalis (3), comme copiste ; il n'est guère bon qu'à cela. Je l'ai pris pour être agréable à M. de Rayneval qui l'avait à sa charge ; je n'en tire pas grand parti et je ne serais pas fâché que M. de Rayneval le prît avec lui, dans son ambassade.

« Celui qui vient après, M. Couronne, est encore un

(1) Pichon, *op. cit.*, p. 42.
(2) Gérard de Rayneval (J. M.), sous-secrétaire d'Etat des Affaires étrangères, du 17 octobre 1820 au 14 décembre 1821 ; ambassadeur en Espagne (1832-1836).
(3) Portalis (J. M., comte), sous-secrétaire d'Etat de la Justice, du 21 février 1820 au 14 décembre 1821 ; Ministre de la Justice du 4 janvier 1828 au 14 mai 1829.

copiste que j'ai pris à la vive recommandation de M. de Glasson. C'est un ancien capitaine du commerce qui a conservé quelques habitudes de l'état qui nuisent à l'assiduité, mais honnête. J'aurai bientôt du secours dans mon jeune fils.

« J'ai ensuite deux autres jeunes gens, le jeune Laporte, fils du consul à Tanger, qui est mon *seul interprète*, dont je ne saurais trop me louer pour la sûreté, la douceur et la probité. Enfin, j'ai un jeune homme de l'âge de mon fils, et son camarade de collège que j'avais mené avec moi à Saint-Domingue, il y a deux ans, jeune homme d'espérance, mais qui ne peut encore qu'expédier.

« Après ce personnel à ma charge, j'ai M. Lowasy qui m'a été donné par vous et dont je suis parfois content, parfois moins. Il m'est fort utile pour les chiffres et la comptabilité ; mais chez ce jeune homme les habitudes et le goût du commerce prédominent.

« Il me faut donc de toute nécessité un secrétaire d'intendance capable. Envoyez-moi un auditeur qui ait fait quelque preuve ou quelque secrétaire général de préfecture qui entende la triture des affaires...

« Un besoin urgent, c'est celui d'un président de la cour de justice avec un procureur du roi. Celui que j'ai nommé va bien (1), mais un président est de toute nécessité. Faites, je vous prie, choix d'un magistrat ayant de l'expérience et de la maturité et quelque science. Il y a ici lieu d'appliquer tout cela, attendu l'état mixte des juridictions...

« N'envoyez pas ici un homme d'opinions exaltées, ni un nécessiteux, ni un spéculateur. Les emplois ne sont ici qu'un moyen de défrayer la spéculation sur les terres et les entreprises diverses. Vous jugez comme le Roi est servi.

(1) M. Hautefeuille, avocat à la Cour d'appel de Paris, nommé procureur du roi à Alger, le 3 février 1832.

« ... Je me borne, pour le domaine, à vous demander un second, mais un second *capable d'être premier* et un receveur et tous deux pris dans l'administration des Domaines et de l'Enregistrement. La chose en vaut la peine, mais il faudra que ces employés apportent avec eux tous les registres (1) ».

Ce n'était point parmi les divers candidats qui, à Alger même, attendaient sans patience, que l'on pouvait trouver ces fonctionnaires de carrière.

Les hautes fonctions que le duc de Rovigo avait occupées sous l'Empire ainsi que son mariage avec Mlle de Faudoas, lui avaient valu de nombreuses amitiés qui, après s'être un peu recueillies tant qu'il fut dans la disgrâce, ne manquèrent pas de se manifester activement, lorsque le sort en eût de nouveau fait quelqu'un dont on pouvait tirer quelque chose. Chez beaucoup de ses compagnons d'armes qui traînaient dans la médiocre oisiveté des demi-soldes leurs redingotes héroïques et rapées, la nomination en Afrique du confident de l'empereur fit luire l'espérance d'un temps meilleur. Il ne tarda pas à être accablé de sollicitations.

« Monsieur le Duc, lui écrivait un vétéran de l'empire, l'ex-colonel Gaspard Thierry, mon vœu le plus ardent est exaucé, vous *revoilà* dans une position digne de vous-même et de la France.

« Je considère l'acte du gouvernement actuel comme une ovation à la glorieuse mémoire du grand homme qui vous avait accordé son amitié et toute sa confiance.

« Que le grand architecte de l'univers vous soit en aide ! ! ! et assure votre prospérité et les consolations de votre intéressante famille !

« Maintenant il me sera permis d'exprimer un autre vœu pour ce qui m'est personnel : c'est l'espoir de vous re-

(1) Lettre au président du Conseil, du 31 mars 1832 (*Archives Gouvt. Gén.* E 82).

joindre incessamment mon général, afin de vous donner les preuves de mon parfait et entier dévouement. Ce sera pour la cinquième fois que votre insatiable bonté aura retiré un ancien compagnon d'armes de l'ornière où l'esprit de parti et la malveillance l'ont trop souvent poussé. »

En même temps il adressait au président du Conseil une « note sur la fausse position » où il se trouvait « après la glorieuse révolution de juillet ». C'est une histoire à la fois lamentable et comique ; ce fut celle de beaucoup de ces soldats de l'empire livrés tout à coup à l'oisiveté et à la liberté complètes.

Mis en demi-solde après Waterloo, le colonel Gaspard Thierry se vit « brutalement poussé à la trop modique pension de retraite de 1.830 francs. » Incapable de ne rien faire, il se livra « à d'honorables spéculations » dont le résultat fut celui qu'on pense. « L'inexpérience d'une part, et des sinistres imprévus de l'autre » complétèrent la ruine de ses affaires.

En 1830, il se jeta « franchement dans le mouvement » et reçut « l'honorable mission de veiller à la sûreté du Palais-Royal ». Il joignait à son dire plusieurs exemplaires lithographiés d'une attestation de Lafayette que « le colonel G. Thierry, chargé de la défense du poste du Palais-Royal, a rempli cette mission à sa satisfaction. » Malheureusement, ajoute-t-il, « des commensaux du Palais, voulant éloigner du Prince l'un de ses anciens compagnons de Jemmapes, réussirent, en employant d'insignes calomnies, à m'éloigner du poste où la reconnaissance devait me fixer pour toujours. »

Il terminait par l'espoir que le « très respectable Président du conseil le tirerait de la fausse position » où l'avaient jeté « les omissions, l'indifférence et l'oubli. »

Et il faisait ses offres de service. Quelle affaire plus urgente que la colonisation de l'Afrique ? Précisément voici tout organisée — sur le papier s'entend — une Légion dite d'Afrique composée de soldats combattants et de travailleurs. Tout y était prévu, même et surtout les chefs. Car ce candidat à une direction imaginaire avait déjà choisi son lieutenant, un nommé Kretly (1), auteur d'un projet de colonisation militaire.

La Légion d'Afrique ne plaît-elle point ? Voici un autre article plus avantageux. Que diriez-vous du projet « grandiose » d'une Société agricole, commerciale et manufacturière ? Semblable à ces personnages de Balzac qui, ayant perdu leurs quatre sous, manient des millions imaginaires, l'ex-colonel, fort en peine d'assurer sa propre existence, constituait des Sociétés financières, où faisaient très certainement défaut les actionnaires et peut-être même les agriculteurs, mais il n'y manquait point une épigraphe convenable, tirée, paraît-il, de Cicéron : « *Omnium rerum ex quibus aliquid conquiritur, nihil est agriculturæ melius, nihil uberius, nihil dulcius, nihil homine dignius.* » Evidemment...

Ces belles propositions n'obtenaient aucune réponse, et notre homme auquel on ne saurait dénier la vertu de la ténacité, d'adresser lettre sur lettre « au très excellent et très respectable » président du Conseil ou à son entourage. Il se recommande — argument suprême — d'un « M. Dumesnil qu'un court séjour retient à Paris et qui, dans la Société, est *surnommé le Prophète*, parce que ses pronostics se sont réalisés. » Qu'attend-on pour l'envoyer à Alger où sa présence est utile alors que son séjour à Paris est sans objet ? Hésite-t-on devant des plans aussi grandioses ? Qu'à cela ne tienne ; il est tout prêt à inspecter les haras de la Régence lesquels — détail sans importance — n'existent pas, ou encore à organiser à Alger la garde nationale.

Il reçoit cependant des « preuves palpables » de la

(1) Un lieutenant Kretly fut compromis dans le complot de Paris (19 août 1820).

bonté du ministre, ce qui inspire à sa gratitude « de déjouer les sinistres projets de la malveillance » et de « surveiller les méchants qui oseraient conspirer contre la conservation de celui dont les nobles sentiments et le grand caractère assureront la prospérité de notre belle France. »

Enfin, après s'être plusieurs fois présenté « pour prendre les ordres du ministre » qui s'obstinait à ne lui en point donner, il reçut le 18 février 1832 un permis de passage pour Alger ainsi qu'une somme de 500 francs.

Il n'obtint point davantage, sinon les rations de vivres que lui fit octroyer le duc de Rovigo. A toutes les demandes de mise en activité qui lui furent faites en faveur de l'ex-colonel Gaspard Thierry, le ministre se borna à opposer les règlements.

Un autre solliciteur, M. Hamelin, frère de la comtesse de Bondy, se recommandait de cette parenté et de l'appui de M. Molé. Ses relations avec Rovigo remontaient à la campagne d'Egypte ; il aurait même eu quelque emploi dans la nouvelle administration du pays (1). Le passé de cet homme paraît avoir été assez troublé, car, à peine l'eût-il amené à Alger que le duc écrivit au ministre pour protester à l'avance contre la calomnie qui représentait Hamelin comme un spéculateur en quête d'affaires (2). A tort ou à raison, toutes les fois que le nom d'Hamelin fut mis en avant pour quelque emploi public, il y eut contre lui un véritable mouvement d'opinion. Voici encore un M. Bidault, recommandé par le député Vatout, bibliothécaire du roi et le propre gendre de Soult, le comte Jules de Mornay, et dont le principal titre était

(1) A en croire Rovigo, cet Hamelin aurait « débrouillé le chaos des finances de la Haute-Egypte. » Cependant, on chercherait vainement son nom dans le travail de Peyrusse, *Les Finances de l'Egypte pendant l'occupation française*. (*Revue britannique*, 1882, t. v, p. 437 et sq.).

(2) Rovigo à Soult, 20 janvier 1832. (*Arch. Guerre*).

d'avoir dissipé une fortune de 40.000 livres de rentes (1) ; — un M. Amanton qui avait fait un séjour en Russie où il avait éprouvé des revers — notons que la plupart de ces candidats aux fonctions publiques n'avaient pas su gérer leurs propres affaires ; — un M. Baudoin, ancien imprimeur du *Constitutionnel* ; — un M. Capé, avocat à la Cour de Paris et décoré de juillet ; un M. Fisson qui, heureux homme, n'avait pas, semble-t-il, encore d'histoire ; — un M. Combes, recommandé par le docteur Lanyer et qui prétendait se livrer à des explorations agricoles.

Et, de temps en temps, les courriers, heureusement peu fréquents, débarquaient quelques nouveaux candidats à des postes à créer.

« Hier, écrit le baron Pichon, m'est arrivé ici M. Aubé, de Meaux, qui, venu avec M. Bonnelier (2), m'assure que celui-ci lui a promis la direction d'une ferme du gouvernement. Il m'assure aussi que vous allez m'écrire pour lui donner un emploi de ce genre. N'en faites rien, si la chose est à faire. Nous n'avons ici aucun emploi de ce genre. La Ferme modèle n'est plus, à ce qu'il paraît, qu'un poste militaire et M. le duc de Rovigo, à cause de son insolvabilité, pense à l'évacuer (3).

Plus heureux était l'ancien commissaire de police à Barcelone pendant l'occupation impériale, Beaumont-Brivazac (4), parent du général en chef, qui, à peine débarqué, se voyait nanti du commissariat de police et du poste de juge royal à Bône.

La prise de cette dernière ville permettait encore de caser Bidault comme sous-intendant civil, et comme ni

(1) « Il a vécu dans une atmosphère bien opposée à celle qui convient à un administrateur éclairé ». Boyer au ministre, 25 sept. 1832.

(2) Auteur de *Mœurs d'Alger ; Juives et Mauresques*. — Paris, 1833, in-8°.

(3) Pichon à Périer, 1er février 1832. (*Arch. Gouvt. Gén.* E 82).

(4) Il est souvent cité dans l'ouvrage de Conard, *Napoléon et la Catalogne*. — Paris, 1910, in-8.

lui, ni Brivazac n'entendaient goutte aux affaires de justice, on devait les doter d'un conseil judiciaire en la personne de l'ex-avoué Guérin Toudouze, nommé greffier du tribunal.

A Oran, le poste de juge royal étant vacant, Pichon en pourvoyait incontinent le susdit Capé, et la mort de Cadet Devaux, commissaire royal près la municipalité d'Alger, lui donnait l'espoir de pourvoir Hamelin. Vainement ; les protestations étaient telles que Rovigo lui-même hésitait à signer cette nomination. Cependant, l'avocat Cottin arrivait de Paris avec sa commission en poche.

« J'ai encore sur les bras M. Hamelin, M. Amanton, M. Fisson, M. Beaudoin, M. Combes. Je voudrais, pour tout au monde, n'avoir pas le pouvoir de nommer à une place ; c'est ma désolation », s'écriait le malheureux Pichon (1).

Assez rares étaient les postes administratifs possibles; restait la colonisation, vaste champ ouvert à toutes les activités ..

Le 26 janvier 1832, le commandant en chef proposait à l'intendant la création « d'une agence coloniale qui aurait à recevoir des mains du domaine les terrains destinés à la colonisation, à en faire la division par lots, à prendre connaissance de l'état des colons arrivés et arrivants, à leur faire la répartition des lots et à veiller à ce qu'ils les mettent en culture. » Et il ajoutait : « Je vous proposerai comme chef M. Hamelin, qui a justement la philanthropie de caractère nécessaire pour bien diriger cette opération ainsi que les connaissances qu'elle exige... » (2).

Cette première pointe fut repoussée avec perte : « Je ne pourrais, répondit le baron Pichon, me prêter à une

(1) Pichon à Périer, 26 avril 1832. (*Arch. Gouvt Gén.* E 82).

(2) Rovigo à Pichon, 26 janvier 1832. (*Ibid.*, E 47). publiée dans Pichon, (*op. cit.*, p. 363).

pareille création. En elle-même, je la regarde comme un intermédiaire inutile entre les colons et l'administration propriétaire. Elle n'aurait que deux résultats certains, de la dépense et des embarras » (1)...

La colonisation algérienne se présente, au début de 1832, sous un aspect plutôt vague. A Alger, on comptait, paraît-il, 685 colons en février et l'on ne négligeait rien pour en augmenter le nombre. Il ne se passait pas de jour que l'on n'enrôlât, de gré ou de force — on a conservé des lettres de protestation — quelque artisan que l'on muait ainsi en colon (2). On forma ainsi une compagnie de colons malgré eux qui fut enregimentée sous les ordres du colonel d'Esparbès. Celui-ci, ne sachant à quoi occuper ces hommes auxquels on n'avait à donner ni terres, ni outils, ne pouvait que les passer en revue. La misère de ces pauvres gens était grande. L'intendant civil déclarait avec raison qu'aucune terre ne pouvait être aliénée sans qu'on fût au préalable assuré qu'elle n'était revendiquée par un légitime propriétaire et, d'autre part, la main-d'œuvre étrangère faisait, par son bon marché, une concurrence victorieuse aux ouvriers agricoles d'Europe (3).

Ces raisons ne pouvaient arrêter nos colonisateurs. Ils en avaient assez d'être au régime des rations de pain de viande et de fourrage, qui ne pouvaient remplacer le numéraire. Peu leur importait, d'ailleurs, que l'on ne pût songer de longtemps à coloniser le pays ; l'essentiel n'était-il pas de créer des directions de colons, des directions de colonisation, des directions de cultures, des directions de fermes-modèles ? (4).

(1) Pichon à Rovigo, 31 janvier 1832. (*Ibid*) publié dans *Ibid.*, p. 364).

(2) Pichon à Périer, 1er février 1832. (*Arch. Gouvt. Gén.*, E. 82).

(3) Le même au même, 18 février 1832 (*ibid.*).

(4) Ces directions représentaient des traitements de 6 à 7.000 francs, somme considérable à l'époque, mais qui le paraît un peu moins aujourd'hui.

Leur persévérance finit par triompher. « Je vois bien, constatait Pichon, qu'il me sera impossible de ne pas nommer M. Hamelin directeur de la colonisation (1) ». Ce fut cependant Amanton qui eut le poste, à cause de la défaveur dont l'autre était l'objet.

« Je crois, disait à ce propos le duc de Rovigo, que M. Hamelin est victime d'une intrigue peu honorable qui devrait au moins respecter le repos qu'il est venu chercher ici... Je le considère personnellement comme très en état d'être utilisé ici, mais je le trouve sous le feu croisé de tant d'intrigues que je commence à m'en inquiéter moi-même... » Et une note rédigée au ministère précise : « On se croit sous l'obligation d'ajouter que M. Hamelin n'est pas bien vu, qu'à tort ou à raison l'opinion publique lui est défavorable et que sa nomination à des fonctions qui le supposeraient investi de la confiance de l'autorité contribuerait à discréditer celle-ci. »

Amanton fut donc nommé et Hamelin dut se contenter d'une somme de 500 francs pour l'indemniser de ses « travaux préparatoires à la colonisation » ; il faut entendre diverses notes rédigées par lui, mais d'après des renseignements fournis, paraît-il, par ledit Amanton.

Par une ironie du sort, le vœu exprimé par le baron Pichon que « le gouvernement laissât arriver au public les notions qu'il possède et ne permette plus d'émigrations irréfléchies (2) » fut réalisé par le nouveau gérant de la colonisation. Débordé par l'invasion de gens de toutes nations, que des prospectus alléchants attiraient en Afrique où on ne pouvait les employer, Amanton dut faire paraître dans les journaux l'avis que l'on ne recevrait de colons à Alger « que ceux qui justifieraient avoir les moyens d'existence pour un an, l'administration n'ayant à sa disposition de secours ni en argent, ni en

(1) Le même au même, (*ibid.*).

(2) Le même au même, 18 février 1832. (*Arch. Gouvt Général* E 82).

vivres (1). Dans ces conditions, on eût pu faire quelque temps encore l'économie d'un directeur de la colonisation.

Les importunités de candidats toujours plus nombreux, ainsi que les campagnes de presse par lesquelles se manifestaient leur mécontentement contre l'intendant civil, déterminèrent celui-ci, dont la situation était, d'autre part, rendue intenable par ses conflits avec le général en chef, à demander son rappel.

« J'ai reçu ce matin, écrivait-il le 24 mai 1832, une lettre de France et des journaux qui m'annoncent mon prochain retour en France ; c'est ce qui peut m'arriver de plus agréable (2) ».

A cette date, Casimir-Périer était mort depuis huit jours. En dehors de toute autre circonstance, sa mort devait marquer fatalement la fin de l'institution qui était son œuvre personnelle. Soult n'attendit même pas que le premier ministre eût disparu pour donner à la guerre la haute main sur les affaires d'Alger. Une ordonnance du 12 mai 1832 abrogea celle du 1er décembre précédent et plaça l'intendant civil sous les ordres du général en chef. Ainsi fut rétablie l'unité de commandement. Cela n'empêcha d'ailleurs pas le nouvel intendant, M. Genty de Bussy (3), de se permettre toutes les usurpations de pouvoir possibles, sans que le duc de Rovigo, satisfait que sa suprématie eût été établie sur le pouvoir civil, y trouvât matière à discussion.

Le baron Pichon laissa à Alger — suivant l'expression d'un témoin peu suspect — le souvenir d'un « homme de

(1) *Moniteur Algérien*, 1er septembre 1832, n° 31.

(2) Pichon à Périer, 24 mai 1832. (*Arch. Gouvt. Gén* E. 82).

(3) Genty de Bussy, sous-intendant militaire, maître des requêtes au conseil d'Etat, intendant civil à Alger, du 12 mai 1832 au 12 août 1834. Auteur de : *De l'établissement des Français dans la Régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité*. — Paris, 1835, 2 vol. in-8.

bien ennemi déclaré de l'injustice (1) ». Rentré en France, il reprit au conseil d'Etat sa place comme conseiller en service extraordinaire jusqu'en 1848, date de la suppression de ce service. Il mourut à Paris le 10 septembre 1854 (2).

Son ouvrage : *Alger sous la domination française*, qui parut en 1833, est la justification de son administration en Afrique. Si les jugements sévères que porte l'auteur sur la politique suivie à Alger et notamment sur l'administration militaire peuvent paraître exagérés, cet ouvrage permet, par cela même, de contrôler la correspondance du duc de Rovigo. De plus, par les faits qu'il mentionne et les documents qu'il reproduit, il apporte à l'histoire des premières années de la conquête une importante contribution.

Diverses furent les fortunes des autres fonctionnaires civils. Hamelin continua jusqu'au départ de Rovigo à solliciter une place qui lui fut toujours refusée (3). A Oran, d'Escalome ne manqua point de se brouiller avec le général Boyer. On le chargea de la sous-intendance de Bône d'où il fut rappelé au commencement de 1833 pour négligence suspecte des intérêts de l'Etat (4). — Bidault qui permuta avec lui ne laissa à Oran que des regrets ; au mois de mars 1833, il vint en France où il sollicita une sous-préfecture. — Beaumont-Brivazac, juge royal à Bône, « doué d'une déplorable activité », et accusé d'avoir

(1) Pellissier de Reynaud. (*Annales Africaines*, 2e édit., t. 1, p. 33).

(2) Son second fils, le baron Jérôme Pichon, auditeur au conseil d'Etat, président de la Société des Bibliophiles, né à Paris en 1822, mort en 1896, a laissé la réputation d'un amateur d'art.

(3) Hamelin est l'auteur d'une *Notice sur Alger par un témoin séculaire*. — Paris, 1833, in-8.

(4) « M. d'Escalonne s'est permis de consentir un dégrèvement sur les droits de la pêche au corail en faveur de quatre pêcheurs toscans, et d'engager à l'avance l'assentiment de l'intendant civil à cette mesure, contraire aux dispositions des règlements sur la matière... » *Rapport au Ministre*, 13 janvier 1833).

donné à certains fonds publics une destination trop particulière, fut révoqué à la fin de 1833 (1). — Fisson reçut le secrétariat de la sous-intendance civile d'Oran ; on le retrouve en 1843 maire de Bône.

Le commissaire de police Just Lauxerrois s'entendit très mal avec le duc de Rovigo qui menaça plus d'une fois « de le faire jeter à la grève ». Après le départ de ce terrible chef, il put sacrifier en paix à son penchant pour le sexe et finit chef de bureau au ministère de la Guerre. — Amanton, doué pour le travail d'un goût au-dessous du médiocre (2), échangea en 1836 ses fonctions de gérant de la colonisation contre celles d'inspecteur des concessions rurales et du boisement. En 1842, il fut nommé inspecteur des Eaux et Forêts dans les Basses-Alpes et termina sa carrière en France. Il ne resta cependant pas sans attaches avec l'Algérie : son nom figure sur des demandes de concessions dans la province de Constantine, formées par des propriétaires, des négociants et des capitalistes de Paris, Marseille et Lyon disposant de ressources considérables (3) ». — L'imprimeur Beaudouin devint rédacteur unique du *Moniteur Algérien*. La place ayant été supprimée, il en témoigna une grande haine à l'auteur de cette mesure, Genty de Bussy. Il trouva un auxiliaire actif dans le juge à Oran, Capé, lequel fut un beau matin embarqué *manu militari* pour la France par ordre de l'intendant (4). — Enfin, le directeur des doua-

(1) Il est l'auteur de : *De l'Algérie et de sa colonisation*. — Paris, 1834, in-8°.

(2) « Je me proposais de lui (Amanton) donner le titre d'inspecteur de l'administration municipale... Mais il eût fallu pour cela qu'il se résolût à travailler quatre ou cinq jours par semaine pendant quelques heures dans les bureaux de l'intendance. Lorsque je lui en ai fait la proposition, il m'a toujours opposé la force d'inertie... » (Lettre de l'intendant civil Lepasquier au Ministre de la Guerre, du 20 février 1836).

(3) Archives Nationales, F. 80. 1182.

(4) Voici de quel style Capé qui prenait en 1834 le titre de député de la colonie d'Alger écrivait à son ancien chef : « Déposant les justes

nes Gérardin, pour lequel son service fut toujours plein de mystères donna définitivement sa démission le 5 février 1833. Il prit sa retraite en 1860 comme directeur des postes à Alexandrie.

Tels furent les premiers représentants de l'administration civile, les premiers pionniers de la colonisation officielle à Alger.

G. Esquer.

---

ressentiments de votre conduite à mon égard, je me suis borné, le tableau de vos turpitudes et de vos concussions en main, à provoquer votre destitution comme réparation impérieuse aux intérêts et à l'honneur de la colonie que vous avez également foulés pendant toute votre administration. Mon mandat public se trouvant ainsi accompli, je me dois maintenant de vous demander réparation privée des préjudices et des outrages dont vous m'avez accablé. Dans ce but, j'attends votre arrivée à Paris. » (*Arch. Nat.* F 80. 237).

Capé est l'auteur de : *Lettres à MM. les rédacteurs des journaux à tous les citoyens.* — Paris, 1833, in-8°. — *Projet d'amélioration... des administrations civile, judiciaire et militaire dans les possessions françaises de l'Afrique du Nord.* — Paris, 1834, in-8°. — *Quelques mots adressés à la Grande Commission d'Alger... ibid.* — *Note fournie à M. le lieutenant-général comte d'Erlon, gouverneur général, au sujet de la propriété, conciliée... avec le logement militaire... ibid.*

NOTES

SUR LE DIALECTE ARABE DU TCHAD

Il y a près de cinq ans déjà que M. Gaudefroy-Demombynes, réunissant sous le titre : *Rabah et les Arabes du Chari*, quelques notes et documents rapportés par le Dr Decorse, en a dégagé les caractères principaux de la langue parlée des Arabes du Tchad. Aucune étude nouvelle n'est, à ma connaissance, venue compléter sur ce point les recherches de M. Gaudefroy-Demombynes. Seule, cette constatation m'a décidé à rassembler et ordonner les quelques renseignements, encore bien insuffisants, que j'ai pu recueillir à ce sujet pendant mon récent séjour au Centre Africain. Laissant à d'autres plus autorisés le soin de rédiger un travail d'ensemble sur ce dialecte, j'ai tenté seulement d'en mettre en lumière les particularités phonétiques et morphologiques.

Ces particularités, ainsi que « le caractère nettement bédouin et oriental du vocabulaire (1) », suffisent à expliquer le découragement où tombent souvent les Européens qui, munis tout simplement d'un manuel d'arabe maghrébin, espèrent arriver en peu de temps à une connaissance suffisante de la langue parlée autour d'eux. Mon vœu serait entièrement réalisé si les quelques pages

(1) *Rabah et les Arabes du Chari.* J'ai dû plus d'une fois dans le cours de mon étude faire de larges emprunts à cet ouvrage. Je m'en excuse à nouveau auprès de son auteur qui fut toujours pour moi un guide si bienveillant.

العربيّة المعاصرة لغةً للحضارة

L'arabe contemporain comme langue de civilisation

لـ(جان لوسيرف/ Jean Lecerf)

ترجمة ودراسة: د. كبير بن عيسى

مقرّر لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

بمناسبة الذّكرى المئوية لاحتلال الجزائر (1830-1930)، نشر (وليام مارصي) ثلاث مقالات تناول فيها ظاهرة الازدواجيّة اللّغوية (العربيّة الفصحى مقابل العربيّة الدّارجة) في شمال أفريقيا، بوصفها إحدى أبرز التحوّلات التي أفرزها الاحتلال، وقد سعى من خلال تحليله لهذه الظّاهرة إلى التّرويج لضرورة إدماج اللّغة الفرنسيّة وتعميمها، تكريسا لهيمنة المستدمر. وقد تأرجّح خطاب (مارصي) بين مبدأين متلازمين أنتجا متلازمتين اثنتين؛ أوّلأهمّا: "متلازمة صريحة" تتقنّع بقناع علمي وتتجلّى في العلامات اللّسانية الظّاهرة، والأخرى: "متلازمة ضمنيّة" جوهرها التّوظيف الأيديولوجي الاستدماري.[1]

وإذا كان (مارصي) قد تناول ظاهرة الازدواجيّة اللّغوية في المغرب العربي، فإن مقال المستعرب (جان لوسيرف) الذي نقدّم لترجمتنا له قد تناولها في المشرق العربي، بقدر غير قليل من العقليّة التي حكمت مقال (مارصي)، فنصّ (لوسيرف) الذي نحن بصدد ترجمته[2]، رغم ادعائه الموضوعيّة الأكاديميّة، يحمل في طيّاته رؤية استدماريّة عميقة، تتجاوز التّحليل اللّغوي إلى تشخيص سياسي وثقافي لمصير المشرق العربي تحت تأثير النّفوذ الاحتلالي الأوروبي.

***يعيد (لوسيرف) إنتاج التّقسيم الاستدماري للمنطقة العربيّة إلى:

- **مناطق "نافعة":** مصر وسوريا السّاحلية (لبنان وفلسطين)، حيث الوجود الأوروبي قويّ؛
- **مناطق "هامشية":** شبه الجزيرة العربيّة، حيث الفيافي والقفار، وبذلك يمكن تجاهلها ثقافياً؛
- **مناطق "متنازع عليها":** العراق، حيث الصّراع بين النّفوذين البريطاني والتّركي؛

هذا التّقسيم ليس محايداً؛ فهو يعكس أوّلويّات السّياسة الاستدماريّة الفرنسيّة التي تركّز على سوريا ولبنان بوصفها مناطق نفوذ مباشر، ومصر منطقة نفوذ غير مباشر.

***يوظّف (لوسيرف) مجموعة من المفاهيم التي تحمل أبعاداً استدمارية:

الازدواجيّة اللّغوية: تقسيم اللّغة العربيّة إلى فصحى "ميّتة"، وعامية "متدهورة" لتسويغ الحاجة إلى لغة أوروبيّة؛

1- ينظر: الازدواجيّة اللّغوية العربيّة من خلال الخطاب الاستعماري: وصفها وتحليلها عند و. مارصي، شرّاد ياسمينة، مجلّة جامعة قسنطينة- العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، 1991. ع2، 1-12.

2- (ج. لوسيرف/(J. LECERF))، العربيّة المعاصرة لغةً للحضارة، المجلّة الأفريقيّة، 1933، مجلّد74، ص269-295.

الأرستقراطية الفكريّة: تصوير النّخبة العربيّة طبقة منعزلة عن جماهيرها، تمهيدا لإدخال المستدمر وسيطا بين الفئتين؛

البروليتاريا الرّيفية: تقديم سكّان الرّيف بوصفهم ثلّة غير قادرة على المشاركة الحضاريّة؛

مراكز/أطراف: إعادة إنتاج النّموذج الاستدماري للمدينة/الرّيف؛ الأولى متحضّرة لأنّها تنعم بمحتلّ أوروبي، والثّانية "متخلّفة" لأنّها لم تنل ذاك الشّرف!!

***يقدّم (لوسيرف) قراءة تاريخيّة منحازة للنّهضة العربيّة من خلال:

1. إعادة كتابة التّاريخ لخدمة السّردية الاستدمارية: يؤرخ لوسيرف لبداية النّهضة العربيّة بتعيين محمّد علي واليا على مصر (بسبب الإدارة والصّحافة)، ويرى أنّ محرّكها الفاعل هم السّوريون المهاجرون الذين استفادوا من الحرّية المصرية، وبذلك تشكّلت الحركات الوطنيّة التي قادت إلى تفكّك الدّولة العثمانية.

هذه القراءة أقصت بقيّة العوامل، والتي في مقدّمتها الحركات الإصلاحية الداخليّة (محمّد بن عبد الوهّاب، جمال الدّين الأفغاني، محمّد عبده، محمّد رشيد رضا...)، واستمرارية الثّقافة العربيّة رغم الاضمحلال السّياسي، إضافة إلى دور اللّغة العربيّة بوصفها وعاء للهويّة رغم التّهميش المؤسّسي.

2. النّهضة ردة فعل على التّحدي الأوروبي: يرى (لوسيرف) النّهضة العربيّة نتيجة للضغط الأوروبي لا فعلا ذاتيا؛ فاللّغة العربيّة، حسب منطقه، استيقظت بسبب الحاجة إلى مواجهة اللّغات الأوروبيّة، وتقليدا للنّماذج الغربيّة في الصّحافة والتّعليم، وأفادت من التّنافس الاستعماري بين القوى الأوروبيّة. هذه النّظرة تختزل النّهضة في بعدها "الدّفاعي" وتتجاهل أبعادها الإبداعية والذّاتية.

***يقدّم (لوسيرف) تحليلا للتعليم واللّغة بين السّياسة الاستدمارية والمقاومة؛ من خلال:

1. التّعليم بوصفه ساحة معركة استدمارية: يصف (لوسيرف) التّعليم في سوريا ولبنان بأنّهما ميدان تنافس بين المدارس الأجنبيّة (فرنسيّة، أمريكيّة، روسيّة، ألمانيّة)، والمدارس الوطنيّة (كمدرسة بطرس البستاني)، والتّعليم الحكومي بالعربيّة، والتّعليم التّركي في المناطق الشّماليّة. وهو يقر ضمنياً بأن المدارس الأجنبيّة لم تكن محايدة ثقافياً، بل كانت أدوات نفوذ، لكنّه يقدّم ذلك بوصفه تنافسا "طبيعيا" بين الحضارات.

2. معضلة التّعليم بالعربيّة: يعترف (لوسيرف) بالتّناقض بين الرّأي العام العربي الذي يطالب بتعزيز العربيّة، وطلاب وأولياء أمور يفضّلون عملياً اللّغات الأوروبيّة؛ ويقرأ هذه الظّاهرة على أنّها "نفور" من العربيّة، متجاهلاً أنّها نتيجة النّظام الاستدماري الذي قوّض معأقلّ التّعليم في البلاد العربيّة ونشر الأمية، وجعل إتقان الفرنسيّة أو الإنكليزية شرطاً للنّجاح المهني لفئة محدودة من النّاس، إضافة إلى ضعف البنية التّحتية للتعليم بالعربيّة في المواد العلميّة، وانعدام التّكافؤ بين الاستثمار في تعليم اللّغات الأجنبيّة وتعليم العربيّة.

3. البلاغة والخطابة في بيروت: يَسْخَرُ (لوسيرف) من الظّاهرة الخطابية في لبنان، واصفاً إيّاها بأنّها فن للفن (كاريكاتير ثقافي)، منفصل عن الحياة العمليّة، وأنّها مبارزات بين أرستقراطية فكريّة، تأتي

تعويضا عن غياب الاستعمال اليومي الحقيقي للعربيّة. هذه القراءة، وإن كانت تحمل بعض الصّدق، تختزل ظاهرة معقدة في صورة نمطية، متجاهلة دور البلاغة في الحفاظ على الهويّة تحت الضّغط الاستدماري، ووظيفة الخطابة بوصفها فضاء للمقاومة الثقافيّة، وكذا الاستمرارية التّاريخيّة لهذا التّقليد في الثّقافة العربيّة والتي تدلّ بلا ريب على تمكّن من ناصية اللّغة وتفنّن فيها.

***يرسم (لوسيرف) ثلاثة سيناريوهات لمستقبل اللّغة العربيّة؛ هي:

1. السّيناريو التّركي (عودة الهيمنة العثمانية): يتخيل (لوسيرف) سيناريو عودة تركيا إلى المنطقة في حال تراجع النّفوذ الغربي، ويتوقع عودة التّهميش المؤسّسي للعربيّة، وزحف التّركية جنوباً، و"سبات" جديد للّغة العربيّة. وهذا السّيناريو يعكس الخوف الاستدماري من عودة القوّة التّركية، ويصور العرب رهائن بين القوى الكبرى، متجاهلا عمق التّغيرات الوطنيّة في المنطقة، إضافة إلى التّغير في تركيا نفسها التي التّحقت بالرّكب الغربي في ظلّ حكم أتاتورك.

2. السّيناريو السّوفياتي (ثورة اشتراكية لغويّة): يتخيل سيناريو الثّورة البلشفية في المنطقة، بظهور جمهوريات عربيّة فيدرالية، تعتمد العربيّة العامّية لغة رسمية، وتستخدم الألفبائية اللّاتينية، ما يعني "الموت المدني" للعربيّة الفصحى. وهذا السّيناريو يعكس القلق الغربي من المد السّوفياتي، ويصور الثّورة تهديدا للتراث الثّقافي العربي، وهو بذلك يعترف ضمنياً بأن العامل الطّبقي قد يحسم معركة اللّغات.

3. السّيناريو المفضّل (الوضع الرّاهن): يبدو أن (لوسيرف) يميل إلى سيناريو "الوضع الرّاهن" حيث تستمر الهيمنة الغربيّة غير المباشرة، ويستمر التطوّر الثّقافي العربي في إطار محكوم، لتحدّث عمليّة تقارب تدريجي بين الفصحى والعامّية، وتبقى الأقلّيات اللّغوية في وضع متوازن. هذا السّيناريو يعكس التّطلع الاستدماري إلى استمرار النّفوذ، ويصور التطوّر العربي عمليّة تدريجيّة وآمنة، في ظلّ "الحارس الأوروبي" الذي يضمن التّوازن.

هذه القراءة المستقبليّة لحال للّغة العربيّة من قبل (لوسيرف) تعاني من تناقضات جوهرية بين الماضي والمستقبل، إذ يقر بضعف العربيّة السّابق ويشهد نهضتها ثمّ يتنبّأ بتراجعها. وثمة تناقض بين اللّغة والسّياسة؛ فهو يعترف بأن مستقبل العربيّة مرهون بالسّياسة، لكنّه يحلّله بوصفها ظاهرة لغويّة بحتة. وأخيرا التّناقض بين المركز والأطراف؛ حينما يرى أن مستقبل العربيّة يعتمد على المناطق الداخليّة (دمشق، الجزيرة)، بينما تراهن السّياسة الفرنسيّة على السّاحل.

***يرسم (لوسيرف) الملامح الرّئيسية للخطاب الاستعماري في النّص من خلال:

1. علمنة المشكلة اللّغوية: حيث يجرد (لوسيرف) اللّغة العربيّة من أبعادها الدّينية والهوياتية، مع أنّها في الواقع مرتبطة بالقرآن والامتداد القومي العربي، وحاملة لهويّة إسلاميّة عابرة للأعراق، وموضوع نقاش ديني وإصلاحي (كما عند محمّد عبده)، وهذا التّجريد يهدف إلى جعل اللّغة قابلة للمعالجة "العلميّة" من قبل المستدمر.

2. اختزال المقاومة إلى "عاطفة قومية": يصف (لوسيرف) القومية العربيّة بأنّها "فكرة قوّة/-idée force) أو "فكرة عنيفة"، ممّا يوحي بأنّها ظاهرة انفعالية غير عقلانية، يمكن تسخيرها أو تحييدها بالوسائل السّياسية، وأنّها ليست نابعة من مصالح مادية أو تاريخيّة عميقة.

3. تصوير المستقبل بوصفه خيارات استدمارية: السّيناريوهات الثّلاثة الآنفة الذّكر كلّها تستبعد احتمالاً واحداً، وهو أن تقرّر المجتمعات العربيّة مستقبلها بنفسها بعيداً عن التّدخل التّركي أو السّوفياتي أو الغربي. وهذا يعكس استحالة تخيل الشّرق خارج إطار الهيمنة الأجنبيّة في العقلية الاستدمارية، والرّغبة في استمرار الدّور الغربي حاكما ومهيمنا.

***وبالرّغم من الطّابع الاستدماري، يحتوي النّص على اعترافات لا إرادية تفضح هشاشة هذا المشروع الاحتلالي، وتنسف أساس حجته عن تفوق اللّغات الأوروبيّة؛ يوضّح ذلك ما يلي:

1. فشل التّغريب الكامل: يعترف (لوسيرف) بأن حتى في بيروت، أكثر المدن "تغرباً"، لا تستطيع الأسر الغنيّة التّخلي عن العربيّة كلياً، وأنّ المؤسّسات الأجنبيّة مضطرّة لتخصيص مكانة متزايدة للعربيّة، والجمهور الرّيفي والبدوي يظلّ عائقاً أمام التّغريب اللّغوي.

2. المركزية الجغرافيّة للعربيّة: يعترف بأن الصّحراء العربيّة شكّلت حاجزاً أمام التّوسع اللّغوي الأوروبي؛ لأنّها لا تؤدي إلى موانئ مهمّة، لأنّ البدو يظلون خارج نطاق التّأثير الثّقافي الغربي، لأنّهم يمثلون "تهديداً دائماً" للاتّصالات الاستراتيجيّة. وفي تلك الفترة لم تكن قد اكتشفت الموارد النّفطية والمعدنية الضّخمة في شبه الجزيرة العربيّة.

3. حتمية الدّيمقراطية اللّغوية: يعترف (لوسيرف) ضمنياً بأن توسع التّعليم سيدفع بالعربيّة إلى الأمام، وهكذا ستضعف الدّمقرطة مكانة اللّغات الأوروبيّة الأرستقراطية، وستجعل الصّحافة اليوميّة العربيّة أكثر وضوحاً وبساطة.

***يمثل نصّ (لوسيرف) في مجمله، وثيقة فريدة عن أزمة العقلية الاستدمارية في مرحلة متأخّرة؛ حيث يعترف بالنّهضة العربيّة، لكنّه يحاول احتواءها في سردية احتلالية، وفي الوقت نفسه يرى قوّة العربيّة لكنّه يتنبّأ بتراجعها في سيناريوهات مختلفة، ويدرك مركزية العربيّة للهويّة الوطنيّة لكنّه يراهن على استمرار النّفوذ الغربي، يشهد بفشل التّغريب الكامل لكنّه يعيد إنتاج الحلول الاستعماريّة. وأكثر ما يكشف النّص عن حقيقته هو قلقه العميق من مستقبل الهيمنة الغربيّة في الشّرق. فكلّ السّيناريوهات التي يتخيلها هي سيناريوهات أزمة للوجود الغربي: عودة تركيا (تهديد لمصالح فرنسا)، أو سيطرة سوفياتية (كارثة استراتيجيّة)، أو استمرار ضعيف للوضع الرّاهن.

هذا النّص باختصار يعكس رؤية رجل يرى عالمه ينهار تحت قدميه، والدّرس الأعمق الذي يقدّمه النّص هو أنّ الاستدمار، حتى في أكثر تجلياته "علميّة"، يظلّ عاجزاً عن فهم الدّيناميكيات الداخليّة للمجتمعات التي يحكمها، وعن تصوّر مستقبلها خارج إطار هيمنته. والنّبوءات التي أطلقها (لوسيرف) حول "سبات" جديد للعربيّة أثبت التّاريخ زيفها، فهي اليوم أكثر حيوية وانتشاراً ممّا كانت عليه في زمن كتابته. ومن باب الإنصّاف الإشارة إلى مواضع من المقال، أبدى فيها (لوسيرف) انبهاره من صمود العربيّة،

وقدرتها غير الطّبيعية على الحياة، ولعلّه في ما ختم به مقاله أصدق دليل على ذلك؛ فهو يقول: "ونعتقد منذ الآن أن لنا الحق في استنتاج أنّ العربيّة قابلة للحياة تمامًا. كلّ شيء يعتمد على طريقة استعمالها. ومستقبلها بين أيدي الكتاب ورجال العمل الذين يمكنهم وحدهم أن يجعلوا لها، على حدّ قول ميخائيل نعيمة، "مكانة مشرفة في الأدب العالمي". ولا ريب أن لسانا اختاره ليكون عنوانا لآخر خطاباته إلى الثّقلين عصيّ على الكسر بله الفناء.

التّرجمة:

استُلهمت الفكرة الأوّلية لهذه الملاحظات من ثلاثة مقالات للسّيد و. مارصي (W. Marçais) -نُشرت في مجلّة (L'Enseignement Public/التّعليم العام)[1] حول وضع اللّغة العربيّة في شمال أفريقيا. وسيكون من المفيد للغاية امتلاك دراسة مماثلة تتّسم بنفس بُعد النّظر لبلدان المشرق، حيث لدينا تحديدًا مصالح ثقافيّة. وعلاوة على ذلك، يبدو أن هذا الميدان الجديد سيسفر عن نتائج مختلفة بشكل ملحوظ. فإذا كانت العربيّة في شمال أفريقيا تبدو في حالة تراجع، أو على الأقلّ في حالة جمود، فإن الوضع يختلف تماماً في الشّرق الأدنى، حيث اتسم تاريخها الحديث بتقدّم سريع ومذهل.

ويبدو لنا أنّ رسم ملامح وضع اللّغة العربيّة ينبغي أن يتمّ من وجهتي نظر، أفرد لهما السّيد و. مارصي في دراسته عن شمال أفريقيا تحليلات يمكن اعتبارها نهائية. تتمثل وجهة النّظر الأولى في المسح السّكوني والوصفي للحدود اللّغوية بين مختلف اللّغات التي تتضافر في التّعبير عن ثقافة واحدة؛ وهو منظور يظلّ خارجياً، إحصائياً بالدّرجة الأولى، ومقصوراً على الوضع الرّاهن. أمّا وجهة النّظر الثّانية، فتتمثل في الفحص الأكثر عمقاً لآفاق المستقبل، وللوضع الدّاخلي لكل لغة على وجه الخصوص، من حيث قدرتها على المقاومة، ومواردها للتكيف مع الحياة الحديثة؛ وأخيراً فرصها في المنافسات المستقبليّة. وقد قدم السّيد و. مارصي نموذجاً رائعاً لهذا التّحليل الدّقيق فيما يخصّ المغرب العربي. فكلّ من قرأ الصّفحات التي خصصها لـ "الازدواجيّة اللّغوية العربيّة/diglossie arabe) يدرك عواقب القطيعة المفرطة بين اللّغة المكتوبة واللّغة المحكية.[2]

أمّا نحن، فتنقصنا معرفة وموهبة هذا المستعرب المرموق لتقدير حقائق بالغة التّعقيد، نادراً ما ينجح مراقب واحد في الإحاطة بأكثر من جانب واحد منها. وعلاوة على ذلك، لا يمكن لشهادتنا أن تغني عن إجراء بحث كالذي أشرنا إليه. وكل ما تسمح به وسائلنا المتواضعة في الاطّلاع، هو أن نعرض على القارئ عددًا قليلاً من الوقائع، التي تمّ رصدها في منطقة محدودة. ومع ذلك، تبدو هذه الحقائق كفيلة برسم صورة تختلف اختلافاً جلياً عن تلك التي تقدّمها لنا الجزائر وتونس والمغرب.

1- ديسمبر 1930، ص400-409؛ يناير 1931، ص20-39؛ فبراير 1931، ص121-133.

2- ديسمبر 1930، ص400-409.

- ففيما يخصّ النّقطة الأولى، أي تحديد "الحدود اللّغوية"، لا نملك سوى انطباعات شخصيّة قابلة لتأويلات متعدّدة. ونحن نطرحها هنا بوصفها مقدّمة لدراسة أوسع نأمل فيها تقديم وثائق لا جدال فيها، تتعلّق بالتقدّم الرّاهن للّغة العربيّة في تكيّفها مع العالم الحديث. ونعتقد أنّه يمكننا أن نشير من الآن إلى أنّ استنتاجاتنا في هذه الدّراسة الثّانية تسمح أيضًا بتشخيص حالة تتناقض بشكل حاد مع تلك التي تُلاحظ في شمال أفريقيا. بالطّبع، لم تختفِ صعوبات "الازدواجيّة اللّغوية" الشّهيرة في المشرق، كما لا تزال العوائق الأخرى التي تواجه اللّغة العربيّة قائمة. ولكن ثمّة "تجاوزات" تحدّث بين العربيّة العامّية والعربيّة المحكيّة؛ سواء كان ذلك باجتياح اللّغة المكتوبة للّغة المنطوقة، أم ربما حتى بظهور هجين، سيكون علينا أن نوضّح موقفنا بشأنه. وسيعمل عرض هذه الحقائق، في سلسلتين، على تبرير العنوان الفرعي لهذه الدّراسة: "العربيّة المحكية لغةً أدبيّة، والعربيّة المكتوبة لغةً محكيّة". ولكن قبل التّفكير في دراستها، ليس من العبث رسم ملامح الوضع الحالي للّغة العربيّة بإيجاز في الأقاليم التي كانت تابعة للإمبراطوريّة العثمانية، والتي كانت تشكل حتى وقت قريب "تركيا الآسيوية": شبه الجزيرة العربيّة، والعراق، وسوريا، وفلسطين، مضافاً إليها مصر التي تحقّقت استقلاليتها الفعليّة في وقت أبكر قليلاً.

إلى غاية نهاية القرن XIXم، يمكن القول إن اللّغة العربيّة قد استُبعدت تدريجياً من كافّة الأنشطة العليا للمجتمعات المتحضّرة:

- **إقصاؤها من الأدب:** حيث تباطأت الحياة الفكريّة تدريجياً حتى وصلت إلى نقطة الصّفر، مع الاكتفاء بطنين أبدي لـ "العلماء" الذين يطحنون الطّحين نفسه دائماً؛ مع استثناءات قليلة لبعض الكتابات العلميّة وغير المنشورة، والتي كان مقدراً لها أن تبقى كذلك.
- **إقصاؤها من الحياة العامّة والسّياسية والإداريّة والاجتماعيّة:** فقد أُزيحت اللّغة العربيّة لصالح التّركية -لغة الأسرة العثمانيّة الحاكمة- في جميع المناطق التي كانت لا تزال خاضعة لسلطتها؛ باستثناء مصر التي استقلت فعلياً في عهد محمّد علي، واستطاعت أن تحقّق تقدّماً ملحوظاً من خلال تأسيس إدارة وصحافة باللّغة العربيّة، ممّا جعل النّهضة الأدبيّة ممكنة في وقت لاحق. وإذا لم نبالغ في تقدير أهمّية محاكم الشّريعة، التي استمرّت في تنظيم الأحوال الشّخصيّة باللّغة المقدّسة، فسنقر بأن جميع المصالح الكبرى كانت تُناقش بلغة أجنبيّة.
- **وأخيراً، إقصاؤها من التّعليم:** وبالأخص التّعليم الذي كان في طور التطوّر، أي التّعليم الثّانوي، (وعن ذلك الذي كان يحمل أحياناً لقب "العالي")، ولم يترك للعربيّة سوى تعليم ابتدائي يقتصر على مبادئ القراءة والحساب. وكان هذا التّعليم، الذي عُرف منذ زمن بعيد لدى نصّارى لبنان[1]، يمتلك ما يعادله لدى المسلمين في المدرسة القرآنية. أمّا التّعليم العالي التّقليدي فكان مستمرًا حول أعمدة المساجد، ولكنّه كان يدين بجزء من رواجه لمزايا متعدّدة. وحده التّعليم الثّانوي كان مُعتدا به لدى نخب

1- انظر: خير الله، سوريا، مجلّة العالم الإسلامي (R. M. M)، المجلّد 19، ص39، المدارس الرّيفية (Les écoles champêtres) للدّويهي (1633-1704). الدّويهي: هو البطريرك الماروني والمؤرخ إسطفان الدّويهي. (المترجم).

السّلطة والمال، ولطالما قُدّم هذا التّعليم من قِبل بعثات دينية، أوروبيّة أو أمريكيّة، لم تكن تهتم بمنح العربيّة المكانة الأولى في الدّراسات، رغم الجهود المحمودة -في كثير من الأحيان- لتحسين تدريسها. وحتى لو أرادت تلك البعثات غير ذلك، فما كان بوسعها فعل المزيد دون أن تصطدم بمتطلّبات زبائن يتوقون إلى الاغتراب، أو إلى استثمار معرفتهم باللّغات الأجنبيّة في العلاقات التجاريّة والوظائف العامّة[1]. وعندما أنشأت الحكومة لاحقاً مدارس ثانويّة، كان ذلك لإعطاء العربيّة مكانة أكثر تواضعًا ممّا تفعل البعثات الأجنبيّة، وكانت لغة التّعليم هي التّركية. وكان لزاماً انتظار عصر النّهضة لرؤية المبادرة الفردية وهي تتولى قضيّة التّعليم الوطني بلغة البلاد.

ويمكننا أن نستنتج أنّ العربيّة لم تكن تبقى إلّا على شكل لهجات محلّية، مستبعدة تمامًا من أي مشاركة في الحياة المتحضّرة. ومع ذلك، فقد قاومت مثل نبات بري معمر؛ فقد ازدهر أدب شفهي لدى بدو صحاري سوريا وشبه الجزيرة العربيّة، متمتعا حتى بمكانة معيّنة لدى السّكّان المستقرين، وخاصّة الرّيفيين منهم، الذين امتلكوا هم كذلك أدبا مماثلا. لكن يمكن التّكهن بأن لغةً حُدت إلى هذا الوضع البائس كان مقدرًا لها أن تخسر الأرض، خاصّة في المدن. فكلّ الجزء الشّمالي من سوريا، ولواء الإسكندرونة، ومنطقة حلب خاصّة، كانت تُغزى ببطء من قِبل اللّغة التّركية. وفي وسط سوريا، كانت مدن الدّاخل تسلك الطّريق نفسه؛ وقد تمكن كاتب هذه السّطور، خلال مهمّة له عام 1920 بعد إعادة تنظيم العربيّة للخدمات من قبل النّظام الشّريفي لفَيْصَل، من ملاحظة مدى بقاء التّركية لغةً سائدة للإدارة في منطقة دمشق، وعلى طول مسارات التّغلغل، وبشكل رئيسي عبر خطوط السّكك الحديدية.

وحتى اليوم، وبعد زوال الأسباب، لا تزال بعض الآثار قائمة، بل إنّ اللّغة التّركية لا تزال مفضّلة في محادثات بعض العائلات الكبيرة. أمّا المنطقة السّاحلية، فقد انفتحت على التّأثيرات الأوروبيّة؛ حيث سادت الإيطالية وحتى اليونانية قديماً، لتفسح المجال -خاصّة بعد عام 1860- لأفضلية واضحة للفرنسيّة والإنكليزية[2]. ومع ذلك، نجحت الرّوسية، التي دخلت المنافسة في وقت لاحق، في خلق مراكز نفوذ بفضل مدارسها، مثل مدرسة "بسكينتا/Beskinta" التي تضمّ بين خريجيها القدامى الكاتب السّوري الأمريكي ميخائيل نُعيمة[3].

1- انظر: "منتخبات النصوص العربيّة العصرية" لعودة فاسيليفا (Oda Wassilieva) شهادة بالغة الأهمّية لمحمّد عبده، في تقريره المرفوع إلى الباب العالي بشأن الأوضاع في بيروت ولبنان (اللّائحة الثّانية في إصلاح القطر السّوري...)، (ص3، 4-11). الكتاب المشار إليه: هو "المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربيّة"، للكاتبة الفلسطينية كلثوم نصّر عودة مع مقدّمة لأغناطيوس كراتشكوفسكي. لينغراد: 1928-1929، جزءان. (المترجم).

2- انظر: النّصّ المقتبس لمحمّد عبده، ص4.

(لوائح الإصلاح والتّعليم الدّيني)؛ كتبها الشّيخ محمّد عبده في منفاه ببيروت، ووقع عليها بعض وجهاء المسلمين، وأرسلها إلى سماحة شيخ الإسلام بالآستانة وذلك في 26 جمادى الثّانية سنة 1304. انظر: تاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبده، محمّد رشيد رضا (505/2)، ط: 2، دار الفضيلة، 2006م. (المترجم)

3- انظر: كراتشوفسكي، ميخائيل نعيمة، السّيرة الذاتية، في "عالم الإسلام/Die Welt des Islams"، المجلّد 13، 1931، ص106.

بحلول عام 1913 تقريباً، كانت الألمانية بدورها قد وضعت بعض الرّكائز، ولولا اندلاع الحرب العالمية لربما شهدنا توسعاً أكبر في هذه المنافسة الجميلة ببعض الوحدات. ومن السّهل تصوّر وضع اللّغة العربيّة، بين كلّ هذه التّأثيرات المتنافسة، استناداً إلى الشّهادات المعاصرة. وبقدر ما تسمح لنا تلك الشّهادات بإعادة بناء المشهد، كان الوضع أشبه بحالتها الرّاهنة في شمال أفريقيا، أو بحالة بقايا اللّغات الباسكية والسّلتية في غرب أوروبّا في الفترة نفسها: سلسلة من اللّهجات المحكية، المهدّدة بالزّوال، رغم كلّ المظاهر الانفصالية. مع ذلك، استيقظت اللّغة العربيّة من هذا السّبات، أو يمكننا القول من هذا الموت بفضل جهد رائع بدأت ملامح تاريخه تتّضح، لا سيما بفضل أعمال السّادة (Massignon/ماسينيون)[1] و(Gibb/جيب)[2]، و(Krachkovsky/كراتشكوفسكي)[3]، و(Kampffmeyer/ كامبفماير)[4]. ويمكن العثور على عرض للسمات النفسيّة لهذا التحرّك في المقال الأخير من مقالات السّيد (و. مارصي) الثّلاثة[5].

1- لويس ماسينيون/Louis Massignon (1883-1962): أحد أبرز المستشرقين الفرنسيين وأشهرهم، اختار الفلسفة والأدب وحصل على الإجازة عام 1902، ثمّ تقدّم ببحث عن بلاد المغرب بعد زيارة لها، ونال دبلوم الدّراسات العليا 1904. تابع دراسته للحصول على دبلوم اللّغة العربيّة (الفصحى والعامية) من المدرسة الوطنيّة للغات الشّرقيّة عام 1906. وتعلّم أيضاً التّركية والفارسية والألمانية والأنكليزية. عُني بالآثار الإسلاميّة والتّحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشّرقيّة في القاهرة. شغل عدّة مناصب مهمّة، ومن بينها مستشار وزارة المستعمرات الفرنسيّة في شؤون شمال أفريقيا، وكان الرّاعي الرّوحي للجمعيات التّبشيرية الفرنسيّة في مصر. (المترجم)

انظر: بدوي عبد الرّحمن، موسوعة المستشرقين، ط.3، 1993، دار العلم للملايين، لبنان، ص529. مجموعة من المؤلّفين، الموسوعة العربيّة، سوريا، 2007، 492/17.

2- إلياس جيب/ Elias Gibb (1857-1901): مستشرق إسكتلنديٌ تخصَّص في تاريخ العرب والفرس والتّرك، حصل على البكالوريوس من جامعة جلاسجو في سنة 1873، وتابع دراساته العليا لكنّه لم يحصل على أية شهادة. فعكف منذ وقت مبكر على دراسة اللّغة العربيّة، والفارسية، وكان له ولع باللّغات الشّرقيّة، لكنّه صرف معظم اهتمامه إلى اللّغة التّركية وآدابها. ترجم عددا من الكتب التّركية إلى الإنكليزية أهمّ كتاباته «تاريخ الشّعر العثماني»، وهو أكبر وأدق موسوعة في هذا الموضوع. (المترجم)

انظر: كامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، دار الكتب العلميّة، لبنان، 2003. 386/1. بدوي عبد الرّحمن، موسوعة المستشرقين، ص172.

3- إغناطيوس كراتشكوفسكي (Крачковский, Игнатий Юлианович) (1883-1951): أحد أعمدة مدرسة الاستشراق الرّوسي. وكان عضوًا مراسلًا في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، وعضوًا عاملًا في قسم التّاريخ واللّغات في الأكاديمية الرّوسية للعلوم. شُغف منذ صغره بدراسة آراء المستشرقين ودراسة اللّغة العربيّة. التّحقَ عام 1901 بكلّية اللّغات الشّرقيّة في جامعة سان بطرسبرغ، فبدأ بالغة العبرية واللّغة الحبشية، كما حضر دروس جوكوفسكي في اللّغتين الفارسية والتّركية التّتارية، ودرس تاريخ الشّرق الإسلامي، وله العديد من المؤلّفات؛ منها: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، دراسات في تاريخ الأدب العربي منتخبات، حياة الشّيخ محمّد عيّاد الطّنطاوي. (المترجم)

انظر: كامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء، 374/1. نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، ط.3. 949/3.

4- جيؤرج كَمْپفْمَيَر (Georg Kampffmeyer) (1864-1936): مستشرق ألماني، درس الفلسفة وعلم اللّاهوت واللّغات السّامية والرّومانسية في جامعات برن ولوزان وفلورنسا وبرلين. حصل على درجة الدّكتوراه في الفلسفة من جامعة لايبزيغ، ثمّ على شهادة التّأهيل للأستاذية، ثمّ نال لقب أستاذ متفرغ (بروفيسور فخري) عند بلوغه سن التّقاعد الالزّامي. اهتم كمفماير بأحوال العالم الإسلامي المعاصر، وبأوضاع البلاد العربيّة في الوقت الحاضر، ليصبح خبيراً في اللّهجات العربيّة لهذه المناطق، وأبحاثه ومقالاته وكتبه تدور غالبها حول هذه الموضوعات؛ ومن جملتها: «الأسماء القديمة في فلسطين وسوريا الحاليتين»، «إسهامات في علم اللّهجات العربيّة»، «أبحاث في النّبرة في اللّغة العربيّة»، «نصوص من فاس وطنجة»، «وثائق وتقارير عن التّاريخ المعاصر للشرق». (المترجم).

انظر: بدوي عبد الرّحمن، موسوعة المستشرقين، ص478.

5- التّعليم العام، فبراير 1911، ص129-133.

تاريخياً، نشأت هذه النّهضة في مصر، رغم أن روّادها كانوا في الغالب من الكتّاب السّوريين الذين جاؤوا إلى بلد مستقل بحثاً عن مزايا نظام صحفي أكثر ليبرالية. وهكذا، منذ البداية، برز تأثير ظروف سياسيّة معينة. ونعتقد إنّنا محقون في الذّهاب إلى أبعد من ذلك، والتّأكيد على أن نقطة انطلاق عمليات "التّعريب اللّغوي" تكمن في تشكّل لغة إداريّة وسياسيّة. فقد منحت مصر نفسها -بعد استقلالها- إدارة وصحافة باللّغة العربيّة.

وهذه هي الشّرارة الأولى، التي كان من الممكن إلّا تحدّث. ويمكن التّساؤل حينئذٍ عما إذا كان صحوة الشّعوب العربيّة كان يمكن أن تختار مسارات أخرى، وعما إذا كان قادة نهضتهم الثقافيّة الحاليّون سيظلون في هذه الحالة يقودهم المنطق القاسي للكلمات، وسوابق التّاريخ، لتوجيه أنظارهم نحو الحجاز أو نجد، نحو مهد افتراضي يجب أن تنبثق منه حضارة "عربيّة خالصّة"! في حين أنّ الدّافع الأوّلي قد جاء من الجانب الآخر! لقد كانت العربيّة الحديثة في المقام الأوّل لغةً لسلسلة من الحركات الوطنيّة ولصحافتها، قبل أن تعيد خلق أدبٍ لها. ولم تعتمد على تنظيم منهجي للتعليم إلّا في مرحلة لاحقة.

يبدو بالفعل أنّ التّسلسل الزّمني يفرض هذا الاستنتاج: لقد سبقت الحركة الوطنيّة المصريّة والاستقلال الإداري ازدهار الأدب. والحقيقة الصّارخة التي لا جدال فيها هي أن أوّل صحيفة حُررت باللّغة العربيّة كانت صحيفة رسمية: (الوقائع)[1]. ولم تصبح مصر بعد ذلك إلّا مركزاً لنشاط أدبي لامع، عجل إشعاعه بتطوّر البلدان المجاورة. وبالنّسبة لهذه البلدان، انقلبت علاقة السّبب بالنّتيجة بشكل طبيعي؛ إذ كان تطوّر الأدب الوطني هو الذي أيقظ تدريجياً روحاً جديدة، وأدّى في النّهاية إلى تفكّك الإمبراطوريّة العثمانية. ولم يكن هذا الحدّث الأخير سوى تكريس رسمي لتحوّل كان قد نضج بالفعل. فقد باشرت الحكومات الشّريفية، ولا سيما في دمشق، إصلاحاً إدارياً جعل من العربيّة لغة رسمية. ولم يؤدِ سقوط حكومة فيصل إلى تقويض العمل الذي بدأ، بل استمرّ بتواصل، خاصّة في مجال التّعليم. ولم يمنع إضافة اللّغات الأوروبيّة لغة ثانية الخدمات من العمل بلغة البلاد، التي يفهمها الجميع. والنّهج نفسه متبع في الدّول السّاحلية، مع وجود الفرنسيّة في لبنان والإنكليزية في فلسطين، مضافاً إليهما العبرية لغة رسمية ثالثّة في فلسطين. ومنذ ذلك الحين، خطا العراق خطوة أخرى نحو التّعريب بتحوّله إلى دولة مستقلة. وكما يحدّث دائماً في مثل هذه الحالات، فما إن يخرج العنصر العربي من وضعه كمضطهد، حتى يميل إلى أنّ يصبح مضطهدًا بدوره، من خلال الشّروع في تعريب قسري للأقلّيات غير النّاطقة بالعربيّة، وخاصّة التّركية، في العراق والجزيرة.

أمام هذا الانقلاب في المواقف القديمة، وإذا ما نظرنا إلى الشّوط الذي قُطع، وإذا ما لاحظنا أن جميع المناطق العربيّة في الشّرق الأدنى باتت الآن تتمتع بهيئات حكوميّة تستخدم لغتها، فلا يسع المرء إلّا أنّ يتساءل عن المعجزة التي جعلت تغييراً جذرياً كهذا يتحقّق في فترة زمنيّة قصيرة كهذه. لقد أسهمت عدّة

1- راجع: واشنطن سيروي، "العربيّة الحديثة"، بيروت، 1897، صXIII. انظر أيضاً: طرّازي، "تاريخ الصّحافة العربيّة"، بيروت، 1913، ص5-6.

فائدة: العنوان الكامل للكتاب الأول: العربيّة الحديثة في الجرائد والوثائق الرّسمية.

ظروف في دعم هذا التحوّل؛ وبشكل خاصّ، التّطابق المتكرّر للمصطلحات التّقنية بين العربيّة والتّركية وذلك بسبب العادة المستمرّة لدى الأتراك في استعارة مفردات الحضارة من العربيّة بوصفها لغة ميّتة تماماً كما نستعير نحن من اليونانية واللّاتينية. ولكن الأهمّ من ذلك هو أن تطوّر "تركيا الآسيوية" القديمة استغرق وقتاً أطول بكثير ممّا يبدو؛ فقد استفادت من كلّ التقدّم الذي أحرزته مصر، لا سيما تطوير الصّحافة السّياسية باللّغة العربيّة -محاكاةً لتلك الموجودة في مصر- ممّا أسهم في توطين المصطلحات الضروريّة للحياة الاجتماعيّة. وهذا يقودنا إلى الدّور الذي لعبته الأشكال الأدبيّة المتنوّعة وهي الوحيدة المؤهلة لإعادة الهيبة التي كانت تفتقر إليها اللّغة ذاتها.

لن نقول شيئا يذكر عن هذا الأدب، لأنّه الجزء الأكثر معرفة في التطوّر الحديث، ويكفي إحالة القارئ على بعض الأعمال التي يسهل الوصول إليها. فإلى جانب صفحات السّيد و. مارصي التي أشرنا إليها سابقاً، يُنصّح بالاطّلاع على: المجلّد الرّابع من (تاريخ آداب اللّغة العربيّة) لجرجي زيدان[1]، والمجلّدات الأحد عشر للأب شيخو حول الأدب العربي في القرن XIXم[2]، بالإضافة إلى "تاريخ الصّحافة العربيّة" لفيلب دي طرّازي[3]؛ وبالرّوسية، مقدّمة إغناتي كراتشكوفسكي لمجموعة من النّصوص العربيّة الحديثة لأودا فاسيليفا[4] التي قربتها التّرجمة الألمانية لكامبفماير منا قليلاً[5]، وكذلك كتيب كراتشكوفسكي نفسه حول "الرّواية التّاريخيّة في الأدب العربي الحديث/ترجمة ألمانية لجيرارد فان مينده) [6]؛ وبالإنكليزية، دراسات إتش. آيه. آر. جيب (H. A. R. Gibb) بعنوان (دراسات في الأدب العربي المعاصر)[7]، وكتاب كامبفماير وخميري (روّاد الأدب العربي المعاصر)[8]؛ وبالفرنسيّة، عمل إي. تي. خير الله عن سوريا، الذي نشره السّيد ماسينيون في مجلّة (العالم الإسلامي)[9].

وسنكتفي هنا بملاحظتين؛

- فمِن جهة، كانت مصر وسوريا المركزان الأكثر نشاطاً، ولم يكن العراق بمنأى عن هذا الحراك، في حين كانت مساهمة شبه الجزيرة العربيّة -كما كان متوقّعاً- ضئيلة جداً. وإذا أضفنا أنّ المهاجرين السّوريين في أمريكا الذين واصلوا إنتاج أعمال تُعد من بين الأكثر أهمّية في الأدب العربي الحديث، نصل إلى فكرة واضحة عن الطّابع المحيطي لهذه النّهضة بالنّسبة لمركز الثّقل التّاريخي والجغرافي للشّعوب العربيّة. أمّا جوهر الفكر الذي تعبر عنه، فهو في حقيقته أكثر "خارجيّة" من حيث استلهامه من الثّقافة

1- تاريخ آداب اللّغة العربيّة، القاهرة، مطبعة الهلال، 1911.

2- الأدب العربي في القرن التّاسع عشر، بيروت، 1910.

3- تاريخ الصّحافة العربيّة، بيروت، المطبعة الأدبية، 1913.

4- منتخبات عصرية، كلثوم نصّر فاسيليفا، لينينغراد، 1928، ص1-25.

5- بدايات تاريخ الأدب العربي الحديث، مخطوطة مدرسة الدّراسات الشّرقيّة، المجلّد 30، القسم الثّاني، الصّفحات 170-205.

6- الرّواية التّاريخية في الأدب العربي الحديث، في "عالم الإسلام"، المجلّد 12، العدد 2/1.

7- مُعاد طبعه من نشرة مدرسة الدّراسات الشّرقيّة، المجلّد 5، الجزء3.

8- راجع: لندن، لايبزيغ، القاهرة، 1900.

9- راجع: المجلّد 19، الصّفحات 1-143.

الأوروبيّة أو الأمريكيّة، على الرّغم من رد الفعل الذي بدأ يتشكّل لصالح العودة إلى روح أكثر تقليدية. وعلى العكس من ذلك، أظهر الشّكل دائماً نزعة محافظة حازمة.

- ولكن -وهذه ملاحظتنا الثّانية- إذا كان الأدب الحديث لا يزال متمسكاً بقوّة باللّغة الميتة، فأنّه قد فَقَد مع ذلك بعضاً من الطّابع النّخبوي (Esoteric) الذي كان يميز الأدب القديم؛ فهو يهدف بلا شكّ إلى الوصول إلى الجمهور العريض، حتى وأنّ أخفق في ذلك أحياناً. وهذا ما ينتج، على وجه الخصوص، عن الدّور المحوري الذي لعبته الصّحافة. فقد ظهرت معظم الكتب أوّلاً في الصّحف، بل إنّ الكتاب غالباً ما يكون مجرّد مجموعة من المقالات الصّحفية المُصنفة حسب الموضوعات. نحن بصدد أدب يومي للغاية يعيش ربما بشكل حصري أكثر من اللّازم على أحداث السّاعة؛ ولذلك فهو يحافظ على تواصل وثيق مع الجمهور العريض. ولكن، ماذا يمثّل هذا الجمهور؟

في هذا الصّدد، غالباً ما يُشار إلى النّسبة المرتفعة للأميين. ولا شكّ أن هذا الموضوع يستوجب القلق، لكنّه لا يجب أن يكون كافياً لوصم هذه الممارسات الفكريّة بأنّها "حراك لا يُعتد به". إن هذه النّسبة، التي تُحسب بناءً على إجمالي السّكّان بما في ذلك سكّان الأرياف، تفضح في المقام الأوّل الهيكلّية الأرستقراطية للمجتمعات الشّرقيّة، حيث تعيش بروليتاريا كاملة على هامش المدينة. وكان بإمكاننا بالقدر نفسه من الحجّة، التّشكيك في أهمّية المثقفين في أثينا في عصر بريكليس إذا ما اعتمدنا إحصاءات تشمل كامل السّكّان الرّيفيين أو المستعبَدين. أمّا اليوم، فقد أصبحت نسبة الأميين في مدن الشّرق أقلّ ارتفاعاً وباتت الصّحافة اليوميّة تجد جمهوراً يكفل لها البقاء. صحيح أنّه يمكن لوم هذا الجمهور على كونه لا يقرأ شيئًا آخر، أو لا يكاد يقرأ، لكن الأدب الحديث هو، بلا أدنى شكّ ، أكثر ارتباطاً بالحياة اليوميّة مقارنة بالأدب القديم. ولا يمكن أنكار تأثيره الذي لن يزداد إلّا نمواً مع تقدّم العمل التّعليمي، وتأثير المدرسة التي حظيت بتطوّر هائل.

وقد سجّل هذا الجزء الأخير من استعادة اللّغة العربيّة إنجازات مثيرة للاهتمام. فبعد أن نشأ هذا التّعليم بتأثير غربي، قام بتعديل النّظام التّقليدي بالكامل، لدرجة أنّ المؤسّسات الدّينية للتعليم الدّيني والقانوني اضطرت هي نفسها للتكيف مع المناهج الغربيّة. كانت العواقب على اللّغة غير مواتية في البداية ولكن سرعان ما أدّى رد الفعل الوطني، في أواخر القرن الماضي، إلى إنشاء مدارس وطنيّة كمدرسة البستاني[1] في بيروت. لقد ذكرنا سابقاً أنّ المدارس الأجنبيّة اضطرت إلى تخصيص مكانة متنامية للّغة العربيّة. ولكن التّغيير في الوضع السّياسي هو الذي أتاح بالدّرجة الأولى تجاوز مرحلة حاسمة مع إنشاء تعليم رسمي باللّغة العربيّة، وهو إصلاح طالب به محمّد عبده منذ عام 1880 الحكومة التّركية[2]. لم يستمر هذا التّعليم في لبنان، لكنّه يعمل في سوريا، حيث يتطوّر بنسب تشهد على نجاحه التّقني. وعلاوة على ذلك، أثبتت تجربة مصر أن هذه المهمّة لم تكن تنطوي على صعوبات مستعصية. فقد تمّ تكثيف

1- راجع: خير الله، "سوريا"، مجلّة العالم الإسلامي، المجلّد 19، ص49.

2- النّصّ المذكور أعلاه، ص11.

التّعليم الابتدائي، بينما يبدو التّعليم الثّانوي زائداً عن حاجة البلاد. أمّا النّقطة الضّعيفة فتبقى بالطّبع ولفترة غير محدّدة، ما يُسمى بالتّعليم العالي.

هناك ملاحظتان تفرضان نفسيهما بشأن هذا الجهد التّعليمي باللّغة العربيّة؛ الأولى -ونجاحه يظهر ذلك-: أنّه استجاب لحاجة حقيقيّة في بلد مثل سوريا، حيث كانت اللّغات الأجنبيّة -باستثناء التّركية- محدودة الانتشار؛ والأخرى: أنّه لابد أن يكون لها أعظم النّتائج على تجهيز اللّغة تقنياً وفكرياً. ومن هذه الزّاوية، تجدر الإشارة إلى أنّ دمشق تتقدّم على بيروت في هذا الصّدد، بالنّسبة للحركة العامّة.

إنّ نظرة شاملة على الوضع تُسلط الضّوء على التحوّل المذهل في الحظّ الذي حالف اللّغة العربيّة ممّا يعطي انطباعاً بمسيرة مظفرة لا تُقاوم، تشبه حركة القوميات الأوروبيّة خلال القرن نفسه. لقد اعتدنا من خلال السّوابق على اعتبار مثل هذه الحركات حركات لا تُكبح، ومضمونة النّصّر النّهائي.

وبغضّ النّظر عن مناقشة هذه التّعميمات المختصرة، سنركز هنا، في حالة اللّغة العربيّة، على نقطتين جوهريتين: من ناحية، يبدو أن مقاومتها اللّغوية قد استفادت بشكل واسع من "حركة القوميات" ومن ناحية أخرى، فقد قدمت هذه اللّغة لهذه الحركة الدّعم الأكثر فاعلية، إذ تبدو اللّغة العربيّة اليوم هي الرّابط الوحيد القادر على جمع ورثة ثقافة إسلاميّة -ليسوا جميعاً مسلمين- وورثة حضارة عربيّة -ليسوا في غالبيتهم عرباً-. وتأكيداً للنّقطة الثّانية، نلاحظ أنّ الإسلام اليوم أقلّ قدرة على القيام بهذا الدّور لأنّ بقايا دعاواه التي تعود إلى العصور الوسطى غالباً ما تكون مدعاة للفرقة أكثر منها عنصراً للوحدة وكثيراً ما تشكل الذريعة الأكثر وجاهة للتدخلات الأجنبيّة [1][2]

إنّ مفهوم "العرق العربي" قابل للاستخدام، بل هو مستخدم على نطاق واسع، ولكن بشرط إلّا ندقّق فيه كثيراً. وعلى العكس من ذلك، **فإن وحدة اللّغة هي التي تمنح "العرب" الحاليين الوعي بتواصل ثقافي**، وهو أمر طبيعي في عصرنا الحالي حيث تتبلور الطّموحات الوطنيّة حول حدود لغويّة **في المقام الأوّل**. وإذا سلمنا بذلك، فلن نبتعد كثيراً عن الاعتقاد بأن تقدّم اللّغة العربيّة -التي لا تزال قريبة جداً من نهضة تدين بالكثير للاضطرابات السّياسية، ولتجديدٍ في الأفكار أطاح بالتّوازن الشّرقي القديم- ربما لم يكف بعد عن الارتباط بمآلات هذه التحوّلات. ومن ثم، فإن مستقبل الأدب العربي يظلّ رهناً باحتمالات لا يمكن التّنبؤ بها. وكل ما يحق لنا ملاحظته هو وجود عدد قليل من نقاط الضّعف في الجبهة الحالية للّغة العربيّة؛ وهي تكمن تحديداً في الأطراف، في المناطق التي كان فيها جهد "الغزو" الثّقافي أكثر فاعلية[3]. ولا نتحدّث هنا عن شبه الجزيرة العربيّة، التي لا تكاد تذكر مساهمتها الثقافيّة، ولا عن العراق الذي لا نعرف

1- هذا ليس رأياً شخصياً، بل هو الرّأي شبه الإجماعي لكُتّاب النّهضة.

2- لاحظ أنّ هذا الموضع الذي أشار فيه إلى أثر الإسلام في اللّغة، وقد انتقص من شأنّه -متذرعا بأن إجماع الغربيّين منعقد على أنّ الإسلام عامل فرقة لا توحيد -، وهذا كذب مفضوح، فما الذي جعل اللّسان موحّدا في العلوم والمعارف من مشرق الأرض على حدود الصّين، بل وفي بقاع منها، حتى الأندلس، بما في ذلك مساحة شاسعة من أفريقيا إلّا القرآن الكريم؟!!. (المترجم).

3- لاحظ أنّ الكاتب يقر ضمنا بأن تقهقر اللّسان العربي هو ثمرّة الغزو الثّقافي الغربي، وأنّه بقدر ضعف هذا العامل، تتقوّى العربيّة وأهلها. (المترجم).

حالته الرّاهنة بشكل كافٍ. فالجاليات السّورية في الأمريكتين تُظهر نشاطاً كبيراً، ومع ذلك فالجميع يشكو من تلاشي استخدام العربيّة هناك[1]، وهو أمر كان متوقّعاً. ولكن دعونا نحصر ملاحظاتنا في الإقليمين الرّئيسيين للنّهضة: مصر وسوريا (بمعنأهمّا الواسع).

1- مصر: التي كانت نقطة انطلاق الحركة ولم تتوقّف عن كونها دليلاً لها، تقدّم مشهداً متناقضاً يمكن تلخيصه كالتّالي: مهد النّهضة العربيّة هذا هو في الوقت نفسه نقطة الاختراق الرّئيسية وساحة معركة التّأثيرات الأجنبيّة. فالإنكليزية والفرنسيّة تتنازعان السّيادة؛ ومن النّادر أن تقابل مصرياً مثقفاً لا يفهم إحدى هاتين اللّغتين، وأحياناً كلتيهما. ويخصص التّعليم الرّسمي لهما مكانة كبيرة، بنيةٍ معلنة هي أن تستفيد اللّغة العربيّة بشكل غير مباشر من هذا التّوسع في التّراث الرّوحي[2]. ومن ناحية أخرى، لا تزال المدارس الأجنبيّة كثيرة جداً ومكتظة بالطّلاب. والصّحافة الإنكليزية والفرنسيّة تتغلغلان في كلّ مكان والمكتبات الأوروبيّة مزدهرة. أمّا السّينما، فهي تُخفف -لصالح الجمهور الأكثر تنوّعاً- ذاك المزيج من "التّحضر الفائق" والرّومانسية العابرة للأطلسي، التي لا يزال تحديد جرعتها الدّقيقة سراً صناعياً من أسرار مخابر هوليوود.[3]

وما الذي يمكن وضعه في المقابل في مواجهة تقدّم الغرب هذا؟ بالتّأكيد، الاهتمام بالعربيّة لا يتراجع، ولكن هل هو في ازدياد! **بين الحين والآخر**، تُسمع أصوات مسؤولة تعبّر عن شكّ واها، كما أنّ ثمّة شخصيّات تضعهم وظائفهم في تواصل مباشر مع جيل الشّباب. ويمكن قراءة آراء طه حسين في مقدّمة كتابه (في الأدب الجاهلي)[4]؛ حيث جاءت على شكل شكّ اوى مريرة ضدّ أسلوب تدريس الأدب العربي كما هو ممارس حالياً.

وهناك شهادة أخرى نقلها كامبفماير وخميري في كتابهما (روّاد الأدب العربي المعاصر)[5]، للكاتب محمّد عبد الله عنان، يقول فيها: "من المؤسف أن طلاب مدارسنا قادرون على فهم وتقدير الإنكليزيّة والفرنسيّة أكثر من العربيّة، فكثير منهم يعرفون عن شكّ سبير وميلتون وغولدسميث وماكولي وموليير وفولتير وفيكتور هوجو أكثر ممّا يعرفون عن المقّري والمتنبي وبديع الزّمان الهمذاني وابن خلدون. والسّبب في ذلك هو أنّهم يتعرفون على حياة هؤلاء المؤلّفين الغربيين وأعمالهم في قالب جديد وجذاب، بينما يقدّم المفكرون العرب العظام بأسلوب وطريقة ابن خلّكان". **وفي سياق آخر، تكشف المناقشات والتّحقيقات المتكرّرة في الدّوريات حول مستقبل الثّقافة المصرية، والعناصر التي يجب أن تدخل في تكوينها، أحيانًا عن بعض التردّد.**

1- طالع مقالاً مثيراً للاهتمام لإبراهيم كتيبة في "مجلّة السّيدات والرّجال"، أبريل 1930، ص232-237: "العائلة السّورية في أمريكا".

2- هذه مغالطّة أخرى؛ فالاستفادة المطلوبة إنما كانت في إمداد اللّغة العربيّة بما يؤهلها للحاق بالرّكب الحضاري، لا أنّها كانت تعاني من نقص في التّراث الرّوحي، إذ الغالبية الغالبة من العرب هم من المسلمين، وقد استغنوا بدينهم عن النّصّرانية المحرفة المنقولة إليهم عبر الإنكليز والفرنسيّين. (المترجم).

3- يبدو أن إنتاج السّينما النّاطقة باللّغة العربيّة يسير ببطء، وحتى الآن لا أعرف سوى خمسة أفلام، دون احتساب الأفلام الغنائية.

4- في الأدب الجاهلي، القاهرة، 1927، ص1-8: نقد لتدريس الأدب العربي في مصر؛ ص8-13: مشروع إصلاح مع انتقادات أخرى.

5- ص23، ترجمة لمقطع مع إحالة إلى مجلّة "السّياسة الأسبوعية"، 17 أغسطس 1929.

وأخيراً، فإن قلة الحماس التي يبديها المصريون أحياناً تجاه دعوات المؤتمرات الإسلاميّة أو العربيّة أو الأدبيّة التي تصلهم من بغداد والقدس ومكة، يمكن تفسيرها بلا شكّ بحرصهم على مكانتهم؛ فهم إذ يقدّرون كما يجب شرف كونهم في طليعة الثّقافة العربيّة، فهم يتردّدون في المخاطرة بهذا الشّرف في مغامرات مع جيران أقلّ تقدّماً، ويفضّلون غالباً اتّخاذ موقف فيه شيء من التّرفع والتّحفظ. ولا نذهب إلى القول بأن حس التّضامن العربي بدأ يتلاشى لديهم، ولكن حس "الوطنيّة المصرية" يحرز بالتّأكيد تقدّماً. ربما لا يمكن استخلاص نتيجة نهائية من كلّ هذا، لكن الذين لا يؤمنون بمستقبل اللّغة العربيّة -لأنّهم موجودون بالفعل- قد يتخذون من ذلك ذريعة للاعتقاد بأن القول الفصل في هذه القضيّة لم يُقل بعد.

2- سوريا: بمفهومها العام، تضمّ حالياً عدّة مناطق متباينة بوضوح من خلال خصائص خارجيّة وداخليّة متنوّعة:

أ) فلسطين: حيث **تغرس لغة حضارة جديدة بقوّة**، وهي العبرية الحديثة التي أُحييت مؤخّرا؛ ومن غير المرجّح أن تكون العبرية قد حقّقت مكاسب ملموسة في الأوساط العربيّة السّاحلية، لكنّها أصبحت الآن لغة جزء مهمّ جداً من السّكّان، وهي لغة رسمية يجب على الموظّفين إتقانّها بدرجة أو بأخرى، وبالتّالي يتعلمها الشّباب الطّامحون لهذه المسارات المهنيّة، وكذلك موظّفو المؤسّسات التجاريّة؛ كما أنّها لغة مستخدمة في التّعليم، ولها جامعة في القدس. **وإلى جانب هذا الجهد الهائل**، تبدو التّأثيرات الأجنبيّة القديمة والمدارس الدّينية أقلّ صخباً، لكنّها تظلّ كثيرة جداً. وبطبيعة الحال، فإن مسألة مستقبل العبرية برمتها معلّقة بمصير الصّهيونية.[1]

ب) على النّقيض من ذلك، ظلّ لواء الإسكندرونة القديم تحت التّأثير الثّقافي للّغة التّركية؛ حيث تولد جهود التّعريب أحياناً صراعات صغيرة، تعود مهمّة التّحكيم الدّقيق فيها إلى سلطات الانتداب. ففي المدارس، تتأخّر اللّغة العربيّة لأنّ التّعليم التّركي، المنظم منذ وقت أطول، يمتلك تقاليد وكوادر جاهزة كما أنّ الصّحافة باللّغة التّركية **واسعة الانتشار**، بل أنّه يوجد بالتّأكيد في حلب، وربما في أماكن أخرى، نشاط أدبي تركي ملحوظ، على الأقلّ من حيث خصوصيّة واحدة؛ فهي بلا شكّ النّقطة الوحيدة في العالم التي لا تزال تُطبع فيها التّركية بالأحرف العربيّة، وهذه الجزئية ليست بالضّرورة علامة على معارضة المهاجرين للنّظام الجديد، بل تعود جزئياً إلى الرّوتين المعتاد.[2]

ج) على السّاحل، وبين هذين الطّرفين، يظلّ لبنان هو الإقليم الذي تهيمن فيه التّأثيرات الأجنبيّة، ليس فقط على المستوى الثّقافي، بل على المستوى اللّغوي أيضاً. وهذا هو الحال الأخير -على حدّ علمنا- ولا نجد ما نضيفه من وجهة النّظر هذه عن شرق الأردن أو منطقة دمشق، إلّا لمقارنتهما بالأقاليم السّاحلية الثّلاثة[3].

1- لاحظ أن هذا المقال كتب عام 1933، أي قبل 15 سنة من نكبة 1948، وإعلان الدّويلة الصّهيونية المصطنعة، وانظر كيف كان التّمهيد لقيامها بـ"**غرس لغة حضارة جديدة بقوّة**"، كما يقول صاحب المقال. (المترجم).

2- راجع مجلّة "الحديث" الحلبية وما تنشره من عروض للكتب التّركية.

3- وضع غامض في الجزيرة العليا.

ففي لبنان، أُلغي التّعليم الحكومي (الممثّل آنذاك بمدارس المعلمين فقط) بوصفه إجراء تقشفيا في عام 1927، نظراً لكونه تكرارا غير ضروري للمؤسّسات التي لا حصر لها والتّابعة للبعثات الأجنبيّة وكذلك المدارس الوطنيّة ذات التّأسيس الخاصّ. وقد طورت المدارس الفرنسيّة أو الأمريكيّة تعليم اللّغة والأدب العربيين بشكل كبير، بل وخصصت له -تحت ضغط الرّأي العام- مكانة قد تكون مبالغاً فيها في الجداول الزمنيّة الدّراسية. وما ينقص بيروت في الواقع ليس تعليم اللّغة العربيّة، بل "التّعليم باللّغة العربيّة" للعلوم والجغرافيا والتّاريخ. وفي بيروت ودمشق، تُختتم الدّراسات الثّانوية بشهادة "البكالوريا" الموحّدة حيث يمكن معالجة المواد غير الأدبيّة وغير اللّغوية بإحدى اللّغتين الرّسميتين حسب الاختيار. ولكن بينما تختار أغلبية المرشّحين في دمشق لغتهم الأم، يظلّ هذا الأمر استثنائياً في بيروت. وقد سمعت مؤخّرا صحفياً شاباً، من أنصار الفكرة الوطنيّة، يأسف لأنّ العربيّة لم تُجعل الرّامية في هذا الامتحان. هل ينبغي لنا إذن استخدام القوّة العامّة لإجبار الطّلاب على استخدامها؟ أفلابدّ إذًا من القوّة العامّة لتحديد التّلاميذ على استعمالها؟ يا له من دليل متهور على نفور الطّلاب عن لغتهم!

ولعلّ من الأفضل تنظيم التّعليم المناسب، ومن المرجّح أنّ الرّأي العام يضل الطّريق عندما يصرّ على تخصيص عدد من السّاعات للّغة والأدب العربي وحدهما، يعادل إجمالي السّاعات المُدرّسة باللّغة الفرنسيّة؛ إذ لا يؤدّي ذلك إلّا إلى إرهاق الطّلاب وتفكيك الجداول الدّراسية، ممّا يخلق إجهاداً دراسياً حقيقياً. وأصدق دليل على ذلك هو أن أوّلياء الأمور المؤثرين أنفسهم، الذين يطالبون في المجالسّ بزيادة ساعات العربيّة، يأتون لاحقاً بشكل فردي لطلب إعفاء أبنائهم من حضورها! ومع ذلك، يجب الإقرار بأنّه إذا كان الجمهور لا يطلب هذا (التّعليم التّقني/بالعربيّة)، فذلك لأنّه لا يشعر بضرورته؛ فهو يطالب بالمقابل بالتّعليم العربي الذي يوافق مَثَله الأعلى. فكلّ من تنقل في لبنان أو أقام في بيروت يعلم أن أطفال الطّبقات الغنيّة غالباً ما يتربون على الطّريقة الأوروبيّة على أيدي مربيات، وأنّ أبناء الطّبقة الوسطى، التي يرتاد أبناؤها المدارس الثّانوية، يتحدّثون الفرنسيّة فيما بينهم بكلّ سرور، أو حتى يخلطون في محادثاتهم جملة فرنسيّة مع جملة عربيّة، وأحيانًا يقتصرون على تزيين العربيّة ببعض التّعابير الفرنسيّة، التي تهدف بوضوح إلى التّعبير عن فروق عاطفية مختلفة.

ويتجلّى التّباين بين السّاحل ودمشق من هذه الزّاوية في وقائع صغيرة مثل التّالية: جاء الكاتب المسرحي المصري "وهبي"، مدير فرقة وممثّل، إلى دمشق، وحقّق حضوراً كاملاً للقاعة لخمسة أيّام متتالية بفضل مسرحياته المميزة جداً بالعامّية العربيّة. لكنّه نفسه عرض مسرحيته لأسبوع في المسرح الكبير ببيروت، ولم ينجح في عرضها ولو لمرّة واحدة، حيث كان يضطرّ كلّ مساء لرد ثمن التّذاكر لعدم وجود جمهور كافٍ. هل كان أهل بيروت جميعاً في السّينما؟[1]. ومع ذلك، فهم يقبلون بالضّحك على فصول "كشكش بك" الهزلية، وهذه تستحقّ بدورها دراسة خاصّة.

1- كنّا شهوداً على هذه الواقعة التي حدّثت في مايو-يونيو 1932.

وهكذا، تحتلّ اللّغة العربيّة في لبنان وضعاً غريباً يصعب إطلاق حكم قاطع بشأنه، لكنّه يستوجب ملاحظة بسيطة: فبينما تُدرّس اللّغة الفرنسيّة، يمكن القول -عند فحص الأمور عن كثب- أنّ العربيّة لا تحظى بأيّ تعليم حقيقي[1]. فاللّغة التي يتعلمونها في المدارس ليست هي لغة الحياة اليوميّة. ومن المثير للاهتمام هنا أيضاً التّأكيد على التّباين مع دمشق، حيث يتعلم المرء العربيّة ليستخدمها، وتسليط الضّوء على الطّابع شديد الخصوصيّة الذي يتخذه تعليم هذه اللّغة "التّرفية" في بيروت؛ إذ يبدو موجّهاً بشكل حصري تقريباً نحو البلاغة التي تنظم جميع المدارس مسابقات فيها. وكان هذا الاستخدام، حتى وقت قريب، غير معروف في مدارس دمشق، التي كانت تُعِدّ بحكمة للامتحانات النّفعيّة المتنوّعة، وقد بدأ إدخاله لتوّه إلى (الثّانوية الأرثوذكسيّة/Lycée orthodoxe). ولن نسمح لأنفسنا بانتقاده، لكنّه في بيروت يستجيب لمفهوم القيمة شبه العالمية للبلاغة، وهو مفهوم معروض بشكل خاصّ في الصّفحات الأولى من كتيب صغير لأحد أبرز ممثّليها السّوريين[2]. لا تنقص بيروت النّخبة المتعلّمة التي تتقن اللّغة الفصحى بشكل مذهل، ولا الخطباء المفوّهون بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. فلا يمكن للمرء أن يستمع إلى حديث الدّكتور فيّاض الدّافئ والمليء بالظّلال، أو خطاب أمين الغريب المفعم بالتّلميحات الماكرة، أو حتى خطاب السّيدة سلمى صائغ المتّقِد حماسةً وسُمّاً [3]، دون أن يرفض تصديق أن هذه المواهب محصورة في برلمان معلّق إلى أجل غير مسمّى، أو في المحاكم المختلطة، أو في تلك اللّقاءات الأدبيّة اللّذيذة التي تتركنا تحت سحر خطب تبدو طبيعية جداً لدرجة أنّك تظنها ارتجاليّة، حتى لحظة توزيع النّص المطبوع عليك عند الخروج[4].

نحن نعجب، لكننا نتساءل -بشيء من الحزن- ما إذا كان دور اللّغة العربيّة سيظل محصوراً في هذه المبارزات الخطابيّة الرّفيعة بين ممثّلي "أرستقراطية الفكر". أنّه قلق واهن، نودّ أن نؤمن بذلك، بل قلق متناقض أيضاً، لأنّه لا يُستمد إلّا من الكمال الذي بلغته هذه النّخب في استخدام أداة التّعبير عن مشاعرها وأفكارها! ولكن، هل يمكننا أن نتمنى عليهم -بخجل- أن يستخدموها أكثر قليلاً؟

لتلخيص هذه الصّورة العامّة، يمكننا القول أنّ المناطق الطّرفية تبقي عيناً موجّهة نحو الغرب والشّمال نحو تركيا، بينما تظهر المناطق الداخليّة أكثر تمسّكاً بلغة البلاد. فما الذي يمكن التّفكير فيه

1- لم نرصد أي واقعة موازية لتأثير اللّغة الإنكليزية، لكن لا شك في إمكانية ملاحظتها بين عملاء المؤسسات الأمريكية.

2- نيقولا فياض، "الإلقاء"، القاهرة (الهلال)، الطّبعة الثّانية، 1930، ص6-7.

3- لاحظ كيف وسم كاتب المقال خطاب هذه الأديبة الوطنيّة سلمى صائغ بأنّه يتّقد سّمِّيّة، وهي المعروفة بتكريسها حياتها لتعليم العربيّة وتقديمها اقتراحات عديدة لتطوير تعليمها، والمطالبة بالزّامية تعليمها لكل اللّبنانيين، وقد تركت كتاباتها أصداء مؤثرة في كبار أهل القلم من معاصريها وفي طليعتهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومي زياده. يقول ميخائيل نعيمة في رسالة منه إلى سلمى صائغ في العام 1924 معلّقا على كتابها "النّسمات" "...إذا كان في سوريا من مواهب غزيرة فلن يقتلها الاحتلال... بل هي كامنة كمون النّار في الرّماد. ولابدّ أن تهب عليها عاصفة تذري الرّماد فتذكي النّار. بل أرانا في فجر ذلك اليوم. فأنا ألمس أوّل أنفاس تلك العاصفة. إن يكن أوّل الغيث قطرة، فأول العاصفة نسمة". (المترجم).

4- اقرأ على سبيل المثال الكتيب الصّادر بمناسبة يوبيل الأب لويس معلوف: "يوبيل الأب لويس معلوف"، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1932، الذي يحتوي على خطب حبيب تيد، وأنطون صهيبير، وجرجي باز، ونعيم صوايا، ومصطفى الغلاييني، وأمين الغريب، ونيقولا فياض، ولويس معلوف.

بشأن المرحلة التّالية من التطوّر؟ هل سيختلّ هذا التّوازن غير المستقر لصالح المركز أم المحيط؟ كما ألمحنا سابقاً، نعتقد أنّ المستقبل سيعتمد في المقام الأوّل على التطوّر السّياسي لهذه الأقاليم؛ وفي هذا المجال، تظلّ جميع الافتراضات محفوفة بالمخاطر وبعيدة عن الواقع.

إذا توقّفت أوروبّا الغربيّة عن دعم الحكومات العربيّة بقوّتها العسكريّة، فمن المحتمل أن تنهار هذه الحكومات أمام عودة هجومية لتركيا[1]. وحدها الولايات ذات التّنظيم البدوي في شبه الجزيرة قد تُبدي لفترة ما مقاومة نشطة أو سلبيّة؛ حيث ستترك المقاومة الأولى المؤسّساتِ المستقرّة على البحر الأبيض المتوسّط وحدها لتتحمّل كلّ التّكاليف، ولتلقّي الصّدمات. ومن المحتمل أن يجد الأتراك قريباً في تقاليد السّياسة العثمانيّة السّرَّ لإخضاعها. ولا شكّ أنّهم - بعد تعلّمهم من تجربتهم في التّحرر - بعد أن تعلّموا من تجربتهم في ليبيرالية 1908، لن يكرّروا خطأ السّماح بتبلور قوميّات محلّية، أو ترك روح انفصاليّة تتغذّى على تقديس لغة الأقاليم المستعادة. وبالتّالي، لن يكون للعربيّة أي سبب خاصّ يدفعهم إلى التّعاطف معها، ومن المرجّح أنّه حتى لو قدّموا لها في البداية بعض التّنازلات من باب الانتهازيّة المحضة، فسيكون ذلك مع نيّة مبيتة لاستردادها عندما يسيطرون على البلاد سيطرة محكمة. حينها ستستأنف التّركية زحفها التّوسعي نحو الجنوب، وستعود العربيّة ببطء شديد إلى الوضع المهمّش الذي كانت عليه في ظلّ السّلالة السّابقة. ومن المشكوك فيه أن تكون الجاليات السّورية في الأمريكتين كافية للحفاظ على حياتها الفكريّة. وحدها مصر قد تتمكن من الحفاظ على أصالتّها بفضل موقعها المنعزل، ولكن بشرط -في فرضيّة أفول الغرب- أن تنزع فتيل حساسيات جيرانّها عبر تجريد ثقافتها العربيّة من أيّ مظهر من مظاهر (النّزعة الوحدويّة/Irredentism). وسيكون ذلك بمثابة سبات جديد.

هل نفترض - على العكس - أن انسحاب الغربيين يتزامن مع عودة قويّة للمسرح من قِبل روسيا السّوفياتية؟ بقدر ما يمكن الحكم عليه، استناداً إلى سوابق سياستها الشّرقيّة ومبادئها، فإن الأخيرة ستُشجع ظهور جمهوريات عربيّة فيدرالية، يحكمها سوفيات تكون لغتهم الرّسمية هي العربيّة العامّية ويتلقى الرّأي العام توجيهاتها من صحف مطبوعة بأحرف لاتينية. ستكون تلك هي الضّربة القاضية التي ستحسم حتماً -عاجلاً أم آجلاً- القطيعة التي أصبحت "فاضحة" بين نوعي العربيّة: المكتوب والمحكي. وبما أنّ العربيّة الفصحى لن يكون لها حينها أي حاضنة فكريّة أخرى -دائماً باستثناء مصر، التي نترك مصيرها غامضاً، وإن كانت قد تُضطرّ للتبعية كما تبعت تركيا السّوفيات في مسألة الألفبائية - فسيشكل ذلك "دفناً نهائياً" لها؛ دفناً مدنياً، إذ ستظل بالطّبع لغة طقوسية مقدّسة، ولكنّها ستكون أقلّ فهماً يوماً بعد يوم. وحدهم السّوريون الأمريكيّون سيواصلون بلا شكّ كتابتها، بالطّريقة نفسها التي يواصل بها المهاجرون الأتراك استخدام الألفبائيّة التّقليدية. أمّا السّوريون -وخاصّة سوريّي أمريكا- الذين لديهم بالفعل ميل للاهتمام بالعربيّة العامّية في جبالهم، فلن يكون أمامهم سوى الاستسلام لها. عندئذٍ، ستبدأ

1- لاحظ أن الخطاب الاستدماري واحد، وقارن بما تسمعه اليوم عن "الملك الحارس" الأمريكي! (المترجم).

مسيرة العربيّة من جديد في شكل جديد، نحو أقدار قد تكون مجيدة، وربما مؤاتية جداً للتطوّر الفكري لهذه البلاد، لكننا لا نملك أي تصوّر عنها.

وفي كلّ الأحوال، فإن أدباء العربيّة اليوم هم، جميعاً تقريباً، أقلّ استعداداً منا للنّظر إلى المستقبل بروية. أمّا بالنّسبة للأقلّيات، فسيكون ذلك "العصر الذّهبي" للغاتها: العبريّة، والآراميّة، والتّركية والكرديّة، والشّركسية، والأرمنيّة، والكلدانيّة، إلخ. ولا يمكن للمرء أن يتخيّل شيئًا أكثر مناقضة لتطلّعات "الأرستقراطيّات العربيّة" في وقتنا الحاضر. ولا شكّ في أنّ العديد من الاحتمالات الأخرى تظلّ قائمة، لأنّ الواقع يتجاوز كلّ الحسابات ويفشلها.

لكن يبقى هناك احتمال بسيط: احتمال (الوضع الرّاهن/statu quo)، على الأقلّ لفترة زمنيّة طويلة بما يكفي ليجد الحراك العربي الفرصة لتطوير إمكاناته، وربما لإيجاد توازن في القوى أو التحالفات يسمح له بانتزاع استقلاله دون أن يبتلعه جيرانّه. هذا الاحتمال سيشهد استمرار العمل الثّقافي العربي، على الأسس التي كانت عليه حتى الآن، وسيضع هذا العمل على محكّ الوقائع، ليحكم في النّهاية ما إذا كان قابلاً للحياة.

ونحن نؤمن شخصياً بأن التّجربة ستكون إيجابيّة، وستنتج حصيلتها تقدّماً في تعريب المناطق السّاحلية، وتوحيداً عملياً للّهجات الحضريّة التي ستقترب من اللّغة الفصحى في مفرداتها وبعض سماتها في الصّرف، ولكن بلا شكّ ليس في الصّوتيات، حيث يصعب تحقيق سيطرة واعية عليها؛ وأخيراً، التطوّر المتوازي لأدبين؛ أحدهما باللّغة الفصحى والآخر باللّغة العامّية، متخصّصين في أنواع أدبيّة مختلفة لكنّهما أصبحا أقلّ تباعداً يوماً بعد يوم، إذ أصبحت اللّغة العامّية تتغذّى من الفصحى، وأصبحت الفصحى بدورها أكثر بساطة وملاءمة للحياة.

وهذه الظّواهر، التي بدأت ترسم بالفعل، سيكون من المفيد مقارنتها بتلك التي تحدث في لغات، مثل اليونانية الحديثة، حيث تفرض أسئلة مماثلة على الكُتّاب والجمهور. وكل ما يمكن للمرء أن يتمنّاه هو إلّا تُدفع الأقلّيات اللّغوية بقسوة مفرطة في طريق "الاستيعاب" القسري أثناء عمليّة التّعريب. فإذا ما أُديرت هذه التّجربة بحذر ومثابرة، فمن المحتم تقريباً أن تكلّل بالنّجاح. ومن الممكن تماماً تصوّر نهضة للعربيّة في شمال أفريقيا نتيجةً بعيدة المدى. إن في ذلك موضوعات تأمّل مثيرة للاهتمام لكل النّاس على اختلاف مشاربهم.

إنّ مستقبل العربيّة المعاصرة لا يزال غامضاً بالنّسبة إلينا، لكنّنا ندرك أن أبطالها لا يُلامون على إيمانّهم بها، حتى وإن كان إيماناً ساذجاً بعض الشّيء. ولا يسعنا إلّا الانحناء أمام تصريحات مثل تلك التي أدلى بها ميخائيل نعيمة في رسالة إلى كراتشكوفسكي [1]: "...إنّنا نشهد ولادة أدب عربي جديد، مقدّر له بعد بضعة عقود أن يحتلّ مكانة مشرّفة في الأدب العالمي. اليوم، هو متأثّر بقوّة بالغرب، لكنّه في يوم من

1- رسالة نشرها كراتشكوفسكي، مجلّة "عالم الإسلام"، المجلّد 13، 1931، "سيرة ميخائيل نعيمة الذاتية"، ص106 (الرّسالة باللّغة الإنكليزية).

الأيّام سيؤثّر في الغرب بدوره. أنا مؤمن بعبقريّة اللّغة العربيّة، ومؤمن بالخصائص الجوهريّة للشّعوب التي تعدّ هذه اللّغة لغتها الأم". ومع ذلك، فإن مثل هذه البيانات لا تمتلك في حدّ ذاتها قوّة إثباتيّة. فإذا كنّا قد فسّرنا الوقائع بشكل صحيح، فإن الأدب الجديد الذي يرحب به نعيمة مدين في جزء كبير من حظوته للتحوّلات السّياسية في القرن XIXم[1]. وبما أنّه وُلد من رحم حركة وطنيّة، فهو معرض لمواجهة تقلّباتها ولا يزال يعتمد في وقتنا الحاضر على الظّروف الخارجيّة بقدر اعتماده على قيمته الذّاتية. وعلى أقلّ تقدير ربما يحتاج هذا الأدب ليزدهر إلى حدّ أدنى من الظّروف المواتية.

هل يجب علينا المضي قدماً؟ أليس من الجائز الاعتقاد بأن اللّغة العربيّة ستجد صعوبة في مقاومة اللّغات الأوروبيّة، حتى في ظلّ أكثر الظّروف ملاءمة؟ هنا يحسن بنا أن نذكر بأحد استنتاجات السّيد (و. مارصي) في تقريره: "من غير العملي، ومن غير المعقول، ومن النّادر جدًا في الواقع، أن تتعايش لغتان للحضارة لفترة طويلة جداً في بلد واحد. عندما يتمّتع المتنافسون بمكانة متساوية، ويعبّرون عن الأشياء نفسها تقريباً، ويقولونها بنفس القدر من الإجادة، وبمساعدة عوامل عاطفيّة، قد يطول هذا الهدر في القوى. ولكن عندما تكون إحدى اللّغتين هي لغة الحكّام، وتفتح الطّريق أمام حضارة حديثة عظيمة وتكون واضحة، ويتقارب فيها التّعبير الكتابي والمنطوق للفكر إلى أقصى حدّ؛ بينما تكون الأخرى لغة المحكومين، التي تعبر في أفضل كتاباتها عن مَثلٍ أعلى من العصور الوسطى، وتتخذ مظهرًا حال الكتابة مختلفا عن المظهر حال الكلام، فإن المواجهة حينئذ تكون غير متكافئة حقًا؛ فالأولى محكوم عليها أن تتراجع لصالح الأخرى حتمًا". ولا يسعنا إلّا أنّ نتأمل هذه الأسباب المقنعة كثيرًا. ومع ذلك، فإنّنا لا نتردّد كثيرًا في إعلان إنّنا لا نعتقد أنّها تنطبق على العربيّة في الشّرق الأدنى.

ومع ذلك، يظلّ من المرجّح أنّ النصف الثّاني من القرن XIXم بأسره يقع تحت تأثير "الاضطراب المصري"، الذي يضع كراتشكوفسكي نقطة انطلاقه التّاريخيّة بعيداً، حتى حملة (بونابرت) على مصر (مجلّة العالم الإسلامي، 10، 1930، ص18-19). وبما أنّها غامضة، وتكتسي عند الكتابة مظهراً يختلف عما تكون عليه عند النّطق، فإن المعركة غير متكافئة حقاً: فاللّغة الأولى (الفصحى) محكوم عليها حتماً بدفع الثّانية (المحكية) إلى الوراء[2]. لا يمكن للمرء أن يمعن النّظر بما يكفي في هذه الأسباب الضّاغطة ومع ذلك، فإنّنا لا نتردّد في التّصريح بأننا لا نراها قابلة للتطبيق على اللّغة العربيّة في الشّرق الأدنى.

صحيح أنّ الشّعوب العربيّة في الشّرق، وبدرجة أقلّ من شمال أفريقيا، تعيش وضعاً يشبه إلى حدّ ما الحالة التي يصفها السّيد (مارصي): وضع "المحكومين"، بسبب السّيادة الواضحة لأوروبّا. ولا شكّ أن نقاط الضّعف الداخليّة للّغة العربيّة هي نفسها في كلّ مكان، ولكن عند تأمل النّتيجة، يراود المرء شعور

1- أقوى اعتراض على هذه الرّؤية يكمن في قِدم النّهضة في لبنان مع رائديها ناصيف اليازجي وبطرس البستاني. راجع بشكل خاصّ كراتشكوفسكي، "الرّواية التّاريخية في الأدب العربي الحديث" (ترجمة جيرهارد فون ميندي، لايبزيغ، 1930) مستلة من مجلّة "عالم الإسلام"، المجلّد 12، ص60-62.

2- "التّعليم العام"، يناير 1931، ص38-39.

باستحالة هذا الأمر (تراجع العربيّة). فما الذي ستمثله في الواقع الحلول المقترحة: أي تراجع العربيّة أمام لغة أو لغات أوروبيّة؟

سيكون ذلك أوّلاً تراجعاً لـ "الفكرة الوطنيّة"، وهي فكرة تتوافق تماماً مع وصف "القوّة الدّافعة/idée-force)؛ أي مجموعة من المفاهيم التي تبدو وكأنّها تعيش في البداية وجوداً مستقلاً على مستوى فكري بحت، ضمن دورة من ردود الفعل اللّفظية الصّرفة، ثمّ تجد يوماً ما طريقها إلى الأعصاب والعضلات، وتُنزل -إن صح التّعبير- إلى الشّارع. تمثل فكرة "الوطن العربي" بلا شكّ نوعاً من الأفكار الدّافعة، بل كدت أقول "فكرة عنيفة". إن معارضتها تفترض إنّنا نصّعد ضدّ تيار قوي معاكس. ولن يتمّكن من تحييدها سوى ظروف بالغة السّوء، غريبة عن مزايا اللّغات المتنافسة، وهي ظروف لا نفترض تحقّقها في واقعنا.

كما سيمثل ذلك أيضاً تراجعاً عن التطوّر الحديث للمجتمعات، فسيكون حلاً أرستقراطياً بامتياز فاللّغات الأجنبيّة هي ترف لا تستطيع الجماهير تحمله بسهولة. وحتى لو افترضنا أن تحوّلاً طويلاً جداً قد جعل سكّان المدن يتبنون الفرنسيّة أو الإنكليزية بالكامل، فسيظل هناك في المناطق الرّيفية أو الجبليّة الشّاسعة "بروليتاريا" مستبعدة بشكل أو بآخر من الحضارة. وإذا كان السّاحل قد أُخضع بالكامل لأوروبّا فإن منطقة ثانية داخليّة لن تتمتع -في غياب العربيّة- بنفس سهولة الوصول إلى الحياة الفكريّة. وأخيراً إذا تمّ "تغريب" المحيط بالكامل، فسيظل في المركز، في الصّحارى العربيّة، سكّان رحل يُظهرون دورياً عبر التّاريخ -بخطوات تفتقر هي الأخرى إلى اللّين والغموض- رغبتهم الجامحة في إلّا يُستبعدوا من أي وجود حضاري. وهنا يظهر استحالة اختفاء اللّغة العربيّة وكأنّها حقيقة محفورة على الخريطة.

في أفريقيا العربيّة أيضاً، يحتلّ الرّجل المركز، ويحتل المستقرون المحيط. لكن الصّحارى العربيّة تتميز بخصوصيّة أنّها لا يمكن الالتفاف عليها أو عبورها. لا يمكن عبورها لأنّها لا تؤدي إلى أي مكان سوى ساحل غير مضياف، وبالتّالي تظلّ خارج كلّ الطّرق الاقتصادية، في وضع جانبي، وتشكل تهديداً دائماً للاتّصالات بين البحر الأبيض المتوسّط وفارس. ومن المؤكّد أنّه يجب التّخلي لفترة طويلة عن تصدير الأفلام الأمريكيّة النّاطقة إلى خيام البدو. ومنذ اللّحظة التي يظلّ فيها مركز مقاومة بهذه الأهمّية قادراً على الصّمود إلى ما لا نهاية، فإن فتوحات لغة أجنبيّة ستؤدي إلى حصر الوصول إلى أي ثقافة في طبقة واسعة النّطاق من الأفراد. ولذا، فإن تقدّم الدّيمقراطية في الشّرق سيدفع بالعربيّة إلى الصّدارة. أمّا تأثير اللّغات الأجنبيّة، فهو مرتبط أساساً باستمرار الحالة الاجتماعيّة الأرستقراطية.

وإذا لم تكن هذه الاستنتاجات خاطئة تماماً، فإنّها تنطوي على بعض التّبعات. وإلى أي مدى، في الواقع، سيتحتم على اللّغة العربيّة -المحكوم عليها بالانتصار- أن تتحوّل كي لا تضع المدافعين عنها في حالة من الدّونية؟ هذا هو المكان المناسب لمناقشة الجانب العملي من العيوب التي أشار إليها السّيد (مارصي).

اللّغة العربيّة صعبة؛ ولكن صعوبة اللّغة لم تشكل يوماً عائقاً جدياً أمام انتشارها، بدءاً من اللّاتينية وصولاً إلى الصّينية، ناهيك عن الرّوسية والألمانية، أو حتى الفرنسيّة نفسها. في الواقع، نحن نتحدّث عن شيء آخر غير الصّعوبة النّحوية: أنّها صعوبة النّصوص العربيّة، أي أنّها "ليست واضحة".

ومع ذلك، لا يبدو الغموض خاصّية في اللّغة، بل عيباً في أولئك الذين يستخدمونها. صحيح أنّ هناك مسألة الكتابة التّقليدية، التي لا يمكننا اليوم التّفكير في التّخلي عنها أو حتى إصلاحها، لكن هذا جزء فقط من المشكلة. فإذا كانت النّصوص العربيّة ليست واضحة، فذلك لأنّ مؤلّفيها لم يسعوا يوماً إلى تحقيق هذا الهدف، بل على العكس من ذلك، كانوا في كثير من الأحيان يكرسون أنفسهم - بنوع من اللّذة المنحرفة - لتحقيق عكس ذلك تماماً. وعندما يدرك المحدّثون جميعاً أنّه من الأفضل الكتابة ببساطة من أجل "الجاهلين" بدلاً من الكتابة ببراعة فنية من أجل أربعة أو خمسة من الزّملاء، فسوف يجدون الوسائل لذلك حتماً. والدليل على ذلك هو التقدّم الذي أحرزته الصّحافة الحديثة بالفعل، لمجرّد أنّ الأدب قد كفّ عن كونه "متعة جماليّة" ليصبح "مصدر رزق" للصحفيين.

ومع ذلك، فإن الرّوح الشّريرة للماضي لم تُطرد بعد. فكم من مرّة يمكننا أن نسمع شكّ اوى الأدباء ضدّ جرأة الصّحافة! مؤخّرا، سمعت أسفاً مشابهاً تُبديه أديبة مصرية[1] على روح اليازجي الكبير "الذي كان -على الأقل- يضبط الصّحفيّين[2]، ولم يحل محله أحد". بل افرحوا لأنّه لم يحل محله أحد! وتمنوا إلّا يحل محله أحد أبداً! ولحسن الحظ، فإن المستوى الثّقافي للجمهور ينخفض مع تقدّم التّعليم (في اتّجاه دمقرطته). إن خلاص اللّغة العربيّة لا يمكن أن يأتي إلّا من خلال "أدب ديمقراطي".

هل الأدب العربي أدب من العصور الوسطى؟ هذا صحيح تماماً؛ فالشّرق بالكاد يخرج من القرن XVIم، أو على الأكثر من القرن XVIIIم. لكن المغامرة نفسها حدّثت لنا قبل بضع مئات من السّنين؛ فنحن خلفنا ما لدى العرب أمامهم. أنّها مجرّد مسألة وقت. وعلاوة على ذلك، فإن العيب ليس خطيراً؛ فمن يقرأ الكلاسيكيات أصلاً؟ الأطفال في المدارس... هذا إن قرأوها! فالجمهور لا يقرأ سوى صحيفته وبعض الرّوايات المعاصرة. ومن هذا الجانب يجب تكثيف الإنتاج، فلا فائدة من تصنيع "آثار قديمة" زائفة. تبقى "الازدواجيّة اللّغوية" الشّهيرة التي تشل التّعليم وتشغل المفكرين بحقّ. وفي هذه النّقطة، تتفاعل العربيّة المعاصرة. حتى الآن تحدّثنا عن تقدّم "العربيّة" دون تحديد أي عربيّة نقصد. ونأمل في عمل قادم أن نضبط دراسة تفاعلات اللّغة المنطوقة على الأدب واللّغة الأدبيّة على اللّغة المنطوقة. ونعتقد منذ الآن أن لنا الحق في استنتاج أنّ العربيّة قابلة للحياة تمامًا. كلّ شيء يعتمد على طريقة استعمالها. ومستقبلها بين أيدي الكتاب ورجال العمل الذين يمكنهم وحدهم أن يجعلوا لها، على حدّ قول ميخائيل نعيمة، "مكانة مشرفة في الأدب العالمي".

جان لوسيرف

1- السّيدة لبيبة هاشم، مديرة مجلّة "فتاة الشّرق".

2- أي: كان يسيطر عليهم ويضبطهم.

الملحق7: العربيّة المعاصرة لغةً للحضارة

L'arabe contemporain comme langue de civilisation

L'idée première de ces notes a été inspirée par trois articles de M. W. Marçais — dans la revue *L'Enseignement Public* (1) — sur la situation de l'arabe en Afrique du Nord. Il y aurait grand profit à posséder l'équivalent de cette clairvoyante enquête pour les pays du Levant, où nous avons précisément des intérêts culturels. Il semble d'ailleurs que sur ce nouveau terrain elle apporterait des résultats sensiblement différents. Si en effet l'arabe en Afrique du Nord paraît faiblissant, ou tout au moins stationnaire, il en va tout autrement du Proche Orient, où son histoire récente est marquée par des progrès aussi saisissants que rapides.

Une esquisse de la situation de l'arabe nous paraît devoir se tracer de deux points de vue, auxquels M. W. Marçais a consacré pour l'Afrique du Nord des développements que l'on peut croire définitifs. C'est en premier lieu, le tracé statique et descriptif des fronts linguistiques entre les diverses langues qui concourent à l'expression d'une même culture ; point de vue encore extérieur, presque purement statistique, limité au présent. C'est ensuite l'examen plus intime des perspectives d'avenir, de la situation intérieure de chaque langue en

(1) Déc. 1930. pp. 401-400 ; Janvier 1931. pp. 20-39 ; Fév. 1931. pp. 121-133.

— 270 —

particulier, de ses possibilités de résistance, de ses ressources d'adaptation à la vie moderne ; enfin de ses chances dans les compétitions futures. De cette analyse délicate M. W. Marçais a donné pour le Maghreb un admirable modèle. Quiconque a lu les pages qu'il consacre à la « diglossie arabe » mesure les conséquences d'un divorce excessif entre la langue écrite et le langage parlé (1). Quant à nous, le savoir et le talent de l'illustre arabisant nous font cruellement défaut pour apprécier des réalités aussi complexes, dont un observateur unique réussit rarement à saisir plus d'un aspect. Notre témoignage ne saurait d'ailleurs remplacer une enquête comme celle à laquelle nous faisons allusion. Tout ce que nous permettent nos modestes moyens d'information, c'est de soumettre au lecteur un petit nombre de faits, observés sur un territoire restreint.

Tels qu'ils sont, ils paraissent bien laisser entrevoir un tableau nettement différent de celui que nous présentent l'Algérie, la Tunisie et le Maroc. Sur le premier point, c'est-à-dire la détermination du front linguistique, nous ne disposons guère que d'impressions personnelles, sujettes à interprétations diverses. Nous les livrons ici sous forme d'introduction à une étude plus étendue, dans laquelle nous espérons apporter des documents indiscutables, et qui concernera les progrès actuels de l'arabe dans son adaptation au monde moderne. Dès à présent nous croyons pouvoir indiquer que nos conclusions à cette seconde étude autoriseront aussi le diagnostic d'un état de chose en contraste vif avec celui qu'on observe en Afrique du Nord. Les difficultés de la fameuse diglossie n'ont bien entendu pas disparu au Levant, et les autres embarras de la langue arabe subsistent également. Mais il se produit entre l'arabe vulgaire et l'arabe parlé des « transgressions » : soit incursion de la langue

(1) Déc. 1930, pp. 401-409.

— 271 —

écrite dans le langage parlé, ou même peut-être appar
tion d'un hybride, sur lequel nous aurons à nous expl
quer. L'exposé de ces faits, en deux séries, justifiera
sous-titre de cette étude : l'arabe parlé comme langu
littéraire, et l'arabe écrit comme langue parlée.

Mais avant de songer à leur examen, il n'est p
inutile de retracer brièvement la situation actuelle
l'arabe sur les territoires qui, rattachés à l'empire tur
constituaient encore récemment la Turquie d'Asie : p
ninsule arabique, Irâq, Syrie et Palestine, en y joignan
l'Egypte dont l'émancipation réelle s'est accomplie u
peu plus tôt.

∴

Jusque vers la fin du XIX^e^ siècle on peut dire qu
l'arabe avait été peu à peu éliminé de toute l'activi
supérieure des sociétés civilisées :

— évincé de la littérature : toute vie intellectuel
s'étant progressivement ralentie jusqu'au point mort d'u
lent bourdonnement d'ulema, sempiternelle moûture
la même farine ; parfois quelques écrits, érudits, inédit
et destinés à le rester ;

— évincé de toute vie publique, politique, admini
trative et sociale, l'arabe ayant été refoulé par le tur
langue de la dynastie ottomane, dans toutes les contré
encore soumises à son autorité ; l'Egypte seule, devenu
pratiquement indépendante avec Méhémet Ali, avait p
prendre une avance notable en se donnant une adm
nistration et une presse de la langue arabe, qui rend
rent possible un peu plus tard la renaissance littéraire
si l'on n'exagère pas l'importance des tribunaux de
Šarî'a, qui continuaient à régir le statut personnel da
la langue sacrée, on conviendra que tous les grands int
rêts se débattaient en langue étrangère ;

— évincé enfin de l'enseignement, tout au moins
celui qui se développait, de l'enseignement secondai

— 272 —

(et de celui qui prenait parfois le titre de supérieur), pour ne laisser à l'arabe qu'un enseignement primaire limité aux rudiments de la lecture et du calcul. Cet enseignement, déjà fort ancien chez les chrétiens du Liban (1), possédait son équivalent chez les musulmans dans l'école coranique. L'enseignement supérieur traditionnel continuait autour des colonnes des mosquées. Mais il devait une partie de sa vogue à divers avantages. L'enseignement secondaire seul comptait pour les élites du pouvoir et de l'argent. Longtemps il fut distribué par des missions religieuses, européennes ou américaines, qui ne se souciaient pas de donner à l'arabe la première place dans les études, malgré des efforts souvent louables pour en améliorer l'enseignement. L'eussent-elles voulu qu'elles n'auraient pu faire davantage, sans aller contre les exigences d'une clientèle désireuse de s'expatrier, ou d'exploiter sa connaissance des langues étrangères dans les relations commerciales et les fonctions publiques (2). Quand plus tard le gouvernement créa des lycées, ce fut pour faire à l'arabe une place encore plus modeste que les missions étrangères, la langue de l'enseignement fut le turc. Il faut attendre la renaissance pour voir l'initiative privée prendre en main la cause d'un enseignement national dans la langue du pays.

Il est permis de conclure que l'arabe ne subsistait plus que sous la forme de patois indigène, complètement exclu de toute participation à la vie civilisée. Il résistait pourtant à la façon d'une plante sauvage et vivace ; une littérature orale florissait chez les Bédouins des déserts de Syrie et d'Arabie, jouissant même d'un

(1) Cf. Khairallah. *La Syrie*, R. M. M., t. XIX, p. 39 (Les écoles champêtres de Douwaihi 1633-1704).

(2) Lire dans le Recueil de textes arabes modernes de Ode Wassilieva (Al-muntahabât al-'asriya) un fort curieux témoignage de Muhammad 'Abduh, son rapport à la Sublime Porte sur la situation de Beyrouth et du Liban (Al-lâ'iha at-ğâniya fî iṣlâh al-qutr as-sûri...) pp. 3 et 4 jusqu'à la page 11.

— 273 —

certain prestige auprès des populations sédentaires, su
tout rurales, qui en possédaient une aussi. Mais on devi
qu'un idiome réduit à cette triste condition devait fat
lement perdre du terrain, surtout dans les villes. Tou
la partie Nord de la Syrie, le sandjak d'Alexandrette,
région d'Alep en particulier, était lentement conqui
par le turc. En Syrie moyenne, les villes de l'intéric
prenaient le même chemin et le signataire de ces lign
a pu constater au cours d'une mission en 1920, après
réorganisation arabe des services par le régime chérifi
de Faysal, à quel point le turc était resté la langue co
rante de l'administration dans la région de Damas et
long des voies de pénétration, les voies ferrées princip
lement. Encore aujourd'hui, après la disparition des ca
ses, une partie des effets subsiste, et le turc est enco
préféré dans la conversation de certaines grandes fami
les. Quant à la région côtière, elle s'ouvrait aux influe
ces européennes, où jadis avait dominé l'italien et mêm
le grec, pour laisser, surtout après 1860, un avanta
marqué au français et à l'anglais (1). Pourtant le russ
entré plus tard dans la compétition, avait réussi à cré
des centres d'influence, grâce à des écoles, comme cel
de Beskinta qui compte au nombre de ses anciens élèv
l'écrivain syro-américain Miha'il Na'imah (2). Aux env
rons de 1913 l'allemand avait à son tour posé quelqu
pierres d'attente, et sans l'interruption de la guerre mo
diale, on aurait peut-être vu cette belle rivalité s'élarg
de quelques unités. La situation de l'arabe, entre tout
ces influences concurrentes, se laisse facilement imagin
d'après les témoignages contemporains. Autant qu'i
permettent de la reconstituer ce devait être quelque cho
de comparable à son état présent dans l'Afrique du Nor
ou à celle des survivances basques et celtiques à l'Oue

(1) Cf. le texte cité de Muhammad 'Abduh. p. 4.

(2) Voir Kračkovsky, *Miḥa'îl Na'ima Autobiographie* in « Die W
des Islams» bd. 13, 1931, p. 100.

18

de l'Europe vers la même époque : une série de dialectes parlés, menacés de disparition, en dépit de toutes les manifestations autonomistes.

De ce sommeil, on peut presque dire de cette mort, l'arabe s'est pourtant réveillé, dans un magnifique effort, dont l'histoire commence à pouvoir être retracée, grâce surtout aux travaux de MM. Massignon, Gibb, Krachkovsky et Kampffmeyer. On trouvera une esquisse des caractères psychologiques du mouvement dans le dernier des trois articles de M. W. Marçais (1). Historiquement son origine est en Egypte, bien que ses protagonistes soient surtout des écrivains syriens, venus chercher dans un pays indépendant les avantages d'un régime de presse plus libéral. Ainsi dès son début se fait sentir l'influence de certaines conditions politiques. Nous nous croyons même en droit d'aller plus loin, et d'affirmer que le point de départ des processus d'arabisation linguistique se trouve dans la formation d'une langue administrative et politique. L'Egypte émancipée s'était donnée une administration et une presse de langue arabe. C'est là le déclanchement initial, qui aurait peut-être pu ne pas se produire. On peut se demander alors si le réveil des peuples arabes n'aurait pas pu choisir d'autres directions, et si les leaders actuels de leur renaissance culturelle, se verraient encore dans ce cas conduits par l'implacable logique des mots, et aussi les précédents de l'histoire, à fixer les yeux sur le Higaz ou le Nağd, vers un foyer virtuel où doit éclore une civilisation « purement arabe » !... alors que l'impulsion initiale est venue de l'autre côté ! L'arabe moderne a été d'abord la langue d'une série de mouvements nationaux, et de leur presse, avant de recréer une littérature. C'est en dernier lieu seulement qu'il s'est appuyé sur une organisation méthodique de l'enseignement.

(1) *L'Enseignement Public*, fév. 1931, pp. 129-133.

Il semble bien en effet que la succession chronologique impose cette conclusion : le mouvement national égyptien et l'autonomie administrative ont précédé l'essor de la littérature. Le fait brutal et incontestable, c'est que le premier journal rédigé en langue arabe ait été un journal officiel : Al-Waqa'i' (1). L'Egypte ne devint qu'ensuite le centre d'une brillante activité littéraire, dont le rayonnement précipita l'évolution des pays voisins. Pour ceux-ci le rapport de cause à effet se trouva naturellement inversé. Ce fut le développement d'une littéraire nationale qui graduellement éveilla un esprit nouveau, et finalement permit le démembrement de l'empire ottoman. Ce dernier événement ne fut que la consécration officielle d'une transformation déjà mûre. Les gouvernements chérifiens, notamment à Damas, procédèrent à une réforme administrative qui installa l'arabe comme langue officielle. La chute de Faysal ne compromit pas l'œuvre commencée, qui se poursuivit avec continuité surtout dans l'enseignement. L'adjonction de langues européennes comme doublure n'empêche pas les services de fonctionner dans la langue du pays, comprise par tout le monde. Le régime est le même dans les Etats côtiers, avec le français au Liban et l'anglais en Palestine, et en plus dans ce dernier pays l'hébreu comme troisième langue officielle. Depuis l'Iraq a franchi une étape de plus vers l'arabisation en devenant un état indépendant. Comme il arrive toujours en pareil cas, l'élément arabe n'est pas plutôt sorti de sa situation d'opprimé, qu'il tend à se faire oppresseur à son tour, en procédant à une arabisation forcée des minorités non arabophones, turques en particulier, en Iraq et en Djezireh. Devant ce retournement des positions anciennes, si l'on considère le chemin parcouru, et si l'on constate

(1) Cf. Washington Serruys. *L'arabe moderne*, Beyrouth, 1897, p. XIII. Voir aussi : Ṭannaxi *Tārīḫ aṣ-ṣiḥāfa l-'arabiya*, Beyrouth, 1913, pp. 5-6.

que toutes les régions arabes du Proche Orient sont maintenant dotées d'un organisme gouvernemental dans leur langue, on ne manquera pas de se demander par quel miracle un changement aussi radical a pu exiger pour s'accomplir un laps de temps aussi court. Plusieurs circonstances ont pu contribuer à le favoriser : en particulier l'identité fréquente des termes techniques entre l'arabe et le turc, à cause de l'usage constant suivi par les Turcs d'emprunter les mots de civilisation à l'arabe comme à une langue morte, à peu près comme nous faisons du grec et du latin. Mais surtout l'évolution de l'ancienne Turquie d'Asie a duré beaucoup plus longtemps qu'il ne paraît. Elle a bénéficié de toute l'avance prise par l'Egypte, et en particulier du développement d'une presse politique en langue arabe, imitée de celle de ce pays, acclimatant les termes nécessaires à la vie sociale. Ceci nous amène au rôle joué par les diverses formes de la littérature, seule qualifiée pour rendre à la langue le prestige qui précisément lui manquait.

De cette littérature nous ne dirons presque rien, parce que c'est la partie la mieux connue de l'évolution moderne, et qu'il suffit de renvoyer à quelques travaux aisément accessibles. Outre les pages de M. W. Marçais, auxquelles nous avons déjà renvoyé on consultera utilement : en arabe le IV^e^ volume de l'*Histoire de la littérature arabe*, de Gurgi Zaydan (1) et les 11 volumes du P. Cheikho sur *La littérature au XIX^e^ siècle* (2), ainsi que l'*Histoire de la Presse*, du Vicomte Ph. de Tarazi (3) : en russe la préface de Ign. Krachkovsky ou recueil de textes arabes modernes de Ode Wassilieva (4) que la traduction allemande de Kampffmeyer a un peu rapprochée de

(1) *Tārīḫ adāb al-luġa al-'arabiya*, Le Caire, imp. al-Hilal, 1911.
(2) *Al-adāb al-'arabiya fī-qarn al-tāsi' 'aśara*, Beyrouth, 1910.
(3) *Tārīḫ aṣ-ṣiḥāfah al-'arabiyah*, Beirût, math. Adabiyah, 1913.
(4) *Muntaḫabāt 'aṣriya* par Kultum Nasr 'Awdeh Wasilyeva, Leningrad, 1928, pp. I-XXV.

nous (1), ainsi que l'opuscule du même Krachkovsky sur le *Roman historique dans la littérature arabe moderne* (traduction allemande de Gerard van Mende) (2) ; en anglais H.A.R. Gibb, *Studies in contemporary arabic Literature* (3) et Kampffmeyer-Khamiri, *Leaders in contemporary arabic Literature* (4) ; en français le travail de K. T. Khairallah sur *La Syrie*, publié par M. Massignon dans la *Revue du Monde Musulman* (5). On se bornera ici à deux remarques. D'une part les centres les plus actifs ont été l'Egypte et la Syrie. L'Iraq n'est pas resté étranger au mouvement, mais la contribution de la péninsule est, comme on pouvait s'y attendre, absolument négligeable. Si l'on ajoute que les émigrés syriens en Amérique ont continué à produire des œuvres qui comptent parmi les plus intéressantes de la littérature néo-arabe, on arrive à une notion claire du caractère périphérique de cette renaissance, par rapport au centre de gravité historique et géographique des peuples arabes. Le fond de la pensée qu'elle exprime est encore bien plus extérieur, par son inspiration européenne ou américaine, en dépit d'une réaction qui se dessine en faveur d'un retour à un esprit plus traditionnel. La forme au contraire s'est toujours montrée d'intention résolument conservatrice. Mais, et c'est notre seconde remarque, si la littérature moderne tient fermement pour la langue morte, elle a néanmoins perdu quelque peu du caractère ésotérique de l'ancienne. Elle vise indiscutablement à toucher le grand public, même si parfois elle le manque. C'est ce qui ré-

(1) *Die Anfange einer Geschichte der neueren arabischen Literatur* M. S. O. S., XXX, abt. II, pp. 170-205.
(2) *Der Historische Roman in der neuren arabischen Literatur in* «Die Welt des Islams», bd. 12 heft 1/2.
(3) Reprinted from the *Bulletin of the School of Orient Studies*, Vol. V, part III.
(4) London, Leipzig, Cairo, 1930.
(5) T. XIX, pp. 1 à 142.

sulte en particulier du rôle capital joué par la presse. Presque tous les livres ont paru d'abord dans les journaux. Souvent même le livre n'est qu'un recueil d'articles de journaux, classés par ordre de matières. Il s'agit d'une littérature très quotidienne, et qui vit même un peu trop exclusivement d'actualité. Elle maintient donc un contact étroit avec le grand public. Que représente à son tour ce dernier ? A ce propos on fait souvent remarquer le pourcentage élevé des illettrés. C'est sans doute un grave sujet de préoccupation mais qui ne doit pas suffire à laver ces exercices intellectuels d'agitation négligeable. Cette proportion, établie sur la population totale, en comprenant les campagnes, trahit surtout la structure aristocratique des sociétés orientales, où tout un prolétariat vit en marge de la cité. On aurait pu, avec autant de bonnes raisons, douter de l'importance des intellectuels dans l'Athènes du siècle de Périclès avec des statistiques englobant toute la population rurale ou servile. Aujourd'hui dans les villes d'Orient la proportion des analphabètes est tout de même devenue moins élevée, et la presse quotidienne trouve un public pour la faire vivre. Il est vrai qu'on peut reprocher à ce public de ne pas lire autre chose, ou presque rien. Mais la littérature moderne est, sans contestation possible, bien plus que l'ancienne en rapport étroit avec la vie quotidienne. Il est impossible de lui refuser une influence qui ne fera que croître, avec les progrès de l'œuvre d'éducation, et l'influence de l'école, qui a reçu un immense développement.

Cette dernière partie de la restauration arabe enregistre elle aussi des réalisations intéressantes. Née de l'influence occidentale, elle a complètement modifié le système traditionnel, à telle enseigne que les établissements religieux d'enseignement théologique et juridique ont dû eux-mêmes s'accommoder aux programmes d'occident. Les conséquences pour la langue ont été d'abord défavorables. Mais très vite, vers la fin du siècle dernier,

une réaction nationale amena la création d'écoles indigènes comme celle de Bustani (1) à Beyrouth. Nous avons déjà dit que les écoles étrangères avaient dû faire à l'arabe une place grandissante. Mais c'est surtout par le changement de statut politique que l'on put franchir une étape décisive avec la création d'un enseignement officiel en langue arabe, réforme réclamée par Muh. 'Abduh dès 1880 au gouvernement turc (2). Cet enseignement n'a pas été maintenu au Liban, mais fonctionne en Syrie, où il se développe dans des proportions qui témoignent de son succès technique. L'exemple de l'Egypte prouvait d'ailleurs que l'entreprise n'offrait pas de difficultés insurmontables. L'enseignement primaire a été intensifié, et l'enseignement secondaire est plutôt trop important pour les besoins du pays. Le point faible reste naturellement, pour un temps indéterminé, l'enseignement dit supérieur. Deux remarques s'imposent sur cette œuvre d'éducation en langue arabe : C'est d'abord, et son succès le montre, qu'elle répondait à un véritable besoin, dans un pays comme la Syrie, où à part le turc, les langues étrangères étaient peu répandues ; c'est ensuite qu'elle doit avoir les plus grandes conséquences pour l'équipement de la langue technique et intellectuelle. De ce point de vue Damas est, notons-le au passage, en avance sur Beyrouth, par rapport au mouvement général.

⁂

Un coup d'œil d'ensemble sur la situation fait donc éclater l'étonnant revirement de fortune dont a bénéficié l'arabe, donnant l'impression d'une marche triomphale et irrésistible, comparable au mouvement européen des nationalités dans le cours du même siècle. Les pré-

(1) Voir Khairallah, *La Syrie*, R. M. M., t. XIX, p. 49.
(2) Texte cité ci dessus, p. 11.

cédents nous ont habitués à considérer de tels mouvements comme incompressibles et assurés de la victoire finale. Sans discuter ces généralisations un peu sommaires, on insistera ici, pour le cas de l'arabe, sur deux points essentiels : d'un côté sa résistance linguistique paraît avoir largement bénéficié du mouvement des nationalités ; de l'autre elle lui a porté le concours le plus efficace, car la langue arabe semble aujourd'hui le seul lien capable de réunir entre eux des héritiers d'une culture musulmane, qui ne sont pas tous musulmans, et les continuateurs d'une civilisation arabe, qui ne sont pas en majorité arabes. A l'appui du second point on notera que l'Islam est aujourd'hui moins propre à jouer ce rôle, car les survivances de ses prétentions moyennageuses sont parfois un ferment de discorde plus qu'un élément d'union, et souvent le prétexte le plus honorable des interventions étrangères (1). La notion de race arabe est utilisable, et même largement utilisée, mais à condition de ne pas y regarder de trop près. Au contraire c'est l'unité de langue qui procure aux « Arabes » actuels la conscience d'une communion culturelle, fait normal à notre époque où les ambitions nationales se cristallisent autour de frontières surtout linguistiques. Si on l'admet on ne sera pas loin de penser que les progrès de l'arabe, encore si près d'une renaissance qui doit tant aux bouleversements politiques, et d'un renouvellement d'idées destructeur de l'ancien équilibre oriental, n'ont peut-être pas encore cessé de dépendre du sort ultérieur de ces transformations. L'avenir de la littérature arabe serait encore lié, dans cette hypothèse, à des éventualités que l'on ne saurait prédire. Tout ce que l'on est en droit de remarquer, c'est, dans le front actuel de la langue arabe, un petit nombre de points faibles. Ils se trouvent précisément à la périphérie dans

(1) Ceci n'est pas une opinion personnelle mais l'avis presque unanime des écrivains de la renaissance.

les régions où l'effort de conquête a été le plus efficace. Ne parlons pas en effet de la péninsule arabique, dont l'apport culturel est nul, ni de l'Iraq, dont l'état présent ne nous est pas suffisamment connu. Les colonies syriennes des deux Amériques montrent beaucoup d'activité, et cependant tout le monde se plaint que l'usage de l'arabe s'y perd (1), comme c'était à prévoir. Mais bornons nos observations aux deux territoires d'élection de la renaissance : à l'Egypte et à la Syrie (au sens large).

1° L'Egypte, qui fut le point de départ du mouvement, et n'a pas cessé de lui servir de guide, présente un spectacle paradoxal, que l'on peut résumer en ces termes : ce berceau de la renaissance arabe est en même temps le point de pénétration principal et le champ de bataille des influences étrangères. L'anglais et le français se disputent la suprématie. Il est rare de rencontrer un Egyptien cultivé qui ne comprenne au moins l'une de ces deux langues, et quelquefois les deux. L'enseignement officiel leur réserve une grande place, dans l'intention avouée de voir la langue arabe profiter indirectement de cet élargissement de patrimoine spirituel. Par ailleurs les écoles étrangères restent fort nombreuses et très fréquentées. La presse anglaise et française pénètre partout. Les librairies européennes sont florissantes. Le cinéma dilue à l'usage des publics les plus variés cette mixture de supercivilisation et de romantisme transatlantique dont le dosage exact reste le secret industriel des laboratoires de Hollywood (2). Que peut-on mettre en regard de ces progrès de l'Occident ? Certainement l'intérêt pour l'arabe ne faiblit pas précisément, mais augmente-t-il ? De temps à autre une voix autorisée fait entendre les doléan-

(1) Consulter un fort curieux article d'Ibrâhîm Kâtibah dans « Magallat al-sayyidat war-rigal, avr. 1930, pp. 232-237 : *Al 'Â'ila as-sûriya fî Amrîka*, « La famille syrienne en Amérique ».
(2) La mise au point du cinéma parlant en langue arabe paraît lente, et jusqu'à présent je ne connais que cinq films, sans compter les films chantés.

ces des personnalités que leurs fonctions mettent en contact avec la jeunesse. On peut lire celles de **Taha Husain** dans sa préface à l'*Histoire de la littérature préislamique* (1) sous forme de plaintes amères à l'adresse de l'enseignement de la littérature arabe tel qu'il est pratiqué. Un autre témoignage se trouve cité par Kampffmeyer et Khemiri, dans *Leaders in contemporary arabic literature* (2), celui de Muḥammad ʿAbd Allah ʿInân, ainsi conçu : « Il est regrettable que les étudiants de nos écoles soient à même de comprendre et d'apprécier l'anglais et le français mieux que l'arabe, beaucoup d'entre eux en savent plus long sur Shakespeare, Milton, Goldsmith, Macaulay et Molière, Voltaire et Victor Hugo, que sur Al-Makarri, Al-Mutanabbi, Badiʿ az-zaman al-Hamadâni, Ibn Khaldûn. La raison en est qu'ils sont initiés à la vie et aux œuvres de ces auteurs occidentaux sous une forme neuve et attrayante, tandis que les grands penseurs arabes sont présentés dans le style et à la manière d'Ibn Khallikan ». Dans un autre ordre d'idées les discussions et les enquêtes fréquentes dans les périodiques sur l'avenir de la culture égyptienne, et les éléments qui doivent entrer dans sa composition, trahissent parfois certaines incertitudes. Enfin le peu d'empressement que montrent parfois les Egyptiens à répondre aux invitations de congrès musulmans, arabes ou littéraires, qui leur arrivent de Bagdad, de Jérusalem et de La Mekke, s'explique sans doute par un souci de prestige : appréciant comme il convient l'honneur d'être à l'avant-garde de la culture arabe, ils hésitent à le compromettre dans des aventures avec des voisins moins avancés, et préfèrent souvent une attitude de distante réserve. N'allons pas jusqu'à dire que

(1) *Fî-l-adab al-jâhilî*. Le Caire, 1927, pp. 1 à 8 : critique de l'enseignement arabe en Egypte ; pp. 8 à 13 : projet de réforme avec autres critiques.

(2) P. 23 trad. d'un passage avec renvoi à *As-sidaqh al-Ahâlîyah*, 17 août 1929.

le sens de la solidarité arabe commence à leur échapper ; mais celui de la nationalité égyptienne fait assurément des progrès. De tout cela il n'y a peut-être rien à conclure. Mais les gens qui ne croient pas à l'avenir de l'arabe — car il y en a — en prendront peut-être occasion pour estimer que le dernier mot n'est pas encore dit.

2° La Syrie dans son acception générale, comprend actuellement plusieurs régions très nettement différenciées par diverses particularités, extérieures et intérieures:

a) La Palestine où une nouvelle langue de civilisation vient de s'implanter solidement sous les espèces de l'hébreu moderne, récemment ressuscité ; il reste improbable que l'hébreu ait gagné sensiblement dans les milieux arabes de la côte ; mais il est maintenant la langue d'une partie très importante de la population, langue officielle que les fonctionnaires doivent savoir plus ou moins, et qu'apprennent par conséquent les jeunes aspirants à ces carrières, ainsi que les employés des maisons de commerce ; langue employée dans l'enseignement, et qui possède à Jérusalem une Université. A côté de ce gigantesque effort, les anciennes influences étrangères, les écoles religieuses, font beaucoup moins de bruit, mais subsistent extrêmement nombreuses. Naturellement toute la question de l'avenir de l'hébreu est suspendue à celle du sionisme.

b) A l'opposé, l'ancien sandjak d'Alexandrette est resté sous l'influence culturelle du turc ; les efforts d'arabisation engendrent parfois de petits conflits, dont l'arbitrage délicat revient aux autorités mandataires. Dans les écoles l'arabe est en retard parce que l'enseignement turc, organisé depuis plus longtemps, dispose d'une tradition et de cadres tout formés ; la presse de langue turque est très répandue, il existe même sûrement à Alep, et peut-être ailleurs, une activité littéraire turque remarquable, au moins par une particularité : c'est sans doute le seul point du monde où l'on imprime encore le turc en carac-

tères arabes ; ce détail n'étant d'ailleurs pas nécessairement un signe d'opposition des émigrés au nouveau régime, mais tenant partiellement à la routine (1).

c) Sur la côte, entre ces deux extrémités, le Liban demeure le territoire où dominent les influences étrangères, non seulement culturelles mais linguistiques. C'est la dernière, à notre connaissance, et nous n'avons rien à dire à ce point de vue de la Transjordanie ni de la région de Damas, sauf pour les opposer aux trois provinces côtières (2). Au Liban l'enseignement d'Etat, d'ailleurs représenté seulement par des écoles normales, a été supprimé par mesure d'économie en 1927, comme doublant sans nécessité les innombrables établissements de missions étrangères, et aussi les écoles nationales de fondation privée. Les écoles françaises ou américaines ont considérablement développé l'enseignement de la langue et de la littérature arabe, en lui faisant même sous la pression de l'esprit public, une place peut-être exagérée dans les emplois du temps. Ce qui manque en effet à Beyrouth, ce n'est pas un enseignement *de l'arabe*, c'est un enseignement *en arabe* des sciences, de l'histoire et de la géographie. Les études secondaires sont sanctionnées à Beyrouth et à Damas par un baccalauréat semblable, où les matières non littéraires ni linguistiques peuvent être traitées au choix dans les deux langues officielles. Mais tandis qu'à Damas la majorité des candidats opte pour sa langue maternelle, le fait demeure à Beyrouth exceptionnel. J'ai entendu dernièrement un jeune journaliste protagoniste de l'idée nationale, déplorer que l'arabe ne fût pas rendu obligatoire à cet examen. Faudrait-il donc la force publique pour décider les élèves à s'en servir ? Quel imprudent témoignage ce serait de la désaffection des étudiants pour leur langue ! Il vaudrait peut-être

(1) Cf. La revue *al-Hadîth d'Alep* et ses comptes rendus d'ouvrages turcs.

(2) Situation confuse en Haute Djezireh.

mieux organiser l'enseignement correspondant. L'opinion fait probablement fausse route quand elle insiste pour faire consacrer à la langue et à la littérature arabes seules un nombre d'heures équivalent au total des cours professés en français. Elle n'aboutit qu'à lasser les élèves et à désorganiser les horaires normaux, créant un véritable surmenage scolaire. Le témoignage le plus net en est donné précisément par les mêmes parents influents qui réclament dans les conseils l'augmentation des heures d'arabe, et viennent solliciter ensuite individuellement pour leurs fils la dispense de les suivre. Pourtant il faut bien reconnaître que si le public ne demande pas cet enseignement technique, c'est qu'il n'en sent pas la nécessité. Il réclame au contraire l'enseignement arabe qui répond à son idéal. Quiconque a circulé au Liban, ou habité Beyrouth sait que les enfants des classes riches sont souvent élevés à l'européenne, par des gouvernantes, et que les gens de la classe moyenne, celle dont la progéniture fréquente les écoles secondaires, parlent volontiers français entre eux, ou même font alterner dans leur conversation une phrase française avec une phrase arabe, parfois se bornent à émailler l'arabe de quelques expressions françaises, évidemment destinées à marquer diverses nuances affectives. Le contraste entre la côte et Damas éclate à ce point de vue dans des petits faits comme le suivant : L'auteur dramatique égyptien Wahbi, directeur de troupe et acteur, vient à Damas et fait salle comble pendant cinq jours de suite, avec ses drames fort caractéristiques en arabe parlé. Le même tient l'affiche une semaine à Beyrouth au grand théâtre, mais ne réussit pas à jouer une seule fois, étant chaque soir obligé de rembourser les places, faute d'un public suffisant. Les gens de Beyrouth étaient-ils tous au cinéma (1) ? Ils consentent pourtant à rire aux farces de Kiškiš bey,

(1) Nous avons été témoins du fait qui s'est passé en mai-juin 1932.

qui d'ailleurs mériteraient une étude spéciale. Ainsi l'arabe au Liban occupe une situation curieuse, sur laquelle il est difficile de se prononcer mais qui appelle une observation simple : tandis que le français est enseigné, on peut dire qu'à voir les choses de près l'arabe ne bénéficie d'aucun enseignement (1). Celui qui s'apprend dans les écoles n'est pas celui de la vie ordinaire. Il est intéressant de souligner encore ici un contraste avec Damas où l'on apprend l'arabe pour s'en servir, et de mettre en lumière le caractère très spécial que revêt à Beyrouth l'enseignement de cette langue de luxe. Celui-ci paraît orienté presque exclusivement vers l'éloquence, dont toutes les écoles organisent des concours. Cet usage était jusqu'à ces derniers temps resté inconnu des écoles de Damas, qui préparaient sagement aux divers examens utilitaires. Il vient d'être introduit au Lycée orthodoxe. Nous ne nous permettrons pas de le critiquer. Mais à Beyrouth il répond à une notion de la valeur presque universelle de l'éloquence qui se trouve notamment exposée dans le petit traité d'un de ses plus éminents représentants syriens dès les premières pages (2). Il ne manque pas à Beyrouth de lettrés qui savent admirablement la langue classique, ni même d'orateurs éloquents dans toute la force du terme. On ne peut entendre la parole chaude et nuancée du Dr. Fayyad, ou un discours tout en allusions malicieuses d'Amîn al Gurayyib, ou encore une adresse toute en flamme et en venin de Mme Salma Ṣâyig, sans se refuser à croire que ces talents voient leur carrière bornée par un parlement suspendu *sine die*, les tribunaux mixtes, ou encore ces délicieuses réunions littéraires qui nous laissent sous le charme de harangues tellement naturelles qu'on les croit improvi-

(1) Nous n'avons relevé aucun fait parallèle pour l'influence de la langue anglaise, mais il n'est pas douteux qu'on en puisse observer parmi la clientèle des établissements américains.

(2) Nicola Fayyad, *Al-Ḥiṭâba*. Le Caire (Hilal), 2e éd. 1930, pp. 6-7.

sées, jusqu'au moment où l'on vous distribue le texte imprimé à la sortie (1). On admire, mais l'on se demande, non sans quelques tristesse, si le rôle de la langue arabe doit rester confiné à ces délicates joutes oratoires entre représentants et l'aristocratie de l'esprit. Inquiétude vaine, nous voulons le croire, et même paradoxale, puisqu'elle n'est inspirée que par la perfection où ces élites ont porté l'instrument d'expression de leurs sentiments et de leurs idées ! Mais peut-on leur souhaiter timidement de s'en servir un peu plus ?

Pour résumer ce tableau d'ensemble on peut dire que les régions périphériques gardent un œil tourné vers l'Occident, et le Nord vers la Turquie, alors que les hinterlands se montrent plus attachés à la langue du pays. Que penser de l'étape suivante de l'évolution ? Cet équilibre instable se rompra-t-il au profit du centre ou de la circonférence ? Comme nous l'avons laissé déjà entendre, nous pensons que l'avenir dépendra en premier lieu de l'évolution politique de ces contrées. Dans ce domaine toutes les suppositions sont aussi risquées et aussi fantaisistes.

Si l'Europe occidentale cessait de soutenir les gouvernements arabes de sa puissance militaire, ces derniers s'effondreraient probablement devant un retour offensif de la Turquie. Seuls les Etats d'organisation bédouine dans la péninsule opposeraient quelque temps une résistance active ou passive, dont la première laisserait les établissements sédentaires de la Méditerranée seuls à faire tous les frais, comme à en essuyer les outrages. Il est probable que les Turcs trouveraient bientôt dans les traditions de la politique ottomane le secret de les réduire. Sans doute qu'instruits par leur expérience de libé-

(1) Lire par ex. la brochure éditée à l'occasion du Jubilé du P. Luis Ma'lûf : *Yûbîl al-âb L. M.*, Beyrouth, imp. cath., 1932, contenant les discours de Ḥabîb Trâd, Anṭûn Ṣuhaybir, Ǧurǧî Bâz, Nu'aym Šawâya, Muṣṭafa al-Ġalâyînî, Amîn al-Ǧurayyib, Niqula Fayyâḍ et Luis Ma'lûf.

ralisme de 1908, ils ne commettraient pas de nouveau l'erreur de laisser se développer des nationalismes locaux, ni de laisser un esprit séparatiste se nourrir du culte de la langue des provinces reconquises. L'arabe n'aurait donc aucun titre particulier à leur sympathie, et il est à croire que, même s'ils lui faisaient au début quelques concessions de pur opportunisme, ce serait avec l'arrière-pensée de les reprendre, quand ils tiendraient solidement le pays. Le turc reprendrait sa marche envahissante vers le sud. Et l'arabe retournerait tout doucement à la situation effacée qui était son partage sous l'ancienne dynastie. Il est douteux que les colonies syriennes des deux Amériques suffisent à entretenir sa vie intellectuelle. L'Egypte seule pourrait maintenir son originalité, grâce à une position écartée, mais à la condition — toujours dans l'hypothèse d'une éclipse de l'Occident — de désarmer les susceptibilités de ses voisins, en dépouillant sa culture arabe de toute apparence d'irrédentisme. Ce serait un nouveau sommeil.

Supposerons-nous au contraire que la retraite des Occidentaux corresponde à une vigoureuse rentrée en scène de la Russie soviétique ? Autant qu'on peut en juger, d'après les précédents de sa politique orientale, et d'après ses principes, celle-ci favoriserait l'éclosion de républiques arabes fédérées, régies par des soviets dont la langue officielle serait l'arabe parlé, et dont l'opinion recevrait ses mots d'ordre de journaux imprimés en caractères latins. Ce serait la chiquenaude décisive, qui fatalement doit un jour ou l'autre consacrer la rupture devenue scandaleuse entre les deux arabes : écrit et parlé. Et comme l'arabe classique n'aurait plus d'autre foyer intellectuel — toujours à part l'Egypte, dont nous laissons le sort incertain, mais qui serait peut-être obligée de suivre, comme la Turquie a suivi les soviets dans la question de l'alphabet — ce serait pour lui l'enterrement définitif : enterrement civil, car il subsisterait bien en-

tendu comme langue liturgique, sacrée mais de moins en moins comprise. Seuls les Syro-américains, continueraient sans doute à l'écrire, de la même façon que les émigrés turcs continuent à se servir de l'alphabet traditionnel. Mais les Syriens, et surtout les Syriens d'Amérique, ont déjà une tendance à s'intéresser à l'arabe parlé de leurs montagnes, ils n'auraient plus qu'à s'y abandonner. La carrière de l'arabe recommencerait alors sous une forme nouvelle, vers des destins qui pourraient être glorieux, probablement même très favorables au développement intellectuel de ces pays, mais dont nous n'avons aucune idée ; dont en tout cas les lettrés arabes d'aujourd'hui sont, presque tous bien moins que nous disposés à envisager l'avenir avec sérénité. Quant aux minorités, ce serait l'âge d'or pour leurs langues ; hébraïque, araméïque, turque, kurde, circassienne, arménienne, chaldéenne, etc. On ne saurait rien imaginer de plus contraire aux perspectives des aristocraties arabes du temps présent.

Nul doute que bien d'autres combinaisons ne soient possibles, car la réalité déborde et déjoue tous les calculs. Mais il reste encore une hypothèse simple : celle du statu quo, au moins pendant un laps de temps assez long pour que le mouvement arabe ait le loisir de développer ses virtualités, et peut-être de trouver un équilibre de forces ou d'alliances, qui lui permette de conquérir son indépendance, sans être happé par les voisins. Cette éventualité verrait la continuation de l'œuvre de culture arabe, sur les bases qui ont été les siennes jusqu'à présent. Elle mettrait cette œuvre à l'épreuve des faits, et jugerait finalement si elle est viable. Nous croyons personnellement que l'expérience serait favorable, produisant comme résultat un progrès dans l'arabisation des régions côtières ; une unification pratique des parlers urbains qui se rapprocheraient de la langue classique par leur vocabulaire et certains traits de leur

morphologie, mais non sans doute par la phonétique, dont le contrôle conscient est beaucoup plus difficile à obtenir ; enfin le développement parallèle de deux littératures en langue classique et vulgaire, spécialisées dans des genres différents, mais de moins en moins éloignées, la langue vulgaire étant nourrie de classique et la langue classique devenant de plus en plus simple et adaptée à la vie. Ces phénomènes, qui se dessinent déjà seraient utilement comparés à ceux des langues où, comme en grec moderne, des questions analogues se posent aux écrivains et au public. Tout ce qu'on peut souhaiter, c'est que, au cours du processus d'arabisation, les minorités linguistiques ne se voient pas trop rudement guidées dans le droit chemin de l'assimilation. Conduite avec prudence et persévérance, l'expérience est presque obligée d'aboutir. Et il est parfaitement possible d'envisager comme conséquence encore lointaine, une renaissance de l'arabe en Afrique du Nord. Il y a là quelques sujets de curieuses méditations pour toute sorte de gens.

***

L'avenir de l'arabe contemporain nous est encore voilé, mais on discerne que ses champions ne sauraient être blâmés d'avoir foi en lui, même une foi un peu naïve. On ne peut que s'incliner devant des déclarations du genre de celle de Miḫâ'îl Na'îma dans une lettre à Krachkovsky (1). « ...Nous assistons à la naissance d'une nouvelle littérature arabe, destinée avant beaucoup de décades, à prendre une place honorable dans la littérature mondiale. Aujourd'hui elle est très fortement influencée par l'Ouest, mais quelque jour elle influencera l'Ouest à son tour. J'ai foi dans le génie de la langue arabe. Et

(1) Lettre éditée par Krachkovsky, *Die welt des Islams*, bd. 13, 1931, Miḫâ'îl Na'îmah's Autobiographie, p. 100 (la lettre est en anglais).

j'ai foi dans les qualités fondamentales des peuples pour qui c'est la langue maternelle ». Pourtant de tels manifestes ne possèdent pas en eux-mêmes de vertu démonstrative. Si nous avons correctement interprété les faits, la nouvelle littérature, que salue Na'îma, doit en grande partie sa fortune aux transformations politiques du XIX[e] siècle (1). Née d'un mouvement national elle risque d'en éprouver les vicissitudes, et de dépendre encore maintenant des contingences externes autant que de sa valeur propre. Tout au moins exige-t-elle peut-être pour prospérer un minimum de circonstances favorables.

Faut-il aller plus loin ? N'est-il pas permis de croire que, même avec les circonstances les plus favorables, l'arabe aura peine à lutter contre les langues européennes ? C'est ici le lieu de rappeler une des conclusions de M. W. Marçais dans son rapport : « Il est impratique, il n'est pas raisonnable, et en fait il est assez rare que deux idiomes de civilisation coexistent très longtemps dans un même pays. Quand les concurrents jouissent d'un égal prestige, expriment sensiblement les mêmes choses, et le disent aussi bien l'un que l'autre, des raisons de sentiment aidant, ce gaspillage de forces peut se prolonger. Mais quand l'une des langues est celle des dirigeants, qu'elle ouvre l'accès d'une grande civilisation moderne, qu'elle est claire, que l'expression écrite et l'expression parlée de la pensée s'y rapprochent au maximum ; que l'autre est la langue des dirigés, qu'elle exprime dans ses meilleurs écrits un idéal médiéval,

(1) La plus forte objection à cette vue réside dans l'ancienneté de la renaissance au Liban, avec ses deux précurseurs Nâṣîf al-Yâziǧi et Boutros al-Boustâni. Se reporter notamment à Krachkovsky, *Der Historische Roman in der Neuren arabischen Literatur* (trad. Gerhard von Mende, Leipzig, 1930) extrait de *Die welt des Islams*, bd. 12, heft 1/2, pp. 60, 61 et 62.

Il reste néanmoins probable que toute la seconde moitié du XIX[e] siècle est sous la dépendance de l'effervescence égyptienne, dont Krachkovsky place le point de départ historique aussi loin que l'expédition de Bonaparte en Egypte (R. A. D., X, 1930, pp. 18-19).

qu'elle est ambiguë, qu'elle revêt quand on l'écrit un autre aspect que quand on la parle, la partie est vraiment inégale : la première doit fatalement faire reculer la seconde » (1). On ne saurait trop méditer ces raisons pressantes. Pourtant nous n'hésitons guère à déclarer que nous ne les croyons pas applicables à l'arabe dans le Proche Orient.

Moins que l'Afrique du Nord les peuples arabes d'Orient sont pourtant quelque peu dans la situation que décrit M. Marçais : celle de dirigés, à cause de la suprématie marquée de l'Europe. Les faiblesses intérieures de l'arabe sont assurément partout les mêmes. Mais à envisager la conclusion, on a l'impression d'une quasi-impossibilité. Que représenterait en effet la solution proposée ; le recul de l'arabe devant une ou plusieurs langues d'Europe ?

Ce serait d'abord un recul de l'idée nationale, idée qui correspond assez bien à la description d'une idée-force ; un ensemble de notions qui semblent vivre d'abord d'une existence indépendante sur un plan purement intellectuel, dans un cycle de réactions strictement verbales, et puis un jour, trouvent le chemin des nerfs et des muscles, et, pour ainsi dire, descendent dans la rue. L'idée de la Patrie arabe représente sans doute une sorte d'idées-force, j'allai dire une idée-violence. Aller contre elle suppose que l'on remonte un puissant courant contraire. Seules pourraient la neutraliser des circonstances très défavorables, étrangères aux mérites des idiomes en concurrence, circonstances que précisément nous ne supposons pas réalisées.

Elle représenterait aussi une régression par rapport à l'évolution moderne des sociétés : ce serait une solution éminement aristocratique. Les langues étrangères sont un luxe que la masse ne peut pas facilement se payer. A supposer qu'une transformation fort longue gagne

(1) « *L'enseignement public* », Janv. 1931, pp. 38-39.

complètement au français ou à l'anglais la population des villes, il resterait toujours dans les vastes régions rurales ou montagnardes un prolétariat exclu plus ou moins de la civilisation. Si le littoral était entièrement conquis à l'Europe, une seconde zone intérieure ne jouirait pas en l'absence de l'arabe des mêmes facilités d'accès à la vie intellectuelle. Et si enfin toute la périphérie s'occidentalise il subsistera, au centre, dans les déserts arabes, une population nomade qui manifeste périodiquement au cours de l'histoire, par des démarches également dépourvues de douceur et d'ambiguïté, son désir instant de ne pas être tenue à l'écart de toute existence civilisée. L'impossible disparition de l'arabe apparaît ici comme inscrite sur la carte. Dans l'Afrique arabe également les nomades occupent un centre et les sédentaires la circonférence. Mais les déserts arabes présentent cette particularité de ne pouvoir être tournés ni traversés. Ils ne peuvent être traversés parce qu'ils ne mènent nulle part qu'à une côte inhospitalière, et qu'ils restent ainsi en dehors de toutes les routes économiques, dans une situation de flanc, perpétuelle menace pour les communications entre la Méditerranée et la Perse. Il faut sans doute renoncer pour longtemps à exporter des films parlants américains sous les tentes bédouines. Et du moment qu'un centre de résistance aussi important reste assuré de tenir indéfiniment, les conquêtes d'une langue étrangères auront pour résultat de réserver l'accès de toute culture à une classe plus ou moins large d'individus. Les progrès de la démocratie en Orient pousseront donc de préférence l'arabe au premier plan. Et l'influence des langues étrangères est surtout liée à la persistance d'un état social aristocratique.

Si ces conclusions ne sont pas complètement erronées, elles entraînent certaines conséquences. Dans quelle mesure en effet l'arabe, condamné à vaincre, devra-t-il se transformer pour ne pas mettre ceux qui le défendent en

état d'infériorité ? C'est ici le lieu de discuter la partie pratique des imperfections signalées par M. Marçais.

L'arabe est difficile. Mais jamais la difficulté d'une langue n'a constitué un obstacle sérieux à sa diffusion, depuis le latin jusqu'au chinois, sans parler du russe et de l'allemand, ou du français lui-même. En réalité il s'agit de toute autre chose que de difficulté grammaticale : c'est la difficulté des textes arabes. C'est-à-dire qu'ils ne sont pas clairs.

L'obscurité pourtant ne semble pas une propriété de la langue, mais un défaut de ceux qui s'en servent. Il y a bien la question de l'écriture traditionnelle, dont on ne peut absolument pas aujourd'hui envisager l'abandon, ni même une réforme. Mais ce n'est qu'une partie du mal. Si les textes arabes ne sont pas clairs c'est que leurs auteurs n'ont jamais visé ce résultat. Ils se sont même fort souvent, avec un plaisir pervers, appliqués à tout le contraire. Quand les modernes auront tous compris qu'il vaut mieux écrire simplement pour les ignorants qu'artistement pour quatre ou cinq confrères, ils en trouveront infailliblement les moyens. La preuve en est dans les progrès déjà réalisés par la presse moderne, du simple fait que la littérature a cessé d'être un plaisir d'esthète, pour devenir le gagne-pain des journalistes. Le mauvais esprit de jadis n'est pas conjuré. Que de fois peut-on entendre les doléances des lettrés contre les audaces de la presse : Tout dernièrement encore j'entendais de semblables regrets, voués par une femme de lettres égyptienne (1) aux mânes du Grand Yāziği « qui lui au moins faisait peur aux journalistes (2), et que personne n'a remplacé ». Félicitez-vous que personne ne l'ait remplacé ! Souhaitez que personne ne le remplace jamais ! Heureusement que le niveau culturel du

(1) Madame Labība Hāšim, directrice de la revue *Fatāt aššarq*.
(2) En arabe : les contenait يضبطهم.

public baisse avec les progrès de l'instruction. Le salut de l'arabe ne peut venir que d'une littérature démocratique.

La littérature arabe est moyennageuse ? C'est bien exact. L'Orient sort à peine du XVI[e] siècle, ou tout au plus du XVIII[e]. Mais la même aventure nous est arrivée il y a quelques centaines d'années. Nous avons derrière nous ce que les Arabes ont devant eux. C'est une simple question de date. D'ailleurs l'inconvénient n'est pas sérieux. Qui donc lit les classiques ? les enfants dans les écoles... et encore ! Le public ne lit que son journal et quelques romans contemporains. C'est de ce côté qu'il faut intensifier la production. Inutile de fabriquer de fausses antiquités.

Reste la fameuse « diglossie » qui paralyse l'enseignement et préoccupe à juste titre les penseurs. Sur ce point l'arabe contemporain réagit. Jusqu'ici nous avons parlé des progrès de « l'arabe » sans spécifier de quel arabe il s'agissait. Nous espérons dans un prochain travail préciser l'étude des réactions de la langue parlée sur la littérature et celle de la langue littéraire sur le langage parlé. Dès maintenant nous nous croyons en droit de conclure que l'arabe est parfaitement viable. Tout dépend de la manière de s'en servir. Son avenir est entre les mains des écrivains et des hommes d'action qui seuls peuvent lui faire, selon le vœu de Miḫā'īl Na'īmah « une place honorable dans la littérature mondiale ».

JEAN LECERF.

اللّهجة العربيّة في منطقة إيدوغ[1]

Le Dialecte arabe de l'Edough

لـ: (Paul Mangion/بول مانجيون)[2]

ترجمة ودراسة: أ د: نوار عبيدي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

رئيس لجنة التّرجمة

تمهيد:

نُشر هذا المقال "اللّهجة العربيّة في منطقة إيدوغ "لصاحبه "بول مانجيون" Paul Mangion في قسم اللّغات والآداب الشّرقيّة للمجلّة الأفريقيّة سنة 1937، في المجلّد 81، وهو يقع في سبع صفحات فقط من 373-380.

وتنبع قيمة المقال أوّلا من موضوعه الجغرافي؛ إذ لا يتناول لهجة مدينة واحدة في عزلة عن محيطها، وإنّما يدرس لهجة الكتلة الجبليّة للإيدوغ الواقعة شمال سهل بونة (عنّابة) وبحيرة فزارة. كما أن صاحب لمقال لم يكتف بملاحظات عامّة، بل أجرى بحثه في عدد من الدّواوير والمناطق، ثمّ قابل نتائج ملاحظاته بما وجده في بونة، ومناطق أخرى. ومن ثمّ فإن المقال يمثّل محاولة مبكّرة لرسم خريطة داخليّة للتنوّع اللّهجي في المجال المحيط ببونة. ويعد من الأعمال الأولى نحو إنشاء خريطة جغرافيّة للّهجات الجزائر، ويدخل ذلك ضمن صناعة الأطالسّ اللّغوية التي بدأ الاهتمام بها مطلع القرن الماضي في أوروبّا. وتبرز أهمّيّه المقال أيضا كونه عملا ميدانيا يحمل منهجا علميا في ميدان اللّسانيّات التّطبيقيّة، وهذا نموذج للبحثة والطّلبة الذين يهتمون بجمع البيانات اللّسانية وترتيبها وتصنيفها ضمن العائلات اللّهجيّة في لغة ما. فقد رصد "بول مانجيون" ظواهر صوتية دقيقة في المنطقة، مثل ضعف الأصوات المفخمة والإمالة، والثّنائيات الصّوتية، وتغيّر نطق بعض الصّوامت، ثمّ انتقل إلى الظّواهر الصّرفية، كصيغ

---

1 - **L'Edough (إيدوغ):** كلمة أمازيغية الأصل، مشتقة من كلمة "إيدرار" (Idurar) التي تعني الجبال **أو المرتفعات. وجبال إيدوغ** هي سلسلة جبلية تقع بين ولايتي عنّابة وسكيكدة بشمال شرق الجزائر تصل أعلى قمة بها إلى 1008 م وهي قمة (بوزيزي)، معظم مساحة السّلسلة مغطاه بغابات متوسّطية، وتضم السّلسلة اليوم عدّة بلديات أهمّها بلدية سرايدي السّياحية والتي كانت تسمى في العهد الاستعماري باسم الجنرال بيجو BUGEAUD. وتقع سرايدي على بعد 13 كلم من مدينة عنّابة على جبل إيدوغ (850 م عن سطح البحر) في منطقة غابية. ثمّ بلديتا شطايبي والمرسى اللّتان تتبعان حاليا ولاية سكيكدة.

2- اشتغل "بول مانجيون" **Paul Mangion** أستاذا بالمدرسة الابتدائية العليا ببوفاريك، وهو من الأعضاء البارزين في الجمعية التّاريخية الجزائريّة، وهو من الباحثين المهتمين باللّهجات الجزائريّة وجغرافيتها، حيث أشارت بعض المصادر أنّه شارك "هنري بيريس" Henri Pérès في إعداد أعمال تعليمية ولغوية مهمّة، منها "**ألف ليلة وليلة**Les Mille et une nuits" في طبعات لاحقة، ومنها خصوصًا كتاب " Vocabulaire de base de l'arabe dialectal algérien et saharien/**المعجم الأساسي للعربية العامية الجزائريّة والصّحراوية**"، بالاشتراك مع المستشرق أنري بيريس (Henri Pérès)، الصّادر عن (La Maison des Livres) بالجزائر سنة 1961م. وله عمل مهمّ أيضا عن العامية الجزائريّة: "**مئة نصّ من العربيّة العامية الجزائريّة**/Cent textes d'arabe dialectal algérien)، الصّادر عن دار النّشر (Baconnier) بالجزائر العاصمة سنة 1959م.

الضّمائر، والجمع، والتّثنية، والتّصغير، وبعض أَبْنِيَة الأفعال والأسماء، قبل أن ينتهي إلى المادّة المعجميّة التي تكشف اختلاف الألفاظ من منطقة إلى أخرى.

أما أهمّ ما يميّز المقال - من النّاحية المنهجيّة - فهو اعتماده على المقارنة؛ فالكاتب لا يصف لهجة الإيدوغ باعتبارها وحدة متجانسة تمامًا، بل يكشف اختلافات بين مناطق أخرى قريبة منها مثل التّريعات ووشاوة، والشّرفة، وبونة، وغيرها. وهذا الجانب يجعل المقال وثيقة ذات قيمة كبيرة للباحث اللّساني المعاصر؛ لأنّه يحفظ لنا صورة عن التّوزيع اللّهجي في منطقة الشّرق الجزائري في الثّلاثينيات من القرن الماضي، وهو صورة نادرة مسجلة كتابيا للمنطوق في المنطقة.

وقد لاحظنا أن "مانجيون" حاول تفسير بعض الظّواهر اللّسانية في ضوء ما سماه الخصائص البدوية، والخصائص التونسيّة، وانتهى إلى أنّ لهجة الإيدوغ تبدو لهجة بَدَوِيّة تشبّعت بتأثيرات سكّانية مستقرّة قادمة، حسبه، من جهة القل وفيليب فيل (سكيكدة). وهذه الملاحظة، حتى وإن كانت تحتاج اليوم إلى مراجعة بمناهج لسانيات تاريخيّة واجتماعيّة حديثة، تظلّ ذات أهمّية لأنّها تكشف كيف كان الباحثون في تلك المرحلة يحاولون تفسير التّوزيع الجغرافي للظواهر اللّهجيّة في الجزائر.

وتزداد قيمة المقال إذا وضعناه في سياق تاريخ البحث في اللّهجات العربيّة الجزائريّة؛ فالمقال يأتي ضمن سلسلة من الدّراسات التي نشرت في (المجلّة الأفريقيّة) حول اللّهجات، ومنها دراسات (جورج ميلون) عن لهجات منطقة الجزائر، وأبحاث أخرى مهمّة أنجزها كلّ من "كانتنو" و"مارسييه" وغيرهما.

لذا، فإن مقال "مانجيون" لا يمثّل مجرّد وصف قديم للهجة محلّية، بل هو وثيقة لسانية وتاريخيّة تحفظ جانبًا من الذّاكرة الشّفوية لمنطقة الإيدوغ وبونة، وتقدّم مادّة قابلة للمقارنة مع الوضع اللّهجي الحالي. وتنبع أهمّيته كما أشرنا إلى كونه يسجّل فروقًا بين جماعات ومناطق متجاورة، وهو ما يسمح للباحث الحديث بأن يدرس مقدار الاستمرار والتّغيّر الذي طرأ على لهجات المنطقة خلال ما يقرب قرنا من الزّمن. لذا فإنّنا ندعو الباحثين والمختصين والطّلبة في اللّسانيّات الحديثة وبخاصّة اللّسانيّات التّطبيقيّة أن يستفيدوا من مثل هذه الوثيقة التي نعتقد أنّها غير كاملة في هذا النّص الذي بين أيدينا ويجب بذل جهود معتبرة للحصول على مثل هذه الأبحاث التي تؤرخ فعليا للّهجات الجزائريّة.

لكن ينبغي أخيرا التّعامل مع المقال بوصفه نتاجًا لمرحلة مبكّرة من تاريخ اللّسانيّات الميدانية، لا بوصفه وصفًا نهائيًا أو مكتملًا للهجة الإيدوغ. فالمادّة التي جمعها "مانجيون" ثمينة، لكن بعض مفاهيمه وتصنيفاته تحتاج إلى إعادة القراءة في ضوء اللّسانيّات الاجتماعيّة والجغرافيّة الحديثة، وهو ما يزيد الوثيقة أهمّية. ومن هنا تأتي قيمة المقال المزدوجة: فهو من جهة يعدّ مصدرا مباشرا لمادّة لهجيّة قديمة ومن جهة أخرى وثيقة تكشف تاريخ تشكل المعرفة العلميّة باللّهجات العربيّة في الجزائر.

نقد وملاحظات:

يقدّم النّص دراسة ميدانية لسانية أُجريت على اللّهجة العربيّة المستعملة في كتلة جبال "الإيدوغ" وقد ارتكز العمل على استقصاءات ميدانية شملت عدّة دواوير قروية (كويشاوة، والتّريعات، وفجّ موسى

ورأس الحديد)، وهذا العمل أنجز بالتّعاون مع اللّساني المستشرق جان كانتينو (Cantineau) الذي سبق وأنّ تحدّث عن أطلس لغوي للجزائر.[1]

العمل الذي قدمه "مانجيون" يدخل ضمن اللّسانيّات التّقابلية، فهو يقارن بين لهجتين أو أكثر ضمن لغة واحدة وهي اللّغة العربيّة، وهذا التّقابل ليس بعيدا عن مصطلح اللّسانيّات المقارنة التي تبحث في الفروقات بين استعمالات لغويّة متعدّدة. وظاهر أنّ الباحث لجأ في وصفه وتحليله إلى المنهج الوصفي والبنوي، حيث بدأ بالمستوى الصّوتي ثمّ الصّرفي والمعجمي، ولم يشر إلى الظّواهر التّركيبية -وهي كثيرة في المنطقة- يمكن الحصول عليها من النّصوص والحكي الشّعبي وبعض الشّعر والألغاز والأحاجي وغير ذلك.

فبعد جمع المعطيات بالمسح الميداني للمنطقة المدروسة خلص الباحث إلى أنّ هذه الظّواهر اللّغوية في المنطقة يمكن تقسيمها إلى أربعة محاور أساسيّة وهي: الخصائص المستقرّة (الحضريّة)، والخصائص البدوية العامّة، والخصائص التونسيّة (التأثّر الإقليمي بين اللّهجات)، والخصائص المحلّية غير المصنفة الفريدة. وقد نقبل بعض هذه الخصائص ونرفض أخرى لشعورنا بأن هذا التّقسيم فيه نوع من التّكلّف فما ذكره من خصائص تونسيّة مثلا يمكن إلحاقها بالخصائص المستقرّة في المنطقة، وذلك لبعد المسافة بين المنطقتين، وثبوت استعمال تلك الصّيغ في منطقة إيدوغ وكل السّاحل معروف، كما أنّ الظّواهر اللّهجيّة التي عدّها خارجة التّصنيف؛ ظواهر عادية ولصيقة بمجتمع بونة.

وبدا لنا أنّ المادّة المجموعة قليلة جدا مقارنة مع اتساع المساحة الجغرافيّة، فالباحث وضع لهجة إيدوغ في كفّة وكل اللّهجات المجاورة في كفّة أخرى، إذ تبيّن أن ثمّة صعوبة لم يفصح عنها الباحث منعته من الحصول على أكبر عدد من الظّواهر. لذا فإن النّتائج التي توصّل إليها والمتمثّلة على الخصوص في تلك الخصائص تضلّ نسبية إلى حدّ ما، فالباحث عدّ لهجة إيدوغ لهجة بدوية، وبعض خصائصها مأخوذ من ناحية القل أو سكيكدة وهذا بعيد، ولعلّ التّقسيم الجغرافي حسب الإدارة الفرنسيّة آنذاك أوهم الباحث أن لهجة إيدوغ قد تمتد مع السّلسلة الجبليّة كلّها -التي تصل إلى سكيكدة- فأجرى المقارنة بينها وبين ناحية المرسى التي تملك لهجة تميزها خاصّة في نطق صوت "التّاء" "تش" إضافة إلى الإمالات الواضحة.

مهمّا يكن من أمر فإن هذه الوثيقة تتضمن وقائع لسانية وثقافيّة بالغة الأهمّية بالنّسبة للبحث اللّساني الجزائري، فهي تثبت الثّراء والتنوّع اللّهجي لحوض الإيدوغ، وتظهر أن لسان المنطقة نسيج لغوي معقد يتقاطع فيه اللّسان الحضري العنابي/ القسنطيني/ السّكيكدي/ التّونسي والمحلي. مع حفظ واضح لبعض الألفاظ من المعجم المتداول آنذاك كأسماء بعض أجزاء الجسم، وبعض الأدوات الزراعيّة، وبعض الألوانّ كما نطقها السّكّان الأصليون، ممّا يزوّد المعجميّين الجزائريّين اليوم بمادّة حية لإثراء المعاجم الوطنيّة وتتبع التطوّر الفيلولوجي للمفردات. والحمد لله لم يسجّل الباحث أي لفظة منطوقة باللّغة الفرنسيّة، بل أثبت البحث أنّ اللّسان الجزائري لم يتأثّر آنذاك باللّكنة الأعجميّة، بل كان عربيّا سليما نظيفا.

1- انظر: ترجمتنا لمقاله "الخريطة اللّغوية للّهجات العربيّة الجزائريّة"، والمنشور في المجلّة الأفريقيّة، مجلّد 79 سنة 1936م ص: 91-93.

التّرجمة:[1]

لهجة (إيدوغ) يتحدّث بها سكّان السّلسلة الجبليّة الممتدّة من رأس الحارس[2] إلى رأس الحديد[3] شمال سهل بونة[4]، وبحيرة فزارة. وتشكّل هذه اللّهجة كياناً متماسكاً إلى حدّ ما. تظهر في هذه اللّهجة خصائص مستقرّة عديدة، ممزوجة بخصائص بدويّة، بعضها ذو طابع تونسي[5]، فضلاً عن عناصر أخرى يصعب في الوقت الرّاهن تصنيفها.

شملت تحقيقاتنا دواوير: ويشاوة[6]، وادي السّاحل، التّريعات، فج موسى، رأس الحديد؛ ولأغراض المقارنة، أجرينا تحقيقات كذلك، بمساعدة السّيد (Cantineau/كانتينو)، في مدينة بونة (لدى المسلمين واليهود[7])، وفي عين مقرة، دمّ البقرات[8]، وشرفة فزارة، وكومبس (مرداس).[9]

أ) الخصائص المستقرّة[10]: سجلنا على وجه الخصوص ما يأتي:

1. ضعف الأصوات المفخمة: صوت الطّاء في كلمة " to'ul " "الطّول" قريب جدًا من " تول" بالتّاء وكذلك dhar "الظّهْرُ" قريب جدًا من "دْهَرْ" بالدّال، والأمر نفسه ينطبق على الأصوات المفخمة غير مستقرّة في عين مقرة. وبينما تكون قد اختفت في بونة؛ لكنّها بقيت محفوظة في السّهل.

2. هناك ميل ملحوظ إلى إضعاف الصّوت المجهور وتحويله إلى مهمّوس، مثل صوت (الظّاء) عند أهل الصّفصاف المتاخمة لويشاوة والتّريعات. حيث ينطقون كلمة" أبيض/أبيوط) abyôt.، كما لوحظ ميل مماثل لإضعاف (الذّال) في منطقة دم البقرات: فيقولون: مترا metra مقابل medra "مذرة" بمعنى (شوكة)[11]، وهي شائعة في جميع أنحاء الكتلة الجبليّة.

3. تشوّه حرف التّاء، حيث نادراً ما يبقى صافياً؛ هو غالباً ينطق ت، أحياناً ينطق (تش أو تس) مثلمّا هو في أربيون (المرسى)[12]، فنجد كلمة "كتف" في صور مختلفة من قبيل kṭef – kṭsef – kṭsef.: كتف، كتسف، كتشف. بينما تبقى التّاء صافية في منطقة دم البقرات، عين مقرة.

1- كل ما في الهوامش من ملاحظات وإحالات هو بقلم المترجم.

2- يقع cap de Garde في آخر ساحل مدينة عنّابة على رأس خليج المرجان عنّابة وتسمى حاليا رأس الحمراء، ويطلق عليها سكّان عنّابة حاليا (الفنار).

3- يقع cap de Fere في آخر ساحل مدينة المرسى التّابعة لولاية سكيكدة حاليا.

4- وهي مدينة عنّابة الحالية، التي كانت تسمى هيبون، ثمّ (بونة)، وBONE في عهد الاستعمار.

5- وذلك نظرا لوقوع المنطقة المدروسة على الحدود التونسيّة.

6- تقع في شمال مدينة عنّابة على سفح إيدوغ.

7- في النّصّ الأصلي " الإسرائليين"، وهي تسمية سياسية أكثر منا علميّة.

8- لعلّه يقصد وادي بقرات الحالية التي تقع جنوب سلسلة إيدوغ.

9- سنستعمل في التّرجمة اسم مرداس لشهرته.

10- لعلّ المقصود الظّواهر الصّوتية الثّابتة.

11- وهي " المادرية" قطعة خشبية كبيرة.

12- Herbillon: هي مدينة المرسى وتقع غرب مدينة عنّابة، تبعد عنها حوالي 60 كلم، حاليا تتبع ولاية سكيكدة. وفي المتن سنعتمد اسم (المرسى).

4. عدم التّمييز بين المذكّر والمؤنث للمخاطب المفرد:

1. في الضّمائر المنفصلة لدينا: " إِنْتِيَ" للجنسين، نجد ذلك في عين مقرة ودم البقرات. بينما يهود بونة يستعمل "إنتِ/دون ياء) للجنسين. أمّا مسلمو بونة وباقي السّهل فيفرقون بينهما.

2. في الفعل المضارع: يستعمل الفعل "تكتب" بصيغة المذكّر للجنسين. نجد ذلك عند يهود بونة وفي دم البقرات، ودون قاعدة في عين مقرة، بينما نجد مسلمي بونة وخرازة وسكّان السّاحل يُفرّقون بينهما.

3. في الماضي: كْتَبْتِ (صيغة مؤنث) تُستعمل للجنسين أيضا، بالتّالي تكون صيغة الجمع للمخاطب (كْتَبْتُو)، أمّا صيغة (كْتَبْتِيوْ) لا تظهر إلّا عند بعض الأصليين في دم البقرات.

4. نبرة حروف الضّمائر المتصلة: kôm/ hôm كوم، هوم مثل: ديارْكوم[1]، تسجّل هذه النّبرة في عين مقرة، وهي نادرة عند مرداس، لكنّها شائعة ومستقرّة في دم البقرات. أمّا المسلمون في بونة والشّرفة وفزارة فيستعملون: كُوم، هُوم.[2]

5. تحفظ واضح في إلحاق الضّمائر المتصلة مباشرة بالأسماء، باستثناء أسماء أعضاء الجسم تُلحق غالباً بجزء من التّعبير الدّال على الملكيّة بأداة الملكيّة ʔniyâ / ʔntâ. أي (نتاع) [3]أو (نايا).[4]

6. صيغة جمع الغائبين في الأفعال الثّلاثية في المضارع: يظهر بصيغة و(الواو): مثل: يَمْشِيو (yemshu)[5]، يَشرِيو (yesru) نجد هذه الصّيغ في بونة والسّهل، لكن في مرداس يستعملون: يَمشُو، يَشْرُو.

7. صيغة (قراتل)[6] للجمع في الكلمات الرباعيّة: مثل: مْفاتِيح (جمع مفتاح)، صْنادق (جمع صندوق). وهي مستعملة في بونة والسّهل، أمّا عند مرداس فيستعملون الصّيغة البدوية: قراتيل، مفاتح، صناديق.

8. توظيف صيغة (قراتل)[7] للجمع في بعض الكلمات الثّلاثية: مثل كلمة صْبُع جمعها صْوَابعْ. وكلمة ظْفُرْ جمعها ظوافَرْ. وكلمة جْناح جمعها جْوانَحْ. صيغ من هذا النّوع تستعمل في بونة، دم البقرات مرداس، عين مقرة، لكنّها لا توجد عند شرفاء فزارة.

9. جمع أسماء الألوانّ بصيغة "قوتل"[8]: فيقولون "حومر" لجمع اللّون الأحمر، و"زورْق" لجمع اللّون الأزرق، هذه الصّيغة تستعمل في السّهل، وهي غير مسجلة عند مسلمي بونة، الذين يستعملون صيغة "قْتُلْ".[9]

1- أي: بيوتكم.

2- بمد الياء قبل الواو.

3- أصلها العربي: متاعي من المتاع، ودلالتها تفيد الملكيّة، وتم استبدال الميم بالنّون. فأصبحت: نتاعي.

4- بمعنى أنا، وهي تدلّ على الملكيّة.

5- بإضافة ياء قبل الواو.

6- مفرده قرتلة، وهي "القفة" المصنوعة من الحلفاء..

7- استعمل الكاتب هذه الصّيغة على سبيل القياس، (قراتل) على وزن مفاعل للآلة.

8- صيغة على سبيل القياس على اللّغة العربيّة كأنّه قال: فُوعُلْ، فُعْلْ.

9- فيقولون: حُمُرْ، زُرُقْ. دون المد في الحرف الأول.

10. صيغتا "بابا" للأب، و"يِمّا" للأم: يستعملهما مسلمو بونة، بينما صيغتا "بُويْ" و"بُويا" وbwoy وbiwiy فتظهران عند بعض السّكّان الأصليين في التّريعات، وأربيون (المرسى)، وعين مقرة، ويبدو أنّها الصّيغتان الوحيدتان المستعملتان عند سكّان دم البقرات، والشّرفة وفزارة، ومرداس.

11. لفظ "البارح" بمعنى أمس: نجد كلمة (elbâreh/البارح) بمعنى أمس؛ مستعملة عند سكّان السّهل وسكّان (Bugeaud/بيجو)[1]، وكذلك مسلمي بونة. وهي مستعملة بالتّوازي مع كلمتي (lâmes/لامس) و(yâmes/يامس) أو في أربيون (المرسى) ودم البقرات. أمّا سكّان التّريعات ووشاوة فلا يستعملون إلّا lâmes وyâmes، كما هو الحال في السّهل.

12. صيغة yedê **"يَدْ": مسجلة** في أربيون (المرسى) وعند مسلمي بونة، وفي **عين مقرة ودم البقرات** بينما يستعمل سكّان السّهل صيغة "إيد" بالهمزة.

ب) خصائص بدوية عامّة: يمكن أن نسجّل ما يلي:

1. الحضور المطرد لحرف الجيم القاهرية [گ]/gaf/g: مثل كلمة: "ركَبة، رقبة/ragba" وكلمة "يگتل/yegtel"، وغيرهما، وهذا النّطق بالجيم يُسمع في جميع أنحاء السّهل، إلّا أنّ النّطق بالقاف يوجد أحيانًا، وهو قليل، في **بيجو، وعين مقرة، وبونة**.

2. الحفاظ على الحروف بين-الأسنانية: تظهر في السّهل، وتتحوّل إلى انفجارية مماثلة، فقط في بونة وعند بعض السّكّان الأصليين في عين مقرة.

3. المحافظة على الحركات المزدوجة: فهو مطلق في وسط الكتلة الجبليّة، مثل "بَيْتْ" و"لَوْزْ"، إلخ[2]. ومع ذلك توجد بعض الحركات الطّويلة النّاتجة عن اختزال الثّنائيات الصّوتية في **بيجو**، وتظهر بدرجة أكبر في أربيون (المرسى). وقد سجّل وجود الثّنائيات الصّوتية في **بونة وعين مقرة**، وهي نادرة في **مرداس** بينما يستعمل سكّان السّهل في الغالب الحركات الطّويلة.

4. صيغة اسم الفاعل من الفعل (جاء): مطّردة في كلّ مكان، يقولون: "هو جاي" للمذكّر، و"هي جايّة" للمؤنث، هذه الصّيغة موجودة في بونة والسّهل.

5. وجود صيغ للتصغير نادرة بمثل **"قْلَيَّلْ"**: مثل ذلك: " قْلَيَّبْ" أي قلب صغير، مسجلة في بونة وعين مقرة، وعند الشّرفة، ومرداس، وهي غير معروفة في غرب الكتلة الجبليّة، غير مستخدمة في دم البقرات.

1- هو اسم بلدية سرايدي حاليا التّابعة لولاية عنّابة، و(Bugeaud) هو الجنرال توماس روبير بيجو (Thomas Robert Bugeaud) القائد العسكري الفرنسي (1784- 1849) الذي اشتهر بسياساته القمعية العنيفة والدموية لإخضاع المقاومة الشّعبية الجزائريّة بقيادة الأمير عبد القادر الذي وقع معه معاهدة تافنة. تولى منصب الحاكم العام للجزائر سنة 1840، ليدير حرب إبادة شاملة. كرمه الملك لويس فيليب فسمى باسمه (بيجو) قرية "عين برواقة" الواقعة على جبل إيدوغ. بمرسوم ملكي صدر في 3 جوان 1847.

Guyot. E, Colonisation. Ordonnance royale du 3 juin 1847, qui crée sous le nom de Bugeaud un village de 24 feux dans la circonscription civile de Bône sur la montagne de l'Edough, Bulletin officiel des Actes du gouvernement, Imprimerie du gouvernement, Alger, n°258, 17 juillet 1847, p.199.

2- ومثل ذلك: زَيْت، بَيْدون، قَيْطون، حيث يهمزون الحرف الثّاني.

6. وجود صيغ المثنى بصيغة -يْنْ: مثل: عامَيْنْ، يُومَيْنْ. وهي شائعة في بونة والسّهل.

7. صيغة الجمع في الفعل المضارع: مثل: يدّرسو، تدّرسو.

8. بعض صيغ الأسماء من نوع (qatalat/qatlat)[1]، عند اتّصالها بالضّمائر التي تبدأ بحركة، مثل كلمة "رُكُّبْتِي".

9. صيغة الأسماء التي تبدأ بحرف "م" مثل: مُسَّلْمين[2]، مَصّلحة[3]: المكنسة، مُكُّحْلة[4]، وهي البندقيّة.

د) خصائص تونسيّة

هناك ظاهرتان أساسيتان هما:

1. بعض ظواهر الإدغام لحرف الجيم حين يتحوّل إلى حرف الزّاي z في كلمات مثل: zezzâr/جزّار zôz/زوز بمعنى (زوج) أي: اثنان، zebes/جبس وهو (الجصّ)، وOzuz/عجوز بمعنى (امرأة كبيرة). ويبدو أن هذه الظّاهرة تشمل منطقة بونة كلها.

2 . وجود مدّ طويل في نهاية صيغة الغائب المؤنث المفرد من الماضي عندما يتصل به ضمير يبدأ بحركة مثل: شافاتو، بمعنى" رَأْتُه"، ضَرْباتو أي "ضَرَبَتْهُ". هذه الصّيغ نفسها توجد في السّهل. أمّا في بونة عند اليهود والمسلمين، فهناك ظاهرة أخرى تتمثل في التّشديد، وهي ذات طابع قسنطيني فيقولون: شافَتّو ضَرْبَتّو.[5]

هـ) خصائص غير مصنّفة

هذه خصائص يصعب تصنيفها:

1. لوحظ أن كلّ المنطقة تنطق بـ"ز" بدلاً من "الجيم" القديمة، وامتزاج "الـ" التّعريف مع الزّاي.

2. هناك إمالة قويّة لاسيّما وسط الكتلة الجبليّة ومنطقة بيجو، فينطقون الفعل قال " گال" بإمالة واضحة من الفتحة إلى الكسرة، وهي خفيفة في منطقة أربيون (المرسى) وعين مقرة، وهي متوسّطة في السّهل وبونة.

3. صِيَغٌ مثل الفعل yâkul "يَاكُلْ" للفعل "كْلَا" في المضارع: فهي منتشرة في كلّ الكتلة الجبليّة باستثناء سكّان "رغوغ" المتجهون نحو منطقة خرازة وسهل بونة. ويتبع خطّ الفصل بشكل ملحوظ قمم رأس الحرس ورأس الحديد وبيجو وبوزيزي[6]، سكّان هذه المناطق الجنوبيّة الشّرقيّة للكتلة الجبليّة ينطقون: "يُوكُل" بالواو، وتنطق أيضا في عين مقرة، عند الشّرفة ومرداس، أمّا صيغة "ياكُل" فنجدها في بونة ودم البقرات، مثل غالبيّة الجزائر.

1- الظّاهر أن هذا المثال (فعل) وليس اسما، وهو يريد أن يفرق بين لفظتي: قتلت بفتح القاف والتّاء، وبين قتلت بفتح القاف وإسكّان التّاء. وتبقى هذه الخاصّية غامضة لدينا وغير واضحة.

2- بالشّدة على السّين.

3- بالشّدة على الصّاد. وهي المكنسة.

4- بالشّدة على الكاف.

5- بالشّدة على التّاء.

6- اسم لأعلى قمة في جبل إيدوغ، ترتفع لأكثر من 1000 متر.

4. صيغة "ياگوف "للفعل" (قام/المضارع): مثل هذه الصّيغ موجودة في عين مقرة، دم البقرات خرازة، ومرداس، وكذلك عند بعض يهود بونة. وهي نادرة بين مسلمي بونة الذين يستخدمون يوگوف (بالواو) مثل الشّرفة.

5. جمع "وْگُوفْ" لاسم الفاعل "واگف": لا توجد إلّا في عين مقرة والشّرفة.

6. صيغة مذراة (بالذّال)[1] موجودة فقط عند شرفاء فزارة؛ وقد سجلنا أنّ هذه اللّفظة تنطق في دم البقرات " مترا".

7. بعض صيغ الجمع مثل "كْلَى" جمع "كَلوة" بمعنى كلّية، وهي خاصّة عند مرداس فقط، بينما تستعمل معظم المناطق صيغة " كلاوي"، ومن ذلك أيضًا كلمة "رْكَايَبْ" جمع "رُكبة"، لكن أربيون (المرسى) لديها "رْكُبْ" و"رْكَايَبْ" ومثل ذلك في بونة والسّهل، ماعدا دم البقرات أين نجد لفظة (رْكابي) ركايب (ركب) بينما أربيون (المرسى) أيضاً لديه أركاب.

8. بعض الخصائص اللّفظية مثل:

1. كلمة "شطبة" بمعنى " ضِلْع"، تستعمل في عين مقرة، دم البقرات، الشّرفة؛ لكن بونة ومرداس يقولون "ضَلْعَة".

2. كلمة "بُستك" بمعنى السّاق، تستعمل عند مرداس، ودم البقرات؛ لكن في بونة يقولون "عاگل"، وفي عين مقرة "قصبة"، وعند الشّرفة "بوگباح"؛ أمّا سكّان وادي بقرة يستعملون "عرگوب".

3. كلمة "بط" بمعنى "السّرة"، والجمع "بواط"؛ بينما السّاحل يلديهم سرّة، وفي بيجو ودم البقرات يستعملون الكلمتين. ولكن "بط" أكثر. وهي مستعملة عند مرداس أيضا. أمّا بونة وعين مقرة والشّرفة فيستعملون "سرة".

4. كلمة "ذرّة" تطلق على ذيل العصفور، أمّا كلمة "بَعْصوص" فتطلق على ذيل الحيوانات رباعيّة القوائم، في أربيون (المرسى) يستعملون "ذفر" ومثل أربيون (المرسى) وعين مقرة فيعرفون كلّ الاستعمالات الثّلاثة، المرداسيون يستعملون "ذرّة" و"بَعْصوص"، أمّا الشّرفة وناس دم البقرات فيستعملون فقط "ذفر"، وفي بونة "بَعْصوص" فقط.

5. كلمة "سِگْلُول" تطلق على العمود الفقري عند سكّان وشاوة والتّريعات، وفي بقيّة الكتلة الجبليّة وبونة وفي السّهل يقولون "سِلسول".

الخاتمة: يتّضح من هذا العرض الموجز أنّ لهجة الإيدوغ تختلف بشكل ملحوظ عن لهجة مدينة بونة ولهجة السّهل مركز. وتبدو كأنّها لهجة بدويّة تأثّرت بعمق بعناصر مستقرّة، خاصّة من منطقة القُلّ/ فيليبفيل[2]. إضافة إلى الخصائص الصّوتية والصّرفية الكبرى التي تمّ دراستها، من المحتمل أن يكشف تحقيق أكثر عمقاً في المفردات عن نتائج مثيرة للاهتمام.

1- تعني شوكة.

2- سكيكدة حاليا.

الملحق8: الدّارجة العربيّة في إيدوغ

72

Il naît le matin, devient vieux à midi et meurt le soir.

Le marché.

73

Papa Mohammed reste à la maison et c'est maman Fatma qui fait le marché.

La bouteille et la lampe.

(La lampe, *quendil*, est du gende masculin en arabe.)

74

Il est descendu du ciel et s'est posé sur la terre, et sur l'onde ;

Il est formé d'un million de mots, et, avec l'aide de Dieu tout puissant, tout le monde, même le muet et l'aveugle, pourront l'apprendre.

Le Coran.

Tlemcen, le 15 mars 1937.

Le Dialecte arabe de l'Edough

PAR

M. MANGION

PROFESSEUR A L'ÉCOLE PRIMAIRE SUPÉRIEURE DE BOUFARIK
MEMBRE DE LA SOCIÉTÉ HISTORIQUE ALGÉRIENNE

Parlé par les montagnards du massif qui s'étend du cap de Garde au cap de Fer, au nord de la plaine de Bône et du lac Fetzara, ce dialecte forme un tout assez cohérent.

Il présente des faits sédentaires nombreux, mêlés à des faits nomades, quelques-uns d'aspect tunisien, auxquels s'ajoutent des éléments qu'il est difficile de classer à l'heure actuelle.

Notre enquête a porté sur les douars Ouichaoua, Oued Sahel, Tréat, Fedj-Moussa, Râs El-Hadid ; à titre de comparaison, nous avons enquêté également, avec M. Cantineau, à Bône-ville (musulmans et israélites), à Aïn-Mokra, Demm-El-Begrat, Chorfa Fetzara, et à Combes (Merdès).

A) Faits sédentaires

On a noté, en particulier :

1° La faiblesse des emphatiques :

ṭo'ᵘl « longueur » est très près de *to'ᵘl*.

ḍhar « dos » est très près de *ḍhar*.

De même les emphatiques, instables à Aïn-Mokra, ont disparu à Bône, mais elles sont conservées dans la plaine.

2° Une tendance marquée à l'assourdissement du *ḅ* chez les gens du Saf-Saf, à la limite des Ouichaouas-Tréat.

Ils ont, pour « blanc », *abyōṭ*.

On a noté un assourdissement analogue du *ḍ* à Demm-El-Begrat : *meṭra* pour *meḍra* « fourche », courant dans tout le massif.

3° L'altération du *t*, qui est rarement pur. Il est le plus souvent *tᵛ*, parfois *tᶻ* ou *tˢ* (à Herbillon).

Ainsi « épaule » est *ktᵛef* - *ktᶻef* - *ktˢef*.

Par contre des *t* purs apparaissent à Demm-El-Begrat, Aïn-Mokra, Combes.

4° L'absence de distinction entre le masculin et le féminin pour la deuxième personne du singulier :

a) pour les pronoms isolés, on a *entᵛa* pour les deux genres, fait que l'on rencontre aussi à Aïn-Mokra et Demm-El-Begrat, alors que les juifs de Bône ont *enti* pour les deux genres, les musulmans de Bône et du reste de la plaine faisant la distinction.

b) pour l'inaccompli du verbe : *tᵛekitᵛeb* « tu écris » (forme masculine), vaut pour les deux genres ; le fait se retrouve chez les juifs de Bône et à Demm-El-Begrat ; il est attesté, sans être de règle, à Aïn-Mokra, alors que les musulmans de Bône, les Karézas et les gens de la plaine font la distinction.

c) pour l'accompli du verbe : *ktᵛebtᵛi* « tu as écrit » (forme féminine), vaut pour les deux genres. Cependant, la forme pluriel de deuxième personne est *ktᵛebtᵛu*, la forme *ktᵛebtᵛtu* n'apparaissant que chez certains indigènes du Demm-El-Begrat.

5° le timbre des pronoms suffixes : *kōm* et *hōm*, « vos maisons » *dyārkōm*. Ce timbre de voyelle est attesté à Aïn-Mokra, rare chez les Merdès de Combes ; on le

retrouve nettement établi à Demm-El-Begrat. Mais les musulmans de Bône et les Chorfas du Fetzara ont : *kom* et *hom*.

6° Une répugnance marquée à annexer directement les pronoms suffixes, sauf après les noms des parties du corps. On les annexe presque toujours à la particule d'appartenance *ntᵛa* ou *ntᵛé*.

7° Les pluriels de 2e et 3e personnes, à l'inaccompli des verbes à 3e faible, en *tu* : *yemšṭu* « ils marchent », *yešrṭu* « ils achètent ». Ces formes sont également celles de Bône et de la plaine. Mais à Combes on a des pluriels en *u* : *yemšu*, *yešru*.

8° La forme *qrâṭel* pour le pluriel des quadrilitères *mfâṭveh* « clefs », *šnâdōg* « caisses », qui est également celle de Bône et de la plaine. Chez les Merdès, par contre, la forme nomade *qrâṭil* est attestée : *mfâṭih*, *šnâdig*.

9° L'emploi de la forme *qwâṭel* comme pluriel pour certains trilitères :

šbo: « doigt », au pluriel : *šwâbōs*.

ḍfor « ongle », au pluriel : *ḍwâfer*.

žnâḥ « aile », au pluriel : *žwâneḥ*.

Des formes de ce type se rencontrent à Bône, Demm-El-Begrat, Combes, Aïn-Mokra. Mais elles ne se trouvent pas chez les Chorfas-Fetzara.

10° Les pluriels *qûᵘl* des noms de couleurs : *ḥomᵘr* « rouges », *zorᵘg* « bleus ». Employée dans la plaine, cette forme n'est pas attestée chez les musulmans de Bône, qui ont des pluriels de forme *qtōl*.

11° Les formes *bâba* pour « père » et *yémma* pour « mère », qui sont aussi celles des musulmans de Bône. Par contre *bwoy* et *bwiy* qui apparaissent chez certains

indigènes des Tréat, d'Herbillon, d'Aïn-Mokra, semblent seules usitées chez les gens de Demm-El-Begrat, les Chorfas-Fetzara et les Merdès de Combes.

12° Le mot *elbâreḥ* pour « hier ». On le trouve chez les Sahel, les gens de Bugeaud, ainsi que les musulmans de Bône. Il est usité concurremment avec *lâmes* ou *yâmes* à Herbillon et Demm-El-Begrat. Par contre, les Tréat et Ouichaouas n'emploient que *lâmes* et *yâmes* comme dans la plaine.

13° La forme *yedᵈ* pour « main », quoique *id* soit attestée à Herbillon ; *yedᵈ* est également le mot de Bône musulman, Aïn-Mokra, Demm-El-Begrat, alors que la plaine emploie *id*.

B) Faits nomades en général

Comme faits nomades, il convient de citer :

1° La présence, en majorité, des *gaf*, par exemple : *ragba* « cou », *yegtwel* « il tuera », etc. Ce *g* s'entend partout dans la plaine, mais on a quelques *q*, assez rares, à Bugeaud, à Aïn-Mokra et à Bône.

2° La conservation des interdentales, fait également constaté dans la plaine. Elles ne passent aux occlusives correspondantes qu'à Bône et chez certains indigènes d'Aïn-Mokra.

3° La conservation des diphtongues, qui est absolue pour le centre du massif : *beᵉtu* « chambre », *laᵘz* « amande », etc. Cependant on a quelques longues provenant de diphtongues réduites à Bugeaud ; on en a davantage à Herbillon. La présence de diphtongues est attestée à Bône et à Aïn-Mokra, rare à Combes, alors que la plaine a généralement des longues.

4° La forme du participe de *žd* « venir » qui est partout

žây, fém. *žâya*. Cette forme se rencontre également à Bône et dans la plaine.

5° L'existence de diminutifs, d'ailleurs rarement employés, de forme *qtêl*. Des diminutifs de ce genre, comme *gltb* « petit cœur », sont attestés aussi à Bône, Aïn-Mokra, chez les Chorfas et les Merdès. Ils sont très peu connus et rarement utilisés dans l'ouest du massif, inusités à Demm-El-Begrat.

6° L'existence de nombreux duels en *-ên*, « deux années ». *ɛâmên*, « deux jours » *yômên*, chose fréquente à Bône et dans la plaine.

7° La forme du pluriel de l'inaccompli : *yédᵒrsu*, *tédᵒrsu*.

8° La forme des noms de type *qatalat-*, *qatlat-* avec les suffixes à initiale vocalique : « mon genou » *rókobti*.

9° La forme des noms à *mim* initial, comme : *môselmin* « musulmans », *mâṣalḥa* « balai », *mókᵒḥla* « fusil ».

C) Faits tunisiens

Les deux faits essentiels sont :

1° Certains phénomènes d'assimilation du *ž* qui passe à *z* dans des mots comme : *zezzâr* « boucher », *zóᵘz* « deux », *zebᵉs* « plâtre », *zᵒzûz* « vieille femme ». Ceci semble couvrir toute la région de Bône.

2° La présence d'une longue en finale de troisième personne féminin singulier de l'accompli, suivie des pronoms suffixes à initiale vocalique. Ainsi, *šâfâtwo* « elle l'a vu », *ḍarbâtwo* « elle l'a frappé ». Des formes identiques se retrouvent dans la plaine ; par contre, Bône, israélite et musulman, a une gémination de type constantinois : *šâfétto* « elle l'a vu », *ḍarbétto* « elle l'a frappé ».

D) Faits non classés

Il paraît difficile de classer les faits suivants :

1° La prononciation *ž* de l'ancien *ǧtm* et l'assimilation du *l* de l'article à un *ž* initial, fait constaté dans toute la région.

2° Une *imâla* très accentuée surtout dans le centre du massif et à Bugeaud. Ainsi, « il a dit » *gâl*, presque *gêl*. L'*imâla* est plus faible à Herbillon et Aïn-Mokra, alors qu'elle est moyenne dans la plaine et à Bône.

3° Des formes du type *yâkul* pour l'inaccompli de *klâ* « manger ». Ces formes sont en usage dans tout le massif, sauf chez les gens du Rgoug orientés vers les Karezas, et la plaine de Bône. La ligne de démarcation suit sensiblement les crêtes Cap de Garde-Bugeaud-Bou-Zizi. Les gens de ces versants sud-est de la montagne ont *yóᵘkul*, qui se dit aussi à Aïn-Mokra, chez les Chorfas et les Merdès. Quant à *yâkul*, on le retrouve à Bône et à Demm-El-Begrat, comme dans presque toute l'Algérie.

4° Des formes du type *yâgôf*, pour l'inaccompli de *ûgôf* « se lever ». De pareilles formes ont été relevées à Aïn-Mokra, Demm-El-Begrat, chez les Karezas et les Merdès, ainsi que chez certains israélites de Bône. Elles sont rares parmi les musulmans de Bône qui ont *yûgôf* comme les Chorfas.

5° Le pluriel *ugôf* du participe *wâgôf*, qui ne se trouve qu'à Aïn-Mokra et chez les Chorfas.

6° La forme *meḍra*, avec un *ḍ*, pour « fourche », qui ne se retrouve que chez les Chorfas-Fetzara. Nous avons déjà noté que le même mot se présente à Demm-El-Begrat sous la forme *meṭra*.

7° Certains pluriels comme : *klû*, pluriel de *kelwa* « rein » qui ne se trouve que chez les Merdès : partout ailleurs on a *klâwi* ; ou comme : *rkâyᵒb*, pluriel de *rokba* « genou » ; mais Herbillon a aussi *arkâb* ; *rkâyᵒb* est en usage à Bône et dans la plaine, sauf à Demm-El-Begrat, où l'on a *rkâbẹ*.

8° Certaines particularités de vocabulaire telles que :

a) *šaṭba* pour la « côte », qui se dit à Aïn-Mokra, Demm-El-Begrat et chez les Chorfas. Mais Bône et les Merdès ont *ḍôlɛa* / *ḍôlɛa*.

b) *bušṯḳ* pour le « tibia », qu'on ne retrouve que chez les Merdès et à Demm-El-Begrat, alors qu'on a à Bône : *ɛâgel* ; à Aïn-Mokra : *gaṣba* chez les Chorfas : *bugbâḥ* ; notons que les Sahel de l'Oued-Begra emploient *ɛargób*.

c) *bâfer* pour « talon », en usage dans toute la région, sauf à Bône où on a : *gdem* et chez les Merdès où les deux sont employés.

d) *bûṯ* pour « nombril » (pl. *bwâṯ*). Mais les Sahel ont : *sörra* ; Bugeaud a les deux, *bûṯ* paraissant le plus courant. A Demm-El-Begrat les deux sont également connus ; *bûṯ* se rencontre aussi chez les Merdès ; par contre Bône, Aïn-Mokra et les Chorfas emploient *sörra*.

e) Le mot « queue » se dit : *ḍerra* pour un oiseau et *baɛṣôṣ* pour un quadrupède. A Herbillon on connaît de plus *ḍfer* pour les deux. Aïn-Mokra, comme Herbillon, a les trois. Les Merdès ont : *ḍerra* et *baɛṣôṣ*, tandis que les Chorfas et les gens de Demm-El-Begrat n'ont que : *ḍfer*. A Bône, on n'emploie que *baɛṣôṣ*.

f) Le mot pour « colonne vertébrale » est *seglûl* chez les Ouichaouas et les Tréat, alors que dans le reste du massif, à Bône et dans la plaine il est : *selsûl*.

Conclusion

Il ressort de ce très bref exposé que le dialecte de l'Edough se différencie assez fortement du dialecte de Bône-ville et de celui du centre de la plaine. Il paraît représenter un dialecte de nomades, très profondément pénétré d'influences sédentaires provenant surtout de la région de Collo-Philippeville.

En dehors des grandes lignes phonétiques et morphologiques qui ont été étudiées, il paraît probable qu'une enquête plus approfondie sur le vocabulaire puisse donner d'assez curieux résultats.

TABLE DES MATIÈRES

Liste des Sociétés ayant adhéré à la Fédération 5
Statuts de la Fédération 7
Séance d'ouverture du Congrès 9
Discours de M. Eugène VALLET, président de la Fédération 11
Rapport de M. Gabriel ESQUER, secrétaire général de la Fédération 23
Cirta. De la Capitale Numide à la Colonie Romaine, par M. Louis LESCHI, directeur des Antiquités de l'Algérie 25
Liste des communications faites au Congrès 43
Séance de clôture 55
Discours de M. Georges HARDY, représentant le Ministre de l'Education Nationale 56
Suite donnée aux vœux adoptés par le Congrès de Tlemcen (1936) 65
Vœux adoptés par le Congrès de Constantine (1937) .. 74
Désignation du siège du IV^e^ Congrès de la Fédération et Election du Bureau 82
Discours de clôture 84
Réceptions et Promenades 87
Excursion hors Congrès dans l'Aurès 90
(Avec 37 illustrations).

COMMUNICATIONS

Droit et Législation.

La répression de l'usure en Algérie, par M. GAFFIOT .. 99
Les articles 941, 1070 et 1072 du Code civil sont-ils toujours en vigueur ? par A. BRETON 117
L'adoption dans la Famille Tunisienne, par G.-H. BOUSQUET et le R. P. DEMEERSEMAN 127
La neutralisation du droit de *djebr*, par J. ROUSSIER-THEAUX 161
Le statut territorial des Territoires du Sud de l'Algérie, par le Capitaine LEHURAUX 169

ملاحظات حول أصل واستعمال كلمة (TELLĪS/تلّيس)[1]

Observations sur l'emploi du mot (TELLİS): Son origine

د. محمّد بن شنب

ترجمة ودراسة: أ.د. ميلود خلف الله

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

يندرج مقال العلّامة الدّكتور محمّد بن شنب (1869–1929)[2]، ضمن أعماله المبكّرة في الدّرس اللّغوي، ويأتي هذا العمل في سياق اهتمام ابن شنب بتتبع الألفاظ، واستقراء استعمالاتها، والبحث في أصولها اللّغوية، وهو اهتمام يظهر كذلك في أعمال أخرى له نشرت في المجلّة الأفريقيّة، من بينها بحثه حول أصل كلمة الشّاشية/Châchiyya سنة 1907.

يتضمّن هذا المقال ملاحظات حول أصل واستعمال كلمة "تلّيس"، وقد كُتب بلغة أكاديميّة واضحة ومباشرة تخلو من التّعقيد اللّفظي، وهو مقال وصف بنيوي ونقدي مقارن (فيلولوجي) ينتمي إلى مجال اللّسانيّات التّاريخيّة وتأثيل الألفاظ (Etymology).

ويعالج المقال مسألة لغويّة محدّدة تتمثل في تتبع لفظ (تلّيس) والبحث في أصله واستعمالاته مستندًا إلى ما توفّره المعاجم العربيّة والمدونات التّراثية من شواهد، وإلى آراء عدد من اللّغويين والباحثين الذين تناولوا اللّفظ أو أشاروا إليه. ومن ثمّ لا ينحصر اهتمام المقال في إثبات معنى الكلمة، وإنّما يتجه إلى مساءلة أصلها، وصيغ استعمالها، وتحوّل دلالاتها، وما يمكن أن تكشف عنه هذه المسألة من صلات بين العربيّة وغيرها من اللّغات.

ومن النّاحية المنهجيّة، يمكن وصف المقال بأنّه بحث لغوي تأثيلي ذو طابع وصفي وتحليلي ونقدي؛ إذ يقوم على جمع الشّواهد، ومقارنتها، وعرض الآراء المختلفة في أصل اللّفظ، ثمّ مناقشة ما يستند إليه كلّ رأي من حجج ومصادر. ولا يعتمد ابن شنب في ذلك على مصدر واحد، وإنّما يستحضر المعاجم والكتب التّراثية والمراجع التي تناولت اللّفظ أو ما يتصل به، وهو ما يجعل النّص غنيًا بالإحالات والاستشهادات وإن كان ذلك يمنحه كثافة علميّة قد تجعل قراءته تحتاج إلى قدر من التّمهل والمتابعة بالنّسبة إلى القارئ المعاصر.

1- نُشر المقال في المجلّة الأفريقيّة (Revue Africaine)، المجلّد 56، العدد 287، لسنة 1912م، ص566-570.

2- وهو أوّل جزائري يحصل على شهادة الدّكتوراه في الأدب من الجامعة الفرنسيّة (جامعة الجزائر 1908)، وأستاذ المدرسة الثّعالبية، والعالم الفيلولوجي المشهود له بالتّضلع في اللّغات الشّرقيّة والغربيّة. ومحمّد بن شنب من الباحثين الجزائريين، الذين جمعوا بين التّكوين العربي التّقليدي والانفتاح على اللّغات والمناهج العلميّة الحديثة، واشتغل بالتّدريس والبحث في اللّغة والأدب والتّراث. وقد عُرف بتعدد اهتماماته العلميّة وبإسهاماته في دراسة المصادر العربيّة ونشر النصوص وتحقيقها، كما احتضنت المجلّة الأفريقيّة جانبًا معتبرًا من إنتاجه العلمي.

وتتجاوز أهمّية المقال حدود المسألة التي يعالجها؛ فالبحث في أصول المفردات وتاريخ انتقالها بين اللّغات يكشف جانبًا من التّفاعل اللّغوي والحضاري بين الشّعوب، كما يسمح بتتبع قدرة اللّغة على استيعاب الألفاظ الوافدة وإعادة تشكيلها صوتيًا ودلاليًا وفق أنظمتها الخاصّة. ومن هذه الزّاوية، يكتسب مقال ابن شنب قيمة تتجاوز موضوعه الجزئي، لأنّه يقدّم نموذجًا لطريقة البحث في تاريخ المفردة ومقارنتها بالشّواهد المختلفة، ويندرج ضمن دراسة ظاهرة (المعرب والدخيل) في التّراث اللّغوي العربي. كما أنّ المقال يكتسب أهمّية إضافية من طبيعة مادته؛ فهو يجمع بين المعجم والتّاريخ والاستعمال اللّغوي ولا يقف عند حدود ما تقوله المعاجم، بل يلاحق اللّفظ في مصادر وشواهد متعدّدة.

ولا تخلو مقاربة ابن شنب من كونها مرتبطة بأفق البحث اللّغوي في بدايات القرن XXم وبالمصادر المتاحة له آنذاك؛ ومن ثمّ فإن قراءة المقال اليوم تقتضي التّمييز بين قيمة المادّة التي جمعها والقرائن التي عرضها، وبين ما يمكن أن تتيحه المناهج اللّسانية والتّأثيلية الحديثة من إمكانات إضافية في تقويم بعض الفرضيات أو إعادة مناقشتها. ولا ينتقص ذلك من قيمة المقال التّاريخيّة والعلميّة، بل يتيح وضعه في سياقه الصّحيح وقراءته بوصفه وثيقة من وثائق البحث اللّغوي في عصره.

وتأتي ترجمة هذا النّص إلى العربيّة لإتاحة الفرصة للباحثين والمختصين الاطّلاع على هذا النّوع من الإنتاج العلمي، وإعادة قراءة مثل هذه الأبحاث اللّغوية التي لا تزال مادتها قابلة للقراءة والمناقشة في ضوء الاهتمام المعاصر بتاريخ الألفاظ والتّفاعل اللّغوي. كما تسمح التّرجمة بإعادة وصل هذا النّص بمحيطه العلمي العربي، ولا سيما أن موضوعه يتصل بمصادر عربيّة قديمة وبقضيّة لغويّة تتقاطع فيها المعاجم مع التّاريخ والاستعمال.

وتتطلّب ترجمة هذا النّوع من النصوص، بما يتضمنه من مصطلحات وإحالات وشواهد وأسماء مصادر، عناية خاصّة بالحفاظ على أمانة النّص الأصلي، مع توفير ما يحتاج إليه القارئ من إيضاح. ومن مقتضيات هذه الأمانة التّمييز الواضح بين نصّ محمّد بن شنب وإحالاته وتعليقاته من جهة، وبين ما قد يضيفه المترجم من شروح أو توضيحات من جهة أخرى، بحيث يظلّ لكل صوت حدوده الواضحة داخل النّص المترجم.

وبذلك لا تقدّم هذه التّرجمة مقال ابن شنب بوصفه وثيقة لغويّة من الماضي فحسب، وإنّما تتيح أيضًا استعادة نموذج من نماذج البحث في تاريخ الألفاظ وأصولها عند أحد الباحثين الجزائريّين في مطلع القرن XXم، وفتح المجال أمام القارئ العربي لإعادة قراءة هذا النّص في ضوء أسئلة اللّغة والتّأثيل والتّفاعل اللّغوي والحضاري.

تمهيد تأثيلي حول لفظ "تلّيس":

تُعدّ الدّراسات التّأثيلية المقارنة (Etymological Studies) إحدى أهمّ الأدوات العلميّة لكشف التّفاعل اللّغوي والحضاري بين الشّعوب، ومدى قدرة العربيّة على استيعاب المفردات الدّخيلة وتطويعها. وفي هذا السّياق، يبرز لفظ (تلّيس/ TELLĪS) كأنموذج فيلولوجي ثري أثار جدلًا واسعًا بين المعجميين العرب القدامى والمستشرقين المحدثين، نظراً لتعدّد صيغه الاستعماليّة، وتنوّع دلالاته عبر التّاريخ.

وتتأسّس هذه الدّراسة على مراجعة وتدقيق نقديَّيْن لنصّ أكاديمي رصين ألّفه الدّكتور محمّد بن شنب، متناولًا بالبحث والتطوّر الدّلالي والمكانة المعجميّة لهذا اللّفظ (تلّيس).

تتركز إشكالية البحث في تتبع مسارين أساسيين:

1-الجانب التّاريخي ومحطة التّأثيل:

حيث يتناول البحث التّتبع التّاريخي للّفظ منذ العصر الجاهلي وصدر الإسلام، مرورًا بالعهد العبّاسي (ورد في مدونات البلاذري واليعقوبي والحريري)، وصولاً إلى العصر الحديث. كما يُسلط الضّوء على السّجال التّاريخي حول أصل الكلمة؛ إذ تباينت الآراء بين مرجّح للأصل اللّاتيني (trilicium) عند مستشرقين كـ "دوزي"، أو الفارسي والتّركي (teli /telice) عند "وولرز"، مقابل ترجيح أئمة اللّغة العرب كالشّهاب الخفاجي لأصلها اليوناني البيزنطي، وهو ما تحقّقه الدّراسة بالعودة للوثائق والنصوص التّاريخيّة.

2-الجانب اللّهجي والاستمرارية الشّفهية:

يُبرز البحث الأبعاد اللّهجيّة الحية للفظة؛ إذ لم تتوقّف (تلّيس) عند حدود التّدوين المعجمي التّراثي بل استمرّت نابضة في اللّهجات المغاربيّة المعاصرة (في الجزائر وتونس). وتتكشف الدّراسة عن كيفيّة احتفاظ اللّسان الشّعبي بالدّلالة الوظيفية الذّاتية للكلمة (الكيس المنسوج الخشن لنقل المحاصيل والزّاد)، ممّا يبرهن على وجود خطّ اتّصال لغوي مباشر وممتدّ بين التّراث المعجمي القديم والواقع اللّهجي الحديث.

الاستعمال المعجمي والتطوّر الدّلالي للّفظ:

أوّلا: شواهد المعاجم والمدونات العربيّة

لم يذكر المعجميون العرب هذه الكلمة إلّا بصيغة (تلّيسا). ومع ذلك، ووِفقاً لابن خالويه (كتاب ليس في كلام العرب)، القاهرة 1327هـ، ص53)، فإنّ الكلمة العربيّة الوحيدة الباقيّة من هذا الجذر هي (سَكِينَة/متغيّرة من سَكِينَة: راحة البال)، كما رواه النّحوي الفرّاء في تفسيره الآية القرآنيّة: في قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: 248]. وعلى العكس من ذلك، فإن عبد اللّطيف البغدادي في ذيل الفصيح (القاهرة 1289هـ، ص23، س 14؛ ونُشر أيضاً في الطّرائف الأدبيّة، القاهرة 1325هـ، ص122، س 6)، يستشهد -دون شرح- بكلمات تعود إلى: (قارورة)، و(تلّيسة) و(قنينة).

ويذكر الحريري في كتاب (درّة الغوّاص في أوهام الخواص القسطنطينية 1299هـ، ص621)، أنّ الكُتّاب يقولون (تلّيسا)، بدلاً من النّصّب المنوَّن القياسي (تلّيساً)، خلافاً لقواعد العربيّة؛ وهو ما يعدّ إشارة منه إلى أنّ الكلمة بالنّسبة له ليست عربيّة الأصالة. وفي معجم الحافظي (ص 146، س 16)، ورد أن (التلّيسة) عبارة عن كيس يحتوي على سِكِّين/سَكِينَة؛ ويُلاحظ استخدام الصّيغتين بشكل متزامن إلى اليوم في اللّهجتين التونسيّة والجزائريّة.

ثانيا: التطوّر الدّلالي في المعاجم وعند الرّحّالة والمستشرقين

وفقاً لمّا ورد في أمهات المعاجم العربيّة (لسان العرب، تاج العروس)، تشير الكلمة إلى:

• الخِصيتين (في الاستعمال المجازي).

• السّلال والمحافظ المصنوعة من سعف النّخيل المنسوج.

وأضاف المستشرقون - ولا سيما دوزي في تكملة المعاجم العربيّة- معانٍ أخرى:

• الكساء واللّباس الخشن: تعريشة أو كساء من القماش الخشن يُصنع منه اللّباس الذي يرتديه الفلاحون والعمّال (أبو الوليد، 805.4).

• الأكياس والمحامِل: كيس طويل مصنوع من شعر الخيل والصّوف بخطوط ملونة يُستخدم لنقل القمح والحبوب إلى الأسواق (كارترون 57؛ وينجفيلد 195؛ بوركهارت، الأمثال العربيّة، ليدن 1875، ط2 رقم 254 و367؛ دوماس، الصّحراء، ص96).

• الكيس المزدوج (الخُرج): كيس يوضع فيه الحبوب أو الفحم، يتكون من شقين متقابلين يُحمل على الدّواب (شاربونو، عند دوزي).

• المكيال والأثاث: كيس قمح ومكيال يساوي 8 وِيبَات (المقدّسي، أحسن التّقاسيم، ط2، دي غويه ليدن 1906، ص207). وسجادة خشنة بألوانّ مختلفة؛ إذ كان العربي إذا استغنى عن استخدام "التلّيس" ككيس، قام بفكه وتحويله إلى سجادة طويلة أو بساط للغطاء (غلوص إسب. عند دوزي؛ وأبو مارسيه نصوص طنجة العربيّة، ص37).

ثالثّا: النّطاق التّاريخي والو اقع اللّهجي المغاربي

•**التّوثيق التّاريخي:** ارتبطت الكلمة قديماً بلباس الحداد والنّساك (باتوتة 2، 35؛ كارتاس 178، عند دوزي)، وكانت كلمة "حدادة" مستخدمة في عهد الخليفة العبّاسي المنصور (المعجم...البلاذري؛ اليعقوبي التّاريخ، تحقيق حوتسما، ليدن 1883، ج2، ص163). كما وردت في كتاب شفاء الغليل للخفاجي والمُسند لأبي مِعال للدّلالة على أمتعة الرّحى، أو الإناء، أو سرج الجمل، ممّا يؤكّد استخدامها التّاريخي منذ صدر الإسلام وزمن النّبوة.

•**الو اقع اللّهجي:** فيما يتعلّق بالجزائر وتونس، فإن (التّلي) أو (التلّيس) لا يزال يُشير في الاستعمال اللّهجي المحلي إلى الكيس المزدوج المصنوع من الصّوف أو حشيشة الإسبارتو أو سعف النّخيل المخصّص لنقل المحاصيل (وليم مارصيه، نصوص طنجة العربيّة، باريس 1911، ص245-246).

الدّراسة الفيلولوجيّة المقارنة (تأثيل اللّفظ وتخريج العلماء)

أولا: إشكالية الأصل وشذوذ الصّيغة

تأتي الكلمة في صيغة نادرة وشاذة في البناء الصّرفي العربي وفقاً لما ذكره الحريري، ممّا يرجّح فرضيّة الاقتراض اللّغوي. وكان هذا رأي الشّهاب الخفاجي في شفاء الغليل؛ إذ جزم بأنّها كلمة يونانيّة (روميّة) استعارها العرب منذ القدم.

ثانيا: مناقشة آراء المستشرقين في الأصول الأجنبيّة

الفرضيّة اللّاتينية: يرجعها "دوزي" و"دي غويه" إلى الأصل اللّاتيني (trilicium) عبر الإسپانيّة (terliz)، وتعني النّسيج ثلاثي الطّبقات، وهو تحويل دلالي بعيد عن معنى "الحقيبة".

الفرضيّة الشّرقيّة (الفارسية/التّركية/الآرامية): يرى "وولرز" إرجاعها إلى الفارسية (teli) أو التّركية (telice) بمعنى الجراب الذي يحفظ فيه الحلاق أدواته، ويرى المطران "أدّائي شير" أصلها الفارسي (تلوسة) بمعنى الغلاف (الألفاظ الفارسية المعربة، 1908). أمّا "سيغموند فرانكل" فيفترض أصلاً آرامياً (Die Aramäischen Fremdwörter، ص197).

- **التّرجيح الأكاديمي (الأصل اليوناني البيزنطي)**

يرفض "وولرز" الأصول اللّاتينية والفارسية، ويوافق في ذلك استقراء البحث بالعودة لمعجم (هنري إتيان، طبعة 1831-1856) والمعاجم اليونانية البيزنطية في القرن IIIام (مثل هيسيشيوس وأفريكانوس) حيث ثبت استخدام الكلمات البيزنطية بالمعنى الأساسي ذاته: "كيس أو حقيبة مصنوعة من سعف النّخيل المجفف"، وفقاً لقاموس بايلي Bailly ورسالة. (Geoponica)

- **الخلاصة الفيلولوجيّة:** اللّفظ مقتبس مباشرة من اليونانية البيزنطية) (tellis إلى العربيّة، وهو ما يُثبت بالدّليل القاطع صحّة رأي الشّهاب الخفاجي وتأكيد الدّكتور محمّد بن شنب (ص 570).

تأسيسًا على ما تقدّم في هذه الدّراسة الفيلولوجيّة المقارنة حول أصل ودلالة لفظة (تلّيس/TELLĪS) يُمكن الخروج بفيصل من النّتائج العلميّة:

_الاستقرار المعجمي والدّلالي

أثبتت الشّواهد التّراثية والميدانية أنّ اللّفظة حافظت على نواة دلالية جليّة تتمركز حول (الكيس الكبير أو الوعاء المحمول المصنوع من ألياف خشنة كالخيش أو سعف النّخيل أو الشّعر)، مع اتّساع مجازي شمل أثاث البيت وألبسة العمّال والفلاحين.

_ترجيح الأصل الفيلولوجي [ص. 570]:

على الرّغم من تعدّد الفرضيات التي طرحها كبار المستشرقين في إرجاع الكلمة إلى أصول لاتينيّة (trilicium) أو فارسية (teli) أو آرامية، إلّا أنّ التّحقيق المقارن بالرّجوع إلى المعاجم اليونانية البيزنطيّة أثبت صحّة ما حدسه أئمة اللّغة العرب -وفي مقدّمتهم الشّهاب الخفاجي- من أنّ الكلمة مقتبسة مباشرة من اليونانية البيزنطية التي كانت تُطلق على الأكياس والمحامل المصنوعة من سعف النّخيل المجفف.

حيوية اللّفظ واستمراريته اللّهجة [ص. 566، ص. 568]:

تُبرز هذه الدّراسة مدى التّفاعل الحضاري واللّغوي؛ إذ لم يقف اللّفظ عند حدود التّدوين المعجمي القديم، بل واصل استخدامه الحيّ في اللّهجات المغاربيّة المعاصرة (في الجزائر وتونس) بالمعنى الوظيفي ذاته، ما يعكس طاقة اللّغة العربيّة على استيعاب الدّخيل وتطويعه في النّسيج الاستعمالي اليومي.

أولاً: الحواشي التّوثيقيّة والنّقدية

حول التحوّل الصّوتي بين (التّاء والطّاء): يُلاحظ في الصّوتيات التّاريخيّة المقارنة (Historical Phonetics) أنّ صوت الثّاء اليوناني Theta (-theta) يُعرّب غالباً إلى تاء أو طاء في الألفاظ المبكّرة والدخيلة؛ نظراً لأنّ الفكر الصّوتي المترجم كان يميل إلى الاعتماد على الأصوات الانفجارية (Plosives) بدلاً من الاحتكاكية (Fricatives) عند نقل المصطلحات غير السّامية، وهو ما نراه بوضوح في تعريب كلمة المجلس/الكرسي إلى (تَرْن) أو (طَرْن).

حول ظاهرة عدم التّنوين القياسي في (تلّيسا): تنبيه الحريري في درّة الغوّاص (ص621) إلى كتابة "تلّيسا" بالألف دون تنوين النّصّب يعدّ دليلاً لسانياً مبكّراً على "الحس اللّغوي الفطري" لدى القدامى اتّجاه المفردات الأجنبيّة. فالمنع هنا ليس منعاً من الصّرف بالمعنى النّحوي التّقليدي (كالعلتين أو العلة الواحدة)، بل هو معاملة للفظ كاسم علم أجنبي أو لفظ معرّب لم يستوفِ شروط التّمكن في العربيّة (عدم الأمكنية).

حول التّفريق بين المعنى اللّاتيني واليوناني: إن ترجيح دوزي للمصدر اللّاتيني (Trilicium) يعكس نزعة مدرسة الفيلولوجيا الاستشراقيّة في القرن XIXم نحو ربط مصطلحات الفلاحة والنّسيج المغاربيّة بالأصل الرّوماني/اللّاتيني، نظراً للتاريخ الرّوماني في شمال أفريقيا. غير أنّ التّحليل الوظيفي يثبت خطأ هذه النّزعة هنا؛ إذ إن Trilicium مصطلح تقني يرتبط بـ "عدد خيوط السّداة/نسيج ثلاثي الخيوط) بينما "تلّيس" ترتبط بالدّالة الوظيفية للوعاء والوعاء فقط.

حول اسم المرجع الاستشراقي (Textes arabes de Tanger): مرجع المستشرق الفرنسي وليام مارصيه (William Marçais) الصّادر في باريس عام 1911م، يعدّ من أمهات المدونات اللّسانية التي وثّقت دارجة الشّمال المغربي (طنجة وما حولها). وقد أفرد فيه مساحة واسعة لمعجم الأداة والمتاع الفلاحي مؤكّداً أن "التلّيس" ليس كلمة متروكة، بل أداة حيّة داخل المنظومة الاقتصاديّة القرويّة.

تعقيبات ختامية:

1- فيلولوجيا اللّفظ بين "سكون المعجم" و"حيوية اللّهجة": تقدّم حالة لفظ (تلّيس) نموذجاً ناصعاً لمّا يُعرف في اللّسانيّات بـ "الحفريات اللّسانية الحية (Living Linguistic Fossils)، فبينما يعتقد القارئ للمعاجم العربيّة القديمة أنّ اللّفظ قد دخل مرحلة الموات أو الغرابة (خصوصاً مع تصنيف الحريري وابن خالويه له في قائمة الأوهام والغريب)، نجد أنّ اللّهجات المغاربيّة (الجزائريّة، التونسيّة المغربيّة) حافظت عليه بكامل قدرته الدّلالية ووظيفته الاجتماعيّة. هذا التّعارض يبرهن على أنّ اللّهجات الشعبيّة لم تكن دائماً تحريفاً للعربيّة، بل كانت في كثير من الأحيان مستودعاً أَمِيناً لِحِفظ الألفاظ المعرّبة القديمة التي أهمّلها التّرادف في اللّغة المعيارية.

2- البُعد الأنثروبولوجي لاستخدام "التلّيس" في البيئة المغاربيّة: لا يتوقّف استخدام "التلّيس" في المخيال القروي المغاربي عند حدود "النّقل والتّخزين"، بل يمتدّ ليشكِّل جزءاً من سيكولوجيّة التّقشف والحاجة لدى المجتمع الفلاحي. إن تحويل "التلّيس" بعد تحوّله من كيس لنقل المحاصيل على ظهر الدّواب

إلى "بساط للنّوم" أو "غطاء للوقاية من البرد (كما أشار دوزي وابن شنب)، يعكس استراتيجيّة أفريقيّة/مغاربية قديمة في إعطاء الأداة الواحدة "دورات حياة متعدّدة /Multi-lifecycle of objects) وهو ما يفسر سبب بقاء اللّفظ متصلاً بالأثاث واللّباس والوعاء في وقت واحد.

3- منهجيّة ابن شنب في الانتصار للترجيح العربي (الخفاجي مقابل دوزي): يظهر في هذا البحث النّضج المنهجي للعلامة محمّد بن شنب؛ فعلى الرّغم من تتلمذه وتأثّره بالاستشراق الفرنسي ومناهجه النّقدية، إلّا أنّه لم ينسق وراء فرضيّة "دوزي" و"دي غويه" اللّذين يوفّران ثقلاً استشراقياً كبيراً)، بل اعتمد منهج "التّأثيل المقارن المباشر" بالعودة إلى النّصوص البيزنطية القديمة معجم هنري إتيان و(Geoponica) ليُثبت صحّة حدس الإمام الشّهاب الخفاجي صاحب شفاء الغليل. هذا المسلك يُرسّخ أهمّية عدم التّعامل مع الطّروحات الاستشراقيّة كمسلّمات، وضرورة إعادة تقييم التّراث المعجمي العربي بمنظار فيلولوجي حديث.

التّرجمة:

لا يورد المعجميون العرب هذه اللّفظة إلّا على صيغة المؤنث (تلّيس). غير أنّه، وفقاً لمّا ذكره ابن خالويه[1]، فإن اللّفظة العربيّة الوحيدة المنضبطة على وزن فِعّيلَة هي سِكّينَة (وهي تنويع لـ سَكِينَة، بمعنى الطّمأنينة والسّكينة) التي رواها النّحوي الفرّاء في معرض تفسيره الآية القرآنية: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 248][2]. وفي مقابل ذلك، يستشهد عبد اللّطيف البغدادي في كتابه ذيل الفصيح لثعلب [3] - دون تقديم أي تفسير لغوي - بألفاظ ينقل أنّها تنتمي أيضاً إلى وزن فِعّيلَة، وهي: فِنّينَة (بمعنى قارورة من زجاج)[4] وتلّيسة (مع تنويع مسجل بصيغة المذكّر: تلّيس).

أما الحريري في كتابه درّة الغوّاص[5]، فينقل عن أمالي ثعلب أنّ الكُتّاب ينطقونها (تلّيسة) [بفتح التّاء] بدلاً من (تلّيسة) [بكسرها]، وهو ما يعدّ مخالطّة لقياس وقواعد اللّغة العربيّة؛ ولعلّ ذلك كان منه تلميحاً لطيفاً إلى أنّ اللّفظة غير عربيّة الأصالة عنده. وبحسب شارحه الخفاجي[6]، فإنّ (التلّيسة) في

1- ابن خالويه: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (ت 370هـ)، نحوي ولغوي يمني الأصل سكن حلب، وكتابه المشار إليه هو كتاب ليس في كلام العرب الذي يورد فيه الألفاظ والتّراكيب التي لا نظير لها في كلام العرب. (المترجم)

2- رواية الفراء: أشار الفراء (ت 207هـ) في كتابه معاني القرآن إلى أن وزن «فِعّيلة» بكسر الفاء وتضعيف العين المكسورة ليس من أوزان أصل كلام العرب السّليقي، وإنما جاء على النّذور والنّدرة. (المترجم).

3- كتاب ذيل الفصيح: هو تكملة واستدراك وضعه الموفق عبد اللّطيف البغدادي (ت 629هـ) على كتاب الفصيح لأبي العباس ثعلب (ت 291هـ)، ويعنى بضبط ألفاظ اللّسان العربي واستبعاد المولد. (المترجم).

4- الفِنّينَة: بكسر الفاء والنّون المشدّدة، زجاجة الخمر أو القارورة صغيرة الرّأس، وتُعد من الألفاظ التي اختلف اللّغويون في عربيتها ووزنها. (المترجم).

5- درّة الغوّاص في أوهام الخواص: تصنيف للإمام أبي محمّد القاسم الحريري (ت 516هـ) خصه لبيان أغلاط الكتاب والأدباء، وما جرى على ألسنتهم بخلاف القياس العربي. (المترجم).

6- الخفاجي وشرحه: هو شهاب الدّين أحمد الخفاجي (ت 1069هـ)، صاحب كتاب نسيم الرّياض وكتاب شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل، وهو الشّارح لدرة الغوّاص للحريري. (المترجم).

الاستعمال هي كيسٌ يُجعل فيه. الكُتّابُ دَفَاتِرَهم، ويُضيفُ موضّحاً أنّ العامّة تُطلِقُ على هذه الكلمة معنى (غِرَارَة/أي الكيس الكبيرة)[1]. وفيما يتعلّق بالمدلولات الدّلالية الموثقة للكلمة في التّراث المعجمي:

تُستخدم - بحسب ما جاء في لسان العرب وتاج العروس - للإشارة إلى الخصيتين، كما تطلق على نوعٍ من الأكياس أو السّلال المصنوعة من خوص النّخيل المجدول؛ وبالتّبعية: الكيس أو الصّرة التي يحفظ فيها المحاسبون دفاترهم ونقودهم.

وإلى هذه المعاني المعجميّة، يُضيف أبحاث المستشرقين - لاسيّما استناداً إلى دوزي[2] - معاني تداولية أخرى، منها: نسيج مضلّع أو نوع من الخيش الغليظ الذي تُصنع منه الأكياس ويَرْتَدِيه الفلاحون والعمّال أو كيس طويل مصنوع من شعر الخيل والصّوف بخطوط صفراء وسوداء؛ أو كيس أسود (أو بخطوط بيضاء وسوداء) مصنوع من شعر المعز يستخدمه الفلاحون لنقل القمح إلى السّوق؛ أو كيس من الصّوف وأشرطة الخوص.

كما تدلّ الكلمة على كيس مزدوج (خُرج) يُوضَع فيه الحبّ وأحياناً الفحم، وتعدل سِعَتُه كيسين حيث يتكون (التلّيس) ههنا من قطعة مستطيلة من القماش يُخاط طرفاها القصيران على منتصف القطعة فيُحصل بذلك على غلافين (جيبين) لكل منهما طرف مغلق[3].

ويمتدّ المعنى ليشمل الدّلالة على مكيال معين للقمح (يعادل 8 ويبيات وفق المقادسي)؛ بل وتطلق على البساط الغليظ المتعدّد الألوان، إذ عندما لا يعود العربي بحاجة لاستعمال (التلّيس) ككيس، فأنّه يَفُكّ خياطته ويُصوّره بساطاً طويلاً (وهو المسمّى بالقبطية Sulir ويستخدم أيضاً كجلّ للدّواب أو للحاف).

وتتّسع استخدامات الكلمة تاريخياً لتشمل الدّلالة على ثوب الحِداد الذي كان النّسّاك يرتدونه أحياناً. كما تثبت المصادر التّاريخيّة أن كلمة (تلّيسة) بمعناها هذا كانت مستعملةً بالفعل في العصر العبّاسي الأوّل زمن الخليفة المنصّور. أمّا فيما يخصّ الاستعمال المحلي في الجزائر، وخلافاً لرأي بعض المؤلّفين فإن (التلّيس) هو تحديداً كيس مزدوج (خُرج)، سواء كان مصنوعاً من الصّوف، أو الفصّة، أو خوص النّخيل[4]. ويتبيّن ممّا تقدّم كاملاً أن كلمة (تلّيس) كانت ولا تزال دلالتها الجوهرية الرّئيسية هي: الكيس. ولكن إلى أي عصر يعود تاريخها الاستعمالي؟ وفقاً لمعجم البلاذري (ت 279 هـ)، فإن (التلّيسة) كانت شائعة زمن الخليفة العبّاسي المنصور، بل يذكر الخفاجي في شفاء الغليل - نقلاً عن أمالي أبي المعالي - أن كلمة (تلّيس)

1- الغِرَارَة: كيس ضخم من خيش أو صوف يُجعل فيه الحب والنّوى والتّبن، وتجمع على غَرَائر، وهو مصطلح شائع في المشرق والمغرب الإسلامي. (المترجم).

2- دوزي (Reinhart Dozy): مستشرق هولندي شهير (1820–1883م)، صاحب كتاب تكملة المعاجم العربيّة (Supplément aux dictionnaires arabes)، وهو مرجع رئيسي في تتبع الدّخيل والمولد والألفاظ العامة. (المترجم).

3- تحوّل التلّيس إلى بساط: يُشير الكاتب هنا إلى ثقافة إعادة التّدوير لدى البدو والرّعاة في الشّمال الأفريقي، حيث يُشق الجراب أو الكيس الصّوفي بعد تلف حوافه ليصبح بساطاً يُفرش. (المترجم).

4- الفصّة أو النّخيل: المُراد بالفصة هنا نبات الرّطبة أو النّباتات الشّريطية الجافة التي تُجدل للقطع، وخوص النّخيل هو سعفه اليابس المنسوج زبائل وأكياساً. (المترجم).

استُعملت في خبر (حديث) للإشارة إلى (ما يكون في الرّحْل)، ممّا يرجّح شيوعها في أوقات مبكّرة تعود للعصر النّبوي.

وهنا يطرح الإشكال الفيلولوجي الأساسي حول أصلها: هل هي كلمة عربيّة أصيلة أم أجنبيّة دخيلة؟ إن مجيء الكلمة على وزن (فِعّيلَة) النّادر جداً في العربيّة، واضطراب اللّغويين في ضبط نطقها (بين كسر التّاء وفتحها)، يشير بوضوح إلى إنّنا أمام مفردة أجنبيّة (معربة). وهو الاتّجاه نفسه الذي جزم به الخفاجي حين صرّح بأنّها كلمة يونانية (رومية) استعارها العرب قديماً، وإن كان لم يعرض لنا الأسباب التي بنى عليها رأيه.

غير أنّ الغريب في الأمر هو أن كبار علماء المستعربين المحقّقين، بدلاً من التّوسع في الفرضيّة اليونانية، ذهبوا إلى اللّجوء لافتراضات أصلية أخرى؛ حيث ذهب (دوزي) و(دي غويه) إلى أنّ كلمة tillīsa تشتق (مباشرة أو عبر الإسپانية terliz) من اللّاتينية trilicium (أي نسيج من ثلاثة خيوط)، وهو افتراض يبتعد تماماً عن معنى (الكيس) الثّابت للفظة! أمّا (فولرز) فيرجعها إلى الفارسي (تِلَى/teli) بمعنى حقيبة أدوات الخياط أو الحلاق (وهو المعنى المتقارب مع (تلّيسه) التّركية والكردية)، بينما يقترح المطران أدي شير كلمة فارسية أخرى هي (تِلْوِسَة) بمعنى غلاف[1]. وقد رفض (فولرز) لاحقاً الأصول اللّاتينية والآرامية (المقترحة من فرينكل)، مفضلا ربطها باليونانية-القبطية بمعنى (بساط غليظ)، غير أنّه عجز عن تفسير كيفيّة تحوّل المعنى من (بساط) إلى (كيس). وأمام عدم كفاية هذه التّفسيرات المتضاربة، وجدنا من الأجدى العودة إلى الخيط التّأثيلي الذي وضعنا عليه الإمام الخفاجي. وبالرّجوع إلى معجم Thesaurus لـ (أنري إتيان)، تكشّفت لنا الشّواهد النّقدية الحاسمة؛ حيث وردت مادّة لدى اللّغوي الإغريقي هيسيخيوس[2] بمعناها الدّقيق: أي كيس طولي/جراب مستطيل (Marsupium oblongum).

كما وردت صيغة بصريح العبارة بمعنى (Saccus). وبناءً عليه، يتبين أن مؤلّفين بيزنطيين من القرن IIIام الميلادي (مثل هيسيخيوس وأفريكانوس) قد سجلوا الكلمات بمعناها الرّئيسي القاطع وهو (الكيس) وهو المطابق تماماً للدّلالة العربيّة. ومن ثَمَّ، فإن الأصل البيزنطي لكلمة (تلّيس) يصبح حقيقة علميّة لا تقبل الشّك. وحتى مع فرضيّة أن تكون المفردة البيزنطية ذاتها استعارة قديمة من لغة سامية أسبق (نظراً لأصول هيسيخيوس السّكندرية وأفريكانوس السّورية)، أو ارتباطها بلفظة اليونانية التي استخدمت لاحقاً بمعنى (خوص النّخيل المجفف) الذي تصنع منه الأكياس؛ فإن النّتيجة الفيلولوجيّة المحقّقة هي أنّ العربيّة أخذت كلمة (تلّيس) استعارة مباشرة من اليونانية-البيزنطية، وبذلك يتبرهن صحّة وسداد ما ذهب إليه الإمام الخفاجي في تحقيقه التّراثي.

محمّد بن شنب

أستاذ بالمدرسة الثّعالبية بالجزائر

1- المطران أدي شير (1867-1915م): رئيس أساقفة سعرد للكلدان، لغوي وباحث نشر كتاباً حافلاً بعنوان الألفاظ الفارسية المعربة (بيروت 1908م). (المترجم).

2- هيسيخيوس (Hesychius of Alexandria): لغوي إغريقي سكندري عاش في القرن الخامس الميلادي، وضع معجماً ضخماً يعدّ العمدة في الألفاظ اليونانية النّادرة والدخيلة والبيزنطية. (المترجم)..

الملحق9: أصل واستعمال كلمة (تلّيس) لـ: محمّد بن شنب

Observations sur l'emploi du mot TELLIS
Son origine

Les lexicographes arabes ne mentionnent ce mot que sous la forme *tillisa*. Or, d'après Ibn Ḫalawaih *(kitāb laisa*, Caire 1327, p. 53, fin), le seul mot arabe en بِعِيلة serait سِكِّينة variante de سَكِينة (quiétude d'esprit) rapportée par le grammairien Al Farrā' à propos des paroles du Coran (II, 249) فيه سكينة من ربكم. (1) Au contraire, 'Abdallaṭīf al-Baġdādī dans son *ail Ḏal-Faṣīḥ* de Ṯa'lab (Caire 1289 p. 23 l. 14 et publié également dans *Aṭ Ṭoraf al adabiya*, Caire 1325, p. 122 l. 6) cite, sans donner d'explication, comme mots appartenant à بِعِيلة : فَنِينة bouteille de verre et تِلِّيسة (avec la variante تِلِّيس).

Ḥarīrī dans sa *Dorra* (Constantinople 1299, p. 62 l. 6) rapporte d'après les *Amālī* (dictées) de Ṯa'lab que les *Kottāb* disent *tallisa* au lieu de *tillisa*, contrairement aux règles de la langue arabe ; ce qui est, peut-être, une façon de laisser entendre que, pour lui le mot n'est pas arabe.

D'après son commentateur Al-Ḫafāǧī (Constantinople 1299, p. 146, l. 16) la *tillisa* serait un sac dans lequel les

(1) سِكِّينة pour سِكِّين couteau est rapportée par les lexicographes (cf. *Lis.*) : les deux formes sont employées concurremment aujourd'hui en Tunisie.

Kottāb serrent leurs registres ; il ajoute que le peuple donne à ce mot le sens de غِرارة, grand sac.

En ce qui concerne le sens du mot qui nous occupe, il servirait à désigner d'après le *Lisān* et le *Tāǧ* : 1° les testicules ; 2° une sorte de sac ou panier fait avec des feuilles de palmier tressées ; par suite le sac ou la bourse des comptables.

A ces significations, les Orientalistes ajoutent, surtout d'après Dozy, *Suppl. aux Dict.*, les suivantes : 3° treillis ou espèce de grosse toile dont on fait des sacs et dont s'habillent les paysans, les manœuvres, etc., Abū l Walīd 805.4 ; 4° long sac fait de crin [animal] et de laine à rayures jaunes et noires, Carteron 57, Cf. Wingfield I, 195 ; sac noir, ou à raies blanches et noires fait de poil de chèvre dont les paysans se servent pour porter leur blé au marché, Burckhardt (*Arabic Proverbs*, London 1875, 2e éd., nos 254 et 367) ; sac en laine et en lanières de palmier, Daumas *(Sahara*, 96,136) ; sac tissé en feuilles de palmier (id. 198) ; 5° double sac dans lequel on met le grain et quelquefois le charbon ; contenance deux sacs ; le tellis se compose d'un carré long dont les deux petits côtés sont cousus sur le milieu de la pièce ; on obtient ainsi deux fourreaux qui ont chacun une extrémité fermée ; l'étoffe est en laine rayée, Cherbonneau, apud Dozy ; 6° *Sac de blé*, certaine mesure de blé (Burkhardt I, 1. apud Dozy) — ajout. Al Moqaddasī, Descript. imper. Mosl. 2e éd. de Gœje, Leide 1906, p. 207, l. 12 : mesure valant 8 *waiba* — ; 7° tapis grossier à diverses couleurs (sic) ; lorsque l'Arabe n'a plus à se servir de *tellis*, comme sac, il le découd et en forme un tapis long, Cherbonneau, apud Dozy. Cette espèce de tapis en copte ϯⲗⲗⲓⲥ, sert aussi de caparaçon ou de courte-pointe, Gloss Esp. 349.350, apud Dozy : — ajout. *Al-Bostān* texte ar., apud Marçais. *Textes Ar. de*

Tanger p. 246 — ; 8° Habit de deuil (*Baṭūta* II, 35) et dont les ermites s'habillaient quelquefois, Cartas 178,7 a f. apud Dozy. تليسة, *sac*, était déjà en usage du temps du calife abbasside Al Manṣūr. Gloss. Belâḍori ; Al Ya'qūbī, *Historiae*, éd. Housma, Leide 1883, II. 163, l. 12.

En ce qui concerne l'Algérie et contrairement à l'avis de certains auteurs, le tellis est un *sac double*, qu'il soit en laine, en alfa ou en feuilles de palmier. Cf. Marçais. (*Textes ar. de Tanger*, Paris 1911, p. 245 — 6.)

De tout ce qui précède il ressort que le mot *tellis* a toujours eu et a encore comme acception principale celle de : sac. Mais à quelle époque remonte-t-il ? Selon le glossaire de Belâḍori (mort en 279 de l'hégire), la *tillisa* était en usage au temps du calife abbasside Al-Manṣūr. Bien plus, d'après Ḫafāǧī dans son *Šifā' al ġalīl* le mot *tillis* serait, selon les *Amālī* d'Abū l Ma'ālī, employé dans un ḥadīṯ (خبر) pour désigner : Ce qui se trouve dans le *raḥl* (demeure, ustensile, selle de chameau ما يكون في الرحل). Il paraîtrait donc avoir été en usage au plus tôt, vers l'époque où vivait le Prophète.

Ici se pose la question de son origine : est-il arabe ? est-il étranger et dans ce cas à quelle langue a-t-il été emprunté ? Nous venons de voir qu'il est d'une forme بِعِيلة très rare en arabe ; que même, on n'était pas d'accord sur sa prononciation, puisque, selon Ḥarīrī, quelques-uns disaient *talīsa*. Tout ceci semble bien indiquer que nous nous trouvons en présence d'un vocable étranger. Tel était bien l'avis de Ḫafāǧī qui, dans l'ouvrage que nous avons cité plus haut, déclare qu'il le tient pour un mot *grec* (رومية) emprunté anciennement par les Arabes. Il est fâcheux que notre auteur ne nous expose pas les raisons sur lesquelles il fonde son opinion. En tous cas, il nous paraît singulier que bien loin d'orienter

leurs recherches dans le sens qu'il nous indique, les Arabisants les plus compétents aient cru devoir faire appel à d'autres langues que le grec. C'est ainsi que, d'après Dozy et de Gœje, le mot *tillīsa* dériverait, soit directement, soit par l'intermédiaire de l'espagnol *terliz* du latin *triliciun* ou *trilix*, tissu de trois fils ; nous voilà loin du sens de sac, que tous les auteurs reconnaissent à notre mot ! Pour Wullers, au contraire, il faut remonter au persan تِلِى (Bianchi et Kieffer, *Dict. turc-fr.* تلى, teli) trousse dans laquelle le tailleur ou le barbier met ses outils ; et d'après le même Bianchi et Kieffer, le turc connaîtrait un تليسه *telicè* qui serait d'origine persane. Il paraît aussi que le Kurde possèderait تِلِيس avec le même sens qu'en turc.

C'est également un mot persan : تلوسة *enveloppe* que Mgr Addai Scher propose *(Kit. al Alfāḍ al-fārisiya al mo'arraba*, Beyrouth 1908 ; quant à Wollers (Z. D. M. G., 1897, p. 312, note 1), il rejette l'étymologie latine de Dozy et de Gœje, ainsi que l'étymologie persane ou araméenne de Frænkel (Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leide 1886 p. 197-8) et propose celle du mot gréco-copte ϯⲗⲗⲓⲥ, tapis grossier ; mais il resterait à expliquer les raisons du passage du sens de *tapis* à celui de *sac*.

Peu satisfaits de toutes ces explications, nous avons cru bon de revenir à la piste indiquée par Ḫafāǧī. A cet effet, nous avons consulté le *Thesaurus* d'Henri Estienne, édition Firmin Didot 1831-1856, dans lequel nous avons trouvé les deux intéressants articles que nous transcrivons ici intégralement :

1° θαλλίς, ίδος (π) Hesychio *μάρσιππος μακρός* Marsupium oblungum, apud quem legitur et θάλλεκα, σάκους εἶδος θαλλὶς

σπυρίς. Africanus Cest. p. 300 ; 2° θυλλίς, ίδος (ή). Saccus. Hesych. θυλίδες (θυλλίδες recte Musurus) οἱ (αἱ codex) θύλακοι, γωρυτός, ἔλυτρον-θυλλίς, ὁ θύλακος, inter nomina in λλις exuntia est apud Arcadium p. 30,12.

Ainsi donc des auteurs byzantins du IIIe siècle, comme Hesychius et Africanus ont déjà employé ou signalé θαλλίς, θαλλίξ, θυλλίς avec, outre des sens accessoires, (gaîne, carquois), le sens principal de sac, qui est précisément celui que lui donnent les auteurs arabes. Dès lors l'origine byzantine de تلّيس n'est plus douteuse. Il est vrai que θαλλίς étant inconnu de la langue grecque classique, on peut toujours supposer qu'il est un emprunt fait par le grec byzantin à quelque idiome sémitique ancien, surtout si l'on tient compte de ce fait que Hesychius est alexandrin, Africanus, en dépit de ce nom, syrien. Hypothèse vraisemblable, car rattacher θαλλίς au grec classique θαλλός, rameau, paraît un peu osé, bien que ce dernier mot semble avoir été employé par certains auteurs de la basse grécité dans le sens de feuilles de palmiers ; d'où peut-être sac fait de ces feuilles séchées οἱ θαλλοι feuilles de palmiers, (Geoponicorum libri X, 6, d'après le dictionnaire grec-français de Bailly). Quoiqu'il en soit, nous pensons bien avoir démontré que le mot tellis est un emprunt fait directement par l'arabe au greco-byzantin, de sorte que l'opinion de Ḥafâǧi se trouve pleinement justifiée.

M. Bencheneb.
Professeur à la Médersa d'Alger.

نظامٌ صوتيٌّ وإملائيٌّ لنقلِ الحروفِ العربيّة[1]:

مقتبس من الطّبعة الثّانية لـ (المختارات العربيّة ص5-17)

SYSTÈME PHONIQUE ET ORTHOGRAPHIQUE POUR LA TRANSCRIPTION DE L'ARABE.

(Extrait de la 2ème édition de la Chrestomathie arabe de M. BRESNIER, p. 5 à 17.)

(L. J. BRESNIER/ل. ج. بريسنيه)

ترجمة ودراسة: أ.د. سعاد بسناسي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

صاحب المقال (Louis-Jacques Bresnier/لويس جاك بريسنير)، وُلد في 11 أبريل 1814 في (Montargis/مونتارجيس) بإقليم (Loiret/اللّوار) في فرنسا، وتُوفي في 21 يونيو 1869 في الجزائر العاصمة إثر سكتة دماغيّة وهو يدخل المكتبة ليُلقي درسه. ينحدر من وسط شعبيّ متواضع (كان والده إسكافيًّا) وعمل في شبابه عاملاً في الطّباعة الشّرقيّة بمطبعة الدّولة الفرنسيّة، ممّا أتاح له الاحتكاك المبكّر بالخطوط واللّغات الشّرقيّة. درَس العربيّة والتّركية والفارسيّة والهندوستانيّة عصاميًّا ثمّ في مدرسة اللّغات الشّرقيّة الحيّة، وكلّية فرنسا على يد (سيلفستر دي ساسي) و(كاترمير) و(جوبرت) و(غارسان دي تاسي) وغيرهم.

اختاره (دي ساسي) عام 1836 ليؤسّس أوّل كرسيّ عموميّ رسميّ لتعليم اللّغة العربيّة في الجزائر فافتتح دروسه في يناير 1837، وظلّ يشغله أكثر من ثلاثة عقود. درّس العربيّة الفصحى والعامّية، وشكّل أجيالاً من المترجمين المدنيّين والعسكريّين، وأسهم في تنظيم سلك المترجمين العسكريّين عام 1842. من أبرز مؤلّفاته: (الدّورة العمليّة والنّظريّة في اللّغة العربيّة) عام 1855، و(المختارات العربيّة)، و(الأجروميّة)[2] (تحقيق وترجمة)، و(الأنطولوجيا العربيّة الابتدائيّة)، و(المبادئ الأساسيّة للّغة العربيّة). حصل على وسام جوقة الشّرف برتبة فارس، وعلى سعفات ضابط الأكاديميّة. ويُعدُّ من روّاد الاستشراق التّطبيقيّ الفرنسيّ في الجزائر، ومن أبرز من أسّسوا لتعليم العربيّة الرّسميّ في الأوساط الأوروبيّة هناك.

يتناول المقال مشكلة عمليّة وعلميّة بالِغَةَ الأهمّية في سياق الاستشراق الفرنسيّ في الجزائر خلال منتصف القرن XIXم وهي: كيفيّة نقل الكلمات العربيّة (أسماء الأعلام والأماكن والمقاطع النّصّيّة) إلى

1- نُشر المقال في المجلّة الأفريقيّة (Revue Africaine)، المجلّد 1، العدد 1، لسنة 1856م، ص522-530.

والنّصّ الأصليّ منقول عن كتاب "المختارات العربيّة" في طبعته الثّانية، ويقع النّصّ بين الصّفحات 5-17. وكتاب المختارات العربيّة هو كتاب تعليميّ متخصّص في اللّغة العربيّة، نُشر ضمن (ملاحظات متنوّعة) في المجلّة الأفريقيّة.

2- الآجروميّة (Al-Ājurrūmīya): متن نحويّ شهير في النّحو العربيّ التّقليديّ، ألّفه أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن داود الصّنهاجي المعروف بابن آجروم (ت. 723هـ/1323م). اعتمد عليه بريسنير في تعليمه لطلّاب الفرنسيّة ليُيسّر عليهم فهم منطق النّحاة العرب.

الحروف اللّاتينية بطريقة بسيطة وعقلانيّة وموحّدة، تُسهّل القراءة على عامّة النّاس دون أن تُشوّه النّطق أو تُبهم الأصول الاشتقاقيّة على المختصّين.

تبرزُ أهمّية هذا النّص في أنّه يُوثّق لحظة تأسيسيّة في تاريخ علم اللّغة التّطبيقيّ، والاستشراق الإداريّ في شمال أفريقيا. ففي ظلّ الحاجة الإداريّة والعسكريّة والتّعليميّة إلى توحيد كتابة الأسماء العربيّة في الوثائق الرّسميّة والمنشورات العلميّة، سعى بريسنير - بصفته عضوًا في اللّجنة المكلّفة عام 1844 من قبل وزير الحربيّة - إلى وضع نظام صوتيّ وإملائيّ عمليّ يعتمدُ على مبدأ المماثلة والتّقارب الصّوتيّ مع الفرنسيّة، مع الاحتفاظ بإشارات خفيفة للمستشرقين.

ويمكن تحديد الإشكاليّة الأساسيّة للمقال على النّحو الآتي: كيف يمكن وضع نظام نقل حرفيّ (Transcription) للّغة العربيّة بالحروف اللّاتينية يكون في الوقت نفسه بسيطاً وواضحاً لعامّة القرّاء الفرنسيّين، وقريباً من النّطق الجزائريّ الفعليّ، ومحافظاً على قدر كافٍ من الدّلالة الإملائيّة والاشتقاقيّة للمستشرقين، دون أن يدّعي استبدال الكتابة العربيّة الأصليّة أو فرض نظام اصطناعيّ معقّد؟

يطرحُ (بريسنير) هذه الإشكاليّة في إطار نقديّ للتّقاليد الأوروبيّة السّابقة في النّقل الحرفيّ. فهو يرفضُ الأنظمة المعقّدة التي ابتكرها (فولني) والألمان والهولنديون (مثل فايرز)، لأنّها تثقل الحروف بعلامات إضافيّة أو تستخدم محارف خاصّة غير متوفّرة في المطابع العادية، وتجعلُ القراءة مستحيلة على غير المختصّين. كما ينتقدُ الإفراط الفرنسيّ في استعمال حرف H. ويقترحُ بدلاً من ذلك نظامًا عمليًّا يقوم على مبدأين: تمثيل الحروف العربيّة بمقابلاتها أو مماثلاتها الفرنسيّة، وإضافة علامة جبريّة صغيرة (′) للمستشرقين فقط لتمييز المخارج القويّة والمفخّمة والحلقيّة. ويعطي الأوّلويّة للنّطق على الإملاء الصّارم عند التّعارض، مع مراعاة العادات المحلّية الجزائريّة (مثل الخلط بين بعض الحروف). هذا التوجّه يعكسُ وعيًا مبكّرا بأهمّية (الممارسة) و(التّبسيط) في اللّسانيّات التّطبيقيّة الاستعماريّة.

من نقاط القوّة في هذا النّص وضوح المنهج، والصّراحة في نقد الأنظمة السّابقة، والحرص على الجانب العمليّ (إمكانيّة التّطبيق الفوريّ في المطابع النّائية دون محارف خاصّة)، والاعتراف بأنّ أيّ نظام نقل لا يمكن أن يكون مطلقًا أو بديلاً عن النّصوص الأصليّة. كما أنّه يقدّم جدولاً واضحًا للتّمثيل الحرفيّ مع ملاحظات تفسيريّة مفيدة. أمّا نقاط الضّعف فتكمنُ في تبسيط بعض المخارج العربيّة (مثل جمع الضّاد والظّاء تحت رمز واحد)، وفي الانحياز الواضح إلى النّطق الجزائريّ المحلّيّ على حساب الفصحى المعياريّة أحياناً، وفي السّياق الاستعماريّ الذي جعل النّظام في خدمة الإدارة الفرنسيّة أكثر من خدمة البحث اللّغويّ المحض. ومع ذلك يبقى النّص وثيقة تاريخيّة ولغويّة ثمينة لفهم تطوّر أنظمة النّقل الحرفيّ في القرن XIXم.

ودواعي ترجمة هذا النّص إلى العربيّة اليوم تكمن في حاجة الباحثين والمهتمّين بتاريخ تعليم العربيّة وتاريخ الاستشراق واللّسانيّات التّطبيقيّة إلى الاطّلاع على النّصوص التّأسيسيّة بلغتها الأصليّة المترجمة بدقّة، وفي إبراز البعد المنهجيّ الذي اتّبعه المستشرقون الفرنسيّون في التّعامل مع العربيّة المغاربيّة.

التّرجمة:

ليس ثمّة غاية أكثر أهمّية وأجدى بالسّعي إليها سبيلًا إلى تعميم المعرفة العلميّة وتلبية للمقتضيات العمليّة، من أن يحلّ محلّ الأنظمة الرّاهنة الغريبة؛ منهج يسير وعقلانيّ قابل للتّطبيق في تمثيل الحروف العربيّة ورسمها بيانيًّا. إنَّ تحقيق هذه الأمنية مرهون بتوفّر شروط الدّقّة والاطّراد في تقدير الأصوات وما يقابلها من رموز كتابيّة تمثّلها في كلتا اللّغتين، كما يقوم هذا التّحقيق على التّجرّد التّامّ من كلّ نزعة تعصّب للذّات أو للمذاهب المدرسيّة، زيادة على الإحاطة الرّاسخة الدّقيقة بأصول النّطق والرّسم لدى العرب.

وعليه؛ فإنّنا سنعمد هنا إلى تقديم عرض موجز للنّتائج العمليّة التي أسفرت عنها أهمّ الأنظمة الأوروبيّة، ثمّ نطرح في كلّ تواضع لنظر الجمهور ورأيه الحصيف منهجا بالغ التّسهيل لتمثيل النّطق والرّسم الكتابيّ للّغة العربيّة، بما يتناسب مع النّاطقين بالفرنسيّة. وإنَّنا لنعتقد أنّ الأوروبيّين قد حادوا كثيرا عن الجادّة في فهم المقصد الحقيقيّ الذي يجب أن يرمي إليه أيّ نظام لنقل الحروف العربيّة حرفيًّا[1]، فبدلًا من الاقتصار على السّعي إلى هدف متواضع بيد أنّه نافع للغاية، وهو عرض الكلمات العربيّة المستعملة في النّطاقين العلميّ والعمليّ لعامّة النّاس بأقلّ قدر ممكن من التّفاوت وبأعلى درجات التّوضيح؛ نجدهم قد راموا إحلال الحروف الأوروبيّة محلَّ الحروف العربيّة كلّية، رغبة في إعفاء مستعربي المستقبل، بل وتجنيب المسلمين أنفسهم مشقّة تعلّم أبجديتهم.

وفي هذا الإطار نشر (Volney/فولني)[2]، من بين آخرين، مؤلّفه (تسهل اللّغات الشّرقيّة)، ويتقرّر منهجه في النّقل بإضافة رموز جديدة وغريبة إلى حروفنا الهجائيّة، لتمثّل مخارج صوتيّة موجودة لدينا جمعاء تقريبا. أمَّا المصوّتات (الحركات)؛ فقد جعلها رموزا صغيرة جدًّا توضع في الأعلى عن يمين الصّوامت (الحروف)، على نحو ما نفعله في الفاصلة العلويّة عندنا، ومن ثمّ فإنّ القارئ الفرنسيّ الذي يجهل العربيّة لا يقدر على فهم شيء من هذا النّسق الكتابيّ، كما لا يتيسَّر على العارف باللّغة استعماله بيسر.

نظام (فولني) مهمّا بدا غريبًا لا يعدّ شيئا مذكورًا عند مقارنته بتلك التّركيبات التي صاغها المستشرقون الأوروبيّون ولا سيما الألمان والهولنديّون منهم، والتي تتّسم بالتّفصيل المفرط أكثر من عقلانيّتها. ومن بين هؤلاء الأخيرين نشر السّيّد (فايرز/Veijers) في هذا الشّأن كرّاسة طبعت في ليدن عام 1840 عنوانها: (محاولة جديدة للتّعبير المتميّز عن جميع الحروف العربيّة وسائر علامات الكتابة بواسطة المحارف الأوروبيّة العاديّة).

1- النّقل الحرفيّ/النّقحرة (Transcription): هو تمثيل أصوات لغة ما بحروف أبجديّة لغة أخرى، ويختلف عن التّرجمة الصّوتيّة (Transliteration) التي تحافظ على الحروف الأصليّة قدر الإمكان. في السّياق الاستشراقيّ الفرنسيّ في الجزائر، كان الهدف توحيد كتابة الأسماء العربيّة في الوثائق الإداريّة.

2- (Constantin François de Chassebœuf, comte de Volney/كونستانتين فرانسوا دي شاسبوف، كونت فولني) (1757-1820): مستشرق ومفكّر فرنسيّ، نشر عام 1795 (السّنة الثّالثة للجمهوريّة) كتابه: (Simplification des langues orientales/تبسيط اللّغات الشّرقيّة) الذي اقترح فيه نظامًا جديدًا لكتابة اللّغات الشّرقيّة بالحروف اللّاتينيّة.

وفي هذا المصنَّف الصّغير يعيب "فايرز" بفطنة وموضوعيّة إسراف الأوروبيّين في استعمال الحروف المزدوجة أو حتّى الثّلاثيّة لتمثيل النّطوق (الأصوات) العربيّة (وكان بإمكانه أن يضيف: "وحتّى النّطوق الأوروبيّة نفسها")؛ وبغية تجنّب هذا المحذور خلص إلى ضرورة أن نقرن بمحارفنا الرّومانيّة عددًا جمًّا من النّقط والشّرط السّفليّة أو العلويّة الدّقيقة التي لا تكاد تبين، لكي تمثّل فيما يرى جميع خصائص النّطق والرّسم الإملائيّ المقرَّر. ولئن كان هذا الأسلوب والحقّ يقال لا يزيد من عدد المحارف الإجماليّ؛ إلّا أنّه - وهو الأسوأ بكثير- يخلع على كلّ محرف منها تعدّدا في القيم الصّوتية يوقع المستشرق في حيرة بالغة ويبدو لعامّة النّاس غير قابل للفهم؛ وذلك بسبب كلّ تلك العلامات الإضافيّة (الملحقة) التي أثقلت بها الحروف الأوروبيّة.

وبهذا النّظام توصَّل "فايرز" إلى تمثيل الحروف العربيّة الثّمانية والعشرين بأكثر من ستّين محرفًا أوروبيًّا يلتبس عدد كبير منها بعضه ببعض بسهولة، وتشتمل أبجديته التّمثيليّة هذه على اثني عشر شكلا لحرف (A)، وثلاثة لحرف (C)، واثنين لحرف (G)، وتسعة لحرف (I)، وثلاثة لحرف (O)، وأربعة لحرف (T) وسبعة لحرف (U)، إلى غير ذلك (أي أربعون حرفا لسبعة محارف فقط!)، ويجري الباقي على هذه النّسبة. كما تضيفُ الحروف المائلة (italiques) المختلطة بالحروف القائمة (romaines) إلى كلّ ذلك اضطرابًا آخر بتشكيلها لأبجديّة مزدوجة.

ومن المفهوم جليًّا أنّه في ظلّ مثل هذا المنهج في النّقل الحرفيّ (Transcription)، لا يمكن للمرء أن يقرأ إلّا إذا تمثّل في ذهنه الكلمات مكتوبة بحروفها الأصليّة، وهو أمر يبعد كلّ البعد عن أن يكون سهلًا حتى على أكثر النّاس دربة بالعربيّة ومعرّفة بها، ويكون بالتّالي مستحيلًا على من عداهم.

وكنّا نودّ كثيرًا أن نعرض هنا عيّنة وجيزة من هذا النّظام "البالغ وضاحة"؛ غير أنّ ثمّة مانعين يحولأنّ دون ذلك: أوّلهما أنّ عهدنا به لا يتعدّى سنوات قليلة، وهو زمن غير كاف لإتقان تطبيقه؛ وثانيهما إنّنا سنكون مضطرّين إلى صبّ محارف خاصّة بتكاليف باهظة، ممّا سيؤدّي إلى إرجاء نشر كتابنا هذا إلى أجل غير مسمّى. إنّ مبتدعي جميع أنظمة النّقل الحرفيّ هذه لم يقيموا وزنًا كافيًا لمّا يترتَّب عليها من صعوبات عمليّة ومادّية، جرَّاء لجوئهم إلى محارف مخصوصة لا يتيسّر الحصول عليها في كلّ آن وفي كلّ مكان.

إنَّ أقلّ مناهج النّقل الحرفيّ (Transcription) الأوروبيّة جفاء للعقل هو ذلك المسلك الشّائع عمومًا في فرنسا، والذي يقوم على إقحام حرف (H) حيثما يفترض أنّ النّطق عند العرب لا يشابه نطقنا. فلم يعدّ لحرف (H) في عصرنا هذا غير قيمة رسميّة (إملائيّة)؛ وهو في الحقيقة لا أثر له في نطقنا الفرنسيّ، فالذين لا يلفظونه لدينا قد وسموه بـ (Aspiration/الهائيّة)، بينما يعبّر عنه من ينطقونه بـ(Expiration/الزّفير) وليس لإسراف استعماله في نقل العربيّة حرفيًّا من محذور سوى عرقلة القراءة بلا طائل، ودفع من يقع نظره عليه إلى تكلّف مجهودات نطقيّة باطّلة ومستهجنة في آن معا.

وبابتكار هذه الأنظمة طمعا في دقّة صارمة وشموليّة تطبيق يستحيل بلوغهما، لم يلتفت مصنّفوها الذين لم يعتادوا المهمّات العمليّة إلى أنّ نطق الحروف الرّومانيّة شأنه شأن الحروف العربيّة، خاضع لمؤثّرات محلّية جمّة، وأنّه لا يوجد نظام واحد يمكن تطبيقه بأقصى درجات الصّرامة في كلّ الصّعيد العالميّ.

ولم يتفكّر هؤلاء في أنّ تركيباتهم هذه تضطرّ الأوروبيّين أكثر من ذي قبل إلى الرّجوع إلى النّصوص الأصليّة بدلًا من أن تكون بديلًا عنها، وأنّ الصّعوبة الحقيقيّة لا تكمن في ابتكار نظام ما، بل في حمل النّاس على قبوله واعتماده. لقد ظنّوا على سبيل المثال أسوة بـ(فولني) وغيره من المذهبيّين (الإيديولوجيّين) أنّ الشّعوب المسلمة إرضاء للأوروبيّين، ستتخلّى عن كتابتها الوطنيّة التي جعلتهم العادة يفضّلونها على كتابتنا، والتي تمتلك في نظرهم أصلًا سماويًّا وأزليًّا؛ وأنّهم سيهرعون بناء على ذلك إلى نسخ كافّة كتب عقيدتهم وآدابهم بمحارف (Caractères) غريبة عنهم نزولًا عند هوى كلّ من هبَّ ودبَّ من (Roumis/الرّوميّين).

وأخيرًا فقد أمل هؤلاء الكتاب أن يتحمّل الأوروبيّون لأغراضهم الخاصّة الضّيّقة، مشقّات هذا النّقل (Transposition) العقيم وتكاليفه، في حين أنّ الأكثر تماشيا مع العقل، والأنفع للجميع آنذاك، هو نشر النّصوص في صورتها الأصليّة.

ولقد أشرنا سابقًا وبالتّفصيل في مؤلّفاتنا إلى المحاذير بالغة الخطورة لهذا النّمط الذي يمكن وصفه، بوجه من الوجوه، بـ(Sténographique/الاختزاليّ) في الكتابة العربيّة؛ بل إنّنا ذهبنا إلى أنّ نظامًا كهذا يجعل القراءة مستحيلة على عامّة النّاس (الجماهير)، ويقف عقبة في سبيل تمدّن الشّعوب، بحجبه لانتشار الأفكار وتقدّمها. وبناءً على ذلك لن يتّهمنا أحد بالتّعصّب الأعمى لهذا النّوع من الكتابة، الذي لا نرى له من مزيّة في أعيننا سوى جماليّته الخطّيّة (Calligraphique) التي لا جدال فيها.

وعلى ضوء هذه الاعتبارات وبناء على العادة الرّاسخة لدى الشّعوب العربيّة، نجد لأنفسنا مسوّغا كافيًا للقول بأنّ جميع الأنظمة الأوروبيّة لا يمكنها في عصرنا هذا أن تحدّث أو تمهّد لأيّ تعديل في كتابة المسلمين. وهذه الأنظمة بلا منفعة حقيقيّة للمستشرقين الخلّص، لا تعدو كونها ستارًا مؤقّتًا يحجبُ عن بعض الطّلبة فتوري الهمّة الصّعوبة الأوّليّة للكتابة العربيّة، ومن ثمّ فهي لا تكاد تكون سوى وسيلة تعليميّة (Didactique) خطيرة، تشوّه التصوّرات بالنّأي عن الممارسة العمليّة (التّطبيق). فمن أراد تعلّم العربيّة ليحيط بها علمًا، فعليه أن يدرسها كما كانت دائمًا، وبالتّالي كما لا تزال عليه الآن، وأنّ يتجنّب كلّ هذه الوسائل الاصطناعيّة (Factices) التي يكاد يستحيل محو آثارها السّيّئة لاحقًا.

وإذا كان قد ثبت بالدّليل أنّ النّقل الحرفيّ (Transcription) للمحارف العربيّة بحروفنا لا يمكن أن يكون بديلًا نافعًا وعقلانيًّا عن النصوص؛ وإذا كان هذا النّقل (ونحن نؤكّد ذلك جازمين) ينطوي على خطورة في مجال الدّراسة، فإنّ استعماله الذي لا مناصَّ عنه في بعض الحالات العلميّة والعمليّة، يظلّ محصورًا في إيراد أسماء الأعلام (الأشخاص) والأماكن، أو مقاطع من النّصوص التي لا يتيسّر، أو لا يرى من الملائم كتابتها أو طباعتها بالحروف العربيّة الأصليّة.

وهذه الأسماء أو المقاطع المنقولة حرفيًّا، توجّه عمومًا ليقرأها عامّة النّاس لا أهل الاختصاص ولهذا السّبب فهي تقتضي أسلوب تمثيل سهل يمكن أن يقرأه الجميع دون عناء، ويحاكي النّطق (Prononciation) تقريبًا بالقدر الذي يسمح به قياس (Analogie) كلّ لغة. كما ينبغي لهذه الرّموز أن تحفظ عند الاقتضاء دلالة طفيفة على أصل الكلمة (التّأثيل/Étymologie) ورسمها الإملائيّ (Orthographe، تكون كافية للمستشرق الذي يفترض فيه دائما الإلمام بقواعد النّحو. وبناءً على ذلك فإنّ الغاية الحقيقيّة والعمليّة لأيّ نظام نقل حرفيّ (Transcription) تتمثّل في المواءمة بأقصى قدر ممكن بين ظواهر النّطق (Prononciation) وخصائص الرّسم الإملائيّ العربيّ.

نظام اللّجنة العلميّة:

في عام 1844 كلّفت لجنة في باريس من قبل السّيّد وزير الحربيّة، بوضع منهج موحّد لإعادة تمثيل الكلمات العربيّة بالمحارف الفرنسيّة، لصالح الجزائر واللّجنة العلميّة[1]، وقد ضمّت هذه اللّجنة في عضويّتها كلًّا من: السّيّد (Carette/كاريت)، وهو قبطان (نقيب) في سلاح الهندسة وعضو باللّجنة العلميّة؛ والسّيّد (Eugène de Nully/أوجين دي نولي)، سكرتير ومترجم الوزارة ومؤلّف هذا الكتاب الذي كان متواجدا حينئذ في فرنسا بصفة مؤقّتة، حيث كلّف هذا الأخير بإعداد المادّة العلميّة وصياغة التّقرير الخاصّ بها.

واستنادًا إلى الحقائق والمبادئ المذكورة سلفًا، والتي تكرّست لديه عبر الخبرة المزدوجة للجانبين النّظريّ والتّطبيقيّ، تعرض اللّجنة في تقريرها الآراء والملاحظات الآتية:

-إنّ الغاية المنشودة هي تسهيل وتقنين الرّسوم الإملائيّة (Orthographes) المتنوّعة التي أدّت بسبب تعقيدها وافتقارها إلى الثّبات، إلى تشويه النّطق لدى عامّة النّاس، وجعلت تقدير أصل الاشتقاق/التّأثيل (Étymologie) ممتنعًا على العلماء والباحثين.

-وإذ تتيقّن اللّجنة من عقم كلّ جهد يروم التّحديد الصّارم لنطق لغة ما بواسطة الحروف لمن لا يمارسها، ومن مضارّ جميع التّركيبات المتكلّفة والدقيقة التي وضعت لبلوغ دقّة وهمّية؛ فقد سعت إلى تمثيل الكلمات العربيّة بالأسلوب الأكثر وضوحًا ووضوحًا للجميع، وفي الوقت ذاته الأكثر قربًا ومحاكاةً لنطق أهل الجزائر.

وقد انطلقت اللّجنة في ذلك من مبدأ مفاده أنَّ جلَّ الحروف العربيّة تجد لها في أبجديّتنا تمثيلًا متطابقًا أو مماثلًا:

وأسّست بناءً على ذلك ما يأتي:

-تمثّل المحارف العربيّة التي تمتلك لدينا مقابلا دقيقا (Équivalent exact) بهذا المقابل نفسه.

1- اللّجنة العلميّة لاستكشاف الجزائر (Commission scientifique de l'Algérie): شكّلت عام 1839 بأمر من الحكومة الفرنسيّة لاستكشاف الجزائر في مختلف المجالات العلميّة. أمّا اللّجنة المذكورة هنا (1844) فكلّفت تحديدًا بوضع نظام موحّد لنقل الكلمات العربيّة إلى الفرنسيّة لصالح الإدارة الاستعماريّة واللّجنة العلميّة.

-تنقل الحروف التي لا نملك لها سوى مماثلات (Analogues) بواسطة هذه المماثلات نفسها مقرونة (لصالح المستشرقين فحسب) بعلامة صغيرة أو نبرة (Accent) لتمييز النّطوق (المخارج) القويّة، أو المفخّمة (Emphatiques)، أو الحلقيّة (Gutturales)، عن مماثلاتها البسيطة التي نمثّلها مباشرة.

-أمّا حرف [العين]، وهو الحرف الوحيد الذي لا مقابل له ولا مماثل في لغتنا، فيرمز له بالفاصلة العلويّة (Apostrophe)، مصحوبة بالمصوّتات/الحركات (Voyelles) التي يقتضيها النّطق والرّسم الإملائيّ.

- كما تغفل اللّجنة علامة [الهمزة]، فضلا عن العديد من الخصائص التّقنيّة والإملائيّة الصّرفة التي لا يدركها عامّة النّاس ويقف عليها المستشرقون الحقيقيّون بكلّ يسر.

-إنَّ العلامة المميّزة للنّطوق الأجنبيّة المماثلة (غير المتطابقة) لأحد أصوات أبجديّتنا هي الرّمز الجبريّ الموضوع على يمين الحرف الفرنسيّ، ولا ريب أنَّ هذا الرّمز المميّز للأصوات العربيّة ليس له من غاية سوى تنبيه العارفين بالعربيّة والنّاطقين بها إلى طريقة نطق الكلمات وتأثيلها؛ وبوسع عامّة النّاس إغفاله لعدم قدرتهم على مراعاته، كما يكتفى باستعماله عند أوّل نقل حرفيّ للكلمة في الوثيقة الفرنسيّة، بل ويمكن عند الحاجة إعادة إيراده بين الفينة والأخرى.

وبتطبيق استخدام هذا الرّمز لا سيما في مجال الطّباعة، حيث يسهل توفيره في جميع المطابع دون أن يعقّد العمل الطّباعيّ (التّايبوغرافيّ) بأيّ حال، أرادت اللّجنة تجنّب التّكلفة الباهظة والدائمة لصبّ محارف خاصّة عمدا، وبشكل أساس لتمكين التّطبيق الفوريّ لنظامها هذا في المناطق النّائية الأكثر افتقارًا للوسائل المادّيّة اللّازمة للتّنفيذ.

ولكلّ الأسباب المتقدّمة فإنّ اللّجنة - سعيًا منها للمواءمة قدر المستطاع بين النّطق العربيّ ورسمه الإملائيّ، ومع إعطاء الأوّلويّة للنّطق في حال الاستحالة المطلقة - تعتمد للنّقل الحرفيّ:

الحرف	النّقل اللّاتينيّ	الحرف	النّقل اللّاتينيّ	الحرف	النّقل اللّاتينيّ
ا	a, ou, i	ز	z	ف	F
ب	b	س	s, c, ç	ق	k′, g
ت	t	ش	ch	ك	K
ث	ts	ص	s′, c′, ç′	ل	L
ج	dj	ض	d′	م	M
ح	h′	ط	t′	ن	N
خ	kh	ظ	d′	هـ	H
د	d	ع	ʻ	و	Ou
ذ	th	غ	r′ (gras)	ي	i, y
ر	r (roulé)			ى	A

ملاحظات توضيحيّة:

لقد كانت اللّجنة تودُّ لو أنّها استبعدت تمامًا استعمال حرفين فرنسيّين لتمثيل محرف عربيّ واحد غير أنّها اضطرّت إلى قبول أربعة استثناءات لهذا المبدأ؛ نظرًا للدّقّة الصّارمة في المحاكاة الفرنسيّة لحروف: [ج] بـ (dj)، و[ش] بـ (ch) بالنّطق الفرنسيّ، و[و] بـ (ou)، وبسبب استحالة العثور على مماثل (Analogue)

متميّز وكاف لحرف [خ]. وبما أنّ هذا الحرف الأخير كان يرسم لدينا حتّى الآن بالرّمز (kh)، فإنّ اللّجنة - التي لا يسعها منحه حرف (k) ولا (k') الموضوعين سلفًا لحروف أخرى - فقد أبقت له، نزولًا عند غياب البديل الأفضل، على رسمه القديم. وهذا التّعقيد المأسوف عليه يجد تفسيره - إن لم نقل تسويغه - في الاستعمال الشّائع لدينا نحن لحرفين أو أكثر لتمثيل نطق (Articulation) واحد أو صوت مفرد؛ وشاهدنا على ذلك مجموعات الحروف في لغتنا مثل: (ch, sc, th, ent, aient, oient)، إلى غير ذلك.

وعادة ما يخلط في الاستعمال بين حرفيّ [التّاء] و[الثّاء]، فينطقان (t) و(ts)؛ كما أنّ لحرفيّ [الدّال] و[الذّال] عمومًا قيمة حرف (d) لدينا؛ وينطق حرفا [الضّاد] و[الظّاء] بطريقة واحدة يمكن تمثيلها تقريبًا بالرّمز (d). وكثيرًا ما يكتب أهل المغرب العربيّ هذين الحرفين الأخيرين أحدهما مكان الآخر، وإن كان ذلك على وجه الخطأ. وإذ ترى اللّجنة أنّ هذا الخلط الذي يقلّ أو يكثر نصيبه من المساغ العقليّ، شائع في معظم الأقاليم، فلم تعتقد بوجوب أن تكون أكثر صرامة من السّكّان المحلّيين أنفسهم؛ واستفادة من وسيلة التّبسيط التي أتاحتها الممارسة العمليّة، جمعت هذه الصّوامت تحت محرف تمثيليّ واحد.

أمّا بالنّسبة إلى الأصوات أو المصوّتات (Voyelles) الممثّلة في العربيّة بثلاث علامات (حركات) حصرًا مع وجود لا نهاية من الفروق الدّقيقة (Nuances) الخاضعة لتأثير النّطوق (المخارج) التي تصاحبها هذه العلامات، فلم يكن بمقدور اللّجنة أن تقتصر - كما يفعلون في أوروبّا - على الاستعمال النّسقيّ الصّارم للحروف الثّلاثة (o, a, i)، إذ إنّ ذلك من شأنه أن يشوّه نطق الكلمات في كثير من الأحيان.

وتأسيسًا على هذا وخصوصًا بالنّظر إلى المقتضيات الصّوتية (Phoniques) التي قد تعجز حركاتنا وتركيباتها عن إعادة إنتاجها تمامًا في بعض الأحيان، فإنّ اللّجنة ستختار المصوّتات الفرنسيّة الأقرب إلى الاستعمال الفعليّ. وحينما يجب أن يلفظ حرف [الياء] مثل المقطع (Syllabe) الأخير لكلمتنا (mantille) فإنّ اللّجنة - نظرًا لعدم قدرتها على اعتماد التّركيب (ill) الذي سيوقع القارئ الفرنسيّ في اللّبس - ستمثّل هذا الصّوت بالرّمز (iy)؛ فتنقل حرفيًا على سبيل المثال، كلمة [هاشميّة] إلى (h'âchemiya).

كما تقرّ اللّجنة القواعد الإملائيّة (Orthographiques) الآتية:

-أداة التّعريف/ الـ [el] إذا سبقت كلمة تبدأ بحرف يسمّى "شمسيًّا"[1]، تخضع دائمًا في النّقل الحرفيّ الفرنسيّ لتأثير هذا الحرف (أي تدغم فيه صوتيًّا)، وهكذا، يكتب: (Abd er-rah'mân') عبد الرّحمن، و(Yâc'er ed-dîn) ياسر الدّين)، إلى غير ذلك؛

-الأسماء العربيّة المنتهية بتاء التّأنيث التي يسبقها دائما صوت الفتحة [A] - ويلفظ مفردا حينما لا تكون الكلمة في حالة وصل بما بعدها - تكتب دائمًا في الفرنسيّة بحرف [A] فقط، وترفض اللّجنة رفضًا قاطعًا الاستعمال المفرط لحرف [H] النّهائيّ، الذي أسرف فيه الأوروبيّون لكونه عديم الفائدة في النّطق

1- الحروف الشّمسيّة (Lettres solaires): في العربيّة، هي الحروف التي تُدغم معها لام التّعريف صوتيًّا: (ت، ث، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ل، ن). أمّا الحروف القمريّة فتبقى لام التّعريف ظاهرة فيها.

ومخالفًا للرّسم الإملائيّ المقرَّر. وبناءً عليه يكتب: بسكرة (Biskra)، ومليانة (Miliana)، وعائشة (Aïcha') وخليفة (khalifa)، إلى غير ذلك، دون حرف (h)، لا (Biskarah) ولا (Milianah)؛

وإذا ما اقتضت قواعد "الوصل الصّوتيّ الملائم (Liaison euphonique) نطق [التّاء المربوطة/ة] - التي هي في حقيقتها تاء صريحة [T] - فعندئذ تمثّل بمقابلها الطّبيعيّ [T]؛ حيث يكتب مثلًا: (Medinat en-nebi)، أو بالصّيغة الدّارجة الأكثر شيوعًا: (Medint en-nebi)؛

إنَّ صوتيّ الميم [M] والنّون [N] وبخاصّة في أواخر الكلمات، لا يحملان في العربيّة قطّ ذلك الصّوت الأنفيّ (Nasal) الخفّيّ (المخفت) الذي ننسبه إليهما في لغتنا؛ ولذلك فهما يلفظان دائمًا كما لو كانا متبوعين بحرف (e) صامت (مستتر)، الذي لا نتكلّف عناءً كتابته رسمًا.

وعليه فإنّ الأسماء العربيّة المنقولة حرفيًّا إلى الفرنسيّة لا تقبل علامة الجمع [S] في آخرها، فهذا الحرف الإملائيّ لا يلفظ في لغتنا، غير إنّنا نشعر تقريبًا بالالتّزام بتلفّظه عند قراءة الكلمات الأجنبيّة، ممّا يشوّه بنيتها اللّفظيّة تشويهًا محسوسًا، ومن المقرَّر في قواعد الفرنسيّة على كلّ حال إلّا توضع علامة [S] في جمع الكلمات الأجنبيّة إلّا إذا كانت قد أخضعت كلّية لقواعد الفرنسة.

إليك فيما يأتي بعض الأمثلة على تطبيق نظام النّقل الحرفيّ (Transcription) هذا:

النّقل العلميّ الدّقيق:

أسماء الأعلام والأماكن: ((el-h'amdou lillâhi lladi khalak'a-nâ ⟵ الحمد لله الذي خلقنا ((Aïcha' ⟵ عائشة؛ ((bent ⟵ بنت؛ ((S'âlah' ⟵ صالح. ويمكن بكلّ سهولة في الاستعمال المألوف المتداول، الكتابة على النّحو الآتي: (el hamdou lillâhi lladi khalaka-nâ, Aïcha, Sâlah)، إلى غير ذلك.

هذه هي الأسس التي يقوم عليها نظام النّقل الحرفيّ الخاصّ باللّجنة العلميّة للجزائر، الذي نعرضه هنا للبحث والدّراسة دون أيّ ادّعاء بفرضه على أحد.

ويجب علينا أن نذكر، في الختام بأنّه لا يوجد نظام نقل حرفيّ يمكن أن يكون دقيقًا بشكل عالميّ أو مطلق، فإذا كان النّظام عقلانيًّا مبنيًّا على قواعد موضوعيّة، فأنّه يحدّد بأقرب صورة ممكنة النّطق العامّ لبلد ما لدى الجميع، كما يستحضر الرّسم الإملائيّ (Orthographe) لمن يعرفه.

ولا يمكن لهذا النّقل أبدًا أن يحلّ محلّ النّصوص الأصليّة ؛ إذ يجب قصر استعماله على الاقتباسات القصيرة ومقتضيات الممارسة العمليّة الدّقيقة. أمّا الخصائص الدّقيقة والتّقنية للرّسم الإملائيّ وقواعد النّحو (Grammaire)، فيمكن التّغاضي عنها دون أي ضرر؛ إذ أنّ المستشرقين يعرفونها حقّ المعرفة، وسيكون من التّقعّر المقيت والتّصنّع المنفّر (Pédantesque) إثقال كاهل الجمهور بها.

(ل. ج. بريسنيه)

تنبيه هيئة التّحرير:

إنّ الدّراسة التي فرغتم من قراءتها لتوكّم وتلك التي تليها، هما مقتطفان من كتاب (المنتخبات العربيّة/Chrestomathie arabe)[1] الطّبعة الثّانية للسّيد "بريسنيه"، وهو مؤلّف قيّم سيصدر خلال أيّام قلائل عن مكتبة باستيد (Bastide). ونحن نوصي قرّاءنا بصفة خاصّة باعتماد نظام النّقل الحرفيّ الذي اقترحه السّيّد "بريسنيه"، والذي أثبتت جدواه عمليًّا عبر التّطبيق النّاجح الذي حظي به في منشورات اللّجنة العلميّة.

وفي هذا الصّدد نعلنُ لكتّابنا المراسلين والمساهمين معنا أنّ "الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة" قد قرّرت في جلستها المنعقدة في شهر جويلية (يوليو) الماضي، أنّ منهجًا موحّدًا لنقل الكلمات العربيّة حرفيًّا إلى الفرنسيّة سيعتمد مستقبلا في صفحات (المجلّة الأفريقيّة/Revue africaine)[2] وفي سائر منشوراتها الأخرى، ومن شأن هذا القرار الحاسم أن يجنّب الكتّاب التّعصّب لأنظمتهم الخاصّة، إذ تضطلع الجمعيّة نفسها بكامل المسؤوليّة في هذا الشّأن.

1- المختارات العربيّة أو الكرستوماتيّة العربيّة (Chrestomathie arabe): كتاب تعليميّ جمع فيه (بريسنير) نصوصا عربيّة متنوّعة (رسائل، وثائق، عقود) مع ترجمتها الفرنسيّة، وصدرت طبعته الثّانية عام 1857 تقريبًا. يعدّ من أهمّ المراجع التّعليميّة للعربيّة في الجزائر الاستعماريّة.

2- المجلّة الأفريقيّة (Revue Africaine): دوريّة علميّة أسّستها الجمعيّة التّاريخية الجزائريّة عام 1856، وكانت تنشر أبحاثا في التّاريخ والآثار واللّغات والعلوم الاجتماعيّة المتعلّقة بالجزائر وشمال أفريقيا. استمرّت في الصّدور لعقود طويلة.

الملحق10: نظامٌ صوتيٌّ وإملائيٌّ لنقلِ الحروفِ العربيّة لـ: لويس جاك بريسنير

NOTES DIVERSES.

SYSTÈME PHONIQUE ET ORTHOGRAPHIQUE

POUR LA TRANSCRIPTION DE L'ARABE.

(Extrait de la 2e édition de la Chrestomathie arabe de M. BRESNIER, p. S à 17.)

Rien n'est plus à désirer, pour populariser la science et obéir aux exigences pratiques, que de voir substituer aux bizarres systèmes actuels, un mode simple et rationnel qui soit applicable à la représentation des caractères arabes.

La réalisation de ce vœu tient aux conditions *d'exactitude et d'uniformité* dans l'appréciation des sons et de leurs signes représentatifs pour les deux langues, *et aussi à l'abstraction de tout préjugé d'amour-propre ou d'école*. Elle tient encore à la connaissance bien assise de la prononciation et de l'orthographe arabes.

Nous allons donner un exposé succinct des résultats pratiques des principaux systèmes européens, et livrer, en toute modestie, à l'appréciation et à la sagesse de l'opinion publique, un mode très-simplifié de représentation de la prononciation et de l'orthographe arabes, pour les Français.

Nous pensons que l'on s'est étrangement mépris en Europe sur le but à atteindre par un système quelconque de transcription des caractères arabes. Au lieu de se borner à prétendre au résultat modeste, mais essentiellement utile, de présenter à TOUT LE MONDE, *avec le moins d'inexactitude et le plus de simplicité possible*, les mots arabes que la science et la pratique emploient ; — on a voulu *substituer* les caractères des Européens à ceux des Arabes, et épargner non-seulement aux orientalistes futurs, mais encore aux musulmans eux-mêmes, le soin d'apprendre leur alphabet.

C'est dans cette intention que Volney, entre autres, a publié

la *Simplification des Langues orientales*, in-8°, Paris, an Ill. Son mode de reproduction consiste en l'addition à nos lettres alphabétiques, de caractères nouveaux et bizarres, représentant des articulations qui existent déjà presque toutes chez nous. Les voyelles, figurées par de toutes petites lettres, sont placées en haut, à la droite des consonnes, à la manière de notre apostrophe. Un lecteur français ignorant l'arabe ne peut rien comprendre à ce mode d'écriture, et celui qui connaît la langue ne peut facilement l'employer.

Le système de Volney, quelque étrange qu'il soit, n'est rien en comparaison des combinaisons plus minutieuses que rationnelles des orientalistes européens, notamment des Allemands et des Hollandais. Parmi ces derniers, M. Veijers a publié, sur ce sujet, une brochure in-4°, imprimée à Leyde en 1840, et intitulée : *Nieuwe proeve om al de arabische letters en verdere schrijfteekens door het gevoon europeesch karakter onderscheidenljik uit te drukken.* Dans cet opuscule, M, Veijers censure judicieusement l'abus fait par les Européens de doubles ou même de triples lettres pour représenter des articulations arabes (il aurait pu ajouter : *même des articulations européennes*) ; et, pour éviter cet inconvénient, il conclut à joindre à nos caractères romains une quantité considérable de points et de traits inférieurs ou supérieurs imperceptibles, représentant, selon lui, toutes les particularités de la prononciation et de l'orthographe. Ce moyen, il est vrai, n'augmente pas le nombre des caractères ; mais, ce qui est bien pis, il attribue à chacun d'eux une multiplicité de valeurs fort embarrassante pour un orientaliste, et inintelligible pour le public, grâce à tous les signes accessoires dont les lettres européennes sont embarrassées. Avec ce système, M. Veijers est parvenu à représenter les vingt-huit lettres arabes par plus de soixante lettres européennes, dont un grand nombre se, confondent facilement entre elles. Son alphabet représentatif contient douze A, trois C, deux G, neuf I, trois O, quatre T ; sept U, etc., (quarante lettres pour sept caractères !) et tout le reste en proportion. Les lettres *italiques*, mêlées aux lettres *romaines*, ajoutent à cela la confusion en double alphabet.

On conçoit fort bien qu'avec un tel mode de transcription, on ne peut lire qu'en se représentant les mots écrits en caractères originaux, ce qui est Ioin d'être faciles aux personnes même les plus

familières avec l'arabe, et est, par conséquent, impossible à toutes les autres. Nous aurions bien voulu donner ici un court spécimen de ce système *très-simple*. Mais deux raisons s'y opposent : nous ne le connaissons que depuis peu d'années, ce qui est insuffisant pour le bien appliquer, — et nous serions obligé de faire établir à grand frais des caractères spéciaux, et de retarder indéfiniment la publication de notre Livre. Les auteurs de tous ces systèmes de transcription n'ont pas tenu assez compte de l'inconvénient, même matériel, de recourir à des caractères particuliers, que l'on ne peut se procurer ni en tous temps ni en tous lieux.

Le moins irrationnel des modes européens de transcription, est l'usage que l'on suit généralement en France, et qui consiste à introduire la lettre H partout où l'on suppose que la prononciation des Arabes ne ressemble pas à la nôtre. La lettre H, à notre époque, n'a plus qu'une valeur orthographique ; et elle est, en réalité, sans influence sur la prononciation chez nous. Ceux qui ne la prononcent pas l'ont nommée *aspiration*, tandis que ceux qui l'articulent l'expriment par une *expiration*. — Son emploi abusif dans la transcription de l'arabe, n'a d'autre inconvénient que d'embarrasser inutilement la lecture, et d'induire ceux qui la voient à des efforts de prononciation aussi vains que disgracieux.

En créant les systèmes en vue d'une précision rigoureuse et d'une universalité d'application *qu'il est impossible d'obtenir*, les auteurs, peu habitués aux observations pratiques, n'ont pas pensé que la prononciation des lettres romaines, comme celle des lettres arabes, *est soumise à un grand nombre d'influences locales*, et QU'AUCUN SYSTÈME ne peut être universellement appliqué dans toute sa rigueur. Ils n'ont pas réfléchi que leurs combinaisons *obligent plus que jamais les Européens à recourir aux textes*, au lieu de leur en tenir lieu, et que la difficulté réelle n'est pas d'imaginer un système, mais de le faire adopter. Ils ont cru, par exemple, comme Volney et quelques autres idéologues, que les peuples musulmans, pour faire plaisir aux Européens, renonceront à un mode d'écriture *national*, que l'habitude leur fait préférer au nôtre, et qui a pour eux une origine éternelle et divine; qu'ils s'empresseront, par conséquent, de transcrire en des caractères étrangers pour eux, suivant le caprice de quelque *Roumi*, tous les livres de leur doctrine et de leur littérature. — Ces auteurs, enfin, ont espéré que les Européens, pour leur usage tout particulier, se chargeront des travaux et des dépenses de cette inutile transposition, lorsqu'il serait plus rationnel, alors, et plus avantageux pour tous, de publier les textes dans leur forme originale.

Nous avons signalé déjà avec détails dans nos ouvrages, les inconvénients très-graves du mode, *sténographique* en quelque sorte, de l'écriture arabe ; nous avons même dit *qu'un tel système rend la lecture IMPOSSIBLE AUX MASSES, et présente un obstacle puissant à la civilisation des populations, en s'opposant à la propagation et au progrès des idées*. On ne nous accusera donc pas d'engouement irréfléchi pour ce genre d'écriture; qui n'a d'avantage à nos yeux qu'un mérite calligraphique incontestable.

D'après ces considérations, et par suite d'une longue habitude des populations arabes, nous nous croyons fondé à dire que tous les systèmes européens ne peuvent, à notre époque, *amener ni préparer aucune modification à l'écriture des musulmans*. — Sans avantage réel pour les vrais orientalistes, ils peuvent tout au plus dissimuler temporairement à quelques étudiants peu courageux, la difficulté primitive de l'écriture arabe. Ils ne sont donc, à peine, qu'un moyen didactique dangereux, qui fausse les idées en éloignant de l'application. — Ceux qui veulent apprendre l'arabe pour le savoir, doivent l'étudier tel qu'il a toujours été, et par conséquent *tel qu'il est encore*, et s'abstenir de tous ces moyens factices dont il est presque impossible effacer plus tard les mauvaises influences.

S'il paraît démontré que la transcription des caractères arabes avec nos lettres ne peut utilement et rationnellement remplacer les textes ; si elle est (et nous pouvons l'affirmer) dangereuse pour l'étude, *— son emploi, indispensable en un certain nombre de cas scientifiques et usuels, se trouve restreint* A LA CITATION DE NOMS D'INDIVIDUS ET DE LIEUX, OU DE PASSAGES DE TEXTES, *que l'on ne peut ou ne croit pas devoir écrire ou imprimer en caractères arabes.*

Ces noms ou ces passages transcrits, sont destinés ordinairement à être lus par le public plutôt que par les hommes spéciaux, et ils exigent, pour ce motif, un mode de reproduction simple, pouvant être lu sans effort par TOUT LE MONDE, et retraçant la prononciation aussi *approximativement* toutefois, que le permet l'analogie de

de leur littérature. — Ces auteurs, enfin, ont espéré que les Européens, pour leur usage tout particulier, se chargeront des travaux et des dépenses de cette inutile transposition, lorsqu'il serait plus rationnel, alors, et plus avantageux pour tous, de publier les textes dans leur forme originale.

Nous avons signalé déjà avec détails dans nos ouvrages, les inconvénients très-graves du mode, *sténographique* en quelque sorte, de l'écriture arabe ; nous avons même dit *qu'un tel système rend la lecture IMPOSSIBLE AUX MASSES, et présente un obstacle puissant à la civilisation des populations, en s'opposant à la propagation et au progrès des idées*. On ne nous accusera donc pas d'engouement irréfléchi pour ce genre d'écriture; qui n'a d'avantage à nos yeux qu'un mérite calligraphique incontestable.

D'après ces considérations, et par suite d'une longue habitude des populations arabes, nous nous croyons fondé à dire que tous les systèmes européens ne peuvent, à notre époque, *amener ni préparer aucune modification à l'écriture des musulmans*. — Sans avantage réel pour les vrais orientalistes, ils peuvent tout au plus dissimuler temporairement à quelques étudiants peu courageux, la difficulté primitive de l'écriture arabe. Ils ne sont donc, à peine, qu'un moyen didactique dangereux, qui fausse les idées en éloignant de l'application. — Ceux qui veulent apprendre l'arabe pour le savoir, doivent l'étudier tel qu'il a toujours été, et par conséquent *tel qu'il est encore*, et s'abstenir de tous ces moyens factices dont il est presque impossible effacer plus tard les mauvaises influences.

S'il paraît démontré que la transcription des caractères arabes avec nos lettres ne peut utilement et rationnellement remplacer les textes ; si elle est (et nous pouvons l'affirmer) dangereuse pour l'étude, — *son emploi, indispensable en un certain nombre de cas scientifiques et usuels, se trouve restreint* A LA CITATION DE NOMS D'INDIVIDUS ET DE LIEUX, OU DE PASSAGES DE TEXTES, *que l'on ne peut ou ne croit pas devoir écrire ou imprimer en caractères arabes.*

Ces noms ou ces passages transcrits, sont destinés ordinairement à être lus par le public plutôt que par les hommes spéciaux, et ils exigent, pour ce motif, un mode de reproduction simple, pouvant être lu sans effort par TOUT LE MONDE, et retraçant la prononciation aussi *approximativement* toutefois, que le permet l'analogie de

de chaque langue. Ils doivent en outre réserver, au besoin, quelque léger indice d'étymologie et d'orthographe suffisant à l'orientaliste, *que l'on suppose toujours familier avec la grammaire.*

Le but réel et positif d'un système de transcription, est donc de concilier AUTANT QU'ON LE PEUT, LES FAITS DE LA PRONONCIATION AVEC LES PARTICULARITÉS DE L'ORTHOGRAPHE ARABE.

SYSTÈME DE LA COMMISSION SCIENTIFIQUE.

En en 1844, une commission fut chargée, à Paris, par M. le Ministre de la Guerre, d'établir, pour l'Algérie et pour la Commission scientifique, un mode uniforme de reproduction des mots arabes en caractères français. Les membres étaient M. CARETTE, capitaine du génie, membre de la Commission scientifique ; M. Eugène DE NULLY, secrétaire-interprète du Ministère, et l'AUTEUR de ce livre, alors momentanément en France ; ce dernier fut chargé de préparer le travail et d'en dresser le rapport.

S'appuyant sur les faits et les principes ci-dessus énoncés, et qui lui ont été signalés par la, double expérience de la théorie et de l'application, la Commission expose dans soit rapport les idées et les observations suivantes :

« Le but proposé est de simplifier et de régulariser les diverses orthographes qui, par leur complication et leur défaut de fixité, ont dénaturé la prononciation dans le public, et rendu impossible pour les savants l'appréciation étymologique.

« Convaincue de l'inutilité de tous les efforts pour indiquer *rigoureusement* par des lettres la prononciation d'une langue à *ceux qui ne la pratiquent pas*, et de l'inconvénient de toutes les minutieuses combinaisons imaginées pour arriver à une précision illusoire, — la Commission a cherché à représenter les mots arabes de la manière la plus simple et la plus appréciable à tous, en même temps la plus rapprochée possible de la prononciation de l'Algérie.

« Elle est partie de ce principe, que *presque toutes les lettres arabes uni dans notre alphabet une représentation* IDENTIQUE ou ANALOGUE :

Elle établit donc : 1° que les caractères arabes ayant chez nous un équivalent exact, seront représentés par cet équivalent ; — 2° que ceux dont nous ne possédons que les analogues, seront rendus par ces analogues accompagnés (pour les orientalistes seulement) d'un petit signe ou accent destiné à distinguer les articulations fortes, emphatiques ou gutturales, d'avec leurs analogues simples directement représentés par nous ; — 3° que la lettre qui seule, n'a chez nous ni équivalent ni analogue, sera figurée par une *apostrophe*, accompagnée des voyelles que la prononciation et l'orthographe rendront nécessaires. — La commission néglige le « ainsi que plusieurs particularités purement techniques et orthographiques inappréciables pour le public, et que saisiront facilement les *vrais* orientalistes. »

« La marque caractéristique d'une prononciation étrangère *analogue* (mais non identique) à l'une des articulations de notre alphabet, sera le signe algébrique ‘ placé à la droite de la lettre française. — Ce signe distinctif des articulations arabes n'a d'autre but que de signaler aux personnes qui connaissent et pratiquent l'arabe, la prononciation et l'étymologie des mots ; il peut être négligé pour le public qui ne saurait en tenir compte. — On peut l'employer seulement la première fois que l'on transcrit un mot dans une pièce française, et même, au besoin, le reproduire de temps en temps.

« En introduisant, *pour l'impression surtout,* l'usage de ce signe, qu'il est facile de se procurer dans toutes les imprimeries, et qui ne complique en rien le travail typographique, la Commission a voulu éviter l'obligation toujours onéreuse de faire graver exprès des caractères spéciaux, — et surtout permettre l'application *immédiate* de son système dans les localités les moins pourvues de moyens matériels d'exécution.

« Par tous les motifs précédents, la Commission, — voulant concilier autant que possible la prononciation et l'orthographe arabes, et, *dans le cas d'impossibilité absolue*, ACCORDANT LA PRÉFÉRENCE A LA PRONONCIATION. — adopte pour la transcription les caractères suivants :

ا	a, ou, i	ز	z	ف	f
ب	b	س	s, c, ç	ق	k', g
ت	t	ش	ch	ك	k
ث	ts	ص	s', c' ç'	ل	l
ج	dj	ض	d'	م	m
ح	h'	ط	t'	ن	n
خ	kh	ظ	d'	ه	h
د	d	ع	‘	و	ou
ذ	th	غ	r' (gras)	ي	i, y
ر	r (roulé)			ى	a

OBSERVATIONS.

« La Commission aurait voulu pouvoir rejeter entièrement l'emploi de deux lettres françaises pour représenter un seul caractère arabe, mais elle a été obligée d'admettre quatre exceptions à ce principe, à cause de l'exactitude *rigoureuse* de la reproduction française pour les lettres ج *dj*, — ش *ch* (français) — و *ou*, — et de l'impossibilité de trouver un analogue distinct suffisant pour le خ . — Cette dernière lettre ayant été jusqu'ici représentée chez nous par *kh*, la Commission, qui ne peut lui donner le *k* ni le *k'* déjà employés, lui conserve, faute de mieux, son ancienne représentation. — Cette complication regrettable est expliquée, sinon justifiée, par l'emploi assez fréquent, même chez nous, de deux ou plusieurs lettres peur figurer une articulation unique ou un son : témoin nos groupes *ch, sc, th, ent, aient, oien*t, etc., etc.

« Les lettres ت et ث sont ordinairement confondues dans l'usage, et prononcées *t* et *ts* ; — le د et le ذ ont communément la valeur de notre *d* ; le ض et le ظ sont prononcés d'une seule

manière, que l'on peut représenter approximativement par *d'*. Les Barbaresques écrivent souvent, quoiqu'à tort, ces deux dernières lettres l'une pour l'autre.

« Cette confusion plus ou moins rationnelle entre ces lettres étant générale en la plupart des localités, la Commission n'a pas cru devoir se montrer plus rigoureuse que les Indigènes ; et, profitant de ce moyen de simplification que lui offre la pratique, elle a réuni ces consonnes sous un même caractère.

« Quant aux *sons* ou *voyelles*, représentés en arabe *par trois signes seulement*, avec une infinité de nuances dépendant de l'influence des articulations que ces signes accompagnent, la Commission n'a pu se borner, comme on le fait en Europe, à l'emploi méthodique et imperturbable des trois lettres o, a, i qui dénaturerait très-souvent la prononciation des mots. S'appuyant surtout, à cet égard, sur les exigences phoniques, que nos voyelles et leurs combinaisons ne peuvent même pas toujours reproduire, elle choisira les voyelles françaises les plus voisines de l'usage.

« Lorsque la lettre ي doit être prononcée comme la dernière syllabe de notre mot *mantille*, la Commission, ne pouvant adopter la combinaison *ill* qui induirait le lecteur français erreur, représentera ce son par *iy* : elle transcrira par exemple, حاشمية par *h'âchemiya*. « La Commission admet également les règles orthographiques ci-après :

« L'article el précédant un mot commençant par une lettre dite *solaire*, subira toujours, dans la transcription française, l'influence de cette lettre. Ainsi, l'on écrira : '*Abd er-rah'mân, Yâc'er ed-dîn*, etc.

« Les mots arabes terminés par la désinence féminine qui est *toujours* précédée du son A, prononcé seul quand le mot n'est pas en liaison avec le suivant — seront toujours écrits en français par A seulement. La Commission rejette absolument remploi abusif de l'H final, si prodigué par les Européenne, comme inutile à la prononciation et contraire à l'orthographe. Ainsi l'on écrira : *Biskra, Miliana, 'Aïcha, khalifa*, etc., etc., sans *h*, et non *Biskarah, Milianah*, etc. — Lorsque, par suite des règles de la liaison euphonique, le — qui est un véritable T —devra être nécessairement prononcé, on le représentera par son équivalent naturel T ; on écrira, par exemple :

Medinat en - nebi, ou, plus vulgairement, *Medint en - nebi*.

Les articulations M et N, surtout à la fin des mots, n'ayant jamais en arabe le son nasal et sourd que nous leur attribuons, seront toujours prononcées comme si elles étaient suivies d'un e muet, que l'on ne prendra jamais la peine d'écrire.

« Enfin, les noms arabes transcrits en français ne prendront pas l'S *au pluriel*. Cette lettre orthographique ne se prononce pas dans notre langue, mais nous nous croyons presque toujours obligés de l'articuler dans les mots étrangers, ce qui les défigure sensiblement. — Il est de règle en français, d'ailleurs, de ne mettre l'S au pluriel des mots étrangers, qu'autant qu'ils sont régulièrement francisés. »

Voici quelques exemples de l'application de ce système de transcription :

الحمد لله الذى خلقنا *el-h'amdou lillâhi lladi khalak'a-nâ* ; عايشة '*Aïcha* ; بنت *bent* ; — بنى راشد *Beni Râched* ; — صالح *S'âlah*'; etc.

On peut tout simplement écrire pour l'usage ordinaire : *el hamdou lillâhi lladi khalaka-nâ, — Aïcha, — Sâlah*, etc.

Telles sont les bases sur lesquelles est fondé le système de transcription de la Commission scientifique de l'Algérie, que nous présentons ici à l'examen sans avoir la prétention de l'imposer à personne.

Nous devons rappeler, en terminant, qu'aucun système ne peut être *universellement ni absolument exact.* S'il est rationnel, il marque aussi directement que possible la prononciation générale *d'un pays* pour tout le monde, et retrace l'orthographe *à ceux qui la connaissent.* Il ne peut jamais se substituer à des textes : on doit en restreindre l'usage *à de courtes citations et aux besoins de la pratique*. Les particularités *minutieuses et techniques* de l'orthographe et de la grammaire peuvent être négligées sans inconvénient. Les orientalistes les connaissent, *et il y aurait une affectation pédantesque à en embarrasser le public*.

L. J. BRESNIER.

Note de la rédaction.

Le travail que l'on vient de lire et celui qui arrive ensuite, ont extraits de la *Chrestomathie arabe* (2e édition) de M. BRESNIER, ouvrage important qui paraîtra dans quelques jours à la librairie Bastide.

Nous recommandons spécialement à nos lecteurs le système de transcription proposé par M. Bresnier et qui est éprouvé, du reste par l'heureuse application qui en a été faite aux publications de la Commission scientifique.

A ce sujet, nous devons annoncer à nos collaborateurs que la *Société historique algérienne* a décidé, dans sa séance du mois de juillet dernier, qu'un mode uniforme de transcription des mots arabes en français serait adopté dorénavant dans la *Revue africaine* et dans ses autres publications. L'amour-propre des auteurs, à l'endroit de leurs systèmes particuliers, se trouve naturellement couvert par cette résolution qui rejette sur la société elle-même toute responsabilité à cet égard.

الخريطة اللّغوية للّهجات العربيّة الجزائريّة

Géographie linguistique des parlers arabes algériens

(ج. كانتينو/J. Cantineau)

أستاذ بكلّية الآداب بالجزائر / عضو بمعهد الدّراسات الشّرقيّة

ترجمة ودراسة: أ. د نوار عبيدي

رئيس لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

تُمثّل (Linguistic Geography/الجغرافيا اللّغوية) والأطلسة اللّسانية حجرًا من أهمّ المباحث اللّسانيّات الحديثة، لمّا تتيحه من رصد دقيق للتنوّع اللّهجي والتّوزيع الفضائي للظواهر الصّوتية والصّرفية والمعجميّة. والنّصّ الذي بين أيدينا "الخريطة اللّغوية للّهجات العربيّة الجزائريّة" الصّادر في المجلّة الأفريقيّة (مجلّد 79 سنة 1936م ص: 91-93) كتبه "جان كانتينو"[1] أحد كبار المستشرقين الفرنسيّين الذين اشتغلوا على اللّغة العربيّة واللّهجات في الجزائر. وهو الأستاذ بكلّية الآداب بالجزائر العاصمة آنذاك وعضو معهد الدّراسات الشّرقيّة. حيث يعدّ هذا النّص وثيقة لسانية تاريخيّة ثمينة تسجّل الإرهاصات الأولى والمشاريع التّأسيسية لإنجاز أطلس لغوي للّهجات الجزائريّة.

المقال يتناول عرضاً موجزاً للمشروع العلمي الذي أطلقه (جان كانتينو) والمتمثّل في إنجاز (أطلس لغوي للّهجات العربيّة الجزائريّة)، وربما للّهجات شمال أفريقيا كلها. و -بالرّغم من صغر المقال (صفحة واحدة)- فقد نُعدّه ورقة طريق منهجيّة ملائمة لذلك العصر حسب ما توفّر من وسائل منهجيّة كلاسيكية جدا. ولعله أخذ المنهج عن الأطلس اللّغوي لفرنسا وهو من الأطالسّة الأولى في التّاريخ الذي أنجزه (Gillieron/جليرون)، حيث اعتمد على المسح الميداني بعد ضبط الخريطة جغرافيًا، ثمّ تختار عينات من المستعملين من المدن والبوادي والقرى، لتسجيل مختلف الظّواهر الصّوتية والصّرفية والدّلالية، وتحديد مناطقها.

وتتلخّص خطة العمل لـ(ج. كانتينو) في اعتماده منهج (الجغرافيا اللّغوية) القائم على صياغة استبيان ميداني مناسب ومصغّر (في حدود 30 صفحة يستغرق ملؤه 3 ساعات)، يُغطّي حوالي 15 سؤالاً صوتياً، و20 سؤالاً صرفياً، بالإضافة إلى أسئلة معجميّة تطال مصطلحات الجسد والأدوات الزراعيّة.

1- (المترجم): يعدّ "جون كنتينو" من أكبر المستشرقين اللّسانيين الفرنسيين الذين اشتغلوا على اللّغة العربيّة، ولد في فرنسا سنة 1899م، وتوفي سنة 1956. درس العربيّة في باريس، وعُيّن عضواً في المعهد الفرنسي بدمشق، وقد عنى باللّهجات العربيّة ولاسيما لهجات بادية الشّام حيث قضى بين البدو زمناً طويلاً. ثمّ عين أستاذاً لفقه اللّغات العام واللّغات السّامية في كلّية الآداب بالجزائر، ثمّ أستاذاً في مدرسة اللّغات الشّرقيّة، له اهتمام كبير بالتّراث العربي، واللّغة العربيّة على الخصوص ويعد كتابه دروس في علم الأصوات العربيّة (تر: القرمادي) من أهمّ كتبه اللّغوية، كما له اهتمام فائق باللّهجات الجزائريّة، وقد ألّف حولها دراسات كثيرة منها: العامية العربيّة في محافظة الجزائر وفي أراضي الجنوب، العربيّة العامية وتعليمها في الجزائر، لهجات شمالي أفريقيا، تلاوة القرآن في دمشق والجزائر. انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1964، 282/1.

وينطلق المشروع من نموذج متواضع شبيه بـ(الأطلس اللّغوي لسوريا وفلسطين) للمستشرق (Bergsträsser/بيرغشتراسر)، بعيداً عن ضخامة أطلس فرنسا، أو أطلس إيطاليا وسويسرا وغيرها من الدّول الأوروبيّة.

وقد بادر الباحث بالفعل بتنفيذ المسوح الميدانية بدعم مالي وإداري من جامعة الجزائر وجهات رسمية فشملت المرحلة الأولى إجراء 30 استقصاءً مكثفاً في منطقة مليانة، و12 استقصاءً متباعداً بين العاصمة والحدود التونسيّة. وخلص الباحث إلى أنّ الاعتماد على شبكة نقاط استقصاء بفاصل 50 كلم بين كلّ نقطة وأخرى تُعد كافية ورشيدة لتغطّية المنطقة، باستثناء البؤر ذات الأهمّية اللّغوية الخاصّة. وعند انطلاق المشروع استهدف كانتينو كمرحلة أولى عاجلة تغطية محافظة الجزائر بنهاية العام الدّراسي الموافق لسنة 1936م، على أن تتوسع الشّبكة في الأعوام التّالية لتشمل بقيّة القطر الجزائري.

وتعود أهمّية هذا الموضوع إلى كوننا نحن في جزائر اليوم في أشد الحاجة إلى صناعة أطلس للّهجات الجزائريّة، وذلك لعدة أبعاد علميّة وتاريخيّة ولغويّة:

1. اللّغات واللّهجات ليست مجرّد أدوات تواصل، بل هي مستودع للذاكرة الجمعيّة والتّراث الثّقافي. ورسم الخرائط اللّغوية يوثق هذا التّراث الشّفهي ويحميه من الاندثار المترجم بفعل العولمة والتّنميط اللّغوي.

2. تُظهر الخرائط اللّغوية أنّ الحدود بين اللّهجات ليست حدوداً فاصلة حادة، بل هي خطوط تداخل وهمّية فقط، وضبط الخرائط يعزز اللّحمة الوطنيّة ويؤكّد التّماسك الثّقافي للبلد الواحد.

3. تستفيد السّياسات اللّغوية والمجامع العلميّة (كالمجلس الأعلى للّغة العربيّة)[1] من الخرائط اللّغوية في التّخطيط اللّغوي، ووضع المعاجم الحديثة، واختيار الألفاظ الفصيحة أو الشّائعة في البيئات المحلّية لاستيعاب المصطلحات الحديثة وتطوير المناهج التّعليمية.

4. تتيح الخرائط اللّغوية للعلماء الرّبط بين الظّاهرة اللّغوية والتّوزيع الجغرافي والديموغرافي، وطرق التّجارة، والتّوسع العمراني، والمصطلحات الفلاحية والحرفية، ممّا يقدّم خدمة جليلة للتاريخ الاجتماعي والأنثروبولوجيا.

5. يسهم توثيق حالة اللّهجات الجزائريّة على مر العصور، في تسجيل التّغيرات والتطوّرات الدّلالية التي تطرأ على الاستعمال في كافّة مستوياته، وهذا التّوثيق يحفظ الأصالة الصّوتية والصّرفية للّهجات المحلّية في بيئتها العفويّة الأولى.

1- (المترجم): يشتغل المجلس الأعلى للغة العربيّة حاليا على وضع أطلس كبير للهجات الجزائريّة، وقد انطلق المشروع بفريق من الباحثين الجزائريين المختصين حيث تم وضع التّصور العام في انتظار تنفيذ برنامج جمع البيانات. وتجدر الإشارة إلى أن المجلس الأعلى للغة العربيّة سبق له أن أنجز أبحاثا محترمة حول اللّهجات في الجزائر نشرها ضمن مشروعه الكبير "معجم الثّقافة الجزائريّة" الذي صدر في مجلّدين كبيرين سنة 2025.

6. ومن أهمّ ميزات الخريطة اللّغوية الجزائريّة أنّها تسهم في الكشف عن التّفاعل التّاريخي بين اللّسان العربي واللّسان الأمازيغي القديم، وتبيان التّداخلات الصّوتية والدّلالية، وكيفيّة امتداد الظّاهرة اللّغوية وعلاقات التّأثير والتأثّر بين الاستعمالين.

من جانب آخر يجب أن نضع هذا النّص في إطاره التّاريخي للنّظر إلى الدّواعي الحقيقيّة لصناعة أطلس لغوي للجزائر من طرف الإدارة الفرنسيّة وتشجيعها للباحث بقرار وزاري. وعلى الرّغم من الفائدة العلميّة المحضة للمشروع، فإن أهمّية النّص تجعل الباحث الجزائري واعياً بالدّعم الذي قدمته مديريّة الشّؤون الأهليّة الاستعماريّة؛ حيث كان الاستشراق اللّغوي يُوظّف أحياناً لفهم البنية الاجتماعيّة للسكّان وموازين التّباين القبلي والإقليمي، ممّا يفرض على الباحث المعاصر إعادة قراءة هذه المعطيات بنظرة نقديّة صارمة وتوظيفها لصالح الهويّة الوطنيّة.

التّرجمة

لا شكّ أنّك تعرف[1] ما تعنيه الجغرافيا اللّغوية: حيث نستعرض المنطقة المراد دراستها بواسطة استبانة[2] مناسبة للغرض، ويتمّ ملؤها عدّة مرات في نقاط محدّدة. ثمّ تسجّل الإجابات على خرائط، لكلّ ظاهرة لغويّة خريطتها الخاصّة. ولهذه الطّريقة ميزة إيضاح نتائج عدد كبير من الأسئلة وإظهار علاقات يصعب ملاحظتها بطرق أخرى.

وقد تمّ التّعبير عن الرّغبة في تنفيذ أطلس لغوي للجزائر أو حتى لشمال أفريقيا. هذه ليست مجرّد رغبة شخصيّة، بل مشروع جارٍ العمل عليه الآن. مشروع متواضع مقارنةً بـ(الأطلس اللّغوي لفرنسا) لغيليرون" أو (الأطلس اللّغوي والإثنوغرافي لإيطاليا وسويسرا الجنوبيّة) لجابرغ وجود. يوجد عمل مشابه لكن بحجم أصغر بكثير، وهو (الأطلس اللّغوي لسوريا وفلسطين)[3] للراحل (بيرجست راسر)[4].

1- (المترجم): يبدو أن هذا النّصّ موجّه لشخص معين من المهتمين باللّهجات الجزائريّة، وقد يكون شخصا من هيئة تحرير المجلّة الأفريقيّة، وربما فضلت المجلّة نشر هذا النّصّ كما ورد إلى رئاسة تحرير المجلّة حفاظا على أمانة النّص.وكأن النّصّ لا مقدّمة له حيث تكون قد سبقته نقاشات حول هذا الموضوع، فكان هذا الرّد السّريع.

2- (المترجم): الاستبانة عبارة عن استمارة تشمل معلومات وأسئلة وجداول، حيث يلجأ المحقّق إلى اختيار عينة من مستعملي اللّغة ويطرح أسئلة دقيقة يسجّلها بدقة في الاستبانة.

3- (المترجم): ولـ "ج. كانتينو" اهتمام كبير باللّهجات العربيّة في المشرق، من أهمّ أعماله: لهجة حوران العربيّة (نشرة الجمعية اللّغوية بباريس 1933)، لهجة عرب تدمر، في جزءين (منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، بيروت 1934)، قواعد للكتابات التّدمرية (منشورات كلّية الآداب بالجزائر، القاهرة 1935)، بعض لهجات بدو العرب في الشّرق (منشورات كلّية الآداب بالجزائر 1936- 37)، تعليق على بعض اللّهجات البدوية في سوريا وفلسطين (1937)، تأملات في اللّهجات العربيّة (مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، 15، 1937)، لهجة دروز حوران (حوليات معهد الدّراسات الشّرقيّة، 1938)، لهجات البدو السّوريين واللّبنانيين والفلسطينيين (نشرة الجمعية اللّغوية بباريس، 1939) لغة عرب حوران، في 435 صفحة مع ذيل بخرائط جغرافية للمناطق (منشورات الجمعية اللّغوية بباريس، 1940- 1946)، لغة حلب (نشرة الجمعية اللّغوية بباريس، 1949)، واللّهجات العربيّة في الواحات السّورية (الدّراسات الشّرقيّة لليفي دلافيدا، 1، 1956). المستشرقون، م س، 283/1.

4- (المترجم): ويعد "برجست راسر" من كبار المستشرقين الذين اشتغلوا لسنوات طوال على اللّغة العربيّة، ولد في ألمانيا سنة 1886م، التّحق بجامعة ليبزيج (1904) حيث تلقي الفلسفة، واللّغات السّامية، على يد المستشرق الكبير "أوجيست فيشر"، نال الدّكتوراه من جامعة ليبزيج

وقد تحدّث البعض عنه بشكل سلبي، لكن منذ أن بدأت دراسة اللّهجات السّامية الفلسطينية أعتبره أكثر ما أفادني، إذ يُوضّح بدقّة جيدة التّوزيع الجغرافي لحوالي أربعين ظاهرة كبرى، وهو بالضّبط الهدف الذي أسعى إليه: وضعت حوالي 15 سؤالاً صوتياً، و20 سؤالاً صرفياً، وأسئلة لغويّة تتعلّق بمصطلحات لأجزاء من الجسم وأدوات زراعيّة. وقمت بصياغة استبيان صغير من حوالي ثلاثين صفحة يمكن إكماله خلال ثلاث ساعات.[1]

وبدعم من جامعة الجزائر، ممثّلة في السّيد رئيس الجامعة وعميد كلّية الآداب، وأيضًا من الحكومة العامّة، خصوصًا من السّيد ميليو، مدير الشّؤون الأهليّة[2]، بدأت في استخدام هذا الاستبانة. العام الماضي، أجريت حوالي ثلاثين استقصاءً (قريبة جدًا من بعضها) في منطقة ميليانة[3]، واثني عشر استقصاءً آخر في مناطق متباعدة بين الجزائر والحدود التونسيّة. هذه التّجارب الأوّلية أقنعتني أنّه، باستثناء بعض المناطق ذات الأهمّية الخاصّة، فإن شبكة استقصاء بمسافة 50 كلم بين النّقاط كافية جدًا .[4]

هذا العام، بدأت مجدّدا استطلاعاتي. الخرائط المرفقة تُظهر لكم[5] النّقاط التي تمّت دراستها حتى الآن. لن يكون من الحكمة تحديد موعد لإنهاء العمل: لن أقدم إلّا مؤشرًا واحدًا، قريب المدى: لا أريد أن ينتهي هذا العام الدّراسي دون أن يكون قد تمّ توسيع شبكة الاستقصاء لتشمل كامل محافظة الجزائر. آمل، في العام القادم، أن أتمكن من عرض هذه الخريطة مجدّدا، وقد أضيفت إليها نقاط استقصاء أكثر بكثير.

ج. كانتينو

(1911) وشهادة الأستاذية في اللّغات السّامية والعلوم الإسلاميّة (1912)، شغف بالدّراسات الشّرقيّة فرحل إلى تركيا وفلسطين ودرس لهجاتها العامية، ومر بمصر في طريقه إلى ألمانيا. درّس في جامعة الآستانة، ثمّ درس اللّغات السّامية والعلوم الإسلاميّة في جامعات ألمانية. وتولى تحرير المجلّة الألمانية للدّراسات السّامية، ثمّ قدم مصر أستاذاً زائراً وألقى في جامعتها سلسلة محاضرات في تطور النّحو في اللّغة العربيّة، ومحاضرات في قواعد نشر النصوص العربيّة، وفي القاهرة استمع إلى القرآن الكريم من مقرئ مشهور فذهب إليه ودوّن أنغامه بالنّوطة. وقصد جبال الألب وسقط عن أحد جباله سقطة أودت بحياته سنة 1933. له مؤلّفات كثيرة عن القرآن الكريم والأصوات والنّحو العربي. وخاصّة اللّهجات المشرقيّة خاصّة الدّمشقيّة. انظر: المستشرقون، م س، 747/2.

1- (المترجم): هذا المنهج اليدوي الكلاسيكي يمكننا الاستغناء عنه بالأدوات التّكنولوجيّة المتوفّرة اليوم، خاصّة في التّسجيل الصّوتي، لأن الوصف الصّوتي قد لا يؤدي غرضه كاملا. خلافا للمسجل الصّوتي (ميكروفون)

2- (المترجم): نلاحظ هنا دعم الجهات الحكومية بقوّة لمثل هذه الأبحاث.

3- (المترجم): مليانة مدينة جزائرية تقع شمال الجزائر العاصمة وتتحكم في ممر استراتيجي مهمّ، تبعد عن العاصمة بحوالي 110 كلم، وتطل على سهل الشّلف بجمال طبيعي ساحر، تتبع إداريا ولاية عين الدّفلى.

4- (المترجم): معنى ذلك أن الاختلافات اللّهجيّة قد تبدأ بعد 50 كلم من نقطة التّحقيق الأولى، وكل ما يقع على محور 50 كلم فهو ينتمي إلى عائلة لهجيّة واحدة. وهذا التّقدير ناتج عن تجارب ميدانية، وهو تقدير نسبي.

5 (المترجم): يتأكّد لدينا أن هذا النّصّ عبارة عن خطاب وجهه "ج. كانتينو " إلى شخص معين قد يكون في هيئة تحرير المجلّة الأفريقيّة، كما تأكّد لدينا أنّه قد أنجز بعض الخرائط وسلمها لهذا المخاطب ويخبره أنّه لا يستطيع تحديد موعد لأنّهاء العمل.

الملحق11: الخريطة اللّغوية للّهجات العربيّة الجزائريّة. لـ: ج. كانتينو

(décorations, lettres officielles de félicitations, etc...) soient accordées aux meilleurs d'entre eux, qu'ils soient fonctionnaires ou non.

Au cours de l'enquête, qui pourrait porter sur une durée de deux ans au maximum, et au fur et à mesure de l'arrivée des documents envoyés au Directeur général d'enquête par les informateurs locaux et régionaux (sous couvert administratif), ces documents seraient examinés à la plus prochaine réunion du Comité central.

S'ils étaient jugés complets et conformes au questionnaire, ils seraient aussitôt classés, sous des rubriques déterminées, dans les dossiers du Comité.

S'ils étaient insuffisants, ils seraient renvoyés à l'enquêteur pour être complétés sur les points défectueux, qui lui seraient signalés.

Une fois toute la documentation achevée et reçue, le Directeur général et son Comité procéderaient à l'élaboration du travail d'ensemble qui pourrait comprendre plusieurs fascicules : l'un donnerait une vue générale sur l'ensemble des industries indigènes nord-africaines ; les autres constitueraient une étude générale de chaque catégorie d'industries nord-africaines (tissage, céramique, bois, etc...) avec, pour chacune d'elles, une carte des centres où chaque industrie est représentée.

du Sud de Jaberg et Jud. Il y a un ouvrage de dimensions beaucoup plus réduites qui a des analogies avec ce que je voudrais faire : c'est le petit Atlas linguistique de Syrie et de Palestine du regretté Bergstrasser. On a peu parlé de ce travail et généralement pour le dénigrer. Cependant depuis que j'étudie les parlers syro-palestiniens, de tous les ouvrages que j'ai consultés, c'est certainement celui qui m'a rendu le plus de services, car il indique avec une précision très suffisante, la répartition géographique d'une quarantaine de grands faits. C'est là justement le but que je me suis proposé : je me suis fixé une quinzaine de questions de phonétique, une vingtaine de questions de morphologie, et autant de questions portant sur des catégories bien définies de vocabulaire (parties du corps et instruments agricoles). J'en ai composé un petit questionnaire d'une trentaine de pages qu'on peut remplir en trois heures.

Grâce à l'appui que l'Université d'Alger, en la personne de M. le Recteur et de M. le Doyen de la Faculté des Lettres, et que le Gouvernement Général, en la personne de M. Milliot, Directeur des Affaires indigènes, ne m'ont pas marchandé, j'ai pu commencer à utiliser ce questionnaire. L'an dernier, j'ai effectué une trentaine d'enquêtes (beaucoup trop rapprochées d'ailleurs) dans le nord de l'arrondissement de Miliana, et une douzaine d'enquêtes, celles-ci un peu trop espacées au contraire, entre Alger et la frontière tunisienne. Ces essais préliminaires m'ont convaincu qu'en dehors de certaines régions d'un intérêt particulier, où le réseau d'enquêtes doit être très serré, l'équidistance de 50 km. est largement suffisante.

Cette année, j'ai recommencé mes prospections. Les deux cartes que voici vous montreront les points où l'enquête s'est déjà faite.

Il serait naturellement imprudent de fixer une date pour l'achèvement de ce travail : je ne vous donnerai

Géographie linguistique des parlers arabes algériens

PAR

J. CANTINEAU

PROFESSEUR A LA FACULTÉ DES LETTRES D'ALGER
MEMBRE DE L'INSTITUT D'ÉTUDES ORIENTALES

Vous n'ignorez point, sans doute, en quoi consiste la géographie linguistique : on parcourt la région à étudier avec un questionnaire adapté aux buts qu'on se propose, et on le remplit un grand nombre de fois, en des points déterminés. Puis on porte les réponses obtenues sur des cartes, une carte pour chaque phénomène à examiner. Cette méthode a l'avantage de rendre plus clair l'exposé de beaucoup de questions et de faire apparaître des rapports qu'on apercevrait difficilement d'une autre manière.

Aussi on a souvent émis des vœux, formé des projets tendant à l'exécution d'un atlas linguistique de l'Algérie ou même de l'Afrique du Nord.

Ce n'est pas d'un vœu ni d'un projet que je vais vous entretenir aujourd'hui, mais de quelque chose de précis en voie de réalisation. Quelque chose d'assez modeste aussi : il ne s'agit pas d'un immense travail comme l'Atlas linguistique de la France de Gillieron ou l'Atlas linguistique et ethnographique de l'Italie et de la Suisse

donc qu'une seule indication, à échéance très rapprochée: je ne veux pas que cette année scolaire s'achève sans que le réseau d'enquêtes se soit étendu à tout le département d'Alger. J'espère, l'an prochain, pouvoir vous montrer de nouveau cette carte, avec beaucoup plus de points d'enquêtes qu'elle n'en porte actuellement.

أسطورة بنت الخصّ

LA LÉGENDE DE BENT EL KHASS

(رونيه باسيه/RENÉ BASSE)

مدير المدرسة العليا للآداب. الجزائر

ترجمة وتعريب ودراسة: أ.د. حبيب مونسي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

01- تمهيد:

يتناول هذا النّص أسطورة بنت الخص، وهي شخصيّة تاريخيّة وفلكلورية تجسّد الحكمة الشعبيّة والذّكاء في التّراث الجزائري والعربي. ويستعرض المصدر مجموعة واسعة من الأمثال والحكم المنسوبة إليها، والتي تشمل نصّائح في الزّراعة، والفروسية، واختيار الشّريك، بالإضافة إلى استراتيجياتها الحربيّة المبتكرة القائمة على الدّهاء. كما يبحث النّص في الأصول التّاريخيّة لهذه الشّخصيّة، محاولاً الرّبط بين الرّوايات المغاربيّة والجذور الأدبيّة القديمة في شبه الجزيرة العربيّة. كما تبرز المصادر كيف تحوّلت "بنت الخص" إلى رمز للفطرة السّليمة، حيث بقيت أقوالها مرجعاً أخلاقياً وعملياً عبر الأجيال. ويختتم الطّرح بالتّأكيد على أن هذه الأسطورة انتقلت مع الهجرات الهلالية العربيّة وغيرها من الهجرات، ممّا جعلها جزءاً لا يتجزأ من الهويّة الثقافيّة المشتركة في الأدب العربي الكلاسيكي والشّعبي.

02- الأصل التّاريخي:

تُعدّ شخصيّة بنت الخصّ التي تُعرف أحياناً باسم (امباركة) شخصيّة محورية في التّراث الشّعبي ويمتزج في أصلها التّاريخي الجانب الأسطوري بالواقع الأدبي والقبلي، ويمكن تلخيص أصولها وفقاً للمصادر فيما يلي:

1. **الجذور القبلية والجغرافيّة:** حافظت تقاليد عرب الصّحراء الجزائريّة، المنحدرين من قبيلة بني هلال، على ذكرى هذه المرأة التي تجسّد الحكمة الشعبيّة والفطرة السّليمة. ويشير بعض الباحثين (مثل دي كاستريس) إلى أنّها كانت امرأة مشهورة من قبيلة بني عامر عاشت في صحراء وهران في القرن XVم.

2. **الذّكر في الأدب العربي الكلاسيكي:** بالرّغم من نسبتها للقرن الخامس عشر في التّراث الجزائري إلّا أنّ الأدب العربي الكلاسيكي يذكرها في فترات أقدم بكثير؛ حيث ورد ذكرها في بيت شعر للشّاعر الفرزدق (الذي توفي عام 728م) [1]، ممّا يعيد تاريخها إلى ما قبل القرن VIIIم، أي بسبعة قرون قبل التّاريخ المفترض في الرّوايات المحلّية الوهرانيّة.

1- ورد ذكر بنت الخص في بيت شعر للشاعر الفرزدق (توفى عام 728م)، وهو أقدم ذكر تاريخي مدون لها في الأدب العربي الكلاسيكي. والبيت هو:

وَفَيْتَ بِعَهْدٍ كَانَ مِنْكَ تَكَرُّماً*** كَمَا لابنة الخُسِّ الإِيَادِيِّ وَفَتْ هِنْدُ

ملاحظات حول البيت من المصادر:

3. **النّسب والأسماء:** يُعرف والدها في المصادر الشّرقيّة والغربيّة باسم الخوس (أو الخص)، ويُنسب في بعض الأنساب إلى قبيلة إياد كما يُشار إليها في التّراث الشّرقي باسم هند، ويُذكر أنّ لها أختاً تُدعى جومعة، وأنّهما تحاكمتا أمام قاضٍ عربي يُدعى "القَلَمَّس".[1]

4. **الأصل الأسطوري والرّمزي:** يذهب بعض المؤلّفين العرب إلى أبعد من ذلك في التّاريخ، حيث اعتبروا بنت الخصّ من "العمّالقة" ومن بقايا قوم عاد، ممّا يضع شخصيّتها في إطار زمني أسطوري موغل في القدم.

5. **الارتباط بالهجرات الهلالية:** تخلص المصادر إلى أنّ أسطورة بنت الخصّ هي جزء من الموروث الذي جلبه بنو هلال معهم أثناء هجرتهم إلى المغرب العربي، حيث قاموا بتأصيل الشّخصيّة ودمجها في البيئة المحلّية لتصبح بطلة شعبيّة تُنسب إليها المعالم العمرانية القديمة والحيل الحربيّة.

6. **الاحتمال الرّوماني:** تشير بعض الرّوايات إلى احتمال وجود أصل **روماني** للمباني التي تُنسب إليها (مثل السّاقيّة الطّويلة التي قيل أنّها أمرت ببنائها لتصل إلى مكة)، لكن العرب أضفوا عليها الطّابع العربي لتعزيز مكانتها في نفوسهم.

تتّفق الرّوايات على أن هذه الشّخصيّة، بغض النّظر عن دقّة تاريخها، تظلّ رمزاً للذكاء الأنثوي وفصاحة اللّسان العربي في الجاهليّة والإسلام.

1- يرى بعض المعلّقين أن "هند" المذكورة في البيت قد تكون ابنة آخر ملوك الحيرة (النّعمان)، لكن باحثين آخرين مثل ابن نباتة يرجّحون أنّها امرأة أخرى، وهي ابنة الخص التي كانت تُعرف في المشرق باسم "هند"

2- يُنسب والدها في هذا البيت إلى قبيلة إياد (الخس الإيادي).

3- هذا الاستشهاد الشّعري يُثبت وجود ذكر للشخصية قبل سبعة قرون من التّاريخ الذي تفترضه بعض الرّوايات المحلّية في المغرب العربي (القرن XVم).

1- تتمحور قصّة المحاكمة إلى القلمس حول الشّخصية "المشرقيّة" لابنة الخص، والتي تُعرف في المصادر القديمة باسم هند بنت الخص الإيادية، وتتلخّص تفاصيل هذه القصة وفقاً للمصادر فيما يلي:

1- أطراف النّزاع: جرت هذه المحاكمة بين هند (بنت الخص) وأخت لها تُدعى جومعة.

2- سبب المحاكمة: رفعت جومعة دعوى ضدّ أختها هند، وتشير المصادر إلى أن هذه المحاكمات كانت تندرج ضمن ما يُعرف عند العرب بـ "المفاخرات والمنافرات"، حيث كان النّاس يتحاكمون للفصل في مواطن الفخر والذكاء والفصاحة.

3- من هو القلمس؟: تحاكمت الأختان أمام قاضٍ عربي يُدعى "القلمس"، وهو في الأصل لقب كان يُطلق على حكام العرب الذين يقضون بين النّاس في مفاخراتهم ومنافراتهم.

4- نتيجة المحاكمة: أصدر القلمس حكماً لصالح هند (بنت الخص)، معترفاً بفضلها وفصاحتها على أختها.

5- الثّناء والشّعر: تقديراً لعدله وكرمه وفضله، قامت بنت الخص بمدح القلمس ببيت من الشّعر يُنسب إليها، وهو:

إِذَا اللّهُ جَازَى مُحْسِناً بِوَفَائِهِ***فَجَازَاكَ عَنِّي يَا قَلَمَّسُ بِالكَرَمِ

وفي رواية أخرى: "فليكافئْ عني بسخاءِ القَلَمَّسِ".

تُساق هذه القصة في المصادر التّاريخية كدليل على المكانة العالية التي حظيت بها ابنة الخص في الذاكرة العربيّة كواحدة من فصيحات العرب وسيدات الذكاء في الجاهلية، حيث كانت تدرك الحكام وتتحاكم إليهم، بل وتمدحهم بشعرها.

03- أهمّ المعالم العمرانية التي تنسب إلى بنت الخص:

تنسب المصادر التّاريخيّة والأسطورية للأميرة **مباركة بنت الخصّ** عدّة معالم عمرانية بارزة في الصّحراء الجزائريّة، تعكس تحويلها لنمط عيش قومها من البداوة إلى الاستقرار وبراعتها في الاستراتيجيّة الدّفاعيّة. وأهمّ هذه المعالم هي:

1. **قصر بنت الخصّ (عين العمارة):** يقع على بعد حوالي 5 كلم غرب منطقة بريزينة بولاية البيض. وهو مجمّع سكني متكامل شيدته في مكان استراتيجي يجمع بين البداوة والاستقرار بالقرب من منابع المياه. ويتميّز القصر بالمرافق التّالية: **خندق دفاعي** يحيط بالمجمع السّكني، **مخازن** مخصصة للسلاح والمؤن ودار مقر للإدارة، **مقصورات متعدّدة**، وقلعة، ومداخل تؤدي إلى بساتين النّخيل، واحة من النّخيل ومنبع ماء، ومقبرة قديمة ملحقة به.

2. **حصن منطقة القور:** هو حصن دفاعي منيع يقع في منطقة القور ببريزينة، ويشتهر بأنّه لا يمكن الوصول إليه إلّا من ممرّ واحد. ارتبط هذا الحصن بأسطورة صمودها الشّهيرة ضدّ حصار (السّلطان الأكحل/أبو الحسن المريني).

3. **قصر المنيعة:** شيدت مباركة قصرًا شامخًا فوق أعلى تلة بمدينة المنيعة، وهو مجمع معماري يضمّ قصرًا كبيرًا وقصورًا فرعيّة أخرى محاطة بأسوار دفاعيّة. يُعرف هذا القصر حالياً باسمها، وقد صُنّف ضمن التّراث الوطني الجزائري منذ عام 1995.

4. **ساقية بنت الخص:** تُنسب إليها آثار ساقية ماء طويلة كانت تستخدم لري الأراضي الفلاحية التي يشتغل فيها عمالها. وتذهب الأساطير الشعبيّة إلى أبعد من ذلك، فتزعم أنّها أمرت ببناء ساقيّة تصل حتى مكة المكرمة لضمان توفّر المياه للحجاج باستمرار.

5. **معالم أخرى:**

1. آثار وبقايا عمرانية في منطقة **جبل بونقطة**.
2. تأسيس مدينة في **أسبيح** بالقرب من مدينة البيض (Geryville) سابقاً.
3. منشآت على قمة **جبل أربوات** (أربى) بالقرب من عين العمري.

وعلى الرّغم من أن إمارة بنت الخصّ كانت ذات نمط اجتماعي بدوي في جوهرها، إلّا أنّ هذه الحصون والقصور بقيت كشواهد مادية على نفوذها وقدرتها القيادية في تسيير المنطقة.

04- منابع الحكمة في أقوال بنت الخص:

تستمدّ أقوال وحكم بنت الخصّ (سواء مباركة الهلالية أو هند الإيادية) قيمتها من كونها تجسيداً للفطرة السّليمة والحكمة الشعبيّة المستخلصة من تجارب الحياة اليوميّة في البيئة الصّحراوية والقبلية. وتتنوّع منابع هذه الحكمة لتشمل مجالات عمليّة واجتماعيّة وأخلاقيّة، يمكن تفصيلها كالآتي:

1/ الخبرة بالبيئة والنّشاط الاقتصادي (الفلاحة والماشية)

تُعد المعرفة العميقة بسبل العيش في الصّحراء من أهمّ مصادر حكمتها، وتتجلّى في:

1. **شؤون الفلاحة:** كانت تقدّم نصّائح دقيقة لرؤساء عمالها حول مواعيد الحراثة، مؤكّدة أنّها يجب إلّا تتجاوز أربعين يوماً؛ لأنّ الشّتاء شهران والثّالث جزء من الرّبيع. ومن أقوالها في هذا السّياق: "كل حصاد جميل، إلّا إذا حماها الله من الدّيون"، في إشارة لربط نجاح العمل بالاستقرار المادي.

2. **الخبرة (بالما)شية:** كانت مرجعاً في معرفة أصناف الخيول والإبل والماشية. فهي تصف الخيل المثالية وتلك التي لا تُباع ولا تُشترى (أفراس الفقراء التي لا تُنتج وأفراس الأغنياء التي لا تُباع). كما فضّلت الإبل واعتبرتها "دواب المحاربين، وفداء الدّماء، ومهر النّساء".

2/ الحكمة الاجتماعيّة والقيم الأخلاقيّة:

تركزت الكثير من أقوالها على تصنيف النّاس وبناء العلاقات الاجتماعيّة الرّشيدة:

1. **موجبات العزة والمهانة:** لخّصت بنت الخصّ مكارم الأخلاق ومساوئها في ثلاثيات شهيرة؛ فذكرت أنّ الأشياء التي (تحمّر الوجه/تجلب الفخر) هي: معرفة النّسب، ومعرفة بنات النّسب، والقناعة بالنصيب. أمّا ما (يصفر الوجه/يجلب الشّقاء أو العار) فهو: مشية الحفاء (المشي بلا حذاء)، ورقود القفاء (النّوم في الوديان)، والمرأة التّالفة (الجاهلة).

2. **مفهوم الكرم:** عندما جاء فرسان لطلب الضّيافة لوالدها الفقير، دبرت الأمر بحيلة ذكية وقالت لوالدها: "أليس الكرم أفضل ما في الوجود؟"، فأجابها بأن الكرم يظهر بما يجده المرء.

3. **التّعامل مع الآخرين:** قدمت نصّائح لابنها في السّلوك الاجتماعي، مثل قولها: "إذا دعوك فلا تطمع، وإذا طاردوك فلن يضبطوك"، وهي حكمة تدعو للتعفف واليقظة.

3/ الفراسة والذّكاء الفطري:

ارتبطت حكمتها بقدرتها على الملاحظة الدّقيقة والاستنتاج:

1. **تعريف الزّمن:** سألها والدها يوماً إن كان عدد اللّيالي أكثر من عدد الأيّام، فأجابت بأن اللّيالي أكثر؛ لأنّ اللّيالي المقمرّة تشبه الأيّام في نفعها وضيائها.

2. **الفراسة في الرّجال والنّساء:** قدمت أوصافاً دقيقة للرجل "السّيد المهيب" في مقابل "الأحمق المشاكس". كما وصفت "أفضل النّساء" بأنّها الكثيرة الإنجاب التي ترعى أطفالها وتدبر شؤون بيتها.

4/ التّربية والمكانة الأبوية:

تذكر المصادر أن أحد أهمّ منابع حكمتها هو ملازمتها لوالدها منذ نعومة أظافرها؛ حيث تعلمت منه شؤون الحكم والسّياسة وخبرة الحياة، ممّا جعلها حالة استثنائية في مجتمع قبلي يسيطر عليه الذّكور. تظل أقوال بنت الخص، ببساطة مضمونها ورقي أسلوبها، مرجعاً للتراث الشّفهي الذي يضرب به المثل في نشر العدالة الاجتماعيّة وإبداء النّصيحة وقدرة المرأة على القيادة في أقسى الظّروف.

05- فلسفة الحياة البدوية:

قدمت **بنت الخصّ** من خلال أقوالها وحكمها المأثورة **فلسفة عمليّة متكاملة للحياة البدوية**، لم تكن مجرّد تنظير بل كانت مستخلصة من "الفطرة السّليمة" وتجارب العيش في بيئة الصّحراء القاسية. تتجلّى هذه الفلسفة في عدّة محاور أساسيّة:

1/ فلسفة القيمة والرّزق (المفاضلة بين البداوة والاستقرار)

عكست أقوالها نظرة واقعية للثروة في الصّحراء؛ فبينما كان العرف البدوي يقدس الإبل، ربطت هي بين **الفلاحة (الاستقرار) والقدرة على الامتلاك**.

1. عندما قيل لها إن "الغني يملك الإبل لا المحاصيل"، ردت بأن الحصاد الوفير هو الذي يُمكّن المرء من شراء كلّ شيء، بما في ذلك الإبل.
2. وصفت **الإبل** بفلسفة نفعيّة حربيّة واجتماعيّة، فهي "دواب المحاربين، وفداء الدّماء، ومهر النّساء".
3. أما **النّخيل**، فاعتبرتها صمام الأمان وقت المجاعة لأنّها توفّر الرّزق الدّائم.

2/ الأخلاقيات والقيم الاجتماعيّة (فلسفة الوجوه):

لخصت بنت الخصّ فلسفتها في الكرامة والمهانة عبر ما يُعرف بـ **"ثلاثيات الوجوه"**، وهي قواعد سلوكية تحدّد مكانة الفرد في المجتمع البدوي.

1. **موجبات العزة (ما يحمّر الوجه):** معرفة النّسب، ومعرفة (بنات النّسب/اختيار الزّوجة الكريمة)، والقناعة بالنصيب.
2. **موجبات المهانة (ما يصفر الوجه):** (مشية الحفاء/التّبذل والمشي بلا حذاء)، و(رقود القفاء/النّوم في الوديان أو التّواكل)، و(المرأة التألّفة/التي لا تحسن تدبير بيتها).

3/ فلسفة "المرأة والقيادة" والذّكاء الاستراتيجي:

قدمت بنت الخصّ نموذجاً للمرأة التي تكسر "النّظام الأبوي" ليس بالتّمرد، بل بالتّفوق في الحكمة والحيلة.

1. **القيادة بالعدل:** اتسم حكمها بالعدل والمساواة، واستطاعت بذكائها أن تجعل الرّجال يقبلون بيعتها رغم طبيعة المجتمع الذّكورية.
2. **الحيلة الحربيّة:** تجلت فلسفتها الدّفاعيّة في حصار "السّلطان الأكحل"، حيث استخدمت **الخداع البصري** (نشر الغسيل المبلل وإطعام الماشية القمح) لإيهام العدوّ بالوفّرة، ممّا أثبت أن رجاحة العقل تهزم القوّة العسكريّة الغاشمة.

4/ فلسفة التّعامل مع الزّمن والطّبيعة:

كانت فلسفتها مرتبطة بالانسجام مع دورات الطّبيعة:

1. **إدارة الوقت الفلاحي:** وضعت قانوناً لرؤساء عمالها بأن "الحراثة يجب إلّا تستغرق أكثر من أربعين يوماً"، لأنّ الشّتاء شهران والثّالث جزء من الرّبيع، وأي تأخير يفسد المحصول.
2. **النّظرة الكونية:** رأت أن "اللّيالي أكثر من الأيّام"، لأنّ اللّيالي المقمرّة تُلحق بالنّهار في نفعها وضيائها.

5/ فلسفة "الإنسان المثالي" في البادية:

وضعت بنت الخصّ معايير دقيقة لمّا يجب أن يكون عليه الرّجل والأسرة.

1. **الرّجل المثالي:** هو "الذّكي، السّيد المهيب، المخلص الكريم". أمّا الأسوأ فهو "الأحمق المشاكس المهمّل النّسي، الذي لا يُخشى ولا يُطاع".

2. **المرأة المثالية:** هي التي "تملأ الأواني/كناية عن التّدبير) وتعتني ببيتها وتربي أطفالها.

بناءً على هذه المصادر، يتّضح أن بنت الخصّ لم تقدّم مجرّد أقوال، بل **دستوراً سلوكياً و اقتصادياً** يضمن البقاء والسّيادة في البيئة الصّحراوية.

06- الصّورة الإجماليّة لبنت الخصّ كما يقدّمها التّراث:

بناءً على التّراث الغني والصّفات التي أوردتها المصادر، يمكن رسم صورة متكاملة لشخصيّة **بنت الخصّ (مباركة)** تجمع بين الهيبة الجماليّة، والذّكاء الاستراتيجي، والسّيادة القيادية، وهي كالتّالي:

أ- المظهر الخارجي والسّمات الشّخصيّة: تصوّر بنت الخصّ كإنسانة تجمع بين **الجمال الفتان والذّكاء الحاد**. تصفها المصادر بأنّها كانت "جميلة وذكية"، وذات "أنوثة جذابة"، وشخصيّة قويّة تفيض "برجاحة العقل". وفي إحدى الرّوايات التي تصف المعايير المثالية للمرأة (والتي تُنسب إليها) تذكر صفات "بيضاء البشرة وجميلة الوجه" المنحدرة من عائلة شجاعة ونبيلة.

ب- الهيئة واللّباس: تظهر في مخيلة التّراث كأميرة صحراوية مهيبة، تكسر الصّورة النّمطية للمرأة في بيئة قبلية ذكورية. يمكن تصوّرها بـ **لباس عربي أصيل** يعكس مكانتها كابنة أمير وخليفته، ربما بلون أبيض ناصع يرمز للنّبل والطيّبة، وهي محاطة بهالة من "الحزم والقوّة منقطعة النّظير".

ج- الصّورة القيادية (المرأة الحاكمة): الصّورة الأنسب لها هي صورة **القائدة التي تقف فوق أعلى تلة في مدينة المنيعة**، حيث شيدت قصرها الشّامخ. تظهر هنا كـ "رمز للسلطة النّسائية"، تدير شؤون إمارتها التي امتدّت من أربوات إلى المنيعة.. هي الحاكمة التي وُصفت بأنّها "لا تدع مجالاً للظّلم" وتتّسم بالعدل والمساواة.

د- الصّورة الاستراتيجيّة (داهية الصّحراء): لا تكتمل صورتها دون مشهد **الصّمود والذّكاء العسكري**؛ فهي التي تقف على أسوار حصنها المنيع في "بريزينة" أثناء حصار السّلطان الأكحل. في هذه الصّورة، تظهر وهي تُدبر "حيلة القمح والغسيل المبلل"، حيث استخدمت دهاءها لإيهام العدوّ بالوفّرة والرّخاء. هذه اللّقطة تجسدها كبطلة شعبيّة "تجسد الفطرة السّليمة والحكمة الشعبيّة" التي تهزم القوّة العسكريّة الغاشمة بالعقل.

هـ- صورة الحكيمة (مرجع القوم): يمكن تصويرها أيضاً وهي **تلازم والدها "الخَص"** منذ نعومة أظافرها، تتعلم منه أمور الحكم وفنون الحياة. هي المرأة التي "تملأ الأواني/كناية عن الكرم والتّدبير) وتجلس كقاضية وفصيحة تفصل في مفاخرات العرب.

بنت الخصّ **أميرة الرّمال والحكمة"**؛ امرأة شامخة القامة، حادة النّظرات بفراسة نادرة، تقف أمام قصرها الحجري في بيئة صحراوية قاسية، تحمل في ملامحها رقة الجمال العربي وقسوة الصّمود الأسطوري، وتحيط بها هيبة القادة الذين صنعوا تاريخهم بأيديهم في قلب الصّحراء.

التّرجمة[1]:

حافظت تقاليد عرب الصّحراء الجزائريّة، المنحدرين من قبيلة بني هلال العظيمة، على ذكرى امرأة تُدعى أحيانًا بنت الخاصّ، وأحيانًا أخرى إمْبَارْكَة بنت الخص. تجسّد هذه المرأة الفطرة السّليمة والحكمة الشعبيّة، ونُسبت إليها العديد من الحكم والأقوال المأثورة التي تُفيد في الحياة اليوميّة. وقد أكسبتها براعتها شهرةً واسعةً، فجعلتها بطلةً لحيلةٍ بارعةٍ، خدعت بها عدوًا وكادت تُهلك خصومه. وأخيرًا رُوي عنها أنّها شيدت مباني لم يبقَ منها إلّا الأطلال. وتقول الأسطورة إن والدها كان فلاحًا كريمًا جدًا. وكان لها ابنة عم، ابنة بدوي يملك إبلًا. فقالت الأخيرة ذات يوم لبنت الخص: "الغني يملك الإبل، لا المحاصيل". أخبرت الفتاة الصّغيرة والدها بما قالته، فقال لها: "قولي لها:

الزّبَلْ يهبَّلْ،

إذا جاء، يجيبك ويجيب الْبَلْ (الإبل)."

(أي أنّ المحصول الوفير يُمكّن المرء من شراء كلّ شيء). وبالفعل، جاء حصاد وفير، فاشترى والد بنت الخصّ جميع إبل أخيها. وفي مرّة أخرى، تشاجرت بنت الخصّ مع ابن عمها، فقال لها: "والدي رجل شجاع، يقتل كلّ يوم عشرة رجال، فماذا فعل والدك؟" كرّرت بنت الخصّ هذه الكلمات لها. وفي أحد الأيّام، بينما كان في المنزل، جاءه خمسون فارسًا يطلبون منه الضّيافة. استقبلهم، وأسكنهم، وسلبهم بنادقهم (كذا) التي أعطاها لابنته قائلا لها: اذهبي وأريها لابنة عمكِ، وقولي لها: هل سبق لأبيكِ أن أحضر مثل هذه الغنائم؟ صمتت ابنة العم أمام هذا السّؤال، واضطرت للاعتراف بتفوق عمّها.

في القصص السّابقة، كانت الحكمة من نصيب والد بنت الخص؛ أمّا في القصص اللاحقة، فقد تميزت هي بذكائها. سألها والدها ذات يوم: هل عدد اللّيالي أكثر من عدد الأيّام؟ أجابت: عدد الأيّام أكثر من عدد اللّيالي. ولماذا؟ لأنّ اللّيالي المقمرّة تشبه الأيّام.

وفي مرّة أخرى، قالت لوالدها: هناك ثلاثة أشياء تُصفِّر الوجه، وثلاثة أشياء تُحمِّرُهُ [2]. ما هي الأشياء التي تُصفر الوجه؟: المشي حافيًا، وحمل الأثقال، والزّوجة التّالفة (التي لا يعرف لها أصل). وما هي الأشياء التي تُحمر الوجه؟: معرفة النّسب، ومعرفة بنات الحسب، والقناعة بما لدى المرء [3]. وفي أحد الأيّام، بينما كانت مع والدها، قالت له: "الْجُودْ مِنَ الوُجُودْ". فأجاب: "الْجُودْ أَعْظَمْ".

1- أودّ أن أشكر هنا اثنين من طلابي السّابقين، السّيد بل، مدير مدرسة تلمسان، والسّيد محمّد بن شنب، الأستاذ في مدرسة الجزائر، اللّذين زوداني بالعديد من الوثائق التي استخدمتها في هذه الدّراسة.

2- وعن الأمثال المشابهة التي تأتي فيها الأشياء ثلاثا، انظر محمّد بن شنب، أمثال العرب في الجزائر والمغرب، المجلّد 1، ص11. 1، باريس، 1905، في -8"، الأمثال 538-544، ص167-169.

3- قالت ثْلاَثَه يْصَفْرُوا الْوجَهْ، وثْلاَثَه يْحَمُروا الْوُجْهْ.

قالْ لْهَا أمَا هُمَا الثّلاَثَه إلِي يْصَفْرُوا الْوُجُهْ؟

قالت لَهْ:

مَشْيَةْ الحفَّه (المشي محتفيا أي من دون حذاء)

وزْفُودْ القُفّة.

جاء فرسان لطلب الضّيافة. ولأنّ والدها كان فقيراً، اختبأ. فقالت له ابنته: اذهب إلى ضيوفك ولا تخف. فخرج للقائهم، ورحب بهم في بيته، وأجلسهم. وفي هذه الأثناء، ذهبت بنت الخصّ لتأخذ سنابل القمح من أكياس الإبل الممتلئة بها. واستخدمتها لإعداد الكسكس لضيوفها. ولمّا انتهوا من الطّعام، قالت لأبيها: أليس الكرم أفضل (مَا شِي أعظم؟). ففهم التّلميح وأجابها: الكرم يظهر بما يجده المرء. وبينما كانت تمشي مع أبيها، قالت له وهما يمران قرب حقل قمح: محصول جميل! عسى أن يدافع عنه صاحبه! فسألها أبوها: لماذا؟ هل نضج هذا المحصول؟ قالت: إلّا إذا حماه من الدّيون [1]. ويُنسب إليها أيضاً هذا القول عن الزّراعة: كلّ الثّمار المبكّرة جيدة. إلّا القمح والشّعير، لا أدري [2].

ولمّا حان وقت زواجها. وفي أحد أيّام الرّبيع، ذهبت في نزهة مع أبيها في الحقول. وكان طول الشّعير الأخضر ذراعا: أُمطر ليلا. قالت لأبيها: باتت الأرض مع فحلها (لَرْضْ بَايْتَه مع فَحْلْهَا) وفهم أن ابنته، التي كانت حتى ذلك الحين معادية للزّواج، قررت أن تقبل زوجا، ولم يحفظ لنا التّراث شيئا عن هذا الزّوج، ولا حتى اسمَهُ، لكنّه يخبرنا أن بنت الخصّ كان لها ابن لم تدخر له حكمة اشتهرت بها، وعندما كان يستعد ليمتطي جواده ليذهب للصيد أو للرّحلة، تقول له: أفطر يا ولدي صباحا. إذا دعوك (في الطّريق) فلا تطمع، وإذا طاردوك فلن يضيطوك [3].

في أحد الأيّام، طلب منها مالًا لشراء بعض الخيول. فقالت له: "أي نوع من الخيول ستشتري؟" فأجاب: "سأشتري حصانًا عاديًا، مؤخرته مبطنة تحت أغطية السّرج، لا ينظر ولا يسمع، يُطعم بكيس ويُغطى بخيش." فأجابته: "من المستحيل بيع مثل هذا الحصان في السّوق؛ فأفراس الفقراء لا تُنتجه والأغنياء لا يبيعونه"[4].

والمْرَأة التّالْفَة.

قال لْهَا أمّا هُمَا الثّلاَثَه إلْي يْحَمْرُوا الْوَجَهْ؟ قالت لَهْ:

إلْي يَعْرَفْ النّسَبْ، ولْي يَعْرَفْ بْنَاتْ النّسَبْ

ولْي يَقْنَعْ بالنّصّيبْ اللّي يَكْسَبْ.

1- قالت مَزْيَنْهَ فْلاَحَه لاَ مْنَعْهَا مُولاَهَا. قَالْ ابُوَه عْلاَشْ هَذِ الْفَلاَحَه راهي واجْدَه؟ قالت لَهْ لَا مْنَعْهَا مْنَ الدّينْ.

2- كلْ شِي مْنَ البَكْرِي مليح، غِيرْ القَمْحْ والزّرَعْ لا أَدْرِي.

3- أَفْطَرْ يا وَلْيِدِي مْعَ الصّبَاحْ. لَعَرْضُوكْ ما تَسْخَف، ولَطَرْدُوكْ ما يَقَبْضُوكْ.

4- قالت لَهْ آشْ تشري مْنَ الْخَيْلْ؟ قَالْ لْهَا

نَشْرِى شِي فَاشِي

ألْي يْكُونْ كَفْلَهْ تَحْتْ الطّرْحَهْ مَحْشِي.

عَيْنَهْ مَا تْشُوفْ شِي.

وَاذْنَهْ مَا تَسْمَعْ شِي.

عَمَارَه تَعَشّيهْ

وَغْرَارَه تغطّيهْ.

قالت مُحَالْ يدخلوه للسرق.

عَوْداتْ المزاليط مَا تْجِيبَهْ شِي. (عودات المزاليط= خيول الفقراء)

والغَانِي مَا يْبِيعَهْ شِي.

أعطت نفس الإجابة لابنها الذي طلب منها مالًا لشراء بعض الثّيران. فسالتّه: "أي منها تريد أن تشتري؟" فأجاب: "أحمر داكن، أو أسود غامق، أو رمادي بشفاه بيضاء." فأجابته قائلة: "لا يُباع مثل هذا في السّوق: فأبقار الفقراء لا تُنتجه، والأغنياء لا يبيعونه ([1]). هذا الابن، الذي لم يُعرف اسمه، نال ثناء أمه، فقالت عنه: (ابني دائمًا على قدميه؛ لا يأكل في اللّيلة التي يكون عنده ضيوف؛ ولا ينام في اللّيلة التي يكون فيها خائفًا). [2]

ونذكر كذلك حكما أخرى لبنت الخص:

(سلطاني (نقد ذهبي) في اليد خير من عشرة أُنْفِقَتْ). [3]

(أنهض في الصّباح، ستنجز ما عليك فعله، واستمع لمّا تقوله الطّالع). [4]

(زوج ابنتك قبل الصّيام (قبل أن تبلغ سن الصّيام)؛ فلن يغتابها أحد). [5]

-عن تلمسان.

سلمي على أهل تلمسان وقولي لهم:

في «حِكَم سيدي عبد الرّحمن المجذوب» (SIC) (باريس، 1886، IN-12، ص.88)، يورد السّيد دو كاستري مقولةً لبنت الخَصّ عن الخيل، لكنّها مُخْتَلِفة: يا بائعَ القمح، ماذا ستشتري؟ سأشتري خيلًا. فاشترِ منها، ولكن عددًا قليلًا؛ فعلى ظهورها يُسرع المرء في السّير، أمّا بطونها فمُكْلِفةٌ إلى حدّ الخراب...

ملاحظة ترجميّة: عبارة LEURS VENTRES SONT RUINEUX ليست وصفًا حرفيًا لبطون الخيل، بل كناية عن **غلاء نفقتها وكثرة ما تستهلكه من علف**؛ لذلك ترجمتُها بـ«بطونها مُكْلِفةٌ إلى حدّ الخراب» حفاظًا على الصّورة السّاخرة في الأصل. أمّا SIC فأبقيتُها كما هي، لأنّها علامة المؤلّف على أن الصّيغة أو الاسم منقول كما ورد في المصدر، ولو كان فيه ما يستدعي الاستغراب.

1- قالت له إش تَشْرِي مَنْ بَقْرِي؟ قالْ لْهَا:

أَحْمَرْ بَرْقُوقْ.

وَاكْحَلْ مَغْلُوقْ.

وَلَزْرَقْ بَيضْ الشّوَارَبْ.

قالت لَهْ: هَاذُو مَا يْجِيبُهْمْشِ للسُّوقْ.

بَقْرَةْ المزاليطْ مَا تُولَدْهُمْ شِي.

وَالْغَانِي مَا يْبِيعْهُمْ شِي.

يورد السّيد دو كاستري (المرجع المذكور، ص.8) مثلًا عن الإبل: يا بائعَ القمح، ماذا ستشتري؟ سأشتري إبلًا. فقالت: اشترِ منها كثيرًا؛ فظهورها قوية، ولبنها كنز. ستحملك من أرض المهانة، وتضعك في أرض التّقدير. المقصود ببلاد المهانة وبلاد الاعتبار مجازا: الانتقال من الوضاعة أو المهانة إلى العزّة والاعتبار. أمّا ظهورهم القوية فتّشير إلى قوّة الإبل وقدرتها على الحمل والسّفر، وحليبهم كنز إلى قيمة لبنها وفائدته.

2- وَلْدي عَكَّافْ.

مَا يَتْعَشَاشِي لَيْلَةْ الضّيَافْ.

وَمَا يَرْقُدْشِي لَيْلَةْ اللّي يَخَافْ.

3- سُلْطَانِي في الكفْ

خَيْرْ مَنْ عَشْرَه في التّلَفْ.

4- بَكَّرْ لْحَاجْتَكْ تَقْضِيهَا

وتْصَنَّتْ ما يْقُولْ الْفَالْ

5- بَنْتَكْ قَبْلْ الصّوْمْ أَعْطِيهَا

لا يَخْلَقْ فيها قَوْلَةْ قَالْ (قَوْلْ ولا قَالْ)

ربيعهم هو شتاؤهم.

فليعتنوا بدهونهم ولحومهمّ المحفوظة [1].

عندما يحين وقت الحراثة، كانت تقول لرؤساء عمالها: يجب إلّا تستغرق الحراثة أكثر من أربعين يومًا؛ أسرعوا حتى لا تحرثوا لمدّة ثلاثة أشهر. لماذا؟ لأنّ الشّتاء يدوم شهرين والشّهر الثّالث جزء من الرّبيع (الْمَشْتَا فيها شَهْرَيْنْ والثّالث مْقَبَّلْ). وللمزارعين الآخرين الذين يسألون عن معلومات، كانت تجيب: لديكم متّسع من الوقت؛ الشّتاء يدوم ثلاثة أشهر.

وبسبب هذه الحكمة التي تعزى لها، نُسب إليها ابتكار استراتيجيّة حربيّة موجودة بشكل مختلف في تقاليد العديد من الشّعوب. تكون المدينة المحاصرة على وشك استنفاد مواردها، الهدف هو تثبيط عزيمة المحاصِر وإيهامه بوجود وفّرة من الطّعام والماء [2]. أحيانًا، يُساق ثور أو عجل أو ماعز أو خنزير، أُطعم بما تبقى من الحبوب، إلى معسكر العدوّ [3]. أحيانًا يعرض لعيني جاسوس أو مفاوض على أكوامٍ من الرّمل مغطاة بطبقة رقيقة من القمح، أو موائد مكدّسة بالطّعام [4]؛ أو مرّة أخرى، أرغفة الخبز التي تُلقى فوق الأسوار [1].

1- سَلْمُوا (سَلَّمْ) عَلَى نَاسْ تْلَمْسَانْ.

وْقُولْ لْهُمْ: رْبِيعْهُمْ هِيَ مَشْتَتْهُمْ.

يَحْضِيوْا سَمْنْهُمْ وَخْلِيعْهُمْ.

2- انظر: بيتريه، «حيلة حربيّة أسطورية عند حصار المدن»، مجلّة علم الفولكلور، المجلّد 11، لايبزيغ، 1889، في 8، ص.97-102؛ زينغاريلي، «حِيَل أسطورية لمدن محاصَرة»، أرشيف التّقاليد الشّعبية، المجلّد 22، باليرمو، في 8؛ بيتريه، «حِيَل أسطورية لمدن محاصَرة»، باليرمو، 1904، في 8؛ نفسه، (الأسطورة.) وCf. في المراجع الأكاديمية تعني (انظر) أو (راجع)، بينما ID. اختصار لاتيني لـIDEM، أي (نفس المؤلّف).

3- انظر: فيما يتعلّق بحصار تلمسان، أسطورة لالّة سِتّي (E. de Lorral)، «تلمسان»، في «جولة حول العالم»، 1875، النّصف الثّاني من السّنة، ص.308)، أو، بحسب روايات أخرى، أسطورة عجوز تُدعى عائشة (Guiter)، «مسجد المنصورة وحصار تلمسان»، «المجلّة الأفريقيّة»، (المجلّد الرّابع، 1859-1860، الجزائر، 1860، في 8، ص.312-313)، أو أسطورة قلعة روسيون المحاصَرة من قِبل الوندال (P. Meyer، «أسطورة جيرار دو روسيون»، الرّواية اللّاتينية، § 140-115، «رومانيا»، (المجلّد السّادس، 1878، ص.196-198)، أو أسطورة التّراقيين الذين بلغوا أقصى درجات الضّيق (فرونتين، «الحِيَل الحربيّة»، الكتاب الثّالث، الفصل الخامس عشر، § 5)، أو أسطورة سكّان الإسكندرية الذين اشتدّ عليهم حصار فريدريك بربروسا (Jachino، «كتاب الصّليب»، نقلاً عن بيتريه، «دراسات»، ص. (84)، أو أسطورة الكونت أتون والملكة أَدِلهايد؛ والأمر هنا يتعلّق بقرد Pitré)، (المرجع المذكور)، أو أسطورة الكونتيسة ماتيلد، المحبوسة في كانوسا (Ferraro)، «الأسطورة الشّمسية لجيوفا بيستور»، نقلاً عن بيتريه، المرجع المذكور، ص.185)، أو أسطورة امرأة من مدينة كاركاسون، التي حاصرها شارلمان (Pitré)، المرجع المذكور، ص.185.

ملاحظة: في هذا الموضع، **.Cl** هي على الأرجح صورة مشوَّهة في النّسخ الرّقمية للاختصار الفرنسي **.Cf**، أي: «انظر/راجع». أمّا (suivant d'autres) فتعني: «بحسب روايات أخرى»، وهي مهمّة هنا لأنّ المؤلّف يعرض أكثر من رواية لتعيين المرأة المرتبطة بأسطورة حصار تلمسان.

4- وانظر، فيما يتعلّق بميلِت المحاصَرة من قِبل أليانّس، ملك ليديا، حيلةَ تراسيبولوس (هيرودوت، الكتاب الأول، 19-22؛ فرونتين، «الحِيَل الحربيّة»، الكتاب الثّالث، الفصل الخامس عشر، § 6)، أو حيلةَ بياس (ديوجين لايرتيوس، الكتاب الأول، 83)، أو حيلةَ ميغدونيوس (بوليان، «الحِيَل الحربيّة»، VII، 36، ص.316-347، طبعة ميلبر، لايبزيغ، 1887، في 12)، أو حيلةَ مانويل كومنين، الذي حاصره بارداس سكليروس (يوحنا سكيليتزيس، نقلاً عن شلومبرغر، «الملحمة البيزنطية»، باريس، 1896، في 8، ص.392)، أو حيلةَ أهل كاسترو-جيوفاني، الذين حاصرهم الكونت النّورماني روجر (Vetri، نقلاً عن بيتريه، «دراسات»، ص.173).

حيلة مماثلة هي التي أنقذت سكّان القليعة؛ زُعِم أنّ الطّوارق حاصروا القليعة لمدّة سبع سنوات وكانوا مصممين على الاستيلاء عليها عن طريق التّجويع. بدأت المؤن بالفعل بالنّفاد، لكن حيلة أنقذت المحاصرين. في صباح أحد الأيّام، رأى الطّوارق جدران السّاحات مُغطاة ببرانيس بيضاء مغسولة حديثًا تُجفّف في الشّمس؛ إذًا المدينة لا تشكو من قلة الماء. [2] في اللّيلة التّالية، أضاءت نيران كبيرة مُشعلة في أماكن متفرقة، إذا المدينة لا تنقصها الأواني. في اليوم التّالي، وجدوا، تحت الجدران وقرب أبواب المخيّم كعكات من الدّقيق النّاعم والتّمر والكسكس، وهي آخر الموارد التي ابتلعها المحاصَرون كقرابين لإيهام النّاس بالوفرة. صدّق الطّوارق ذلك وانسحبوا[3].

لم يُذكر اسم بنت الخصّ، لكن سمعتها بامتلاك الحكمة كانت راسخة لدى الأهالي، إلى درجة لا يمكن تجاهلها، ما دفعهم إلى تكريمها بنسبة حيلة لها انتشرت في أساطير الصّحراء. يُقال أن أمْبَارِكَة بنت الخصّ حوصرت على الضّفة اليسرى لواد سجّار جنوب قصر بريزينا، حاصرها سلطان الغرب الذي رفضت عروضه، والذي كان يأمل في الاستيلاء عليها بحرمانها من الماء. لكنّه رأى ذات يوم نساء المحاصرين ينشرن الغسيل المبلل في الشّمس ليجف، فظنّ أنّهنّ يشربن الكثير من الماء، فرفع الحصار، مخدوعًا بحيلة أمْبَارْكَة [4].

إننا نرى أن بنت الخصّ أصبحت فيما بعد تُعتبر حاكمة قبيلتها. تروي روايةٌ لاحقةٌ للأسطورة أنّها كانت ابنة ملك عربي. هذا الملك، بعد أن طعن في السّن ولم يعدّ قادرًا على الوقوف، واضطرّ إلى أنّ يُحمل في محملٍ، ترك كلّ السّلطة لابنته، التي كان رعاياها يُقدّرون حكمتها. وبناءً على ذلك، نُسب إليها تأسيس

ملاحظة: حافظتُ على تسلسل الأمثلة كما أورده المؤلّف. وعبارة (la ruse de Thrasybule) تعني هنا (حيلة تراسيبولوس) أو «خدعة تراسيبولوس»، وهي حيلة حربيّة مرتبطة بحصار مدينة **ميلِت** من قِبل ألياتّس، ملك ليديا. أمّا (bloqué par)؛ فالمعنى الأدق في السّياق العسكري هو «حاصره» أو «ضيّق عليه الخناق»).

1- مثل الرّومان الذين حاصرهم الغال في الكابيتول (تيتوس ليفيوس)، الكتاب الخامس، الفصل 48؛ أوفيد، «الأعياد»؛ يوتروبيوس، «التّاريخ الرّوماني»، الكتاب الأول، § 13؛ فرونتين، «الحِيَل الحربيّة»، الكتاب الثّالث، الفصل الخامس عشر، § 1 وكذلك الحكاية التي أدرجها فرانشيسكو دِل تُوبّو في كتابه «إيسوب»، الحكاية الحادية والثّلاثون وهي غير موجودة في «إيسوبو دي فرانشيسكو دِل تُوبّو» المنشور بتحقيق C. de Lallis، فلورنسا، 1886، في 8. وانظر: G. Rus، «بعض الحكايات المُدرجة في إيسوب فرانشيسكو دِل تُوبّو»، تورينو، 1880، في 8، ص.12.

2- استُعملت هذه الحيلة الحربيّة بالفعل من قِبَل يوسيفوس، بحسب شهادته هو نفسه، حين كان يدافع عن يُوتاباتا في مواجهة فسبازيان؛ إذ أراد أن يوهم الرّومان بأن المدينة كانت مزوَّدة بالماء، فأمر بتعليق ثيابٍ مبلَّلة على شُرَف الأسوار، كما لو كانت تُنشر لتجفّ (يوسيفوس، حرب اليهود، الكتاب الثّالث، الفصل الثّالث عشر).

3- دوما، الصّحراء الجزائريّة، باريس، 1845، في 8، ص.318-319.

4- ترومليه، الفرنسيون في الصّحراء، باريس، 1863، في 18 يسوعي، ص.213-214؛ دو كولومب، استكشاف قصور صحراء ولاية وهران، باريس، 1858، في 8، ص.54-54. ومن هذا المصدر استقى السّيد هوغ لو رو موضوعَ حكايةٍ أدرجها في كتابه **في** الصّحراء (باريس، دون تاريخ [1891]، في 18 يسوعي، ص.136-144)، وزيّنها، مع إطنابٍ فيها، بأبياتٍ لشعراء عرب قدامى اقتبسها من كتابي الشّعر العربي **في** العصر الجاهلي (باريس، 1830، في 18)، ووضعها على السّنة مغنّي السّلطان الأسود. وانظر مقالي عن أغنية شعبية عربية مزعومة، «مجلّة التّقاليد الشّعبية»، المجلّد السّابع، باريس، 1892، في 8، ص.219-222. وتروي الرّواية الشّعبية، من جهة أخرى، أن بنت الخَصّ عاشت في زمن السّلطان الأسود لتلمسان (sic)، الذي كانت في حرب معه. وانظر، بشأن هذه الشّخصية، الملحق الرّابع من كتابي ندرومة والتّرارَة، باريس، 1901، في 8، ص.204-211.

مدينة في أسبيح، بالقرب من البَيَّض (Geryville) (على قمة جبل أربى، عند عين العمري)، وأخيرًا، منشآت عجز البدو عن ترميمها، فضلاً عن قدرتهم على بنائها [1]. وهكذا، تقع السّاقيّة جنوب شرق ليوى، موازيةً لمجرى نهر جدّي. وهي الآن مدمّرة، ولكن يبدو أن لها أصلًا رومانيًا.

في حقبة غابرة، وفقًا للتّرجمة، حكمت العربَ امرأةٌ تُدعى بنت الخص: وقد اضطرت في كثير من الأحيان إلى القتال ضدّ رعاياها الذين لم يرغبوا في الاعتراف بسيادة المرأة. ولإضفاء جوّمن البهجة في أعينهم، ولتعزيز مكانتها لديهم، أمرت بنت الخصّ ببناء ساقية طويلة إلى غاية مكة، حتى يتمّكن الحجاج من الحصول على الماء باستمرار[2].

في أي فترة زمنيّة يمكننا تحديد الوجود الظّاهر لهذه البطلة الأسطورية، حتى في التّراث الجزائري؟ يخبرنا السّيد دي كاستريس (M. De Castries)، دون الاستشهاد بأيّ مصادر، أنّ أمْبَارْكه بنت الخصّ (bent el Khâss) هي امرأة مشهورة من قبيلة بني عامر، عاشت في صحراء وهران في القرن XVم [3]. لكن تسمح لنا معرفة الأدب العربي الكلاسيكي بالعودة إلى الوراء بذلك: فقد ذُكر وجود بنت الخص، دون أن يكون ذلك مؤكّدا على الإطلاق، من قبل مؤلّفين قبل القرن XVم، وهذا دليل إضافي على أنّه لا يمكن دراسة الفولكلور العربي للمغرب العربي بشكل جاد وكامل دون معرفة كافية بالأدب القديم.

فأوّل ذكر لها ورد في بيت شعر للشّاعر الفرزدق، المولود في السّنة العشرين للهجرة (641 م) والمتوفى حوالي عام 110 (728 م)، أي قبل سبعة قرون من التّاريخ المفترض أعلاه:

وَفَيتَ بِعَهدٍ كانَ مِنكَ تَكَرُّماً***كَما لِإبنَةِ الخَسِّ الإيادِيِّ وَفَت هِندُ[4]

وقد اعتقد بعض المعلّقين أن هند المقصودة هنا هي ابنة آخر ملوك حراء، النّعمان، لكن هذا الرّأي يُدحضه أبن نوباتة، الذي يرى، على نحو معقول، في هذه الهند (وهو اسم شائع جدًا في الجزيرة العربيّة القديمة) امرأة أخرى غير أميرة حراء [5]. في الشّرق، تُدعى هند، ويُقال أنّ لها أختًا تُدعى جومعة، رفعت دعوى ضدّها أمام قاضٍ عربي، يدعى القَلَمّس. وقد أصدر حُكمًا لصالحها، إذا صدقنا بيتًا شعريًا يُنسب إلى بنت الخص.

إذا كافأ اللّه الرّجل الصّالح على أمانته***فليكافئ عني بسخاء القَلَمْسَ[6]

1- إذا سالتّ عمّن أمر بحفر آبار تِلْجة، وأشيا، وزِرارة، وتَقير، وغيرها كثير من الآبار المتناثرة في **الأعراق**، والتي تدلّ على أنّ عنايةً مستنيرةً وقوّة مقتدرةً كانتا، في سالف الزّمان، تمتدّان إلى هذا البلد المتروك من عناية اللّه، أجابك الرّاعي دائمًا: بنت الخَص.وليس لديه من العلم أكثر من ذلك (دو كولومب، المرجع المذكور).

2- تقرير الملازم فِرديبه، منقولًا عن جِسِل، تحقيق إداري في المنشآت المائية التي أقامها القدماء في الجزائر، باريس، 1902، في 8، ص.124-125.

3- حِكَم سيدي عبد الرّحمن المجذوب. ص.8-7، الحاشية 4.

4- القراءة المعتمدة في المشرق هي الخُسّ، وفي المغرب الخَسّ، غير أنّ إحداهمّا ليست أوثق من الأخرى. ويورد ابن الأعرابي في كتابه النّوادر، الذي نقل عنه أبو زيد في كتاب النّوادر (بيروت، 1894، في 8، ص.250)، الصّيغ الآتية: الأخَسّ، الخَسْف، الخُصّ، الخَسّ.

5- انظر: ابن نُباتة، شرح العيون، بولاق، 1278هـ، في 4، ص.222.

6- إذا اللّهُ جازَى مُحْسِناً بِوَفائِهِ ... فَجازاكَ عَنّي يا قَلَمْسُ بِالكَرَمِ.

نرى أن والدها يُدعى في كلّ مكان باسم الخوس (أو الخص)، بينما يُطلق عليه ابن العربي اسم الخوس بن جابر بن قريط الإيادي، ومن هنا جاء لقب الإيادية الذي حملته ابنته. لكن قائمة أسلاف بنت الخوس هذه غير معروفة لعالمي الأنساب مثل ابن دريد [1] وابن قتيبة [2]. يذكر الأخير قريطًا واحدًا فقط وهو شقيق قرط بن أبي بكر، ويتتبع نسبه عبر كلاب، وهوازن، ونزار إلى "عدنان، جد العرب"، بينما كان عياض، الذي يُقال أنّ الخوس تنحدر منه، شقيق نزار. لا يمكن إذن أن يكون قريط -الذي ذكره ابن قتيبة- سلفًا لبنت الخس [3]. علاوة على ذلك، هل لهذا التّعيين بالإيادية أي قيمة؟ لا أعتقد ذلك، ويبدو أنّ المؤلّفين العرب قد شاركوا هذا الرّأي، إذ يعتبر بعضهم بنت الخصّ من العمّالقة الذين ينحدرون من بقايا قوم عاد، ممّا يعيدنا إلى أزمنة أسطورية [4] ويقودنا إلى الاعتقاد بأنّها **لم توجد قط، لا في الجزيرة العربيّة ولا في جنوب الجزائر.** ولكن في الشّرق، كما في الغرب، تتطابق السّمات المميزة لأسطورتها، وتتّسم الحكم النّثرية المقفاة المنسوبة إليها بنفس الطّابع المميز.

وقد طُلب منها إبداء رأيها في الخيول، الإبل، والزّواج، وأقوالها تشترك جميعها في سمة واحدة: بساطة المضمون ورقي الأسلوب [5]. سُئلت: "أي الرّجال تفضّلين؟" فأجابت: "الرّجل المتسامح الكريم المحسن اللّامع، الماهر الذّكي، السّيد المهيب." "هل يوجد من هو أفضل منه؟" "الرّجل الرّشيق الأنيق المتكبّر المهذّب، المحسن المبذّر، الذي يُخشى ولا يَخشى." "وأي رجل هو الأكثر كراهيّة في رأيك؟" "الرّجل الكسول النّعسان، الذي يُلقي بالمسؤوليّات على غيره، اللّامبالي ضعيف الإرادة، الحقير المذموم." "وهل يوجد من هو أسوأ منه؟" "الأحمق المشاكس، المهمل المنسي، الذي لا يُخشى ولا يُطاع."

وسُئلت أيضًا: "أي امرأة تفضّلين في رأيك؟" أولئك البيضاوات العطرات... وأكثر من يثير الاستياء [6]. (قالت): التي تصمت إذا أردتَ أن تجعلها تتكلّم، وتتكلّم إذا أردتَ إسكاتها [1].

ورد هذا البيت في ثنايا شرح ابن نباتة المصري عند ترجمته لـ "ابنة الخس"، وهي من فصيحات العرب وسيدات الذكاء في الجاهلية. وذكر أنّها أدركت "القلمس" (وهو لقب لحَكَم من حكام العرب كان يحكم بين النّاس في مفاخراتهم ومنافراتهم)، فتحاكمت هي وأختها إليه، ومدحته بهذا البيت اعترافاً بفضله وكرمه.

1- كتاب الاشتقاق، تحقيق وُستنفلد، غوتنغن، 1854، في 8.

2- كتاب المعارف، تحقيق وُستنفلد، غوتنغن، 1850، في 8.

3- وأضيف أنّه، بحسب تاج العروس، الذي ينقل عن ابن دريد (مادة: س. ولـ) كان هناك أيضًا اثنان آخران من **إياد:** أحدهما ابن **نزار**، ولكن لا يمكن عَدُّه من الأجداد المباشرين لقريش التي تنتسب إلى أخيه مُضَر؛ والآخر ابن سعود بن الحَجّار بن عَمْر. ويشير بيتٌ لداود الإيادي إلى وجود الأول: في فُتُوّ حُسْنٍ أوجهُهمْ***من إيادِ بنِ نزارِ بنِ مُضَرِ (بين فتيانٍ ذوي وجوهٍ حسنة، من إياد بن نزار بن مُضَر).
ويمكن افتراض أن هذه الصّفة تنطبق على أحد أفراد قبيلة بني إياد التي استقرّت في سِنْداد، وحاربت كِسرى أبرويز، ملك فارس، وشاركت في معركة ذي قار، وأرسلت وفدًا إلى النّبي ﷺ (انظر: نولدكه، تاريخ الفرس والعرب، ليدن، 1879، في 8، ص.237 والحاشية)؛ لكن لا شيء يبرّر هذه الفرضيّة.

4- ابن الأعرابي، النّوادر، نقلاً عن السّيوطي، مزهر العلوم، القاهرة، 1282هـ، مجلّدان في 8، ج. 2، ص.270؛ أبو زيد، النّوادر، ص.250.

5- وقد ترجم بيرون الأجوبةَ التي أوردها السّيوطي في المزهر العلوم، في كتابه: نساء العرب قبل الإسلام ومنذ ظهوره، باريس والجزائر، 1858، في 8، ص.43-46، من غير أن يبيّن مصادرها، وبقدر من الحرّية في التّرجمة أدّى إلى كثير من الأخطاء في نقل المعنى، وإن كان ذلك لا يعفيه منها.

6- هذه الكلمات ساقطة من طبعة النّصّ العربي للسيوطي، وهي، كما هو واضح، ناقصة. وقد استدركتُ هذا السّقط اعتمادًا على بيرون.

ذهب رجل إلى بنت الخصّ ليستشيرها بشأن المرأة التي يجب أن يتزوّجها. قالت له: ابحث عنها، امرأة بيضاء البشرة وجميلة الوجه، من عائلة شجاعة، أو من عائلة نبيلة، أو من عائلة ذات نفوذ. فأضاف: ألم تستبعدي أي نوع من النّساء؟ (قالت): بلى، لقد استبعدت أسوأهن جميعًا، السّمراء البشرة، المريضة دائمًا، ذات الحيض الطّويل، كثيرة الشّجار [2]. سُئلت بنت الخص: أي امرأة هي الأجدر؟ فأجابت: التي تبقى في فناء منزلها، والتي تملأ الأواني، والتي تخلط الماء بالحليب في الجلد. (وسئلت): وأي امرأة هي الأكثر احتقارًا؟ (قالت): التي تثير الغبار عندما تمشي، والتي لها صوت حاد عندما تتكلّم، والتي تحمل فتاة بين ذراعيها، والتي تتبعها أخرى وهي حامل بثالثٍ. و(سئلت): أي شاب أفضل؟ (قالت): الشّاب ذو السّاقين الطّويلتين والعنق الطّويل، الذي نشأ بلا ضغينة. و(قيل لها): وأيهن أحقر؟ (قالت): التي لها رقبة غائرة وذراعان قصيرتان، وبطن ضخم، ومغطاة بالغبار، وثيابها ممزقة. تُطيع أمّها وتتمرّد على عمّها [3].

وكما هو الحال في تقاليد الصّحراء، يُستشار أمرها بشأن شراء الحيوانات الأليفة. أراد والدها شراء فحل لقطيعه من الجمال، فقال لها: أخبريني كيف أشتريه؟ فأجابت: اشترِ من له خدًا سفليًا بارزًا وخدودًا ناعمة، وعيونًا غائرة، وفّرجًا سميكًا، وبطنًا متناسقًا، طويل القامة، كريمًا جدًا، ويرفس عند ضربه بالعصا، ويُطيل رأسه عند تحميله بالكامل [4].

يبدو أنّ الجمال كانت المفضّلة لديها، وهو أمر ليس غريبًا بين البدو، بالنّظر إلى الإجابات المنسوبة إليها: أي جمل هو الأكثر نشاطًا؟ قالت: "أنّه الجمل الذي يأكل أثناء المشي، وعيناه تلمعان كعيون شخص مصاب بالحمى. و(سئلت): أيّ الجملين أفضل؟ (قالت): الفحل الضّخم، القوي، المعتاد على السّفر النّشيط. و(سئلت): أيّهما أقلّ قيمة؟ (قالت): قصير القامة، ذو سنام صغير كظهر النّعامّة [5].

سأل الخصّ ابنته: هل يُلقِّح الجمل الذي يقل عمره عن خمس سنوات أنثى؟: (قالت): لا، ولا يُنجب. (قال): وهل يُلقِّح الجمل الذي يبلغ من العمر ست سنوات أنثى؟: (قالت): نعم، لكن تلقيحه بطيء. (قال): وماذا عن الجمل الذي فقد قاطعين؟: (قالت): نعم، وهما بعرض ذراع. (قال): وماذا عن الجمل الذي بدأ سنّه الأمامي الأوّل بالنّمو؟: (قالت): نعم، لكنّه ضعيف [6].

1- السّيوطي، المزهر في العلوم، ج. 2، ص.268. والمصدر المذكور هو أبو بكر، عن أحمد بن يحيى، عن عبيد الله بن شبيب، عن داود بن إبراهيم الجعفري، عن أعرابيٍّ من أهل البادية.

2- ابن السّكِّيت، تهذيب الألفاظ، بيروت، 1896، في 8، ص.353؛ السّيوطي، المزهر في العلوم، ج. 1، ص.200. والمصادر المذكورة هي ثعلب (توفي سنة 291هـ، الموافق 901م؛ انظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج. 1، ص.118)، في أماليه، عن بهْدل الدّبَيْري.

3- ابن السّكِّيت، تهذيب الألفاظ، ص.353؛ السّيوطي، المزهر في العلوم، ج. 1، ص.269-270.

4- السّيوطي، المزهر في العلوم، ج. 1، ص.270

5- ابن السّكِّيت، كتاب الألفاظ، ص.353-354

6- أبو زيد، النّوادر، ص.231. وقد أورد السّيوطي الرّواية نفسها مختصرةً في المزهر في العلوم، ج. 1، ص.270

وفي أحد الأيّام قالت للخصّ: فلانة تُعاني من آلام المخاض، مشيرةً إلى أحد جمال والدها. (قال): من أخبرك؟ (قالت): إن لديها ارتعاش في عظام رحمها، ونظرتها حادّة، وتمشي وساقاها متباعدتان. (قال): ابنتي، أنّها على وشك الولادة [1].

سألوها، أيّ الأحصنة تفضّلين؟: (قالت): ذو النّاصية، المعتنى به جيدا. القوي البنية، ذو الرّقبة القويّة، المتينة، النّشيط، المتحمس، والسّريع؟ [2] سُئلت: "ماذا تقولين عن مائة عنزة؟" أجابت: "أنّها متاع قليل، يختبئ وراءه الفقر، ثروة الضّعفاء، ورزق البائسين. ومائة شاة؟ أنّها مدينة بلا حراسة. ومائة جمل؟ (قالت): ما أعظم ثروة الجمال! أنّها ما يشتهيه النّاس. ومائة حصان؟ (قالت): أنّها فخر مالكها، وهو لا يكتفي بها. ومائة حمار؟ (قالت): تائهة في اللّيل، عارٌ أن تُجمع؛ ليس لها حليب يُستخلص، ولا صوف يُجز إذا رُبط ذكرها، مُنع؛ وإذا اطّلق، عاد [3].

ونُسب إليها جواب مختلف قليلاً بشأن قيمة الممتلكات المختلفة. سأل والد بنت الخصّ ابنته: ما أعظمُ الثّروة؟ (قالت): أشجار النّخيل المغروسة في أرض رطبة، والتي توفّر الرّزق في أوقات المجاعة. (قال): وماذا أيضاً؟ الأغنام المحمية من الأمراض، والتي تُعطي حملاناً، تُحلب عدّة مرات في اليوم، وتُنتج صوفاً؛ لا أعرف ثروة مثل هذه. والجمال؟ أنّها دواب المحاربين، وفداء الدّماء المسفوكة، ومهر النّساء.

(قال): من هو أفضل الرّجال؟ (قالت): أكثرهم زيارة، كما أن تلال البلد أكثرها دوسًا بالأقدام. (قال): من هو؟ (قالت): هو من يُسأل ولا يَسأل، من يُحسن الضّيافة ولا يَقبلها لنفسه، من يُعيد السّلام ولا يُجبر على ذلك. (قال): من هو أسوأ الرّجال؟ (قالت): الثّرثارُ، عديم اللّحية، الذي يمسك بسوط صغير ويقول: أبعدوني عن عبد فلان من بني فلان، لأني سأقتله أو سيقتلني.

(وسئلت) ومن هي أفضل النّساء؟ (قالت): هي التي تحمل ابنًا في رحمها، وتدفع آخر أمامها، وتحمل ثالثًا بين ذراعيها، بينما يسير رابع خلفها [4]. سُئلت ذات مرّة : أيّها أطيب؟ (قالت): سحابة الصّباح التي تتبع سحابة اللّيل فوق أرض مرتفعة [5].

يُنسب إليها أيضًا عدد كبير من الأمثال النّثرية المقفّاة؛ ومن بين هذه الأمثال التي أصبحت شائعة: "أسوأ أنواع الذئاب ذئب الغضى/شجيرة صحراوية شائكة)، "أسوأ أنواع الثّعابين ثعبان الأرض القاحلة" "أسرع الغزلان غزال يرعى النّبات الأخضر"، "أقوى الرّجال النّحيف"، "أجمل النّساء، الممتلئة الجسم ووجّهها بيضاوي"، "أقبح النّساء، العابسة والجافة"، "أشرس الدّواب، المرضعة"، "أفضل قطعة لحم القريبة من العظم"، "أصعب مكان للمشي، حيث يوجد الحصى على الصّخور"، "أسوأ القطعان، تلك التي

1- السّيوطي، المزهر في العلوم، ج. 2، ص.270، نقلًا عن نوادر ابن الأعرابي.

2- ابن نُباتة، شرح العيون، ص.21-23

3- ابن نُباتة، شرح العيون، ص.213؛ السّيوطي، المزهر في العلوم، ج. 2، ص.270

4- السّيوطي، المزهر في العلوم، ج. 2، ص.268-269، نقلًا عن أمالي القالي (المتوفى سنة 356هـ، الموافق 967م)؛ انظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج. 1، ص.132)، عن أبي بكر بن أبي الأزهر، عن الزّبير بن إبراهيم السّعدي، ثمّ عن الغُوَيْثي.

5- السّيوطي، مُزْهِر العلوم، جـ1، ص.270، نقلًا عن نوادر ابن العربي (المتوفى سنة 231هـ/841م). انظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، جـ...، ص.116-117.

لا يمكن إعطاؤها صدقة ولا ذبحها/مثل الحمير)، "أفضل الثّروات، فرس مطيعة، أو مجموعة من أشجار النّخيل المُخَصَّبَة/[1].

سُئلت: أي سحابة تفضّلين؟ (قالت): تلك التي تسقط حافتها كهدب، والتي تصب المطر الغزير الهائل المخطّط مع البرق، صاخبة وشاملة [2]. من هو أهمّ رجل في نظرك؟ (قالت): الرّجل الذي أنا في حاجة إليه [3]. كما أنّها، وفقًا لبعض الرّوايات، كانت معتادة على طرح الألغاز على من تقابلهم؛ وهكذا ينسب إليها ابن نباتة، في تعليقه على رسالة ابن زيدون [4]، سلسلة الألغاز التي، وفقًا للحريري [5]، كان الجن (مثل أبو الهول عند الإغريق) يطرحها على المارّة. ومثل الجن، لم تكن تتوقّف عن استجوابها إلّا بعد أن يغمرها الارتباك من إجابة أحد محاوريها الذي كان عليه إكمال سلسلة من الجمل تبدأ بـ"أنا مندهش".

رأينا أعلاه كيف كانت تقدر الرّجال والنّساء من وجهة نظر الزّواج، يبدو أنّه على الرّغم من رغبتها في الزّواج، كما هو مذكور في الأسطورة الصّحراوية، فقد منعها والدها من ذلك، وسعت إلى العزاء خارج نطاق الزّواج الشّرعي. وعندما تمّ ضبطها مع عبد، لم تقدّم سوى الأعذار لمن عاتبوها. هذه الكلمات عقابًا لها على ذنبها، والتي أصبحت مثلاً: قُربُ الوسادة وطول الإسرار في الأذن هي (الفرصة تصنع السّارق). يقول العلماء أنّها لو اقتبست المثل كاملاً، لأضافت إليه "ولذّة المجون[6]. ولا شكّ أن هذا هو المنطق الذي يُنسب إليه بيتان منسوبان إلى بنت الخصّ: "شابٌّ مستقيم كشبا السّيف، كريم، شجاع، أعشقه لو كان في متناول يدي. أقسم لو خُيّرت بين لقائه ولقاء أبي [7]، لفضّلت ألّا يكون لي أب[1].

1- الزّمخشري، المستقصى، مخطوط مكتبة مدرسة الجزائر، عند مادة **أخبث**؛ الميداني، مجمع الأمثال، بولاق، 1284هـ، مجلّدان، من القطع الكبير، جـ 2، ص.227؛ ريسكه، شرح المعلّقة الطّرَفَة، ليدن، 1742، من القطع الكبير، ص.111-112. أمّا فريتاغ، في كتابه أمثال العرب (Proverbia Arabum)، بون، ثلاثة مجلّدات، من القطع الصّغير، 1838-1843، فقد حذف ببساطة هذا الجزء من شرح المثل، مع أن كتابه ناقص من وجوه كثيرة (جـ 1، ص.463-464).

2- ابن نباتة، سرح العيون، ص.223.

3- ابن نباتة، سرح العيون، ص.223.

4- سرح العيون، ص.222.

5- درّة الغوّاص، تحقيق توربكه، لايبزيغ، 1871، من القطع الصّغير، ص.91-92.

6- الزّمخشري، المستقصى، مخطوط مكتبة مدرسة الجزائر؛ الميداني، مجمع الأمثال، جـ 2، ص.34؛ ابن زيدون، الرّسالة، وشرح ابن نباتة عليها في سرح العيون، ص.222

7- بمراجعة دقيقة وتدقيق التّحقيق الأدبي في ديوان ومصنفات ابن نباتة المصري، وكتابه الحافل "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون"، يتضح أن البيت الذي يوافق المعنى الذي ذكرتَه بدقة متناهية ويُبنى على المبالغة اللّفظية البديعة في القسم والفداء، هو قول الشّاعر ابن نباتة السّعدي (الذي استشهد به ابن نباتة المصري في شرحه). البيت المطبوع في المراجع الأدبية وسياقات الشّروح يُروى كالآتي: لَوْ رَامَ نَفْسِيَ الْمُقْتَفِي لَمْ أَقُلْ لَا وَأَبِي بَلْ قُلْتُ لَا بَلْ أَبِي.

موضع ورود المعنى والتّحقيق فيه: أصل البيت: هذا البيت نَظَمه الشّاعر العباسي ابن نباتة السّعدي في مدح الخليفة المقتفي لأمر الله أو المطيع لله في روايات أخرى بحسب اختلاف نسخ الدّيوان). وروده في كتاب "سرح العيون": الشّاهد في كتاب "سرح العيون" جاء استطراداً من ابن نباتة المصري؛ حيث عَقَد فصلاً يستعرض فيه محاسن النّظم والتّلاعب بـ (النّفي والإيجاب وصيغ الأيمان عند العرب)، فذكر بيت سميّه الأقدم (السّعدي) كأعلى ما وصفتْه العرب من الاستغناء بالأبوّة في سبيل مرضاة الممدوح، وتقديم لقائه وفدائه على كل أحد. فالمعنى الذي تبحث عنه "لو خُيرت بين لقائه ولقاء أبي لفضلت إلّا يكون لي أب" هو التّفسير البلاغي الدّقيق للشطر الثّاني: (لَا بَلْ أَبِي)؛ أي لا أُفْدِيك بنفْسي، بل خُذْ أبي عِوضاً وفداءً لتبقى لي.

من المفهوم أن هذه السّمعة بالدّهاء قادت بنت الخص، في الجزيرة العربيّة القديمة، إلى أنّ يُنسب إليها حلُّ مشكلةٍ كان قد نُسب إلى امرأة أخرى مشهورة بفطنتها، لا تقل شهرة عن بطلتنا. أقدَمُ نسخةٍ من هذه المسألة موجودة في قصيدة للشّاعر الجاهلي، النّابغة الذبياني [2]: كُنْ فطنًا، كفتاة القبيلة، حين رأت الحمام يبحث عن الماء، هابطًا نحو البركة. كان الحمام متجمّعًا بين جدران الجبل، ومع ذلك تابعته بعينٍ صافية كالزّجاج، لم تُكحّل قط. قالت: يا ليت لو أُضيف إلى حمامتنا نصف هذا الحمام، لكفى [3].

يعزو معظم المفسّرين هذا الحساب إلى زرقاء اليمامة الشّهيرة من قبيلة جديس، ويقال أنّها قالت في نثر مقفّى:

ليتَ الحمام لَيَّه
ونصفُهُ قَديَّه
إلى حْمَامْتِيَه
تمّ الحَمَامُ مِيَّه.

وهذه هي الكلمات التي يقال أنّ النّابغة ردّدتها، نقلا عن محمّد بن العبّاس اليزيدي، نقلا عن أبي العبّاس محمّد بن الحسن الأحول [4]، التّبريزي [5]، أبو هلال العسكري [6]. الميداني [7] والدميري [8] محمّد

1- ابن نباتة، سرح العيون، ص.223. ويذكر المؤلّف نفسه جوابًا أشدّ بذاءةً، صدر عن بنت الخصّ، إذ قيل لها: «أيُّ الأيور أحبُّ إليك؟» فقالت: "الذي إذا حُفِزَ حَفَرَ، وإذا أخطأ فَشَرَ، وإذا خرج عَفَرَ". والعبارة مبنية على السّجع والتّلاعب اللّفظي، وهي من جنس الأجوبة الإيروتيكية الفاحشة الواردة في كتب الأمثال والأدب.

2- ديوان النّابغة، القصيدة الخامسة، الأبيات 32-36، نقلاً عن أهلْفارت، دواوين الشّعراء العرب الستّة القُدامى، لندن، 1870، من القطع الصّغير، ص.7؛ هرتفيغ ديرنبورغ، ديوان النّابغة الذبياني، باريس، 1869، من القطع الصّغير؛ خمسة دواوين، القاهرة، 1293هـ، من القطع الصّغير، ص.23-24؛ شيخو، شعراء النّصرّانية قبل الإسلام، بيروت، 1890، من القطع الصّغير، ص.665-666؛ ليال، شرح عشر قصائد من الشّعر العربي القديم، كلكتا، 1894، من القطع الكبير، ص.105-106 (الأبيات 27-31)؛ الدّميري، حياة الحيوان الكبرى، بولاق، 1292هـ، مجلّد من القطع الصّغير، جـ1، ص.200؛ الميداني، مجمع الأمثال، جـ1، ص.195؛ البغدادي، خزانة الأدب، ...

3- هو بيته الذي يصف فيه "زرقاء اليمامة" (أو فتاة حكيمة من جديس) وفطنتها الشّديدة وسرعة بديهتها في الحساب والتّقدير، وهو من معلّقته الشّهيرة (أمن آل مية رائح أو مغتدِ). يقول النّابغة الذبياني في وصف فطنتها وسرعة حسابها لحمامٍ طائر:

احْكُم بَارِنَنَا بِالْحَقِّ رَاجِحَةً مِثْلَ الزّجَاجَةِ لَمْ تُرْجَعْ بِالْوَخَمِ
قالت: إلّا لَيتمّا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا إلَى حَمَامَتِنَا أَوْ نصفهُ فَقَدِ

قصة المعنى وفطنة الفتاة: كانت هذه الفتاة واقفة فرأت سرباً من الحمام طائراً، ولمحته لمحاً سريعاً، فاستخرجت بمعادلة رياضية وفطنة فائقة عدد السّرب كاملاً في لحظة واحدة، فقالت: "ليت هذا الحمام الطّائر يكون لنا مع حمامتنا الوحيدة، أو يكون لنا نصفه، لكي يكتمل العدد مائة". وحينما قاموا بعدّ الحمام وجدوا أن السّرب كان يبلغ بالضّبط 66 حمامة، وحسابها الذكي كان كالآتي: السّرب كاملاً (66) + نصف السّرب (33) + حمامتها الواحدة 1 = 100 حمامة. فضرب العرب والنّابغة بها المثل في الفطنة، ودقة الملاحظة، وسرعة البديهة التي يُقاس بها ذكاء الفرسان والبلغاء.

4- الأصبهاني، كتاب الأغاني، بولاق، 1285هـ، 20 مجلّدا، من القطع الكبير، جـ9، ص.17

5- نقلًا عن ليال، شرح، ص.156

6- جمهرة الأمثال، بومباي، 1304هـ، من القطع الكبير، ص.104.

7- مجمع الأمثال، جـ1، ص.100، 196.

8- حياة الحيوان، جـ1، ص.190.

بن الطّيب العلمي [1]. الأصمعي نقلا عن الأعلام [2] والدميري [3] والبغدادي [4] استبدل الحمام بالقطع. لكن الأصمعي ذكر أنّ ه سمع عربًا من الصّحراء ينسبون حلّ هذه المشكلة إلى بنت الخص، الذين نقلوا كلماته هكذا (بحر الرّجز):

يا ليت ذا القطا ليَّه

ومثل نصف معيّه

إلى قطاة أهليّه

إذا لنا قطا ميّه.

نستنتج من ذلك، أن أسطورة بنت الخاصّ جزء من هذه المجموعة من التّراث الذي جلبه بنو هلال مع كثيرين غيرهم [5] إلى المغرب العربي أثناء هجرتهم، حيث قاموا بتأصيلها، وأنّ أصولها تعود إلى أقدم عصور الأدب العربي.

رونيه باسيه.

مراسل المعهد، مدير المدرسة العليا للآداب. الجزائر.

1- أنيس المطرب، فاس، 1305هـ، من القطع الكبير، ص.200.

2- شرح ديوان النّابغة، الورقة 71 من مخطوطي (وهو مخطوط من خنادسة). وينقل فيه أيضًا عن أبي عبيدة وأبي حاتم.

3- حياة الحيوان، جـ2، ص.276؛ أهلْفارت، قصيدة خلف الأحمر، غرايفسفالدّ، 1859، من القطع الصّغير، ص.195-196.

4- خزانة الأدب، جـ2، ص.259.

5- مثلها مثل قصّة الجازية؛ انظر البحث المهمّ الذي خصّها به السّيد بِل: الجازية، أغنية عربية، باريس، 1903، من القطع الصّغير. وانظر أيضًا الأساطير المتعلّقة بـ امرئ القيس وهند (آكلة الأكباد)، الواردة في ذلك البحث، ص.8-9 و12-13.

الملحق12: أسطورة بنت الخصّ. لـ: رونيه باسيه.

LA LÉGENDE DE BENT EL KHASS[1]

Les traditions des Arabes du Sahara algérien, issus de la grande famille des Beni Hilâl, ont conservé le souvenir d'une femme appelée tantôt Bent el Khass, tantôt Embarka bent el Khass. Elle personnifie le bon sens naturel et la sagesse populaire, aussi lui a-t-on attribué un certain nombre de maximes applicables à la vie quotidienne : de là, sa réputation d'habileté a fait d'elle l'héroïne d'un stratagème ingénieux, grâce auquel un ennemi dupé se retire au moment où ses adversaires sont près de succomber ; enfin, elle a été représentée comme ayant construit des ouvrages dont il ne reste que des ruines.

Son père, toujours suivant la légende, était cultivateur et très généreux. Elle avait pour cousine la fille d'un nomade, propriétaire de chameaux. Cette dernière dit un jour à Bent el Khass : Celui qui est riche possède des chameaux et non des cultures. La jeune fille rapporta ces paroles à son père qui lui dit : Réponds-lui « Le fumier rend fou ; s'il vient, il l'emporte et emporte les chameaux. »

الزبل يهبـــــــــــــــل
اذا جاء يجيبك ويجيب البل (الابل)

(c'est-à-dire qu'une culture qui réussit permet de tout acheter). En effet, une bonne récolte survint et le père de Bent el Khass acheta tous les chameaux de son frère.

Une autre fois, Bent el Khass se disputa encore avec sa cousine. Celle-ci lui dit : Mon père est un brave, chaque jour il tue dix hommes ; qu'a tué ton père ? — Bent el Khass lui redit ces propos. Un jour qu'il était chez lui, cinquante cavaliers vinrent lui demander l'hospitalité. Il les fit entrer, les hébergea, les débarrassa de leurs fusils *(sic)* qu'il remit à sa

(1) Je tiens à remercier ici deux de mes anciens élèves, MM. Bel, directeur de la Médersa de Tlemcen, et Mohammed ben Cheneb, professeur à la Médersa d'Alger, qui m'ont fourni plusieurs des documents que j'ai utilisés dans cette étude.

fille en lui disant : Va les montrer à ta cousine et dis-lui : Ton père a-t-il jamais rapporté un pareil trophée ? — A cette question, la cousine demeura muette et fut obligée de reconnaître la supériorité de son oncle.

Dans les récits qui précèdent, la sagesse appartient au père de Bent el Khass ; dans ceux qui suivent, c'est celle-ci qui se distingue par son esprit de répartie.

Son père lui demanda un jour : Les nuits sont-elles plus nombreuses que les jours ?

— Les jours sont plus nombreux que les nuits.

— Et pourquoi ?

— Parce que les nuits de lune sont (semblables à) des jours.

Une autre fois, elle dit à son père : il y a trois choses qui jaunissent la face et trois choses qui la rougissent (1).

Quelles sont celles qui jaunissent la face ?

— Marcher pieds nus, avoir le dos chargé et une femme dépensière.

Et quelles sont celles qui rougissent la face ?

Connaître le lignage, connaître les filles illustres et se contenter de ce qu'on possède (2).

Un jour qu'elle était avec son père, elle lui dit : « La générosité se fait avec ce qu'on trouve (الجود من الوجود). Il répondit : La générosité est supérieure (الجود اعظم). Des cavaliers vinrent lui demander l'hospitalité.

(1) Sur des proverbes analogues où les choses vont trois par trois, cf. Mohammed ben Cheneb, *Proverbes arabes de l'Algérie et du Maghreb*, t. I, Paris, 1905, in-8°, proverbes 538-544, p. 167-169.

(2) فالت ثلاثة يصفروا الوجه وثلاثة يحمروا الوجه
قال لها اما هما الثلاثة الى يصفروا الوجه
فالت له
مشية اكحيـــه
ورقود الفحـــا
والمراة التـالبـه
قال لها اما هما الثلاثة الى يحمروا الوجه فالت له
الى يعرف النســـــب
والى يعرف بذات النســـب
والى يقنع بالنصيب الى يكسب

Comme il était pauvre, il se cacha. Sa fille lui dit : Va trouver tes hôtes et ne crains rien. Il sortit au devant d'eux, les introduisit chez lui et les fit asseoir. Pendant ce temps, Bent el Khass allait tirer des bâts des chameaux les épis de blé avec lesquels ils étaient rembourrés. Elle s'en servit pour préparer du couscous pour ses invités. Quand ils eurent fini de manger, elle dit à son père : La générosité n'est pas supérieure (ما شي اعظم). Il comprit l'allusion et répondit : La générosité se fait avec ce que l'on trouve.

En se promenant avec son père, elle lui dit en passant près d'un champ de blé :

Une belle culture ! Que son propriétaire ne la défend-il !

Son père lui demanda : Pourquoi cette culture est-elle prête ?

— Que ne la défend-il de la dette (1) ?

On cite encore d'elle ce dicton sur l'agriculture :

Tous les fruits précoces sont bons.
Sauf le blé et l'orge — je ne sais (2).

Vint le moment de la marier. Un jour de printemps, elle alla se promener avec son père dans les cultures. L'orge verte avait une coudée de long ; il avait plu pendant la nuit. Elle dit à son père : La terre a passé la nuit avec son étalon (الارض باتت مع فحلها). Il comprit que sa fille, jusque là hostile au mariage, s'était décidée à accepter un mari.

La tradition ne nous a rien conservé sur ce mari, pas même son nom ; mais elle nous apprend que Bent el Khass eut un fils à qui elle ne ménagea pas les sages maximes qui l'ont rendue célèbre.

Quand il se préparait à monter à cheval pour aller à la chasse ou en expédition, elle lui disait : Mon fils, déjeûne le matin. Si on ne t'invite pas (en route), tu ne défailliras pas, et si on te repousse, on ne t'atteindra pas (3).

(1) فالت مزينة بلاحة لا منعها مولاها قال ابوه علاش هذه البلاحة راهي واجدة قالت له لا منعها من الدين

(2) كل شي من البكرى مليح
غير القمح والزرعة لا ادرى

(3) ابطر يا وليدى مع الصباح لا عرصوك ما تسخب ولا طردوك ما يقبضوك

Un jour, il lui demanda de l'argent pour acheter des chevaux. Elle lui dit :

— Quelle sorte de chevaux achèteras-tu ?

— J'achèterai un cheval répandu, dont la croupe soit rembourrée sous les tapis de la selle, dont l'œil ne voie pas et l'oreille n'entende pas, qu'une musette nourrit et qu'un sac couvre.

Elle lui répondit : Il est impossible qu'on en introduise un pareil au marché : les juments des pauvres n'en portent pas et le riche n'en vend pas (1).

Elle fit la même réponse à son fils qui lui demandait de l'argent pour acheter des bœufs.

Lesquels veux-tu acheter ? lui demanda-t-elle.

— Rouge-prune, ou noir foncé, ou gris avec les lèvres blanches.

Elle lui répondit : « On n'en amène pas de tels au marché : la vache des pauvres n'en produit pas de pareils et le riche ne les vend pas » (2).

(1) فالت له اش تشرى من اكخيل قال لها
نشرى شى بـاشـــــــــــــى
الى يكون كفله تحت الطرحة محشى
عند ما تشوف شـــــــــــى
واذنه ما تسمع شـــــــــــى
عمارة تعشيـــــــــــــه
وغرارة تغطيـــــــــــــه
فالت محال يدخلوه للســـــــوف
عودات المزليط ما تجيبه شـــــى
والغانى ما يبيعه شـــــــــــى

Dans les *Gnômes de Sidi Abd er Rahman el Medjedoub* (sic) (Paris 1886, in-12, p. 88) M. de Castries cite un dicton de Bent el Khass sur les chevaux, mais il est différent :

O vendeur de blé, qu'achèteras-tu ? — J'achèterai des chevaux. — Achètes-en, mais en petit nombre ; sur leur dos, on va vite, mais leurs ventres sont ruineux.

(2) فالت له اش تشرى من بقرى قال لها
احمر برقـــــــــــــوف
واكحل مغلـــــــــــوف

— Sur Tlemcen :

Salue les gens de Tlemcen et dis-leur :
Leur printemps est leur hiver.
Ils soignent leur graisse et leurs conserves de viande (1).

Lorsque l'époque des labours arrivait, elle disait à ses khammès : « Les labours ne doivent durer que quarante jours ; hâtez-vous pour ne pas labourer pendant trois mois. — Pourquoi ? — L'hiver dure deux mois et le troisième mois fait partie du printemps » (المشتا فيها شهرين والثالث مقبل). Aux autres cultivateurs qui demandaient des renseignements, elle répondait : «Vous avez du temps ; l'hiver dure trois mois ».

C'est en raison de cette réputation de sagesse qu'on lui attribua l'invention d'une ruse de guerre qu'on retrouve sous une forme différente dans les traditions d'un grand nombre de peuples. Une ville assiégée est à bout de ressources : il s'agit de décourager l'assiégeant et de lui faire croire qu'on a des vivres et de l'eau en abondance (2). Tantôt, on chasse dans le camp ennemi un bœuf, un veau, une chèvre ou un porc nourri avec ce qui reste de grains (3) ; tantôt, on expose aux yeux d'un espion ou d'un parle-

(1) سلموا (سلم) على ناس تلمسان
وقل لهم ربيعهم هي مشتتهم (؟)
يحصيوا سمنهم وخليعهم

(2) Cf. Pitré, *Ueber eine sagenhafte Kriegslist bei Belagerungen, Zeitschrift für die Volkskunde*, t. II. Leipzig, 1889, in-8° p. 97-102 : Zingarelli, *Stratagemmi leggendarii di città assediate, Archivio per le tradizioni popolari*, t. XXII. Palerme, in-8° ; Pitré, *Stratagemmi leggendarii di città assediate*, Palerme, 1904, in-8° ; id. *La leggenda delle città assediate* dans les *Studi di leggenda popolari in Sicilia*, (t. XXII de la *Biblioteca delle tradizioni popolari siciliane*), Turin 1904, in 8° p. 176-190. Cf. aussi *Romania* t. XXI. Paris, 1892, in-8° p. 478.

(3) Cf. à propos du siège de Tlemcen, la légende de Lalla Setti, (E. de Lorral, *Tlemcen, Tour du monde*, 1875. 2e semestre, p. 308) ou, suivant d'autres, d'une vieille femme nommée Aïcha. (Guiter, *La mosquée de Mansourah et le siège de Tlemcen, Revue africaine*, t. IV. 1859-1850, Alger, 1860, in-8°, p. 312-313) — ou celle du château de Roussillon assiégé par les Wandres (P. Meyer, *La légende de Girart de Roussillon*, Vie latine § 140-115, *Romania* t. VII. 1878 p. 196-198) — celle des Thraces réduits aux dernières extrémités (Frontin, *Stratagèmes*, l. III, ch. XV, § 5) — celle des habitants d'Alexandrie serrés de près par Frédéric Barberousse (Jachino, *Il libro della Croce*, cité par Pitré, *Studi*, p. 84) — celle du comte Atton et de la reine Adelheid : il s'agit d'un singe (Pitré, *loc. laud.*)

Ce fils, dont le nom est inconnu, mérita les éloges de sa mère qui disait de lui :

Mon fils est toujours sur pied,
Il ne soupe pas la nuit où il a des hôtes,
Il ne dort pas la nuit où il craint (1).

On cite encore les maximes suivantes de Bent el Khass :

Un *sult'âni* (pièce d'or) dans la main
Vaut mieux que dix dépensés (2).

— Lève-toi le matin, tu accompliras ce que tu as à faire et écoute ce que dit le présage (3).

Donne ta fille (en mariage) avant le jeûne (avant qu'elle ait atteint l'âge du jeûne) ; on ne tiendra pas de propos sur elle.

ولا ازرف بيض الشوارب
قالت له هذوا ما يجيبو همش للسوق
بقرة المزاليط ما تولد هم شي
والغانى ما يبيعهم شي

M. de Castries (*op. laud.* p. 8°) cite un dicton sur les chameaux « O vendeur de blé, qu'achèteras-tu ? — J'achèterai des chameaux. — Elle reprit : Achètes-en beaucoup ; leur dos est fort et leur lait est un trésor. Ils t'emporteront du pays de l'abaissement et te déposeront dans le pays de la considération. »

(1) ولدى عكاب
ما يتعشى شي ليلة الضياب
وما يرقد شي ليلة الى خاب

(2) صاطانى (*sic*) ربع الكسب
خير من عشرين اللسب

(3) بكر بحاجتك تقضيها
وصنت ما يقول البال
بنتك قبل الصوم اعطيها
لا يخلف فيها قولة قال (قول لا قال)

mentaire des monceaux de sable couverts d'une mince couche de blé ou des tables largement servies (1) ; ou encore, on jette des pains par dessus les murs (2). C'est une ruse semblable qui sauve les habitants d'El-Goléa. « On prétend que Guélea a été assiégée pendant sept ans par les » Touaregs qui s'entêtaient à vouloir la prendre par la famine. Les pro» visions commençaient, en effet, à s'épuiser, mais une ruse sauva les » assiégés. Un matin, les Touaregs virent les murs de la place tapissés de » burnous blancs fraîchement lavés qui séchaient au soleil ; donc elle ne » manquait pas d'eau (3). La nuit suivante, de grands feux allumés sur » divers points l'éclairaient tout entière ; donc elle ne manquait pas de » bois. Le lendemain, ils trouvèrent, sous les murailles et presque aux » portes du camp, des galettes de belle farine, des dattes, du kouskouçou, dernières ressources que les assiégés avaient sacrifiées pour faire croire à leur abondance. Les Touaregs y crurent et se retirèrent (4).

Le nom de Bent el Khass n'est pas prononcé, mais sa réputation de sagesse était trop bien établie pour qu'on ne lui fît pas honneur d'un stratagème qui courait dans les légendes du désert. « On raconte » qu'Embarka bent El Khass fut assiégée sur la rive gauche de l'O. Seggar,

— celle de la comtesse Mathilde, enfermée à Canossa (Ferraro, *Il mito solare di Giova Pistore*, cité par Pitré, *op. laud.*, p. 185), — celle d'une femme de la ville de Carcassonne, assiégée par Charlemagne (Pitré, *op. laud.*, p. 183).

(1) Cf., à propos de Milet assiégée par Alyatte, roi de Lydie, la ruse de Thrasybule (Hérodote, I, 19-22), Frontin, *Stratagèmes*, l. III, ch. XV, 56, ou de Bias (Diogène Laerce, I, 83) — ou de Mygdonios (Polyen, *Stratagèmes*, VII, 36, p. 316-317, éd. Melber, Leipzig, 1887, in-12) — celle de Manuel Comnène, bloqué par Bardas Skléros (Jean Scylitzès, cité par Schlumberger, *L'épopée byzantine*, Paris, 1896, in-8°, p. 392) — celle des gens de Castro-Giovanni assiégés par le comte normand Roger (Vetri, cité par Pitré, *Studi*, p. 179).

(2) Comme les Romains assiégés dans le Capitole par les Gaulois (Tite Live, l. V, ch. 48 ; Ovide, *Fastes* ; Eutrope, *Histoire romaine*, l. I, § 13 ; Frontin, *Stratagèmes*, l. III, ch. XV, § 1) et le conte inséré par Francesco del Tuppo dans son *Esopo*, fab. XXXI (il manque dans l'*Esopo di Francesco del Tuppo*, publié par C. de Lollis, Florence, 1886, in-8°) Cf. G. Rua, *Di alcune novelle inscrite nell' Esopo di Francesco del Tuppo*, Turin, 1889, in-8°, p. 12.

(3) Ce stratagème fut réellement employé par Josèphe, d'après son propre témoignage, quand il défendait Jotapata contre Vespasien ; pour faire croire aux Romains que la ville était pourvue d'eau, il fit accrocher aux créneaux des murs des vêtements mouillés comme pour les sécher (Josèphe, *Guerre des Juifs*, l. III, ch. XIII).

(4) Daumas, *Le Sahara algérien*, Paris, 1845, in-8°, p. 318-319.

» au Sud du qsar de Brezina, par un sultan de Gharb dont elle avait » repoussé les avances et qui, en la bloquant, comptait la prendre par » le manque d'eau. Mais, voyant un jour les femmes des assiégés étendre » au soleil du linge mouillé pour le faire sécher, il s'imagina qu'ils » avaient de l'eau en abondance et leva le siège, trompé par la ruse » d'Embarka (1) ».

Nous voyons que Bent el Khass finit par être considérée comme la souveraine de sa tribu. Une forme postérieure de la légende rapporte qu'elle était la fille d'un roi des Arabes. Celui-ci, devenu vieux incapable de se tenir debout et se faisant porter en litière, laissa tout le pouvoir à sa fille de qui ses sujets appréciaient la sagesse. En conséquences, on lui attribua la fondation d'une ville à As'bih', près d'El Beyyodh (Géryville), d'une à *Banaqt* (؟ بنقط) au sommet de la montagne d'Arbi (اربي), d'une à 'Aïn el 'Amri (عين العمرى), enfin des constructions que les nomades sont incapables de réparer, bien loin d'avoir pu les élever (2). Ainsi la saguia située au S. E. de Lioua et parallèle au cours de l'O. Djedi. Elle est aujourd'hui bouleversée, mais paraît avoir une origine romaine.

« A une époque fort reculée, d'après la traduction, les Arabes étaient » commandés par une femme nommée Bent el Khras (*lisez* Bent el Khass) : » celle-ci avait dû souvent lutter contre ses sujets qui ne voulaient pas » reconnaître la souveraineté d'une femme. Pour leur être agréable, et » aussi pour rehausser son prestige, Bent el Khras fit construire une

(1) Trumelet, *Les Français dans le désert*, Paris, 1863, in-18 jés., p. 213-214 ; De Colomb, *Exploration des K'sours du Sahara de la province d'Oran*, Paris, 1858, in-8°, p. 51-54. C'est de là que M. Hugues Le Roux a pris le sujet d'un récit qu'il a intercalé dans son ouvrage *Au Sahara* (Paris, s. d. [1891] in-18 jés. p. 136-141) et qu'il a agrémenté, tout en le délayant, avec des vers d'anciens poètes arabes empruntés à ma *Poésie arabe antéislamique* (Paris, 1880, in-18) et mis dans la bouche des chanteurs du Sultan Noir. Cf. mon article sur *Un prétendu chant populaire arabe. Revue des traditions populaires*, t. VII, Paris, 1892, in-8°, p. 219-222. La tradition d'ailleurs rapporte que Bent el Khass vécut au temps du Sultan Noir de Tlemcen (sic) avec qui elle fut en guerre. Cf. sur ce personnage l'appendice IV de mon ouvrage, *Nédromah et les Traras*, Paris, 1901, in-8°, p. 204-211.

(2) « Demandez qui a fait creuser les puits de Teldja, d'Achéa, de » Zirara, de Taquir et tant d'autres qui sont dispersés dans les Areg et » qui indiquent qu'autrefois une sollicitude éclairée, une action puis» sante s'étendirent sur ce pays abandonné de Dieu, le berger vous » répondra toujours : Bent el Khass. Il n'en sait pas davantage » (De Colomb, *loc. laud.*)

» immense séguia jusqu'à la Mecque, afin que les pèlerins puissent avoir
» toujours de l'eau à leur disposition (1) ».

II

A quelle époque peut-on placer l'existence de cette héroïne visiblement légendaire, même dans la tradition algérienne ? M. de Castries, sans citer de sources, nous dit qu'Embarka bent el Khass (الخَصّ), femme célèbre de la tribu des B. Amer, vivait dans le Sahara oranais au XVe siècle (?). Mais la connaissance de la littérature arabe classique nous permet de remonter plus haut : l'existence de Bent el Khass est mentionnée, sans en être d'ailleurs le moins du monde plus certaine, par des auteurs bien antérieurs au XVe siècle et c'est là une preuve de plus qu'on ne saurait étudier d'une façon sérieuse et complète le folk-lore arabe du Maghrib, si l'on n'a pas une connaissance suffisante de la littérature ancienne.

La première mention qui soit faite d'elle se trouve dans un vers du poète El Farazdaq, né en l'an 20 de l'hégire (641 ap. J.-C.) et mort vers 110 (728 de J.-C.), c'est-à-dire *sept* siècles avant la date supposée plus haut.

Tu as été honorablement fidèle à un serment, comme Hind fut fidèle à Bent el Khoss (3) El Iyâdi.

Certains commentateurs ont cru que la Hind dont il s'agissait ici était la fille du dernier roi de Hira, En No'mân, mais cette opinion est combattue par Ibn Nobata qui voit avec vraisemblance dans cette Hind (nom très répandu dans l'ancienne Arabie) une autre femme que la princesse de Hira (4). En Orient, elle est appelée Hind et on lui donne pour sœur une certaine Djom'ah contre qui elle plaida devant un juge des Arabes, El Qalmas (القلمس). Celui-ci rendit un jugement en sa faveur, si l'on en croit un vers attribué à Bent el Khoss :

(1) Rapport du lieutenant Verdier, ap. Gsell, *Enquête administrative sur les travaux hydrauliques des anciens en Algérie*, Paris, 1902, in-8°, p. 124-125.

(2) *Les Gnômes de Sidi Abd er Rahman el Medjedoub*, p. VIII-IV, note 4.

(3) La lecture adoptée en Orient est اَلخُنس et en Occident, اَلخَنس mais elles ne sont pas plus certaines l'une que l'autre. Ibn el A'rabi, dans ses *Naouâdir* cité par Abou Zeïd, *Kitâb en Naouâdir* (Beyrouth, 1894, in-8°, p. 250), donne les formes suivantes : اَلخنس, اَلخَنِس, اَلخَنِسِب, اَلخَس.

(4) Cf. Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoun*, Boulaq. 1278 héq. in-4°, p 222.

Si Dieu récompense l'homme bienfaisant pour sa fidélité, qu'il récompense généreusement Qalmas de ma part (1).

On voit que partout son père est nommé El Khoss (ou El Khass). Ibn el A'rabi lui donne le nom d'El Khoss ben Djabir ben Qoraït' el Iyâdi, d'où le surnom d'El Iyâdyah, porté par sa fille. Mais cette liste d'ascendants de Bent el Khoss est inconnue aux généalogistes Ibn Doraïd (2) et Ibn Qotaïbah (3). Ce dernier mentionne seulement un Qoraït' (فريط), frère de Qort' (فرط) fils d'Abou Bekr, remontant par Kilâb, Haouâzin et Nizâr à 'Adnân, l'ancêtre des Arabes, tandis qu'Iyâd, de qui serait descendu Khoss, était le frère de Nizâr. Le Qoraït' d'Ibn Qotaïbah ne peut donc pas être l'ancêtre de Bent el Khoss (4).

Du reste cette désignation d'Iyâdyah a-t-elle quelque valeur ? Je ne le crois pas, et les auteurs arabes semblent avoir partagé cette opinion, car quelques-uns font de Bent El Khoss une 'Amaliqa (Amalécite). issue des débris du peuple de 'Ad, ce qui nous rapporte aux temps fabuleux (5) et nous donne lieu de croire qu'elle n'a jamais existé, pas plus en Arabie que dans le Sud algérien.

Mais en Orient, comme en Occident, les traits caractéristiques de sa légende sont identiques et les maximes en prose rimée qu'on lui attribue ont le même cachet. Elle est appelée à donner son avis sur les chevaux,

(1) Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoun*, p. 222.

(2) *Kitâb el Ichtiqâq*, éd. Wüstenfeld, Gœttingen, 1854, in-8°.

(3) *Kitâb el Ma'ârif*, éd. Wüstenfeld, Gœttingen, 1850, in-8°.

(4) J'ajouterai que d'après le *Tâdj el 'Arous*, citant Ibn Doraïd (s. v° أيل), il y aurait eu deux autres Iyâd : l'un fils de Nizâr, mais on ne peut le compter parmi les ancêtres directs de Qoraït' qui descendait de son frère Modhar, l'autre, fils de Sa'oud ben El H'adjar ben 'Amar. Un vers de Daoud el Iyâdi mentionne l'existence du premier.

فِي جَوْحَسَنٍ أَوْجُهُهُم * مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَضَرْ

Parmi des héros aux beaux visages, issus d'Iyâd, fils de Nizâr, fils de Modhar.

On pourrait supposer que cette épithète s'applique à un membre de la tribu des B. Iy'âd, qui s'établit à Sindâd, fit la guerre à Khosrou Parviz, roi de Perse, prit part à la bataille de Dzou-Qâr et envoya une ambassade au Prophète (cf. Nœldeke, *Geschichte der Perser und der Araber*, Leiden, 1879, in-8°, p 237 et note), mais rien ne justifie cette hypothèse.

(5) Ibn el A'rabi, *Naouâdir* ap. Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, Le Qaire, 1282 hég. 2 v. in-8°. t. II, p. 270 : Aboud Zeïd, *Naouâdir* p. 250.

les chameaux, le mariage, et ses sentences ont le même caractère de simplicité du fonds et de recherche de la forme (1).

On lui demanda : Quel est l'homme que tu préfères ? Elle répondit : L'homme facile et généreux, bienfaisant et illustre, habile et intelligent, le seigneur redouté. — Y a-t-il quelqu'un qui surpasse celui-là ? — Oui, l'homme svelte et mince, fier et élégant, bienfaisant et prodigue, qu'on craint et qui ne craint pas. — Et quel est l'homme le plus haïssable à ton avis ? — L'homme lourd et endormi, qui se décharge des affaires sur les autres, indifférent, faible de poitrine, vil et blâmable. — Et y a-t-il quelqu'un de pire ? — Oui, le sot querelleur, négligent et négligé, qui n'est ni craint ni obéi. — On lui demanda encore : Quelle femme est préférable suivant toi ? — Celle qui est blanche et parfumée. — Et celle qui déplaît le plus (2). — Celle qui se tait si on veut la faire parler et qui parle si on veut la faire taire (3).

Un homme alla trouver Bent el Khoss pour la consulter sur la femme qu'il devait épouser. — Cherche-la brune et belle de visage, lui dit-elle, dans une famille brave, ou dans une famille noble, ou dans une famille puissante. — Il ajouta : Tu n'as laissé de côté aucune sorte de femme ? — Si fait, j'ai laissé de côté la pire de toutes : la noiraude toujours malade, aux menstrues prolongées, querelleuse (4).

On demanda à Bent el Khoss : « Quelle est la femme la plus méritante ? — Elle répondit : Celle qui demeure dans sa cour, qui remplit les vases, qui mélange d'eau le lait qui est dans l'outre. — Quelle est la femme la plus méprisable ? — Celle qui soulève la poussière en marchant, qui a une voix aiguë en parlant, qui porte une fille dans ses bras, qui est suivie d'une autre et qui est enceinte d'une troisième. — Quel est le jeune homme préférable ? — Le jeune homme aux longues jambes et au long cou, qui a grandi sans malice. — Et quel est le plus méprisable ? — Celui

(1) Les réponses citées dans le *Mozhir el 'Oloum* d'Es Soyouti ont été traduites par Perron (*Femmes arabes avant et depuis l'islamisme*. Paris et Alger, 1858, in-8°, p. 43-46) sans indication de sources et avec une liberté qui facilite, sans les excuser, de nombreux contre sens.

(2) Ces mots manquent dans l'édition du texte arabe d'Es Soyouti, évidemment incomplet. J'ai comblé cette lacune d'après Perron.

(3) Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum* t. II, p. 268. La source citée est Abou Bekr, d'après Ah'med ben Yah'ya, d'après 'Obeïd Allah b. Chebib, d'après Daoud ben Ibrahim el Dja'fari, d'après un Arabe du désert.

(4) Ibn es Sikkit, *Tahdzib el Alfâzh*, Beyrout, 1896, in-8°, p. 353; Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, t. II. p. 269. Les sources citées sont Tha'lab (mort en 291 h., 904 de J.-C. cf. Brockelmann. *Gesch. der arab. Litteratur* t. I. p. 118) dans ses *Dictées* d'après Ea'Jal ed Debeiri.

qui a le cou enfoncé, les bras courts, le ventre énorme, qui est couvert de poussière, qui a des vêtements déchirés, obéit à sa mère et se révolte contre son oncle paternel » (1).

Comme dans les traditions du Sahara, elle est consultée pour l'achat d'animaux domestiques. Son père, voulant acheter un étalon pour son troupeau de chamelles, lui dit : « Indique-moi comment je dois l'acheter ». Elle répondit : « Achète-le avec le bas de la joue marqué, les joues douces, les yeux enfoncés, le cou épais, le milieu du corps développé, très haut, très généreux, qui regimbe quand il est frappé du bâton et allonge la tête quand il est chargé entièrement » (2).

Les chameaux paraissent avoir eu sa prédilection, ce qui n'a rien d'étonnant chez des nomades, si on en juge par les réponses qu'on lui attribue : « Quelle est la chamelle la plus vive ? — C'est, dit-elle, celle qui mange tout en marchant et dont les yeux sont brillants comme ceux d'un fiévreux. — Et quelle est celle qui a le moins de valeur ? — Celle qui est prompte à aller au pâturage de bonne heure et qui ne donne que peu de lait le matin. — Quel est le meilleur des chameaux ? — C'est l'étalon au corps énorme, robuste, habitué aux voyages, vigoureux. — Quel est le chameau de moindre valeur ? — C'est celui qui est court de taille et qui a une bosse aussi petite que le dos d'une autruche » (3).

El Khoss demanda à sa fille : « Est-ce que le chameau de moins de cinq ans féconde la femelle ? — Non, et il ne laisse rien. — Et le chameau, dans sa sixième année, la féconde-t-il ? — Oui, dit-elle, mais sa fécondation est lente. — Et celui qui a perdu deux incisives ? — Oui, et de la largeur d'une coudée. — Et celui à qui pousse sa première dent de devant ? — Oui, mais il est sans force » (4).

Un jour elle dit à El Khass : « Une telle éprouve les douleurs de la parturition, en parlant d'une chamelle de son père. — Qui t'en a informée ? — Elle a un tressaillement dans les os de l'utérus, son regard est vif et elle marche en écartant les jambes. — Ma fille, elle va mettre bas » (5).

« Quel cheval préfères-tu ? lui demanda-t-on. — Celui qui a un toupet,

(1) Ibn es Sikkit, *Tahdzib el Alfâzh* p. 353; Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, t. II, p. 269-270.

(2) Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, t. II, p. 270

(3) Ibn es Sikkit, *Kitâb el Alfâzh*, 353-354.

(4) Abou Zeïd, *Naouâdir* p. 251. Le même récit est donné en abrégé par Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, t. II, p. 270.

(5) Es Soyouti. *Mozhir el 'Oloum*, t. II, p. 270 d'après les *Naouâdir* d'Ibn el A'rabi.

qui est bien soigné, robu te, de forte encolure, solide, vigoureux, ardent et rapide » (1).

On lui demanda : « Que dis-tu de cent chèvres ? ». Elle répondit : « C'est un petit bien derrière lequel s'attache la pauvreté, richesse de faible, gagne-pain de misérable. — Et cent brebis ? — C'est une ville sans défense. — Et cent chameaux ? — Quelle excellente richesse que les chameaux ! C'est ce que désirent les hommes. — Et cent chevaux ? — C'est l'orgueil de qui les possède et il ne s'en contente pas. — Et cent ânesses ? — Éloignées la nuit, honte de la réunion ; elles n'ont pas de lait qu'on puisse traire, pas de laine qu'on puisse tondre ; si on attache leur mâle, il est interdit : si on le lâche, il s'en retourne » (2).

On lui attribue aussi une réponse un peu différente au sujet de la valeur des différents biens. Le père de Bent el Khass lui demanda : Quelle est la meilleure richesse ? — Des palmiers solidement plantés dans des terrains humides, qui nourrissent en temps de disette. — Et quoi encore ? — Des brebis à l'abri de l'épizootie, qui te fournissent des agneaux, que tu trais plusieurs fois par jour et te donnent des toisons ; je ne connais pas de richesses comme celles là — Et les chameaux ? — Ce sont les montures des guerriers, le rachat du sang versé, le douaire des femmes. — Quel est l'homme le meilleur ? — Le plus visité, comme les collines d'un pays sont les plus foulées aux pieds. — Qui est-il ? — C'est celui à qui on demande et qui ne demande pas, qui donne l'hospitalité et ne la reçoit pas, qui rétablit la paix et à qui on ne l'impose pas. — Quel est le pire des hommes ? — L'imberbe bavard qui tient un petit fouet et qui dit : Retenez-moi loin de l'esclave des Benou un tel, car je le tuerai ou il me tuera. — Et quelle est la meilleure des femmes ? — C'est celle qui a un fils dans son sein, qui en pousse un autre devant elle, qui en porte un troisième dans ses bras, tandis qu'un quatrième marche derrière elle (3).

On lui demanda un jour : Qu'y a-t-il de mieux ? — Le nuage du matin qui suit le nuage de la nuit sur une terre élevée (4).

On lui attribue aussi un grand nombre de dictons en prose rimée

(1) Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoun*, p. 222-223.

(2) Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoun*, p. 223 ; Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, t. II, p. 270.

(3) Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, t. II, p. 268-269, d'après les *Dictées* d'El Qâli (mort en 356 hég., 967 de J.-C. Cf. Brockelmann, *Gesch. der arab. Lit.* t. I, p. 132), d'après Abou Bekr ben Aboû l Azhar, d'après Ez Zobéir ben Ibrahim es Sa'di, puis El Ghoulthi.

(4) Es Soyouti, *Mozhir el 'Oloum*, t. II, p. 270, d'après les *Naouâdir* d'Ibn el 'Arabi (mort en 231 hég., 844 de J.-C. Cf. Brockelmann, *Gesch. der arab. Lit.*, t. I, p. 116-117).

(سجع) entre autres ceux-ci qui sont devenus proverbes : Le pire des loups est le loup du *ghadha* (arbuste épineux) ; le pire des serpents est celui d'un sol aride, la plus rapide des gazelles est celle qui paît la *h'allabah* ; le plus fort des hommes est celui qui est mince ; la plus belle des femmes est celle qui a des formes potelées et le visage ovale ; la plus laide est celle qui est renfrognée et sèche ; la plus voracе des montures est celle qui allaite ; le meilleur morceau de viande est celui qui est près de l'os ; le plus dur des endroits pour la marche est celui où les cailloux sont sur les rochers ; les pires des troupeaux sont ceux qu'on ne peut donner en aumône ni égorger (comme les ânes) ; la meilleure des richesses est une jument soumise ou une série de palmiers fécondés (1).

On lui demanda : Quel est le nuage que tu préfères ? — Celui dont le bord retombe comme une frange, qui verse la pluie à torrents, énorme, sillonné d'éclairs, bruyant et qui envahit tout (2).

— Quel est l'homme le plus important à tes yeux ? — Celui dont j'ai besoin (3).

Elle aurait eu aussi, suivant certaines traditions, l'habitude de poser des énigmes à ceux qu'elle rencontrait, c'est ainsi qu'Ibn Nobata, dans son commentaire de l'épître d'Ibn Zeïdoun (4) lui attribue la série d'énigmes que, d'après Ilariri (5) une *djinnah* (comme la Sphynge des Grecs) proposait aux passants. Tout comme la djinnah, elle n'aurait cessé ses interrogations qu'après avoir été couverte de confusion par la réponse d'un de ses interlocuteurs qui devait compléter une série de phrases commençant par « je m'étonne » عجبت.

On a vu plus haut comment elle appréciait l'homme et la femme au point de vue du mariage. Il semblerait que, malgré son désir de se marier, indiqué aussi dans la légende saharienne, elle en ait été empêchée par son père et qu'elle ait cherché des consolations en dehors d'une union légitime. Surprise avec un esclave, elle se contenta de donner pour excuses à ceux qui lui reprochaient sa faute, ces mots devenus

(1) Zamakhchâri, *El Mostaqs'â*, manuscrit de la bibliothèque de la Médersa d'Alger à l'article اخبث ; Meïdâni, *Medjmâ el Amthâl*, Boulaq, 1284, hég., 2 vol, in-4°, t. II, p. 227 ; Reiske, *Taraphæ Moallakah*, Leiden, 1742, in-4°, p. 111-112. Dans ses *Proverbia Arabum* (Bonn, 3 vol. in-8°, 1838-43), si incomplets à tous égards, Freytag a simplement supprimé cette partie du commentaire du proverbe (t. I, p. 463-464).

(2) Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoun*, p. 223.

(3) Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoun*, p. 223.

(4) ... *Sirh' el 'Oyoun*, p. 222.

(5) *Dorrat el Ghaouas's'*, éd. Thorbecke, Leipzig, 1871, in-8°, p. 91-92.

proverbes : « La proximité du coussin et la longueur de l'entretien à l'oreille » (c'est l'occasion qui fait le larron). Les savants disent que si elle avait cité le proverbe complet, elle aurait ajouté « et le plaisir de la débauche » (1).

C'est sans doute à cet ordre d'idées qu'il faut attribuer deux vers attribués à Bent el Khass :

(Un jeune homme) droit comme la pointe d'une épée, généreux, brave, de qui je suis éprise, si c'était à ma portée.

Je le jure, si on me donnait à choisir entre sa rencontre et mon père, je préférerais n'avoir pas de père (2).

On comprend que cette réputation de finesse ait fait attribuer à Bent el Khoss dans l'ancienne Arabie, la solution d'un problème dont on fit honneur à une autre femme célèbre par sa perspicacité et non moins fabuleuse que notre héroïne. La plus ancienne version de ce problème se trouve dans une pièce du poète anté-islamique, En Nâbighah Edz Dzobyâni :

« Sois perspicace, comme la jeune fille de la tribu, quand elle vit les pigeons cherchant de l'eau, descendre vers la mare.

» Ils étaient resserrés entre les parois de la montagne, et pourtant elle les suivait d'un (œil clair) comme du verre, qui n'a jamais été enduit de koh'eul contre la chassie.

» O si seulement, dit-elle, ces pigeons et la moitié (de leur nombre) étaient ajoutés à notre pigeon, cela suffirait.

» On les compta et on trouva qu'ils formaient le nombre qu'elle avait dit, ni plus, ni moins. »

Les pigeons étaient au nombre de 66 ; en effet, $\frac{66}{2}+66\,(=33)+1=100$ (3).

(1) Zamakhchâri, *El Mostaqs'â*, manuscrit de la bibliothèque de la Médersa d'Alger ; Meïdâni, *Medjma' el Amthâl*, t. II, p. 34 ; Ibn Zeïdoun, *Risâlah* et le commentaire d'Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoun*, 222.

(2) Ibn Nobata, *Sirh' el 'Oyoum*, p. 223. Le même auteur mentionne une réponse plus cynique encore, faite par Bent el Khass : فقيل لها اى لا يور احب اليك فقالت الذى اذا حفز حفر واذا اخطأ فشر واذا خرج عقر

(3) *Divân* d'En Nâbighah, V, vers 32-36 *ap.* Ahlwardt, *The Divans of the six ancient arabic poets*, Londres, 1870, in-8°, p. 7, Hartwig Derenbourg, *Le Divân de Nabiga Dhobyâni*, Paris, 1869, in-8° ; *Khamsah Daoudouin*, Le Caire, 1293, in-8°, p. 23-24 ; Cheïkho, *Poètes arabes chrétiens*, Beyrout, 1890, in-80, p. 665-666 ; Lyall, *A commentary on ten ancient arabic poets*, Calcutta, 1894, in-4°, p. 105-106 (vers 27-31) ; Ed Damiri, *H'aïat el H'aïouan*, Boulaq, 1292 hég., 2 vol. in-4°, t. I, p. 290 ; Maïdâni, *Medjma' el Amthâl*, t. I, p. 196 ; El Baghdâdi, *Khizânat el Adab*,

La plupart des commentateurs attribuent ce calcul à la célèbre Zarqâ El Yemâmah, de la tribu de Djadis, et elle aurait dit en prose rimée :

ليت الحمام ليه
ونصفه فديه
الى حمامتيه
تم الحمام ميه

Ce sont ces paroles qu'aurait reprises En Nâbighah, d'après Moh'ammed ben El 'Abbâs El Yezidi, citant Abou l 'Abbâs Moh'ammed ben El H'asan El Ab'oual (1), Et Tebrizi (2), Abou Hilâl el 'Askari (3), Meïdâni (4) et Ed Demiri (5) Moh'ammed ben Et' Tayeb' el 'Alami (6). El Asma'i, cité par El A'lam (7), Ed Demiri (8) et El Baghdâdi (9) remplaçait les pigeons par les *qat'as*.

Mais El Asma'i rapportait avoir entendu des Arabes du désert attribuer la solution de ce problème à Bent el Khoss, dont ils citaient ainsi les paroles (mètre radjaz) :

يا ليت ذا الفطا ليهْ
ومثل نصب معيهْ

Boulaq, 1299, hég., 4 vol. in-4°, t. IV, p. 298-299 ; S. de Sacy, *Chrestomathie arabe*, 2e éd., Paris, 1826, 3 vol. in-8°, t. II, p. 146 du texte ; Guirgass et Rosen, *Arabskaia Khrestomatiia*, St-Pétersbourg, 1876, in-8°, p. 195.

(1) El Isbahâni, *Kitâb el Aghâni*, Boulaq, 1285 hég., 20 vol. in-4°, t. IX, p. 175.

(2) *Ap.* Lyall, *A Commentar*, p. 156.

(3) *Djamharat el Amthâl*, Bombay, 1304, in-4°, p. 104.

(4) *Medjma' el Amthâl*, t. I, p. 100, 196.

(5) *H'aïat el H'aïouân*, t. I, p. 190.

(6) *Anis el Mot'rib*, Fas, 1305 hég , in-4°, p. 209.

(7) Commentaire d'En Nabighah, f° 71 de mon manuscrit (provenant de Khenadsa). Il cite aussi Abou 'Obeïdah et Abou H'atim.

(8) *H'aïat el H'aïouân*, t. II, p 276 ; Ahlwardt, *Chalef el Ahmar's Qasside*, Greifswald, 1859, in-8°, p. 195-196.

(9) *Khizânat el Adab*, t. II, p. 259.

الى فطاة اجلـــــيّة
اذًا لنا فطا مـــــيّة

De ce qui précède, on peut donc conclure que la légende de Bent el Khass fait partie de cette collection de traditions que, dans leur émigration, les Beni Hilal apportèrent avec tant d'autres (1) dans le Maghrib où ils la localisèrent, et que ses origines remontent aux plus anciens temps de la littérature arabe.

René BASSET.

Correspondant de l'Institut,
Directeur de l'École Supérieure des Lettres d'Alger.

(1) Comme celle de la Djazyah, cf. l'important mémoire que lui a consacré M. Bel, *La Djazya, chanson arabe*, Paris, 1903, in-8°; Cf. aussi les légendes d'Imrou' l Qais et de Hind « la mangeuse de foie » qui y sont citées, p. 8-9 et 12-13.

LES DERNIERS ROMANS ALGÉRIENS[1]

Depuis quelques années la littérature de l'Afrique Mineure s'est accrue d'un grand nombre de romans. La facilité des communications, la séduction du ciel pur et des hivers cléments ont conduit dans cette nouvelle France un nombre considérable de touristes parmi lesquels se trouvaient des observateurs-nés et des écrivains de talent.

La dette de reconnaissance et d'émotion que ceux-ci contractèrent envers elle s'est traduite par des romans, par des recueils de nouvelles et d'impressions variés à l'infini.

On ne saurait trop féliciter et encourager les artistes qui consacrent leurs efforts à la noble entreprise de nous révéler la beauté de ces terres africaines et de nous en faire comprendre la vie multiforme et particulière.

La curiosité du monde colonial se développerait-elle en France et les œuvres de nos écrivains exotiques répondraient-elles à un besoin pressant ? Sans trop y croire, nous voulons cependant l'espérer. Même si ces romanciers d'avant-garde, en quête de nouveau à tout prix, ne cédaient qu'aux exigences de la production littéraire, leurs livres répandus dans le public ne parviendraient-ils pas à créer un courant favorable aux pays d'outre France, et à éveiller des curiosités sympathiques et qui s'ignoraient ?

La tâche est belle, le champ est vaste.

Romanciers coloniaux à qui l'ardeur et la volonté ne manquent pas, songez au retentissement qu'eurent dans des pays anglo-saxons : *Les Récits d'une femme africaine*, d'Olive Shreiner, et les livres plus récents de Kipling, sur l'Inde.

En ce qui concerne l'Afrique Mineure, un illustre ancêtre a tracé le premier et profond sillon dans ce champ d'investigations, où tant d'au-

(1) *France Nouvelle*, de Ferdinand Duchêne (Calmann Lévy) ; *Fils de grande tente*, de Seddik ben El Outa (Ollendorf) ; *Zezia*, de Paul Dumas (Ollendorf) ; *L'eau souterraine*, de Paul et Victor Margueritte (Librairie Femina) ; *Pepete le Bien-aimé*, de Louis Bertrand (Ollendorf) ; *Cagayous* de Musette, et les *Récits* du Père Robin.

حكاية شعريّة لرحلة إلى الجزائر.[1]

ترجمة ودراسة: أ. نورالدّين شرف الدّين
عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة.

تمهيد:

يتناول هذا المقال عرضا موجزا لكتاب "سائح في الجزائر" ألّفه الدّكتور بروسبير فيرو (Prosper Viro) واسمه الحقيقي فيليكس أندري (Félix André)، نشره سنة 1845، وهو سرد شعري لرحلة قام بها المؤلّف من مرسيليا إلى الجزائر ثمّ إلى قسنطينة. وقد جاء الكتاب في صورة قصيدة طويلة موزعة على أربعة أقسام: 1/من باريس إلى الجزائر. 2/الجزائر. 3/رحلة إلى قسنطينة. 4/ الجزائر والعودة إلى فرنسا. ويمزج المؤلّف في هذا العمل بين المعلومات العمليّة المتعلّقة بالرّحلة وانطباعاته الشّخصيّة عنها.

يبدأ السّرد بوصف الرّحلة البحريّة على متن الباخرة شارلمان، مع تسجيل تفاصيل دقيقة عن تكاليف السّفر وترتيبات الإبحار. ويخصص المؤلّف جزءًا مهمّا من رحلته لوصف ما عاناه أثناء عبور البحر، ولا سيما دوار البحر وما صاحبه من أعراض جسدية ونفسيّة قاسية. ويأتي هذا الوصف في أبيات شعريّة تجمع بين التّعبير عن المعاناة الشّخصيّة والتّصوير الحسي الدّقيق.

وبمجرّد وصوله إلى اليابسة، لا يكتفي المؤلّف بوصف مشاهداته، وإنّما يسجّل في أبيات شعريّة مواعيد حركة السّفن والبريد بين الجزائر ومرسيليا و(تولون)، ويذكر كذلك خطوطًا بحريّة أخرى تخدم عنّابة ووهران. وهذا يكشف أنّ الرّحلة الشعريّة احتفظت بجانب عملي ومعلوماتي واضح، إلى جانب بعدها الأدبي والجمالي.

ثم ينتقل المؤلّف إلى التّجوال في الجزائر ومدنها ومناطقها، فيزور الجزائر وقسنطينة وعنّابة وسكيكدة ودلس، ويقدّم رحلته في قصيدة طويلة تتجاوز ستّة آلاف بيت. ويعرض المقال هذا العمل بوصفه شعرًا لا يقل، في نظر صاحبه، جودة عن أشعار عدد من الشّعراء الذين كانوا معروفين في الجزائر آنذاك.

ومن أبرز المقاطع التي اختارها المقال وصف مستشفى الدّاي، الذي يربطه المؤلّف بذكريات حسين الدّاي. ويبدأ الوصف باستحضار المكان في صورته القديمة الجميلة: الشّمس، والمياه الجارية، والأحواض الرّخامية، وأشجار البرتقال والموز، والأروقة المنعشة والزّخارف العربيّة المذهبة والجدران الخزفية. ويغلب على هذا المقطع الطّابع الحسي والجمالي، حتى يبدو المكان في ذاكرة الشّاعر أقرب إلى جنّة ساحرة.

لكن الشّاعر ينتقل بعد ذلك من المكان التّاريخي إلى وظيفته الجديدة، فيشير إلى أنّ القصر أصبح مستشفى ومكانًا للمرض والمعاناة، ثمّ يصف مرافق المستشفى وتنظيمه ونظافته، وأسرته، ومخازنه الطّبية، ومغاسله، وحدائقه، ومختبره، ومطبخه الذي يعدّ الطّعام لمئات النّزلاء، ثمّ مسكن الكاهن. وهكذا يجمع الوصف بين استحضار الماضي وتصوير الحاضر.

1- حكاية شعرية لرحلة إلى الجزائر، المجلّة الأفريقيّة، الجزائر، 1927، مجلّد 68، ص270-273.

ويختم المقال بالإشارة إلى عودة المؤلّف إلى الجزائر سنة 1865، حيث نشر هذه المرّة، باسمه الحقيقي، كتابًا نثريًا عن رحلته الثّانية بعنوان "الجزائر: جولة تاريخيّة وطبوغرافية" ويشير المؤلّف نفسه إلى الفرق بين العملين، إذ يقول أنّه روى رحلته الأولى شعرًا، وسيروي الثّانية نثرًا، ثمّ يؤكّد أنّ الجزائر لم تفقد، في نظره، كلّ ما هو خلاب وشاعري، بل يرى أنّ الجزائر قد كسبت، بالنّسبة إلى السّائح، أكثر ممّا خسرت.

قيمة الوثيقة:

تمثّل هذه الوثيقة نموذجًا مهمّا من أدب الرّحلة إلى الجزائر في القرن XIXم، لأنّها لا تقدّم صورة عن الجزائر من خلال تقرير إداري أو عسكري، وإنّما من خلال تجربة شاعر وسائح أوروبي جعل من رحلته مادّة شعريّة طويلة. وتكمن أهمّيتها في أنّها تجمع بين التّسجيل والوصف والانطباع، فتتحوّل الرّحلة من مجرّد انتقال جغرافي إلى تجربة أدبيّة تسجّل ما يراه الرّحالة وما يشعر به وما يعلّق في ذاكرته.

ومن النّاحية التّاريخيّة، توفّر الوثيقة معلومات عن جوانب من الحياة في الجزائر خلال الفترة التي عاش فيها المؤلّف خلال رحلته، ولا سيما المواصلات البحريّة، ومواعيد السّفن، وحركة البريد، والمدن التي قصدها، وبعض المؤسّسات والمرافق. فالمؤلّف لا يكتفي بالحديث عن المناظر، وإنّما يورد تفاصيل دقيقة عن وسائل السّفر ومواعيد الرّحلات، وهو ما يمنح النّص قيمة تتجاوز قيمته الأدبيّة الخالصة.

وتبرز أهمّيتها التّاريخيّة كذلك من خلال وصفها للأماكن والمؤسّسات. ويأتي مستشفى الدّاي في مقدّمة الأمثلة؛ فالمقطع الشّعري لا يحفظ فقط صورة جماليّة لمبنى ذي ملامح معمارية شرقيّة، وإنّما يسجّل أيضًا كيفيّة استخدام المكان في زمن الرّحلة، وما يشتمل عليه من مرافق وتجهيزات وخدمات. ومن ثمّ يمكن قراءة هذا النّص باعتباره شاهدًا أدبيًا على تحوّل بعض الفضاءات الجزائريّة ووظائفها خلال القرن XIXم.

من النّاحية الأدبيّة، فالوثيقة تكشف عن تحويل الرّحلة إلى مادّة شعريّة. فالمؤلّف لم يكتب مذكّرات نثرية ثمّ يزينها ببعض الشّعر، بل اختار أن يجعل الرّحلة نفسها سردًا شعريًا موزعًا على أوزان مختلفة يعرفها الشّعر الفرنسي الغنائي.

ومن هنا يمكن النّظر إلى الوثيقة بوصفها مصدرًا لدراسة الصّورة الأدبيّة للجزائر في أدب الرّحلة الفرنسي؛ فهي تكشف كيف كان الرّحالة ينظر إلى المدن والمناظر والعمران والمؤسّسات، وكيف تتحوّل مشاهداته إلى صور شعريّة. كما تكشف عن حضور الذّاكرة في تشكيل صورة المكان، فالشّاعر لا يصف مستشفى الدّاي كما يراه فقط، بل يستعيد أيضًا ما كان عليه المكان في الماضي، ويقارن بين صورته القديمة ووظيفته الجديدة. وهذا يمنح النّص بعدًا زمنيًا يجمع بين الماضي والحاضر.

ينبغي، مع ذلك، إلّا نتعامل مع هذا النّص بوصفه صورة موضوعية مكتملة عن الجزائر؛ فهو في الأساس رحلة أدبيّة تقوم على رؤية مؤلّف أجنبي ومشاهداته وانطباعاته في زمن الاحتلال الفرنسي. ولذلك فالقيمة التّاريخيّة للنّصّ تكمن أيضًا في كونه يكشف كيف صُوّرت الجزائر في عين الرّحالة والشّاعر الفرنسي، وليس فقط في المعلومات التي يقدّمها عن الجزائر نفسها.

ومن هذه الزّاوية تحديدًا نرى أنّ الوثيقة مهمّة من حيث أنّها تقع عند تقاطع التّاريخ والأدب وأدب الرّحلة والصّورة الأدبيّة للجزائر. كما أن وجود النّسخة الشعريّة الأولى ثمّ الرّحلة النّثرية الثّانية للمؤلّف نفسه سنة 1865 يوفّر مادّة ممتازة لدراسة تحوّل صورة الجزائر بين الشّعر والنّثر، وبين الرّحلة الأولى والثّانية.

ملاحظات حول النّصّ:

يمكن أن نلاحظ ما يأتي:

1 - أبرز ما يميز الوثيقة أنّ الرّحلة لم تُكتب في صورة مذكّرات أو يوميّات، وإنّما صيغت في عمل شعري طويل يتجاوز ستّة آلاف بيت. وهذا يجعلها وثيقة أدبيّة ذات قيمة فنّية عالية، إذ تنحو منحى الملاحم التي عرفت عن هوميروس وغيره من الرّحالة.

2 - لا يفصل المؤلّف بين المعلومة الموضوعية - في الوصف للمكان والزّمان والأشياء والأشخاص - والانطباع الذّاتي. فهو يسجّل أسعار السّفر ومواعيد السّفن وخطوط الملاحة، ثمّ ينتقل إلى وصف البحر ودوار السّفر، والمناظر، والمدن والمؤسّسات. ولذلك فإنّ النّص يجمع بين الوظيفة التّوثيقيّة والوظيفة الأدبيّة.

3 - تتميز لغة الوثيقة، في المقاطع التي نقلها المقال، بوفّرة التّفاصيل البصرية والحسية. ويظهر ذلك بصورة خاصّة في وصف مستشفى الدّاي: الماء، والرّخام، والبرتقال، والموز، والأروقة والزّخارف العربيّة، والخزف، والحدائق. وهذا يجعل المكان حاضرًا أمام القارئ بوصفه مشهدًا بصريًا متكاملًا.

4 - لا ينظر الشّاعر إلى المكان باعتباره فضاءً جغرافيًا فقط؛ بل يستحضر ماضيه، كما يظهر في حديثه عن ارتباط مستشفى الدّاي بحسين الدّاي، ثمّ يقارن بين المكان في الماضي ووظيفته في الحاضر. ومن هنا تتحوّل الرّحلة إلى نوع من الحوار بين ذاكرة المكان وحاضره.

5 - من اللّافت أنّ المؤلّف لا يتجنب التّفاصيل التي قد تبدو صغيرة أو هامشية، مثل سعر تذكّرة السّفر ومواعيد السّفن والبريد، بل يبرر ذكر السّعر الدّقيق بأنّه قد يهم القارئ. وهذه السّمة تمنح النّص قيمة توثيقيّة مهمّة، لأنّها تحفظ جوانب من الحياة اليوميّة وحركة السّفر في تلك المرحلة.

6 - لا تنحصر الرّحلة في مدينة الجزائر، وإنّما تمتد إلى قسنطينة، وعنّابة، وسكيكدة ودلس. وهذا يوسّع المجال الجغرافي للنّصّ ويجعله مصدرًا محتملًا لدراسة تمثلات عدد من المدن الجزائريّة في أدب الرّحلة خلال القرن XIXم.

7 - تزداد أهمّية الوثيقة بسبب عودة المؤلّف نفسه إلى الجزائر سنة 1865 وكتابته عن رحلته الثّانية نثرًا بدل الشّعر. وهذا يفتح مجالًا مهمّا للمقارنة بين صورتين للجزائر عند الكاتب نفسه: صورة صيغت شعريًا في الرّحلة الأولى، وأخرى صيغت نثريًا في الرّحلة الثّانية. والمؤلّف نفسه يصرح بهذا الاختلاف حين يقول إن رحلته الأولى كانت شعرًا، بينما ستكون الثّانية نثرًا.

التّرجمة:

تحت عنوان سائح في الجزائر، نشر الدّكتور (Prosper Viro/بروسبير فيرو)، واسمه الحقيقي: (فيليكس أندري)، سنة 1845، سردًا شعريًا لرحلته من مرسيليا إلى الجزائر ثمّ إلى قسنطينة (باريس، بول ماسغانا، طبعة in-16، 298 صفحة). وقد كُتب هذا السّرد بأوزان شعريّة متنوّعة، ويتألّف من أربعة أقسام: 1/ من باريس إلى الجزائر. 2/ الجزائر. 3/ رحلة إلى قسنطينة. 4/ الجزائر والعودة إلى فرنسا.

ويمتزج في هذا العمل ما يذكره المؤلّف من معلومات ذات طابع عملي بانطباعاته الشّخصيّة عن الرّحلة. ويبدأ النّص بوصف الصّعود إلى متن الباخرة "شارلمان"، وهي باخرة يشيد الجميع بخفة سيرها ورشاقة مقدّمتها، وما تتميز به من هيبة وأناقة، استعدادًا للرحيل، هنا كلّ شيء قد أصبح مهيأً:

لقد حجزنا، مقابل مائة وسبعة عشر فرنكًا للشّخص الواحد، أماكننا الثّلاثة على متن الباخرة شارلمان. (وأعتذر عن هذا التّفصيل؛ فالقارئ قد يستسيغ أحيانًا الاطّلاع على رقم دقيق وصحيح)،

ثم يعرض المؤلّف، على امتداد نحو عشر صفحات، الانطباعات التي راودته أثناء عبور البحر، وكان أشدها وقعًا بلا شكّ الإصابة بدوار البحر فيقول:

شعور غريب بالاعتلال، واضطراب لم نألّفه من قبل
أخمد حوّاسنا، وأغرق عقولنا
في حالة من القلق الذي تعجز الكلمات عن وصفه،
حيث يصبح أقلّ مجهود مستنزفًا ومؤلمًا؛
فيشلّ أطرافنا المثقلة،
ويحجب ضوء النّهار عن أعيننا المذهولة
ويجعل من معدتنا، ذلك المحرّك المستبد
عضوًا تتشنّج أليافه رغمًا عنها.
حاولنا في البداية أن نقاوم هذا الدّاء النّاشئ بالهواء العليل في الخارج،
وهو علاج لم يكن ذا جدوى.
وسرعان ما اضطررنا إلى الاستسلام: مرارة الفم تملؤنا،
متساندين بعضنا إلى بعض، وقد علا الشّحوب وجوهنا،
وانسحبنا إلى مضاجعنا.
غير أنّ اللّيل انقضى دون أن يهدئ التّمزق الخفيّ
الذي كانت تسبّبه آلامي، وبينما كانت الحياة تدبّ من جديد في أضلعي المنهكة،
عاد جفاف حلقي ليُسكت الغثيان.

وبمجرّد أن وطئت قدماه اليابسة، سارع المؤلّف إلى تسجيل - في أبيات شعريّة - مواعيد البريد.

في الخامس، والخامس عشر، والسّابع والعشرين من كلّ شهر،
تنطلق باخرة الدّولة متّجهة إلى (تولون)؛

أما السّفن التي تستأجرها مدينة مرسيليا، تلك المنافسة النّشيطة،
فلا تبحر إلّا في العاشر، والعشرين، والثّلاثين من الشّهر.
وفي الاتّجاه المعاكس، تتناوب سفن البريد في رحلة العودة،
في العاشر، والعشرين، وفي اليوم الأخير من كلّ شهر.
وهناك خطّ آخر يخدم السّاحل الممتدّ نحو عنّابة،
وخطّ أخير، خُصص لغاية مختلفة تمامًا،
يبحر كلّ يوم ثلاثاء نحو مدينة وهران.

يزور المؤلّف مدينة الجزائر وضواحيها، ثمّ قسنطينة، وعنّابة، وسكيكدة، ودلس، في قصيدة تتجاوز ستّة آلاف بيت. ولا تقل هذه الأبيات، في مجملها، جودةً عن أشعار أوزون "دو شانسيل" و"ماري لوفيفر" اللّذين عُدّا في الجزائر من الشّعراء، ويتيح المقطع الآتي الذي يصف زيارته إلى مستشفى الدّاي الحكم على ذلك:

كان هذا المكان مقرَّ الإقامة المحبب إلى حسين،
حين كان الحب يقوده إليه.
كانت شمس استوائية متقدة تتوهج فوق رؤوسنا:
غير أنّ المياه الجارية كانت تنساب في كلّ مكان بهمسة لا تنقطع،
وكانت نسمات دافئة عليلة تداعب الوجوه بلطف.
وهناك، ما زلت أرى تلك الأحواض الرّخامية
التي كانت تدعو إلى حمّام معطر،
وتلك أشجار البرتقال بثمارها الشّهية الفوّاحة،
وتلك الموزات السّامقة التي تعلو قمم الأشجار.
ولا يزال يتراءى لي ذلك الرّواق المنعش،
وذلك القبو المزدان بزخارف عربيّة مذهبة،
وذلك الجدار الخزفي الموشى بمعينات أنيقة؛
وفي تلك الجنة السّاحرة،
التي كانت المحبة ملائكتها،
وحيث لم تكن السّعادة إلّا متعةً خالصّة،
أعترف أنّني، كلمّا نقبت في ذاكرتي، أكاد أنسى
أن هذا القصر الشّرقي لم يعدّ اليوم سوى مستشفى...
مستشفى، مكان اتّخذه الموت القاسي،
أو على الأقلّ المعاناة، ميداناً له؛
ولكنّه مستشفى أستطيع، دون مبالغة أو تملق، أن أسميه بحقّ ملاذاً ساحراً.

كان مديره الكفء هو الذي استقبلنا
وأخذ يطوف بنا في أرجائه:
فأرانا الأسرة المتباعدة بعناية،
وأغطيتها الكتانية البيضاء المرتبة في صفوف منتظمة؛
ثم عرض علينا، في مستودع تعتمد عليه الممارسة الطّبية،
كنوز فن الصّيدلة المتنوّعة،
وأرانا المغاسل التي يفور فيها الماء بغزارة؛
وتلك البساتين الرّائعة التي يقطف فيها المتعافون
"ثماراً غُرست في الماضي لأجل اللّهو والمتعة؛
ثم مضى بنا إلى المختبر،
حيث يقف، في تواضع يشبه الطّاهي الفرنسي الشّهير فاتيل،
رئيس المطبخ منهمكاً فوق مواقده، يغذي لهيب النّار المتقد،
ويعدّ بعناية وليمةً تكفي لثمانمائة من نزلائه؛
ثم، في ظلّ شجرة ليمون،
وتحت أوراق شجرة المستكي،
يقع ذلك المسكن الأنيق للكاهن،
حيث يسهر المرشد الرّوحي قرب حوض الجارية الحسناء (الأوداليسك).

عاد المؤلّف إلى الجزائر سنة 1865، ونشر، هذه المرّة باسمه الحقيقي، رواية رحلته الثّانية بعنوان: الجزائر: جولة تاريخيّة وطبوغرافية. (ليل - باريس، منشورات ج. لوفور، دون تاريخ، من القطع الثّماني 166 صفحة). "لقد رويت رحلتي الأولى شعراً، وسأروي هذه الرّحلة نثراً. لكل زمان إلهامه. فهل يعني ذلك أن أفريقيا الفرنسيّة لم يعدّ فيها ما هو خلاب أو شاعري؟ كلا، بكلّ تأكيد. وإذا ما وازنا الأمور، فلست بعيداً عن الاعتقاد بأن الجزائر، بالنّسبة إلى السّائح، قد كسبت أكثر ممّا خسرت".

الملحق13: حكاية شعريّة عن رحلة في الجزائر: عرض لكتاب "سائح في الجزائر" لـ: بروسبير فيرو

temps où la traite des esclaves florissait encore ! ô Moïse et les prophètes ! qu'il faisait bon vivre alors ! Voyez-vous, ces imbéciles de Turcs et de Maures achetaient toujours les gens les plus forts et les plus robustes et les payaient fort cher ; mais pour nous, nous ne regardions jamais qu'aux mains. Si elles étaient délicates et blanches, et surtout si on voyait aux doigts les traces de bagues qu'on en avait arrachées (en parlant ainsi il regardait les miennes d'un œil d'envie) ; si, avec cela, la personne paraissait être d'une santé faible, nous mettions tout de suite la main sur la marchandise que nous obtenions d'ordinaire presque pour rien. Combien n'avons-nous pas acheté d'hommes pour quarante piastres qui, plus tard, nous payaient une rançon de dix mille ! Maintenant il n'y a plus d'eau à boire. Entre nous soit dit, les Français ne comprennent pas le pays et ne sont pas faits du tout pour lui. Loin qu'il y ait rien à gagner avec eux, ils ne viennent ici que pour s'enrichir eux-mêmes, le plus vite possible. Ce sont de vrais fesse-mathieu, pires que nous autres juifs que l'on méprise. Du reste, ajouta-t-il d'un air malin, leur gouvernement tire à sa fin. Voilà plus de cinq ans qu'ils sont ici, et l'on ne peut pas sortir de la porte sans courir le risque de se faire couper le cou par les Bédouins. Nos Turcs étaient de bien autres gens ! Voici en deux mots ce qu'il en est. Les Turcs prenaient beaucoup, mais ils donnaient beaucoup aussi ; les Turcs punissaient avec cruauté, mais ils récompensaient avec générosité ; de sorte qu'on les craignait et on les respectait. Les Français ne prennent rien et ne donnent rien. » — (Pückler-Muskau : *Chronique, lettres et journal de voyage*. Paris, 1837, 3 vol. in-8°, t. I, pp. 145-147.)

Un récit de voyage en Algérie en vers. — Sous le titre *Un touriste en Algérie*, le docteur Prosper Viro, de son vrai nom Félix Andry, publia, en 1845, un récit en vers de son voyage de Marseille à Alger puis à Constantine (Paris, Paul Masgana, in-16, 298 p.). Ce récit, écrit en mètres variés, comprend quatre parties : I, de Paris à Alger ; II, Alger ; III, Voyage à Constantine ; IV, Alger et retour en France. — Les renseignements d'ordre pratique s'y mêlent aux impressions du voyageur.

C'est d'abord l'embarquement sur le *Charlemagne*

Paquebot dont chacun vante le col léger,
L'élégante encolure et la noble prestance,
.....

Nous avons, moyennant cent dix-sept francs par tête,
(Pardon de ce bétail, quelquefois le lecteur
D'un chiffre exact et vrai peut bien être amateur)
A bord du *Charlemagne* assuré nos trois places.

Suivent, en une dizaine de pages, les impressions ressenties pendant la traversée, dont la plus vive paraît avoir été celle du mal de mer.

Un bizarre malaise, un trouble tout nouveau,
Vient éteindre nos sens, plonge notre cerveau
Dans un de ces états d'inexprimable angoisse
Où le moindre travail nous épuise et nous froisse ;

Paralysant nos membres alourdis,
Il interdit le jour à nos yeux étourdis,
Et de notre estomac, stimulant despotique,
Convulse malgré lui la fibre sympathique.
Nous essayons d'abord, contre ce mal naissant
De l'air frais du dehors l'antidote impuissant ;
Bientôt il faut céder : l'amertume à la bouche,
L'un sur l'autre appuyés et le front pâlissant,
Nous battons en retraite et gagnons notre couche.

Mais la nuit passe sans qu'elle

Calmât de mes douleurs le sourd déchirement,
Et redonnant la vie à mes côtes brisées
De mon pharynx à sec fit taire les nausées.

A terre, l'auteur s'empresse de noter — en vers — les heures de courrier.

Les cinq, quinze et vingt-sept, le bateau de l'Etat
S'élance vers Toulon ; quant à ceux que fréta
La ville de Marseille, active concurrente,
Ils ne prennent la mer que les dix, vingt et trente.
En sens inverse alternant leur retour,
L'un et l'autre courrier reviennent tour à tour,
Les dix, vingt et le jour où chaque mois s'achève.
Un autre sert la côte où Bône se relève ;
Un dernier, que réclame un but tout différent,
Cingle chaque mardi vers la cité d'Oran.

L'auteur visite Alger et ses environs, puis Constantine, Bône, Philippeville, Mellys, soit plus de 6.000 vers. Ils ne sont pas, en général, inférieurs à ceux des Ausone de Chancel et des Marie-Lefèvre que l'on a considérés à Alger comme des poètes. Le morceau suivant — une visite à l'hôpital du Dey — permettra d'en juger.

Séjour chéri d'Hussein quand l'amour l'y guidait,
Un soleil tropical flamboyait sur nos têtes :
Mais là, ruisseaux partout au murmure incessant,
Et des tièdes zéphirs le souffle caressant.
.....
Là, je revois encor ces bassins dont les marbres
Invitaient au bain parfumé,
Ces orangers au fruit savoureux, embaumé,
Ces bananiers plus hauts que la cime des arbres.
J'y revois le frais corridor,
La voûte aux arabesques d'or,
Le mur de porcelaine aux coquettes losanges ;
Et dans cet Eden enchanté
Dont les amours furent les anges,
Où le bonheur ne fut que volupté,
J'ai peine, je l'avoue, en fouillant ma mémoire
A me ressouvenir.....
Que ce palais oriental
N'est aujourd'hui qu'un hôpital...
Un hôpital, un lieu que la mort inhumaine,
La souffrance du moins, a choisi pour domaine ;
Oui, mais un hôpital que, sans être flatteur,
Je puis presque appeler un asile enchanteur.
C'est son habile directeur
Qui nous reçoit et nous promène :
Il nous fait admirer ces lits biens espacés,
Et leurs voiles de lin par rayons entassés ;
Il nous montre, arsenal où puise la pratique,
Les trésors variés de l'art pharmaceutique,
Et ces lavoirs où l'eau bouillonne à flots pressés ;
Ces bosquets merveilleux où la convalescence
Cueille les fruits semés jadis pour la licence ;
Jusqu'au laboratoire où modeste Vatel,
Penché sur ses fourneaux, l'actif maître d'hôtel,
Stimulant du brasier es flammes déjà vives,
Combine le festin de ses huit cents convives ;

Puis à l'ombre d'un citronnier,
Et sous les feuilles du lentisque,
L'élégant presbytère où veille l'aumônier
Près du bassin de l'odalisque.

L'auteur revint à Alger en 1865 ; il publia sous son véritable nom le récit de se second voyage : *L'Algérie, promenade historique et topographique*. (Lille-Paris, J. Lefort, s. d. in-8°, 166 p.). « J'ai raconté, écrit-il dans sa préface, mon premier voyage en vers ; je vais raconter celui-ci en prose. Autre temps, autres inspirations. Est-ce à dire que l'Afrique française n'ait plus rien de pittoresque ou de poétique ? Non certes, et à tout prendre, je ne serais pas éloigné de penser que, pour un touriste, l'Algérie a plus gagné qu'elle n'a perdu. »

الشّعر الشّعبي السّياسي في عهد الأمير عبد القادر[1]

LA POÉSIE POPULAIRE POLITIQUE au temps de l'émir 'Abdelqader

(A. Cour/ أ. كور)

ترجمة وتعريب: أ.د. حبيب مونسي

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة.

تمهيد:

يتناول هذا المقال الدّور المحوري للشّعر الشّعبي السّياسي كأداة إعلاميّة وتوجيهية خلال عهد الأمير عبد القادر في الجزائر. ويُبرز الكاتب كيف استُخدمت القصائد كوثائق تاريخيّة تعكس صراعات السّلطة واتّجاهات الرّأي العام، متجاوزةً قيمتها اللّغوية الصّرفة. فبينما يمثّل الشّاعر "قدور ولد محمّد" صوت المعارضة الذي انتقد قسوة الأمير وتنبّأ بزوال ملكه، يبرز "سي الطّاهر بن حواء" شاعرا رسميا يكرّس شرعيّة الأمير ويمجّد انتصاراته. وبذلك، يؤكّد المؤلّف أنّ الشّعر كان بمثابة الصّحافة المعاصرة التي حفظت تقاليد المجتمع وعبّرت عن همومه السّياسية والاجتماعيّة.

تكمن أهمّية هذه الدّراسة في تسليط الضّوء على الأجواء المعنوية لتلك الحقبة التّاريخيّة من خلال نصوص شعريّة أصبحت أمثالاً شعبيّة خالدّة.

01- الشّعر الشّعبي والصّراع بين السّلطة والقبائل الجزائريّة؟:

يبرز الشّعر الشّعبي كأداة سياسيّة وفكريّة فعالة في الكشف عن الصّراع بين السّلطة والقبائل الجزائريّة في عهد الأمير عبد القادر، حيث لعب الشّعراء دور "النّاطق الرّسمي" باسم قبائلهم للدّفاع عن مصالحها أو التّعبير عن سخطها تجاه السّلطة النّاشئة. ويمكن تلخيص صور هذا الصّراع من خلال النّقاط التّالية المستمدة من المصادر:

1/التّشكيك في شرعية السّلطة وأصولها: استخدم شعراء القبائل المعارضة، مثل "قدور ولد سي محمّد البرجي"، الشّعر للطّعن في أحقيّة الأمير عبد القادر بالحكم. فقد كان يهجو الأمير ويسخر من خَلْفِيته الدّينية والحضريّة متسائلاً باستنكار: (هل رأى النّاس يوماً سلطاناً خرج من زاوية؟ وهل رأوا حضرياً يصبح قائداً على العرب؟). وكان هذا الخطاب يهدف إلى إثارة حفيظة العرب البدو الذين كانوا يأنفون من خضوعهم لسلطة الحضر.

2/تصوير السّلطة كقوّة قاسية ومستبدّة: قدّم الشّعر المعارض "الأمير عبد القادر" في صورة الحاكم المتردّد، الماكر، والقاسي. وتعكس قصائد "قدور ولد سي محمّد البرجي" مرارة الصّراع من خلال وصف معاناة القبائل التي ناهضت الأمير، مثل تدمير مدينة البرج، وتشريد العائلات وسجن الأهلي. كما يصوّر الشّاعر السّلطة في حالة "قطيعة" مع الرّعية، حيث يصف قلب الحاكم بأنّه "بعيد عن الرّضا" وقاسٍ لا يعرف العفو رغم التّوسُّلات.

1- أ. كور (A. Cour)، (الشّعر الشّعبي السّياسي في عهد الأمير عبد القادر). المجلّة الأفريقيّة، المجلّد 59، سنة 1918، ص458-493.

3/التّذكير بتقلبات الدّهر وسقوط العروش: استخدمت القبائل المعارضة الشّعر كتحذير للسّلطة من مغبة الغرور بالقوّة. فقد عمد الشّعراء إلى المقارنة بين الأمير وبين ملوك وأمم غابرة سقطت عروشها رغم قوّتها، مثل "بني مرين" و"بني زيان" و"الأتراك"، وحتى قياصرة الرّوم... وتعدّ نبوءة الشّاعر التي تقول: (وكما استوليتَ على هذا البلد لتحكمه، سيستولي عليك ذاك الآخر!) إشارة واضحة للصّراع حول دوام السّلطة وتذكيراً لها بأنّ "الدّهر متقلب.

4/الشّعر كأداة للمواجهة الإعلاميّة (البروباجندا): لم تكن السّلطة صامتة في هذا الصّراع، بل كان لها شعراؤها الرّسميون، مثل "سي الطّاهر بن حواء"، الذين كُلِّفوا بالرّد على هجاء القبائل وتثبيت دعائم الحكم الجديد. وفي مقابل تصوير المعارضين للأمير كحاكم قاسٍ، عمل شعراء السّلطة على:

- تأكيد الشّرعية الدّينية والنّسب الشّريف للأمير (سلالة قريش) لضمان ولاء القبائل.
- تصوير خضوع القبائل للسّلطة كـ"يوم مبارك" مليء بالهناء والبركة.
- تمجيد الانتصارات العسكريّة وتصويرها كدليل على التّأييد الإلهي.

5/دور"القوّالين" في تشكيل الرّأي العام القبلي: كان الشّعر ينتقل بسرعة عبر القوافل والمنشدين الشّعبيين (القوّالين والمدّاحين)، ممّا جعله يقوم بدور "الصّحافة" أو "المنبر الدّائم" في تلك المجتمعات. وبسبب هذا التّأثير البالغ، كانت السّلطة حريصة أمّا على استمالة الشّعراء وتسخيرهم لسياساتها أو محاولة إسكاتهم، لأنّ الرّأي العام القبلي كان يتشكّل من خلال هذه القصائد التي تحفظ الوقائع وتهزّ الخيال الجماعي.

لم يكن الشّعر الشّعبي مجرّد ترف أدبي، بل كان ساحة حرب معنوية تعكس التوتّر الدّائم بين رغبة السّلطة المركزية في فرض الطّاعة وبين نزوع القبائل للمحافظة على استقلاليتها وأعرافها.

02- كيف تعامل كاتب المقال مع شخصيّة الأمير عبد القادر؟:

قارب كاتب المقال (أ. كور) شخصيّة "الأمير عبد القادر" من منظور تاريخي وتحليلي، حيث لم يكتفِ بسرد الأحداث، بل اتّخذ من الشّعر الشّعبي وسيلة لفهم التّعقيدات السّياسية والاجتماعيّة المحيطة بسلطة الأمير. ويمكن تفصيل كيفيّة تعامله مع الشّخصيّة من خلال النّقاط التّالية:

***الأمير كرمز لمحاولة إحياء التّقاليد العربيّة والإسلاميّة:** يرى الكاتب أنّ الأمير لم يكن مجرّد قائد عسكري، بل سعى لتمثيل "التّراث العربي" في حكمه. ويشير إلى أنّ الأمير حاول بوعي إحياء تقاليد الدّول الإسلاميّة الكبرى (الأمويّة والعبّاسية) من خلال استمالة الشّعراء ليكونوا "لسان حال" سلطته، تماماً كما كان يفعل الخلفاء، وحتى الرّسول ﷺ مع حسان بن ثابت.

***تقديم صورة و اقعية للصّراعات السّياسية والقبلية:** لم يصور الكاتب الأمير كحاكم خضع له الجميع بيسر، بل أبرز التّحديات التي واجهها، مثل "رِيْبَة" كبار الزّعماء والقبائل (مثل قبيلة الأنجاد وسي العربي) من سلطته الجديدة [6، 7]. كما أشار الكاتب إلى الجانب القاسي في ممارسة السّلطة مثل تدمير الأمير لمدينة "البرج" عقاباً لسكانها على مساندة خصومه.

***اعتماد "المرآة المزدوجة/المعارضة والموالاة):** كان تعامل الكاتب ذكياً إذ لم يتبنَّ وجهة نظر واحدة، بل قدم شخصيّة الأمير من خلال رؤيتين شعريتين متناقضتين:

• من خلال الشّاعر المعارض (قدور ولد امحمّد): أبرز الكاتب وجهة النّظر التي ترى الأمير إنساناً "متردّداً، ماكراً، وقاسياً"، وتصوّره كحاكم عابر قد يطيح به الدّهر كما أطاح بغيره.

• من خلال الشّاعر الرّسمي (سي الطّاهر بن حواء): أبرز الكاتب صورة الأمير كحاكم "شرعي، مؤيّد إلهياً، وشريف النّسب"، يمتلك كرم الملوك الأسطوري ويسعى لاستعادة الإيمان الإسلامي وتوحيد الصّفوف.

*الأمير كشخصيّة "أسطورية" و"واقعية" في آن واحد: نقل الكاتب روايات شعبيّة تضفي طابعاً "ولائياً" أو روحياً على الأمير، مثل الرّواية التي تذكر تأثّره ببيت شعري تنبّأ بسقوط حكمه، وقوله عن الشّاعر المعارض: "لقد كان ولد امحمّد ولياً؛ ولم أكن أعلم بقدرته". هذا يظهر أنّ الكاتب يدرك ثقل شخصيّة الأمير في "الخيال الجماعي" للجزائريين.

الموقف الأكاديمي المحايد: في نهاية المقال، يخلص الكاتب إلى أنّ هذه القصائد (بما فيها من مدح أو قدح) هي "شواهد على الحالة الذّهنية" لذلك العصر. فهو لا يحكم على أخلاق الأمير، بل يعتبره محور "الأجواء المعنوية" التي يمكن للمؤرّخ الاستناد إليها لفهم حالة الرّأي العام في تلك الفترة.

تعامل الكاتب مع الأمير عبد القادر كشخصيّة مركزية في بناء الدّولة والشّرعية، محاطة بجدل سياسي وشعري يعكس التوتّر بين السّلطة المركزية النّاشئة والأعراف القبلية المستقرّة.

التّرجمة:

منذ إحياء البحث العلمي في دراسات اللّهجات العربيّة، بإلهام من كلّية الآداب بالجزائر، تبيّن أنّ الأدب الشّعبي الجزائري غنيٌّ بالأنواع الأدبيّة، غزير الإنتاج، ومفيدٌ في قصصه الإنسانية [1]. مع ذلك أُجريت هذه الدّراسات في المقام الأوّل لأغراض لغويّة. وقد استُخدم الشّعر، على وجه الخصوص، لأنّ الشّعر يحافظ على الصّيغ اللّفظية بشكل أفضل؛ إذ لا يمكن تغيير كلمة دون تغيير المعنى أو الوزن. وهو بمعنى ما، شواهد [2]، نماذج مثالية للّغة العامّية في زمن معين. لهذا السّبب استشهد العديد من المؤلّفين بنصوص شعريّة كثيرة؛ فقد وجدوا فيها ضمانًا لأصالة الكلمات يفوق ما في النّصوص النّثرية.

لكن الشّعر الشّعبي شاهدٌ أيضًا على عادات وأفكار وهموم عصرٍ ما. ولذلك، فهو ذو قيمة تاريخيّة. هذا الجانب الأخير من دوره لم يُؤخذ بعين الاعتبار، على الأقلّ في شمال أفريقيا، من قِبل المستشرقين

1- كلود ديسبارميه (Cl. Desparmet)، (الشّعر العربي الرّاهن في البليدة وعَروضُه)، ضمن أعمال المؤتمر الدّولي الرّابع عشر للمستشرقين، الجزء الثّالث، المجلّد الأول، ص439.

2 - كلود ويليام مارسي (Cl. W. Marçais)، (اللّهجة العربيّة المتداولة في تلمسان)، ص210.

المحليين [1]. ومع ذلك، فإن الأمثلة كثيرة. واحد من أبرز الأدوار هو الدّور الذي لعبه الشّعراء في حاشية عبد القادر. وهو دور سنتناوله بإيجاز.

***

ولا ينبغي افتراض أن هذا الدّور، سواءً كان مؤيدًا أو معارضًا للأمير، كان وليد اللّحظة، بل كان متسقًا تمامًا مع التّراث العربي الذي سعى عبد القادر لتمثيله. إن استعراض الآراء القديمة والوقائع المتعلّقة بهذا الموضوع يكفل لنا رؤية أوضّح له.

في البلدان التي يغلب على سكّانها الطّابع البدائي والبسيط، حيث تكثر الأمية، كان الشّعر هو الوسيلة التي حفظت التّقاليد والوقائع التي هزّت خيال الجماهير أو مسّت مصالحها الحيوية. فقد كان الشّعر، بما يمتاز به من إيقاع يسهل حفظه واستظهاره، أقدر من النّثر على تثبيت الأخبار في الذّاكرة. ولهذا كان الشّاعر يمثل، لدى تلك المجتمعات، العنصر الفكري بامتياز [2].

وفي الجاهليّة العربيّة كان الشّاعر يُنظر إليه بوصفه النّاطق الرّسمي باسم قومه، **(شاعر قومه)** وقد قال الشّاعر الفرزدق: **(أنا الحارس السّاهر على قومي، فإذا أُريد الدّفاع عن شرفهم، فإليَّ أو إلى من هو على شاكلتي)**[3][4].

ولم يكن هذا القول مجرّد مبالغة شعريّة، بل كان يعكس واقعًا ملموسًا. ويكفي، لإدراك صدقه، أن نستحضر ما كان يجري في عهد الخلفاء الأوائل، خلال مواسم **الوفود**، وهي تجمعات شعبيّة صاخبة كانت الأقاليم ترسل إليها شعراءها للدّفاع عن مصالحها في مناظرات ومبارزات كلامية يخشاها الخصوم. ولمواجهة هؤلاء على قدم المساواة، كان للسلطة أيضًا شعراؤها الذين يدينون لها بالولاء[5].

وكانت أشعار هؤلاء جميعًا تنتقل على السّنة المسافرين، والمنشدين الشّعبيين، ولا سيما أصحاب القوافل، فتبلغ أبعد الأصقاع في البلاد العربيّة، وتمارس تأثيرًا بالغًا في تشكيل الرّأي العام وتوجيه أفكار النّاس. ولهذا قال جرير: **أنا قائل هجاءٍ مبتكر، يذيعه سائر القوافل، ويردده الحادي في مسيره ليلًا**[6]

وهكذا، كان الشّعراء العرب، بطريقة ما، بمثابة صحفيي عصرهم. ولم يقتصر الأمر على انتشار الشّعر السّياسي أسرع من النّثر، بل لم يكن بإمكان الجميع التّفاعل معه؛ فغالبًا ما كان يُنشر دون رد:

1- غير أنّه ينبغي استثناء بعض المؤلّفات، سيّما: (أمثال سيدي أحمد بن يوسف)، بقلم رينيه باسيه (René Basset). و(الأدب الشّعبي البربري والعربي)، ضمن دراسات أفريقيّة وشرقيّة، الفصل الثّاني، بقلم رينيه باسيه؛ و(أقوال سيدي عبد الرّحمن المجذوب)، بقلم السّيد دو كاستري (de Castries)، و(التّركوفيلية في الجزائر)، بقلم ديسبارميه (Desparmet).

2- هنري لامنس (H. Lammens)، (مهد الإسلام)، المجلّد الأول، ص229.

3- أَنَا الضّامِنُ الرّامِي عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي. Cf. Naqaidh Djarir, p. 128, v. 8.

4- هـ. لامنس (H. Lammens)، (دراسات في عهد الخليفة الأموي معاوية الأول)، ص268، وما بعدها من المراجع المشار إليها.

5- انظر: نقائض جرير، ص128، البيت 8.

6- هـ. لامنس، (دراسات في عهد معاوية الأول»، ص262 وما بعدها.

وَإِنِّي لَقَوَّالٌ لِكُلِّ غَرِيبَةٍ***شَرُودٍ إِذَا السّارِي بِاللّيْلِ تَرَنَّمَا

"ومن ذا الذي يستطيع أن يحول دون انتشاره أو يمنع ذيوعه، إذا كانت قوافل التّجار تنشده وهي ترد موارد الماء ومنازل القوافل؟ ". هذا هو رأي زهير [1].

إن هذا الاعتقاد السّائد بتأثير الشّعر الشّعبي السّياسي في البلاد العربيّة، سواء أكان شعر هجاء أم مديح، لم يكن مقصورًا على العصر الجاهلي أو العصور الإسلاميّة الأولى، بل نجده أيضًا في الأزمنة الحديثة، تؤكّده فقرة وردت في **"ألف ليلة وليلة"** فيها يعاتب ملكٌ ابنه على سوء سلوكه البالغ، فيقول له:

(يا بُنيّ، أقلِع عن سوء سيرتك، حتى لا تُعرف بين سائر الملوك، وإلى الأبد، بأنّك رجل مليء بالرّذائل والعيوب. وأنت تعلم أن سمعتنا ترتحل مع فرسان القوافل[2]. وليس من المفيد هنا أن نعرض أو نناقش الأسباب التي دفعت مختلف الدّول الإسلاميّة، كالأمويين في المشرق، والعبّاسيين والأمويين في الأندلس وغيرهم، إلى استقطاب الشّعراء خاصّة من بين مثقّفي عصرهم. فقد تناول هذا الموضوع عدد من الباحثين بكفاءة واقتدار، ولا يسعني إلّا أنّ أحيل إلى دراساتهم [3].

وإنّما أردتُ أن أؤكد، قبل كلّ شيء، حقيقة الدّور السّياسي الذي اضطلع به الشّعر في تقاليد العرب منذ بدايات تاريخهم. ولننتقل الآن إلى الأمير **عبد القادر** وإلى الدّور الذي أدّاه الشّعراء الشّعبيون في عصره.

***

لقد أُعلن **عبد القادر** سلطانًا من قبل أبناء قبيلته، غير أنّه لم يجد لدى عرب القبائل الأخرى في إقليم وهران، بل وحتى لدى بعض أفراد قبيلته نفسها، ما كان يرجوه من سرعة الاستجابة والطّاعة. فقد كان يحيط به عدد كبير من السّاخطين: من المرابطين الذين غاروا من المكانة التي حازها الأمير، ومن الأعيان الذين استاؤوا لإقصائهم عن المناصب، وغيرهم [4].

وفي شمال البلاد كان هناك عدد من كبار الزّعماء، مثل **الغماري**، شيخ قبيلة **الأنجاد** القويّة، وسي **العربي** الذي كانت تمتد سلطته على كامل وادي الشّلف، من **الأصنام (Orléansville) إلى مستغانم** وهؤلاء جميعًا كان من الممكن أن ينظروا بعين الرّيبة إلى السّلطة الجديدة. كما كان هناك أيضًا **الدّوائر والزّمالة**، وهما من المجموعات التي كانت تشكل سابقًا جزءًا من **المخزن التّركي**.

وفضلا عن ذلك، كانت **هناك أيضًا ظروف اقتصادية خاصّة، إذ كانت المصالح التجاريّة تربط منذ زمن بعض الفئات السّكّانية وبعض المدن، مثل مدينة البرج الواقعة بالقرب من معسكر بمناطق شمال التّل.**

1- انظر: ألفارت (Ahlwardt)، دواوين الشّعراء العرب الستّة القُدامى، ص84، السّطر 3.

فَإِنَّ الشِّعْرَ لَيْسَ لَهُ مَرَدٌّ***إِذَا وَرَدَ الْمِيَاهَ بِهِ التّجَارُ

2- ألف ليلة وليلة، طبعة بيروت، المجلّد الأول، ص66، أسفل الصّفحة؛ وطبعة القاهرة، المنقحة والمصححة على نصّ بولاق، الصّادر سنة 1279هـ، المجلّد الأول، ص43، أسفل الصّفحة.

3- ولا سيما دوزي (Dozy)، في كتابه بحث في تاريخ مسلمي إسبانيا، إلخ؛ والأب لامنس (Lammens)، في مهد الإسلام، ومعاوية الأول: شاعر ملكي، إلخ؛ وهوار (Huart)، في الأدب العربي، إلخ، إلخ.

4- انظر: كلود غ. إيفر (Cl. G. Yver)، (مراسلات النّقيب دوماس)، صXXI من المقدّمة، أسفل الصّفحة.

وكان **سّي العربي**، الذي استمد مكانته من نفوذ سياسي لا ديني، شأنه في ذلك شأن **عبد القادر** يشكل بما كان يخضع له من قيادة واسعة تضمّ أكثر القبائل بأسًا في القتال، تهديدًا دائمًا للنّفوذ المعنوي والعسكري للأمير. وبصفته أحد رجال الإدارة التّركية السّابقين، كان يستطيع في أي لحظة أن ينتقل إلى خدمة الفرنسيّين. لذا سار **عبد القادر** لمحاربته، فالتّقيا سنة **1834** في **البرج** [1]، وكان سكّان المدينة قد ساندوا **سي العربي**. وقد دفعوا ثمن هذا التّأييد غاليًا، إذ دمّر عبد القادر مدينتهم. غير أنّ أهل البرج لم يخضعوا، وكان من بينهم **قدورولد سي محمّد البرجي**، الملقب **بونقاب**، وهو القائد السّابق للمدينة، الذي عزله عبد القادر إثر منافسات مع رجال الحاشية المحيطة بالسّلطان الجديد. وقد أصبح هذا الرّجل من أشد خصوم الأمير.

وكان قدور يتمّتع بموهبة شعريّة حقيقيّة، فكان يلهب بمقطوعاته نار العداء لعبد القادر وأنصاره ويؤجج مشاعر النّاس ضدّهم. وفي قصائده كان يهجو الأمير، ويطعن في أصوله وأسرته، ويحاول تقويض دعائم سلطته النّاشئة. وكان يقول ساخرًا: (هل رأى النّاس يومًا سلطانًا خرج من زاوية؟ وهل رأوا حضريًّا يصبح قائدًا على العرب؟[2]

وكانت هذه الكلمات كفيلة بإثارة حفيظة العرب، الذين اعتادوا النّظر إلى سكّان المدن المستقرّين على أنّهم أدنى منزلة منهم، ولم يكونوا يرضخون لسلطانهم إلّا على مضض. والحال أن عبد القادر كان يحيط نفسه بعدد كبير من العلماء والكتّاب الحضريين. وكان أحد هؤلاء، وهو **الحبيب بوعالم**، خصمًا شخصيًا لشاعرنا، كما كان منافسه الذي ظفر بمنصب القيادة. (2 مكرّر).

وقد ذاع صيت **قدورولد محمّد** شاعرًا في جميع أنحاء ولاية وهران، سواء في أوساط أنصّار عبد القادر أم بين خصوم الأمير. وذات يوم، دعت **الدّوائر** هذا الشّاعر إلى أقاموا له ضيافةً كبرى (Repas d'hospitalité a l'occasion d'une fête privée ou publique.) (2 مكرّراً)، وهم يضمّ رون استمالتّه إلى جانبهم. وهيأوا له مأدبةً عامرّةً فاخرة. فلمّا انقضى الطّعام، واستبدّ الحماس بالحاضرين، قال له كبار أعيان الدّوايرِ: (يا قدّور، لقد أقسمنا أن تكون بسويكتنا [3]، وأنّ تنظم قصيدةً في مدحنا.) فاعتذر قدّور

1- انظر: غ. إيفر، المرجع نفسه، ص156 و308، ومواضع أخرى.

2- وهذا هو البيت كما أُورد لنا=

= ما شفنا سلطان خرج من زاويا ما شفنا حضري تقيد

عيد يا خوان عيد.

(إفادة من سي محمّد ستوتي، حارس دار العجزة للمسنّين في تلمسان، وهو حضري (ḥAḍRī)، أي من سكّان المدن المستقرّين، أو من الأهالي المسلمين الحضريين.

(2 مكرّر) . زوّدنا بهذه المعلومات عددٌ من الشّخصيات المحلّية، ولا سيما سي محمّد ستوتي، الذي سبقت الإشارة إليه أعلاه. وعن الحبيب بوعلام، انظر: G. Yver، المرجع نفسه، ص585 و608.

3- بسوَيْكَت "Bessouiket" بالسّويكت، تصغير ساكت. شاعر من قبيلة المحال. وهذه القبيلة العربيّة الكبيرة، التي تمتدّ في وادي الشّلف من دوبري (Duperré) إلى مصبّه، مشهورة بمقاومتها الشّديدة للفتح التّركي. وكان الشّاعر بسويكت روحَ هذه المقاومة؛ إذ كان يرافق أبناء قبيلته في جميع المعارك، ويشجّعهم، ويرشدهم، ويرأس مجلس الأعيان. وكان ينشد تارةً في مدح الشّخصيات، وتارةً في ذكر بطون القبيلة وفّروعها، ولا سيما السّويد، الذين أبدوا أشدّ ضروب المقاومة والبسالة. وتكثر الرّوايات والأساطير حول بسويكت؛ ولا تزال أشعاره معروفة ومتداولة،

وادّعى أن وفّرة الطّعام قد أثقلت عليه وأصابته بالوعكة، ثمّ عاد إلى دياره. ولم ينظم القصيدة التي طُلبت منه؛ ولعلّ ما كان يربط الدّوايرِ بالنّصّارى من علاقات سياسيّة وثيقة حال بينه وبين ذلك [1]. وربما خشي أيضاً أن يزيد من تأجيج حنق الأمير عبد القادر على قومه.

وكان الصّلح المبرم بين الفرنسيّين والأمير عبد القادر قد عزّز نفوذه إلى حدّ بعيد، فاغتنم هذه القوّة للقضاء على أخطر خصومه من أبناء البلاد. ولم يفلت قدّور من هذا المصير؛ إذ أمر الأمير باعتقاله ووضعه قيد الإقامة الجبريّة. فتدخّل أصدقاء الشّاعر لدى الأمير يشفعون له، كما بدا أن قدّور نفسه قد حاول التّخفيف من حدّة عدائه، فقال: (لقد شهدنا في زماننا أمراً عجيباً؛ فقد خرج سلطان من زاوية وأصبح الحضري قائداً). ثمّ أردف، مشبّهاً ما سيكون عليه من وفاء لعبد القادر بوفاء الكلب لسيّده: (إن كلبك لن يعود إلى العصيان.) [2] فعفا عنه الأمير عبد القادر، وقال لمن حوله، مشيراً إلى بيت الشّاعر: (دعوا الكلب يذهب حيث يشاء.) غير أنّه أبقى أسرة الشّاعر رهينةً لديه. ولم تُجدِ المساعي الكثيرة التي بذلها قدّور لإطلاق سراح أهله، فتجدّدت القطيعة بينه وبين الأمير. وفي تلك المرحلة نظم القصيدة التّالية، موجّهاً إيّاها إلى الأمير عبد القادر، وهي على الأرجح أشهر قصائد قدّور على الإطلاق [3].

ويُنشدها أهل وادي الشّلف إلى يومنا هذا. وتستحق قصائد بسويكت أن تُجمع وتُدوّن، شأنّها في ذلك شأن قصائد شاعرنا قدّور ولد محمّد، ولو لم يكن ذلك إلّا لأغراض التّوثيق.

1- معلومات أفادنا بها سي محمّد قاضي، كاتبٌ في المكتب العربي بوجدة، وسي باها الحاج داود، من المجادجة، بالقرب من أورليانفيل (ORLÉANSVILLE).

2- هذا إعادة للبيت المذكور أعلاه، ولكن بعد تعديله على النّحو الآتي:

ماشفنا سلطان خرج من زاويا

ما شفنا حضري تقيّد

عْمْرَهْ كلبك ما يْعِيدْ

قال عبد القادر عندئذٍ لأتباعه: أطلقوا الكلب يذهب إلى سبيله. (أفادنا بذلك سي محمّد ستوتي).

3- هذه القصيدة، التي نورد نصّها كاملًا، أمدّنا بها سنة 1912 عددٌ من تلامذتنا السّابقين في مدرسة تلمسان. وكان السّيد عبد الرّحمن، أستاذًا في ثانوية وهران، قد نشر قبل ذلك نحو نصفها في كتابه مختارات للقراءة.

من كلام ولد امحمّد النّقايبي البرجي أصلا ومسكنا

هدّة[1]

1- عييت صابر وانراعي فيك لا اتّصال ۞ يا قريب الضّحكة وبعيد في رضاك [2]

2-..... ۞ ما سمعت ولا شفت الْقْسَى كِقْسَاكْ

3-يظنّ فيك الطّامع كِمَا بغى يْنَال ۞ يحبّ قلبك يعفو ويخاف من جْفَاكْ

4-طراب وجهك وَهَمْنى زدت في الهبال ۞ ولاّ عْلَمت بما ذاخر حقد من دعاك

5-فيك مارة لالا واشارة الكمال ۞ وافقين آسّموا لاثنين في بْهَاكْ

6-اسطا وضاري وموالف تنكر الخيال ۞ لا يحصَل منه محبوب في بْلاكْ [3]

7-فُرْقَتْ أهلي واولادي همها اطْوَال ۞ ولا جبرت منْ يْدَكْ لهمومها اسْلاكْ [4]

8-تجلب الطّير الحسنة قالتّ الرّجال ۞ ينسى احْراجْ اوْكَارَه بالودّ ما ادْرَاكْ

9-أنظر إلى المولى في الكتاب قال ۞ من عْفَا واصْلَحْ ليه أجرين ما خْفاَكْ [5]

فراش

10-يا قريب الضّحكة وبعيد في الضّمير ۞ كي ندير لذا الشّي وينَاه دْوَاهْ

11-شوار وطني قلبي لبى بْغَى يْطِيرْ ۞ رحلت جوارح جسدي كاملة مْعَاهْ

12-قالتّ المثالين الفيض كي الغدير ۞ يفوت ينشب وغديرك لبد طال ماهْ

13-راه من يتعلى جوّالسّمَا يطير ۞ ينزل على النّازل ويعود مَنْ ادْنَاهْ [6]

14-يهدي اليُسر بعد الضّيم لليسير ۞ إذا اشتدت لامْحَانْ العفْو راه جَاهْ

15-قادر الفَرْجْ مولانا على اليْسِيرْ ۞ في إحسانه نصّبر ولهواك ذا قضاهْ

16-درت فينا راي من لا يدير خير ۞ واش باقي بعد ما جاكْ خوك بجَاهْ

1- يستهلّ الشّاعر قصيدته بمقطع الهَدّة (HEUDDA)، وهي تسمية تعني: (السّير إلى الأمام) ويليه الفَراش (FERACHE)، وفيه يعيد الشّاعر بسط الأفكار نفسها من جديد. ثمّ تأتي هَدّة أخرى، وهكذا دواليك. ويتغيّر حرف القافية مع كل فَراش، بينما تُحافَظ على النّغمة الصّوتية نفسها في جميع مقاطع الهَدّة، أي النّغمة الداخليّة والختامية. انظر: دلفان (DELPHIN)، نصوص لدراسة العربيّة المتداولة، ص242. ويُسمّى نصف البيت الذي يُدرج بعد البيت الأول من القصيدة العامية ترياش (TERYACHE). ويتكرّر في صدر كل هَدّة، تذكيرًا بنغمتها الختامية.

2- هذا البيت والأبيات التّسعة التي تليه واردة في عبد الرّحمن، مختارات للقراءة، ص42 وما بعدها.

3- عبد الرّحمن، المرجع نفسه، يورد للشطر الثّاني الصّيغة الآتية: لا يحصَل منه لي حبْ في بلاك

4- عبد الرّحمن، المرجع نفسه، يورد لهذا البيت الصّيغة الآتية:

فُرقةُ أهلي وأولادي همُّها أطوالْ

ولا جَبَرتْ من يدي لهوأهمّ السّلاكْ.

في لفظ شوار، انظر: الجَزْيّة، ص.77

5- عبد الرّحمن، المرجع نفسه، يورد عبارة (انظر إلى من ورى) وهذا البيت يُحيل إلى الآية 38 من سورة الشّورى (42) من القرآن الكريم.

6- عبد الرّحمن، المرجع نفسه، يورد للشطر الأول من هذا البيت: راهْ من يتعلّى شي للسما يطير- والبيتان 12 و13 واردان أيضًا عند هذا المؤلّف.

هدّة

17-..... ❁ علـى ڤبيـل تحـاموا بـرين ذا وذاك [1]

18-جا الهم مع اليمين وجا مع الشّمالْ ❁ جا من الخلف وجا مآلڤُدام [2] واكْ واكْ

19-صاب بك الضدّ السّبة والقلب غالْ ❁ راه يخلـص فـي ديـن قـديم واثـراك

20-لا يبرڤـز يـدهن عينيـه بالـدّبالْ ❁ مـا يـنجم شـي يكـابر ندهـة العـراك

21-كل نسل يشوف لْبَابَاهْ في الاصال ❁ يـا المْسَـوّكْ بـالعود واللّايـح اليـراك

22-احنـا مفـاتح البـادي للعـرب فـال ❁ شـبت وسـمعت انـت رانـا لا حْـذَاكْ

23-يـوم تركـب فرسـان اخيـف للفتـال ❁ تكـون نفسـك هـاني وانفوسـنا فْـدَاكْ

فراش

24-فيک ظنى خاب ولاصبت شي صواب ❁ والمحبـة راحـت مـا بيناتنـا سـماحْ

25-راه راسـي شـاب وقلبي حجـاه طـاب ❁ وانْشْـوَتْ الكبـدة مـن قـوّة الجْـرَاحْ

26-تَلْفَـتْ لْيَـدْ طريـقْ لاكْـلْ والشّـرابْ ❁ انفشَّـتْ الجثـة كُلَتْهَـا مـن الصّـحَاحْ

27-منين ولت الاَرْنَبْ تْهَابْ والسّبع خَابْ ❁ تاڤت الجنـدرة والطّـود مالسّـما [3] طـاحْ

28-اش بـان اعـذاب على نسـل بـو نڤـاب ❁ حسـاب ثمـن السّـنين بلاليلهـا ڤـراحْ

29-ضْحَوا في البرّ ضُلال غـراب للڤـراب ❁ غـالبين اعـدأهمّ وقلوبهـا ڤسـاحْ

30-ذا القسي رماه حبك يا فارس الوجاب ❁ مـا يجـوز المسـعور آلـي معـاك طـاح

هدّة

31-..... ❁ شـدّ عـودك وتفكّـر يـوم يـرخس غـلاك

32-عَنْدْ من كان يحبّك في السّنِينْ لاشْغَالْ ❁ كـلا ويقبـل مـن عربـك يـا المالـك معـاك

33-يْعُـودْ قَـدْرَكْ في بَالَـهْ تَحْتْ سُـومْةْ رْيَـالْ ❁ خَيْـرَكْ فِيـهْ قْضَـا نْسَـانَا ونْسَـاكْ

34-والاشـارات للعأقـلّ تْجَمْعُـوا مـع البَـالْ ❁ إذا نْسَـى يـذكّر بهـا حـديث لاشْـكَاكْ

35-تْصَـرَّفْ فِيهَـا وَلْهَتْهَـا رادْيَـاتْ لافْعَـالْ ❁ تحسـب بـالخَيْرْ وتْقَلّـلْ قـول عفَـاكْ

36-الثّعْبَـانْ الكاسَـرْ طاقَـتْ لاقْـوَالْ ❁ دِيـرْ خصْـلاتْ افْـدَأهمّ يـذكروا شْـنَاكْ

37-تْخَبَّلْ جُـودَكْ لا تَسْـمَعْ شِي لْقَوْلْ قَـالْ ❁ والْحْسِـيدْ يَخْـرَسْ بالكـذب وَدْمَـاكْ

38-يَمْسَحْ صْدَا سَـنِّيهْ على قْفَـا الَجْـلالْ ❁ بالكـذوب يَعَمْـرَهْ ويَـدِّيكْ لا مْـلاكْ

39-والمْحَاسَـنْ تَـدِّيهَا فـي حَقْنَـا حْـلاَلْ ❁ دِيـنْ ذا الـدّارْ تُـرّد (1) ديرلـي اهْـوَاكْ

1- عبد الرّحمن، المرجع نفسه، يورد كذلك الأبيات من 17 إلى 28، شاملةً.

2- مالقدّام: اختصار لهجي لعبارة من القدّام، أي: (من الأمام) أو (مِن قِبَلِ الأمام)

3- مَالسّما: اختصار لهجي لعبارة من السّماء.

فراش

40-حُطّ بالَكْ واعمل في الصّدرصالح الرّاي ۞ اقْبَـلْ الخَطَـا مَـنْ مْرُوهَـا اذا سَـارْ

41-بْجَاهَكْ الوافي شْوَرْ الحْرَمْ قَاصَدْ وْجَايْ ۞ كـي نْجُـوزْ المْتَوَسَّـلْ بِـكْ لِيـكْ ذي عَـارْ

42-وَالْ مَـنْ دَارَكْ تَـأْمُرْ في العْبَـادْ نَهَّـايْ ۞ يَقْبَـلْ التّوْبَـة مَـنْ عَبْـدَهْ العْفُـو الغَفّـارْ

43-شْـرَكْتْ لْـوَهْمْ الـدّنْيَا وَاعْـرَة وغَـوَّايْ ۞ تَنْقَلَـبْ مْفَاصَـلْهَا كـي شَـفْتْهَا بالابْصَـارْ [2]

44-ظَهْـرَتْ اخْـرَبْ مَرْدُومَـة وْصَـأتْهَا البَنَّـايْ ۞ المْحَصَـنْ مَـنْ وَقْـتْ الشّـومْ خَـرَّبْ وبَـارْ

45-جَرْنَـا ونَجّينَـا يـا خَـالقِي وْمُـولايْ ۞ وفّـرغْ عْلِـيّ مَـنْ رْضَـاهْ يـا الجَبّـارْ

46-بْجَـاهْ سـيد عْبَـادَكْ جَمّـعْ حَـالي والـرّايْ ۞ وضّـح سُـنْتَكْ لَنَـا النّبِـي المُخْتَـارْ

هدّة

47-..... ۞ مـا ابْقَـى فـي الـدّنْيَا للشّـانقين فَكّـاكْ

48-بَعْدْ فُرْسَانْ الحَيْفْ الكَاسْرِينْ لاَبْطَالْ ۞ شَـدّْ لْسَـانك بَطّـل وَانْـسَ الْحْـدِيثْ يَنْسَـاكْ

49-وِيـنْ مِيعَـادْ اهْـلْ لانْبِيَـا ولاَرْسَـالْ ۞ يـا العاقَـبْ للـدّهْرْ لا تَخَـربْ اهْـواكْ

50-وِيـنْ بـوبَكَرْ وعُمَـرْ وِيـنْ رَاهْ عَـلاَّلْ ۞ وِيـنْ عُثْمَـانْ الـوَافي يَسْـتَحْوهْ الامْـلاَكْ

51-وِيـنْ طَلْحَـة وِيـنْ زُبِيـرْ ضـدّ لاَجْهَـالْ ۞ وِيـنْ سَـعْدْ وِيـنْ السّـعِيدْ شُـوفْ لَقْفَـاكْ

52-وَاشْ وَاسَـى عَبْـدْ فـي مْـدُونْ لاَذْلاَلْ ۞ وِيـنْ عـوفْ العـابر قاصـر ديـن لاَشْـرَاكْ

53-وِيـنْ سَـعْدْ وْعُقْبَـا الفـايزين بَمْحَـالْ ۞ وِيـنْ جَـيْشْ انْسَـاقُوا للغَـرْبْ بِـهْ حُـرَّاكْ

54-هَسْ مَنْ حَرْبْ الوقْحَة لافْنَاتْ واردال ۞ سَـهْدُوكم الـرّوم جَـا يْعِيـدْ لادْرَاكْ

55-وِيـنْ هـارون ويحيى البـاذلين لاَمْـوَالْ ۞ افْنَـتّ نفـس الكْـرَمْ والجُـودْ جَـايَرْ دْرَاكْ

56-وِيـنْ مُلْـكْ المَامُونْ وْمُلْـكْ مَعْنْ واهْـلاَلْ ۞ وَايْـنْ مْـرِينْ وَايْـنْ زِيَـانْ وِيـنْ لاَتْـرَاكْ

فراش

57 -وِينْ سَطْوَةْ قَارُونْ وْعَـادْ وِيـنْ شَـدّادْ ۞ وِيـنْ فَرْعَـوْنْ ذو لاوتـادْ وِيـنْ ثَمُـودْ

58-وِيـنْ مـا هـو فـات اطـراد بـن لاصْـدَادْ ۞ وَاشْ فَـاتْ مْـنَ الشّـومْ عْنَـادْ بـن هَزْبَـارُودْ

49-وِيـنْ مِيعَـادْ اهْـلْ لانْبِيَـا ولاَرْسَـالْ ۞ يـا العاقَـبْ للـدّهْرْ لا تَخَـربْ اهْـواكْ

50-وِيـنْ بـوبَكَرْ وعُمَـرْ وِيـنْ رَاهْ عَـلاَّلْ ۞ وِيـنْ عُثْمَـانْ الـوَافي يَسْـتَحْوهْ الامْـلاَكْ

51-وِيـنْ طَلْحَـة وِيـنْ زُبِيـرْ ضـدّ لاَجْهَـالْ ۞ وِيـنْ سَـعْدْ وِيـنْ السّـعِيدْ شُـوفْ لَقْفَـاكْ

1- مثال على بقاء صيغة المبني للمجهول في اللّهجة العامية. وانظر في هذا الشّأن: و. مارسي (W. Marçais)، اللّهجة العربيّة المتداولة في تلمسان، ص89. وانظر أيضًا: المرجع نفسه، ص68، فيما يتعلّق بإطالة حركة فعل الأمر دير.

2- في اللّهجات العامية في الجزائر، تُستعمل الصّيغة عال لا للدّلالة على أسماء أصحاب الحِرَف فحسب، بل أيضًا في الأسماء التي تدلّ على كثرة الفعل أو شدّة اعتياده. ومن ذلك، مثلًا، نهاي الوارد في البيت السّابق، أي: (الذي اعتاد أن ينهى عن شيء)، ورغوّاي، أي: (الذي اعتاد إضلال النّاس وإغواءهم) وقد ورد في القرآن الكريم، في سورة الأعراف، الآية 16، الفعل أغويتني بمعنى أضللتني.

52-وَاشْ وَاسَى عَبْدْ فِي مْدُونْ لاَذْلاَلْ ❁ وِينْ عوفْ العابر قاصر دين لاَشْرَاكْ

53-وِينْ سَعْدْ وْعُقْبَا الفايزين بَمْحَالْ ❁ وِينْ جَيْشْ انْسَاقُوا للغَرْبْ بِهْ حُرَّاكْ

54-هَسْ مَنْ حَرْبْ الوقْحَة لافْنَاتْ واردال ❁ سَهْدُوكم الرّوم جَا يْعِيدْ لادْرَاكْ

55-وِينْ هارون ويحيى الباذلين لاَمْوَالْ ❁ افْنَتّ نفس الكْرَمْ والجُودْ جَايَرْ دْرَاكْ

56-وِينْ مُلْكْ المَامُونْ وْمُلْكْ مَعْنْ واهْلاَلْ ❁ وَايْنْ مْرِينْ وَايْنْ زِيَانْ وِينْ لاَتْرَاكْ

59-وِينْ آدم بابا لَسْيادْ جدْ لاَجْدَادْ ❁ وِينْ ما خلقْ اللّه عْبَادْ قَبْلَهْ فْدُودْ

60-كُلْهَا رَاهَا في الاَلْحَادْ غابْطَتْ اوْسَادْ ❁ مَنْ طْغَى في حكمَه الشّدادْ لِيهْ مَوْعُودْ

61-إلاّه الواحد أحد فردْ صماد ❁ لم يلد ولا شيءْ، للكريم مولودْ

62- يا الخَالقْ سَبْعْ مْهَادْ تَحْتْ الَوْتَادْ ❁ وْسَبْعْ سْدَادْ وْسَبْعْ اللّي مَاءْهُمْ جْمُودْ

63-لا توكل بنا مُرادْ قَلْبَهْ فْسَادْ ❁ وّدّينا مَن وُدَّهْ وْدَادْ خَيْرْ يْجُودْ

هدّة

64-..... ❁ يا العأقلّ لا تَفْرَحْ زَعْمَ وَاشْ زَهّاكْ[1]

65-إذا ضْحَكْ لَكْ يَرْجَعْ بالسّوءْدَهْرْ تَبْدَالْ ❁ كِي مْسكْتْ انت ذَا البَرْ، يَمْسْكَكْ ذَاكْ

66-القْلُوبْ مَوَازَنْ وْأصْلْ العْقُولْ مْثَالْ ❁ وَالشّهيدْ المْفَاصَحْ صَبْرْ اللّسَانْ وْزَاكْ

67-كِمَنْ قُدَّامْ وْكِمَنْ وْرَى يْجُوزْ الحَالْ ❁ بَيْنْ جُرْفَيْنْ يْصِيرْ لاَمْرْ يا الفكّاكْ

68-نْظَمْ المَنْظُومْ قَدُّورْ شَهْرْ شَوَالْ ❁ باثْنَيْنْ وْخَمْسينْ السّنَة طْرَاتْ بَرْكَاكْ

69-قَرْنْ الثّالث عَاشَرْ بعدْ النّبي المِيجَالْ ❁ زارْ عَرْشْ البُرْجِي بَعْقَابَه مَلاَكْ

70-النّشِيدْ القَاسِي بن محمّد يْسَالْ ❁ فِيكْ مُزْرَاقْ المْحَبَّة وْذِمَّةْ مُلاَكْ

71-الشّاكي والمشْكِي للْغَانِي قْدِيمْ لاَ زَالْ ❁ الدّايِمْ المَالَكْ الوَاحَدْ حَطْنَا اعْلاَكْ

55-وِينْ هارون ويحيى الباذلين لاَمْوَالْ ❁ افْنَتّ نفس الكْرَمْ والجُودْ جَايَرْ دْرَاكْ

56-وِينْ مُلْكْ المَامُونْ وْمُلْكْ مَعْنْ واهْلاَلْ ❁ وَايْنْ مْرِينْ وَايْنْ زِيَانْ وِينْ لاَتْرَاكْ

التّرجمة

كلمات [2] للشّاعر ولد امحمّد النّقايبي البرجي، الأصيل من البرج والمقيم به.

1 - لقد نفد صبري عليك، وإني أتوقّع معك القطيعة، يا مَن ثغرُه دائمُ الاقتراب من الابتسام (تصنّعًا للمودّة)، بينما رضاه بعيدُ المنال.

2 - ما سمعتُ قطّ بقسوةِ قلبٍ تُضاهي قسوة قلبك، ولا رأيتُ بغضاء تُماثل بغضاءك.

1- هذا البيت، وكذلك الأبيات: 65 و68 و69 الواردة أدناه، أورده عبد الرّحمن في كتابه مختارات للقراءة، ص: 47.

2- لفظ كلام في غربي الجزائر مرادف للفظ قصيدة، أي: قصيدة شعرية.

3 - مَن طمع في رضاك، رجا أن يظفر منك بمُناه على هواه. فقلبُك يميل إلى العفو، لكنّه يخشى مَن يتحكّم فيك[1].

4 - خدعني محيّاك الباسم، فازددتُ ضلالًا فوق ضلال، ولم أدرِ بحقّد مَن حرّضك عليّ.

5 - نُقشت في نفسك كلمة (لا)، وأنت تتّشح بمظاهر الكرم التّامّ؛ وهذه العلامات محفورة على وجهك المُشرق.

6 - خبيرٌ بالمكائد، وكلبٌ عضوض، وحيوأنّ يفزع من ظلّ ه؛ هذه الأصناف الثّلاثة لا يُرجى منها خيرٌ في زمن الشّدّة[2].

7 - فرّقتَ بيني وبين زوجي وأولادي، فطال عذابهم، ولم يجدوا عندك مُتنفّسًا لأحزانهم.

8 - غير أنّ الإحسان يُروِّض الطّائر، كما يقول النّاس؛ فينسى مصابَ فقدان عشّه متى ما لقي العطف. وأنت تعلم ذلك.

9 - انظر ما قاله في كتابه الحفيظُ المتعال: مَن عفا وأصلح فأجرُه مضاعف[3]. وهذا ممّا لا يخفى عليك.

10 - يا دائم الابتسام (تلطّفًا)، ومَن قلبه بعيدٌ عن الرّضا، ماذا عساي أصنع لهذا الحال؟ وأين هو الدّواء؟

11 - إلى وطني (في المحنة) قلبي أجاب: (ها أنا ذا!) فأراد أن يطير (دفاعًا)، فطارت معه جميع جوارحي.

12 - يقول أصحاب الأمثال: الغضب كالغدير[4]، يتبخّر ماؤه ويجفّ. أمّا غديرُ غضبك فيه، فلا يجفّ ولا يتبخّر ماؤه أبدًا.

13 - الطّائر الذي يحلّق في الجوّ يعلو، ثمّ ينزل إلى مكانٍ أدنى، وقد يصير أحيانًا أقلّ شأنًا ممّن هو أدنى منه (35 مكرّر).

14 - يعقب الشّدّةَ فرجٌ يبدو للأسير، وبعد لأواء عظيمة يعود السّلام.

15 - قضى ربّنا الحفيظ أن يعود الفرحُ للأسير. وأنا أصبر على أمل بركاته. هذا ما قدّره سلفًا في شأن أفعالك.

16 - لقد اتّبعتَ فينا رأيَ مَن لا يريد الصّلح[1]. فماذا بقي بعد شفاعة أخيك لديك؟

1- إشارة إلى حبيب بوعلام، صديق عبد القادر وقايدًا من قِبَله، وعدوًّا شخصيًّا للشاعر. وعن هذه الشّخصية، انظر: إيفر (Yver)، مراسلات النّقيب دوماس، ص648 وما بعدها، ومواضع أخرى.

2- اسطا: أي ماهر في الحِيَل والمراوغة. والإشارة هنا إلى لعبة الرّحبة، حيث يحاول المتصارعون توجيه ضربات مباغتة بعضهم إلى بعض. أمّا ضاري، فتقال للكلب أو الأسد الذي يعضّ ويفترس. ويريد الشّاعر أن يصوّر عبد القادر في آنٍ واحد ماكرًا، شرسًا، سريع الغضب، كالبغل. وقد أعطى دلفان (Delphin) في نصوص، ص107، لفظ ضاري معنى السّلوقي.

3- انظر سورة الشّورى، الآية 38. وقد أضاف الشّاعر هنا عبارة (الأجر المضاعف)

4- غدير (Ghedar): غَدِير أو بركة صغيرة من الماء، تخلّفها الأمطار في أرض لا مصرف للماء فيها.

(35 مكرّر). إشارة إلى المثل الشّعبي: «مَن طار ينزل». انظر: محمّد بن شنب، الأمثال العربيّة، المجلّد الثّاني، رقم 1821، والمصادر المذكورة فيه.

17 ناهضتْ قبائلَنا دولتان: هذه وتلك [2].

18 جاء الهمّ والفزع (فزع الحرب) من اليمين ومن الشّمال، من الأمام ومن الخلف [3]. ومن كلّ جهةٍ يُدوّي نداءُ القتال [4].

19 وجد فيك عدوّي اللدّود [5] ذريعةً، فهو ملآنُ القلب حقدًا، يستوفي دَينًا قديمًا، ويزعم أنّه يُنفّذ ثأرك.

20 -(كطفلٍ صغير يتباكى على أذًى مُدّعًى) لا يفعل سوى أن يبلّل عينيه بريقه، عاجزًا عن مواجهة القتال إذا دُعي إليه.

21 كلّ فرعٍ يحمل خصائص أصله. وأنت تعلم هذا، يا مَن يُنظّف أسنانه بعود الأراك ويُحرقه [6].

22 أمّا نحن فمفتاحُ بلاد العرب، وفألٌ حسنٌ لهم [7]. رأيتَ ذلك وعرفتَه بنفسك، فنحن جيرانك.

23 يومَ تُركِبُ الفرسانَ الشّجعانَ للقتال، تكون أنت في مأمنٍ واطمئنان، ونحن نفديك بأنفسنا.

24 خاب أملي فيك، ولم أجد إنصافًا؛ ذهبت المودّة، ولم يبقَ بيننا رحمة.

25 شاب رأسي، وقلبي احترق بالهموم [8]، وذبل كبدي وتفتّت من كثرة الجراح (المعنويّة التي أصابتني).

26 -(من أثر تلك الجراح) عجزت يدي عن حمل الطّعام والشّراب إلى فمي، وفقد جسدي كلّه عافيته.

27 منذ أن صار الأرنب مهيبًا، خاب ظنّ الأسد! صارت هضبةُ الأرض في السّهل جبلًا، وهوت القممُ الشّاهقة من عنان السّماء.

28 أيّ عقابٍ تجرّعته ذريّة بو نقاب! ثمانُ سنينَ من الأسر، دون احتساب اللّيالي، انقضت في الصّراع.

29 ظهر في البلاد ضالّون، غربانُ شؤمٍ [9]، غالبون على أعدائهم، قلوبهم قاسيةٌ صلبة!

30 ليس هذا خرافةً، يا فارس البديهة! كلّ مَن نما في كنفك واستطال، سيرى انحداره وانكساره.

31 أمسك بعنان فرسك [1]، وتفكّر في اليوم الذي فيه تنحطّ قيمةُ حظّك.

1- في ترجمة دار الخير بمعنى (عقد الصّلح)، انظر: ميرسييه (Mercier)، العربيّة المتداولة في جنوب وهران، ص343، أسفل الصّفحة، ضمن أعمال المؤتمر الدّولي الرّابع عشر للمستشرقين، الجزء الثّالث.

2- أي عبد القادر والقبائل التي كانت في ركبه، من جهة؛ والفرنسيون، من جهة أخرى.

3- إشارة إلى القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيتين 15 و16.

4- في ترجمة لفظ واك .واك، انظر ميرسييه (Mercier)، المرجع نفسه، ص385.

5- حبيب بوعلام؛ انظر: إيفر (Yver)، المرجع نفسه، وعبد الرّحمن (Abderrahman)، المرجع نفسه، ص45.

6- إشارة إلى العادة المتّبعة لدى بعض الشّخصيات الدّينية، التي كانت تُحرق خشبة الأراك أو العود استعمالًا لها كالبخور، لتطهير الهواء الذي تتنفسه.

7- عن الفأل الحسن الذي تجلبه حُضورُ شخصية معينة أو شخص آخر، انظر: بِل (Bel)، الجَزْية، ص179؛ ودلفان (Delphin)، نصوص لدراسة العربيّة المتداولة، ص145-146.

8- طاب: يُقال للطعام: نضجَ أو استوى؛ ويُستعمل مجازًا بمعنى ضاق ذرعًا، أو سئم، أو أُرهق ولم يعدّ يطيق الأمر.

9- الضّالّون (عن دينهم)؛ والمقصود هنا الفرنسيون. ووفقًا للمعتقد الشّعبي المحلي، يظهر الغراب كثيرًا لمن يوشك أحد أقاربه على الموت. ومن هنا جاءت عبارة «غاب للغراب، أي: غراب للأقارب أو لأبناء قبيلة الأمير.

32 عند مَن أحبّك في سنين الشّدائد، ومَن عاش في الرّخاء (من عطاء رعيّتك) أيّها الملك، ومعك،
33 لن تساوي هيبتُك عنده رِيالًا واحدًا [2]؛ فإحسانّك عنده قد مات، نسينا ونسيَك.
34 النّصائح الوقائيّة، عند العاقل، تبقى محفوظةً في ذهنه؛ فإذا غفل، ذكّرته بدنوّ الخطر.
35 بالانتباه إليها، تدفعُ عن نفسك الأفعال السّيّئة؛ أمّا أنت، فتُراهن على السّلم [3]، وتقلّ عندك مقولة: (كن في سلام!)
36 للثعبان الخطير قوّة خبيثةٌ كقوّة الغيلان؛ أحسِن إليهم وطمئنهم، يجازوك بالبغضاء.
37 ضلّ كرمُك سبيله، فلا تُصغِ للوشاية. الحسودُ يُفسد كلّ شيءٍ بالكذب.
38 يمسح قذر أسنانّه على طرف رداءك، فيملؤه أكاذيب. لكنّ يديك لم تمتلئ بشيء!
39 أمّا حسنُ المعاملة الذي كنتَ تُسديه لنا، فهو حقٌّ واجب. ديونُ هذه الدّنيا تُقضى في الآخرة. أعطني رأيك.
40 اقبل هذه النّصيحة، واحكم في نفسك حكمًا عادلًا، واقبل عذر مَن أخطأ إن جاءك مُعتذرًا.
41 لتكتمل هيبتك، زيّن شرفك في كلّ مناسبة. فاحتقارُ مَن يأتيك شفيعًا عارٌ عليك.
42 أقسمُ لك! إنّ مَن وضعك على رأس النّاس لتحكمهمّ، هو نفسُه يقبل توبة عبده؛ فهو، سبحانّه اللّطيفُ الغفور!
43 جعلتَ خطأ هذه الدّنيا مقرونًا بشدّتها وضلالها. فمحاسنُ الأرض تنهار حالَ ما تقع عليها عيناك!
44 أظهرتَ أطلالًا متراكمة! أصلحها البنّاء، لكنّ الحصنَ من جرّاء سوء الحظّ تهدّم وصار بلا قيمة[4].
45 احفظنا وأنقذنا، يا اللّه خالقي وحافظي! وأنزل عليّ ما يُرضيني، يا رادّ المظالم!
46 أسألك بجاه خير خلقك! ردّ لي أهلي وعقلي! أسألك بمن إبّان لنا شريعتك، النّبيّ المصطفى!
47 لم يبقَ في هذه الدّنيا، لأهل (المكروبين) المخنوقين (بألمهمّ)، مَن يستطيع أن يُنقذهم (ممّن يخنقهم)!
48 بعد (المفاخر) فرسانٍ شجعانٍ مهيبين، أبطالٍ يقهرون العدوّ، كُفّ عن شكّ واك، واصمت! انسَ الحدّث، ينساك الحدّث [5].
49 فمتى يأتي إذن زمنُ تحقّق أمل الأنبياء والمرسلين؟ يا مَن أتيتَ في آخر الزّمان، لا تُخرّب ما أمامك!
50 أين أبو بكر، وعمر؟ وأين علال؟ وأين عثمان [6]، الشّهيدُ الذي تستحي منه الملائكة؟ (3 مكرّر).

1- مثل شعبي يُقال بمعنى: (احذر لنفسك !).

2- قطعة نقدية صغيرة من الفضّة، كانت قيمتها نحو 0.60 فرنك.

3- في ترجمة لفظ خير بمعنى (ثمن)، انظر أعلاه، البيت 16.

4- إشارة إلى البرج، مسقط رأس الشّاعر.

5- الشّاعر هنا يخاطب نفسه.

6- أبو بكر وعمر وعثمان هم الخلفاء الثّلاثة الأوائل. وعلال هو الاسم الشّعبي لـعليّ، صهر النّبي ﷺ.

(3 مكرّر). إشارة إلى حديث نبوي أورده مسلم في صحيحه (القاهرة، 1327هـ، المجلّد الثّاني، ص321). قال النّبي ﷺ، في حديثه عن عثمان: (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة) (أفادنا به السّيد محمّد بن شنب).

51 -أين طلحة؟ وأين الزّبير، عدوّ المشركين؟ أين سعد؟ وأين سعيد؟ انظر خلفك [1].

52 -ماذا فعل عبد [2] في المدن المفتوحة على الكفّار؟ أين عوف، خصمُ دين المشركين؟

53 -أين سعد وعقبة، اللّذان انتصرا بجيوشهما؟ أين جيوشهما التي قادَاها في الغزو نحو الغرب؟ [3].

54 -حربُ الوقاحة أنهكت النّساء، وعامّة النّاس، بينما هزمكم الرّوم! وتجدّد بلاؤهم!

55 -أين هارون ويحيى، اللّذان بذلا مالهما للمعوزين؟ [4] ماتت المروءة والإحسان. وانهالت علينا المصائب.

56 -أين ملك المأمون؟ وأين ملك معن؟ وهلال؟ أين بنو مرين، وبنو زيّان، والأتراك؟ [5].

57 -ماذا التّ إليه قوّة قارون؟ وقوّة عاد؟ أين شدّاد؟ أين فرعون صاحب الأوتاد؟ أين ثمود؟ [6].

58 -أين مآثر طرّاد بن الأسعد؟ والمحن التي كابدها عناد بن هزبرود؟ [7].

59 -أين آدم، أبو الأبطال، جدُّ الأجداد. ثالثًا؟ أين الخلائقُ الكثيرةُ التي خلقها الله قبل خلق آدم؟ [8].

60 -كلّهم في القبر، لا يشتهون سوى البقاء مضطجعين. ومَن كان منهم طاغيةً، وُعِد بمرارة الشّقاء.

61 -الله موجودٌ وحده! هو الواحدُ الأحد، الأزليّ! لم يُخلَق، ولم يُولَد شيءٌ من صفات الله الكريم!

1- في الأبيات 50 و51 و52، يذكر الشّاعر الشّخصيات العشر التي بشّرها النّبي ﷺ بالجنة: الخلفاء الأربعة الأوائل، ثمّ طلحة بن عبيد الله، والزّبير، وسعد بن مالك، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرّحمن بن عوف. ويُطلَق عليهم اسم الرّجال العشرة، وفضائلهم تفوق فضائل سائر المسلمين. وانظر، بوجه خاصّ، الكتاب المعنون الرّياض النّضرة في مناقب العشرة، القاهرة، 1327هـ، ص...

2- عبد: المقصود به أبو عبيدة بن الجراح.

3- عقبة بن نافع، ولاّه الخليفة معاوية على أفريقيّة، فدفع بجيوشه حتى بلغ المحيط الأطلسي. أمّا ابن سعد (عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري)، فكان فاتح أفريقيّة. انظر: ابن عذاري، ترجمة فاغنان (Fagnan)، المجلّد الأول، ص3 وما بعدها، ومواضع متفرقة.

4- هذا البيت يضع في مقابلةٍ بين كبار القادة الذين ذكرهم الشّاعر آنفًا، وبين الأحداث العظيمة التي تستحضرها أسماؤهم، وبين عصر عبد القادر. وفي هذا البيت أقرأ مِصياد (مصياد) بدلًا من سيداد.

5- هارون الرّشيد ووزيره يحيى البرمكي، الذي غدت عطاياه السّخيّة الباذخة مضربًا للأمثال. البرمكيون أو البرامكة: أفراد أسرة من النّبلاء الفرس، أصلها من بلخ في باختر (شمال أفغانستان).

6- قارون، الذي صار غناه مضربًا للمثل، بنى لنفسه قصرًا مغطّى بالذهب، وكانت أبوابه من الذهب الخالص.وكان يتباهى بالبذخ العظيم؛ فكان يركب بغلة بيضاء مكسوّة بغطاء من الذهب. وكان هو نفسه يرتدي ثيابًا أرجوانية، ويصحبه أربعة آلاف رجل، كلهم راكبون ومرتدون أفخر الثّياب. ولمّا ملأه الغرور، أساء إلى موسى، فعاقبه الله بأن خسف به الأرض. انظر: القرآن الكريم، سورة القصص، الآية 76؛ سورة العنكبوت، الآية 38؛ سورة غافر، الآية 24؛ وانظر أيضًا تفاسير القرآن.

عاد، أو قوم عاد: وهم قوم شديدو القوّة، ورد ذكرهم كثيرًا في القرآن. وكانوا عمالقة، رفضوا الاستجابة لدعوة النّبي هود. فأهلكهم الله.

ثمود: قوم من الأمم القديمة قبل الإسلام، كانوا كذلك شديدي القوّة. فأرسل الله إليهم النّبي صالحًا ليدعوهم إلى الإيمان (انظر: القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 73 وما بعدها). لكن الثّموديين سخروا من صالح، فأهلكهم الله.

شدّاد: ملك من ملوك العرب الأقدمين، دام ملكه تسعمائة سنة. وبنى المدينة الأسطورية المسماة إرَم ذات العماد. انظر: المسعودي، مروج الذهب، طبعة باربيه دو مينار (Barbier de Maynard)، المجلّد الثّاني، ص415، والمجلّد الثّالث، ص81.

فرعون، الذي يكثر ذكره في القرآن، يُسمّى ذا الأوتاد، بسبب العقوبات التي كان ينزلها بالمذنبين، والتي كانت تقوم على ربطهم بأربعة أوتاد وتعريضهم لأنواع مختلفة من العذاب. انظر: القرآن الكريم، سورة الفجر، الآية 10.

7- طرّاد بن شدّاد وعناد بن حزبرود هما بطلا حكايتين من الحكايات الشّعبية العربيّة.

8- وفقًا للقرآن وتفاسيره، كان الله قد خلق قبل آدم الملائكة والجن (انظر: سورة الكهف، الآية 50، ومواضع أخرى)

(5 مكرّر). يشير هذا البيت إلى سورة ص (السّورة 38) من القرآن. وقد استُعملت كلمة مِصياد هنا مراعاةً لوزن البيت، بدلًا من سيداد.

62- يا خالق السّبع البطاح تحت الجبال، وخالق السّبع الأسوار والسّبع البحار الغليظة المياه![1].

63 -لا تكِلنا إلى مَن قلبه ثائر. وامنحنا محبّة مَن يحبّ السّلم، الكريم السّخيّ.[2].

64 -أيّها العاقل، لا تعش في الفرح كما تزعم! فما الذي يُبهجك؟

65 -الدّهرُ المتقلّب، إن ابتسم لك اليوم، عاد غدًا بركبٍ من المصائب. وكما استوليتَ على هذا البلد لتحكمه، سيستولي عليك ذلك الآخر (الفرنسيّ)!

66 -قلوبُ النّاس موازين تزنُ الكلام؛ وأسسُ الفطنة هي الحِكَم (المضروبة أمثالًا)؛ والآن الشّاعر المحارب يصبر، كاتمًا لسأنّه وراءك.

67 -كما كان دومًا في الماضي وسيكون في الآتي، يجري الزّمان؛ وبين ضفّتين تسيلُ الأمور (كالوادي)، يا مَن يُحسنُ حلّ الألغاز!

68 -نُظِم هذا الشّعر بيد قدّور، في شهر شوّال، سنة 52. ارتجله -وحسبك هذا-.

69 -في القرن IIIام عشر، بعد النّبيّ الذي جاء في الوقت الذي قدّره الله. وكان الشّاعر، في تلك الأثناء، يزور قبيلة البرجيّة، التي دُمّرت عقابًا[3].

70 -هذا النّظمُ، القاسي الشّديد، لابن امحمّد، يطلب (لصاحبه) رمحَ الصّداقة، بينما أنت له مليءٌ باللّوم.

71 -لكنّ الشّاكي والظّالم كليهما سيصيران إلى مَن يستغني بذاته، الأزليّ الذي لم يزل ولن يزال، الملكُ الأوحد! فليجعل لنا (في جنّته) المكانة الأسمى!

***

هذا هو نظمُ قدّور ولد امحمّد، وهو نظمٌ لا يزال، إلى يومنا هذا، موضعَ إعجاب أهالي وهران. فهم يستشهدون طوعًا بهذه الأبيات ذات العبارات القويّة الشّديدة، والتي لا تستطيع أيّ ترجمةٍ أن تنقل نكهتها كاملةً في كلّ الأحوال. وقد صار كثيرٌ من هذه الأبيات حِكَمًا أو أمثالًا شعبيّة. يقول المثل الفرنسي الدّارج: (كلبُ الصّيد، صيدُ سلالته[4]؛ وبنفس المعنى يردّ الشّاعر الوهراني (البيت 21): (كلّ نسلٍ يُشبه لباباه

1- في شأن علم الكونيات العربي، يُقال إن الله خلق سبع أرضين، وسبع سماوات، وسبعة أبحر، إلخ. وكان العدد سبعة، ذا دلالة قدسية وفأل حسن عند المسلمين، يُستعمل تفضيلابدّافع اعتقادي خرافي. وانظر، في شأن هذا العدد، أ. بل (A. BEL)، الجَزْية، ص141.

أما الأسوار السّبعة المذكورة هنا، فمن المحتمل أن يكون المقصود بها السّماوات السّبع التي تحيط بالأرضين السّبع. ولعلّ الشّاعر يشير كذلك إلى الأسوار التي تفصل أرض البشر عن أرض يأجوج ومأجوج، أي العمّالقة، إذ يُروى أن يأجوج ومأجوج في آخر الزّمان سيتمّكنون من هدم تلك الأسوار والخروج لإفساد أرض.

2- في شأن ترجمة لفظ خير بمعنى (السّلام). انظر أعلاه، البيت 16.

مَرّاد: اسم يُطلَق على إحدى صفات الشّيطان.

3- عن قبيلة البرجيّة ودورها، انظر: G. YVER، مراسلات النّقيب دوماس، في مواضع متفرقة. .وعن تدمير حصن البرج الصّغير، انظر: المرجع نفسه، ص156 والحاشية. .وانظر أيضًا: بلامار (BELLEMARE)، تاريخ عبد القادر، ص47 و282؛ والمجلّة الأفريقيّة، المجلّد العشرون (سنة 1876)، ص425.

4- انظر: عبد الرّحمن، المرجع نفسه، ص48: كل بيت من كلامه رجعت مثال.

ولاّمصال) (أمسك بعنان فرسك (البيت 31)، وتفكّر في اليوم الذي فيه تنحطّ قيمة حظّك)، يضيف قائلًا للطامح المتهوّر. ولنا أنّ نضاعف الاستشهادات.

وقد انتشرت هذه الأبيات بسرعةٍ فائقة. ولم يلبث قدّور أن اضطرّ إلى الفرار هربًا من انتقام الأمير. وأنّهكه التّعبُ والشّيخوخة، فمات بعد ذلك بقليل، دون أن يكون، كما يقول البعض، قد قدّم صلحه لخصمه [1].

وتروي روايةٌ شعبيّة أنّ عبد القادر، وهو سائرٌ يومًا لمحاربة الفرنسيّين، كان يتحدّث في الطّريق مع رفاقه. فسألهم إن كان أحدٌ منهم يعرف هذا النّظم الذي سمع به. فقال له أحدهم: (أنا أعرفه) وأنشده. فلمّا بلغ البيت 65: (الدّهر المتقلّب، إن ابتسم لك اليوم، عاد غدًا بركبٍ من المصائب. وكما استوليتَ على هذا البلد لتحكمه، سيستولي عليك ذلك الآخر!) رأى الأمير في هذا البيت نذيرَ شؤم، فقال لمَن كان ينشد القصيدة: (كفى! كفى! لقد كان ولد امحمّد وليًّا؛ ولم أكن أعلم بقدرته. (3 مكرّر)

وسواء أكانت هذه الرّواية موضوعة أم لا، فإنّها تدلّ أهمّية الأثر الذي تركه شاعرنا في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم. لقد كان مثال قدور جديراً بالاقتداء. فالشّعر، مع رجال قِلال من أمثاله، كان بإمكانه أن يؤدّي وسط الجماعات الأهليّة، عبر القوَّالين والمدّاحين، أولئك القوّالين أو المنشدين الشّعبيين، دور الصّحيفة أو المنبر الدّائم الذي تؤديه وسط جماعاتنا الأوروبية. ذلك أن كلّ سلطة سياسيّة حريصة على البقاء لابدّ أن تُعنى بالرّأي العام. وهنا، كان على سلطة الأمير أن تراعي أعراف وعادات القبائل التي رفعته إلى القمة، وهي أعراف كثيراً ما كانت مُحرِجة في علاقاته بخصومه من النّصارى.

وإذ لم يكن بمقدوره إسكات الشّعراء، أراد عبد القادر على الأقلّ أن يسخّرهم لسياسته. وبفعله هذا كان يعود إلى التّقاليد العربيّة كما رواها التّاريخ الإسلامي في عهد الدّولتين الأوّليين، في المشرق أو في الأندلس. لقد كان يحلم، وأنّ بأشكال محدّثة بحكم الضّرورة، بإحياء تلك التّقاليد التي احتفظ بذكرها أهل الأدب من أنصّاره ونقلوها. أوّلم يكن للرسول نفسه، بين من حوله، شاعران هما حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، يرد بهما على هجاء أعدائه؟

جاء إذن عدّة شعراء استُدعوا إلى عبد القادر. غير أنّ سّي الطّاهر بن حوّة كان قبل الجميع شاعره الرّسمي. وفي مواجهة خصوم الأمير الذين كانوا ينشرون أبياتاً يقارنون فيها بين أسماء الملوك العظام الغابرين وشخصيّة الأمير، ويذكّرون فيها، بأسلوب ملغّز، بتقلّبات القدر التي ترفع العروش وتُسقطها

1- إن حياة قدّور خلال سنواته الأخيرة غامضةٌ إلى حدّ كبير، ولم نتمكّن من الوقوف على تفاصيلها. ويورد عبد الرّحمن، المرجع نفسه، ص48، ترجمةً موجزة لهذا الشّاعر. (64 مكرّر) . انظر: عبد الرّحمن، المرجع نفسه، ص47. الوليّ (OUALI) هو وليّ صالح يُنسب إليه القدرة على التّنبؤ بالمستقبل.

تباعاً، كان لابدّ من تأكيد بهاء هذا الحكم الجديد وشرعيته وقوّته. والقصيدة التّالية لسّي الطّاهر[1] ستُرينا كيف اضطلع الشّاعر الرّسمي لعبد القادر بهذه المهمّة.

***

كلام سّي الطّاهر بن حوّاء رحمه الله

الأبيات:

1- يـا منْ درى شِي مـن يـوم سلطـاني مْبَارَكْ ❁ ممـــزوج بالمســـرّات والرّضَـــا مَبْـــروكْ

2- بلّـي نحـبّ والّـي تريـد يجمـع شـملكْ ❁ ويـدير ليـكْ ([2]) مـولاك في المضـيف سـلوكْ

3- تنـال كـلّ الصّـاعبة يقـوى نصّـرك ❁ تقـبض مفـاتح الخيـر والفِعْـل مفكـوكْ

4- تبلـغ منـازل تريـدها يعظّـمْ مُلْكَـكْ ❁ بـالعزّ والظّفَـرْ لا نْجَـا لمـن عْـدُوكْ

5- ويعـم لاَرْضْ قَبْلَـة جـوف وابَـلْ وَصْـلَكْ ❁ بـالفخر والهنـا والثّنَـا لمـن نصّـرُوكْ

6- وَحْيّيـتْ سُـنْة الـدّين في الزّمَـانْ الهَالَـكْ ❁ نقمـة لمـن طغـى يـا عْـذَابْ مـن بَغْضُـوكْ

7- اجفـار سـابقة ازمانهـا نبـات ([3]) بخْبَـاركْ ❁ تْـوَارَخْ العـرَّابين والعجـم ذكْـرُوكْ

8- عبـد العزيـز عبـد القـادر عبـد المالـك ❁ سـادات بالبصـيرة رَوَوا ومـا جَهْلُـوكْ

9- والنّـاس كلّهـا بجميعهـا عبيـد المالـكْ ❁ مـن خشـية الحسـد والمنـافس فهمـوكْ

10- محفوظْ ما تْرَى بَاسْ من يريد الشّوكْ ❁ مضـمون مَـنْ الاْذَايَـة أهـل الصّـقَا ضَـمْنُوكْ

11- بـالوفَقْ جمَّـعْ الجَمْـع في رْفِيـعْ مْقَامَـكْ ❁ الغـوْثْ والقْطُـبْ للْمَزَادْمَـة دَفْعُـوكْ

12- عَمَّـرْتْ دَارْ لاَشْـرَافْ وَالْعَـرَبْ بانصّـالَكْ ❁ عَفْرِيـتْ صُـول زَدْمَـة على العـدوّ دُكْـدُوكْ

13- البـرّ والْبْحَـرْ كـلّ حَشْـدَتْ لَعْفَـارَكْ ❁ غْيَـاتْ مـا تْنَـاقَرْ وْحَـارَتْ المْلُـوكْ

14- فُـوقْ الْجْنُـودْ وعلى الْبْنُـودْ بَنَّـدْ بُنْـدَكْ ❁ بـالفخَرْ وَالْبْهَـا وَاعَـدْ السّـمَا مَسْـمُوكْ

15- هـزْ الْوُطَـا وهـزْ الْجْبَـالْ صَـايَتْ رَعْـدَكْ ❁ لاَرْضْ رَاجّـة والحْصُـونْ مـا رَصْـدُوكْ

16- زلـزلْ اشْـجَارْ واحْجَـارْ عَاصَـفْ ريحَـكْ ❁ للضـدّ ريـحْ ورْيَـاحْ على الصّـديقْ مَسـوكْ

17- واسمى على اشْرافْ المْلُوكْ سَامِي قَدْرَكْ ❁ رْجَـالْ لاَرْضْ ومْلاَيَـكْ السّـمَا عـزُّوكْ

18- وَوْرثْـتْ كلّ مـوروثْ مَجْـدْ سـابقْ قَبْلَـكْ ❁ اسْـلاَفَكْ الكريمَـة بْنُـورْهُمْ لَحْظُـوكْ

19- زَالْ الزّفَى وْزَالْ النّقَّـارْ ضدّهْ مَنْ عَهْدَكْ ❁ قفَّـا مْعَـكْ مَـذْكُورْ وِيـنْ مَـا ذَكْـرُوكْ

1- لم نتمكّن من الحصول على معلومات دقيقة بما يكفي عن سيرة هذه الشّخصية. غير أن هذه الأسرة، التي كانت من حاشية عبد القادر، تَرِد الإشارة إليها مرارًا في مراسلات النّقيب دوماس.

2- في شأن إطالة اللاّم (ل) في صورة «لي»، انظر: بِل (Bel)، الجَزْية، ص74، الحاشية 3؛ وو. مارسي (W. MARÇAIS)، المرجع نفسه، ص167. وفي شأن لفظ مولى، ومعانيه المختلفة وطرق كتابته، انظر: بِل (Bel)، الجَزْية، ص101.

3- نبات بدلًا من نبآت. وفي شأن المحافظة على الحركة الطّويلة للفعل النّاقص في صيغة الغائب المفرد المؤنث، انظر: دوتّي (Doutté)، نصّ عربي باللّهجة الوهرانية، ص23.

20- رْجَـالْ وافيـين العهـود صَـدْقُوا ظَنَّـكْ ❁ مـــا خَـــالْفُوكْ مَـــا فَـــارْقُوكْ مَـــا قَلُّـــوكْ

21- هَـانُوا عْمَـارْهُمْ في رْضَى النّبِي وَرْضَـاتَكْ ❁ اللّه حَـــبْهُمْ وَالرّسُـــولْ كِـــي [1] حَبُـــوكْ

22- غَنْمُـوا كْثِيـر لأْجُـورْ في سَـعْي رُفْقْتَـكْ ❁ وَيْوَافْقُـــوكْ فـي سَـــاعَةْ الْقْضَـــا يَحْمُـــوكْ

23- ذا العام دَرْتْ مَعْلَمْ خَلَّصْتْ فِيه ادْيَانك ❁ سَـرْبَلْتْ كِـي ضَّـارِي غْنَمْـتْ مَـنْ خَـدْعُوكْ

24- السّهْل وَلْوَعَرْ ضَاقْ مَنْ كْتَايَبْ جَيْشَكْ ❁ كَلَّـتْ السّـيُوفْ في حْصَى عَـدّهْ المَشْـكُوكْ[2]

25- نَغْـرَتْ بْحُـورْ مِيَـاهْ قويّـة في بَحْـرَكْ ❁ غَرْقَـتْ سْـفُونْ في لَـجّ صَـطْوْتَكْ عَرْفُـوكْ

26- الشّـوْقْ هَـاجْ وَالْـوْحَشْ لَلْقُلُـوبْ دَرّكْ ❁ أَرَاهْ وَقْـــتْ مَبْـــرُوكْ بَـــالنّظَرْ كَشْـــفُوكْ

27- يْشَـاهْدُوكْ لاَعْيَـانْ فِيـه نِعْمهـمّ فَضْلَكْ ❁ أَرْضَـــا وْعَفْـــوْ للْخَلْـــقْ عَمهـــمّ سَـــمْحُوكْ

28- يَـا غَايَـةْ الْكَـرَامْ النّسَـابْ يَـا مَـنْ نَسْـبَكْ ❁ مَـــنْ بَضْـــعَةْ النّبِـي فـي نْسَـــابْهَا نَسْـــبُوكْ

29- ربّـي يْبَارَكْنَـا يْزِيـدْ لَـكْ فـي عُمْـرَكْ ❁ وَاعْمَارْنَـــا مْـــنَ الْمْـــوُتْ بَالْعْـــدَا يَفْـــدُوكْ

***

ترجمة النّص مع الحفاظ على الأرقام كما وردت في الأصل:

ترجمة كلام سي الطّاهر بن حموى، رحمه الله!

1. من ذا الذي يعلم مدى بركة يوم السّلطان، الممزوج بالرّضا والقناعة، المحفوف بالسّعادة!
2. .....
3. تتغلب على كلّ صعوبة، وينتصر نصرك ويترسخ؛ تملك مفاتيح السّلم الذي فُتح قفله.
4. تبلغ الحال التي ترغب فيها. تتّسع مملكتك بالقوّة والنّصر؛ ولا نجاة لمن كان عدوًا لك!
5. كرمك، كالمطر الغزير [3] في الجنوب والشّمال، ينتشر على كلّ الأرض؛ وفي الوقت ذاته، المجد والتّهاني والمدائح تذهب إلى من أعانوك.
6. أحييت التّقليد الدّيني في زمن الخطر. أنت الانتقام من الملحد، يا من يعاقب من يكرهونك! [4]
7. تنبؤات قديمة، نبوءات، أعلنت عن مآثرك. سجلات العرب وغير العرب ذكرتك. [5]
8. عبد العزيز، عبد القادر، عبد الملك، أساتذة (في التّكهن) ببصيرتهم [1]، عرفوا الرّوايات (المتعلّقة بك)؛ لم يجهلوها.

1- إطالة الكاف (ك) إلى (كي). انظر: و. مارسي (W. Marçais)، المرجع نفسه، ص166 و172. لا تقع إلّا قبل الأسماء المعرَّفة. غير أن (كي) هنا مستعملة بدل كيف، بمعنى مثل أو كما.

2- من العادات العربيّة الضّاربة في القِدَم تشبيه الكرم بالمطر النّافع.

3- من العادات العربيّة الضّاربة في أقدم العصور تشبيه الكرم بالمطر النّافع.

4- إشارة إلى القتال ضدّ قبائل البرجيّة، والأَنجاد، وأولاد سيدي غانم، والمجاهير، وغيرها، وهي قبائل عربية كانت معادية للأمير. انظر في هذا الشّأن: G. Yver، مراسلات دوماس، ص321، ومواضع متفرقة.

5- في شأن هذه التّنبؤات التي كان أنصار عبد القادر ينشرونها بين القبائل، انظر: المجلّة الأفريقيّة، المجلّد العشرون، سنة 1876، ص420 وما بعدها.

9. والنّاس، كلهم دون استثناء، عبيد القادر المطلق، خوفًا من الغيرة والفتن الداخليّة، فهموك.

10.محفوظ من الله، لا ترى شرًا في من يسعى إلى العلاقات مع النّصراني [2]؛ محميّ من الأضرار (النّاتجة عن الذنب)، أهل الطّهارة (الأوّلياء) هم ضمانتك.

في اللّحظة المناسبة، اجمع جنودك؛ تحت قيادتك العليا؛ الغوث، القطب [3] يدفعانك إلى الدّفاع ضدّ المهاجمين.

11.لقد ملأت بأسلحتك (بمآثرك) بلاد الشّرفاء والعرب! اقتحم بغضب، يا نبوغ، الصّدام مع العدوّ أيّها الدّيك المتعجرف [4].

12.الأرض والبحار معًا جمعتا جهودهما لإسقاطك؛ تعبتا من القتال؛ الملوك أصبحوا قلقين من ذلك.

13.فوق الجنود، أعلى من الرّايات الأخرى، أَجرِ (في الرّيح) رايتك، بالمجد والجمال؛ وعد السّماء عظيم!

14.صوت رعدك هزّ السّهل والجبال؛ ارتجفت الأرض؛ الحصون لم تصدّك!

15.الأشجار ارتجفت، والصّخور الضّخمة أيضًا، من عنف ريح قوتك؛ ضدّ العدو، أنّها ريح عاتية وهذه الرّيح نسيم لطيف حين تمر عليك ذاهبة إلى الصّديق. [5]

16.سموّ مكانتك ارتفع فوق (مكانة) أنبل الملوك. النّاس على الأرض، والملائكة في السّماء، جعلوك قويًا!

1- هذه الشّخصيات الثّلاثة ثلاثة أوّلياء دُفنوا في بلاد الرّافدين. ويرى بعض الأهالي أن لفظ البصيرة الوارد في النّصّ يشير إلى مدينة البصرة. وعلى هذا يكون معنى العبارة: عبد العزيز... إلخ، شخصيات بارزة من البصرة، عرفوا.. غير أن السّيد محمّد بن شنب أفادني بالملاحظة الآتية: يبدو أن عبد العزيز هو عبد العزيز الدّبّاغ، الوليّ المغربي؛ انظر ترجمته في أحمد بن المبارك السّجلماسي، الإبريز، القاهرة، 1304هـ. وأما عبد القادر فهو عبد القادر الجيلاني، المدفون في بغداد (انظر: دائرة المعارف الإسلاميّة، المجلّد الأول، ص42). وأما عبد الملك فهو، بحسب الأسطورة الشّعبية، ملك من ملوك الجن المسلمين. وفي معنى لفظ البصيرة، انظر: الجرجاني، التّعريفات، مادة (البصيرة)

2- لفظ شِرك، الذي يُطلَق في الأصل على المشركين، يُراد به هنا الفرنسي، أي المسيحي.

3- لفظ الغوث (GHOÛTS) في اصطلاح الصّوفية يُطلَق على الوليّ الذي يكون الوسيط الأعظم في الشّفاعة لدى الله. أمّا لفظ القطب فيُطلَق على الشّخص الذي يتوسّط بين الله والأولياء لتدبير شؤون العالم. انظر: ديبون وكوبولاني، الطّرق الصّوفية، ص81، أسفل الصّفحة. وفي المعنى الدّقيق لهذين المصطلحين، انظر: ابن خلدون، المقدّمة، ترجمة دي سلان، المجلّد الثّالث، ص104؛ والجرجاني، التّعريفات، طبعة القاهرة، 1306هـ، ص76. وهذا البيت إشارة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني، جدّ الأمير ومؤسس الطّريقة القادرية.

4- لفظ دكدوك يعني الشّجاع، أو المتباهي بنفسه؛ ويستعمله عرب الجنوب بمعنى الدّيك المتكبّر، أو الدّيك الغاضب. فهل في هذا اللّفظ إشارة إلى الدّيك الغالي (COQ GAULOIS) الذي حلّ، بعد سنة 1830، محل زهرة الزّنبق (FLEUR DE LYS) على سارية الأعلام الفرنسيّة؟ ذلك محتمل. ولفظ دكدوك غير وارد في قاموس بوسيه (BEAUSSIER).

5- تُشبِعَه من نعمك وتُغدق عليه من فضلك. ويشبّه العرب الرّجل الكريم بالرّياح المحمّلة بالمطر التي تجلب الخصب والنّماء. وفي هذا إشارة إلى حديث نبوي، أحالنيّ فيه السّيد محمّد بن شنب إلى المرجع الآتي، فيما يتعلّق بلفظَي ريح ورياح: ومنه الحديث: كان النّبي يقول: (إذا هاجت الرّيح: اللّهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا.) ويقول العرب: (لا تُلقِح السّحابَ إلّا رياحٌ مختلفة)، أي: اجعلها لقاحًا للسحاب، ولا تجعلها عذابًا. (ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر)

(2 مكرّر). لفظ مذكور له بالفعل النّهاية الصّوتية نفسها التي في (قدّور)، وهي صيغة الاختصار الشّعبي لاسم عبد القادر.

17.ورثت كلّ الإرث المجيد الذي سبق مجيئك! أسلافك الكرام أسقطوا عليك، وهم ينظرون إليك أشعة مجدهم.

18.صخب (المعارضة) توقّف؛ الخصام لم يعدّ يعارض طاعة عهدك. كلمة "الشّهرة" تتناغم مع اسمك أينما يُحتفى باسمك؟ (2 مكرّر)

19.الرّجال الأوفياء لقسمهم وثقوا برأيك. لم يعارضوك أبدًا؛ لم ينفصلوا عنك؛ ولم يجدوك عديم الأهمّية.

20.من أجل رضا النّبي ورضاك، هم استخفوا بحياتهم. اللّه ورسوله أحبهم كما أحبك هؤلاء الرّجال!

22.جمعوا مكافآت كثيرة من غنيمة صداقتك؛ ستكون في صفّك في ساعة الحسم، وستحميك.

23.هذا العام أصبحتَ سيدًا (في شؤونك)؛ جعلتَ مدينيك يدفعون. تسير بفخر، كأسد ([1]) يعضّ. استوليتَ على من خانوك.

24.السّهول السّهلة، والأراضي الوعرة، ضاقت عن استيعاب كتائب جيشك. السّيوف (المعادية) تكسّرت هناك على (جنود صلبين كـ) الصّخور التي لا تُحصى عددًا.

25. (جيوش) كالبحار رأت أمواجها القويّة تغلي في بحرك. ابتلعتَ السّفن في هاوية صدمتك العنيفة. (أعداؤك) عرفوك!

26.الشّوق (لرؤيتك) يملأ القلوب؛ الحزن (لبعدك) يغمرها. أليست تلك ساعة مباركة حين نروي بمرآك أعيننا؟

27.ستشهد الأنظار في تلك اللّحظة سعادتها بعلوّ مكانتك. اقبل رغبة الشّعب كله، وامنح العفو! الجميع يلتمسون منك.

28.يا أعظم الرّجال الكرماء نسبًا! يا من تنحدر من نسل النّبي وتنتمي إلى سلالتّه!

29.لينثر اللّه علينا بركاته بإطالة عمرك! ولتكن أرواحنا في مواجهة الموت فداءً لحياتك!

***

لقد رأينا للتوّ قدور ولد محمّد يُلحّ، في أبياته، على قسوة طبع الأمير. فبالنّسبة لهذا الشّاعر، عبد القادر إنسان متردّد، ماكر، قاسٍ، خاضع مثل كلّ أصحاب السّلطة في زمانّه لتقلّبات القدر، ولكرات ضربات المصير المتناقضة. وعلى الرّغم من قوّة الأمير الحالية، يمكن أن يُطاح به بفعل تقلبات الزّمن، كما حدث قبله لحكومات قويّة جدًا.

أما الطّاهر بن حوّة -على العكس من ذلك- يمجّد في قصيدته السّلطة الشّرعية، الإلهية نوعًا ما لسلالة قريش، وهي سلطة يمثّلها الأمير ويؤكّدها بانتصاراته. الشّاعر الرّسمي يحتفي بكرم عبد القادر وهي

1- لفظ ضاري يعني كلب الصّيد (انظر: دلفان (DELPHIN)، نصوص، ص107؛ وعبد الرّحمن، المرجع نفسه، ص43، الحاشية 2. غير أن اطّلاق هذه الصّفة على عبد القادر، الأمير، من جانب أحد أصدقائه، قد يبدو غريبًا. ومن جهة أخرى، فإن الشّاعر الجاهلي النّابغة الذبياني (AHLWARDT، THE DÎWÂNS، ص14، القصيدة 11، البيت 2 أطلق هذه الصّفة على الأسد. ويجدر، فضلًا عن ذلك، ملاحظة أن لفظ سربل، إلى جانب معناه: «ارتدى درعًا» ونحو ذلك، يعني أيضًا أن تكون له مِشية مهيبة كمشية الأسد.

صفة أساسيّة للحاكم في الأسطورة العربيّة؛ وينشد استعادة الإيمان الإسلامي، والقبول الإجماعي للسكّان المتجمعين حول السّلطان الجديد: كلّ هذا يتوافق مع التّقاليد الإسلاميّة بشأن سلطات رئيس الدّولة السّياسي المسلم.

فالقصائد التي أوردناها هي إذن شواهد على الحالة الذّهنية واهتمامات أولئك الذين، في الوسط الذي عاش فيه عبد القادر، كانوا يطمحون إلى إلهام أو التّأثير في السّلوك السّياسي للسكّان. أنّها تمنح قيمة ملموسة للأجواء المعنوية لتلك الحقبة، أجواء تصبح بذلك واقعية يمكن للمؤرّخ أن يستند إليها.

كما تُظهر أيضًا كلّ الأهمّية التي يكتسيها جمع دورات الأغاني الشعبيّة في الجزائر، من مختلف الحقب، **وهي أغانٍ مفيدة جدًا لمعرفة حالة أفكار السّكّان الأصليين**. ويمكن التّأكّد سلفًا أن ما بقي حيًّا في الشّعر الشّعبي إنّما هو الأعمال التي تعبّر بقوّة عن الأفكار أو المشاعر التي أثّرت في الرّأي العام.

أ. كور

***

الملحق14: الشّعر الشّعبي السّياسي في عهد الأمير عبد القادر لـ: أ. كور

LA POÉSIE POPULAIRE POLITIQUE

au temps de l'émir 'Abdelqader

Depuis le renouveau de recherches scientifiques, sous l'inspiration de la Faculté des Lettres d'Alger, dans les études dialectales arabes, on s'est aperçu que la littérature populaire algérienne était riche en genres, abondante et instructive par ses documents humains (1). Cependant ces études ont été faites surtout en vue de la linguistique. Les poésies, en particulier, ont été utilisées, car le vers conserve mieux les formes verbales ; on n'y peut changer un mot sans altérer ou le sens ou la mesure. Ce sont, en quelque sorte, des *chawâhid* (2), des specimens parfaits des parlers vulgaires à une époque donnée. Voilà pourquoi les divers auteurs ont cité nombre de textes poétiques ; ils y ont trouvé une garantie d'authenticité des vocables supérieure à celle des textes en prose. Mais la poésie populaire est encore un témoin des mœurs, des idées, des soucis d'une époque. Elle a donc une valeur historique. Ce dernier aspect de son rôle n'a guère été envisagé, au moins dans l'Afrique du Nord, par les arabisants locaux (3). Et pourtant les exemples abondent. Un des plus remarquables fut le rôle des poètes dans l'entourage d' 'Abdelqâder, rôle dont nous allons dire quelques mots.

⁂

Il ne faudrait point croire que ce rôle des poètes, pour ou contre l'émir, ait été improvisé à cette époque. Ce rôle rentrait bien dans la tradition arabe dont 'Abdelqâder ambitionnait d'être le représentant. Une rapide revue des

Cette croyance générale sur l'influence politique de la poésie populaire en pays arabe, de la satire ou de l'éloge, n'a pas été spéciale à l'antiquité préislamique ou islamique. Nous la retrouvons dans les temps modernes confirmée par un passage des *Mille et Une Nuits*. Un père, un roi, reprochant à son fils une grave inconduite, lui dit : « O mon fils, abstiens-toi de ta mauvaise conduite afin de ne pas passer, parmi les autres rois et à jamais, pour un être plein de vices et de défauts. *Tu sais que notre réputation voyage avec les cavaliers des caravanes...* » (10)

Il serait oiseux d'exposer ou de discuter ici les raisons pour lesquelles les diverses dynasties musulmanes, Oméïades d'Asie, 'Abbasides, Oméïades d'Espagne, etc., attirèrent auprès d'elles, parmi les intellectuels de leur temps, surtout les poètes. D'autres auteurs l'ont fait excellemment ; je ne puis que renvoyer à leurs travaux (11). Le fait que j'ai voulu souligner d'abord est le rôle politique joué dans les traditions des Arabes, et depuis le début de leur histoire, par la poésie. Passons maintenant à 'Abdelqader et au rôle des poètes populaires à son époque.

⁂

'Abdelqader, proclamé sultan par ses contribuables, ne trouva pas chez les Arabes des autres tribus de l'Oranie, et même chez certains membres de sa propre tribu, tout l'empressement désirable à lui obéir. Il y avait autour de lui de nombreux mécontents : marabouts jaloux du prestige de l'Emir, notables irrités de se voir écartés des emplois, etc. (12). Dans le nord du pays, quelques grands chefs, tels El Ghomari, le chef de la puissante tribu des Angad, et Si Laribi, qui commandait toute la vallée du Chélif, depuis Al Asnam (Orléansville) jusqu'à Mostaganem, pouvaient prendre ombrage du nouveau pouvoir. Il y avait aussi les Douaïrs, les Zmala, anciens groupes du makhzen turc. De plus, des conditions économiques

opinions anciennes et des faits, sur ce sujet, nous le fera mieux voir.

Dans les pays aux populations frustes et primitives, où les illettrés sont nombreux, c'est la poésie, plus facile à garder dans la mémoire à cause du rithme du vers, qui a servi à conserver les traditions, les faits qui ont frappé l'imagination des foules ou qui ont touché vivement à leurs intérêts. Chez ces populations le poète représente par excellence l'élément intellectuel (4). Dans l'antiquité arabe on le considérait comme le porte-parole de son groupe, *chà'iru qaûmihi* (5) : « Je suis, disait le poète Farazdaq, le gardien vigilant des gens de mon clan ; pour défendre leur honneur, il y a moi ou ceux qui me ressemblent. » (6)

Ce vers du poète n'est pas une parole en l'air. Il suffit, pour en comprendre la justesse, de se reporter à ce qui se passait sous les premiers califes, au moment des *wofoud*, assemblées populaires tumultueuses, où les provinces envoyaient, pour défendre leurs intérêts, des poètes, jouteurs redoutables. Pour combattre à armes égales, le gouvernement avait des poètes à sa dévotion (7). Les productions de ces divers personnages, colportées par les voyageurs, les chanteurs populaires, surtout les caravaniers, pénétraient dans les régions les plus lointaines des pays de langue arabe ; elles pouvaient avoir une influence décisive sur l'esprit des populations. « Je suis, dit Djarir, l'auteur de satires originales, se propageant sur le passage du caravanier, qui les chante de nuit. » (8)

Les poètes arabes furent donc jadis, en quelque sorte, les journalistes de leur époque. Et non seulement la poésie politique se répandait plus rapidement que la prose, mais tout le monde ne pouvait lui répondre, elle était souvent sans réplique : « En tout cas on ne peut l'écarter, l'empêcher de se répandre, lorsque les marchands des caravanes la chantent en venant à l'aiguade (lieu du campement). » Telle est l'opinion de Zohaïr (9).

spéciales, des intérêts commerciaux avaient toujours rattaché certains éléments de population, certaines villes, — telle El-Bordj, près Mascara, — avec les territoires du nord du Tell.

Si Laribi, de noblesse politique et non religieuse comme 'Abdelqader, avec son immense commandement qui renfermait les tribus les plus guerrières, était une menace permanente pour la puissance morale et militaire de l'Emir. Ancien agent des Turcs, il pouvait, d'un moment à l'autre, passer au service des Français. 'Abdelqader marcha contre Si Laribi et le combattit, en 1834, à El-Bordj (13), dont les habitants avaient appuyé ce dernier. Ils payèrent cher cet appui ; 'Abdelqader ruina leur ville. Mais les habitants d'El-Bordj ne se soumirent pas. Un d'eux, Qaddour ould Si M'hamed el Bordji, surnommé Bou Negâb, ancien caïd de la ville, destitué par 'Abdelqader à la suite de rivalités avec les gens de l'entourage du nouveau sultan, fut un des plus acharnés adversaires de celui-ci. Doué d'un réel talent poétique, Qaddour ravivait par ses chants les hostilités, contre 'Abdelqader et ses partisans, parmi les esprits. Dans ses poèmes, il satirisait l'Emir, ses origines, sa famille, battait en brèche leur puissance naissante. « A-t-on jamais vu, disait-il, un sultan produit par une zaouïa ? A-t-on jamais vu un *hadhri* devenir caïd des Arabes ? » (14) Ces dernières paroles étaient faites pour piquer les Arabes qui ont toujours considéré les sédentaires des villes comme leurs inférieurs et leur ont toujours obéi avec répugnance. Or 'Abdelqader avait dans son entourage nombre de lettrés citadins. Un de ces derniers, El Habib Bou 'Alem, était l'adversaire personnel de notre poète et son rival heureux au poste de caïd (14 *bis*).

La renommée poétique de Qaddour Ould M'hamed s'étendait dans toute la province d'Oran, aussi bien dans l'entourage d' 'Abdelqader que parmi les adversaires de l'Emir. Un jour, les Douaïrs invitèrent le poète à une

grande *difa* (14 *ter*) avec l'intention de se l'attacher. Ils lui offrirent un repas copieux et merveilleux. A la fin du repas, lorsque tout le monde avait la verve excitée, les principaux notables des Douaïrs lui dirent : « O Qaddour, nous avons juré que tu seras notre Bessouiket (15) et que tu feras un poème en notre honneur. » Qaddour s'excusa, prétendit être incommodé par l'abondance du festin, puis repartit pour son pays. Il ne fit pas la *qasida* demandée ; les relations politiques intimes des Douaïrs et des chrétiens le gênaient sans doute (16). Peut-être aussi eut-il peur de surexciter encore l'acharnement d' 'Abdelqader contre les siens.

La paix, entre les Français et 'Abdelqader avait, en effet, singulièrement fortifié celui-ci. Il en profita pour réduire ses ennemis indigènes les plus dangereux. Qaddour n'échappa pas au sort commun ; il fut interné par l'Émir. Des amis du poète intervinrent en sa faveur. De son côté, Qaddour sembla atténuer son hostilité : « De nos jours, disait-il, nous avons vu une chose remarquable : un sultan a été produit par une zaouïa ; un *hadhri* est devenu caïd », et il ajoutait, comparant sa future fidélité vis-à-vis d' 'Abdelqader à la fidélité d'un chien : « Jamais ton chien ne réitérera. » (17) 'Abdelqader lui pardonna et, faisant allusion au vers du poète, dit à son entourage : « Laissez le chien aller où il voudra. » Mais il retint la famille du poète en otage. De nombreuses démarches pour la faire relacher, faites sans succès par Qaddour amenèrent une nouvelle rupture entre ce dernier et l'Emir. C'est à cette époque que fut composée la poésie suivante adressée à 'Abdelqader, et peut-être la plus célèbre de Qaddour (18).

∴

من كلام ولد امحمد النقايبي البرجي
اصلا ومسكنا

هـدّة (19)

1 عييت صابر وانراعي بيك لابتصال
يافريب الضحكة وبعيدة رضاك (20)

2 ما سمعت ولاشبعت النفسي كفاك

3 يظنّ بيك الطامع كما بغى ينال
يحبّ قلبك يعبو ويخابى من جباك

4 طراب وجهك وقمني زدت في الهبال
ولا علمت بما ذاخر حقد من دماك

5 بيك مارة ٢٢ واشارة الكمال
وافبين آتموا لاثنين في بهاك

6 اسطا وصاري ومُوالب تنكر الخيال
لايحصّل منه محبوب في بلاك (21)

7 برّفت اهلي واولادي منّها اطوال
ولاجبرت من يذك لهمومها اسلاك (22)

8 تجلب الطير الحسنة قالت الرجال
ينسى احراج اوكاره بالودّ ما اداك

9 انظر الى المولى في الكتاب فال
من عبا واصلح ليه اجرين ما خباك (23)

فراش

10 يافريب الضحكة وبعيد في الضمير
كي نديرلذا الشي وَيْنَاه دَوَاه

11 (23bis) شوار وطني قلبي لبّى بغى يطير
رحلت جوارح جسدي كاملة معاه

12 قالت المقّالين الغيض كي الغدير
يبوت ينشف وغديرك لبد طال ماه

13 راه من يتعلى جو السما يطير
ينزل على النازل ويعود من ادناه (24)

14 يهدف اليُسر بعد العسيم لليسير
اذا اشتدّت لامحان العبو راه جاه

15 فادر البُرج مولانا على اليسير
في احسانه نصبر ولهواك ذا فضاه

16 درت فينا راي من لايدير خير
واش بافي بعد ما جاك خوك بجاه

هـدّة

17 على قبيل تحاموا برّيس ذا وذاك (25)

18 جا الهمّ مع اليمين وجا مع الشمال
جا من اكحلب وجا مالقدام (26) واك واك

19 صاب بك الصدّ السبّة والقلب غال
راه يخلص في دين فديم واك واك

20 لايبرفز يدهن عينيه بالدبال
ما ينجم شي يكابر ندهة العراك

21 كل نسل يشوف لباباه في لاصال
يا المسوّك بالعود واللايح اليراك

22 احنا مفاتح البادى للعرب بال
شبت وسمعت انت رانا لاحذاك

23 يوم تركب فرسان اخيف للفتال
تكون نفسك هاني وانفوسنا بداك

فراش

24 بيك ظنّي خاب ولاصبت شي صواب
والمحبّة راحت ما بيناتنا سماح

25 راه راسي شاب وقلبي حجاه طاب
وآنشوّت الكبدة من قوة الجراح

26 تلّبّت ليد طريف لاكل والشراب
انغشت الجثة كلّتها من الصحاح

27 مفين ولّت لارنب تُهاب والسبع خاب
تافت الجندرة والطود مالسّما (27) طاح

28 اش فات اعذاب على نسل بو نقاب
حساب ثمن السنين يلاليلها فراح

29 ضحّوا في البرّ صلال غراب للقراب
غالبين اعداهم وقلوبها فساح

30 ذا الفي ماه حنبك يا فارس الوجـــاب
ما يجوز المسعور الّي معاك طـــــاح

هـــدّة

31 شدّ مودك وتبكّريوم يرخص غلاك
32 عند من كان يحبّك في السنين لاشغـال
كلا وبقّل من عربك يا المالك معـــاك
33 يعود فدرك في باله تحت سومة ريـال
خيرك فيه فما نسانا ونســـــاك
34 ولاشارات للعاقل تجتمعوا مع البـــال
اذا نسي يذكّر بها حديث لاشكـــــاك
35 تصرف فيها ولهتها راديات لابعـــال
تحسب بالخير وتقلّل فول عجـــــاك
36 الشعبان الكاسر طاقت لاغـــوال
دير خصلات اهداهم يذكروا شنـــاك
37 لحبل جودك لا تسمع شي لقول فـــال
والحسيد يحوس بالكذب ودمـــــاك
38 يمسح صدا سنيه على فيها الجـــلال
بالكذوب يعثره ويديك لا ملـــــاك
39 والمحاسن تديها في حقّناهـــــلال
ديني ذا الدار تُرَدّ (28) ديرلي اهـــواك

فـــراش

40 حُطّ بالك واعمل في الصدر صالح الـــراي
اقبل الخطا من مزوك اذا ســـــار
41 بجاهك الواهي شور الحرم فاصد وجـــاي
كي نجوز المتوسل بك ليك ذي عـــار
42 واك مَنْ دَارَك تأمر في العباد نهّـــاي
يقبل التوبة من عبده العبو الغفّـــار
43 شركت لوهم الدّنيا واعره وغـــوّاي (29)
تنقلب مفاصلها كي شبعتها بالابصـــار
44 ظهرت اهرب مردومة وصانها البتّـــاي
المحصن من وقت الشوم خرّب وبـــار
45 جرنا ونجّينا يا خالقي ومـــولاي
وفرّغ علي من نوصاه يا اكبّـــار
46 بجاه سيد عبادك جمّع حالي والـــراي
وضّح سنتك لنا النبي المختـــار

هـــدّة

47 ما ابقى في الدنيا للشانفين فـــكّاك
48 بعد فرسان الحيف الكاسرين لابطـــال
شدّ لسانك بطّل وانسَ الحديث ينســـاك
49 وين ميعاد امل الانبيا والارســـال
يا العاقب للدهر لا تخرب اهـــواك

61 الله الواحد احد فرد صمـــــاد
لم يلد ولا شيء للكريم مولـــــود
62 يا الخالف سبع مهاد تحت الوتـــاد
وسبع سداد وسبع الي ماهم جبـــود
63 لا توكل بنا مراد قلبه فســـاد
وقينا مَنْ ودّه وداد خير يجـــود

هـــدّة

64 يا العاقل لا تفرح زعيم واش زقّاك (30)
65 اذا ضحك لك يرجع بالسوء دهر تبـدال
كي مسكت انت ذا البر يمسكـــك ذاك
66 القلوب موازن واصل العقول مثـــال
والشهيد المباصح صبر اللســـان وراك
67 كمن قدام وكمن وري يجوز الحـــال
بين جربين يصير لامريا البكّـــاك
68 نظم المنظوم فذور شهر شـــوال
في اثنين وخمسين السنة طرات بـــركاك
69 قرن الثالث عاشر بعد النبي الميجـــال
زار عرش البرجي في عقابه هـــلاك
70 النفيد الفاسي بن مُحمد بســـال
فيك مزراف المحبة وذمّه مـــلاك
71 الشاكي والمشكى للغاني فديم لا زال
الدايم المالك الواحد حُطّنا اعـــلاك

TRADUCTION

Paroles (31) *de Ould M'hamed En-Negâïbi, originaire et habitant d'El-Bordj*

1. — Ma patience à ton égard est à bout et je m'attends avec toi à la rupture, ô toi dont la bouche est toujours près de sourire (par feinte bienveillance) et dont l'assentiment est loin (du bon vouloir).

2. — Je n'ai jamais entendu parler de dureté de cœur comparable à la tienne, ni vu pareille haine.

3. — Qui convoite tes faveurs espère trouver en toi, à son gré, l'obtention (de ce qu'il désire). Ton cœur est au pardon, mais il redoute celui qui te domine (32).

4. — Ton visage souriant m'a trompé ; j'ai été, de plus en plus, dans l'égarement ; je n'ai pas su la haine de celui qui t'a poussé contre moi.

5. — En ton âme est imprimé le mot « non », tandis que tu as les apparences de la générosité parfaite ; ces marques sont incrustées sur ton brillant visage.

6. — Un maître en ruses, un chien qui mord, un animal qui a peur de son ombre, de ces trois choses il ne résulte rien de bon au milieu de l'affliction (33).

7. — Tu as séparé (de moi) ma femme, mes enfants, leur peine s'est prolongée. Ils n'ont trouvé, de ta part, aucune délivrance pour leur chagrin.

8. — Cependant les bienfaits apprivoisent l'oiseau, disent les hommes ; il oublie les malheurs (résultant) de la perte de son nid dès qu'il est l'objet de l'affection. Tu le sais.

9. — Vois ce qu'a dit, dans le Livre, le Protecteur par excellence : « Qui pardonne et rétablit la justice aura une double récompense. » (34) Ceci tu ne l'ignores pas.

10. — O toi (toujours) près de sourire (par bienveillance) et dont le cœur est loin du bon vouloir, que ferai-je pour cette situation ? Où en est le remède ?

11. — A mon pays (dans le malheur) mon cœur a

répondu : « Me voici ! » Il a voulu s'envoler (pour défendre) ; tous les organes de mon corps sont parti avec lui.

12. — La colère, ont dit les faiseurs d'apologues, est comme un *ghedir* (35). Il s'évapore, il se dessèche. Mais chez toi le *ghedir* (de ta colère) persiste ; son eau ne s'évapore point.

13. — L'oiseau qui vole en l'air s'élève, puis descend dans un lieu plus bas, et (quelquefois) devient inférieur (en position) à plus humble que lui (35 bis).

14. — Le bonheur, après le malheur, apparaît au prisonnier. Après des tribulations intenses la paix revient.

15. — Notre Protecteur divin a décrété que la joie reviendra au captif. Je patiente au milieu de l'espoir de ses bienfaits. C'est ce qu'il a prédécidé à l'égard de tes actes.

16. — Tu as suivi à notre égard la décision de celui qui ne veut point faire de paix (36). Que reste-t-il à faire après l'intervention (en notre faveur) de ton frère auprès de toi ?

17. — Contre nos tribus se sont dressés deux pays : celui-ci et celui-là (37).

18. — Le chagrin et les terreurs (de la guerre) sont venus de droite, de gauche, par devant, par derrière ! (38) De tous côtés sonne l'appel à la lutte (39).

19. — En toi (à ton service) mon ennemi mortel (40) a trouvé un motif ; et, le cœur plein de haine, il se fait payer une veille dette et prétend exécuter ta vengeance.

20. — (Tel un petit enfant qui feint de pleurer sur un prétendu mal) il ne fait qu'oindre ses yeux avec la salive ; il ne peut affronter le combat quand il y est appelé.

21. — Tout rejeton reproduit les qualités originelles de sa race. Tu le sais, ô toi qui te frottes les dents avec le bois d'Irak et qui le fais brûler (41).

22. — Quant à nous, nous sommes la clef du pays des Arabes, et pour ceux-ci un présage heureux (42). Tu l'as vu, tu le sais toi-même, car nous sommes tes voisins

23. — Le jour où tu feras monter en selle les cavaliers intrépides pour le combat, tu seras toi-même tranquille, et nous, nous serons ta rançon.

24. — Mon espérance en toi a été déçue, je n'ai point trouvé d'équité ; l'amitié est partie. Entre nous, il n'y a plus de miséricorde.

25. — Ma tête a grisonné ; mon cœur, dans ses pensées, a cuit (43). Mon foie s'est desséché et émietté à cause de la quantité de blessures (morales que j'ai subies).

26. — (A cause de ces blessures), ma main ne sait plus porter à ma bouche le manger et le boire ; mon corps tout entier a perdu la santé.

27. — Depuis que le lièvre est devenu redoutable, le lion est déçu ! La bosse de terre de la plaine est devenue un mont, et les sommets élevés ont chu du haut des cieux.

28. — Quel châtiment a enduré la descendance de Bou Negâb ! Une période de huit années de captivité, sans compter les nuits, s'est écoulée dans la lutte.

29. — Des égarés ont apparu dans le pays, corbeaux de mauvais augure (44). Ils sont vainqueurs de leurs ennemis, ils ont le cœur dur et solide !

30. — Ceci n'est pas un mythe, ô chevalier de la répartie ! Ce qui, dans ton entourage, a cru en valeur, verra sa propre dépréciation.

31. — Tiens ton cheval en rênes (45) ; pense au jour où la valeur de ta fortune sera abaissée.

32. — Chez celui qui t'aimait dans les années de soucis, qui a vécu dans l'abondance (par les contributions) de tes sujets, ô roi, et avec toi,

33. — Ta puissance, dans son esprit, vaudra moins qu'un *réal* (46) ; tes bienfaits, chez lui, sont déjà morts ; il nous a oubliés et il t'a oublié.

34. — Les conseils préventifs, chez l'homme intelligent, restent groupés dans l'esprit. Dans les moments d'oubli il se rappelle, grâce à eux, la survenance du danger.

35. — En y prêtant attention, tu repousseras les actions

mauvaises ; mais toi, tu escomptes la paix (47) et tu dis de moins en moins : « Sois en paix ! »

36. — Le boa dangereux a la puissance traîtresse des ogres ; fais-leur du bien, tranquillise-les; ils répondent par de la haine.

37. — Ta générosité s'est fourvoyée, n'écoute pas les on-dit. L'envieux trouble tout par le mensonge.

38. — Il essuie la saleté de ses dents sur le revers du pan de ton manteau, il le remplit de mensonges. Mais tes mains, il ne les a pas remplies !

39. — Quant aux bons procédés que tu apporterais à notre égard, ils sont licites. Les dettes de ce monde sont rendues dans l'autre. Donne-moi ton opinion.

40. — Accepte cet avis et fais, en toi-même, un jugement équitable, accepte l'excuse de celui qui a fait une faute, s'il vient à toi.

41. — Pour ton influence integrale, embellis ton honneur à toute occasion. Dédaigner celui qui vient t'intercéder serait, pour toi, une ignominie.

42. — Je te le jure ! Celui qui t'a placé à la tête des hommes pour les commander accepte bien le repentir de son serviteur, Lui, l'Indulgence même, le Pardon !

43. — Tu as associé à l'erreur de ce bas monde son âpreté et l'égarement. Les beautés de la terre s'effondrent dès que tes regards les atteignent !

44. — Tu as fait apparaître des ruines amoncelées ! Le maçon les a réparées, mais la forteresse, par suite de l'infortune, a été détruite et reste sans valeur (48).

45. — Protège-nous et sauve-nous, ô Dieu mon créateur, mon protecteur ! Et répands sur moi ce qui me donnera satisfaction, ô Redresseur des torts !

46. — Je te le demande par les mérites du meilleur de tes serviteurs ! Rends-moi ma famille et ma raison ! Je te le demande par celui qui nous a rendu ta loi évidente, le Prophète élu !

47. — Il ne reste plus, dans ce bas monde, pour les

(malheureux) étranglés (de douleur), de gens capables de les séparer (de ceux qui les étranglent) !

48. — Après (l'action d'éclat) des cavaliers intrépides et terribles, les héros qui brisent l'ennemi, retiens tes plaintes, tais-toi ! Oublie l'événement et l'événement te fuira (49).

49. — Quand viendra donc le temps de l'accomplissement de l'espoir des Prophètes et des envoyés de Dieu ? O toi qui es venu à la fin du siècle, ne ruine pas (ce qui est) devant toi !

50. — Où sont Abou Bekr, Omar ; où est 'Allal ? Où est 'Othman (50), le martyr devant qui les anges rougissent ? (50 *bis*).

51. — Où est Talha ? Où est Zobeïr, l'ennemi des idolâtres ? Où est Sâad ? Où est Saïd ? Regarde derrière toi (51).

52. — Qu'a fait 'Abd (52) dans les villes conquises sur les infidèles ? Où est 'Aouf, l'adversaire de la religion des Polythéistes ?

53. — Où sont Sâad et 'Oqba, qui ont été victorieux avec leurs armées ? Où sont leurs troupes qu'ils entraînèrent en expédition dans le Gharb ? (53).

54. — La guerre de l'impudence a fait souffrir les femmes, les gens du peuple, alors que les Roums vous ont abattu ! Leur atteinte s'est renouvelée ! (54).

55. — Où sont Haroun, Yahia, qui prodiguèrent leurs biens, aux malheureux (55). La générosité et la bonté sont mortes. Des malheurs se sont rués sur nous.

56. — Où est l'empire d'Al Mamoun ? celui de Mâan ? et Hillal ? Où sont les Mérinides, les Beni- Ziyan, les Turcs ? (56).

57. — Qu'est devenue la puissance de Coré ? celle de 'Ad ? Où est Cheddad ? Où est Pharaon, l'homme aux pieux ? Où est Thamoud ? (57)

58. — Où sont les hauts faits de Tarrad ben El Asdad ? Et les malheurs qu'a supportés Anad ben Hazbaroud ? (58)

59. — Où est Adam, père des Héros, ancêtre des ancêtres ? Où sont les adorateurs nombreux que Dieu a créés avant la création d'Adam ? (59)

60. — Tous sont dans la tombe, où ils ne désirent plus que rester couchés. (Parmi eux) à quiconque a été tyran des infortunes amères sont promises.

61. — Dieu existe seul ! Il est l'Unique par excellence, l'éternel ! Il n'a point été créé et rien dans les attributs du Dieu généreux n'a été enfanté ! (59*bis*)

62. — O créateur des sept plaines sous les montagnes, créateur des sept murailles et des sept mers aux eaux épaisses ! (60)

63. — Ne nous confie pas à celui dont le cœur est révolté. Accorde-nous l'affection de celui qui aime la paix, (61) qui est libéral et généreux.

64. — O homme intelligent, ne vis pas dans la joie, comme tu le prétends ! Qu'est-ce qui te réjouit ?

65. — La destinée changeante, si elle te sourit aujourd'hui, reviendra demain avec son cortège de maux. De même que tu t'es emparé de ce pays pour le gouverner, cet autre (le Français) s'emparera de toi !

66. — Les cœurs des hommes sont des balances qui pèsent les paroles ; les bases de l'intelligence sont les maximes (citées en proverbes) ; et maintenant le guerrier poète patiente, retenant sa langue derrière toi.

67. — Comme toujours dans le passé et dans l'avenir, le temps s'écoule ; entre deux berges les affaires coulent (comme un oued), ô toi qui sais déchiffrer les énigmes !

68. — Cette poésie a été composée par Qaddour, en chawâl, an 52. Il l'a improvisée, — que cela te suffise, —

69. — Au treizième siècle, après le Prophète venu à l'époque fixée par Dieu. Le poète visitait, à ce moment, la tribu des Bordjia, détruite par punition. (62)

70. — Le poème, dur et sévère, de Ben M'hamed, te demande (pour son auteur) la lance de l'amitié, tandis que tu es pour lui plein de blâme.

71. — Mais le plaignant et l'oppresseur iront tous deux vers Celui qui se suffit à Lui-même, l'Eternel qui n'a

jamais cessé et ne cessera jamais d'exister, le Souverain unique ! Qu'il nous donne (dans son paradis) la place la plus éminente !

⁂

Tel est le poème de Qaddour Ould M'hamed, poème fort admiré encore de nos jours par les indigènes de l'Oranie. Ceux-ci citent volontiers ces vers aux expressions fortes et violentes et qu'une traduction ne peut pas toujours reproduire dans toute leur saveur. Beaucoup de ces vers sont devenus des sentences ou des maximes populaires. (63) « Chien de chasse, chasse de race », dit le vulgaire français ; كل نسل يشوف لباباه ع لاصال (vers 21) réplique le poète oranais dans le même sens. « Tiens ton cheval en rênes (vers 31) et songe au jour où ta fortune sera abaissée », ajoute-t-il pour l'imprudent ambitieux. Nous pourions multiplier les citations.

Ces vers s'étaient répandus très rapidement. Qaddour ne tarda pas à être obligé de fuir pour échapper à la vengeance de l'Emir. Fatigué et vieilli, il mourut quelque temps après sans avoir fait, disent certains, sa soumission à son adversaire. (64)

Une tradition indigène rapporte qu'Abdelqader, marchant un jour contre les Français, caussait, en route, avec ses compagnons. Il leur demanda si quelqu'un, parmi eux, savait la présente poésie, dont il avait entendu parler. Un d'eux lui dit : « Moi, je la sais », — et il la récita. Il arriva au vers 65 : « La destinée changeante, si elle te sourit aujourd'hui, reviendra demain avec son cortège de maux. De même que tu t'es emparé de ce pays pour le gouverner, cet autre s'emparera de toi ! » L'Emir vit dans ce vers un mauvais présage, et dit à celui qui récitait le poème : « Assez ! Assez ! Ould Mahmed était un *ouali* ; et je ne connaissais pas sa puissance. » (64 bis)

Que cette tradition soit apocryphe ou non, elle marque

l'importance de l'empreinte faite par notre poète dans les esprits de son temps et postérieurement. L'exemple de Qaddour pouvait être imité. La poésie avec quelques hommes comme lui, même très peu nombreux, pouvait jouer au milieu des groupes indigènes, par les *gawwal*, les *maddâh*, diseurs ou chanteurs populaires, le rôle du journal ou d'une tribune permanente au milieu de nos groupes européens. Or, tout pouvoir politique soucieux de durer doit se préoccuper de l'opinion publique. Ici, le pouvoir de l'Emir avait à tenir compte des coutumes et des habitudes des tribus qui l'avaient élevé au faîte, coutumes souvent gênantes pour ses relations avec ses adversaires chrétiens.

Ne pouvant supprimer les poètes, 'Abdelqader voulut du moins les faire servir à sa politque. En agissant ainsi, il rentrait dans les traditions arabes, telles que l'histoire musulmane les donne pour les premières dynasties d'Orient ou d'Espagne. Il rêvait précisément le retour, quoique sous des formes modernisées par nécessité, à ces traditions comme les éléments lettrés, parmi ses partisans, en avaient reçu et conservé le souvenir. Le Prophète lui-même n'avait-il pas eu entre autres les poètes Hassân ben Thâbit et Abdallah ben Rawâha pour répondre aux satires de ses ennemis ?

Plusieurs poètes vinrent donc, appelés auprès d''Abdelqader. Mais ce fut surtout Si Tahar ben Haoua qui fut son poète attitré. Contre les adversaires de l'Emir qui propageaient des vers où l'on mettait en opposition le nom des grands souverains d'autrefois avec la personnalité de celui-ci, où l'on rappelait, sous forme sybilline, les vicissitudes de la destinée élevant et renversant successivement les trônes, il fallait affirmer l'éclat, la légitimité, la force du règne du nouveau souverain. La poésie suivante de Si Tahar (65) va nous montrer comment le poète officiel d''Abdelqader s'en acquitta.

⁂

كلام سي الطاهر بن حواء رحمه الله

1 يا من درى شي من يوم سلطاني مبارك
ممزوج بالمسرّات والرضا مبـــــــروك

2 بلّي نحبّ واللّي تريد يجمع شملـــك
ويدير ليك (66) مولاك في المصيف سلـــوك

3 تنال كلّة الضايعة يفوى نصـــرك
تقبض مفاتح الخير والفيل مبكـــــوك

4 تبلغ منازل تريدها يعظّم ملكـــك
بالعزّ والظفر لا نجا لمن عـــــــدوك

5 ويعم الارض قبلة جوب وابل فضلـــك
بالبحر بالهنا والثنا لمن نصـــــروك

6 وحيّيت سنة الدين في الزمان الهالـــك
نفمة لمن طغى يا عذاب من بغصـــــوك

7 اجبار سابقة ازمانها نبات (67) بخبارك
تواريخ العرّابيين والعجم ذكـــــــروك

8 عبد العزيز عبد القادر عبد المالـــــك
سادات بالبصيرة رَوَوا وما جهلـــــوك

9 والناس كلها بجميعها عبيد المالـــك
من خشية الحسد والمنابس بهمـــــوك

10 محبوط ما ترى باس من يريد الشـــرك
معصوم من الاذاية اهل الصبا ضمنـــــوك

11 بالوقف جمّع الجمع في رحيم مقامـك
الغوث والقطب للمزادمة دبعـــــــوك

12 عمّرت دار الاشراف والعرب بانصالـك
عمريت صولا زدمة على العدو دُكـــــدُوك

13 البرّ والبحر كل حفّدت لعبـــارك
عيات ما تنافر وحارت الملـــــــوك

14 بوف الجنود وعلى البنود بتّد بُنـــدك
بالبحر والبها راعد السما مـــــــوك

15 عزّ الوطا وعزّ الجبال صايت رُعْـــدك
الارض راجّة والحصون ما رصـــــــدوك

16 زلزل اشجار واحجار ضخم عاصف ريحك
للصد ريح ورياح على الصديف مـــــوك

17 واسمى على اشراف الملوك سامي فـــدرك
رجال الارض وملايك السما عـــــــزّوك

18 وورثت كل موروث مجد سابف فبلـــك
اسلافك الكريمة بنورهم نحظـــــوك

19 زال الزفى وزال النفار صدّه من عهدك
فقّا معك مذكور وين ما ذكـــــــروك

20 رجال واعيين العهود صدفوا ظنّـــك
ما خالفوك ما جارفوك ما فلّـــــوك

21 هانوا عمارهم في رضى النبي ورضاتـــك
الله حبّهم والرسول كي (68) حبّـــــوك

22 غنموا كثير لاجور في سعى رفقتـــك
ويوافوك في ساعة الفضا يحمـــــوك

23 ذا العام دِرْت معلم خلصت فيه اديانـــك
سربلت كي صاري غنمت من خدعـــــوك

24 السهل والوعر صاف من كتايب جيشـــك
كلّت السيوف في حصى عدّة المشكـــوك (69)

25 نفرت بحور مياه فويـة في بَحْـــرك
غرفت سفون في لجّ صطوتك عروســـوك

26 الشوف هاج والوحش للفلوب درّك
أراه وفت مبروك بالنظر نفبـــــوك

27 يشاهدوك لاعيان فيه نعمهم فضلـــك
ارضا وعبو للخلف عمّهم سمحـــــوك

28 يا غاية الكرام النساب يا من نسبـــك
من بضعة النبي في نسابها نسبـــــوك

29 ربّي يباركنا يزيد لك في عمـــرك
واعْمارنا من الموت بالبدا يبعـــــدوك

TRADUCTION

Paroles de Si Tâhar ben Haoud, — que Dieu lui fasse miséricorde !

1. — Qui saura jamais combien la journée du sultan est bénie, mêlée de contentement et de satisfaction, fortunée !

2. — .....

3. — Tu viens à bout de toute difficulté, ta victoire s'affermit ; tu tiens les clefs de la paix dont la serrure est ouverte.

4. — Tu atteins l'état que tu désires. Ton royaume s'étend avec la puissance et la victoire ; point de salut pour celui qui est ton ennemi !

5. — Ta générosité, comme une pluie abondante, (70) au Sud, au Nord, se répand sur toute la terre ; en même temps, la gloire, les félicitations, les louanges vont à ceux qui t'ont aidé.

6. — Tu as fait revivre la tradition religieuse dans une époque de péril. Tu es la vengeance contre l'impie, ô toi qui châtie ceux qui te détestent ! (71)

7. — Des prédictions antiques, des prophéties ont annoncé tes exploits. Les annales des Arabes et des non Arabes t'ont mentionné. (72)

8. — 'Abdelaziz, 'Abdelqader, 'Abdelmalik, maîtres (dans la divination) par leur clairvoyance (73), ont connu les traditions (te concernant) ; ils ne t'ont point ignoré.

9. — Et les hommes, tous sans exception, serviteurs du Tout-Puissant, par crainte de la jalousie et des divisions intestines, t'ont compris.

10. — Protégé de Dieu, tu ne vois pas de mal en celui qui recherche les relations avec le chrétien (74) ; garanti contre les dommages (du péché), les gens de la pureté (les saints) sont ta caution

11. — Au moment favorable, réunis tes troupes, sous ta haute direction ; le *Ghoûts*, le *Pôle*, (75) à la défense des assaillis, te poussent.

12. — Tu as rempli de tes armes (de tes exploits) le pays des Chorfa et des Arabes ! Conduis avec fureur, ô génie, le choc contre l'ennemi, coq orgueilleux. (76)

13. — La terre et les mers ensemble ont réuni leurs efforts pour te renverser ; elles se sont fatiguées de la lutte ; les rois en sont devenus inquiets.

14. — Sur les troupes, au-dessus des autres bannières, fais flotter (au vent) ta bannière, avec la gloire et la beauté; la promesse du ciel est insigne !

15. — Le bruit de ton tonnerre a ébranlé la plaine et les montagnes ; la terre a frémi ; les forteresses ne t'ont pas repoussé !

16. — Les arbres ont tremblé, les rochers très gros aussi, de la violence du vent de ta puissance ; contre l'ennemi, c'est un vent violent, ce vent qui est un zéphir bienfaisant lorsqu'il a passé sur toi pour aller vers l'ami. (77)

17. — La sublimité de ton rang a été élevée au-dessus (de celle) des plus nobles des rois. Les hommes, sur la terre, et les anges, au ciel, t'ont rendu puissant !

18. — Tu as hérité de tout l'héritage glorieux qui a précédé ta venue ! Tes généreux ancêtres ont projeté sur toi, en te regardant, les rayons de leur gloire.

19. — Les criailleries (de l'opposition) ont cessé ; la brouille ne s'oppose plus à l'obéissance à ton pacte. Le mot *renommé* rime avec ton nom partout où ton nom est célébré ? (77 *bis*)

20. — Les hommes fidèles à leur serment ont eu confiance en ton avis. Ils ne t'ont point fait d'opposition ; ils ne se sont point séparés de toi ; ils ne t'ont point trouvé sans importance.

21. — Pour la satisfaction du Prophète et la tienne, ils

ont dédaigné leur vie. Dieu et son Envoyé les ont aimés comme ces hommes t'ont aimé !

22. — Ils ont cueilli de nombreuses récompenses dans le butin de ton amitié ; ils te seront favorables à l'heure de la décision suprême, ils te protègeront.

23. — Cette année tu es passé maître (en tes affaires) ; tu as fait payer tes débiteurs. Tu marches fièrement, comme un lion (78) qui mord. Tu t'es emparé de ceux qui t'ont trahi.

24. — Plaines faciles, terrains escarpés ont été trop étroits pour les escadrons de ton armée. Les sabres (ennemis) s'y sont émoussés sur (des soldats durs comme) des cailloux au nombre incommensurable.

25. — (Des armées, telles) des mers ont vu bouillonner leurs vagues puissantes dans ta mer. Tu as englouti les navires dans les abîmes de ton choc impétueux. (Tes ennemis) t'ont connu !

26. — Le désir ardent (de te voir) gonfle les cœurs ; la mélancolie (loin de toi) les remplit. N'est-il pas une heure bénie où nous pourrons assouvir par ta vue, nos yeux ?

27. — Les regards te témoigneront à cet instant leur bonheur de ton élévation. Agrée le désir du peuple entier, fais grâce ! tous te sollicitent.

28. — O le plus grand des hommes généreux par l'origine ! O toi qui descend de la chair du Prophète et qui fais partie de sa généalogie !

29. — Que Dieu répande sur nous ses bénédictions en prolongeant ta vie ! Que nos vies soient vis-à-vis de la mort la rançon de ta vie !

***

Nous venons de voir Qaddour ould M'hamed insister, dans ses vers, sur la dureté de caractère de l'émir. Pour ce poète, 'Abdel ader est un irrésolu, un fourbe, un cruel, soumis comme t is les puissants du jour à l'incertitude de la destinée, a.c ret urs contradictoires des coups du

sort. L'émir, malgré sa force actuelle, peut être abattu par les vicissitudes des temps comme l'ont été avant lui de bien puissants gouvernements.

Tahar ben Haouâ, au contraire, exalte, dans son poème, le pouvoir de droit en quelque sorte divin pour la lignée de Qoréïch, pouvoir représenté par l'émir et affirmé par ses victoires. Le poète officiel célèbre la générosité d'"Abdelqader, qualité essentielle du souverain dans la légende arabe ; il chante la restauration de la foi musulmane, le consentement unanime des populations groupées autour du nouvau sultan : tous faits correspondant aux traditions islamiques sur les pouvoirs du chef de l'Etat politique musulman,

Les poésies que nous avons citées sont donc des témoins de l'état d'esprit et des préoccupations de ceux qui, dans le milieu où vécut 'Abdelqader, avaient la prétention d'inspirer ou d'influencer la conduite politique des populations. Elles donnent une valeur concrète à l'ambiance morale de cette époque, ambiance qui devient ainsi un fait sur lequel peut s'appuyer l'historien.

Elles montrent également tout l'intérêt qu'il y a à recueillir, en Algérie, les cycles de chants populaires des différentes époques, chants si utiles pour la connaissance de l'état des idées des indigènes. On peut être sûr d'avance que dans la poétique populaire n'ont survécu que les œuvres exprimant fortement les idées ou les émotions qui ont frappé l'esprit public.

A. COUR.

NOTES

(1) Cf. DESPARMET, *La poésie arabe actuelle à Blida et sa métrique*, dans les Actes du XIV[e] Congrès internat. des Orientalistes, 3[e] partie, t. I, p. 439.

(2) Cf. W. MARÇAIS, *Le dialecte arabe parlé à Tlemcen*, p. 210.

(3) Il faut cependant faire exception pour quelques ouvrages, notamment : *Les Dictons de Sidi Ahmed ben Youssef*, par M. René Basset ; *La littérature populaire berbère et arabe*, dans *Mélanges Africains et Orientaux* (Chap. II), par René Basset ; *Les Gnomes de Sidi Abderrahman el Medjdoub*, par M. de Castries ; *La Turcophilie en Algérie*, par M. Desparmet.

(4) H. LAMMENS : *Le Berceau de l'Islam*, t. I, p. 229.

(5) H. LAMMENS : *Etudes sur le règne du calife Omëiade Moawia I[er]*, p. 262 et références citées.

(6) انا الضَامِنُ الراعي عليهم وإنَّما يُدَافِعُ عَنْ احْسابِهم أنا او مِثْلِي

Cf. Naqâïdh Djarir, p. 128, v. 8.

(7) H. LAMMENS, *Etudes sur le règne de Moawia I[er]*, p. 262 et *passim*.

(8) (Cf. Naqâïdh Djarir, p. 62, v. 8 :

وَإِنِّي لَغَوَّال لكُلِّ غريبة وَرْدٍ إذَا السّاري بلَيْلٍ تَرَنَّمَا

Voir aussi H. LAMMENS : *Etudes*, etc., p. 254 et références citées ; *Le Berceau de l'Islam*, t. I, p. 233.

(9) Cf. AHLWARDT, *The Diwans of the six anciens arabic poets*, p. 84, l. 3 :

بانَ الشعر ليس له مَرَّة إذَا ورد المياه به التُّجَّارُ

10) *Mille et une Nuits*, éd. de Beyrouth, t. I, p. 65 au bas ; éd. du Caire, revue et corrigée sur le texte de Boulaq, de 1279 de l'hég., t. I, p. 43, au bas.

(11) Surtout DOZY, dans son *Essai sur l'Hist. des Musulmans d'Espagne*, etc. ; le P. LAMMENS, dans le *Berceau de l'Islam*, *Moawia I[er]*, *Un poète royal*, etc.; HUART, *Littérature arabe*, etc., etc.

(12) Cf. G. YVER, Correspondance du capitaine Daumas, p. XXI de l'Introduction, au bas.

(13) Cf. G. YVER, *Id.* pp. 156, 308 et *passim*.

(14) Voici le vers tel qu'il nous a été cité :

ما شبْنا سلطان خرج من زاويا ما شبْنا حضري تغيّد
عيد يا خوان عيد

(Communication de Si Mohammed Settouti, gardien de l'hospice des vieillards, à Tlemcen). حضري, *hadhri*, sédantaire des villes, maure citadin.

(14 *bis*) Ces renseignements nous ont été fournis par diverses personnalités indigènes, notamment par Si Mohammed Settouti, déjà mentionné ci-dessus.

Sur El Habib Bou Alem, cf. G. YVER, *loc. cit.*, pp. 595 et 608.

(14 *ter*) Repas d'hospitalité à l'occasion d'une fête privée ou publique.

(15) Bessouiket — (بالسويكت diminutif de ساكت) — poète de la tribu des Mahall. Cette grande tribu arabe, qui occupe la vallée du Chélif (depuis Duperré) jusqu'à son embouchure, est célèbre par sa résistance acharnée à la conquête turque. Le poète Bessouiket fut l'âme de cette résistance ; il accompagnait ses contribules dans tous les combats, les encourageait, les guidait, présidait au conseil des notables. Il chante tour à tour les personnages ou les fractions, surtout les *Souid*, qui résistèrent le plus vaillamment. Les légendes sur Bessouiket abondent ; ses poésies sont encore connues et chantées de nos jours par les gens de la vallée du Chélif. Les poèmes de Bessouiket mériteraient, comme ceux de notre poète Qaddour ould M'hamed, d'être recueillis, ne fût-ce qu'à titre documentaire.

(16) Renseignements fournis par Si Mohammed Kadi, secrétaire au bureau arabe d'Oudjda, et par Si Baha el Hadj Dahou, des Medjadja, près Orléansville.

(17) C'est la reproduction du vers cité ci-dessus mais ainsi modifié :

بشبْنا سلطان خرج من زاويا بشبْنا حضري تغيّد
عمرة كلبك ما يعيد

Abdelqader aurait dit alors à ses gens :

اطلقوا الكلب يذهب الى سبيله

(Communiqué par Si Mohammed Settouti.)

(18) Cette poésie dont nous donnons le texte intégral nous a été communiquée en 1912 par plusieurs de nos anciens élèves de la Medersa de Tlemcen.

Déjà, antérieurement, M. ABDERRAHMAN, professeur au lycée d'Oran, en avait publié environ la moitié dans ses *Lectures choisies pour l'enseignement de l'arabe parlé* (3e *période*), p. 42. Ce dernier ouvrage a paru chez Jourdan en 1906. Nous indiquerons chacun des vers cités dans cet ouvrage.

(19) « Le poète débute par un couplet هدّة *heudda*, expression qui signifie « marche en avant ». Suit le فراش *ferâche* qui développe à nouveau les mêmes idées. Une *heudda* lui succède, et ainsi de suite. On change la lettre de la rime à chaque *ferâche*. On conserve la même assonance dans toutes les *heudda*, assonance médiale et terminale. » DELPHIN, *textes pour l'étude de l'arabe parlé*, p. 242. L'hémistiche intercalé après le 1er vers d'une qaçida vulgaire se nomme تريّاش *teryâche*. Il revient en tête de chaque *heudda* pour en rappeler l'assonance finale.

(2) Ce vers et les neuf vers suivants sont donnés dans ABDERRAHMAN, *Lectures choisies*, p. 42 et suiv.

(21) ABDERRAHMAN, loc. cit., donne, pour le 2e hémistiche

لا يحصّل منه لي حُبّ مي بلاك

(22) ABDERRAHMAN, *loc. cit.*, donne pour ce vers :

برفة اهلي واولادي همّها اطوال ولا جبرت من يدّك لهواهم السلاك

(23) ABDERRAHMAN, *loc. cit.*, donne انظر الى من وزّى
Ce vers fait allusion au verset 38 de la sourate XLII du Coran.

(23 *bis*) Sur le mot شوار cf. BEL, *Djazya*, p. 77.

(24) 'ABDERRAHMAN, *ibid*, donne pour le 1er hémistiche de ce vers :

راه مَنْ يتعلّى شي لِلسّما يطير

Les vers 12 et 13 sont aussi donnés par cet auteur.

(25) ABDERRAHMAN, *loc. cit.*, donne également les vers 17 à 88 (y compris).

(26) مالقدام contraction dialectale pour من القدام

(27) مالسّما contract. dialectale pour من السّماء

(28) Exemple de survivance de forme passive dans le dialecte vulgaire. Cf. à ce sujet W. MARÇAIS, *Le dialecte arabe parlé à Tlemcen*, p. 89. — Voir aussi *Id. ibid.*, p. 68, sur l'allongement de la voyelle de l'impératif دِيْر

(29) Dans les dialectes vulgaires de l'Algérie, la forme قَعّال sert non seulement pour les noms de métiers, mais aussi pour les noms indiquant l'intensité ou la fréquence d'une action. Ex. : نهّاي (au vers ci-dessus) qui a l'habitude d'interdire quelque chose ; غوّاي qui a l'habitude d'égarer les gens. On trouve dans le Coran (sour. VII, vers. 15) اغويتني employé avec le sens *d'égarer*.

(30) Ce vers, ainsi que les vers 65, 68 et 69 ci-dessous, est donné par ABDERRAHMAN, *Lectures choisies*, p. 47.

(31) Le mot كلّام est, dans l'Ouest algérien, synonyme du mot قصيدة poème.

(32) Allusion à Habib bou 'Alam, ami et caïd d'Abdelqader, et ennemi personnel du poète. Sur ce personnage, cf. YVER, *corresp. du capitaine Daumas*, p. 648 et *passim*.

(33) اسطا Un maître en ruses.... allusion au jeu de la *Rahba*, où les lutteurs cherchent à se porter des coups imprévus. — ضاري chien ou lion qui mord. Pour le poète, Abdelqadar est, à la fois, rusé, méchant et ombrageux comme le mulet. DELPHIN, *Textes*, p. 107, a donné au mot ضاري le sens de *slougui*.

(34) COR. Sourate XLII, verset 38. L'expression *double récompense* a été ajoutée ici par le poète.

(35) *Ghedir*, mare, flaque d'eau, laissée par la pluie sur un terrain sans écoulement.

(35 *bis*) Allusion au proverbe populaire مَنْ طار ينزل — Cf. *Moh. ben Cheneb, Proverbes arabes*, tome II, n° 1821 et les sources citées.

(36) Pour la traduction دار الخير *faire la paix*, cf. MERCIER, *L'arabe usuel dans le Sud oranais*, p. 343, au bas, dans les *Actes du XIVe Congrès des Orientalistes*, 3e partie.

(37) C'est-à-dire Abdelqader et les tribus de sa suite, d'un côté ; les Français, de l'autre.

(38) Allusion au CORAN, Sourate VII, versets 15 et 16.

(39) Pour la traduct. du mot وكواى — raç: وكْوى cf. MERCIER, *loc. cit.*, page 385.

(40) Habib Bou 'Alam (cf. YVER, *loc. cit.*, et ABDERRAHMAN, *loc. cit.*, p. 45.

(41) Allusion à l'usage adopté par les personnages religieux qui font brûler du bois d'Arek ou d'aloès, en guise d'encens, pour purifier l'air qu'ils respirent.

(42) Sur le بال ou bon augure apporté par la présence de tel ou tel personnage, cf. BEL, *Djazia*, p. 179, et DELPHIN, *Textes pour l'étude de l'arabe parlé*, pp. 145-146.

(43) طاب être cuit ; ou fig. être ennuyé, obsédé, n'en pouvoir mais.

(44) Des égarés (dans leur religion) ; il s'agit ici des Français. Dans la croyance populaire indigène un corbeau apparaît souvent à celui dont un parent va mourir. D'où l'expression غاب للغرّاب corbeaux pour les proches ou les contribules (de l'Emir).

(45) Prov. popul. pour dire : « Prends garde à toi ! »

(46) Petite pièce de monnaie d'argent valant environ 0 fr. 60.

(47) Sur la trad. du mot خير par *paix*, voir ci-dessus, vers 16.

(48) Allusion à El Bordj, ville natale du poète.

(49) Le poète, ici, se parle à lui-même.

(50) Abou Bekr, Omar et Othman, sont les trois premiers califes. Allal est le nom populaire de Ali, gendre du Prophète.

(50 *bis*) Allusion à un *hadith*, cité par *Moslim*, Sahih (Caire, 1327, t. II, p. 321). Le Prophète a dit, en parlant d'Othman : ألا أستحي من رجل تستحي الملائكة منه (Communiqué par M. Mohammed ben Cheneb.)

(51) Dans les vers 50, 51 et 52, le poète cite les dix personnages à qui le Prophète a promis le paradis : les quatre premiers khalifes, puis Talha b. Obeïd Allah, Az-Zobaïr, Sâad b. Mâlik, Said b. Zaïd, abou Obeïdah b. Al Djarrâh et Abderrahman b. Aouf. Ils sont surnommés العشرة الرجال ; leurs mérites sont supérieurs à ceux des autres musulmans. Cf. notamment l'ouvrage intitulé *Ar-Riyâdh an-Nadhira fi manâqib al Achara*, Caire, 1327, p.

(52) Abd, désigne Abou Obeïdah b. Al Djarrâh.

(53) Okba ben Nafé, nommé gouverneur de l'Ifriqiya par le khalife Moawia, poussa ses armées jusqu'à l'océan Atlantique. Ibn Sa'ad (Abdallah b. Sâad b. Ali Sarh Al'Amiri) fut le conquérant de l'Ifriqiya. Cf. IBN, ADHARI, trad. Fagnan, tome I, pp. 3 et suiv. *passim*.

(54) Ce vers met en opposition les grands chefs que le poète

vient de citer, les grands événements que leurs noms rappellent avec l'époque d'Abdelqader. Dans ce vers, je lis صعيد au lieu de سعيد

(55) Haroun ar-Rachid, son ministre Yahia le Barmécide, dont les fastueuses libéralités sont légendaires.

(56) Al Mamoun, le calife Abbasside célèbre par sa sagesse. — Maân ben Zaïdâ, que les Arabes considèrent comme un roi, dans leurs légendes, fut, en réalité, un gouverneur de l'Irak et du Khorassan, sous les derniers Oméiades et les Abbassides. Célèbre par sa sagesse et sa générosité, il fut chanté par le poète Merwan ben Abi Hafsa. — Hilal est ici cité pour rappeler la célèbre tribu de ce nom qui conquit l'Afrique du Nord, lors de la deuxième invasion arabe. — La tribu des Mérinides fournit la dernière dynastie berbère au Maroc. — Les Beni-Ziyan fournirent la dernière dynastie à Tlemcen.

(57) Coré (Karoun), dont la richesse est passée en proverbe, s'était construit un palais tout couvert d'or, aux portes d'or massif. Il affectait un grand luxe, montait une mule blanche couverte d'une housse d'or. Il était lui-même vêtu de pourpre et accompagné de quatre mille hommes, tous montés et richement habillés. Enflé par l'orgueil, il insulta Moïse ; Dieu le punit en l'engloutissant dans la terre. Cf. Coran, *Sourate* xxviii, verset 76 ; — xxix, verset 38 ; — xl, verset 25 ; voir aussi les commentaires du Coran Ad, ou peuple des Adites très puissant, dont le Coran parle fréquemment. C'étaient des géants qui refusèrent de se convertir à la voix du prophète Houd. Dieu les extermina.

Thamoud, peuple de l'antiquité pré-islamique, également très puissant. Dieu lui envoya, pour le convertir, le prophète Saleh cf. Coran, *Sourate* vii, verset 71 et suiv.) Mais les Thamouddites tournèrent Saleh en dérision et furent détruits par Dieu.

Cheddad, roi des anciens arabes, dont le règne dura 900 ans. Il bâtit la légendaire ville appelée Iram aux colonnes. (Cf. Maçoudi, *Prairies d'Or* (éd. Barbier de Maynard), t. ii, p. 415 et iii, p. 81).

Pharaon, si souvent cité dans le Coran, est appelé l'homme aux pieux, à cause des châtiments qu'il infligeait aux coupables et qui consistaient à les faire attacher à quatre pieux et à leur faire subir divers tourments. (Cf. Coran, *Sour.* lxxxix, verset 9).

(58) Tarrâd ben Saddâd et Anad ben Hazbaroud sont les héros de deux contes populaires arabes.

(59) D'après le Coran et ses commentaires, Dieu avait créé avant Adam les anges et les génies (cf. Sourate xviii, verset 48 et *passim*).

(59 *bis*) Ce vers fait allusion à la Sourate c xii du Coran. صعداد est mis ici pour la mesure du vers au lieu de صعيد

(60) D'après la Cosmogonie arabe, Dieu a créé sept terres, sept cieux, sept mers, etc. Ce nombre *sept*, fatidique et porte-bonheur pour les musulmans, est employé par une préférence superstitieuse. (Cf., au sujet de ce nombre. A. Bel, *La Djâzya*, p. 141). Les sept murailles, dont il est ici question, sont probablement les sept cieux qui entourent les sept terres. Peut-être encore le poète fait-il allusion aux murailles qui séparent du pays des géants Gog et Magog, le pays des hommes. A la fin du monde, Gog et Magog réussiront à détruire ces murailles et à venir dévaster la région des humains. (Cf. Coran, sour. xviii, v. 93 ; — xxi, v. 96 ; — lv, vers. 14, etc.). Cf. en outre, Mohammed ben Abderrahman el Hamadâni, *Kit. as Saba'iyat fi mawd'idh al bariyât*, Fâs 1295.

(61) Au sujet de la traduct. du mot خير par *paix*, voir ci-dessus vers 16. — مراد désigne l'un des attributs de Satan.

(62) Sur la tribu des Bordjia et son rôle, cf. G. Yver, *Corresp. du capitaine Daumas*, passim. — Sur la destruction de la petite forteresse d'El-Bordj, cf. Id. *Ibid*, p. 156 et note. — Voir aussi Bellemare, *Hist. d'Abdelqader*, pp. 47 et 282 ; — *Revue Africaine*, t. xx (année 1876), p. 425.

(63) Cf. Abderrahman, *loc. cit.*, p. 48 : كل بيت من كلامه رجعت مثل

(64) La vie de Qaddour, durant ses dernières années, est très obscure. Il nous a été impossible d'en connaître les détails. Abderrahman, *loc. cit.*, p. 48, donne une courte biographie de ce poète.

(64 *bis*) Cf. Abderrahman, *loc. cit.*, p. 47. — Un *oualt* est un *saint* capable de prédire l'avenir.

(65) Nous n'avons pu nous procurer de renseignements suffisamment précis sur la biographie de ce personnage. Cependant, cette famille de l'entourage d'Abelqader est fréquemment citée dans la *Correspondance du capitaine Daumas*.

(66) Sur l'allongement de ل en لي cf Bel, *Djazya*, p. 74, note 3, et W. Marçais, *loc. cit.*, p. 167.
Sur le mot مولى, ses divers sens et son orthographe cf. Bel, *Djazya*, p. 101.

(67) نَبَاتْ pour نَبَاتْ. — Sur la conservation de la voyelle longue du verbe défectueux à la 3e pers. fém. sing. cf. Doutté, *Un texte arabe en dialecte oranais*, p. 23, note 51 et références citées.

(68) L'allongement de كي en كي (cf W. Marçais, *loc. cit.*, pp. 166 et 172) n'a lieu que devant les noms déterminés. Mais ici كي est mis pour كيف avec le sens de *comme*.

(70) C'est une coutume arabe, remontant aux temps les plus antiques, de comparer la générosité à la pluie bienfaisante.

(71) Allusion à la lutte contre les Bordjia, les Angad, les O.-Sidi-Ghanem, les Medjahers, etc., tribus arabes hostiles à l'émir. Voir à ce sujet G. Yver, *Corresp. de Daumas*, p. 321 et *passim*.

(72) Au sujet de ces prédictions que les partisans d'Abdelqader répandaient parmi les tribus, voir *Revue Africaine*, t. xx, année 1876, pages 420 et suiv.

(73) Ces trois personnages sont trois saints ensevelis en Mésopotamie. Certains indigènes prétendent que les mots du texte بالبصيرة désignent la ville de Bassora. Il faudrait donc traduire : « Abdelaziz... etc., personnages importants de Bassora, ont connu, etc., — Mais M. Mohammed ben Cheneb me communique la note suivante :
« Abdelaziz semble être Abdelaziz ad-Dabbagh, marabout marocain cf. sa biographie dans Ahmed b. Al Mobarak as-Sidjilmasi, *Al Ibriz*, Caire 1304) ; — 'Abelqâdir est 'Abdelqâdir al Djilâni, enterré à Baghdad (cf. *Encyclopédie de l'Islam*, 1, 42) ; — Abdalmalik est d'après la légende populaire, un roi des génies musulmans. — Pour le sens du mot البصيرة cf. Djordjani, *Ta'rifât*, s voc. »

(74) Le mot شرك qui s'applique originairement aux polythéistes désigne ici le Français (le chrétien).

(75) Le mot *ghoûts* dans la terminologie mystique s'applique au saint qui sert de principal intercesseur auprès de Dieu. Le mot *Pôle* s'applique au personnage qui sert d'intermédiaire entre Dieu et les oualis pour la direction des affaires du monde : Depont et Coppolani, *Confréries*, p. 81, au bas. Sur le sens précis de ces mots, voir Ibn Khaldoun, *Prolégomènes*, (trad. de Slane) t. iii, p. 104. — Djordjani, *Ta'rifât*, éd. du Caire, 1306 h., p. 76. — Ce vers fait allusion à Sidi Abdelqader al Djilâni, ancêtre de l'Emir et fondateur de la confrérie religieuse des Qâdria.

(76) Le mot دكدوكي signifie brave, fanfaron ; les Arabes du Sud l'emploient dans le sens de coq orgueilleux, coq en colère. Y aurait-il ici une allusion au *Coq gaulois* qui remplaça, après 1830, la *fleur de lys* sur la hampe des drapeaux français ? C'est possible. Le mot دكدوكي ne se trouve pas dans Beaussier.

(77) pour l'imprégner de tes bienfaits. Les Arabes comparent l'homme généreux aux vents chargés de pluie qui amènent la fertilité. Il y a ici allusion à un *hadith* au sujet duquel M. Mohammed ben Cheneb me communique la référence suivante (à propos des mots ريح et رياح) :

(ومنه الحديث) كان [النبي] يقول اذا هاجت الريح « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » العرب تقول لا تلقح السحاب الا من رياح مختلفة يريد اجعلها لقاحا للسحاب ولا تجعلها عذابًا
(Ibn Al Athir, Nihâya, s. voc.)

(77 *bis*) Le mot مذكور a, en effet, la même terminaison que قدور abrév. populaire du nom 'Abdelqader.

(78) Le mot ضاري signifie *chien de chasse* (cf. Delphin, *Textes*, p. 107, et 'Abderrahman, *loc. cit.*, p. 43, note 2). Mais cette épithète appliquée à 'Abdelqader, l'Emir, par un de ses amis, peut paraître étrange. D'autre part, le poète antéislamique Nâbigha Dhobyâni (Ahlwardt, *The Diwans*, p. 14, pièce xi, vers 2) applique cette épithète au lion. Il est à remarquer, en outre, que le mot سربال en dehors du sens de *se vêtir d'une cuirasse*, etc., signifie aussi *avoir une démarche majestueuse comme celle du lion*.

توديع شهر رمضان لـ: سعد الدّين بن شنب [1]

L'ADIEU AU MOIS DE RAMADĀN

ترجمة ودراسة: أ. تسعديت حواسين

عضو لجنة التّرجمة بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة

تمهيد:

يؤرّخ مقال سعد الدّين بن شنب[2] لطقوس وعادات سكّان مدينة الجزائر، خلال فترة الاحتلال الفرنسي، احتفاء بشهر رمضان العظيم وتحديدا توديعه بطقوس مميزة تؤكّد تمسكهم بمرجعيّتهم الدّينية واعتزازهم بشعائر الإسلام التي ظلّ وا يمارسونها رغم مضايقات العدوّ الذي فشل في مشروعه الاستيطاني بالجزائر.

وقد فصّل المؤلّف في الحديث عن تلك العادات والطّقوس التي تقام بخاصّة ليلتي الرّابع عشر والسّادس والعشرين من الشّهر الفضيل، بالتّركيز على تلاوة وختم القرآن وإلقاء القصائد الشعريّة ذات الصّلة. وقد لجأ النّص إلى مقارنات مع ممارسات شبيهة في دول أخرى كمصر، سوريا، والحجاز، حيث سجّل، بهذا الخصوص، وجود ردود أفعال متراوحة بين مشجع وبين متحفظ أو ممانع لهذه الطّقوس خشية تشكيل قناعة لدى بعض ممارسيها مع مرور الزّمن وبفعل التّكرار والاعتياد، بكونها جزءًا من الشّعائر والعبادات المفروضة.

وبحرص الباحث الأكاديمي، فإنّ المؤلّف دقّق في مصادر بعض النّصوص الشعريّة التي ساعدت على نقل تلك العلاقة الرّوحانية القويّة التي تربط ناظمها بالشّعب الجزائري، ومن خلالهم بشهر رمضان لاسيما على مشارف انقضاء أيّام صيامه وليالي قيامه.

1- نشر هذا المقال في المجلّة الأفريقيّة سنة 1932، المجلّد 73، ص104 -105.

2- سعد الدّين بن شنب (1907-1968): باحث وأكاديمي جزائري، وأحد أبرز روّاد الدّراسات الأدبية والمقارنة، وهو ابن العلامة والمؤرخ الجزائري البارز الدّكتور محمّد بن أبي شنب. أكمل مسيرة والده العلميّة ليصبح شخصيّة مهمّة في السّاحة الثّقافية والأكاديمية. شغل عدّة مناصب آخرها عميد كلّية الآداب بجامعة الجزائر خلال الفترة الممتدة بين عامي 1962 و1968، كما أسهم سعدالدّين، بالتّعاون مع جمال الدّين بن شيخ، في تأسيس كرسي للأدب المقارن بجامعة الجزائر عام 1962.

ولسعدالدّين إسهامات فكرية وأكاديمية كثيرة، حيث ترك مدونة بحثيّة غنية جمعت بين مقالات في الصّحافة الثّقافية وأبحاث في الأدب والمسرح والمجتمع، نشر بعضها في (المجلّة الأفريقيّة)، وهي دراسات تؤرخ في مجملها لمختلف جوانب حياة المجتمع الجزائري خلال الحقبة الاستعماريّة، بل وحتى قبلها بما يبرز عراقة وخصوصيّة الامّة الجزائريّة. ومن تلك الدّراسات: مقال بعنوان "أغاني ساخرة من مدينة الجزائر" المنشور سنة 1933 بالمجلّد 34، وآخر حول "المسرح العربي لمدينة الجزائر " نشر سنة 1935 بالمجلّد 77، وهو من أشمل الدّراسات حول تاريخ المسرح في الجزائر، إلى جانب مقال "دراسات الأدب العربي المعاصر" نشر سنة 1940 في المجلّد 84، وآخر في التّاريخ بعنوان "بعض المؤرخين العرب المعاصرين للجزائر" نشر في المجلّد 100، سنة 1956، ومقال مفصل بعنوان "النّهضة العربيّة بالجزائر في النّصف الأول من القرن الرّابع عشر للهجرة". وله كتاب حول الأدب الجزائري بعنوان "اللّغة العربيّة والأدب العربي في الجزائر" نُشر في مجلّة الأديب اللّبنانية عام 1954. انظر: مولود عويمر، البحّاثة سعد الدّين بن شنب...لمحات من حياته وآثاره، جريدة البصائر، الصّادرة عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، 2023-07-10، وانظر صفحة فيسبوك "خيال للنشر والتّرجمة " التي تحدّثت بتاريخ 13 مارس 2023 عن كتاب أ.د مولود عويمر حول سعد الدّين بن شنب، والذي خصصه للحديث عن هذا العالم الفذ وإنجازاته باعتباره مؤرخا وباحثا وناقدا وأحد أبرز علماء الأدب المقارن في الجزائر.

اعتمد المؤلّف - في سعيه إلى تقريب الصّورة من القارئ - الأسلوب السّردي من خلال احترام العناصر المكوّنة له، على غرار وحدة الموضوع والتّرابط بين الزّمان والمكان كإطار حقيقي للأحداث، باعتبارها مجموعة من الوقائع المتسلسلة. كما وظّف صاحب المقال، أسلوبي الوصف والنّقد بلجوئه إلى تقديم صور وصفية تتعلّق بموضوع المقال وبالأحداث والأشخاص المعنيّة به، محللا إيّاها بشكل موضوعي إلى جانب اعتماده على الملاحظة والبحث التّاريخي والمقارنة وهو ما عكسه، على سبيل المثال، تأكّده من نسبة نصّ شعري للعالم الفقيه رمز مدينة الجزائر سيّدي عبد الرّحمن الثّعالبي، وكذا مقارنته بين ذات الطّقوس الممارسة في الجزائر وفي الحجاز وبلاد الشّام من حيث سعة الانتشار ومدى تبني النّاس لها وموقف بعض الحكّام منها.

يمكن أن نسجّل أيضا بأنّ صاحب مقال "الوداع يا شهر رمضان" استطاع أن يرصد كلّ الممارسات والطّقوس الخاصّة بتوديع سكّان مدينة الجزائر لشهر رمضان بشكل يجعل القارئ وكأنّه يراها بنفسه مباشرة، وبالتّالي فقد استطاع أن يقدّم لنا وثيقة تاريخيّة تعرّف الأجيال المتعاقبة وكذا البَحَثَة والمهتمين الأجانب بالوجه المشرّف للجزائريين وهم يحترمون هويتهم الدّينية ويحرصون على ممارستها مهما كانت الظّروف.

يكتسي مقال "توديع شهر رمضان" أهمّية خاصّة لارتباطه بمكوّن رئيس في الهويّة الدّينية للمجتمع الجزائري إلّا وهو الإسلام وما ارتبط به من شعائر وعبادات كالصّلاة والصّيام. استعان مؤلّفه البحاثة سعد الدّين بن شنب، بما يحوزه من علم منتوع ومعارف متعدّدة التخصّصات (الدّينيّة، التّاريخيّة والأدبيّة...) للتطرق لمراسم وطرق توديع الجزائريّين لشهر رمضان والتّفصيل في مختلف جوانبها.

ويلاحظ كذلك، أنّ المقال يبعث صورة عن الجزائر المحافظة بحيث اقتصر صاحبه على التّطرق لممارسات الرّجال في توديع شهر رمضان دون التّطرق لمّا تقوم به النّساء من طقوس وأنشطة أواخر الشّهر الفضيل كاشتراكهن في تنظيف المنازل وطلائها بمادّة الجير، والذهاب الجماعي والفردي إلى الحمامات التّقليديّة وتحضير الحلويات وألبسة العيد للأطفال. بالإضافة إلى تنظيف المساجد والاستعداد لصلاة العيد.

إنّ المقال الذي بين أيدينا - وبعد مرور أربع وتسعين (94) سنة من صدوره -، قد يدفع القارئ إلى مقارنة تلك الطّقوس الجميلة بما يجري اليوم من احتفاليّة بذات المناسبة، وبالرّغم من أنّ الجزائريّين يحملون نفس مشاعر التّعظيم لشهر رمضان ويعبّرون عن حزنهم وأسفهم لفراقه، ولكن ليس بالمستوى الذي عرفه الأسلاف خاصّة فيما تعلّق بقراءة الشّعر وآداء الأناشيد.

التّرجمة:

من بين جميع الطّقوس البدعيّة [1] المرتبطة بشهر رمضان هناك: التّراويح. الاحتفالات الفخمة التي تقام يومي الرّابع عشر والسّادس والعشرين منه، حيث تتمّ عمليّة اختتام قراءة القرآن الكريم أو صحيح البخاري، إلّا أنّ توديع شهر الصّيام يعتبر في الجزائر، بكلّ تأكيد، الأقلّ انتشارًا والأقلّ رواجا مقارنة بمدن المشرق، سوريا والحجاز. إذ - وتعظيما لشهر رمضان المبارك - كان الشّعراء هناك، ينظّمون عشيّة انقضاء شهر الصّيام وبعد صلاة العشاء [2] قصائد يقرؤونها أو ينشدونها في الغالب هم بأنفسهم، من أعلى المآذن بينما يتجمّع أصدقاؤهم وعامّة النّاس حول المسجد، وفي محلات الحيّ، وعلى السّطوح المجاورة، مُشكّلين جمهورًا من المهتمّين والمعجبين جدا. لا شيء كان يجلبهم لهذه الأناشيد اللّيليّة، سوى سمعة الشّاعر وحبّهم للقصائد الجميلة حيث كانوا يقضون سهرتهم في التّقييم وتبادل الانطباعات التي قد تسهم في شهرة شاعر ما في اليوم الموالي مباشرة.

إنّ الموضوع المختار لقصائد الوداع قد يوحي بتأويلات لا متناهية. لكن يمكن تعريف هذه القصائد بدقّة عن طريق تشبيهها بأسلوب الألعاب الزّهرية. فالملاحظ أنّها تمتاز غالبا، ببراعة فائقة في النّظم وبأسلوب أنيق مرصّع بالتّشبيهات، تكون تارةً رقيقة، وتارةً أخرى مبالغ فيها أو مبتذلة. فهي باختصار مؤلّفات رائعة للخطباء والشّعراء، مع لمسة غنائيّة جميلة، ونفحة خفيفة من التّصوّف.

لقد خشي السّلطان الوهّابي ابن سعود منذ تولّيه السّلطة أن تنسب هذه البدعة في الطّقوس إلى الدّين الإسلامي نفسه، وعليه وبدافع تشدّده المفرط؛ منع رسميًا إنشاد قصائد الوداع. وتستند مخاوف السّلطان ابن سعود إلى كون هذه العادة في توديع شهر رمضان ارتقت إلى مستوى الطّقوس في مصر، على سبيل المثال. وبحسب شهادة أحمد ضيف التي رواها (Fr.Bonjean/ف. بونجان)[3] نجد أنّ الوداع أصبح جزءًا من العبادة، بحيث أنّ القصائد، عوض أن يُنشدها مؤلّفوها من على المآذن، أصبح يردّدها عامّة المؤمنين داخل الحرم.

لفد ترسّخت في مساجد مدينة الجزائر، عادة توديع شهر رمضان، لدرجة أنّها تُمارس بشغف يُضاهي شغف الالتزام بالشّعائر الدّينيّة. صحيح أنّ الأشخاص المثقّفين لا يزالون يعتبرونها بدعة، وأنّ تبنّوها ضمنيًا ومنحوها بطريقةٍ ما طابع الشّرعية. مع ذلك وتحت تأثير الفكر الوهابيّ الذي تجلّى في حركة المناهضة القويّة للبدع، فإنّ الأجيال الصّاعدة من (الطّلبة)[4]، يجدون صعوبة في تقبّل هذا الابتعاد عن

1- البدع: انحرافات عن الالتزام الصّارم بالدّين الخالص.انظر: الموسوعة الإسلاميّة، المجلّد الأول، ص731.

2- صلاة العشاء: آخر الصّلوات الخمس المفروضة يوميا. انظر: الموسوعة الإسلاميّة، المجلّد الرّابع، ص99.

3- "وها قد انقضى شهر رمضان مجدّدا، وحان وقت تشييعه. توقفت مجموعتنا الصّغيرة عند جدار المسجد. فحفرنا بمسمار كبير ثقبا في الأرض. فاستمعنا من خلاله الواحد تلو الآخر، وقلوبنا تخفق بشدة، أناشيد مراسيم تشييع رمضان". فرانسوا بونجان وأحمد ضيف: منصّور، باريس، 1923، ص31.

4- (المترجم): "الطّلبة" في الجزائر هم حفظة وقرّاء القرآن يقومون بتلاوة كتاب الله في المناسبات السّعيدة كحفلات الزّواج، وكذا الحزينة كالوفيات.

بساطة الإسلام وصرامته، ومن المرجّح جداً أن تختفي، تبعا لذلك، طقوس توديع شهر رمضان في مدينة الجزائر خلال بضع سنوات، تماماً كما اختفت في مكّة وفي المدينة .[1]

وهكذا، عشيّة عيد الفطر[2] وعقب الصّلاة الأخيرة، يُنشد مقرؤو المسجد وهم جالسون على "السّدّة/[3] قصيدةً ذات طابع صوفي بمقام موسيقي كلاسيكي، تليها قصيدة الوداع التي يحفظها جلّهم عن ظهر قلب. وبعد ذلك، يؤدّي أحدهم - وعادةً ما يكون باش-حزّاب[4] (شيخ المقرئين) - فقرة وداع ثانية بأسلوب النّثر المسجوع أو إن شئنا القول، بالشّعر الحرّ.

لا توجد أدلّة تتعلّق بمصدر هذا النّوع من الشّعر وأقدميّته، باستثناء معلومات وردت في مخطوطة محفوظة بمكتبة الإسكوريال، والتي، للأسف، لم يتبقَ منها سوى الورقة الأولى التي تحمل عنوان نصّ وداعيٍّ من تأليف ابن الجوزي، الذي عاش في الفترة ما بين عامي 510هـ/1116م و597هـ/1200م[(5)]؛ وعليه يمكن الاستنتاج أنّ تاريخ ممارسة طقوس توديع شهر رمضان يعود إلى القرن VIم، على الأقلّ.

ونورد هنا نصّ وترجمة الأشعار التي كانت تنشد في مسجد (المسمكة /La Pêcherie) بمدينة الجزائر، حيث تُقام مراسم الوداع بأقصى درجات المهابة والفخامة وتندرج القصيدتان المختارتان ضمن مجموعة من الأناشيد واسعة الانتشار في كامل أرجاء بلاد الجزائر .[(6)]

1- انطلقت حملة محاربة البدع عام 1927، من قِبل مجلّة "الشّهاب" الشّهرية، التي كانت نسختها الأصليّة تصدر في شكل صحيفة منذ عام 1334 هـ / 1924 م بقسنطينة.

2- عيد الفطر، عيد انقضاء شهر الصّيام. الموسوعة الإسلاميّة الجزء الثّاني، صفحة .472.

3- السّدة، منصّة خشبية توضع وسط قاعة الصّلاة. (انظر: ج. مارسيه G.Marçais: دليل الفن الإسلامي، باريس، 1926: الجزء الأول، ص.314؛ الجزء الثّاني، ص.684). الهامش 2. وو. مارسيه w. Marçais، نصوص عربية من طنجة، ص330-331.

4- "باش-حزّاب" يُشير مصطلح "الحزاب" إلى القارئ المُلحق بمسجد ما لقراءة جزء من القرآن الكريم يوميًا (ف. بوسيV.Beaussier: قاموس، الجزائر، 1931، ص.198) و. مارسيه W.Marçais: نصوص عربية من طنجة، ص.159. رقم 2.. يُعيّن الحزابون واحدا من بينهم باشا أو رئيسًا لهم، مهمّته تلاوة أشهر سور القرآن الكريم في المناسبات الرّسمية، وتوجيه المنشدين إلى النّغمة الموسيقيّة المناسبة لتلاوة القصائد. في هذا الاختيار الشّرفي البحت، يُؤخذ في الاعتبار، قبل كل شيء، نقاء صوت الباش-الحزب ومعرفته بأحكام التّجويد، أو فن تلاوة القرآن الكريم. للاطّلاع على التّجويد، انظر الموسوعة الإسلاميّة، الجزء الرّابع، ص.631.

5- ح.ديرينبورغ (H.Derenbougf) مخطوطات الإسكوريال، 1، ص.298، رقم الرّف .456- تمثل الصّفحة 186 من هذه المخطوطة الورقة الأولى من عمل مفقود لابن الجوزي (للاطّلاع على معلومات حول هذا المؤلّف، انظر: موسوعة الإسكوريال، المجلّد 1، ص.394). يحمل الجزء المتبقي من الورقة الوحيدة الباقيّة العنوان التّالي: وداع شهر رمضان المعظم لابن الجوزي ونسختين مختلفتين من أشعار دون أهمّية بالنّسبة لنا. أمّا ظهر الصّفحة فهو مخصص للصيغ التّمهيدية الطّويلة المحبّبة جدا لدى الأدباء العرب. وفي أسفل هذه الصّفحة، يوجد دعاء بالبركة على روح الصّحابي الجليل أبي بكر، الذي يقول ابن الجوزي أنّه من سلالتّه، ممّا يثبت صحة نسبة هذا العمل إلى ابن الجوزي، إذا رفعنا بعض الشّكوك حول محتوى الصّفحة الأولى.

(المترجم): وتعتبر مخطوطات الاسكوريال المحفوظة بدير إسپاني يحمل هذا الاسم من أهمّ وأندر المخطوطات العربيّة في شكل بضع عشرة من الذخيرة التّراثيّة، ولا توجد منها نسخة أخرى في أيّ مكتبة من مكتبات العالم مقل: مخطوطة العلامة ابن خلدون (لباب المحصل) التي كتبها بخطّ يده سنة 752 هـ. انظر فهرس مكتبة الإسكوريال، إصدارات ورقيّة، مركز المخطوطات، مكتبة الإسكندرية سنة النّشر 2022.

6- "مجموعة عن القصائد والأدعية"، طبع في الجزائر، دار قدور رودوسي للنشر. وتوجد طبعات عديدة من هذه القصائد. وتقع قصيدتانا المختارتان في طبعة 1344هـ/1925م. في الصّفحتين 31 و35 على التّوالي.

وممّا ينسب لسيّدي عبد الرّحمن الثّعالبيّ رضي الله عنه (من المتقارب)

تمـــرّ اللّيـــالي بنفســـي ومـــالي ❁ فيـــا قـــوم مـــالي [1] مـــن المـــوت مـــالي
نهـــاري جـــدال وليلـــي انجـــدال ❁ وحـــولي رجـــال علـــى مثـــل حـــالي
يبيعـــون [2] رشـــدا صـــحيحا بغـــيّ ❁ فبؤســـا وسُـــحقا لهـــم مـــن رجـــال
قطعـــت لعمـــري بســـاعات عمـــري ❁ بزيـــد وعمـــرو [3] وقيـــل وقـــال
فيـــا صـــاح مهـــلا أأســـلك [4] جهـــلا؟ ❁ وأَتْبَـــعُ غيّـــا [5] ســـبيل الضّـــلال؟
أَفـي المـوت ريْـب أَيَجْمُـلُ عَيْـبٌ؟ ❁ لمـــن لاح شـــيب لـــه فـــي القـــذال [6]
شـــبابي يفـــرّ وشـــيبي يكّـــر ❁ ومـــا إن تمـــر المنـــون ببـــالي
طريقـــي [7] طويـــل وزادي قليـــل ❁ وحملـــي ثقيـــل فكيـــف احتيـــالي
أرى عظـــم ذنبـــي فيشـــتدّ كربـــي ❁ ولكـــنّ ربـــيّ عظـــيم النّـــوال
فيـــا ذا الجـــلال ويـــا ذا الجمـــال ❁ ويـــا ذا المعـــالي عليـــك اتكـــالي [8]
فكـــن عنـــد ظنّـــي ولا تُسْـــلِمَنّي ❁ ولا تَخْـــذُلَنّي بســـوء فعـــالي
فأنـــت الرّجـــاء ومنّـــا الـــدّعاء ❁ ومنـــك العطـــاء فَهَـــبْ لـــي ســـؤالي

هذه قصيدة من بين القصائد المنسوبة لسيّدي عبد الرّحمن الثّعالبي.[9]

1- جناس تام بتلاعب في الألفاظ، الموسوعة الإسلاميّة الجزء 4، ص.629.

(المترجم): والجناس هو اتفاق أو تقارب لفظين في النّطق واختلافهما في المعنى .

2- يبيعون: قريب من الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16]

3- زيد وعمرو. تذكير بدراسات النّحو. زيد وعمرو هما الاسمان اللّذان يستخدمهمّا النّحاة لضرب الأمثلة. ويشير المؤلّف كذلك إلى أشخاصّ لا داعي لذكر أسمائهم. يتطابق هذا التّعبير تمامًا مع التّعبير الفرنسي: X.... et. Y...

4- يُذكّر هذا الفعل بمفهوم "سلوك المتصوفين"، أو رحلة المتصوف نحو الله. الموسوعة الإسلاميّة.: الجزء الرّابع، صفحة 575.

5- الغيّ في لسان العرب هو: "الضّلالة والخيبة" (انظر: لسان العرب، الجزء التّاسع عشر، ص377). وتُشير العديد من الآيات في القرآن الكريم إلى ضلال الفاسقين. ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ سورة البقرة، الآية 256. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ سورة مريم، الآية 59).

6- يقصد بـ"القذال" الجزء الخلفي من الجمجمة. انظر: لسان العرب: الجزء الرّابع عشر، صفحة 70. ويبدو أن الشّاعر يُشير هنا إلى الجزء بالمعنى الكامل. راجع ل. شيخوL.Cheikho: شعراء عرب مسيحيون، بيروت، 1890، ج 2، ص..486: سلامة بن جندل : (بسيط)

يا خدّ أَمسَى سَوَاد الرّأسِ خَالطَه***شِيبُ القذَالِ اختِلاطَ الصّفو بِالكَدَرِ

7- يقصد بالطّريق عند الصّوفية الطّريق إلى الله، وهي مقسمة إلى مقامات أو مراحل. وبسبب هذه الرّحلة يتحدّث الشّاعر عن الزّاد. انظر: الموسوعة الإسلاميّة: الجزء: الرّابع، ص.715 وما يلها.

8- هذه الكلمة تذكّرنا بنظرية التّوكل الصّوفية. أنظر، المرجع نفسه.

9- حول أبي زيد عبد الرّحمن بن محمّد بن مخلوف الثّعالبي الجزائري، أنظر م. بن شنب: دراسة حول الشّخصيات المذكورة في الإجازة للشيخ عبد القادر الفاسي، باريس، 1907 رقم. 53، ص.103 وما يلها. وتُنسب هذه الأنشودة، دون أدنى مبرر، إلى الوليّ ا لصالح لمدينة جزائر، وهذه النّسبة، وإن كانت غير مؤكّدة، تكفي لتفسير مدى رواجها في أوساط العصاميين. الولي من غير المرجّح أن يكون المتصوّف الكبير هو مؤلّف هذه القصيدة، إذ لم يذكر مؤلّفو سيرته الذاتيّة شيئًا حول مواهبه الشّعرية. وإذا كان آباء الكنيسة المسيحية التّزموا بالعفة حيال ملذات الحياة فأنّه لا يمكن لعالم دين مسلم تقيّ الاعتراف أبدًا بالانغماس في ملذات الدّنيا والوقوع في إثم الذين لعنهم الله في الآيات 224 و225 و226 من سورة البقرة. علاوة على ذلك، فإن مواضيع -الزّهد، والتّأمل، وفكرة الموت- ووجود العديد من المصطلحات التي تنتمي إلى المفردات

وممّا قيل[1] في وداع شهر رمضان الذي أُنْزِل فيه القرآن[2] (من الكامل)

لَهْفي على شهر الصّيام الفاضل ❁ ولّى وأصبح كالخيال الحائل
ولّى سريعا وانقضى فكأنّه ❁ أحلام نوم أو كظلّ زائل
فانظر إلى أيّامه كيف انقضت ❁ في الحين كالبرق السّريع العاجل
شهرٌ به الرّحمن فضّلَنا [3] وكم ❁ فيه لنا من كلّ خير شامل
فَلِفَقْدِهِ ذابَتْ قلوب أولي النّهى ❁ وغَدَتْ تُوَدّعه بدمع هامل
يا غافلا مثلي أَفِقْ من غَفْلَة ❁ ودع الثّواني لا تكن متكاسل [4]
ما هذه الدّنيا بدار إقامة [5] ❁ بل دار زور للأنام وباطّل
فدع الرّكون لها وحاذرها ولا ❁ تغريك[6] يا هذا بسُمٍّ قاتل
أَوَمَا ترى شهر الصّيام مُوَدِّعا ❁ رام الرّحيلَ وما ظفرتَ بطائل
وإذا قطعت بغفلة أوقاتهُ ❁ مَنْ لّي ومَنْ لك أن نراه لقابل
فارجع إلى المولى وعامِلْهُ فما ❁ حقا يضيع لديه أجر العامل
وارْغَبْهُ في التّوفيق منه بتوبة ❁ تأتي بإصلاح لقلب غافل
واسأله بالهادي الحبيب محمّد ❁ وبجاهِهِ تظفر بنهجٍ وسائل
صلّى عليه الله جلّ جلاله ❁ ما حنّ مشتاق لإلف آهل

التّقنية الخاصّة بالصّوفية، تسمح لنا بنسبة القصيدة، إن لم تكن إلى سيدي عبد الرّحمن، فعلى الأقل إلى أحد زملائه أو تلامذته، دون أن نستطيع إضافة أي توضيح آخر. وبما أنّ سكّان الجزائر العاصمة يحافظون على هذا النّصّ الشّعري بعناية شديدة يمكن الاستنتاج، على أقصى تقدير، أنّه محلي المصدر.

1- هذا المخطوط يوحي بأنّ مؤلّف هذه المقتطفات، كان يمتلك، أو يعرف على الأقل، العديد من قصائد وداع رمضان.

2- (المترجم): إشارة إلى قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبّرُوا اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة البقرة، الآية 185

3- فضّلنا عن باقي الأمم "يشير إلى اختيار المولى عزّ وجل لبعض الأقوام وتفضيلهم بين خلقه، وهو الاختيار الذي ورد كثيرًا في القرآن. انظر على وجه الخصوص قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية 47). وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبرّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]

4- الأصح نحويا: " متكاسلاً " وعليه، لا مبرر لورود الكلمة كما وردت في القافية وهو ما يعتبر خطأ جسيما .

5- إقامة. قارن هذا التّعبير بقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ سورة فاطر، الآية 35. أي: هو الذي أنزلنا بفضله وكرمه الدّار التي سنقيم بها بشكل أبدي ولا انتقال لنا منها.

6- أنّها تذكير آخر، في هذه القصيدة المليئة بالاقتباسات، بآيات قرآنية. ومن المناسب الرّجوع إلى النّصّ: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكمُ اتّخذْتُمْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: 35]. انظر أيضًا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتّخذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهمّ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمهمّ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 51]. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 130]

الوداع يا شهر رمضان[1]

الوداع يا شهر رمضان.

الوداع يا شهر الإيمان.

الوداع يا شهر الإحسان.

الوداع يا شهر العبادة.

الوداع يا شهر الإفادة.

الوداع يا شهر التّوبة والإنابة.

الوداع يا شهر الصّيام.

الوداع يا شهرا كان للمتّقين أُنْسًا.

الوداع يا شهرا كان للعاصين حَبْسا.

الوداع يا شهر الخيرات.

الوداع يا شهر البركات.

الوداع يا شهر القرآن.[2]

الوداع يا شهر التّراويح [3] والتّسابيح وتلاوة القرآن.

الوداع يا شهر العتق من النّيران.

اللّهم اجعلنا في هذا الشّهر العظيم من المغفورين لهم، ومن العدد العتقاء من المأثم، آمين آمين آمين.[4]

سعد الدّين بن شنب

1- عثرت على هذا النّصّ في مخطوطة حزابية. وقد فحصتُ عدّة نسخ أخرى ولم أجد أي اختلاف بينها.

2- أي: الشّهر الذي نزل فيه القرآن. انظر أعلاه.

3- صلاة التّراويح: هي صلاة تطوّعية تُؤدّى بعد صلاة العشاء طيلة الأيّام الستّة والعشرين الأولى من شهر رمضان. تتكوّن في المذهب الحنفي، من عشر تسليمات بعشرين ركعة، يفصل بين كل أربع ركعات بوقفة. أمّا في المذهب المالكي، فعدد ركعاتها يقدر بستّ وثلاثين ركعة. انظر الموسوعة الإسلاميّة: المجلّد الرّابع، صفحة 698.

4- (المترجم): هكذا في النّصّ الأصلي باللّغة العربيّة.

الملحق15: توديع شهر رمضان. لـ: سعد الدّين بن شنب

L'ADIEU
AU MOIS DE RAMAḌĀN

De toutes les innovations rituelles, *bida'* (1), dont est chargé le mois de Ramaḍān : tarāwiḥ, cérémonies pompeuses du quatorzième et du vingt-sixième jour, fin de la lecture du Qorān ou du Ṣaḥiḥ d'al-Buḫārī, l'adieu au mois du jeûne est certainement le moins répandu et le moins connu. Dans les villes d'Orient, en Syrie et dans le Ḥijāz, les poètes composaient des qaṣā'id en l'honneur du Ramaḍān, qu'ils récitaient ou le plus souvent chantaient eux-mêmes la veille de la fête de la rupture du jeûne, après la ṣalāt al-'išā (2), du haut des minarets, tandis que leurs amis et le peuple formaient auprès de la mosquée, dans les boutiques du quartier et sur les terrasses avoisinantes, un auditoire plein d'attention et d'admiration. Rien ne les attirait à ces récitations nocturnes que la renommée du poète et l'amour des beaux vers. On passait ainsi la soirée à se communiquer ses impressions et à porter des jugements qui, le lendemain, pouvaient consacrer un poète.

(1) Bida', dérogations à la rigoureuse observance de la religion pure. Cf. *Encycl. Isl.*, I, p. 731.

(2) Ṣalāt al-'išā, la dernière des cinq prières quotidiennes. Cf. *Encycl. Isl.* IV, p. 99.

Le thème peut prêter à des variations infinies. On définirait avec exactitude ces poèmes d'adieu en les comparant aux envois des Jeux Floraux : on constate, le plus souvent, une facture parfaite, un style élégant, fleuri de comparaisons, tantôt gracieuses, tantôt outrées ou banales. En somme, de bonnes compositions de rhétoriqueurs et de rimailleurs avec toutefois, par endroits, une belle envolée lyrique, un souffle léger de mysticisme.

Depuis son arrivée au pouvoir, le sultan wahhābite Ibn Sa'ūd, craignant que cette innovation dans les rites fût incorporée à la religion même, a formellement interdit, dans son zèle de puriste, la récitation des poèmes d'adieu. Ses craintes ont pu avoir leur fondement dans ce fait qu'en Egypte, par exemple, cette coutume de l'adieu a été agrégée au rite. En ce pays, en effet, si nous en croyons le témoignage de Ahmed Deif (romancé, il est vrai, par Fr. Bonjean) (1), nous constatons que l'adieu fait déjà partie du culte, car les poèmes, au lieu d'être chantés par leurs auteurs sur les minarets, sont entonnés par la foule des fidèles, à l'intérieur du ḥaram.

Dans les mosquées d'Alger, la coutume de réciter l'adieu au mois de Ramaḍān est si forte qu'elle est respectée avec presque le même empressement que les cérémonies canoniques. Il est vrai que les gens cultivés la considèrent toujours comme une *bid'a'*, mais ils l'ont tacitement adoptée et lui ont conféré, en quelque sorte, le droit de cité. Cependant les générations montantes de ṭolba, sous l'in-

(1) « Et voici qu'une fois de plus *Ramadan* était mort, que l'heure « de ses obsèques avait sonné. Notre petite troupe s'arrêta contre « le mur de la mosquée. Nous creusâmes un trou dans la terre « avec un grand clou. L'un après l'autre nous y collâmes notre oreille. « Tous nous entendîmes, le cœur battant, le chant des funérailles de « *Ramadan*. » François Bonjean et Ahmed Deif : *Mansour*, Paris, 1923, page 31.

fluence des idées wahhābites, influence qui s'est déjà révélée par un violent mouvement anti-maraboutique, supportent malaisément cette entorse à la simplicité et au rigorisme de l'islām et il est fort probable que, d'ici quelques années, l'adieu au mois de Ramaḍān aura disparu à Alger comme il a disparu à la Mekke et à Médine (1).

La veille donc du 'Id al-Fiṭr (2), après la dernière prière, sur la *sedda* (3), les chantres de la mosquée psalmodient d'abord, sur un mode musical classique, une qasida d'inspiration ṣūfi, puis le poème de l'adieu que la plupart d'entre eux savent par cœur. Après quoi, l'un d'eux, généralement le bāš-ḥazzāb (4), chante un second adieu en prose rythmée ou, si l'on préfère, en vers libres.

Sur l'origine et l'ancienneté de ce genre de poésie, il n'existe aucun témoignage, exception faite d'un renseignement que nous fournit un manuscrit de l'Escurial, dont il ne reste, malheureusement, que le premier feuillet portant le titre d'un adieu composé par Ibn al-Jawzī, lequel vécut de 510/1116 à 597/1200 (5). Il est, par conséquent, permis de faire remonter la coutume d'adresser des adieux au mois de Ramaḍān au moins au VI[e] siècle de l'hégire.

(1) La campagne anti-maraboutique a été déclanchée en 1927, par la revue mensuelle *Aš-Šihāb*, qui paraît à Constantine depuis 1343/1924 (primitivement sous la forme d'un journal).

(2) 'Id al-Fiṭr, fête de la rupture du jeûne. Cf. *Encycl. Isl.*, II, p. 472.

(3) *Sedda*, estrade de bois placée au centre de la salle des prières. Cf. G. Marçais : *Manuel d'Art Musulman*, Paris, 1926 : I, p. 314 ; II, p 684, note 2. W. Marçais, *Textes arabes de Tanger*, pp 330-331

(4) Bāš-Ḥazzāb. Le mot ḥazzāb désigne le lecteur attaché à une mosquée pour la lecture quotidienne d'une partie du Koran (V. Beaussier : *Diction.*, Alger, 1931, p. 198) et W. Marçais : *Textes arabes de Tanger*, p. 159, n° 2. Les *ḥazzābin* élisent l'un d'eux bāš ou chef, lequel a pour fonction de réciter, aux solennités, les sūrates les plus célèbres du Qorān et d'indiquer aux chantres sur quel mode musical ils doivent réciter les Qaṣā'id. Dans cette élection purement honorifique il est tenu compte surtout de la pureté de la voix du bāš-ḥazzāb et de sa science du tajwīd ou art de la récitation du Koran. (Sur le tajwīd, cf. *Encycl. Isl.*, IV, p. 631.

(5) H. Derenbourg : *Les Manuscrits de l'Escurial*, I, p. 298, cote 456. Le folio 186 de ce manuscrit représente le premier feuillet d'un

Nous donnons le texte et la traduction des poèmes qui sont chantés dans la Mosquée de la Pêcherie d'Alger, où la cérémonie de l'adieu revêt le plus de solennité et de faste. Les deux poésies se trouvent dans un recueil de cantiques extrêmement répandu dans toute l'Algérie (1).

œuvre perdue d'Ibn al Jawzī (sur cet auteur, cf. : *Encycl. Isl.*, II, p. 394). Le recto de l'unique feuillet conservé porte le titre :

وداع شهر رمضان المعظم لابن الجوزي

« Adieu au mois vénérable de Ramaḍān, composé par Ibn al-Jawzī et deux variantes d'un distique sans intérêt pour nous. Le verso est consacré aux longues formules limitaires si chères aux écrivains arabes. Au bas de ce feuillet, un appel des bénédictions divines sur Abū Bakr, dont Ibn al-Jawzī se prétendait le descendant, prouverait la légitimité de l'attribution de cette œuvre à Ibn al-Jawzī, si l'on élevait quelque doute sur la teneur du recto.

(1) مجموع القصائد والادعية « Recueil des cantiques et des invocations », Alger, Kaddour Roudoci, éditeur. Les éditions sont très nombreuses. Nos deux poésies se trouvent dans l'édition de 1344/1925, la dernière, respectivement aux pages 31 et 35.

ومما يُنْسَبُ لسيّدى عبد الرحمن الثعالبيّ رضى الله عنه

(من المتقارب)

تَمُرُّ اللَّيَالِي بِنَفْسِي وَمَالِي * فَيَا قَوْمِ مَالِي (1) عَنِ المَوْتِ سَالِي
نَهَارِي جِدَالٌ وَلَيْلِي انْجِدَالٌ * وَحَوْلِي رِجَالٌ عَلَى مِثْلِ حَالِي
يَبِيعُونَ (2) رُشْداً صَحِيحاً بِغَيِّ * فَبُؤْساً وَسُحْقاً لَهُمْ مِنْ رِجَالِ
قَطَعْتُ لِعَمْرٍو بِسَاعَاتِ عُمْرِي * بِزَيْدٍ وَعَمْرٍو (3) وَقِيلٍ وَقَالِ
فَيَا صَاحِ مَهْلاً أَلُمْلُكَ (4) جَهْلاً * وَأَتْبَعُ غَيّاً (5) سَبِيلَ الضَّلاَلِ
أَفِي المَوْتِ رَيْبٌ أَيَجْمُلُ رَيْبٌ * لِمَنْ لاَحَ شَيْبٌ لَهُ فِي الْقَذَالِ (6)

(1) Tajnīs simple ou paronomase. *Cf. Encycl. Isl.*, IV, p. 629.

(2) يبيعون Rapprochez, pour le sens, du verset suivant :
اولائك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين
« Ce sont eux qui ont échangé l'erreur contre le droit chemin, mais « leur trafic ne leur a pas profité et ils ne sont pas guidés ». *Qor.*, II, v. 15).

(3) Zayd et 'Amr. Réminiscence d'études de grammaire. Zayd et 'Amr sont les noms que les grammairiens emploient dans les exemples qu'ils forgent. L'auteur désigne également des gens dont il est inutile de donner le nom. Cette expression correspond tout à fait au français : X... et Y...

(4) Ce verbe rappelle la notion du sūlūk des ṣūfīs ou progrès du mystique dans la Voie vers Dieu. Cf. *Encycl. Isl.* : IV, p. 575.

(5) Le *Lisān* donne cette définition : الغيّ الضلالة والخيبة « L'égarement est la perdition et la déception ». *Lis.*, XIX, p. 377. De nombreux passages du Qorān évoquent cet égarement de l'impie. قد تبيّن الرّشد من الغيّ « La voie droite a été distinguée de la voie fausse » ; *Qor.*, ch. II, v. 257.
فسوف يلقون غيّا : Ils ne trouveront que la perdition ». *Ibid.*, ch. XIX, v. 60.

(6) القذال désigne l'ensemble de la partie postérieure du crâne.

شَبَابِي يَعِزُّ وَشَيْبِي يَكُرُّ * وَمَا إِنْ تَمُرُّ المَنُونُ بِبَالِي
طَرِيقِي (1) طَوِيلٌ وَزَادِي قَلِيلٌ * وَحِمْلِي ثَقِيلٌ فَكَيْفَ احْتِيَالِي
أَرَى عُظْمَ ذَنْبِي فَيَشْتَدُّ كَرْبِي * وَلَكِنَّ رَبِّي عَظِيمُ النَّوَالِ
فَيَا ذَا الجَلاَلِ وَيَا ذَا الجَمَالِ * وَيَا ذَا المَعَالِي عَلَيْكَ اتِّكَالِي (2)
فَكُنْ عِنْدَ ظَنِّي وَلاَ تُسْلِمَنِّي * وَلاَ تَخْذُلَنِّي بِسُوءِ فِعَالِي
فَأَنْتَ الرَّجَاءُ وَمِنَّا الدُّعَاءُ * وَمِنْكَ العَطَاءُ فَهَبْ لِي سُؤَالِي

Poème choisi parmi ceux qui sont attribués à Sidi 'Abd-ar-Rahmān aṭ-'Ṭa'alibi (3)
(Mutaqārib)

« Les nuits emportent mon âme et mes biens, mais,
« ô peuple, qu'ai-je donc à être oublieux de la mort ?
« Mon jour est une lutte, ma nuit, je la passe vautré

Cf. *Lisān al-'Arab* : XIV, p. 70. Ici le poète semble prendre la partie pour le tout. Cf. aussi L. Cheikho : *Poètes Arabes chrétiens*, Beyrouth, 1890, t II, p. 486 : Salama ben Jandal : (بسيط)
يَاخُدَّ أَمْسَى سَوَادُ الرَّأْسِ خَلْطَهُ * شَيْبُ الْقَذَالِ اخْتِلاَطَ الصَّعْوِ بِالْكَدَرِ
(Basīṭ) « O joue de l'aimée, la canitie de l'occiput se trouve mêlée « à la noirceur de la tête, tel le mélange de la pureté et de la souil-« lure. »

(1) Ṭarīq désigne, chez les ṣūfīs, la voie vers Dieu, divisée en maqāmāt ou étapes. C'est à cause de ce voyage que le poète parle de viatique. Cf. *Encycl. Isl.* : IV, p. 715 et sq.

(2) Ce mot rappelle la théorie mystique du tawakkul. Cf. : *Id.*, *ibid.*

(3) Sur Abū Zayd 'Abd ar-Raḥmān ben Muḥammad ben Maḫlūf aṭ-Ṭa'alibī al-Jaza'irī, cf. M. Bencheneb : *Etude sur les personnages mentionnés dans l'Idjaza du Cheikh Abd al-Qâdir al-Fâsi*, Paris, 1907 n° 53, p. 103 et sq. Ce cantique est attribué sans raison aucune, en apparence, au santon d'Alger et cette paternité, bien qu'incertaine, suffit à expliquer sa vogue chez les Algérois. Il est peu probable que le grand mystique soit l'auteur de ce poème, car ses biographes ne

« sur ma couche et, autour de moi, il y a des hommes dont
« l'état est semblable au mien.
« Ils échangent un chemin sûr contre l'erreur. Malheur
« à ces hommes ! Qu'ils périssent !
« J'ai passé, sur ma vie ! les instants de mon existence
« à écouter Zayd et 'Amr et les racontars oiseux.
« Ami, tout doux ! Puis-je suivre le « droit » chemin
« avec mon ignorance et suivrai-je, par égarement, la
« voie de perdition ?
« Sur la mort y a-t-il un doute ? Le défaut peut-il
« devenir qualité chez celui dont les cheveux blanchissent
« sur l'occiput ?
« Ma jeunesse s'enfuit et mes cheveux blancs revien-
« nent à la charge et la mort ne traverse pas mon esprit.
« Ma route est longue, mon viatique léger et mon
« fardeau bien lourd. Quelle ruse employer ?
« Je vois l'énormité de mon péché et mon affliction
« s'accroît, mais mon Dieu est grand dans ses faveurs.
« O Dieu de Majesté ! O Dieu de Beauté ! O Dieu de
« Grandeur ! C'est en Toi que je place ma confiance.
« Sois présent à mes pensées. Ne me trahis pas, ne
« m'abandonne pas avec mes mauvaises actions.
« Car Tu es l'Espoir. A nous d'implorer, à Toi d'être
« généreux : exauce mes vœux. »

soufflent mot de ses dons poétiques. Toutefois, il ne faut point oublier (les pères de l'Eglise chrétienne ont eu les mêmes pudeurs) qu'un pieux théologien musulman n'avoue jamais qu'il se livre à des divertissements profanes et qu'il tombe dans le péché de ceux que Dieu maudit aux versets 224, 5, 6 de la XXVI^e sūrate. Aussi bien, le thème : détachement du monde, méditations, idée de la mort et la présence de nombreux termes appartenant au vocabulaire technique des ṣūfīs permettent-ils d'attribuer le poème, sinon à Sidi 'Abd ar-Raḥmān, du moins à l'un de ses confrères ou de ses condisciples, sans que nous puissions ajouter une autre précision. Tout au plus, et du fait que ce poème est jalousement conservé par les Algérois, peut-on inférer qu'il est d'origine locale.

ومما قيل (1) في وداع شهر رمضان الذى أُنزِلَ فيه القرءان

(من الكامل)

لِهْفِي عَلَى شَهْرِ الصِّيَامِ الفَاضِلِ * وَلِّى وَأَصْبَحَ كَالخَيَالِ الخَائِلِ
وَلِّى سَرِيعاً وَانْقَضَى فَكَأَنَّهُ * أَحْلاَمُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلِ
فَانْظُرْ إِلَى إِيَامِهِ كَيْفَ انْقَضَتْ * فِي الحِينِ كَالبَرْقِ السَّرِيعِ العَاجِلِ
شَهْرٌ بِهِ الرَّحْمَنُ فَضَّلَنَا (2) وَكَمْ * فِيهِ لَنَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ شَامِلِ
فَلِقَفْدِهِ ذَابَتْ قُلُوبُ أُولِي النُّهَى * وَغَدَتْ تُرَوِّعُهُ بِدَمْعٍ هَامِلِ
يَا غَافِلاً مِثْلِي أَبِنْ مِنْ غَفْلَتِهْ * وَدَعِ التَّوَانِي لاَ تَكُنْ مُتَكَاسِلِ (3)
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ إِقَامَةٍ (4) * بَلْ دَارُ زُورٍ لِلأَنَامِ وَبَاطِلِ

(1) Cette suscription laisserait entendre que l'auteur de l'anthologie possédait ou du moins connaissait plusieurs poèmes d'adieu.

(2) فضّلنا : nous a préférés aux autres peuples. Il s'agit du choix que Dieu établit parmi ses créatures et dont il est si souvent fait mention dans le Qorān. Cf. en particulier : .....يابنى اسرآئيل فضلتكم على العالمين « O enfants d'Israël ...., je vous ai regardés comme supérieurs aux mondes ». (*Qor.*, ch. II, v. 44 et 116). Et aussi : وفضلنهم على كثير ا ممن خلقنا تفضيلا « Et nous leur (les hommes) « avons donné la préférence sur un grand nombre d'êtres que nous « avions créés ». (*Qor.*, ch. XVII, v. 72).

(3) Grammaticalement il faudrait متكاسلا . La présence de ce mot à la rime ne saurait constituer une excuse à cette grave faute.

(4) إقامة. Rapprochez cette expression des passages suivants : الذي أحلنا دار المقامة : « C'est Lui (Dieu) qui nous a permis « de nous arrêter dans la maison du séjour éternel ». (*Qor.* ch. XXXV, v. 32).

بِدَعِ الرُّكُونَ لَهَا وَحَاذِرْهَا وَلاَ * تَغُرُّورُكَ (1) يَا هَذَا بِسِّمِ قَاتِلِ
أَوَمَا تَرَى شَهْرَ الصِّيَامِ مُوَدِّعاً * رَامَ الرَّحِيلَ وَمَا ظَفِرْتَ بِطَائِلِ
وَإِذَا فَطَنْتَ بِغَفْلَةٍ أَوْفَاتُهُ * مَنْ لِي وَمَنْ لَكَ أَنْ نَرَاهُ لِقَابِلِ
فَٱرْجِعْ إِلَى الْمَوْلَى وَعَامِلْهُ وَمَا * حَفَّا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ الْعَامِلِ
وَٱرْغَبْهُ فِي ٱلتَّوْفِيقِ مِنْهُ بِتَوْبَةٍ * تَأْتِي بِإِصْلاَحٍ لِقَلْبٍ غَافِلِ
وَٱسْئَلْهُ بِالْهَادِي الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ * وَبِجَاهِهِ تَظْفَرْ بِنَهْجِ وَسَائِلِ
صَلَّى عَلَيْهِ ٱللَّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ * مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ لِإِلْفٍ آهِلِ

Poème choisi parmi ceux qui ont pour sujet l'adieu au mois de Ramaḍān, pendant lequel fut révélé le Qorān (2).
(*Kāmil*)

« Je me lamente sur l'excellent mois du jeûne, parce « qu'il s'en est allé comme un fantôme qui s'évanouit.

« Il s'en est allé en hâte, il s'est achevé comme s'il « fût une vision de songe ou une ombre qui se retire.

« Vois comme ses jours se sont écoulés en un instant, « tel l'éclair prompt et rapide.

(1) C'est encore, dans ce poème qui fourmille d'iqtibās, un rappel de versets coraniques.

Il convient de se reporter aux textes :

ذلكم بأنكم اتخذتم آيات ٱلله هزؤا وغرّتكم الحيوة ٱلدنيا

« Et il en est ainsi, parce que vous avez pris les enseignements de « Dieu pour un objet de raillerie et que la vie de ce monde vous a « induits dans l'erreur ». *Qor.*, ch. XLV, v. 34).

Voir aussi : وغرّتهم الحيوة ٱلدنيا : « La vie de ce monde « les a induits dans l'erreur ». (*Qor.* ch. VI, v. 69 et 130).

(2) Sur la révélation du Qoran pendant le mois de Ramaḍān et les termes de ce titre, cf. *Qor.* ch. II, v. 181 et ch. XCVII, v. 1-3.

« Par ce mois, le Tout-Clément nous a marqué sa « préférence. Que de biens de toutes sortes ne porte-t-il « pas pour nous ?

« De son absence les cœurs des gens sages ont fondu « et l'on s'apprête à lui faire des adieux, en versant des « larmes abondantes.

« O toi qui es aussi distrait que moi, sors de ta distrac- « tion ; rejette les procédés dilatoires ; ne sois pas pares- « seux.

« Ce monde-ci n'est pas une demeure de séjour ; bien « au contraire, il est, pour les humains, une demeure « de mensonge et d'erreur.

« Ne t'en remets pas à elle, méfie-t-en de crainte qu'il « t'induise dans l'erreur, en t'inoculant son venin mortel.

« Ne vois-tu point le mois du jeûne faire ses adieux ? « Il veut s'en aller et tu n'en as gagné aucun avantage.

« Et si tu as passé les jours de ce mois dans la distrac- « tion, qui nous dit, à moi comme à toi, que nous le « reverrons l'année prochaine ?

« Reviens donc au Seigneur et agis envers Lui comme « tu le dois, car il est vrai qu'en Dieu la récompense de « l'homme pratiquant n'est jamais perdue.

« Implore de Lui qu'il t'assiste par une résipiscence « propre à rendre meilleur un cœur oublieux.

« Adresse-lui tes prières au nom du Guide, de l'Ami « Muḥammad, dont la considération te fera gagner la « voie des intercessions.

« Puisse Dieu — que Sa Grandeur soit exaltée — com- « bler Muḥammad de bénédictions tant qu'un homme « désirera avec ardeur faire partie de la famille du « Prophète. »

وَداع شهر رمضان (1)

الوداع يا شهر رمضان.
الوداع يا شهر ٱلايمان.
الوداع يا شهر ٱلاحسان.
الوداع يا شهر العبادة.
الوداع يا شهر ٱلإبادة.
الوداع يا شهر التوبة وٱلإنابة.
الوداع يا شهر الصيام.
الوداع يا شهر كان للمتقين أنسا.
الوداع ياشهر كان للعاصين حبسا.
الوداع يا شهر الخيرات.
الوداع يا شهر البركات.
الوداع يا شهر الغفران.
الوداع يا شهر ٱلتراويح وٱلتسابيح وتلاوة ٱلفرقان.
الوداع يا شهر العتق من ٱلنيران.
ٱللهم ٱجعلنا في هذا الشهر العظيم من المغفورين لهم ومن ٱلعدد العتقاء من المآثم. أمين أمين أمين.

Adieu au mois de Ramaḍān

Adieu, mois de Ramaḍān !
Adieu, mois de la foi !
Adieu, mois du bienfait !
Adieu, mois de la dévotion !

(1) J'ai relevé ce texte sur un manuscrit de ḥazzāb. J'ai eu entre les mains différentes copies : aucune d'elles ne présente de variante.

Adieu, mois de l'instruction !
Adieu, mois de la pénitence et du repentir !
Adieu, mois du jeûne !
Adieu, mois qui fus une compagnie pour ceux qui craignent Dieu !
Adieu, mois qui fus une prison pour ceux qui désobéissent à Dieu !
Adieu, mois des bonnes œuvres !
Adieu, mois des bénédictions !
Adieu, mois du Qorān ! (1)
Adieu, mois des prières surérogatoires (2), des louanges de Dieu, de la récitation du Qorān !
Adieu, mois où l'on échappe aux flammes !
O mon Dieu ! place-nous, pendant ce mois important, parmi ceux à qui Tu pardonnes, au nombre de ceux qui échappent aux péchés.
Ainsi soit-il ! Ainsi soit-il ! Ainsi soit-il !

Saâdeddine BENCHENEB.

(1) C'est-à-dire : mois pendant lequel fut faite la révélation du Qorān. Cf. *supra*.

(2) *Tarāwīḥ*, prières surérogatoires faites, pendant les vingt-six premiers jours de Ramaḍān, après la ṣalāt al-'išā. Elles se composent dans le rite ḥanéfi, de dix taslimāt qui contiennent vingt rak'a, dont chaque groupe de quatre est séparé du suivant par un arrêt. Dans le rite maléki, le nombre des rak'a est de trente-six. Cf. *Encycl. Isl.* : IV. p. 696.